مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرَّابِع والخَمسُون

سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرَّابِع والخَمسُون

سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15

نُخبةٌ مِنْ عُلماء مَجمَعِ القُرآنِ الكريمِ بِالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الخَامِسُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾

[الزخرف: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القرينُ يزيدُ العاشي ضَعْفًا؛ فيصدُّه عن الحقِّ، ويُزيّن له الهدى

لَمّا بيَّن تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّ مَن تعامَى عن ذِكْر اللّه؛ سلَّطَ اللّه عليه شيطانًا يُلازمُه، فهو يُزيِّنُ له العمَى، ويُخيِّلُ إليه أنَّه على عين الهُدى والحقِّ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أجلَّ ما يفعلُه القرينُ الشَّيطانُ في قرينِه العاشي عن ذِكْرِ اللّه، وهو صدُّه عن السَّبيلِ الحقِّ، الذي لا سبيلَ سواهُ، وتزيينُ القبيح له جميلًا، وتزيينُ سوءِ العمل له حسَنًا، فيحسبُ العاشي أنَّه على هُدًى.

المَعنى الإجماليُّ:

صدَّتْهُم الدُّنيا عن الرَّحمن إلى الشَّيطان، فزادَهُم الشَّيطانُ صدًّا عنه

يقولُ تعالى: إنَّ هؤلاءِ العاشين عن ذِكْرِ الملِك ذي الجلال والإكرام الكثيرينَ يسيطرُ شياطينُهم عليهم سيطرةً قويَّةً شديدةً، إلى حدِّ أنَّهم يُقبِّحون لهم الحقَّ، مِن الإيمان والقرآنِ والرَّسول وغير ذلك، ويُعظِّمون لهم الباطلَ، مِن الكفرِ والمعاصي وغيرِ ذلك، فينقادون لهم انقيادًا تامًّا، وهم يَفْهَمون أنَّهُم على حقٍّ وصوابٍ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سياقُ الآيةِ يعملُ على إبراز شدَّة عداوة الشَّيطان، وخطرِ العشا عن الذِّكْرِ

دلالةُ الواو في: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: يحتمل أن تكون واو الحالِ، والجملةُ الَّتي بعدَ الواوِ مُتفرِّعةٌ مِن جملة: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾، فهيَ حالٌ مِن الضَّمير في هذه الجملةِ، أي: مقارنة صدٍّ عن السَّبيلِ[1]، ونظْمُ هذا المعنى الَّذي يُصرِّحُ بعملِ الشَّيطانِ؛ إذ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 211.

ليس في الآية السّابقة تصريحٌ بعملٍ له حالًا؛ إبلاغًا في التَّرهيبِ مِن الإعراض عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ، والتَّنفيرِ منه، فإنَّه سببُ الاقترانِ بالشَّيطانِ الصّادِّ عن سبيلِ اللّه.

ويحتمل أن تكون الواو عاطفة، عطفت قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على ما قبلها، من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[1].

سِرُّ التَّوكيد بـ(إنّ) واللّام:

ليس للصّادِّ عن آيـات الـلـه إلّا سوء المصير

أكَّد القرآنُ مضمونَ الجملة: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بـ(إنَّ) واللّام المزحلقة؛ مواجَهَةً لِما يتقرَّرُ في نفوسِ أهل الكفر، أو نفْسِ أغلبِهِم مِن أنَّ الموسَّعَ عليه هو المُهتدِي الحقيقيُّ، وأهلُ ذِكْرِ الرَّحْمنِ مُضَيَّقٌ عليهم، وأهلُ العَشا عنه موسَّعٌ عليهم[2].

علَّة التَّعبير بالصَّدِّ:

الـصَّـدُّ صـورةٌ لـغـايـةِ تـمكُّـنِ الشَّـيـاطـيـنَ مِـن الـعـاشِـيـنَ عن الذِّكْرِ

أخبر القرآنُ عن الشَّياطين بالصَّدِّ عن السَّبيل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذا يُنْظَرُ فيه مِن جهتيْن:

الأولى: التَّصريحُ بهذا المعنى المفهوم ضِمْنًا مِن جوابِ الشَّرط في الآية السّابقة: ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾، فهذا يُفْهِمُ الإضلالَ، ولكنَّ المقامَ يقتضِي النَّصَّ على هذا؛ لأنَّه أبشعُ ما يُمارسه الشَّيطانُ، وهو الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه وصراطِه المستقيم، وليست الكنايةُ كالتَّصريحِ، وليس الَّذي يُفْهَم ضِمْنًا كالَّذي يُفْهَم نَصًّا.

والثّانية: أنَّ أهل الضَّلالة الَّذين في قبضة الشَّياطين غيرُ مُتمرِّدينَ عليهم، وغيرُ مُستشْرِفِينَ للسَّبيل الَّذي هو سبيلُ اللّه، فلماذا الصَّدُّ والدَّفْعُ؟ وهي كلمة شائعة في القرآن، وغالبًا ما تكونُ مفيدةً معنى الدَّفْع الَّذي فيه حِدَّةٌ وقوَّةٌ وحمِيَّةٌ، والجوابُ أنَّ هذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 429.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 28.

الصَّدَّ ينظُر إلى ما استكَنَّ في الفِطرة الَّتي فطَر اللّهُ النّاسَ عليها، مِن النُّزوعِ الدّائم إلى الَّذي فطَرَها، وأنَّ الفِطرةَ ذاتُ حنينٍ إلى الَّذي فطَرَها، وأنَّ كلَّ شيءٍ فطَرَه اللّه يُسبِّحُ بحمده، وأنَّ الشَّياطين يعلمون ذلكَ؛ ولهذا كانوا جادِّينَ في الدَّفْعِ والصَّدِّ، حتَّى لا تكونَ هناك نهزةٌ لهؤلاءِ المساكينِ الَّذين في أيديهم، ينظرون فيها إلى أنفسهم، فيجدون اللّهَ في هذه الأنفُسِ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: 21]، وفي التَّعبير بالصَّدِّ أيضًا: إشارةٌ إلى حميَّة الشَّياطينِ وحميَّةِ عداوتهم لهؤلاء الَّذين صاروا في قبضتهم، فهُم يصدّونهم بكلِّ ما في نفوسهم مِن عداوةٍ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ﴾:

الشَّيطانُ عدوٌّ مبينٌ للإنسان، لا يفتر عن إضلاله وإغوائه

نظَم القرآنُ معنى صدِّ الشَّياطينِ فعلًا مضارعًا في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الفعل يحدثُ، ويتجدَّدُ مِن الشَّياطينِ؛ سعيًا إلى كمال طمس بصائرهم بسَدِّ ما تبقَّى مِن منافذ الفطرة الَّتي تدعوهم بين الحين والآخَر إلى الرُّجوعِ إلى الحقِّ، قال أبو السُّعود: "وصيغةُ المضارعِ في الأفعالِ الأربعةِ؛ للدَّلالة على الاستمرارِ التَّجدُّدِيِّ؛ لقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ فإنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وإنْ كانت ابتدائيَّةً داخلةً على الجملةِ الشَّرطيَّة، لكنَّها تقتضِي حتمًا أنْ تكونَ غايةً لأمرٍ ممتدٍّ"[2]، والأفعالُ الأربعةُ هيَ: ﴿يَعۡشُ﴾ - ﴿نُقَيِّضۡ﴾ - (يصدون) - ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾.

معنى: ﴿عَنِ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

صدُّ الشَّياطين قويٌّ تامٌّ كاملٌ

الفعلُ: (صدَّ) يتعدَّى إلى مفعولٍ بنفْسِه ومفعولٍ بواسطةِ الحرفِ: ﴿عَنِ﴾ الَّذي معناه المُجاوَزةُ؛ لأنَّ المُتعلِّقَ بالفعل متروكٌ، وهو سبيلُ اللّه، والمعنى: أنَّ الشَّياطينَ يعملونَ على أن يتجاوزَ هؤلاء

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 364 - 365.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87 - 88، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 12/ 355.

العاشون عن ذِكْر الرَّحمنِ هذا السَّبيلَ، وهم قد تجاوزوه فِعْلًا؛ فكان الحرفُ: ﴿عَنِ﴾ فيه مزيدُ بيانٍ للصَّدِّ عن هذا السَّبيلِ الَّذي يُحرِّكُ أهل الكفر بين الحين والآخر؛ للنَّظَر فيه، ومزيدُ بيانٍ لشدَّة عداوة الشَّياطين، كما في الفعلِ الَّذي تعدَّى إلى مفعولِه الثَّاني بواسطتِه.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

بالسَّبيلِ تظهرُ الحِدَّةُ والحَمِيَّةُ الَّتي تكونُ في الصَّدِّ

جعَل القرآنُ المصدودَ عنه ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ والمقصودُ به هنا هو سبيلُ اللهِ، الَّذي هو سبيلُ المؤمنينَ، وهو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو راجعٌ إلى الذِّكْرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والقرآنُ عبَّر عن طريقِ المؤمنين الَّذي هو هُدَى اللهِ ودينُ اللهِ بالسَّبيلِ؛ تأكيدًا للإنكار على من صدَّ عنه؛ لوضوحِ الحقِّ ونورِ الهدى فيه، فإنَّ السَّبيلَ في اللُّغة الطَّريقُ وما وضَحَ منه، فكان فيه سهولةٌ[1]، فكيف يُصدُّ عن الحقِّ الظَّاهر البيِّن اليسير.

بلاغةُ تعريف ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ بـ (ال):

يتمكَّنُ الخَصْمُ مِن عدوِّه؛ إذا عرَف كيف يتمكَّن منه

نظَم القرآنُ المصدودَ عنه طريقَ الحقِّ المُعبَّرَ عنه بالسَّبيلِ مُعرَّفًا بـ(الـ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وهذه الألفُ واللّامُ فيها معنى الكمال، ويجوز أن تكونَ للجِنْس، فهي تُؤذِنُ بأنَّ سبيلَ اللّه هو السَّبيلُ، وأنَّ اللَّفْظ إذا أُطْلِقَ؛ لا يَنْصَرِفُ إلّا إليه، فهو الطَّريقُ الَّذي مَن حادَ عنه هلَك؛ لأنَّه لا طريقَ في الحقيقةِ سواهُ[2]، وقد أدرك الشَّياطينُ ذلك كلَّه، فعملوا على صدِّ أهل الكفر عن ذلك السَّبيلِ.

بلاغةُ جملة الحال ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾:

هذا هو حالُهُم الجديدُ، بعدَما صارَ الشَّياطينُ قرناءَهُم

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ واو الحال، والجملةُ بعدَها حالٌ مِن مفعولِ: (يصدّون) بتقديرِ المبتدأ، أو مِن فاعلِه، أو

(1) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (سبل).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 28، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 212، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 364، والراغب، المفردات: (سبل).

منهُما؛ لاشتمالِها على ضميريْهما، أي: وإنَّهُم ليصدّونهم عن الطّريق الحقِّ، وهم يحسبون أنَّهم مهتدونَ إليه(1)، ويُلاحَظُ أنَّ هذه الحالَ تولَّدت مِن جملةٍ هي حالٌ أيضًا، ونظَمَ القرآنُ معنَى هذه الجملةِ حالًا؛ لإظهارِ حال القوم الكافرين، ولإبراز عجبه وغرابته للمُتلقِّي، فإنَّ كونَ الشَّياطينَ يصُدّونَ الكافرينَ العاشِينَ عن ذِكْرِ اللهِ عن السَّبيلِ، أمرٌ مُتوَقَّعٌ حدوثُه مِن الشَّياطينِ، فأمّا العجيبُ الغريبُ حقًّا؛ فهوَ أن يصلَ حالُ الكافرينَ إلى اعتقادِ أنَّ الشَّياطينَ مهتدونَ؛ ولذلكَ أتَى القرآنُ بواوِ الحالِ الّتي لا تخلو مِن معنى العطفِ ومِن معنَى المُغايَرةِ؛ لتعتني بمعنَى الحالِ، فتجعَلَه خبرًا مستقِلًّا عن ما بعدَه؛ لأنَّ صدَّهُم عن السَّبيلِ حقَّقَ نجاحًا باهرًا، وهو ألّا يكونَ الكافرونَ ثابتِينَ دائمِينَ في الضَّلالِ فحسب، بل أن يفهموا أنَّ الشَّياطينَ مهتدون في أنفسهم، ويهدونهم إلى الطَّريقِ المستقيم.

ويجوزُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ في هذه الجملة: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ لأهلِ الكفرِ العاشِينَ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ المصدودينَ عن السَّبيلِ، والمعنى: أنَّهم "يحسبون أنفسهم مهتدين؛ لأنَّ اعتقادَ كونِ الشَّياطينِ مهتدَين مستلزِمٌ لاعتقادِ كونِهم كذلك؛ لاتِّحادِ مسلكِهما"(2)، وفائدةُ نظمه حالًا نفْسُ الفائدةِ السّابقِ ذِكْرُها؛ "لأنَّ الضَّلال أبشعُ ما يقَعُ فيه الإنسانُ، فإذا حَسِبَ أنَّ ضلالَه هذا هُدًى، فهذا الحِسبان أبشعُ مِن الأبشعِ؛ لأنَّ هذا الحِسبانَ يُغلِقُ في وجهه بابَ المراجعة، ويجعلُه شيطانًا إنْسيًّا يدعو إلى ما حسِبَه هُدًى"(3).

علَّة التَّعبير بالاهتداءِ مادَّةً وصِيغَةً:

أخبَرَ القرآنُ عن ضمير الشَّياطينِ بصفة الاهتداءِ في قوله تعالى: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ إذ الخبرُ وصفٌ في المعنى لصاحبِه؛ للإشارة إلى كمال الاندماج بين الكافرِ العاشي وقرينِه الشَّيطانِ، حتَّى إنَّ الشَّيطانَ لم يعُد قرينًا له فقط، بل صارَ قرينًا وإمامًا لهُ؛ جزاءً على رفْضِه أن يكونَ القرآنُ هادِيَه، والرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ إمامَه؛ فقد صار الشَّياطينُ رُسُلًا للعاشين عن ذِكْرِ اللهِ؛ يُزَيِّنون لهُم سوءَ الأعمالِ حَسَنًا؛ لأنَّ الهدايةَ دلالةٌ برِفْقٍ، والاهتداءُ هنا "العِلْم بالطَّريقِ الموصِّلِ إلى المقصودِ"(4).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 211 - 212.

(3) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 365.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 212.

ونظَم القرآنُ هذا المعنى اسْمًا دالًّا على الثُّبوتِ والدَّوام: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾، وفي صيغة الافتعالِ الدّالَّة على شدَّة الاتِّصافِ بالصِّفة، وقوَّةِ الصِّفة في الموصوف؛ للدَّلالةِ على كمالِ ضلالِ هؤلاء الكافرين، وكمال إضلالِ الشَّياطينَ إيّاهُم؛ فقد صاروا عُمْيًا عن الحقِّ والحقيقة؛ إذ هم يعتقدون أنَّ الشَّياطينَ "عريقون في هذا الوصفِ؛ لِما يستدرجون به مِن التَّوْسِعةِ عليهم، والتَّضْييقِ على الذّاكِرينَ"(1).

العـاشـون عن ذِكْـرِ الرَّحْـمنِ صاروا عُمْيًا عن الحقِّ الجَلِيِّ

سِرُّ حذف متعلّق الاهتداء:

فعلُ الاهتداء - وما يعمل عمله من المشتقّات - يتعدَّى إلى مفعولٍ بحرفِ جرٍّ، قد يكونُ: (إلى)، وقد يكونُ: (الباء)؛ ولكِنَّ القرآنَ أورَدَ قوله: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ هنا مِن غيرِ مُتعلِّقٍ، فقال تعالى: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، أي: مهتدون "إلى السَّبيلِ المستقيم، وإلّا لَما اتَّبعوهُم"(2)، وسِرُّ الحذفِ الإبلاغُ في إثباتِ اهتدائهم، بإيهام عموم الاهتداء، كأنَّهُم مهتدونَ إلى كلِّ شيء حَسَنٍ، وهذا جارٍ على وجهي المعنى في الجملة، وتوفَّرَ بالحذفِ انسجامٌ صوتيٌّ يُمكِّن المعنى في النَّفْس، بينَ الفاصلة ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾، وما قبلها مِن فواصلَ: ﴿قَرِينٌ﴾ - ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ - ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾ - ﴿يَظۡهَرُونَ ٣٣﴾ [الزخرف: 33] إلخ، وما بعدَها مِن فواصلَ: ﴿ٱلۡقَرِينُ﴾ - ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾ - ﴿مُّبِينٍ﴾ - ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ إلخ.

الـشَّـيـاطـينُ في بصائرِ الكافرينَ نـــمــــوذجٌ في الاهتداءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 28.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 87.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزخرف: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ امتدادٌ للآيتَين السّابقتينِ عليها

لَمّا بيَّن تعالى في الآيةِ السّابقةِ أَثَرَ القرينِ في العاشِي عن ذِكْرِ اللّه، وهما في الحياةِ الدُّنْيا؛ بيَّنَ حالَهُما في الحياةِ الآخرةِ، وأنَّ الشَّيطانَ لن ينفعَ هذا العاشِيَ بشيء، بل إنَّه سَيُقِيمُ الحُجَّةَ عليه، بحضوره معَه، وأنَّ الكافر مُتندِّمٌ على ما فرط مِن اتِّباعه إيّاه، وائتمارِه بأمْرِه، فهذا المَشْهَدُ مُقابِلٌ للمَشهدِ الَّذي تُقرِّرُه الآيةُ السّابِقَةُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾: المشرقان مثنى المشرق، وهو المقابل للمغرب، وهما قِسْما الكون، فالمشرق مكان شروق الشَّمس، والمغرب مكان غروبها في الأفق، وإنَّما سُمِّي المشرق والمغرب مشرقين؛ تغليبًا للمشرق على المغرب، كما قيل: (العمران) في الصَّحابيَّينِ الجليلَيْنِ أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - هذا هو الظاهر، وقد قيل: عنَى القرآن بقوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ مشرق الشِّتاء ومشرق الصَّيف؛ وذلك أنَّ الشَّمس تطلع في الشِّتاء من مشرق، وفي الصَّيف من مشرق غيره، وكذلك المغرب، تغرب في مغربين مختلفين، وعلى هذا لا تغليب[1].

❁ المَعْنى الإجْماليِّ:

يوم القيامة تنكشفُ للكافر حقيقةُ قرينِه

يقول تعالى: حتّى إذا جاء الكافرُ مع قرينه، وقد رُبِطا بسلسلة واحدة؛ قال الكافرُ لقرينه: يا ليت بيني وبينك مِثْلَ ما بين المشرقِ والمغربِ، فبئس الصّاحبُ أنتَ؛ لأنَّك كنتَ سببًا في شقائي بتزيينك الباطلَ لي، فيكونُ الكافرُ في حالٍ شديدةٍ مِن النَّدَمِ والتَّحسُّرِ.

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شرك).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّعبير بـ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

القرائنُ تشهدُ بدلالة (حتَّى) هنا على الغاية الحقيقيَّة

جاءت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابتدائيَّة، أي: تدلُّ على انتهاء مرحلة، وابتداء مرحلة أخرى، وهي تفيدُ التَّسبُّبَ الذي هوَ غايةٌ مجازِيَّةٌ؛ فاستعمالُ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ فيه استعارةٌ تبعيَّةٌ، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ الغايةَ الحقيقيَّةَ قد تُفارقُ: ﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ فلا تكونُ فيها في جميعِ حالاتها، وأنَّ قومًا يزعمون أنَّها لا تُفارقها في جميعِ استعمالاتِها، وأخَذَ هذا مِن فهْمِه أنَّه ليس في الآية دلالة على دوام الصَّدِّ عن السَّبيل، وحسبانِ الآخرين الاهتداء إلى فناء القرينيْن؛ إذ قد يُؤمن الكافرُ، فينقطعُ الصَّدُّ والحسانُ، وذهَب غيرُه مِن العلماء إلى دلالتها هنا على ذلك، وأنَّ حالَ الأعشى مع القرين، وهو يصُدُّه عن سبيل اللّه، ويحسبُ أنَّه مِن المهتدين؛ ظلَّ ممدودًا زمانًا بعدَ زمانٍ، ولم تُنبِّهْهُ حادثةٌ، ولم تُثِرْ يقظتَه لفْتةٌ لا في الأرض، ولا في السَّماء، ولا في نفْسِه، ولا فيما يُتلى عليه مِن الذِّكْر، وإنَّما كانَ ينظُر إلى الذِّكْر بعينٍ حولاء أو عينٍ عوراء، معَ أنَّ الذِّكْرَ هو اللّافِتُ إلى آياتِ اللّه في السَّماء، وفي الأرض، وفي أنفسكم، وفي الطَّيْر، والذي حَولت عينُه عن الذِّكْر؛ عوِرَت عينُه عن كلِّ شيء بعدَه، وقد ظلَّ الأعشى على هذا الحالِ الَّتي يُمَلَّى له فيها، ويُستدرَجُ على طول حياته، حتَّى ترك الدُّنيا وراءَه، وأقْبَلَ على حياة الجزاء والثَّواب والعقابِ، وصوتُ الذِّكْر الَّذي هو القرآنُ لم ينقطع عنه، وهو في الدُّنيا، ويؤيِّدُ هذا الفَهْمَ أنَّ السِّياقَ في الحديثِ عن الَّذي ظلَّ يُحيط به الشَّيطانُ مِن جهاته كلِّها إحاطةَ القيض بالبيض، ويملكُ عليه كلَّ منافذِه[1]، وكذلك يؤيِّده من سياقِ السِّباقِ البعيدِ أنَّ هؤلاء هم القوم المسرفون في الكُفْرِ الَّذين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 212، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 367 - 368.

افتُتحت السّورة بالحديث عنهم، والألصقُ بإسرافهم أن يكون في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا هذه الدَّلالة الَّتي أنكرها العلّامة ابن عاشور، ومِن سياقِ اللِّحاقِ القريب يُؤيِّدُه قولُه: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾، فذلكَ نَصٌّ في ديمومةِ هذا العاشِي على سوء الحال مع قرينِه حتَّى باغتَه الموتُ.

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿إِذَا﴾:

القطعُ بوقوع الشَّرط يُحرِّكُ النَّفْسَ؛ للتَّفكيرِ فيه، وإن كانَت تُنكِرُه

كلمةُ ﴿إِذَا﴾ أداة شرط في الاستقبال، فالأصلُ في الفعل بعدها أن يكونَ مضارعًا؛ والشَّرطُ معَها مقطوعٌ بوقوعِه بخلافِ (إنْ)؛ ولهذا يكونُ فعلُ الشَّرط معها ماضيًا في اللَّفظ، وإن كانَ مستقبلًا في المعنى، ومجيءُ كلِّ أحدٍ للحسابِ يومَ القيامةِ أمْرٌ مُحقَّقٌ مقطوعٌ به، وإن كانَ الكافرُ يُنْكِرُه، فـ﴿إِذَا﴾ هنا تُحقِّقُه، وكذلكَ الأحداثُ الَّتي تكونُ في هذا اليوم وما بعدها مِن دخولِ الجنَّة والنّارِ إلخ؛ فلهذا عُبِّر بـ: ﴿إِذَا﴾ دونَ: (إنْ).

علَّةُ التَّعبير بالمجيء مادَّةً وصِيغَةً:

هذا التَّعبيرُ مناسِبٌ لِما يواجِهُه الكافرُ مِن مَشقّاتٍ وحسَراتٍ

عبَّر القرآنُ عن إتيانِ الكافرِ اللّهَ ربَّه يومَ القيامةِ للحسابِ وما بعدَه، بالمجيء الَّذي هو في اللُّغة إتيانٌ بصعوبةٍ، وإتيانٌ فيه نفاذٌ، فكأنَّ التَّعبيرَ بالمجيء ينظر إلى إنكار الكافر إيّاه، فهو يقولُ له: إنَّه مُتحقِّقٌ - لا محالة - وكذلك أكَّدَه بالتَّعبيرِ بـ: ﴿إِذَا﴾ مِن جهةٍ، ويشيرُ إلى خطر هذا الإتيانِ؛ إذ يعقبُه الحسابُ الإلهيُّ، ومشاهدةُ الأهوالِ، وغيرُ ذلكَ مِن أحداثِ القيامة، ثم دخولُ النّار، ثم الحوارُ بينَه وبينَ قرينِه الشَّيطانِ، ونُظِم المجيءُ فعلًا ماضيًا؛ إبلاغًا في بيانِ تحقُّقِ حصولِ الشَّرْطِ، بعدَ التَّعبير بـ: ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيد تحقُّقَ وقوع الخبر، فهو ماضٍ في اللَّفظ، مستقبلٌ في المعنى، بقرينة كلمة الشَّرط: ﴿إِذَا﴾.

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءتَي: ﴿جَآءَنَا﴾، والإفرادِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿جَآءَنَا﴾ قرأه بألفٍ بعدَ الهمزة على التَّثْنيةِ نافعٌ وابنُ

الأعشى عن ذِكْر الله في الدُّنيا أعشى في الحياة الآخرة

كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ وأبو جعفرَ: ﴿جَآءَانَا﴾، قال مقاتل: يعني: ابن آدم وقرينه في الآخرة، جُعِلا في سلسلةٍ واحدةٍ، وقرأه الباقون بغير ألف؛ حملًا على لفظِ: (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، أي: الكافر؛ لأنَّ الَّذي يقولُ هو الَّذي ضَلَّ، وكفر، ولأنَّه هو رأسُ الكلام، وذهَب ابن عاشور إلى أنَّ المعنَى على القراءتَيْن واحدٌ؛ لأنَّ قراءةَ التَّثْنية صريحةٌ في مجيءِ الشَّيطان معَ قرينه الكافر، وأنَّ المُتندِّمَ هو الكافرُ، والقراءة بالإفراد متضمِّنة مجيءَ الشَّيطان مِن قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾؛ إذ عُلِم أنَّ شيطانَه القرينَ حاضِرٌ مِن خطابِ الآخَرِ إيّاهُ بقوله: ﴿وَبَيْنَكَ﴾[(1)].

ولكِنْ في القراءتَيْن تفصيلٌ لمشهدِ حضورِ العاشي عن ذِكْرِ اللّٰهِ وقرينِه الشَّيْطانِ يومَ الجزاءِ، ففي قراءةِ التَّثْنية: تنبيهٌ على ملازمة الشَّيطانِ الَّذي ثبَّتَه في بابِ الضَّلالِ والغوايةِ والانصرافِ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، له في هذا اليوم، وأنَّ حُضورَه معَه في سِلْسِلةٍ واحدةٍ ممّا يُتْعِبُه، ويُؤلِمُه، وأنَّه لن ينفَعَه أدنى نفْعٍ حينئذٍ معَ أنَّه كانَ قرينًا له في الدُّنْيا؛ كذلكَ النَّعيمُ الَّذي كان غارقًا فيه، وسلك به مسالك الفجور والمعاصي، وكذلك آباؤهم الَّذين وجدوهم على أُمَّةٍ، وكانوا على آثارِهم مهتدين ومقتدين، لن ينفعوهم بشيءٍ، وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الإفرادَ على قراءة: ﴿جَآءَانَا﴾، وفي قوله: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي﴾، أدلُّ دليلٍ على تناوُلِ كلِّ فرْدٍ، وأنَّ المرادَ حكايةُ مقال كلِّ واحدٍ واحدٍ مِن العاشِينَ لقرينِه؛ لتهويلِ الأمْرِ وتفظيعِ الحالِ[(2)].

بلاغةُ أسلوب الشَّرْط:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ جوابُ الشَّرطِ،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 369، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 496، والواحدي، التفسير البسيط: 20/ 43، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 212 - 213.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 80.

هذا الأسلوبُ يُصوِّر جلالَ الموقف

تولَّدَ منهُ بالفاءِ قولُه: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾، وترتُّبُ الجوابِ على الشَّرطِ هنا، معَ وجودِ جملةٍ مِن المعاني، الَّتي تُصوِّر الأحداثَ الَّتي تكونُ بينَ المجيءِ وهذا القولِ، قد طواها السِّياقُ طَيًّا، يقولُ الشَّيخ محمَّد أبو موسى: إنَّ "كلامًا كثيرًا وأحداثًا كثيرةً حُذفت بينَ الشَّرط وجوابِه؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يكونَ قبلَ قولِه: ﴿قَالَ﴾: حوسِبَ، وأخَذَ كتابَه بشماله، ووجَد ما عمِل حاضِرًا، وقبلَ أن يُحاسَبَ شَهِد هولَ الموقفِ، وهولَ يوم التَّناد: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍۗ﴾ [غافر: 33]، وهولَ الصِّراط، وقبلَ هذا شهِد هولَ الفزعِ يومَ يُنفخ فيه أخرى، وشهِد هولَ الموتِ إلى آخِره، وإنَّما تخطَّتِ الآيةُ هذا كلَّه؛ لأنَّها تُلخِّص، وتذكُر نتائجَ سريعةً لِمَن اتَّخذ هذا القرآنَ مهجورًا، وفرِح بالحياة الدُّنْيا، واطمأنَّ بها، وفرِح أيضًا بما عندَه مِن العِلْم؛ لأنَّ جِذْرَ القضيَّةِ أنَّه سبحانه متَّعَ هؤلاءِ وآباءَهُم حتَّى استطابوا هذهِ الحياةَ الدُّنيا، وكفروا بالحقِّ؛ لَمَّا جاءَهُم، وصرَفَهُم انصرافهم إلى الدُّنيا عن التَّفكُّر والتَّذكُّر والتَّدبُّر للذِّكر، الَّذي لم يَصرِفه اللّهُ ﷻ عن القوم المسرفين"(1).

دلالةُ القولِ مادَّةً وصِيغةً:

مَن ليس يملكُ إلّا القولَ، فهو في غاية الضَّعفِ

جَوابُ الشَّرطِ في الآيةِ قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، وفي حكاية قولِه إشارةٌ إلى أنَّه لا يملكُ في هذا اليوم إلّا القولَ، فلا حيلةَ له ولا ناصرَ ولا مُعتمَد، مِن مالٍ أو جاهٍ أو سلطانٍ أو متاعٍ أو شيطانٍ قرينٍ، ونظَمَه القرآنُ فعلًا ماضيًا: ﴿قَالَ﴾؛ تأسيسًا على نَظْم المجيءِ فعلًا ماضيًا، فهو مِثْلُه، ماضٍ في اللَّفظِ، مستقبلٌ في المعنى؛ لأنَّ أجزاءَ جملةِ جوابِ الشَّرط، تجري على حُكْم أجزاءِ جملةِ الشَّرْط، والمُضِيُّ فيهما إبلاغٌ في التَّرهيبِ، ودالٌّ على حتميَّة الوقوعِ والتَّحقُّق.

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 368 - 369.

علَّة التَّعبير بـ: (يا):

(يا): حرفُ معنًى، وُضِعَ للنِّداءِ، وهو لنداءِ البعيدِ عند جمهورِ العلماءِ، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، يُمكنُ أن يكونَ قد تخلَّصَ إلى معنى التَّنبيه؛ ليلفِتَ إلى هذا التَّمنِّي الَّذي صار حَسْرةً وتندُّمًا، ويُمكنُ أن يكونَ حرفًا دالًّا على التَّلهُّفِ والتَّحسُّرِ، ويكونَ قد تشرَّبَ مِن الكلمة: (ليت) بُعدَه، وأشرَبَها، ويُمكنُ أن يكونَ حرفَ نداءٍ، وأنَّه يُنادِي ندمَه كالَّذي نادَى حسرتَه في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31]، وكلُّ هذا يلتقي عندَ الدَّلالة على هولِ ما رآه، وفوجِئَ به مِن الأهوال؛ بسببِ هذا القرين.

في هذه الكلمة كمالُ الإحساسِ بالضَّياعِ والهلاكِ

دلالةُ التَّعبير بـ: (ليت):

كلمة (ليت) وُضِعتْ في اللُّغةِ للتَّمَنِّي الَّذي هو تشهِّي حصولِ الأمر المرغوبِ فيه، وحديثُ النَّفْسِ بما يكونُ، وما لا يكونُ، ولم تُستعمل في غير التَّمنِّي، فكانت عريقةً في التَّمنِّي، والمُتَمَنَّى هنا هو البُعدُ بين هذا الكافرِ وقرينه الشَّيطان في الدُّنيا، وهو مستحيلٌ؛ لأنَّ زمانَ التَّمنّي الدّارُ الآخرة، وزمانُ الَّذي يتمنّاهُ الدّارُ الدُّنيا، ولَمّا كان هذا التَّمنِّي لا انتفاعَ له به؛ لفواتِ محلِّه - وهو دارُ العملِ - كانَ دالًّا على غايةِ التَّندُّمِ والتَّحسُّرِ[1].

خَيبةُ الرَّجاءِ شأنُ العاشِي عن ذِكْرِ اللهِ في الآخرة

نكتةُ تقديم ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ خبرُ قوله: (ليت)، وأمّا اسمُها؛ فقوله: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، وإنَّما قدَّم القرآنُ خبرَها على اسمِها؛ للعنايةِ والاهتمام به، ووجهُ ذلكَ أنَّ المُقدَّم هو لُبُّ المعنَى، وجوهرُ المقصودِ، وأصلُ الكلامِ: يا ليت البُعد الَّذي بيني وبينك بُعد المشرق

هذا التَّقديمُ توطئةٌ لذَمِّ الاقتران

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: 4/ 804، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370.

مِن المغرب، يعني مشرق الشَّمس مِن مغربها، وهو أبعدُ البُعدِ[1]، فلَمّا كانَ اقترانُ الشَّيطانِ به هو الَّذي ضيَّعَه، وأهلكَه؛ لأنَّ هذا الشَّيطانَ قد أضلَّه، وصدَّه عن سبيلِ الهُدى والحقِّ؛ قدَّمَ طَرَفَي الاقترانِ: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ على ما بعدَه؛ ولهذا فرَّع على جملة التَّمنِّي قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، ولَمّا كان الكافرُ القائلُ في مقامِ ضررٍ شديدٍ مِن قرينِه الشَّيطانِ؛ قدَّم القرآنُ قوله: ﴿بَيْنِي﴾ على قوله: ﴿وَبَيْنَكَ﴾.

علَّة التَّعبير بـ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

تمنّيه ضدَّ غايةِ القربِ دليلٌ على غايةِ العَمَى

المشرقان في قوله تعالى: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾: هما المشرقُ والمغربُ، والمرادُ بهما إمّا مكانُ شروقِ الشَّمْسِ وغروبِها في الأفق، وإمّا الجهةُ مِن الأرضِ الَّتي تبدو الشَّمسُ منها عندَ شروقِها، وتغيبُ منها عند غروبها فيما يلوح لطائفة مِن سُكّانِ الأرضِ، وعلى الاحتمالَيْنِ هما مَثَلٌ لشدَّةِ البُعْدِ، وبهما تحصلُ المبالغة في حصول البُعْدِ؛ إذ لا بُعْدَ آخَرُ أزْيَدُ مِن بُعْدِهما[2]، وقد كان الشَّيطانُ شديدَ القرب منه، بل كانَ محيطًا به إحاطةَ القيضِ بالبيضِ، على ما يدلُّ عليه التَّعبيرُ بالتَّقْييضِ في قوله تعالى: ﴿نُقَيِّضْ﴾.

نكتةُ التَّغليب في: ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

التَّغليبُ يكشفُ عن حسرة الكافر وندمه على ترك نور الله في الأرضِ

قولُه تعالى: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، لكنَّ القرآنَ غلَّبَ اسمَ المشرق على اسم المغرب، كما يُقال: (الأبوان) للأب والأُمِّ، و(العمران) لأبي بكر وعمر، وسِرُّ التَّغليب عند الشَّيخ ابن عاشور: "أنَّ المشرق أكثرُ خطورًا بالأذهان؛ لتشوُّفِ النُّفوسِ إلى إشراق الشَّمس بعد الإظلام"[3]، وهذه علَّة جيِّدةٌ، وإنْ كانت عامَّةً، بحيثُ تُقال في كلِّ سياقٍ، وذكَر الشَّيْخُ أبو موسى ما هو ألصقُ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213.

بالسِّياقِ والمقامِ، فذكَر أنَّ المشرقَ ضياءٌ ونورٌ وهدايةٌ، وكلُّ ذلك يعصِمُ المعتصِمَ بعقله مِن التِّيهِ والضَّلالِ، وذلك بخلافِ المغرب، فإنَّه بدايةُ الظَّلام، وفي الظَّلامِ تِيهٌ وضَلالٌ، ولا يَحْسُن أن نُبعِد هذينِ المعنيينِ عن المشرق والمغرب، والكافرُ جعَل نفْسَه في المشرقِ، وجعَل القرينَ في المغربِ، يعني: أنَّه كانَ في موضِع الضِّياءِ والهُدَى؛ لأنَّ الذِّكْرَ الَّذي هو القرآنُ نورُ اللهِ في الأرضِ، يهدي به مَن يشاءُ؛ لم يُصْرَف عنه، والكافرُ قد أدركَ هذا، وهو في الآخرة[1].

بلاغةُ الإضافة في: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾:

الـكــافــرُ في خسران شديد، يتمنّى فيه كلَّ البُعد عن سبب خسرانه

لَمّا غلَّبَ القرآنُ المشرقَ على المغربِ؛ أوجزَ، وأضافَ البُعْدَ إليهما، وقال: ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، والأصلُ: البُعْدُ الَّذي بين المشرقَيْن، وهذا إيجازٌ بديعٌ، وهذه الإضافةُ بتقدير: بُعْدًا لهما، أي: مختَصًّا بهما بتأويل البُعْدِ بالتَّباعُد، وهذا الإيجازُ مبنيٌّ على الإيجازِ الحاصلِ بالتَّغليب، والتَّقديرُ: بُعْدَ المشرقِ مِن المغربِ، والمغربِ مِن المشرق، فنابَتْ كلمةُ: ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ عن ستِّ كلماتٍ، وإنَّما اختُصِر هذا المبسوطُ؛ لعدمِ الإلباس[2]، وهذا الإيجازُ يُصَوِّرُ غايةَ الضِّيقِ والكَرْبِ الذي يكونُ فيه هذا الكافرُ العاشِي عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ.

معنى الفاء، ودلالة التَّعبير بها:

في الآخـرة يُـدرك الكافرُ بأنَّ أذَى الـشَّـيـطـانِ له بالِغٌ جدًّا

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾: فيها معنى السَّببيَّةِ والتَّفريع[3]، ومعنى الجملةِ بعدها مُسبَّبٌ عن قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾؛ وهذا يعني كمالَ الحَسْرةِ والنَّدَمِ الذي يكونُ فيه العاشِي عن ذِكْرِ اللهِ، وكمالَ انفعالِه وإحساسِه بذلكَ، ولو غابت الفاءُ، فقيل: (بئس القرين)، على أنَّه لازمٌ لِما قبله،

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370 - 371.

(2) الزمخشري، الكشاف: 14/ 143، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 17، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 82، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 370.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 430، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 213.

فهو مِن بابِ كمال الاتِّصال؛ لفاتَ بيانُ ذلك، وكذلك يفوتُ لو عُبِّر بالواو، فقيل: (وبئس القرين)، وكما قرَّرَ سياقُ السّورة غفلةَ هذا العاشي في الدُّنيا، يُقرِّرُ يقظتَه ووعْيَه وإفاقتَه في الآخرة، وإن كانَ ذلكَ لا ينفعُه.

علَّةُ التَّعبير بـ: (بئس):

هــذه الـكـلـمـة سخيَّةُ الموقعِ، مكتنزة المعنَى

عبَّر القرآنُ بكلمة الذَّمِّ: (بئس) في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾، وهيَ أُمُّ كلماتِ الذَّمِّ، فالذَّمُّ فيها صريحٌ مُكْتَنَزٌ، فيُعبَّرُ بها؛ للمبالغة في الذَّمِّ[1]؛ لأنَّها في جُمْلَتِها نِتاجُ استحضارِ الكافرِ العاشِي عن ذِكْر الرَّحْمنِ ما كانَ مِن قرينِه الشَّيطانِ في الدُّنْيا مِن بالغ إضلالِه وعظيم إيذائه، حتَّى إنَّه يتمنَّى في الآخرة أن لو كانَ بعيدًا عن هذا الشَّيطانِ غايةَ البُعْدِ: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، فهذه الكلمةُ (بئس) صوَّرَتْ غايةَ حُرْقةِ الكافرِ، وحسرتِه وندمِه، وذلكَ في غايةِ الإيجازِ، مِمّا يدلُّ على غايةِ ضجره وضِيقِ نفْسِه.

علَّةُ التَّعبير بـ: ﴿ٱلۡقَرِينُ﴾:

غـايـةُ الحسرة والنَّدم والوجع في ذِكْر الصُّحْبةِ القديمةِ المُضِلَّةِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡقَرِينُ﴾: فاعلُ: (بئس)، فهو المذمومُ، والمقصودُ بالذَّمِّ هو صفةُ الشَّيطانِ من الاقترانِ الذي في كلمة: ﴿ٱلۡقَرِينُ﴾؛ فإنَّه لَمّا تمنَّى هذا الكافرُ البُعْدَ الشَّديدَ بينَه وبينَ الشَّيطانِ في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾؛ فكانَ هذا البُعْدُ محبوبًا يتمنَّى الكافرُ أن لو كانَ قد تحقَّقَ في الدُّنيا؛ ذمَّ غايةَ القُرْبِ في قوله: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾، فكان المذمومُ هو الاقترانَ الذي كان بينه وبين الشَّيطان في الدُّنيا؛ لهذا وُضِعَ الاسم الظاهرُ: ﴿ٱلۡقَرِينُ﴾ موضِعَ ضمير المخاطَب الَّذي جرَى عليه الخطابُ في قوله: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، وقد جرى في هذا الاسم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 17، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 29، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 372.

الظّاهرِ شَوْبٌ مِن معنَى التَّجْريدِ، وأنَّه لشناعته وسوئه؛ صَحَّ أنْ يُجرَّدَ منه قرينٌ، هو بئسَ القرينُ[1].

بلاغةُ المخصوصِ بالذَّمِّ تقديرًا وحذفًا:

المخصوصُ بالذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾: محذوفٌ، والتَّقديرُ في الظّاهر: (فبئس القرينُ أنتَ)[2]؛ جريًا على نسَق الخطابِ مِن قبلُ في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾؛ وهذا هو الأبلغُ في السِّياقِ مِن أن يكونَ التَّقديرُ: (فبئس القرينُ هو) على طريق الغَيبة؛ انصرافًا عنه، ضجرًا وضيقًا وغضبًا وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنَى، ووجهُ الأبلغيَّةِ أنَّ هذا الكافرَ قد أدرك، وعلم أنَّ هذا الشَّيطانَ الَّذي كانَ قرينًا له في الدُّنيا، قرينٌ له في الآخرة في محلِّ عذابه وعقابه، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾، فكان المعنى: فبئس القرين أنتَ في الدُّنيا، وبئس القرين أنتَ في الآخرة، فالخطابُ مستمرٌّ، وحذفُ ضميرِه: (أنت) إبلاغٌ في الذَّمِّ، بالإبلاغِ في تقريرِ الاقترانِ؛ اعتمادًا على نَسَقِ الخطابِ، ونتَج عن الحذفِ توفُّرُ الانسجامِ الصَّوتيِّ بين الفاصلة: ﴿ٱلۡقَرِينُ﴾ والفواصلِ قبلها وبعدَها.

الحـذفُ إبـلاغٌ في إفـادة كمال حسـرتـه وشـدَّة نـدمـه؛ لأنَّ الشَّيطانَ قرينُه في القيامة أيضًا

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 372.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 44، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 211، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 82، فهؤلاء المفسرون قدَّروه بـ: (أنت)، وذكر الآلوسيُّ تقديرًا آخر، فقال: "وقيل: أي: هو، على أنَّه مِن كلامه تعالى، وهو كما ترى"، انتهى مِن: الآلوسي، روح المعاني: 25/ 82.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾

[الزخرف: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تمنِّي الكافرُ غاية البُعْدِ بينه وبين الشَّيطان، فأُجيبَ باشتراكهما في العذاب

لَمّا بيَّن تعالى في الآية السّابقة كلامَ الضّالِّ الكافر، وصرخةَ ندمِه يومَ القيامةِ؛ لما ارتكب ما قرب منه الشَّيطان، وجعلَهُ قرينًا له، والشَّيطانُ حاضرٌ، وهما معًا بينَ يدَي ربِّ العِزَّة، فتكلَّم الضّالُّ كما ذكَرت الآيةُ، وتكلَّم الذي أضلَّه، وإن كانت الآيةُ سكتَتْ عنه؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الله قضَى عليهما جميعًا بالعذابِ، وقيل لهما، وهما في النّارِ أو بصددِ أنْ يكونا في النّار: لن ينفعكم أنَّكم في العذاب مشتركون؛ لأنَّ عذابَ فريقٍ لا يُخفِّفُ عن فريق، كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]، فهذه الآية أفادت أنَّ القرينَين في سواء الجحيم، وأنَّهما وإن كانا انتفعا بهذه الصُّحْبة في الدُّنيا؛ فلن تنفعهم اليومَ؛ لأنَّ الاشتراك إنَّما هو في العذاب، وذلك غيرُ نافعٍ، ثمَّ هو مِن جهة أخرى معنًى مُضادٌّ لتمنيِّ الَّذي عشا عن ذِكر الرَّحمن لَمّا قال: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾؛ فأجيبَ بأنَّه مشترك معه؛ فمِمّا يزيدُ العذابَ عذابًا أن تكون صُحْبتُك فيه مع مَن تمنَّيْتَ أن لو كان بينك وبينه بُعْدُ المشرق عن المغرب(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾: (شرك) أصلانِ، أحدُهما يدلُّ على مقارنة وخلافِ انفرادٍ، والآخَرُ يدلُّ على استقامةٍ، فالأوَّلُ الشِّرْكةُ، وهو أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 214، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 375 - 376.

يكون الشَّيءُ بينَ اثنَيْنِ لا ينفردُ به أحدُهما، ويُقال: شاركتُ فلانًا في الشَّيء؛ إذا صِرْتَ شريكَه، وأشركتُ فلانًا؛ إذا جعلتَه شريكًا لكَ، والشِّركة والمشاركةُ: خلْطُ المِلْكَيْنِ، والمعنى هنا: أنَّ الكافرَ مع قرينه الشَّيطان تقاسَما أسبابَ العذابِ الأُخْرَويِّ، مِن الضَّلالِ والإضلالِ، فكلٌّ منهما مثيلُ الآخَرِ في ذلكَ؛ لأنَّهما قرينانِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لن يخفِّف شيء عذاب الكافرين في جهنَّم

يقولُ تعالى: لا ينْفَعُ العاشِينَ عن ذِكْرِ الرَّحمن وقرناءَهم الشَّياطين الاشتراكُ في العذاب؛ لأنَّهم لا يجدونَ راحةَ التَّأسِّي الَّتي يجدُها المكروبُ في الدُّنْيا؛ إذا رأى غيرَه قد أصابَه مِثْلُ ما أصابَه؛ لأنَّ المصيبةَ إذا عمَّت؛ هانَتْ؛ فدفَع سبحانه ذلك التَّوهُّم بأنَّ اشتراكهم في العذاب لا يُخفِّفُ عنهم البلاءَ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعبير بـ: (لن):

النَّفيُ المُؤبَّدُ مِن غَضَبِ الله عليهم

كلمةُ: (لن): حرفُ نفيٍ ونَصْبٍ واستقبالٍ، وهيَ لتأكيدِ ما تُعْطيه: (لا) مِن نفيِ المستقبلِ، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: للنَّفْيِ المُؤبَّدِ، بقرينةِ سياقِ المعنَى في الآيةِ، ففيها مِن الحَسْمِ والفَصْلِ والقَطْعِ في تقريرِ الحُكْمِ والخَبَرِ في الآيةِ ما فيها، وهذا المعنى يجده المُتلقِّي يسْري في أجزاءِ الآيةِ، وهو من مُقتَضَياتِ يوم القيامةِ الَّذي يجعلُ الوِلدانَ شِيبًا، فأهل الكفرِ يتمنَّون البُعْدَ بينَهُم وبينَ قرنائهم الشَّياطينِ في الدُّنْيا، وهذا التَّمنِّي وراءَهُ التَّعْريضُ بالتَّفصِّي مِن المُؤاخَذة، وإلقاءِ التَّبعةِ على الشَّيْطانِ، فـ: (لن) تُغْلِقُ البابَ أمامَهُم في حَسْمٍ وشِدَّةٍ ورُعْبٍ وهَوْلٍ.

(1) ابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 314.

أيُّ نفعٍ في صحبة أهل الضّالِ والإضلالِ

علّةُ التَّعبير بالنَّفْع:

جعَل القرآنُ معنَى النَّفْعِ هو المنفيَّ بـ: (لن)، في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾؛ للتَّهكُّم بأهل الكفرِ في المقام الأوَّلِ، وتوبيخِهم وإيلامِهم وما جرى في هذا الطَّريقِ من المعنَى؛ لأنَّه بضميمةِ باقي الإسنادِ ومُتعلَّقاتِ الفِعْلِ يُفهِمُ أنَّ صُحْبةَ الكافرينِ وقرنائهم الشَّياطين قد نفعَتْهُم في الدُّنْيا، ولكنَّها لن تنفعَهُم في الآخرة، وخطابُهُم بهذا فيه المعاني الَّتي ذكرناها وغيرَها، فهو يوجِعُهُم أشدَّ الوَجَع؛ لأنَّهُم في ذلك اليوم تنكشفُ لهم الحقائقُ أتمَّ انكشافٍ، فيُدْرِكونَ أنَّ تلكَ الصُّحْبةَ لم تكُن تنفعُهم في الدُّنْيا بَلْهَ أن تنفعَهُم في الآخِرةِ، بل هيَ كلُّ الضَّرَرِ دُنْيا وأُخْرَى، وقد قالَ الكافرُ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾.

المضارعةُ إبلاغٌ في حسم أمرهم، وإبداء للغضب

دلالةُ المضارعة في: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾:

نظَم القرآنُ معنى النَّفْعِ فعلًا مضارعًا في قوله: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾؛ ليُشِيرَ في لُطفٍ إلى استمرارِ رغبةِ أهلِ الكفر في تخْفيفِ العذابِ عنهم، وسيطرةِ فكرة التَّخلُّصِ من ذلك العذابِ العظيمِ أو تخفيفِه، فلن يتجدَّدَ لهم نفعٌ بأيِّ سببٍ مِن الأسبابِ، مِن رحمةٍ، أو إحسانٍ، أو شفاعةٍ، وغيرِ ذلكَ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ المعنى، ودالٌّ على شدَّةِ الغضب، وعلى عظيم الجُرْمِ، الَّذي هو إهمالُ النَّظَر في الذِّكْر الحكيم نظَرًا يهدي إلى الحقِّ، ويُرغِّبُ فيه، ويوضِّحُ الباطل، ويُنفِّرُ منه، وقال الشَّيخُ ابنُ عاشورٍ: "ووقوعُ الفِعْل: ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ في سياقِ النَّفْي يدلُّ على نفي أنْ يكونَ الاشتراكُ في العذابِ نافعًا بحالٍ؛ لأنَّه لا يُخفِّفُ عن الشَّريكِ من عذابِه، وأمّا ما يتعارَفُه النّاسُ من تسلِّي أحدٍ برؤية مِثْله ممَّن مُنِيَ بمصيبةٍ، فذلكَ مِن أوهامِ البشرِ في الحياةِ الدُّنْيا، ولعلَّ اللّه

جعَل لهُم ذلكَ رحمةً بهم في الدُّنْيا، وأمّا الآخرةُ؛ فعالَمُ الحقائقِ دونَ الأوهامِ"[1].

بلاغةُ التَّقْييد باليومِ:

التَّذْكيرُ بخسران الماضي وظلامه مؤلم جِدًّا

قيَّدَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ بالظَّرف ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، وهو ظرفٌ للحُكْم والخبر، والمقصودُ بِه اليومُ الآخِرُ، وسِرُّ التَّقْييدِ به، مع أنَّ قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يُفْهِمُه، ويدُلُّ عليه التَّذْكيرُ بما كانَ مِن الكافرينَ وقرنائهم الشَّياطينِ في الدُّنْيا؛ لإيلامهم وإهانتهم وتوبيخهم؛ لأنَّ ظاهرَ التَّقْييدِ أنَّ اشتراكَهم في سببِ العذابِ في الدُّنْيا قد نفعَهُم، وأنَّى ذلك، وهم في النّار خالدون؟ هل يُعَدُّ التَّمتُّع بنعيمِ الدُّنيا في جنب عذاب اللّه في الآخرة شيئًا؟

نكتة التَّقديم:

في التَّقديم والتَّأخير اتِّساعٌ في المعنَى يفتقر إليه السِّياقُ

قدَّمَ القرآنُ قولَه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ على ما بعدَه: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ الَّذي معناه: إذا تبيَّنَ ظلمُكُم؛ للعناية والاهتمام به، ووجهُ ذلكَ أنَّ المُقدَّمَ أبلغُ في تقريرِ النَّفْي وتوكيدِه وتحقيقِه، فاقترانُ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ بـ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أبلغُ مِن اقترانِه بـ: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾؛ لأنَّ الثّاني كانَ في الدُّنيا، وتبيَّنَ الآن في الآخرة، ففيه دلالة المُضيِّ الَّتي هي ظاهرُ لفظ: ﴿إِذ﴾، لكنَّ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ هو الفارقُ بينَ الحقِّ والباطلِ، وهو تحقيقٌ للنَّفْي وتمكينٌ له؛ لأنَّه مع: (لن) يعني أنَّ نفيَ النَّفْعِ يكونُ مُؤبَّدًا بـ: (لن) مِن الآن بـ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، وقدَّم القرآنُ قوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ على ما بعدَه - فاعلِ النَّفْعِ - على قراءة الجمهور: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لتحصلَ للكافرين المباغتة والمفاجأة، فيزدادوا حُرْقةً ووجعًا؛ إذ في ذلك تهكُّمٌ بهم، وسخريةٌ منهم؛ إذ التَّقديمُ فيه تشويقٌ للمُؤخَّر، فالنَّفْسُ تتطلَّعُ إلى فاعلِ النَّفْعِ المنفيِّ، فلمّا تتلقّاه، وتعرفُ أنَّه اشتراكُهم في العذاب تتفاجأ، ويحصلُ لها

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 214.

أضعافُ ما هي فيه مِن الكَرْب والضِّيق؛ إذ ظاهرٌ أنَّ اشتراكهم في العذاب لن ينفعهم بشيء، فهذا الأسلوبُ في التَّقديم والتأخير قريبٌ مِن الأسلوب في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: 29]، والقَرْنُ بين: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ و: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ قَرْنٌ بينَ العدلِ والظُّلْم، مِمّا يُحرِّكُ أهلَ الكفر - وهم في الدُّنيا - للتَّفكير في أحوالهم.

علَّةُ التَّعبير بالظُّلْمِ مادَّةً وصِيغَةً:

لـم يـكُـن أهـلُ الـكُـفْـرِ يَقْبَلـون الاتِّصافَ بالظُّلْمِ في الدُّنيا

وصَف القرآنُ عملَ العاشِينَ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ وقرنائهم الشَّياطينِ في الحياة الدُّنْيا بالظُّلْم الَّذي هو وضْعُ الشَّيء في غير موضِعه، فالصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ ظُلْمٌ، بل هو أظلمُ الظُّلْم، والعشا عن ذِكْرِ الرَّحمنِ ظُلْمٌ؛ بل هو أظلمُ الظُّلْم، وحِسبانُ أنَّهم أنفُسَهُم مهتدونَ، أو أنَّ الشَّياطينَ مهتدونَ ظُلْمٌ؛ فالظُّلْمُ ألصقُ بتوبيخهم وتأنيبهم وإيلامهم وإقامة الحُجَّة عليهم، ففيه تذكيرٌ وسيعٌ ووجيزٌ جِدًّا بما كان منهم في الدُّنيا، معَ ضميمةِ أنَّهُم لم يكونوا يَقْبَلونَ أبدًا الاتِّصافَ بالظُّلْم، وهم في الدُّنيا؛ لاعتقادهم أنَّهم على الحقِّ، وأهل الإيمان على باطلٍ، ولَمّا كانَ ذلكَ الظُّلْمُ قد وقع، وتحقَّق في دارِ العملِ؛ نظَمَه القرآنُ فعلًا ماضيًا.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءَتَي لفظ: ﴿أَنَّكُمْ﴾:

مِـن شِـدَّةِ الـغـضـب عليهم يُبالَغُ في تأييسِهِم مِـن الـرّاحـة والتَّخفيف

قولُه تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: في تأويلِ مصدرٍ مرفوعٍ، على أنَّه فاعلُ فِعْلِ النَّفْعِ المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾، أي: لن ينفعكم اشتراكُكُم في العذاب، وهذه قراءةُ الجمهور بفتح همزة (أنَّ)، وقرأ ابنُ عامرٍ: (إنَّكم) بكسر همزتها على الاستئناف، ويكون الوقفُ عندَ قوله: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾، وفاعلُ الفعلِ في قوله: ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ ضميرٌ عائدٌ على التَّمنِّي بقولهم: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾، أي: لن

ينفعكم تمنِّيكم ولا تفَصِّيكم[1]، والقراءتانِ أفادتا أنَّ أهلَ الكفرِ يُقال لهم المعنَى على كلِّ قراءةٍ، ففي قراءةِ ابنِ عامرٍ تأييسٌ لهُم من التَّفَصِّي من المُحاسَبَةِ والمُؤاخَذَة، وإلقاءِ التَّبعة على قرنائهم الشَّياطين، وفي قراءة الجمهورِ - كما قال ابنُ عطيَّةَ - إيلامُهُم وإيحاشُهُم؛ لأنَّهُم حُرموا روحَ التَّأسِّي؛ لأنَّ هذا التَّأسِّيَ لن ينفعهم بشيء؛ لِعظَم المُصيبة، وطولِ العذابِ، واستمرارِ مُدَّته، فاللهُ تعالى نفَى عنهم الانتفاع بالتَّأسِّي، وفي ذلك تعذيبٌ لهم، وتأييسٌ من كلِّ خيرٍ[2].

سِرُّ توكيدِ جملة: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾:

التَّوكيدُ هنا يُلاحظُ إرعابَ نفوسِ الكافرين، وهم في النّار أو بصددِ دخولِها

أكَّدَ القرآنُ مضمونَ جملةِ: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ بـ(أنَّ) أو (إنَّ) على القراءتَيْن، وبالجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تُفيدُ استقرارَهُم في العذابِ، وثبوتَهم ودوامَهُم، وهذا إبلاغٌ في تيئيسهم من رحمة اللهِ في ذلكَ اليوم الَّذي يكونُ فيه الحسابُ والثَّوابُ والعقابُ، ولا يكونُ فيه عملٌ ألبتَّةَ، والتَّأكيدُ بـ(أنَّ) أو (إنَّ) معَ الاسميَّة ناظرٌ إلى تحقيقِ الحُكْمِ وتوكيدِه وتمكينِه؛ تناغيًا معَ الحَسْمِ الَّذي في التَّعبيرِ بـ: (لن) في صدرِ الآية: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾، فتأكيدُ هذا الحُكْمِ يرجعُ على النَّفي بالتَّحقيقِ والتَّوْكيدِ أيضًا.

معنى: ﴿فِي﴾، ودلالة التَّعبير بها:

هذا الحرفُ عنصرُ توكيدٍ لطيف في الآيةِ

كلمة: ﴿فِي﴾: حرفٌ معناهُ الظَّرفيَّةُ حقيقةً أو مجازًا، وهو في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾: حقيقيٌّ؛ لأنَّ الاشتراكَ فيه حسِّيٌّ ومعنويٌّ أيضًا، والمعنويُّ تابعٌ للحسِّيِّ، وناتجٌ عنهُ، وتدلُّ: ﴿فِي﴾ على قوَّة الاشتراكِ في هذا العذابِ؛ وأنَّ كلًّا منهم مُتمكِّنٌ منه، حاصلٌ عليه لا محالةَ؛ تناسُبًا مع كونِ النَّفي بـ: (لن) في صدر الآية، ومعَ التَّوكيدِ بـ(أنَّ) في جملة: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 214 - 215.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 55 - 56.

علَّة التَّعبير بالعذاب في: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾:

أنواعُ الشِّدَّةِ التي يكونُ فيها العاشونَ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ في الآخرة لا تُحْصَى

عبَّر القرآنُ في سياقِ توبيخِ أهلِ الكفرِ العاشِينَ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ الَّذينَ قيَّضَ اللهُ لكلِّ واحدٍ منهم شيطانًا، فهوله قرينٌ بالعذابِ، في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾؛ لأنَّه الألصقُ بإسرافهم في الكفر، وبكمالِ تمسُّكِهم بقرنائهم مِن الشَّياطين، فإنَّ الشَّياطينَ يَصُدّونهم عن السَّبيلِ، وهم معَ ذلك يَحْسَبون أنَّ الشَّياطين مهتدونَ، أو أنَّهم أنفُسَهُم مهتدونَ، ثم إنَّ قرناءَهُم يكونون معهم في محلِّ العقابِ، وهذه شِدَّةٌ أخرى يكونون فيها، وقد قيل في تفسير العذاب: إنَّ أصله الضرب، قال ابن فارسٍ: "وناسٌ يقولونَ: أصلُ العذابِ الضَّرْبُ، واحتَجّوا بقولِ زُهيرٍ:

وخَلْفَها سائقٌ يَحْدو إذا خَشِيَتْ *** منهُ العَذابَ تَمُدُّ الصُّلْبَ والعُنُقا

قال: ثم استُعير ذلك في كلِّ شِدَّةٍ"[1].

بلاغةُ تعريف ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ بـ(ال):

يوم القيامة لن يعشو الكافرون عن عذابِ الرَّحْمنِ

نظَم القرآنُ محلَّ الاشتراكِ بينَ أهل الكفرِ المُهمِلينَ للقرآنِ وقرنائهم الشَّياطين، مُعرَّفًا بـ(الـ)، وهو: ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾، فالظّاهرُ أنَّ: (الـ) للعهدِ الذِّهْنيِّ، فالمرادُ ما توعَّدَهُم اللّهُ به مِن العذابِ في الآخرةِ في القرآنِ، وهم في الدُّنْيا، ويجوزُ أنْ تكونَ في: (الـ) معنَى الكمالِ، أي: إنَّكم في العذابِ الكاملِ الَّذي ليس فوقَه عذابٌ مشتركونَ، وهذا الوجهُ ينظرُ إلى تمتُّعِهم في الحياةِ الدُّنْيا تمتُّعًا طويلًا كثيرًا، وإلى إسرافهم في الكفر.

نكتةُ تقديم ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾:

في التَّقديمِ تشويقٌ إلى المؤخَّرِ أيضًا

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان باسم الفاعل مِن الرُّباعيِّ: ﴿مُشۡتَرِكُونَ﴾، ولكنَّ القرآنَ قدَّمَه عليه؛ للعنايةِ بالعذابِ والاهتمامِ به، ووجهُ ذلكَ الإبلاغُ في ترهيبِ أهلِ الكفرِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عذب).

التّاركينَ للقرآنِ بالزَّجْرِ بهذا العذابِ وبالتَّخْويفِ به[1]، والتَّقديمُ اللّافِتُ للعذابِ يتناغَى معَ الحَسمِ والفَصلِ والشِّدَّةِ الكائنةِ بالنَّفي بـ: (لن) في صدرِ الآية، ثمَّ إنَّ التَّقديمَ أظهرُ للنَّفْي؛ لأنَّ مناطَ عدمِ النَّفْعِ جهةُ الاشتراكِ، وهي العذابُ، ونتَج عن التَّقديم توفُّر الانسجامِ الصَّوتيِّ الَّذي يُمكِّنُ المعنى في النَّفْسِ بين الفاصلةِ: ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾ والفواصلِ الَّتي قبلَها والَّتي بعدَها.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاشتراكِ مادَّةً وصِيغَةً:

اشتركوا في المعاصي وفي الطَّبْع على القلوب ثُمَّ في العذابِ

قولُه تعالى: ﴿مُشْتَرِكُونَ﴾: خبرُ (أنَّ) في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، ومادَّةُ هذه الكلمة معناها المُخالَطةُ، فالتَّعبيرُ بها دون: (مقترنون) فيه تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهُم، فهذا العذابُ كأنَّه هدفٌ سعَوا إليه، وكوَّنوا أسبابَه معًا؛ فأساسُه الاقترانُ الَّذي كان بينهم في الدُّنيا، وصفتُه أنَّه كإحاطة القيض بالبيض، فهذا الاشتراكُ في العذابِ نتيجةٌ للاقترانِ في الضَّلالِ، ويُضيف إليه أنَّ هذا الاقترانَ أنتج المماثلة بينهما، فقد صار الكافرُ مُماثلًا للشَّيْطانِ في الضَّلالِ والإضْلالِ، وهذا الخبرُ اسمُ فاعل، يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، وهو بهذا ينظرُ إلى معنى الاقترانِ الَّذي كانَ بينهما في الدُّنْيا، فقد كانَ ثابتًا دائمًا إلى أن جاءا اللّٰهَ العظيمَ، فقال الكافرُ لقرينه الشَّيطانِ ما قالَ، فنتيجتُه لا بُدَّ أن تأخُذَ صفتَه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 29.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠﴾

[الزخرف: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الآيةُ مِن تمام وصفِ العاشي عن ذِكْرِ الله

لَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ هو أصل مقطعٍ مِن المعنى امتدَّ إلى آخِرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾، وكانَ تعالى قد وصفَهم بالعشا؛ وصفَهُم في هذه الآية بالصَّمَم والعمَى، وما أحْسَنَ التَّرتيبَ! وإذا كان الأعمى لن يصل إليه ضوءٌ؛ فالأصمُّ لن يصل إليه صوتٌ، فتلك عاهة في العين، وهذه عاهةٌ في الأُذُن، فهذه الآيةُ امتدادٌ لمجموعة الآياتِ المُتعلِّقة بالَّذي يعشو عن ذِكْرِ الرَّحمن[1].

ولمّا أنبأتِ الآياتُ بأنَّ مَن يدعوهم رسولُ اللهِ محمَّدٌ ﷺ قومٌ قد توغَّلوا في الضَّلالِ، ورسخوا فيه، وتمكَّنَ فيهم، فقد عشوا عن ذِكْرِ الرَّحمن، وقيَّض الله لكلِّ واحدٍ منهم شيطانًا، مِن شأنِه أن يُثبِّتَه على ما هو فيه مِن باطلٍ وضلالٍ وعنادٍ وغفلةٍ وكُفْرٍ؛ صرَّحَتْ هذه الآيةُ بما يكشِفُ عن ذلك تمام الكَشْفِ، فبيَّنَتْ أنَّهم صمٌّ عميٌ؛ أحاطَ بهم الضَّلالُ إحاطةً لا يكادون ينفكّون عنها بحالٍ مِن الأحوالِ.

المَعنى الإجماليُّ:

يُـؤْيِسُ نبيَّه منهم؛ ليُسَرِّيَ عنه

يقول تعالى مُسلِّيًا نبيَّه محمَّدًا ﷺ لاجتهاده في دعاء قومه إلى الإيمان، مع ازديادهم في التَّعامِي عن الحقِّ والطُّغْيانِ والضَّلالِ والعُتوِّ والإعراضِ: أفأنتَ يا محمَّدُ تقدرُ أن تُسمع هؤلاء الكفّار الَّذين هم كالصُّمِّ والعُمْي، الَّذين لم ينتفعوا بحواسِّهم الانتفاعَ الَّذي يُجري

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 212، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

خلاصهم مِن عذاب الله، ومَن كان في ضلالٍ واضحٍ جدًّا، ليس لكَ ذلك، فلا يَضِقْ صدرُك؛ إنْ أصرّوا على الكفرِ، واستمرّوا عليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفهام في: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

تعب رسولُنا مِن قومه؛ فشغَله اللـه، وأراحَـه بشريفِ خطابه

بنَى القرآنُ قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على الاستفهام بالهمزة، وهو لإنكار أن يكونَ حرصُ الرَّسول ﷺ على هُداهُم ناجِعًا فيهم؛ إذا كان الله قدَّرَ ضلالَهم، فأوجد أسبابَه، كما قال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: 37]، وفيه مع الإنكار معنى التَّعجيب مِن حاله معهم، ولَمّا كانَت الهمزةُ داخلةً على: (أنت)؛ كان المقصودُ بالإنكار هو الفاعلَ[2]، والاستفهامُ محضٌ، معناهُ التَّنبيهُ، وإنَّما نُبِّه ﷺ بالاستفهام؛ لكمالِ استغراقه في هَمِّ دعوتهم وهدايتهم ونجاتهم، ففيه كلُّ مدحٍ له مِن ربِّه، وكلُّ ثناءٍ عليه مِنه.

بلاغةُ التَّعبير بالفاء في: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾:

مَوْقِعُ مِثْلِ هذهِ الفاءِ سَخِيٌّ جِدًّا

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: معناها السَّببيَّةُ والتَّفْريعُ والأبرُّ بشدَّة الإنكار، وقوَّتِه بالتَّمثيل: أن يكونَ المُسبَّبُ المُرَتَّبُ عنه مجموعَ الآياتِ الَّتي قبلَ هذه الآيةِ؛ بدءًا مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾؛ فإنَّ ذلكَ المُرتَّبَ عنه يفيدُ توغُّلَهُم في الضَّلالة، وعُسْرَ انفكاكهم عنها؛ مِمّا جعَل القرآن ينتقلُ منه إلى التَّهوينِ على النَّبيِّ ﷺ ما يُلاقيه مِن الكَدِّ والتَّحرُّقِ عليهم، في تصميمهم على الكفرِ والغيِّ، وفيه إيماءٌ إلى تأييسه مِن اهتداءِ أكثرِهم.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 18.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 18، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 216.

مَصَبُّ الإنكارِ مَحلُّ بالِغِ المدحِ والثَّناءِ

نكتةُ تقديم الضَّمير (أنت):

دخولُ الإنكار على المبتدأ (أنت)، وهو الفاعل في المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ﴾، يعني أنَّ الإنكار مُنصبٌّ عليه، وأنَّ الفعل الذي هو إسماع الصُّمِّ فعلٌ يُمكن أن يكون، ثم هو لا يكون إلّا مِن الله، وهذا هو معنى القَصْرِ الَّذي ذكَر العلماءُ أنَّ هذا الطَّريق مِن البناء يفيدُه، وهو قصر مؤكَّد، وقصرُ قلبٍ، أي: أنتَ لا تُسمعهم، ولا تهديهم، بل اللّهُ يُسمعهم، ويهديهم؛ إن شاءَ، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: 99]، أي: أأنتَ خصوصًا قد أوتيتَ أن تُسمع الصُّمَّ؟(1).

التَّمثيلُ المُركَّبُ هو الأبلغُ والأسْخَى دلالةً

بلاغة التَّمثيل في الآية:

جَرَى المعنى في الآية على طريقة التَّمثيل، وأنَّ مَن ادَّعى أمرًا صعبًا لا يقدرُ عليه؛ يكونُ بمنزلة مَن يدَّعِي هذه المستحيلات، فليس إسماعُ الصُّمِّ مِمّا يدَّعيه أحدٌ، فيكون ذلك للإنكار، وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ، وأن يُنزَّلَ الذي يَظُنُّ بهم أنَّهم يسمعون، أو أنَّه يستطيعُ إسماعَهُم، منزلةَ مَن يرى أنَّه يُسمع الصُّمَّ، ويَهدي العمي، ومن كان في ضلال مبين، وأنْ يُجعَل في ظنِّه أنَّه يستطيعُ إسماعهم بمثابة مَن يظنُّ أنَّه قد أوتِي قدرةً على إسماعِ الصُّمِّ وهدايةِ العُمْيِ والكائن في ضلالٍ مبين، وبلاغة التَّمثيلِ تظهر في تصويرِ جهد النَّبيِّ ﷺ في دعوته إيّاهُم إلى الخير والهدى، فقد كان ﷺ شديدَ الحرص على هداية قومه، شديدَ الحُبِّ لهم، شديدَ الإرادة لإقبالهم، يحزن لصدودهم، ويأسف على إدبارهم، والغرضُ مِن التَّمثيلِ أيضًا: التَّخفيفُ على النَّبيِّ ﷺ فيما يُقاسِي مِن الكرب في المبالغة في إبلاغِهم؛ حرصًا على إقبالهم، والغَمِّ مِن إعراضهم(2)، والتَّعبيرُ بـ: ﴿تُسۡمِعُ﴾؛ لمناسبة ﴿ٱلصُّمَّ﴾، وبـ: ﴿تَهۡدِي﴾؛

---

(1) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 120، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 216، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

(2) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 120 - 121، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 30، ود: محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

لمناسبة: ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾، والمُرادُ بالهدايةِ الإيصالُ إلى المطلوبِ بالفِعْل، فلا يُنافي قدرته ﷺ على الهداية بمعنى الدَّلالة على ما يوَصِّلُ إلى البُغْيةِ[1]، والصُّمُّ والعُمْيُ كلٌّ منهما على حقيقته، وإنَّما المجازُ في مجموعِ إسماعِ الصُّمِّ وهدايةِ العُمِي، فذلك مستعار لحالةِ إبلاغه ﷺ في دعوتهم إلى الهدى، واجتهاده العظيم في تحصيل الإيمان لهم، والإنكارُ على المجاز أبلغُ، والغرضُ منه أمكنُ في نفسه ﷺ ويتَّبَعُ هذا المجازَ المُركَّبَ فَهَمُ أنَّ أهلَ الكفر الَّذين لم يستجيبوا لرسول اللّه كالصُّمِّ، فلا يُمكنُه إسماعهم، وكالعُمْي الحيارى، فلا يُمكنه هدايتُهم، وإنَّما ذلك مِن شأنِ اللّه الملِك الحقِّ سبحانه، ويجوزُ جعْلُ المجاز بالاستعارة مفردًا في: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ - ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ على الاستقلال؛ إذ لا يجوزُ الجمعُ بين المجاز المفرد والمجاز المركب هنا، والمعنى على الاستعارة المفردة: أنَّهم "بلغوا في النُّفْرة عنك وعن دينك إلى حيثُ إذا أسمعتهم القرآن؛ كانوا كالأصمِّ، وإذا أريتهم المعجزات؛ كانوا كالأعمى"[2].

دلالةُ المضارعةِ في الفعلَين ﴿تُسۡمِعُ﴾، و﴿تَهۡدِي﴾:

الرَّسولُ في حالِ الخطابِ وبعدَه مُقْبِلٌ على قومِه أيضًا

نظَم القرآنُ معنَى كلٍّ مِن الإسماعِ والهدايةِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾؛ تصويرًا لشدَّة حرص الرَّسول الكريم ﷺ على هداية قومه، بتجدُّد حدوثِ الإسماع والهداية الَّتي هيَ هداية إرشاد، على جهة التَّكرار والاستمرار، فلم ييأس، ولم يكلَّ، ولم يملَّ، وتصويرًا لعراقة قومه في الضَّلالِ؛ لأنَّهم لم يتأثَّروا بشيء مِمّا قالَه لهُم.

نكتةُ تقديمِ الإسماعِ على الهداية:

قدَّمَ القرآنُ جملة: ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على جملة: ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾؛

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 324.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 212 - 213، وقال بهذا المجاز المفرد أبو حيان أيضًا في تفسيره: البحر المحيط: 8/ 18.

السَّماعُ ألصقُ بسياقِ ذِكْرِ الرَّحمنِ الَّذي هو القرآنُ

للعنايةِ والاهتمامِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ حالَ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ معَ قومِه، مِن دعوتِهم إلى الإيمانِ يتَمثَّلُ في إسماعِهم شيئًا مِن القرآنِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 6]، ثمَّ إنَّ التَّفاوُتَ بينَ النَّاسِ على العمومِ لا يُعْتَدُّ به، فيَكادونَ يَستوونَ فيه، وأمّا التَّفاوتُ بينهم في البَصَرِ؛ فمُعتَدٌّ به؛ لاتِّساعِه وكثرتِه، وقال الشَّيخُ أبو موسى: "وقدَّم: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ على: ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾؛ ليُتمِّمَ معنى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾؛ لأنَّ: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ رأسُ الآيةِ الرّاجعُ إلى رأسِ الآيةِ السّابقة، والأولى في العَشا الَّذي هو أخو العمَى، وهذه في الصَّممِ، وبذلك يستوفي الكلامُ صمَمَه مع عماهُ، ولأنَّ ذِكْرَ الرَّحمنِ الأصلُ فيه السَّماعُ؛ ولذلك يُقدَّمُ ما يدلُّ على افتقادِه في مِثْلِ هذا السِّياقِ، كما في قولِه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]"[1].

علَّةُ ذِكْرِ هدايةِ العُمْيِ:

معنى هذه الجملة نتاجُ حركة المعنى على مستوى الآيةِ وسياقِها

لَمّا كانت الآيةُ قد سيقَتْ؛ للتَّخْفيفِ عن الرَّسولِ ﷺ فيما يُقاسِي، ويُعاني مِن صدِّ قومِه الكُفّارِ له، ورفْضِهم لقرآنِه ودعوتِه، وانصرافِهم عنه، وكانت قد سلكت في تقريرِ ذلك مسلك الإنكارِ بالاستفهامِ، الَّذي هو أقوى مِن الإنكارِ بالنَّفيِ الصَّريحِ؛ أبلَغَتْ في بيانِ عظيمِ جهده، وعِظَمِ ضلالِ قومِه بذِكْرِ معنى: ﴿أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ من بعدِ ذِكْرِ ما هو الأصلُ في بيانِ ذلك بمعنَى: ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾، وعلى مستوى حركة المعنى في السِّياقِ تناسَبَ معنى هذه الجملةِ وموقِعُه مع قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

والرّازيُّ بيَّن هذا، فذكَر أنَّ الإنسانَ في أوَّلِ اشتغاله بطلبِ الدُّنيا يكونُ كمَن حصَل بعينِه رمَدٌ ضعيفٌ، ثمَّ كلَّما كان اشتغالُه بتلك الأعمالِ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378.

أكثرَ؛ كان مَيْلُه إلى الجُسْمانيّاتِ أشدَّ، وإعراضُه عن الرّوحانيّات أكملَ؛ لِما ثبَت في علوم العقل أنَّ كثرة الأفعال توجب حصول الْمَلَكات الرّاسخة، فينتقلُ الإنسانُ مِن الرَّمَد إلى أنْ يصيرَ أعشى، فإذا واظَب على تلك الحالةِ أيّامًا أخرى؛ انتقَل مِن كونه أعشَى إلى كونِه أعْمَى، فهذا ترتيبٌ حَسَنٌ موافِقٌ؛ لِما ثبَت بالبراهينِ اليقينيَّة[1].

وقال ابنُ عاشورٍ: "ومن بديع معنى الآية أن اللّه وصف حال إعراضهم عن الذِّكر بالعشا، وهو النَّظر الَّذي لا يتبيَّن شبح الشَّيء المنظور إليه، ثمَّ وصفهم هنا بالصُّمِّ العمي إشارة إلى أنَّ التَّمحُّل للضَّلال ومحاولة تأييده ينقلب بصاحبه إلى أشدِّ الضَّلال، لا أنَّ التَّخلُّق يأتي دونه الخلق والأحوال تنقلب ملكات، وهو معنى قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لا يزالُ العبْدُ يَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عندَ اللّهِ كَذّابًا»"[2].

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

هذا العطفُ مِن عطف المفردات

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: عاطفةٌ لِما بعدَها على ما قبلها من الوصف بالصَّمم والعمى، وهذا العطف "فيه معنى التَّذييل؛ لأنَّه أعمُّ من كلٍّ من الصُّمِّ والعمي باعتبار انفرادهما، وباعتبار أنَّ الصَّمم والعمى، لمّا كانا مجازين قد يكون تعلُّقهما بالمسموع والمبصر جزئيًّا في حالة خاصَّة، فكان الوصفُ بالكون في الضَّلال المبين تنبيهًا على عموم الأحوال، وهو مع ذلك ترشيحٌ للاستعارة؛ لأنَّ اجتماع الصَّمم والعمى أبينُ ضلالًا"[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلته:

مَـــن كـفَـر بالعظيمِ ظهَر ضلالُه غايةَ الظُّهور

كلمة: (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ اسمُ موصولٍ، صلتُه جملة: ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، ومعنى نظْمِها صلةً أنَّ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 213.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 216، والمذكورُ قولًا لنبيّنا ﷺ: جزءٌ مِن حديثٍ في صحيح الإمام مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق، وفضله، حديث رقم: 2607.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 217.

معناها عنوانٌ للموصولِ، فهو معروفٌ معلومٌ مشهورٌ به، لا يستطيعُ أحدٌ دفْعَه، فكلُّ مَن أبْصَر حالَ أهل الكفر مع ذِكْر الرَّحمن رأى أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كمَن كانَ في ضلالٍ مُبِين، وهذا يُعين على تحقيقِ التَّسْليةِ والتَّخفيفِ والمدح له ﷺ، والذَّمِّ لأهل الكفر.

علَّةُ التَّعبير بالكَوْن في: ﴿كَانَ فِى ضَلَٰلٍ﴾:

دلالـــةُ الـكـونِ تـأسَّـسَ عليها الإنكارُ

عبَّر القرآنُ بمادَّة الكون في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نفوسَ أهل الكفر قد صار مِن شأنِها قَبولُ الكفر، حتّى صار الكُفْر في طبعِها وديدنها، وهذا مِن مقتضيات الإنكار بالاستفهام، والتَّمثيل، ولَمّا كانَ سياقُ قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٨٥﴾ [القصص: 85] التَّبشير والإنصاف والتَّسليم لم يأتِ القرآن بكلمة الكون في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٨٥﴾ [القصص: 85]؛ إلماحًا إلى إمكانِ رجوعِ قومِه ﷺ مِن الكفر إلى الإيمان؛ تزامُنًا معَ رجوعه ﷺ مِن المدينة الَّتي هاجر إليها مطرودًا مخذولًا مِن قومِه في مكَّة إلى مكَّة مُنتصِرًا، وبالفعل قد آمَن كثيرونَ بعدَ أن أتَى رسولُ الله مكَّة، وقد ظنّوه أخًا كريمًا وابنَ أخٍ كريمٍ، وعفا عن مَن ظلمَه، وأطلق سراحهم.

دلالةُ المُضِيِّ في: ﴿كَانَ﴾:

قد يتجرَّدُ الكون الماضي لفظًا عن الزَّمان، بقرينة لغرضٍ

كانَ الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآن: (ومَن يكونُ في ضلال مبين)، فهُم ما زالوا كافرينَ بالله ورسوله، ولكنَّه نظَمَه فعلًا ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق حصولِ الكون، وللإبلاغ في التَّيئيسِ من هدايتهم؛ ليسلّيَه ﷺ، ويُخفِّفَ عنه، كأنَّ الواحِدَ منهُم قد خُتِمَ لهُ بالكَوْن في ضلالٍ مُبين، بقرينة قوْلِه تعالى بَعْدَه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، ويَجوزُ أن يكونَ ذلكَ قرينةً على كَوْن الكَوْنِ الماضِي مَعْناهُ: كانَ ولا يَزالُ، فهو ماضٍ لفظًا، مُسْتمرٌّ معْنًى، فكونُهُم في ضلال مُبين مُستمرٌّ دائمٌ، ويؤيِّدُ هذا كونُهُم صُمًّا عُمْيًا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالضَّلالِ في: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:

مَن ضَلَّ عن ذِكْرِ الرَّحْمنِ، فقد ضَلَّ الطَّريقَ إلى اللهِ

أثبَتَ القرآنُ لأهلِ الكُفْرِ - الذين اعترَضوا على القرآنِ، ومَن جاءَهُم به، وأعرضوا عنهما - العَشا عن ذِكْرِ الرَّحْمَن، وقيَّضَ لهُم قرينًا مِن الشَّيطانِ، ثم أثبَتَ لهُم الصَّمَمَ، والعَمَى، فكانَ إثباتُ الضَّلالِ لهُم، على جهة التَّمْثِيلِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نِتاجَ حركةِ المعنَى في هذه الآياتِ، "والضَّلالُ: التِّيهُ الَّذي طُمِستْ معالِمُه، والضّالُّ فيه لا يرَى شيئًا يهتدي به؛ وإنَّما يَضْرِبُ في متاهةٍ لا يدري أين طرَفاها؟ وفي طَيِّ هذا تحذيرٌ مِن الضَّلال الذي يبدأُ بخُطْوةٍ واحدةٍ في طريقِ الخطأ، فتقودُ إلى هذا التِّيهِ المُبِينِ، وهذِهِ الخُطْوةُ الواحدةُ الَّتي فتحَتْ بابَ الضَّلالِ في الجزءِ السّابق، والَّذي أفْضَى إلى أنَّه لا ينفعُهُم أنَّهُم في العذابِ مشتركون: هيَ عدمُ العنايةِ بالنَّظَر في ذِكْرِ الرَّحْمنِ"(1)، وقال أبو السُّعود: "واستغرقوا في الضَّلالِ؛ بحيثُ صارَ ما بهم مِن العشا عَمًى مقرونًا بالصَّمَمِ"(2).

سِرُّ تنكيرِ لفظ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

مِثْلُ هذا الضَّلالِ لا حدَّ له

نظَم القرآنُ الضَّلال نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على النَّوعيَّةِ، أي: في نوعٍ من الضَّلال عجيبٍ وغريبٍ، كأنَّ هذا الضَّلالَ لا يتعارَفُه النّاسُ، بقرينة قوله: ﴿مُّبِينٍ﴾، وأنَّ هذا الضَّلالَ صفةٌ لِمَن هو أعشى، بل لِمَن هو أصمُّ وأعْمَى، ويجوزُ أن يكونَ للتَّهويل، بنَفْسِ القرينة.

علَّةُ وصْف الضَّلال بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

الـوَصْـفُ مِـن تمامِ بيانِ حالِ الموصوفِ

وصَف القرآنُ الضَّلالَ باسْمِ الفاعلِ: ﴿مُّبِينٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالةِ على تمامِ هذا الضَّلالِ وكمالِه

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 380.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 88.

في نفْسِه وبالنِّسْبةِ إلى غيرِه مِمّا هو في جِنْسِه، والمعنى: "بيِّن في نفْسِه أنَّه ضالٌّ، وأنَّه محيط بالضَّلال، مظهر لكلِّ أحد ذلك، فهو بحيثُ لا يخفَى على أحدٍ"[1]، وتنكيرُ الوَصْفِ: ﴿مُّبِينٍ﴾ تابِعٌ لتنكير الموصوفِ: ﴿ضَلَٰلٍ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 30.

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ٤١ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ٤٢﴾ [الزخرف: 41 - 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تـقـريـرُ كـمـال التَّسلية بالوَعْدِ بنُصْرة الدِّين

لَمّا دلَّت الآيةُ السّابقةُ على إغلاق باب الأملِ في هدايتهم؛ لأنَّ الأصمَّ لا يَسمع، والأعمى لا يرى، والَّذي في ضلال مبين لا يَؤوبُ، وهذا يتَطلَّبُ معرفة جوابِ سؤالٍ يقولُ: وماذا بعدُ؟ أيُّ شيءٍ بعدَ اليأسِ مِن هدايةِ الأصمِّ الأعمى؟ فتُجيبُ الآيتانِ، وتقولُ: الَّذي بعدَ ذلك هو نُصْرةُ دينكَ يا محمَّدُ في حياتك، أو بعد مماتك؛ لأنَّ الانتقامَ مِن المُجادِلينَ للّه بعدَ موتِه ﷺ، لا معنى له في مقامه هذا، وسياقه هذا إلّا نصرةُ الدِّين؛ لأنَّ كَسْرَ عِظام عدوٍّ دين اللّه يعني نصرة دين اللّه، وليس بعد نُصرة الدِّين مِن تسليةٍ(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾: (قدر): أصل صحيح يدلُّ على مبلغ الشَّيء وكُنْهه ونهايته، فالقدر مبلغُ كلِّ شيء، يُقال: قدره كذا، أي: مبلغُه، وكذلك القدَر، والقُدْرة إذا وُصِفَ بها الإنسان فاسمٌ لهيئةٍ له، بها يتمكَّن مِن فعل شيء ما، وإذا وُصِف بها اللّه تعالى؛ فهي نفيُ العجز عنه، وهذا هو المرادُ مِن القدرة في كلمة: ﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾، وقدرته تعالى تامَّة مطلقةٌ، ومُحال أن يوصَف غيرُ اللّه بالقدرة المطلقة معنًى، وإن أُطلِق عليه لفظًا(2).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نصْرُ الدّين وعدٌ متحقِّقٌ من ربِّ العالمين

في هاتيْنِ الآيتيْنِ يُخاطِبُ اللّهُ نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأنْ يستمرَّ في

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 378، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 219.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قدر).

دعوته غيرَ ناظِرٍ إلى نتائجِ هذه الدَّعوة، ولو وجد قومه صُمًّا آذانُهم، وعُمْيًا عيونُهم عن قولِه؛ لأنَّه سينصرُ دينَه - لا محالةَ - فإنْ عجَّل اللهُ وفاةَ نبيِّه قبل الانتقامِ مِن أهل الكفر؛ فإنَّه سينتقمُ منهم بعدَ وفاتِه، أو أن يُرِيَ اللهُ رسولَه العذابَ الَّذي وعدهم به في حياته، فإنَّه قادرٌ عليهم، فهُم في قبضة قدرته، لا يفوتونه أبدًا، وقد أراهُ اللهُ ذلكَ يومَ بدرٍ، ولم يقبض الله رسولَه حتَّى أقرَّ عينَه مِن أعدائه، وحكَّمَه في نواصيهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعبير بالفاء في: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾:

قد تترَتَّبُ المِنْحةُ على المِحْنةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ معناها التَّفريعُ والتَّرتيبُ، فما بعدَها مُفرَّعٌ على قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، ووجهُ ذلكَ: أنَّ المُفرَّعَ عنه يتضمَّنُ إيماءً إلى التَّأييسِ مِن اهتدائِهم، وتصريحَ تسليةٍ له ﷺ، مِن شدَّةِ الحِرْصِ في دعوتِهم، فناسَبَ ذلكَ أن يكونَ المُفرَّعُ إخبارًا بتحقيقِ وعدٍ بالانتقامِ منهم، ومعناهُ الوَعْدُ بإظهارِ الدِّينِ؛ إن كانَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ، أو بعدَ وفاتِه، ووعيدِهم بالعقابِ في الدُّنيا قبلَ عقابِ الآخرةِ، والمُفرَّعُ هو: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وأمّا ما ذُكِر معَه؛ فمرادٌ منه تحقُّقُ ذلكَ على كلِّ تقديرٍ[2].

سِرُّ التَّوكيدِ في الآية:

في التَّوكيدِ تجليةٌ لعظيمِ مقامِ رسولِنا عندَ ربِّه

قولُه تعالى: (إمّا) مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: كلمتانِ مُتَّصلتانِ، أصلُهما: (إن) الشَّرطيَّة، و: (ما) زائدةٌ بعدَ: (إنْ)، وأُدغِمَتْ نونُ: (إنْ) في الميم مِن حرفِ: (ما)، وكتُبت الكلمتانِ كما نُطِقَتا، ويكثُر اتِّصالُ فِعْلِ الشَّرْط بعدَ: (إن) المزيدةِ بعدَها: (ما)

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 382.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 217.

بنونِ التَّوكيدِ؛ زيادةً في التَّوكيدِ، وقد اتَّصلت هذه النّونُ بالفعل في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ﴾ أيضًا، وجملةُ: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ مؤكَّدةٌ بإنَّ واسميَّةِ الجملةِ، وكذلك جملةُ: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾[1]، وذلكَ التَّوكيدُ الَّذي يجري في بيانِ الآيةِ ناظِرٌ إلى مَن يَظُنُّ خِلافَ ذلك، مِن أهلِ الكُفرِ، وناظِرٌ إلى أنَّه ﷺ مُشَرَّفٌ عندَه - ﷻ - مُعظَّمٌ لديه، فذَهابُه به مِمّا يُستبعَد، ومن حقِّه أنْ يُنْكَر، وكذا إراءتُه ما توعَّدَهُم بِه؛ لأنَّ المَظنونَ إكرامُهُم لأجْلِه[2].

دلالةُ إسنادِ الفعلين إلى الله تعالى:

رســولُ الـلـه مـحـمَّـدٌ أقـربُ الخَلْقِ إلى الله ومِن الله

في قوله تعالى: ﴿نَذۡهَبَنَّ﴾ و﴿نُرِيَنَّكَ﴾: أسند القرآنُ معنى كلِّ فعلٍ مِن الذَّهابِ والإراءةِ إلى اللّه ﷻ، وهذا الإسنادُ - في نورِ سياقِ تقريرِ عظيمِ جهدِه ﷺ في دعوتهم، وحرصِه على هدايتهم - يدلُّ على غايةِ إكرامِ اللّه لرسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ، وغايةِ اعتنائِه بشأنِه، واهتمامِه لأمرِه، وهكذا كلُّ صادقٍ مخلصٍ في دعوته إلى الحقِّ، وكلٌّ على قدرِه ورتبتِه ودرجتِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاء في: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾:

مَن جعَل الخيرَ سببًا في حصولِ الـشَّـرِّ لـه؛ فهو أحمقُ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ واقعةٌ في صدرِ جوابِ الشَّرطِ؛ سواءٌ أكان ما بعدَها هو الجوابَ، أو كانَ دليلًا عليه، وكان الجوابُ محذوفًا، وسيأتي أنَّ الجوابَ هنا محذوفٌ في موضعَيْه، وترتيبُ الانتقام منهم على الذَّهابِ به ﷺ، والاقتدارِ عليهم على إراءةِ اللّهِ نبيَّه العذابَ الَّذي وعدَهُم إيّاه، في ظاهرِ اللَّفظِ: دلالةٌ على شدَّة الغضب، وإبلاغٌ في اللَّفتِ إلى عظيمِ قدرِه ﷺ، وأنَّ وجودَه فيهم نعمةٌ جليلةٌ جِدًّا؛ لأنَّ وجودَه بين أظهُرِهم هو سببُ تأخيرِ العذابِ عنهم، وأنَّ معصيتَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 217.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 30.

ورفْضَه ومحاولةَ التَّقْليلِ مِن شأنِه، وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِن المعنَى: سببٌ عظيمٌ لغضبِ اللّه ﷻ، وذلك كلُّه يرجِعُ إلى قولهم في السِّباق: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، بالنَّقْضِ والإبطالِ والإنكارِ.

علَّة التَّعبير بضمير العظمة:

مَـن غـفَـل عن عظمة اللـه في حـالِ الإمـهال؛ أبْصَرها في حالِ العذابِ

أسند القرآنُ الانتقامَ مِن أهلِ الكُفْر الصُّمِّ العُمْي، والاقتدارَ عليهم إلى ضميرِ العظمة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾؛ إبلاغًا في ترهيبِهم وتهديدِهم، وإنباءً بعِظَم مخالفتِه ﷺ؛ تعظيمًا وتفخيمًا لشأنه الشَّريفِ وجنابِه المُنِيفِ، وإرشادًا إلى عظيمِ قدرتِه تعالى على أن يُحقِّقَ فيهم ما يريدُ.

نكتةُ تقديم ﴿مِنۡهُم﴾، و﴿عَلَيۡهِم﴾:

مَـن هـانَ عليه رسولُ الله؛ هان كـلَّ الـهوان على الله

قدَّم القرآنُ الجارَّ والمجرورَ: ﴿مِنۡهُم﴾ على قوله تعالى: ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ على خلاف الظّاهر؛ لأنَّ المُقدَّم مُتعلِّقٌ بالمُؤخَّر الَّذي هو اسمُ فاعلٍ، وكذلك تقديمُ قوله: ﴿عَلَيۡهِم﴾ على قوله: ﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾؛ للعناية والاهتمام، ووجهُ ذلكَ هنا الدَّلالةُ على التَّمكُّنِ في الانتقام منهم والاقتدارِ عليهم[1]؛ وللدَّلالة على عظيم استحقاقهم لذلك كلِّه، أي: مِثْلُهم كفرًا وشركًا وعصيةً، وهوانًا وضعْفًا ننتقمُ منه، ونقتدرُ عليه، ونتَج عن هذا التَّقديم تأخيرُ قولِه تعالى: ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾، فتحقَّقَ بذلك التَّناسب معَ الفواصلِ قبلَهما، والفواصلِ بعدَهما.

علَّةُ التَّعبيرِ بالانتقام مادَّةً وصِيغَةً:

مَن عـابَ رسولَ اللهِ؛ انتقَم الله منه

لَمّا كانَ قومُ رسولِ اللّهِ ﷺ قد عابوه، وجعلوه سببَ رفْضِ الهُدَى والحقِّ الَّذي جاءَهُم بهِ مِن عندِ اللّهِ ربِّهم، فقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 218.

﴿ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: 31]، كانَ جزاؤُهُم مِن جِنْسِ عملِهِم، فعبَّرَ عن عذابِهم وعقابِهم بالانتقام، فقال: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، ومادَّتُه تدلُّ على إنكارِ شيء وعيبِه، يُقال: نقمْتُ عليه أنْقِمُ: أنكرتُ عليه فِعْلَه، والنِّقْمة مِن العذابِ والانتقام، كأنَّه أنكَر عليه، فعاقَبَه[1]، وذلكَ على سبيلِ المجازِ المُرْسَلِ الَّذي عَلاقَتُه اللُّزوميَّةُ، فكأنَّ القرآنَ بذلكَ جَمَعَ بينَ المُسبَّبِ للعقابِ وسببِه، مِن إنكارِهم على رسولِ اللّه ﷺ أنْ يكونَ نبيًّا ورسولًا، وهذا ضَرْبٌ مِن الإيجازِ عَلِيٌّ، "وقد استُعمل: ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾ للزَّمان المستقبلِ استعمالَ اسمِ الفاعل في الاستقبال، وهو مجازٌ شائعٌ مُساوٍ للحقيقةِ، والقرينةُ قولُه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾"[2]، وصيغةُ الافتعالِ في الانتقامِ تدلُّ على مزيدٍ مِن الغَضَبِ، وصيغةُ الاسميَّة تدلُّ على ثباتِ الانتقامِ ودوامِه[3].

نكتةُ التَّقديم بين الآيتَين:

لن يضيِّع الله دينَه، ولن يخذل أولياءه

قدَّمَ القرآنُ الجملةَ الأولى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ على الجملةِ الثّانية: ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾؛ "لمعنًى جليلٍ، وهو أنَّ الأمرَ أمرُنا، وأنَّ الشَّأنَ شأنُنا، نفعلُ ما تراهُ الحِكْمةُ، وليس ما يتمنّاهُ أولياؤُنا، ثمَّ إنَّ نُصْرة الحقِّ بعدَ الموتِ داعية أفعلُ وأدلُّ على أنَّ صوتَ الحقِّ لنْ يَضِيعَ عندَ اللّه، وإن صُمَّتْ عنه الآذانُ، وعَمِيَتْ عنهُ العُيونُ"[4]. فالتَّقديمُ امتدادٌ لتقريرِ أنَّ كلَّ شيءٍ يتعلَّقُ بكُفْرِ هؤلاء وإيمانِهم إلى اللّه القادرِ، فليس شيءٌ مِن ذلكَ إليه ﷺ، وما عليه إلّا البلاغُ.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (نقم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 218.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 218، و محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 384.
(4) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 383.

معنى: ﴿أَوۡ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

الآيتانِ يُمثِّلان وجهيْنِ لحقيقةٍ واحدةٍ

كلمة: ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾: حرفُ عطفٍ، وهي هنا للتَّقسيمِ والتَّرْديد، وفائدةُ التَّرْديدِ في هذا الشَّرْطِ: تعميمُ الحاليْنِ حالِ حياةِ النَّبيِّ ﷺ، وحالِ وفاتِه، والمقصودُ: وقت ذينك الحاليْنِ؛ لأنَّ المقصودَ توقيتُ الانتقام منهم، والمعنى: أنّنا منتقمون منهم في الدُّنْيا، سواءٌ كنتَ حيًّا، أو بعدَ موتك، أي: فالانتقام منهم مِن شأننا، وليس مِن شأنِك؛ لأنَّه مِن أجلِ إعراضِهم عن أمرِنا ودينِنا(1).

علَّةُ التَّعبير بالإراءة مادَّةً وصيغةً:

موعود الله تعالى قريب

عبَّر القرآن بالإراءة مِن الرُّؤْيةِ البصريَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّها أدلُّ على التَّهديدِ، وحصولِ النَّصْرِ، وشفاءِ صدرِه مِن أعدائه أعداءِ الدِّينِ، و"لأنَّ الاقتدار ممّا يُرَى، فناسَبَ الشَّرْط"(2)، الَّذي هو مِن الرُّؤية: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾: معطوفٌ على ما بعدَ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾؛ فنَظْمُ الإراءةِ فعلًا مضارِعًا يُنبِّهُهُم على إمكانِ حدوثِها في أيِّ وقتٍ يريدُه اللّه ﷻ، فهو للحالِ والاستقبالِ؛ مفيدًا التَّهديدَ والتَّرهيبَ الشَّديدَ، كالمضارع: ﴿نَذۡهَبَنَّ﴾.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصوليَّة في: ﴿ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾:

قد أرَى الله نبيَّه ذلكَ يوم بدرٍ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾: المرادُ بالموصولِ وصلتِه هو العذابُ، فهو الانتقامُ المأخوذُ مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وقد أراه اللّه الانتقامَ منهم بقتْلِ صناديدِهم يومَ بَدْرٍ(3)، والتَّعبيرُ عنه بالموصوليَّةِ إبلاغٌ في التَّهديدِ والتَّرهيبِ بالمواجهة بالوعيدِ بما يعرفونه.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 219.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 384.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 218.

علَّةُ التَّعبيرِ بضمير العظمة في: ﴿وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾:

تتظاهَرُ عناصرُ الآيـةِ على بيان عظمته ﷻ

أسند القرآنُ الوعد الَّذي هو بمعنى الوعيد إلى ضمير العظمة: (نا) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾؛ للمبالغة في تهديدهم بتقرير كشْفِ ذلك العذابِ عن عظمة قدرة اللّه تعالى، فالمُسْرِفُ في الكُفْر شديدُ الغفلةِ عن اللّه جلالًا وجمالًا وكمالًا، فمَن لم يعرفه في حالِ العمل؛ عرَفَه في حال الحساب والعقاب، وهل تنفعُه معرفتُه حينئذٍ؟ وتعظيم العذابِ وتهويلُه تعظيمٌ للمُخاطَبِ ﷺ، بقرينة قوله: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ﴾.

سِرُّ حذفِ جواب الشَّرط:

يـوحِـشُ رسـولَ اللهِ ويُحْزِنُه أيُّ خبرِ سوءٍ لأُمَّتِه

اقترَن قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ بفاء جواب الشَّرط؛ لأنَّه جملة اسميَّةٌ؛ لكنَّه ليس هو الجوابَ بإجماع المفسِّرين؛ لأنَّ اقتدارَ اللّه عليهم ليس مشروطًا بشرطٍ، فلا يُناسب أنْ يكون مُعلَّقًا على إراءته الرَّسولَ ﷺ الانتقامَ منهم، والتَّقديرُ: أو نرينَّك الذي وعدناهم، فتقرَّ عينُكَ، أو: نرينَّك الَّذي وعدناهم تره انتقامًا، لا يَفْلِتون منه، وإنَّما حُذِف الجوابُ إيجازًا؛ لقَصْدِ التَّهويل[1]، وفي الحذفِ هنا ما في نظيره في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، من عدم إيحاش نَفْس رسولِ اللّهِ ﷺ بما يُغْضِبُه، ويُحْزِنُه في شأنِ أمَّته.

معنى: ﴿عَلَىٰ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

يـفـعـلُ الـلـه ما يـشـاء بـقـدرتـه وعلمه وحكمته

كلمة: ﴿عَلَىٰ﴾ حرفٌ معناه الاستعلاءُ الحقيقيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: 13]، أو المجازيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وهي هنا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ من هذا الباب، فقدرةُ اللّهِ مستعليةٌ عليهم، مُتمكِّنةٌ منهم غايةَ التَّمكُّنِ، فهُم مغلوبون مقهورون - لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 218، و محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 384.

محالةَ - فدين اللّه منصورٌ كذلك، فأيُّ قدرةٍ تثبت في مواجهة قدرة ملِك الملوك ﷻ؟

دلالةُ صيغة الافتعال في لفظ ﴿مُّقۡتَدِرُونَ﴾:

شــدَّة الـقـدرة صــورة لـعِـظَـم الجريمة

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾: نظَم القرآن قدرة اللّه على هؤلاء الكافرين الصُّمِّ العُمْي في صيغة الافتعال، والاقتدارُ شِدَّةُ القدرة، واقتدَرَ أبلغُ مِن قدرَ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ وعيدِهم وتهديدِهم، وتحقيقٌ وتوكيدٌ لوقوعِ الوعيد؛ لأنَّ أفعالَ أهلِ الكفرِ أفعالُ مَن يُنكر قدرتَه تعالى، ودلالةٌ على مزيدٍ مِن الغضبِ الإلهيِّ عليهم[1]؛ لأنَّهم غفلوا، وانصرفوا، وأعرضوا عن عظيم، وهو ذِكْرُ الرَّحمنِ، والنَّبيُّ المصطفَى العدنان، الَّذي لم يكن له مِن همٍّ إلّا همُّ دعوتهم إلى الحقِّ والهدى؛ لينجو مِن عذابِ اللّه وغضبه في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ تقييدِ الجوابِ بالشَّرْطِ:

التَّجَرُّدُ للدَّعْوةِ إلى الحقِّ أخصُّ صفاتِ الدُّعاةِ الحقيقيِّينَ

إذا كان قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾: هو المقصود بالتَّفريعِ، فهو المُفرَّعُ في الحقيقة، فلماذا ارتبَط بهذا الشَّرْطِ، الَّذي هو موتُه ﷺ في الأوَّلِ، وإراءته عذابهم حال حياته في الثّاني؟ والجواب أنَّ ذلك لإفادةِ معنًى جليلٍ يعْظُم به الدُّعاةُ إلى دِينِ اللّه تعالى، في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ، "وهوَ أنَّ الدُّعاةَ إلى الحقِّ الَّذي يُؤمنون به في أمور الدِّين، وفي أمورِ الدُّنْيا في العِلْم أو في السِّياسةِ، أو فيما شئتَ: عليهم أن يُخْلِصوا في دعوتهم إلى ما آمَنوا به غيرَ ناظِرينَ إلى نتائجِ هذهِ الدَّعوةِ، ويستوي أن يَرَوا بأعينِهم آثارَ دعوتِهم ومظاهرَ نجاحِها، أو يَرَوا بأعيُنِهم أنَّها ليس لها نتائِجُ"[2]، ومِن فوائدِ التَّقييد بالشَّرط الأوَّل:

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 30، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 218، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 384.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 382.

لأنَّه اللّافِتُ: دَفْعُ استبطاء النَّبيِّ ﷺ، أو المسلمين تأخيرَ الانتقام مِن المشركين؛ لأنَّ المشركين كانوا يتربَّصون بالنَّبيِّ الموت، فيستريحوا مِن دعوته، فأَعْلَمَه اللّٰه أنَّه لا يُفلِتُهم مِن الانتقام على تقدير موتِه، وقد حكَى اللّٰه عنهم قولَهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠﴾ [الطور: 30]، ففي هذا الوعيدِ إلقاءُ الرُّعْبِ في قلوبهم؛ لِما يسمعونه[1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الانتقام والثّأر:

الانتقامُ أعمُّ مِن الثَّأر

الثَّأْرُ: هو القتلُ النّاتجُ عن قتلٍ، يُقال: ثأرتُ فلانًا بفلانٍ؛ إذا قتلْتَ قاتلَه، والنِّقْمةُ والانتقامُ: إنكارُ العيبِ، وقد يُشْفَع بالعقابِ عليه، أي: كأنَّه أنكَر عليه، فعاقَبَهُ، ولذلك قال الرّاغبُ: إنَّ النِّقمة إنكار الشَّيء إمّا باللِّسان، وإمّا بالعقوبة[2]، واللّٰه تعالى قال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136]، فجعَل الغرق سببًا عن الانتقام، وقال: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٥﴾ [الزخرف: 25]، فجعل الانتقام عقابًا، فكلٌّ منهما غيرُ الآخَرِ، وقد يكونُ مآلُهما واحدًا؛ إذا أُعْقِبَ الانتقامُ بالقتلِ، ولا شكَّ أنَّ في الثَّأر إنكارًا، وعُبِّر بالانتقام؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّٰه قد أقامَ عليهم الحُجَّة، بإنكارِه عليهم ما كان منهم، وتنبيهِهم إلى خطَئِهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 219.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (ثأر)، و(نقم)، والراغب، المفردات: (نقم).

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾

[الزخرف: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الَّذي يدعو بما أوحَى اللهُ بهِ لا يجوزُ له أن يفتر في سبيل هذا الشَّرفِ العظيم

لَمّا بيَّنَ تعالى في السِّباق القريبِ أنَّ العاشينَ عن ذكره؛ صاروا كالصُّمِّ العُمْي؛ لعراقتهم في الضَّلالِ العظيم المُبِين، ووعَد تعالى بنُصْرةِ دينِه في حال حياته ﷺ، أو بعدَ الذَّهابِ به؛ أرشد تعالى بهذه الآية نبيَّه محمَّدًا ﷺ رأسَ أهلِ الحقِّ والإيمانِ، ومن ورائه أُمَّتُه أمَّةُ الإجابةِ، إلى ديمومةِ الاستمساكِ بالذِّكْر الحكيم، وإنْ ظلَّ أهلُ الباطلِ على حالهم، وإنْ لم ينتقم اللّه منهم مِن باب أَوْلى، وإن أراه اللّهُ فيهم ما وعدَهُم به مِن العذابِ، وإن انتقمَ اللّهُ منهم بعدَ موته؛ فليستمسك أتباعُه بالحقِّ والهُدَى؛ حتّى يكونوا مِن الَّذين يبلِّغون رسالات اللّه، ويخشونه، ولا يخشون أحدًا إلّا اللّه، وألّا يُداخلهم في ذلك فتورٌ ولا يأسٌ، وأن يكونوا قائمينَ على أمر اللّه لا يضرُّهُم مَن خالفَهُم، بل عليهم أن يُراجعوا ما هم عليه مِن حقٍّ، وأنْ يُراجِعوا فهْمَهم، وأنَّه لا يجوزُ لهم أنْ يشكّوا في أنَّ الدَّعْوة إلى الصَّواب والصِّدْق في كلِّ باب مِن أبواب العِلْم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾: (مسك): أصلٌ واحدٌ صحيحٌ؛ يدلُّ على حَبْسِ الشَّيء أو تحبُّسِه، وإمساكُ الشَّيء التَّعلُّقُ به، وحفظُه، وأمْسكْتُ بالشَّيء، وتمسَّكتُ به، واستمسكتُ، وامتسكْتُ: كلُّه بمعنى: اعتصَمْتُ[2]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 31، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 386 - 387.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مسك).

والمقصودُ بالاستمساكِ المأمورِ بهِ هنا حِفظُ الوحيِ ووعيِهُ واليقظةُ؛ لِما فيهِ مِن معاني الهُدَى، والحِرْصُ الشَّديدُ على ما فيهِ مِن هداياتٍ وأحكامٍ، وإبصارُ نفاسَتِه في ذلكَ، وكلُّ ذلكَ يُنْتِجُ الاستمرارَ على الدَّعوةِ إليه، وعدمِ تركِ هذه الدَّعوة.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ما دامَ الحقُّ في ذاتـه لا يتغيَّرُ؛ فـأهـلُ الـحـقِّ يـثـبُـتـون، ولا يتغيَّرون

يقولُ تعالى: إذا عرَفْتَ - يا محمَّدُ - أنَّ حالَ قومِك ما ذكرتُ لكَ؛ فتمسَّكْ بالقرآنِ الَّذي أوحيناه إليكَ، وما دام وحيًا مِنَّا؛ فمِن شأنِه أن يُسْتَمْسَك به؛ لأنَّه حقٌّ واضِحٌ وطريقٌ مستقيمٌ يوصِّلُ إلى كلِّ خيرٍ في الدّارَيْنِ، سواءٌ أصرّوا على كفرِهم، أو رجَعوا إلى الحقِّ، مِن بابِ أَوْلى، وسواءٌ انتقمنا منهم، أم لا؛ لأنَّهم أهلُ ضلالٍ، فلا يميلُ عن مِثْلِ الصِّراطِ المستقيمِ إلّا ضالٌّ في الدِّين، ولا يستمسك به إلّا كلُّ مُهْتَدٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء، ودلالة التَّعبير بها:

الاعتصامُ بالله والاستمساك بدينه ملجأ الأنبياء والصّالحين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾: معناها السَّببيَّةُ والتَّعقيب والتَّرتيب مِن غير مهلة، فيجوز أن تُرتِّبَ ما بعدها على قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، ووجهُ التَّرتيبِ فيه غورٌ بعيدٌ، فترتيبُ وعْدِه رسولَه عليه السلام بنُصْرةِ دينه على بلوغ القوم غايةَ الإعراض والعنادِ يرجِعُ غورُه إلى عِزِّ الألوهيَّة الَّتي تملكُ أن تُبشِّرَ بالنَّصرِ، معَ هذا العِنادِ البالغِ، وأنَّه هو سبحانه، الَّذي يفتحُ هذه الآذانَ الصُّمَّ، وهو وحدَه - وليس النَّبيُّ ﷺ - هو الَّذي يَهْدي هؤلاءِ المُصِرِّينَ على العَمَى[2]، وكذلك يُقال في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 213.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 385.

ترتُّبِ ما بعدها على ما بعدَ الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾، ويجوزُ أن تُرتِّبَ ما بعدَها على مجموع ما بعدَ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، ووجهُ ذلكَ التَّرتُّبِ أنَّ انصرافَ الخَلْقِ عن الحقِّ قد يفُتُّ في عضُدِ الدُّعاةِ إلى دينِ اللّه تعالى، فأرشدَهُم اللّهُ في صورة خطابِ نبيِّهم ورسولِهم إلى أنْ يكونَ حالُ هؤلاء المُنْصَرِفينَ عن الحقِّ بعد ما تبيَّنَ سببًا في ازديادِ التَّمسُّكِ بالحقِّ المُبِينِ القرآنِ العظيمِ.

دلالةُ صيغة الاستفعال في: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾:

هـذه الصِّيغة تنظُر إلى الصَّدِّ عن سبيلِ اللهِ أيضًا

جاءت السِّينُ والتّاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾؛ دلالةً على التَّوكيدِ والمبالغة في طلبِ معنى هذا الفعل؛ مناسبةً مع ما في السِّياقِ مِمّا يُحْبِطُ، ويُؤيِسُ أهلَ الدَّعوة إلى اللّه - سبحانه وبحمده - فإنَّ المدعوين عاشون عن ذِكْر اللّه، وصاروا صُمًّا عُمْيًا، فهذه الصّيغة (استفعل) توجِّه أهل الإيمانِ إلى أن يكونوا أكثر استمساكًا بالقرآن ووعيًا به ويقظةً لما فيه، في مواجهة هؤلاء العاشينَ عن ذِكْر اللّه، فكلَّما أصرَّ أهلُ الكفر على كفرهم، وأسرفوا فيه؛ ازداد أهلُ الإيمان تمسُّكًا بذِكْرِ الرَّحمن، قال البقاعيُّ: "﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾، أي: اطلُبْ، وأوْجِدْ بجدٍّ عظيمٍ على كلِّ حالِ الإمساكِ"[1].

الغرضُ البلاغيُّ للأمْرِ في: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾:

في الأمْـرِ تـرقٍّ لـرسـولـنـا، ثـمَّ لأُمَّته مِن ورائه

الأمْرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ موجَّهٌ إلى رسولِ اللّه في الظاهرِ، ومِن ورائه أُمَّتُه أُمَّة الإجابة، ولأهلِ الكفرِ نصيبٌ لطيفٌ مِن الخطابِ به؛ إذ تنعي عليهم الآيةُ شديدَ رفْضِهم لوحي اللّه، أي: كُفْرَهُم به، وإسرافَهُم في الكُفْر، فمِثْلُه لا يُتَمسَّكُ به،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 31.

بل يُسْتَمْسَكُ به، ورسولُ اللّه محمَّدٌ ﷺ مستمسِكٌ بالَّذي أوحيَ إليه، ففي أمْرِه به معنى طلبِ الدَّوامِ والاستمرار عليه، والتَّرقِّي فيه، "وهو ﷺ مُسْتمِرٌّ على هذا الاستمساكِ، وثابتٌ عليه، واللّهُ سبحانه يعلمُ منه ذلكَ، وإنَّما أُمِرَ به؛ لأنَّ كلَّ أمْرٍ موَجَّهٍ إلى رسولِ اللّه ﷺ هوَ أمْرٌ لأُمَّته إلّا فيما كانَ خاصًّا بهِ ﷺ وتوجُّهُ الأمر إلينا عن طريقِ توجُّهه إلى رسولِ اللّه ﷺ تشريفٌ لنا، وحثٌّ لنا على أنْ ننقادَ، ونستجيبَ لأمْرِ ربِّنا، وحَسْبُنا مِن الفَضْلِ والكرامةِ أن نكونَ في استجابتنا لأمرِ ربِّنا في معيَّة نبيِّنا - صلوات اللّه وسلامه عليه - وفي صُحْبته"(1).

دلالةُ الباء في: ﴿بِٱلَّذِىٓ﴾:

المبالغةُ في الأمر المذكور صورةٌ لإسرافِ أهل الكفر في الكفر

الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ معناها التَّعدية، وهي القائمةُ مقامَ الهمزة في إيصالِ معنى الفعل اللّازم إلى المفعولِ به، ولا يكادُ يُفارقها معنى الإلصاقِ والاختلاطِ، وهذا يعني هنا في سياقِ الأمر بالاستمساكِ بالقرآن أنَّ مدخولها مِن شأنِه أن يُقْبَل عليه بالكُلِّيَّة، وأنْ يُلازَمَ علمًا وعملًا، ففي الباءِ توطئةٌ؛ لكون ما بعدها حُجَّةً ودليلًا على ما قبلها مِن الأمر المذكور، وفي الباء توكيدٌ وتحقيقٌ؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾، ففيها إبلاغٌ في طلبِ لزومِ بابِ القرآن العظيم.

علَّةُ التَّعبير بالموصوليَّة:

إنكارُ القرآن كإنكارِ الشَّمْسِ وقت الضُّحَى

عبَّر النَّظم الكريم عن الوحي - وهو القرآن الكريم - بالموصولِ وصلتِه في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾، وهذا يعني أنَّ كونَه وحيًا مِن عندِ اللّهِ عنوانُ هذا القرآنِ، وأنَّ ذلك ظاهرٌ فيه جدًّا، فهو معروف معلوم مشهور، فعظمتُه بيِّنةٌ واضِحةٌ جدًّا، وفي هذا

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 386، والآلوسي، روح المعاني: 25/ 84، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 219.

حثٌّ على الاستمساك به مِن جهةٍ، فهو يعود على الأمر: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ بالتَّحْقيقِ والتَّوكيدِ، وإنكارٌ لطيفٌ على قومه أنْ ينصرفوا عنه، ويعشو عن ذِكْر الرَّحْمن مِن جهة ثانيةٍ، وتسليةٌ لرسولنا ﷺ مِن جهةٍ ثالثة، فإنَّ في الصِّلة دلالةً على ظهورِ كونِه رسولًا مِن عندِ اللّٰه - ﷺ - وكان يُمكن أن يقول: بالموحى به إليك، أو بالقرآن، أو بالكتابِ، وغيرِ ذلكَ مِن التَّعبيراتِ الكثيرةِ الَّتي يفوتُ بها تلك المعاني والأسرار الَّتي يفتقر إليها السّياقُ.

دلالةُ المُضِيِّ في الفعل ﴿أُوحِىَ﴾:

آيُ القرآنِ سواءٌ في الدَّلالةِ على اللهِ

نظَم القرآنُ معنَى الوحي فعلًا ماضيًا في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ بعضَ القرآنِ - وهو ما نزَل عليكَ قبلَ هذه الآية مِن آيٍ - مِن شأنِه أنْ يدُلَّ على صدقِك يا محمَّدُ، أي: على كونِك نبيًّا ورسولًا مِن عندِ اللّٰه، فكونُ القرآنِ برهانَ نبوَّتِك حاصلٌ ببعضِه، لا يتوقَّفُ عليه كلِّه، فليس مِن حُجَّةٍ لِمَن

عشا عنه، وليس مِن عُذْرٍ لِمَن انصرَفوا عنه صُمًّا عُمْيًا، ففي المُضِيِّ كمالُ ذمِّهم، وكمالُ تسليتِه ﷺ.

سِرُّ الفَصْلِ والتَّوكيد في: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

القرآنُ وحيُ الله هو الزّادُ الدّائمُ لأهل الحقِّ

ورَد قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مفصولًا عن ما قبلَه؛ لأنَّه تعليل للأمر بالاستمساك بالوحي، وتأكيد له[1]، وهذا التَّأكيد يطيب خواطر الأتباع، ويحملهم على حسن الاتِّباع[2]، فهُم في طريق اللّٰه المستقيم الَّذي لا يخيب من سلكه، ولا يضلُّ من تمسَّك به، ولذلك أكَّد القرآنُ مضمون هذه الجملة بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة؛ لكمالِ العناية بمضمونها[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 219.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 31.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 326.

معنى: ﴿عَلَىٰ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

كلمةُ: ﴿عَلَىٰ﴾ حرفٌ معناه الاستعلاءُ، وهو إمّا حِسِّيٌّ، وهو الأصلُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 22]، وإمّا مجازيٌّ، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وكما هنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فدلالتُها تمَكُّنُه ﷺ من ذلك الصِّراطِ المستقيم عِلْمًا وعَمَلًا، ووراءَ هذا مِن المعنى أنَّه ﷺ لم يُقصِّرْ في حقِّ قومه ودعوتِهم إلى الحقِّ والهُدَى، حتَّى يعشوا عن ذِكْر الله، ويكونوا صُمًّا عُمْيًا في ضلالٍ مُبينٍ، وفيه أيضًا حثٌّ شديدٌ على الاستمساكِ بالَّذي أوحيَ إليه، وفي: ﴿عَلَىٰ﴾ "تثبيتٌ للرَّسول ﷺ وثناءٌ عليه بأنَّه ما زاغَ قِيدَ أُنْمُلَةٍ عمّا بعثَه الله به، كقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النمل: 79]، ويَتْبَعُه تثبيتُ المؤمنينَ على إيمانِهم"(1)، وقال القونويُّ: إنَّ القرآنَ مثَّل حالَه ﷺ مع الصِّراط المستقيم، مِن تمكُّنِه منهُ، بحالة استعلاءِ الرّاكبِ على المركوبِ، على طريقِ الاستعارة التَّمثيليَّةِ(2).

في هذا الحرفِ كمالُ مدحِ رسولِنا في الظاهر، وكمالُ ذمِّ قومِه في الباطن

علَّةُ التَّعبير بالصِّراط:

قولُه تعالى: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: ليس المراد الصِّراط الَّذي تراه عينك طريقًا واضحًا مستقيمًا، وإنَّما المراد حقائقُ الدِّين، ومنهجُ القرآنِ وتجاوبُه مع الفطرة الصَّحيحة، واستقامته في نفوس أهل الحقِّ واليقين، كأنَّه طريقٌ واضحٌ، يصف منهجًا بيِّنًا، ويُحدِّدُ المعالم تحديدًا مضيئًا، فالموقِنُ بهذا الدِّين لا يبحثُ عن خطَّة يمضي في حياته عليها، وإنَّما الطَّريقُ بينَ يديه، وهو طريقٌ مستقيمٌ، وما عليه إلّا أن يمضي(3)، ففي استعارة الصِّراط لذلك استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ مزيدُ حثٍّ على التَّمسُّكِ بهذا القرآنِ، فهي تعودُ على قوله:

حقائقُ الدِّين خطٌّ واضحٌ تحدَّدتْ حدودُه، فلا يلتبس بغيره

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 220.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 326.
(3) محمد أبو موسى، التصوير البياني، ص: 365.

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾، بالتَّحقيق والتَّوكيد، وفيها أيضًا غايةُ الدَّهشة والتَّعجُّب مِن أهل الكفر، كيف عشوا عن ذِكْرٍ كالصِّراطِ؟ وكيف صمّوا، وعموا عنه؟

سِرُّ تنْكيرِ ﴿صِرَٰطٖ﴾:

أعظمُ طريق هو طريق الله تعالى

نظَم القرآنُ الصِّراطَ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ إبلاغًا في الحثِّ على الاستمساكِ به؛ لدلالتِه على التَّعظيم والتَّفخيم، النّاظرِيْنِ إلى المستعارِ لهُ المُشبَّه، الدِّينِ الحقِّ الذي لا عوجَ فيه، واستقامتُه جدُّ ظاهرةٍ للعقولِ ظهورَ الشَّيءِ، تراهُ العيونُ.

دلالة الوَصْفِ بـ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

كيف ينحرفون عن الصِّراط المستقيم؟

وصَفَ القرآنُ الصِّراطَ بقولِه تعالى: ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ ترشيحًا للاستعارةِ في الصِّراطِ؛ لأنَّه هو الملائمُ للمستعار منه، وهو الصِّراطُ، وهذا إبلاغٌ في تقرير المعنى، وكَشْفٌ عن حقيقة ذلك القرآنِ العظيم؛ إبلاغًا في الحثِّ على الاستمساكِ بالقرآنِ مِن جهةٍ، وفي تسليته ﷺ مِن جهةٍ ثانيةٍ، وفي الإنكار اللَّطيفِ عليهم أنْ يكفروا بالقرآن الَّذي هذه صفتُه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤﴾ [الزخرف: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هـــذه الآيـــةُ امتِدادٌ لِما قبلَها، تُحقِّقُه، وتُضيفُ إليه

لَمّا كانَ كونُ القرآنِ مِن وحيِ اللهِ إلى رسولِه، وليس مِن عندِ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ وكان كالصِّراطِ المستقيم، بل هو ذلك الصِّراطُ، فكان مِن شأنِ كلِّ أحدٍ عاقلٍ أن يهتدي به، ويُقْبِل عليه، ويستمسكَ به؛ قرَنَ اللهُ بينهم وبينَ رسولِه في سياقِ تقرير نَفْعِ الذِّكْرِ الحكيم في الدُّنْيا لهم ولغيرِهم، بعدَ أنْ بيَّن تعالى تأثيرَ التَّمسُّك بالقرآن في منافع الدِّين، وذلك حُسْنُه في نفْسِه المُقْتضِي للزومِه، فإنَّ القرآن يوجِبُ الشَّرفَ العظيمَ لك ولقومِك؛ إذ يُقال: إنَّ هذا الكتابَ العظيمَ أنزلَه اللهُ على رجُلٍ مِن قومِ هؤلاءِ، ولأجلِ ذلك عليكم جميعًا أن تُؤَدّوا شُكْرَ هذه النِّعمة، وعلى أهلِ الكفر أن يُؤمِنوا؛ لِيُحصِّلوا هذا الشَّرَفَ العَلِيَّ بحقٍّ وصِدْقٍ، وأنْ يعلم الجميعُ ما فيه مِن تكاليفَ وهداياتٍ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَذِكۡرٞ﴾: (ذكر) أصلانِ يتفرَّع عنهما كلِمُ الباب، فالمُذْكِرُ: الَّتي ولَدَت ذَكَرًا، والأصلُ الآخَر: ذكَرْتُ الشَّيءَ، خلافَ نسيتُه، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويقولون: اجعَلْه منكَ على ذُكْرٍ بضمِّ الذّال، أي: لا تَنْسَه[2]، والمقصودُ به هنا العَلاءُ والشَّرَفُ، مجازًا مرسلًا، وهوَ ذِكرٌ باللِّسانِ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الآيـةُ تشتملُ علـى ذِكْـرِ حَـظِّ القرآنِ مِن المدحِ والنَّفعِ

يقولُ تعالى: وإنَّ هذا الَّذي أوحيَ إليك - يا محمَّدُ - لشرفٌ عظيمٌ جدًّا لكَ؛ إذ تكون به أكملَ الخَلْقِ عامَّةً والأنبياءِ والرُّسُلِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 213، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 31.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذكر).

خاصَّةً، قلبًا ونفْسًا، وشرفٌ عظيمٌ جدًّا لقومك، وإن كان كونه كذلك تابعًا؛ لكونه شرفًا لك، وهم قريش خاصَّة، والعربُ عامَّة، فقد نزَل بلغتهم، وذكرَهُم اللّه في قرآنه وذكرك أيضًا؛ ولهذا كانَ ذلك نعمةً جليلةً تستحقُّ بليغَ الشُّكر، وعظيمَ الإحسانِ فيه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60]، فسوف يُسألُ النَّبيُّ محمَّدٌ وقومُه عن تلك النِّعمة، والعملِ بما فيها مِن تكاليفَ، وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنى.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوصل بالواو في: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾:

مِثْلُ ما هو وحيٌ مِن اللّه، وهوَ صراطٌ مستقيمٌ، ذِكْرٌ لِمَن نزَل عليه، ومَن نزَل له

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ عاطفةٌ لِما بعدَها على جملة: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، فكلاهما خبرٌ في اللَّفظِ والمعنى، ورسولُ اللّهِ له ذِكْرٌ فيهما، فهو المُخاطَبُ فيهما، والمعطوفُ داخلٌ في حيِّزِ المعطوف عليه، "مِن حيثُ هو حَثٌّ على شدَّة الاستمساكِ بالَّذي أوحي إليك، وتعدُّدُ العِلَلِ التي تَحُثُّ على الاستمساكِ؛ لأنَّ المُقامَ مقامٌ فيه مُحبِطاتٌ ومُؤْيِساتٌ؛ لأنَّ الآذانَ صُمٌّ، والقلوبَ عُمْيٌ، والآيةُ تمضِي في عكسِ ما تُؤدِّي إليه هذه المُحبِطات ..."[1]، فالمعطوفُ يعودُ على فعل الأمر في قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾ بالتَّحقيق والتَّوكيد، وهذه الآيةُ مِن تمامِ آيةِ الأمْرِ.

سِرُّ التَّوكيد في الآية:

التَّوكيدُ في الآيةِ سخيٌّ جدًّا؛ لأنَّه يتجاذَبُ أطْرافًا كثيرةً

أكَّد القرآنُ المعنى في القِسْمِ الأوَّل منه في هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ بـ: إنَّ، واللّامِ الدّاخلة على الخبر، وبتكرارِ اللّامِ في قوله تعالى: ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ﴾، "وخبرُ اللّه لا يحتاج إلى توكيد، وإنَّما يجيءُ التَّوكيدُ في مِثْل هذا الخبرِ؛ ليلفتنا إليه، وأنَّ ذِكْرَنا وشَرَفَنا حينَ يكونُ أصلُهُ وحْيًا أوْحاهُ ربُّ العالمينَ: فليس لنا سبيلٌ إلّا أن

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 387.

نستمسك به، وأن نَشُدَّ عليه؛ لأنَّه ذِكْرٌ لا يُنازِعُه ذِكْرٌ، وشرَفٌ لا يُنازِعُه شرَفٌ، وليس وراءَه شيءٌ أَنْفَسُ منه"[1]، فأمّا رسولُنا ﷺ فالمُتعلِّقُ به مِن ذلك هو كمالُ التَّرقِّي به، وكذلك مَن وراءَه مِن أهلِ الإيمانِ، كلٌّ على درجته ورتبته، وأمّا أهلُ الكفر؛ فلأنَّهم في غفلة وعمًى عن جمال ذلك الذِّكْر الحكيم وجلالِه؛ لإسرافهم في الكفر، وإقبالهم على الدُّنيا، وجعلِها هي مقياسَ العظمة والشَّرَفِ؛ ولهذا كانوا بمثابةِ المُنكِرين لذلك فيه، فأُكِّد لهُم الخبرُ، قال البقاعيُّ: "وأكَّدَ لإنكارهم"[2].

فائدةُ التَّعبير بالضَّمير في: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

مَــنَّ الـلـهُ على نـبـيِّـه محمَّدٍ ثـمَّ عـلى قـومِـه بالذِّكر الجميلِ

عبَّر تعالى عن القرآنِ بالضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ الَّذي يرجعُ إلى الموصولِ وصلتِه في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ - وهو الصِّراطُ المستقيمُ أيضًا - علامةً على ضرورةِ استصحابِ مرجعِ الضَّميرِ في سياقِ تقرير مضمونِ الكلامِ، أي: إنَّ مِثْلَ القرآنِ الَّذي مِن صفتِه أنَّه مِن وحي اللّٰه إلى محمَّد بن عبد اللّٰه، وأنَّه صراطٌ مستقيمٌ على جهة الاتِّحاد مبالغةً، على سبيلِ المجازِ بالاستعارةِ، أنْ يكونَ ذِكْرًا لخير الخلْق على الإطلاقِ، ولقومه أيضًا، وإشارةً إلى أنَّ ما أخبَر به القرآنُ عن هذا الضَّمير: ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ مِن شأنِه أنْ يجعَلَهُم "في مواجهة المُحْبِطات والمُؤيِسات مِن العاشِينَ عن ذِكْر اللّٰه الصُّمِّ العُمْيِ أكثرَ استمساكًا، وأكثرَ يقظةً، وأكثرَ إصرارًا، وأنَّ زيادة تمسُّكِ أهل الحقِّ تكونُ مُعادِلةً لزيادة عناد أهل الباطل[3].

علَّةُ التَّعبير بالذِّكْر في: ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ﴾:

في اتِّباع القرآنِ كلُّ خيرٍ ورِفْعةٍ في الدّارَيْنِ

وصَف اللّٰهُ تعالى القرآنَ الَّذي أوحاهُ اللّٰهُ إلى رسولِه ﷺ بالذِّكْرِ

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 388.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 31.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 387 - 388.

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾؛ لأنَّ الخبرَ وصفٌ في المعنى للمبتدأ، والذِّكْرُ "تارةً يُقال، ويُراد به هيئةٌ للنَّفْس بها يُمكن للإنسان أن يَحفظ ما يقتنيه مِن المعرفة، وهو كالحفظ، إلّا أنَّ الحفظ يُقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يُقال اعتبارًا باستحضارِه، وتارةً يُقال لحضورِ الشَّيء القلبَ أو القولَ"[1]، والذِّكْرُ هنا "يحتمل أن يكون ذكر العقل، أي: اهتداؤُه لما كان غير عالم به، فشُبِّه بتذكُّر الشَّيء المنسيِّ، وهو ما فُسِّر به كثير الذِّكر بالتَّذكير، أي: الموعظة"[2]، ويحتمل أن يُرادَ به معنَى الشَّرفِ[3]، على جهة المجازِ المُرْسل؛ لعَلاقة السَّببيَّةِ؛ لأنَّ الشَّرفَ يستلزم الذِّكْرَ، وكونه شرَفًا له ﷺ لأنَّه بالقرآنِ يرفعُ درجاته في الدُّنيا والآخرة؛ بسبب العمل بما فيه، وهو شرَفٌ لقومِه أيضًا، بالعمل بمقتضاه، فلهُم جميعًا فيه كلُّ موعظةٍ وتذكيرٍ، ولكون القرآن نزَل بلسان قريش، فاحتاج أهلُ اللُّغات كلِّها إلى لسانهم، كلُّ مَن آمنَ بذلك، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللُّغات، وهو شرَفٌ لكلِّ العربِ؛ لأنَّه نزَل بلغتهم على الجملة، كما قال تعالى في أوَّل السّورة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف: 3][4]، وإنَّما "عبَّر عن الشَّرف بالذِّكْر؛ للتَّنبيه على أنَّ سببَه الإقبالُ على الذِّكْرِ، وعلى ما بيَّنَه، وشرعه، والاستمساكُ به، والاعتناءُ بشأنِه"[5]، فهو يتَّصلُ بالمعنى الأُمِّ لِما بعدَه، وهو قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾، "وقد سُبِقت آيةُ الزُّخرف بكلمة الذِّكْر مرادًا بها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾، فهؤلاء يعشون عن الذِّكْرِ الَّذي هو ذِكْرٌ لهُم، وهذا إفراطٌ في الغباءِ"[6].

سِرُّ تنكيرِ لفظ ﴿لَذِكۡرٞ﴾:

نظَم القرآنُ الذِّكْرَ نكرةً في قوله تعالى: ﴿لَذِكۡرٞ﴾؛ للدَّلالة على فخامتِه وعظمتِه[7]؛ إذ في القرآنِ كلُّ خيرٍ وبرٍّ وعلوٍّ وشرفٍ في الدّاريْن، لا سيَّما مَن اتَّبعَه، وعلِم معانيَه، وعمِل بها؛

(1) الراغب، المفردات، ص: 179، ومادة: (ذكر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 221.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 47، والراغب، المفردات: (ذكر)، والبقاعي، نظم الدرر: 7/ 31، وابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 314، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 89.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 221، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 388.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 31.

(6) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 391.

(7) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 31، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 89.

جهاتُ عِزِّ القرآنِ وشرَفِه لا تكادُ تنحصِرُ

"ولأنَّ الذِّكر الجميلَ قائمٌ مقامَ الحياة الشَّريفة؛ بل الذِّكْرُ أفضلُ مِن الحياة؛ لأنَّ أثَر الحياةِ لا يحْصُل إلّا في مسكنِ ذلك الحيِّ، أمّا أثَرُ الذِّكْر الجميلِ؛ فإنَّه يحْصُل في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ"[1].

فائدةُ الخطاب النَّبويِّ في: ﴿لَّكَ﴾:

من سَمْتِ آياتِ السّياقِ خطابُ الرَّسولِ مِن الرَّحمن؛ إبرازًا لكونه أعظمَ الرِّجال

كان مِن الممكن أنْ يقول القرآنُ: (وإنه لذكر له ولقومه)، على طريقة الغَيْبةِ، ولكنَّه قال: ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾ على طريقِ الخطابِ، على نسَق ما قبلَه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾؛ لأنَّ طريقَ الخطابِ إقبالٌ عليه ﷺ، وقد أعرض عنه قومُه؛ لأنَّهم صاروا كالصُّمِّ العُمْي، ولأنَّه أبلغُ في تعظيمِه ﷺ وأبلغ في إبرازِ عظمة ذلك الذِّكرِ، ولأنَّ هذه الآيةَ علَّةٌ للأمر في قوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ﴾، فهي تعودُ عليه بالتَّحقيقِ والتَّوكيدِ، والأبلغُ في ذلك أن يتَّفِقا في النَّسَقِ.

دلالةُ إضافة القوم إلى ضمير الخطاب في: ﴿وَلِقَوْمِكَۖ﴾:

شرفُ أمَّة النَّبيِّ ﷺ مستمرٌّ لا ينقطع

كان مِن الممكن أن يقولَ القرآنُ: (وإنَّه لذكر لك ولهم)، ولكنَّ القرآنَ أضافَهُم إلى ضميره ﷺ بعد أنْ عبَّر عنهم باسْم صريح، فقال: ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَۖ﴾؛ لأنَّ هذا الشَّرَف مُمْتدٌّ إلى يوم الدِّين امتدادَ زمانِ أُمَّةِ رسولِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ، فإذا كان القرآنُ قد نزلَ بلغةِ العربِ على الجملةِ، فاكتسبوا بذلك ذِكْرًا وشرَفًا، فإنَّ ثمَّة شرَفًا آخَرَ، السَّببُ فيه خصوصيَّةٌ لرسول اللّه محمَّدٍ ﷺ، مِن كونه آخِرَ الرُّسل بعثًا، فأمَّتُه آخِرُ الأمم، فأكثرُهم جِنْسًا وعَصْرًا ومِصْرًا، ففي الإضافةِ هذا المعنى، وهذا مِن شأنِه أنْ يُحرِّكَهُم نحوَ نبيِّهم ورسولِهم، ويُلِينَ قلوبَهُم له.

سِرُّ الوصل بالواو في: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ عاطفةٌ للجملة بعدها على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 213، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 18.

أكَّد القرآنُ شَرَفَ هذا الشَّرفِ العليِّ بهذا الخبر

الجملة الَّتي بعدَ الواو في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ، فكلاهما خبرٌ في اللَّفظ والمعنى، ونائبُ الفاعل في: ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾ هو الضَّميرُ العائد على قوله: ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾، ومعنى الثّاني مبنيٌّ على معنى الأوَّلِ؛ لأنَّ السُّؤال المذكورَ إنَّما هو عن شيء يتعلَّقُ بذلك الذِّكْرِ، وقد تأسَّسَ مجيءُ المعطوف على ذِكْرِ قوله: ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ في المعطوفِ عليه، ولو لم يُذكَر هذا القيدُ: ﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾؛ لكان بناءُ المعطوفِ على المعطوفِ عليه ضعيفًا جدًّا، "وإذا كانَ الثّاني معطوفًا على الأوَّلِ؛ كان المعطوفُ داخلًا في الحيِّز الَّذي دخل فيه الأوَّلُ، يعني أنَّ جملة: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ داخلةٌ هيَ وما قبلَها في حيِّزِ الحثِّ على: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ لأنَّ الأمَّة مأمورةٌ بهذا الأمر مِن وراء أمرِ اللّه لنبيِّه به"[1].

فائدةُ الخطابِ الجماعيِّ في: ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾:

الأمرُ للنَّبيِّ ﷺ أمرٌ لأمَّته

عمَّمَ القرآنُ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾، وانتقَل فيه مِن خطابِه ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ الآية، وقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ - إلى جماعة المُخاطَبين في قوله: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾؛ وذلك يُؤكِّدُ معنى أنَّ أمرَه عليه السلام أمرٌ لأمَّته مِن ورائه؛ هذا فضلًا عن ما في هذا الانتقال مِن تلوين الخطاب والانتقالِ مِن طريقٍ إلى طريقٍ؛ لتطرية الكلام، وهذا بالقطعِ ليس هو المقصود بهذه الانتقالاتِ؛ لأنَّ الانتقالات اقتضتها مقامات تناوب المعاني وتواترها على الوجه الَّذي ترتَّبت عليه، وكانت التَّطْرية مِن آثارها، وليس مِن مقاصدِها[2].

دلالةُ البناء للمفعول في: ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾:

حذَف القرآن الفاعلَ السّائلَ في قوله تعالى: ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾؛ للدَّلالة

(1) محمد أبو موسى، الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 392، وبتصرّف.

(2) محمد أبو موسى، الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 392.

حـذفُ الفاعل تـرغيـبٌ لأهـل الإيــمــان، وتـرهيـبٌ لأهـل الكُفْر

على غايةِ الاحتفال والتَّكريم لأهل الإيمان، وغاية الإهانة والإيلام لأهل الكفر، فالحذفُ وعدٌ ووعيدٌ، وسؤال المؤمنين يكون عن مقدار العمل بما كُلِّفوا به، وسؤال المشركين سؤال توبيخ وتهديد، قال تعالى: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: 19]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾ [الملك: 8]، إلى قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك: 11][1].

سِرُّ حذف متعلّق السُّؤال:

الحذْفُ يدلُّ على فائدة معنويَّة، ويُحقِّقُ مزيَّةً لفظيَّةً

في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ لم يُحدِّدِ القرآنُ أيَّ شيء سوفَ يُسألون عنه؟ ولهذا تعدَّدَ تقديرُه عند أهل التَّفسير، فقيل: هل أدَّيْتم شكرَ هذا الشَّرَف، وأن رُزِقتموه، وخُصِصْتُم به مِن بين العالَمين؟ وقيل لِمَن كذَّب به: لِمَ كذَّبْتَ به؟ وقيل: تُسألون عن القرآنِ وعملِكُم بما أُمِرْتُم به فيه، وعمّا يلزمكم مِن القيام بحقِّه؟[2] فيتبيَّنُ مِن هذا أنَّ حذفَ متعلّق الفعل للعموم؛ لأنَّ سياقَ الآية يتحمَّل كلَّ ذلك وغيرَه، ونتَج عن هذا موافقةُ الفاصلة: ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾ للفواصل قبلها، وللفواصل بعدها، وهذا الانسجام الصَّوتيُّ له أثَرُه في تلقّي المعنى القرآنيِّ، وتمكينه في النَّفْسِ، وهو صورةٌ لغايةِ الانسجام المعنويِّ بين معاني آيات السّورةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 222.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 48، والزمخشري، الكشاف: 14/ 148، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 18، وابن جزي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 314، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 89.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ۝٤٥﴾ [الزخرف: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إذا كان القرآنُ شرفًا لكم؛ فلتُصدِّقوه، ولتعملوا بما فيه

لَمّا بيَّنَ تعالى أنَّ لقومِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ نصيبًا مِن الذِّكْرِ والشَّرَفِ المُتعلِّقِ بالَّذي أوحِيَ إليه، والذي يُنكِرونَه؛ أرادَ أنْ يُمكِّنَ ذلكَ في نفوسِهم، فختَم هذا المقطعَ مِن المعنى بما يرجِعُ إلى ما تأسَّسَ عليه، مِن قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: 20]، ومِن آيتَي: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ﴾ [الزخرف: 22 - 23]، ومِن آية: ﴿۞قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٢٤﴾ [الزخرف: 24]، ومِن آيةِ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: 31]، فبيَّنَ في هذهِ الآيةِ كذِبَهُم، بالتَّوجيه إلى الرُّجوعِ إلى كتبِ آبائهم الَّتي جاء بها رسلُهُم، والَّذي جعَل القرآنَ يأملُ فيهم خيرًا، مع أنَّهم صاروا كالصُّمِّ العُمْيِ أنَّه ذكَرَهُم بصفة القوامة والقوميَّة، ففيهم - نفْسًا وفطرةً ولسانًا - قوَّةٌ تُمكِّنُهم مِن الرُّجوعِ إلى الحقِّ، والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ مِن التَّمادي في الباطل، تلك الصِّفة: (قوم) هي الَّتي فتحت الباب بقوَّةٍ لمجيءِ هذه الآيةِ، وساعدَها على ذلك التَّرابُط اللفظيُّ بين جملة: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ وجملة: ﴿وَسْـَٔلْ﴾؛ فهذا ممّا حَسَّنَ التَّواصُلَ والتَّناسُبَ بينَ الآيتيْن، أرجو من المعلق - دون تعصب منّي لنفسي - أن يبيّن لي وجه النظر أوَّلًا، وأن يكشف لي عن العائق المعنوي في التواصل بين هذين الطرفين، إن المناسبة هنا جد لطيفة؛ ألا ترى ذكر رسول الله المخاطب بقوله: ﴿لَّكَ﴾ في الآية الثانية باديًا؟ والقوم في الآية الأولى هم المقصودون بقوله، ومن

قوله: ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾، فأي قرينة بعد ذلك على صواب المناسبة وصحتها؟

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

البـحـثُ عن الحقيقةِ شأنُ المُنصِفين

يقولُ اللّه تعالى: واسأل يا محمَّدُ - على سبيل الفرض والتَّقدير - مَن سبقَك مِن الرُّسُلِ، هل هناك أحدٌ مِن الرُّسُل دعا إلى عبادة غير اللّه؟ إنَّ الدَّعوة إلى التَّوحيد أصلٌ راسخٌ في كلِّ الشَّرائع والكتبِ السَّماويَّةِ، فعلى أتباعِ هؤلاءِ الرُّسُلِ السّابقينَ النَّظَرُ في كتبهم وأديانِهم، مع إنصافِ أنفسهم وإنصافِ الحقِّ، فإنَّه سيظهرُ لهُم ما كان عليه آباؤُهم مِن ضلالٍ مُبِينٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ في: ﴿وَسۡـَٔلۡ﴾:

إنَّما يعشو عن ذِكْرِ الرَّحمنِ مَن اتَّبَعَ أهلَ الضَّلالِ مِن الآباءِ وغيرِهم

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾: عاطفةٌ لِما بعدَها على قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، فكلاهما إنشاءٌ في اللَّفظِ والمعنى، وظاهرُ الأمرِ بالسُّؤال يعودُ على الأمرِ بالاستمساكِ بالتَّحقيق والتَّوكيد، وإذا كانَ ما هو علَّةٌ لهذا الأمرِ بالاستمساكِ مُدْخِلًا في لُطْفٍ لأهل الكفرِ مِن قومِه ﷺ خاصَّةً، ومِن غيرِهم عامَّةً في طلبِ الاستمساك بالقرآنِ الكريم، فإنَّ لهؤلاءِ جميعًا نصيبًا مِن الخطابِ بهذه الآيةِ، فعليهم أن يَنْظُروا في كُتُبِ الرُّسُلِ السّابقينَ الَّتي لم تُحرَّفْ، ولم تُبدَّلْ، وأنْ يَسألوا علماءَ أقوامِ هؤلاءِ الرُّسُلِ، الصّادقينَ الَّذين لم يعهدوا عليهم كذبًا، وأنْ يَسْلُكوا نحوَ ذلك مِن الطُّرُق الَّتي تصِلُ بهم إلى الحقيقةِ، فكيف يكونُ القرآنُ ذِكْرًا وشرَفًا لهم، وهو دالٌّ على الألوهيَّةِ الحقَّةِ، ولا يكونُ منهم ذلك؟

بلاغة التَّعبيرِ بالسُّؤالِ في: ﴿وَسْـَٔلْ﴾:

الحَمْلُ على المجاز أو الكناية أبلغُ الأوجه

في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾: ليس المرادُ بسؤال الرُّسُل حقيقةَ السُّؤال؛ لكون ذلك محالًا، ولكنَّه مجازٌ عن النَّظَر في أديانهم، والفَحْصِ عن مللهم، هل جاءت عبادةُ الأوثان قَطُّ في مِلَّةٍ من ملل الأنبياء؟ وكفاهُ نظَرًا وفَحْصًا نظَرُه في كتاب اللّه المُعْجِز المُصدِّق لِما بينَ يديه، وإخبارُ اللّه فيه بأنَّهم يَعْبُدون من دون اللّه ما لم يُنزِّل به سلطانًا، بل يكفيه نظَرًا وفحْصًا نظَرُه في هذه الآيةِ الفاذَّةِ الكافيةِ في المقصودِ، والسُّؤالُ الواقِعُ مجازًا عن النَّظَر - إذ لا يصِحُّ السُّؤالُ على الحقيقةِ - كثيرٌ، والكلامُ مبنيٌّ على الشَّرْط، كأنَّه قيلَ: إن شكَكْتَ؛ فاسأل[1]، وهذا هنا جارٍ إمّا على طريقِ المجازِ المرسل؛ لعَلاقَة السَّببيَّةِ أو اللُّزوميَّةِ، وإمّا على طريق الكنايةِ؛ "لأنَّ المرادَ بهذا السُّؤال لازمُه العُرْفيُّ، وهو الجوابُ الَّذي لن يكونَ إلّا بما أرادَه المُتكلِّمُ"[2]، وعلى هذا يتحقَّقُ الغرضُ من السُّؤال، وهو تبكيتُ الكفّار من العربِ، ومِمَّن غرَّهم من أهل الكتابِ بقولِهم: (دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أهدى سبيلًا منه)، فإنَّهم إذا أَحْضَروا كتبَهُم؛ عُلِمت دلالتُها القطعيَّةُ على اختصاصِه سبحانه بالعبادةِ، وتحريفُ كتبهم لا يضرُّ في مِثْلِه، بل عدم الاعتماد بالتَّحريفِ إنَّما هو في الفروع ونحوِها، وأمّا نحوُ عبادة الأوثان؛ فكتابُهُم موثوقٌ به[3].

بلاغةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾:

خبرُ الرُّسُلِ ورسالاتِهم شائعٌ مُستفِيضٌ

كلمة: ﴿مَنْ﴾ اسمُ موصولٍ للعاقلِ المُذكَّرِ، وجملة: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ صلتُه الَّتي يفتقرُ إليها؛ لتوضِّحَه، وفي نظم معنى إرسالهم صلةً دلالةٌ على عِلْمِ المُخاطَبينَ بذلك؛ لشُهْرتِه بينهم وفيهم، وهذا يعني توفُّرَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف، والطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب معًا: 14/ 149 - 150.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 397.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 32، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 327.

العِلْم بما جاء به هؤلاءِ الرُّسُل عندهم، وشهرتَه فيهم، فيتمكَّنونَ مِن السُّؤالِ المذكور، فتُقامُ الحُجَّةُ عليهم، ويُلزمونَ بمُقتضَى السُّؤالِ المذكورِ، وما يترتَّبُ عليه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالإرسال مادَّةً وصِيغَةً:

إرسالُ الرُّسُلِ للعالَمِينَ رحمةٌ

عبَّر القرآنُ بالإرسال دون غيرِه في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّه يُذَكِّر بالرِّسالةِ الَّتي يكونُ النَّظرُ المقصودُ مِن السُّؤالِ فيها، ولأنَّ فيه معنى السُّهولة والرِّفْق والتُّؤَدة؛ وهذا يُناسِبُ مقام حِلْمِه ﷺ عليهم، ونظَم القرآنُ معنى الإرسال فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ إرسالَ هؤلاء الرُّسُل قد وقع، وكان، وانتهى في أزمنة قبل زمان مبعثِ رسولِنا محمَّدٍ ﷺ، ولأنَّ شريعته قد نسخت شريعتهم، فلا استحضار لكتبهم إلّا في مِثْلِ هذا المقام.

علَّةُ التَّعبيرِ بضمير العظمة في: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

حُجَّةُ اللهِ لدى الرُّسُلِ في غايةِ العظَمةِ والوضوح

أَسْنَد القرآنُ فعل الإرسالِ إلى ضميرِ العظمة: (نا) في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، وكذلك أضاف القرآنُ الرُّسُلَ إلى نَفْسِ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾؛ لبيانِ عظَمَة إرسالِهم وعظَمَة الرُّسُل وفخامتهم، وهذا ينظرُ إلى هضم الأقوام للرُّسُل على حدِّ ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، ولبيان دلالةِ إرسالِهم، وما جاؤوا به إلى أقوامهم على عظمة المُرْسِل وصاحبِ الرِّسالةِ، وهو اللّه - سبحانه وبحمده - وأنَّ الحقَّ في هذه الرِّسالات وعلى أيدي الرُّسُل عظيمٌ جدًّا، فهو في غاية الوضوح، لا يكادُ يلتبس على أحدٍ عاقلٍ مُنْصِفٍ، وهذا ينظرُ إلى السُّؤال المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ﴾.

بلاغةُ كونِ المسؤولِ الرُّسُلَ:

لَمّا كان أتْباعُ الرُّسُل قد غيَّروا، وبدَّلوا ما جاءَهُم به الرُّسُلُ غالبًا، خصوصًا أهل الكتاب، فلم تكُن بهم ثقةٌ؛ جعَل القرآنُ المسؤولَ

الرُّسُلَ في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، أي: بقراءة أتباعهم لكتبهم، الَّتي حرَّفوا بعضَها، وجعلت كتابك مهيمنًا عليها، فإنَّهم إذا قرؤوها بين يديكَ، وعرضوها عليك؛ علمت معانيها، وفضحت تحريفهم، وبيَّنت اتِّفاق الكتب كلِّها بردِّ ما ألبس عليهم مِن مُتشابهها إلى مُحكمها[1].

الـرُّجـوعُ إلى أديـان الـرُّسُـلِ وكُـتُـبِـهـم هو طـريـقُ معـرفـةِ الحقِّ

بلاغةُ موقع الجملة الاستفهاميَّة:

قولُه تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾: بدلٌ مِن جملةِ: ﴿وَسْـَٔلْ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو سؤالُ مَن قبلَه مِن الرُّسُل، ويجوزُ أن تكون جملةُ الجَعْل سدَّت مَسَدَّ مفعولَي (اسأل)، المعلَّقة عن العمل بالاستفهام، والمعنى: هل حكمنا بعبادة الأوثان، وهل جاءت في مِلَّةٍ مِن مللهم، والمرادُ به الاستشهادُ بإجماع الأنبياء على التَّوحيد، والتَّنْبيهُ على أنَّه ليس ببِدْعٍ ابتدعه حتّى يُكذَّبَ، ويُعادَى[2].

سـاق الـقـرآنُ المـسـؤول عنه مـساق تفخيم وتعظيم

بلاغةُ الاستفهام في: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ﴾:

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا﴾: للاستفهام، وهو إنكاريٌّ؛ لأنَّه لم يكُن، أي: لم نجعل، وفَضْلُ الإنكارِ بالاستفهام عليه بالنَّفي الصَّريحِ: أنَّ الاستفهامَ محض معناه التَّنْبيهُ، فهو يُحرِّكُ أهلَ الكفر خاصَّةً للتَّفكيرِ في القضيَّة محلِّ الخلافِ، ففي الاستفهام توكيدُ المعنى المطلوبِ تقريرُه، وهو حقيقة المسؤول عنه؛ لأنَّك لن تجد أحدًا مِمَّن تسألُهم يقولُ لك ما يُخالف هذا الأصلَ، وهو إنكارُ أن نكون قد جعلنا آلهة تُعبد مِن دون الله، وفيه أيضًا مع تأكيدِ المعنى إدلالٌ ويقينٌ وقطْعٌ، بأنَّك لن تجد مَن يقولُ لك غيرَ الَّذي أردناهُ، وهذا

الاسـتـفـهـامُ ينظرُ بـقـوَّةٍ إلى الـغـافـلـينَ عن حقيقة المسؤولِ عنه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 222، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 89، ومحي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 79.

الإنكارُ يُلاحِظُ، ويرُدُّ على ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: 22]، أي: ليس آباؤُكم بأهدى مِن الرُّسُل الأوَّلين؛ إنْ كنتُم تزعمون تكذيبَ رسولنا؛ لأنَّه أمرَكُم بإفرادِ اللّه بالعبادة[1].

علَّةُ المُضِيِّ في: ﴿أَجَعَلْنَا﴾:

المُضِيُّ يُقرِّرُ وحدَةَ الـرِّسـالاتِ في العقائدِ

الأبلغُ في الإنكارِ أيضًا نَظْمُ الجَعْلِ فِعْلًا ماضِيًا، فلا أساسَ لاتِّخاذِ قوم رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ آلهةً يُعبدون مِن دون الرَّحمن، فالمُضِيُّ مناسبٌ لحركة المعنى في الآية، مِن سؤالِ مَن أرسلَه اللّه مِن قبل رسول اللّه محمَّدٍ عليه السلام مِن رُسُلِ اللّه، فإنكارُ الجَعْلِ في الزَّمان الماضي يلزمُ منه هنا إنكارُه في زمان أمَّة رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ الجَعْلَ الثّاني مَقِيسٌ على الجَعْلِ الأوَّلِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بضمير العظمة في: ﴿أَجَعَلْنَا﴾:

بالتَّعبير بضمير العظمة يتَّحِدُ نسَقُ الكلامِ في الآيةِ

أسند القرآنُ فِعْلَ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظمة: (نا) في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ إشارةً إلى كمال ظهورِ عظمة الألوهيَّةِ الحقَّةِ، مِمّا يستحيلُ معها وجودُ شيءٍ، يستحقُّ العبادةَ مَعَ اللّهِ سبحانه، ففي: (نا) تعليلٌ في المعنى للإنكار التَّكذيبيِّ، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ العابدينَ آلهةً مِن دون اللّه قد عموا عن تلك العظمة، وصُمَّت آذانهم عن سماع شواهدها، وفي هذا كلُّ تشهيرٍ بهم، وتفظيعٍ لحالهم العجيبة الغريبة.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿دُونِ﴾:

كلمة (دون) فيها معنى الضَّعْفِ والحقارةِ ونحو ذلك

لَمّا ذكَر القرآنُ طرفَ المقارنةِ الحقَّ بصيغةِ التَّعظيم؛ شرَع في الكَشْفِ عن حقيقةِ الطَّرَف المُقابِل لهُ، وأوَّلُ العناصرِ الدّالَّة على ذلك كلمةُ: ﴿دُونِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، والَّتي تُقال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 222، ومحمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 396 - 397.

في الأصل للقاصِر عن الشَّيء، وقال بعضُهم: (دون) مقلوبٌ مِن الدُّنوِّ، والأدْوَنُ الدَّنيءُ[1]، قال البقاعيُّ: "وقرَّرَ حقارةَ ما سواهُ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾"[2].

بلاغةُ الالتفاتِ:

في الالتفاتِ إخسانٌ إلى أهلِ الكُفْرِ وأيُّ إحْسانٍ

انتقَل القرآنُ مِن أسلوبِ التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلۡنَا﴾ إلى أسلوبِ الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ولو جرى الكلامُ على الظّاهر؛ لقيل: (أجعلنا مِن دوننا)، وهذا الالتفاتُ دقيقٌ رائعٌ واقِعٌ موقِعَه؛ إذ يُنبِّهُ إلى أهمّيَّة موقع الالتفاتِ، وضرورةِ المراجعةِ فيه، وتأكيدِ معنَى المُراجعةِ المفهوم مِن وضْعِ الاستفهام الإنكاريِّ موضِعَ حرفِ الإنكارِ، وإلى أنَّ الموصوفَ بالرَّحمن هو الجديرُ بأنْ يُعبَد، وأنَّ هذه الصِّفة العظيمة الَّتي أجريتموها في مواضِع الضَّلال، لَمّا قلتُم: (لو شاء الرَّحمن؛ ما عبدناهم)، وجعلتُم الملائكة الَّذين هم عباد الرَّحمن إناثًا، وعشوتُم عن ذِكْر الرَّحمن: هيَ الجديرةُ بالعبادة، وبذلك صار هذا الالتفاتُ تقويةً لمعنى الاستفهام الإنكاريِّ، الَّذي بُنِيَتْ الآيةُ عليه، وإشارة خفيَّة جدًّا لسرِّ جريانِ كلمة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فيما جَرَت به، وأنَّ إشارة الآية إلى أنَّه لا يجوزُ أنْ يُعبد شيءٌ مِن دونه؛ لأنَّ فيها معنى أحقيَّتِه للعبادة، وهذا إبْعاد لهذا الاسم العظيم عن مواقع الضَّلالات، الَّتي أوقعتموه فيها؛ لشدَّة مُنافاته لسياقها[3].

علَّةُ التَّعبير بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

في التَّعبير به تنبيهٌ على إسرافِهم في الكُفْرِ

ذكَر القرآنُ الاسم الجليل الرَّحمنَ مقترِنًا بأشنع ضلالاتهم؛ بعبادة الآلهة مِن دون الله، في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾؛ لبيان مزيدِ الغلوِّ والإفراطِ في ضلالهم، وأنَّهم

(1) الراغب، المفردات، ص: 175 - 176، ومادة: (دون).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 400 - 401.

كفروا بالرَّحمن الذي يَبيتون، ويُصبحون يتقلَّبون في نعمائه، وليس أخسَّ ولا أشنع مِن كُفْر مَن بات المرءُ في نعمائه يتقلَّب[1]، ففي التَّعبير به إنكارٌ عليهم أنْ يكفروا به تعالى، فيعبدوا مِن دونه تلك الآلهة الَّتي لا تنفعهم شيئًا.

نكتةُ تقديم: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾:

مِثْلُه تعالى يُقدَّمُ على كلِّ شيءٍ

قُدِّم قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: على قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾؛ للعنايةِ والاهتمام بالمُقدَّم، ووجهُ ذلكَ أنَّ مَن عرَف اللّه تعالى عمومًا، وعرَف كونَه رحمانًا خصوصًا، فعرَف اللّه برحمته الواسعة لم يكَد يُقْبِلُ على شيء يعبدُه مِن دونه، فأمّا هؤلاء القومُ العاشون عن ذِكْر اللّه، الصُّمُّ العُمْيُ؛ فقد تجاهلوا ذلك، فكفروا، وأسرفوا في الكفر، ففي التَّقديم إنكارٌ لطيفٌ عليهم ألّا يلتفتوا إلى ألوهيَّته تعالى ورحمانيَّته، وتشنيعٌ عليهم، وتشهيرٌ بهم، وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنى.

سرُّ تنْكيرِ ﴿ءَالِهَةً﴾:

عظمةُ اللهِ تعالى تقضي بحقارة كلِّ معبود سواه

نظَم القرآنُ المفعولَ الأوَّلَ للجعل ﴿ءَالِهَةً﴾ نكرةً؛ للدَّلالةِ على حقارتها وهوانها في مقابلِ عظمة اللّه سبحانه الإله الحقِّ، والَّتي يدلُّ عليها الضَّميرُ (نا) في قوله: ﴿أَجَعَلۡنَا﴾، والاسمُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وللدَّلالة على العموم، بحيثُ يصدقُ الإنكارُ الَّذي في الآيةِ على كلِّ ما يتَّخذُه بعضُ العبادِ إلهًا مِن دونِ اللّهِ ﷻ.

سرُّ ذِكْرِ الصِّفةِ ﴿يُعۡبَدُونَ﴾:

حالُ الصُّمِّ العُمْيِ يفتقِرُ إلى المبالغة في الإنكار

هذه الصِّفةُ: ﴿يُعۡبَدُونَ﴾ لازمةٌ للموصوفِ: ﴿ءَالِهَةً﴾ عندَ أهلِ الكفر، لا تنفكُّ عنه، فنفيُ الموصوفِ يلزمُ منه نفيُ الصِّفة، فما فائدةُ ذِكْرِ الصِّفة ووقوعِها في حيِّز النَّفْي؟ والجوابُ: أنَّ عبادتهم آلهةً مِن دون الرَّحمن؛ لتشفع لهم، ولتُقرِّبهم إلى اللّه زُلفى وغيرَ ذلك عقائدُ متغلغلة في نفوسهم، ووجدوا عليها آباءهم، فكان مِن المفيد تكرارُ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 398.

نفيها وتأكيدُه بذِكْر الصِّفة؛ لأنَّ ذِكْرَها يفيد توكيدًا ومبالغةً في نفي الموصوفِ، فنفيُ الموصوفِ في هذا الأسلوبِ نفيٌ قائمٌ على الحُجَّة والبرهان، وليس مُجرَّدَ نفي، فكأنَّ الموصوفَ نُفِيَ مرَّتين، والشّاهدُ هنا مِن بابِ نفي الشَّيء بإيجابِه عندَ علماءِ البديع، وهو الكنايةُ الإيمائيَّة الَّتي تفيدُ نفيَ الشَّيء بنفي لازمه عندَ الطِّيبيِّ[1].

دلالةُ المضارعة في ﴿يُعۡبَدُونَ﴾:

هذه الصِّيغةُ هنا سخيَّةُ الدَّلالةِ

نظَم القرآنُ معنَى العبادة فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يُعۡبَدُونَ﴾؛ دلالةً على تنوُّع هذه العبادةِ وتغايُرها واختلافِها؛ تَبَعًا لاختلافِ هذه الآلهة المعبودة بالباطل، وتغايُرها وتنوُّعها، قال البقاعيُّ: "ولمّا كانَ قد جعل لكلِّ قوم وجهة يتوجَّهون في عبادتهم إليها، وشيئًا محسوسًا بغلَبة الأوهام على الأفهام يشهدونه، وكان رُبَّما تعنَّتَ به مُتعنِّتٌ، قال مُحْترزًا: ﴿يُعۡبَدُونَ﴾"[2]، وفيه دلالةٌ لطيفةٌ على إسرافهم في الكفر، بتجديدِ عبادتها، وتكرارِها واستمرارِها، وليس المرادُ البتَّة تسلُّطَ الإنكارِ والنَّفي على معنى المضارعة، بحيثُ يجوزُ عبادةُ الآلهةِ مرَّةً واحدةً.

دلالةُ حذفِ الفاعل في ﴿يُعۡبَدُونَ﴾:

حذف القرآنُ الفاعلَ؛ لينطق الكفارُ الصُّمُّ العُمْيُ بأنَّهم هم المقصودون أصالةً

بُني الفعل ﴿يُعۡبَدُونَ﴾ للمجهول، ولم يذكر فاعله الَّذي يَعْبدُ هذه الآلهةَ الباطلةَ؛ احتقارًا له كما احتقَر القرآنُ ما يعبدُه، وفي حذفه إشارةٌ إلى عمومِه المُشاكِل لعموم ما يعبدُه: ﴿ءَالِهَةً﴾، قال البقاعيُّ: "﴿يُعۡبَدُونَ﴾، أي: مِن أيِّ عابدٍ ما، بوجهٍ ما"[3].

علَّةُ إجراءِ غير العاقل مجرى العاقل:

عامل القرآنُ غيرَ العاقلِ مِمّا يعبدُه أهل الكفر والشِّرك مِن دون

(1) عادل الأكرت، دراسات في البلاغة القرآنية - الدراسة الأولى: مِن بلاغة الصّفة في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، وابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ص: 377، والطيبي، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، ص: 273، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 223.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.

اســتــحــضَــر حالَهُم؛ ليُفكِّروا فيه

الرَّحمن معاملةَ مَن يعقلُ؛ فعُبِّر عنها بواو الفاعلين في قوله تعالى: ﴿يُعۡبَدُونَ﴾؛ وذلك لمراعاة لفظ الآلهة في قوله: ﴿ءَالِهَةٗ﴾[1]، وجريًا على ما غلَب في لسان العربِ؛ إذ اعتقدوهم عقلاءَ عالِمينَ[2]، وفي هذا تشهيرٌ بالعابدين وبقُبحهم، وتشنيعٌ عليهم، فهذه الأصنامُ الجماداتُ الَّتي لا تنفعُ، ولا تضُرُّ في بصائرِ أهلِ الكفرِ آلهة، فحكَى القرآنُ اعتدادَهُم بها، واعتقادهم قدرتها على التَّصرُّف والنَّفع والضُّرِّ وغير ذلك من أفعال العقلاء.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 57.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 223.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٦﴾ [الزخرف: 46]

في القصص بصائرُ جديدةٌ للعاشِينَ عن ذِكْرِ اللهِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا كان المترفون مولعين بأن يزدروا من جاءهم بالرَّدِّ عن أغراضهم الفاسدة بنوع من الازدراء، كما قال كفّار قريش: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، ولا يزالون يردّون هذا وأمثاله من الضّلال، حتَّى يقهرهم ذو الجلال بما أتتهم به رسله، إمّا بإهلاكهم أو غيره، وإن كانوا في غاية القوَّة؛ أورد سبحانه قصَّة موسى عليه السلام شاهدة على ذلك بما قال فرعون لموسى عليه السلام من نحو ذلك، ومن إهلاكه على قوَّته وإنجاء بني إسرائيل على ضعفهم، وتسلية للنَّبيِّ ﷺ وترجية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: (ملي): كلمةٌ واحدةٌ، هيَ الزَّمَنُ الطَّويلُ، وأقامَ مَلِيًّا، أي: دهرًا طويلًا، وتمليَّتُ الشَّيءَ؛ إذا أقامَ معَكَ زمانًا طويلًا، والمَلَوانِ: طرَفا اللَّيل والنَّهار، والمِلاوة: الحِين، وإذا هُمِز؛ دلَّ على المساواة والكمال في الشَّيء، وملأتُ الشَّيءَ أملؤُه مَلْئًا، والمِلْءُ: الاسمُ للمِقْدارِ الَّذي يُمْلأُ، ومنه الملأُ: الأشرافُ مِن النّاسِ؛ لأنَّهُم مُلِئوا كرَمًا، والملأُ: جماعةٌ يجتمعون على رأيٍ، فيملؤون العيون رِواءً ومنظَرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، وهذا هو المرادُ هنا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى: واللّهِ لقد أرسلنا موسى بالمعجزات القاهرة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 440.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (ملي)، والراغب، المفردات: (ملأ).

الباهرة، الظاهرةِ عظمتُها؛ الدّالَّةِ على صدقِه، إلى فرعونَ وقومه الأقباطِ، فقال لهم موسى في أدبٍ ولُطْفٍ مع حُجَّةٍ قويَّة: إنّي رسولُ اللّه إليكم، أرسلني اللّه إليك يا فرعون وإلى قومك؛ لأدعوَكُم إلى عبادة اللّه وحده، المُحسن عليَّ وعليكم وعلى العالَمِينَ، والَّذي يشهدُ كلُّ مخلوقٍ بألوهيَّتِه وربوبيَّته.

كلُّ نبيٍّ ورسولٍ يدخلُ إلى قومِه مِن بابِ الإحْسانِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّوْكيد:

موقِعُ الآيةِ سببٌ في سخاءِ التَّوكيدِ الَّذي في صَدْرِها

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لامُ التَّوكيد، دخلَتْ على: (قد)، وقد صارَتْ كأنَّها جزءٌ مِن الفعل، فصَحَّ دخولُ اللّامِ عليها، واجتمَعَ التَّوكيدُ الَّذي في اللّامِ، والتَّحقيقُ الَّذي هو معنى (قد)، فدلَّ ذلك على مزيدِ عنايةٍ بالخبرِ الَّذي سيقَتْ القِصَّةُ له[1]، والتَّوكيدُ على هذا يتناغَى مع الأمرِ بالسُّؤال في الآية السّابقة: ﴿وَسۡـَٔلۡ﴾؛ لأنَّه يعني عظيمَ أهمّيَّة المسؤولِ عنه؛ إذ المأمورُ به خيرُ الأنبياءِ والرُّسُل؛ ولأنَّ المسؤول عنه متعلِّقٌ باللّه ﷻ، وهذه القِصَّةُ تُقرِّرُ ذلك، فاحْتَفَلَ القرآنُ بها، بهذا التَّأكيدِ الَّذي في صدرِ أوَّلِ آية منها، وذهَب البقاعيُّ إلى أنَّ التَّأكيدَ مِن أجل ما يُعانِدون به مِن إنكارِ الرِّسالةِ، فإنكارُهم رسالةَ محمَّد بن عبد اللّه يلزم منها إنكارُهم رسالة موسى وغيره مِن الرُّسُلِ؛ لأنَّهم مُتَّحدون في أمورٍ، على رأسها الدَّعْوةُ إلى التَّوحيدِ، وإبطالُ الكفر والشِّرْك[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالإرسال مادَّةً وصِيغَةً:

القرآنُ يُبرِزُ الإحسانَ؛ لأنَّه قوبِلَ بالكُفْرانِ

عبَّر القرآنُ بالإرسال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّ الإرسالَ فيه رفقٌ وتؤدة وسهولة وتلطُّف وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنى، وهذا شأنُ كلِّ نبيٍّ مع مَن يُرْسَل إليهم، أنْ يدخُل لهم

(1) أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 403.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 33.

مِن باب الإحسانِ، وأنْ يُغلِّب التَّرغيبَ لهم على التَّرهيب في مسالك دعوته إيّاهُم إلى الحقِّ، وهذا إحْسانٌ عظيمٌ كائنٌ في صدرِ الآيةِ في لُطْفٍ، وقد صرَّح به آخِرُ الآيةِ: ﴿رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو يتناسَبُ مع عظيم حِلْم رسولنا ﷺ مع قومه وغيرِهم، وفي الإرسالِ تذكيرٌ بالرِّسالةِ؛ ليلتفتَ المُتلقِّي إلى التَّناظُر بين الرَّسولَيْن موسى ومحمَّدٍ - عليهما الصَّلاة والسَّلام - إذ الغرضُ من القصَّةِ تقريرُ الجوابِ عن شُبْهةِ القوم في رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ فلا بُدَّ من التَّطابُق في أمورٍ كثيرةٍ تتأسَّسُ عليها القصَّةُ، ونظَم القرآنُ معنَى الإرسال فعلًا ماضيًا؛ لأنَّه قد كانَ، وانتهَى، وشريعةُ رسول اللّه محمَّدِ بن عبد اللّه قد نسخت شريعةَ موسى بنِ عمران، عليهما الصَّلاة والسَّلام.

علَّةُ التَّعبيرِ بضمير العظَمة في: ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

إرسالُهُم - عليهم الصَّلاة والسَّلام - ذو هيبة وجلال عظيمَيْنِ

أسند القرآنُ معنى الإرسال إلى ضمير العظمة: (نا) في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ من شأنِ هذا الإرسالِ - وكذلك الرِّسالةُ الَّتي جاء بها موسى عليه السلام - ألّا يلتبس في شأنه أحدٌ، فليس فيه نوعٌ ولا شيءٌ مِن خفاء يتعلَّق به المُنكِرُ أو الجاحِدُ أو المُكذِّبُ، فهو ظاهرُ الدَّلالة جدًّا على أنَّه من قِبَل اللّه الواحدِ الأحدِ الفرد الصَّمد، الَّذي يشهد كلُّ ما في الكون على ألوهيَّته الحقَّة، وذلك إحسانٌ عظيمٌ إلى المُرْسَلِ إليهم؛ ولهذا قال موسى عليه السلام في مقطع الآية: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وللدَّلالة على عظمة الرَّسول وعظمةِ الرِّسالةِ، وإن كان الرَّسولُ عديمَ المالِ والجاه، وهذا ينظرُ إلى ما سيكونُ من فرعون وملئه تُجاه موسى عليه السلام والآيات التي جاء بها، من استهزاء وإنكار واستكبار، وكذلك يُقال في الضَّمير: (نا) في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، فهو يُفْهِمُ عظمة هاته الآيات؛ إذ تدلُّ على كمال دلالة وتمامها على المقصودِ منها، وهو أنَّ موسى نبيُّ اللّه ورسولُه، ففيها سِيما الألوهيَّة يدلُّ على نفسه، ويُنادي عليه، ويَنْطِقُ بذلكَ، ومِثْلُ هاته الآيات لا يُرَدُّ، ولا يُرفضُ، ولا يُضْحكُ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالباء في: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

موسى بالآيات قهَر المتجبِّرين والطُّغاة

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: معناها الملابسة، أي: أرسلناه ملتبِسًا بها[1]، وهو ما عبَّر عنه النُّحاةُ بالإلصاقِ والاختلاطِ، وهو أصلُ معانيها الَّذي لا يكادُ يُفارِقُها، وهذا يدلُّ على تمكُّنِ موسى مِن هاتِه الآياتِ، وامتلاءِ نفْسِه وصدْرِه بالهدفِ والمَقْصِدِ منها، فهي معه يَستخدمُها؛ ليُثْبِت صِدقَه، وليَدُلَّ العبادَ على ربِّ العبادِ الحقِّ سبحانه وبحمده.

علَّةُ التَّعبيرِ بالآيات في: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

لم يُؤتَ فرعونُ وملَؤُه مِن قِبَلِ الآياتِ، وإنَّما مِن قِبَلِ أنفسِهم

عبَّر القرآنُ بالآيات في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهي جَمْعُ آيةٍ، فأفادَ أنَّها علاماتٌ قويَّةُ الوضوحِ والدَّلالةِ على المقصودِ، مِن كونِ موسى عليه السلام نبيًّا ورسولًا مِن قِبَلِ اللهِ الملِكِ الحقِّ المُبِينِ، يُؤيِّد هذا ضميرُ العظمة في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وقولُه: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فمِن إحسانِه تعالى إليه، وإلى مَن أُرْسِل إليهم أن تكون الدَّلائلُ، الَّتي جاء بها بهذه الصِّفة المذكورةِ، وهذا مِن بابِ الإحسانِ كذلك إلى قوم الرَّسولِ ﷺ، بنزولِ القرآنِ وجعْلِه عربيًّا؛ لعلَّهم يعقلون.

معنى: ﴿إِلَىٰ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

في الحرفِ (إلى) ضَربٌ مِن الإيجازِ السَّخِيِّ

كلمة: ﴿إِلَىٰ﴾ حرفُ معنًى، معناه انتهاءُ الغايةِ في الزَّمان والمكانِ وغيرِهما، وهذا الحرفُ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يعني أنَّ فرعون وملأه هدفٌ وغرضٌ ومقصدٌ لإرسال موسَى عليه السلام بالآياتِ، وأنَّ لهُم دورًا رئيسًا في القصَّة وتقريرِ الغرضِ منها ومقاصدِها، وأنَّ لهم مِن الأحوالِ ما يستدعي كونَهم كذلك، وهذا ما يراه المُتلقِّي في باقي آياتِ القِصَّةِ في السّورة، وفي: ﴿إِلَىٰ﴾ إشارة لطيفة جدًّا،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 89.

إلى أنَّ إرسال موسى إلى فرعون وملئه مُلاحَظٌ في أحوالِ موسى مُنذُ أن كان طفلًا رضيعًا ألقته أمُّه في اليمِّ، فالتقطه آل فرعون؛ ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، وقالت امرأة فرعون: لا تقتلوه، عسى أن ينفعنا، أو نتَّخذه ولدًا، ومكَّنَ الله له حتَّى أرسلَه إليهم رسولًا، وهذه الرِّحْلةُ الطَّويلةُ يشي بها معنى انتهاء الغاية في: ﴿إِلَىٰ﴾.

نكتةُ تقديم ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾:

مِـثْـلُ الآيـاتِ الغالبة القاهرة يُـقـدَّمَ على المغلوبِ المقهورِ

قدَّمَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ في الذِّكْرِ على قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ بالآياتِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ المقصودَ مِن الآيةِ، وهو الجوابُ: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: مُؤسَّسٌ على هذه الآياتِ، مِن حيثُ كونها قد بانَتْ، وظهرَتْ، وبهرَتْ، وقهَرتْ، ودلَّتْ على صدقِ موسى عليه السلام وعلى أنَّها آياتُ ذي الجلالِ والإكرامِ، وهذا مِن وجوه تقديم ضمير الآياتِ بتقديم قوله تعالى: ﴿مِّنْهَا﴾ على قوله تعالى: ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ ثمَّ إنَّ الأَبَرَّ بالباءِ الدّاخلة على الآيات في نورِ دلالة التَّعبير بها أن تقترنَ الآياتُ بموسى عليه السلام في الذِّكر، والأَبَرُّ بكون فرعون وملَئِه مدخولًا لحرف الغاية والانتهاء أن يتأخَّر مدخولُها عن ما قبلها، فإنَّهُم مقصدٌ وهدفٌ لتلك الآياتِ.

نكتةُ تقديم ﴿فِرْعَوْنَ﴾ على ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

عظيمُ القومِ إن اهتدَى؛ اهتدوا

قدَّمَ القرآنُ فرعون على الملأ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾؛ للعنايةِ والاهتمام به، ووجهُ ذلكَ أنَّه إمامُهم في الضَّلال، فقد طغَى، وبغَى، وادَّعَى أنَّه هو الرَّبُّ الأعلى، ووافقَه الضّالّونَ من الملأ وغيرهم، فهُم لهُ تبَعٌ وخدَمٌ، والنّاسُ على دين ملوكهم، فإذا اهتدَى ملِكُهُم؛ اهتدَوا؛ فكأنَّ الآياتِ تقصِدُ فرعونَ رأسًا، معَ أنَّ كونها حُجَّةً ليس فيه تفاوتٌ بالنِّسْبة إلى الجميع مِن فرعونَ وملَئِهِ وغيرِهم.

معنى الفاء في: ﴿فَقَالَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: معناها

الفاءُ ذاتُ موقِعٍ سخيٍّ جدًّا

ترتيبُ ما بعدها على مجموع ما قبلها مِن غير مهلةٍ، وفيها معنى السَّببيَّة أيضًا، أي: فقالَ هذا القولَ؛ بسببِ إرسالِنا[1]، ولكونها كذلكَ كانَ ما قبلَها مِن الإرْسال المذكورِ منبئًا بما بعدها مِن القول المذكورِ، وفيها أنَّ موسى ﵇ نفَّذَ مرادَ اللّهِ على الفَوْرِ، وأنبياءُ اللّهِ ورسلُه هُم خيرُ مَن ينقادُ للّه، ويطيعُه.

سِرُّ حَذْفِ النّون من ﴿إِنِّي﴾:

الحذفُ يُصوِّرُ حالًا مُقابِلًا للحالِ الَّذي يدلُّ عليهِ التَّوكيدُ

حذفَ القرآنُ حرفَ النّون في قولِه: ﴿إِنِّي﴾، والمحذوفُ هو نونُ الوقاية الَّتي تفصِلُ بين (إنَّ) وياء المُتكلِّم، وسِرُّ الحذفِ الإيجاز، ووجهُه تصويرُ حالِ موسى في دعوته فرعونَ وملَأَهُ، مِن هَضْمِ النَّفْسِ، واللِّينِ، والتَّلطُّفِ، وإقبالِه عليهم إقبالَ محبَّةٍ لهُم، وإنْ كان موسى - على ما يُفْهِمُه التَّوكيدُ - عظيمَ الإحساس بعظمة كونه رسولًا مِن رَبِّ العالَمِينَ إلى عظماءِ زمانه، الَّذين يُذبِّحون أبناء بني إسرائيل، ويستحيون نساءَهُم، وترَبَّى بينهم وعلى أيديهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرَّبِّ:

التَّعبيرُ به ينظرُ إلى عميق نفسيّات فرعون وملئه

عبَّر القرآنُ بالرَّبِّ على لسانِ موسى ﵇ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ بادئَ ذي بدء على أنَّه ليس الغرضُ مِن إرسالِ موسى ﵇ ورسالتِه الإساءةَ إلى فرعونَ وملئه، بالانتقامِ منهم جزاءَ ما كانوا يفعلون في بني إسرائيلَ، مِن استضعافِهم، وذَبْحِ أبنائهم، واستِحياءِ نسائهم، والإفسادِ في الأرضِ، فيزولُ مُلْكُهُم وقوَّتُهم أبدًا، وإنَّما غرضُه الإحْسانُ إليهم، بتصحيحِ مسارهم، بدخولِهم في بابِ العُبوديَّةِ للإله الحقِّ اللّهِ ربِّ العالَمينَ، فتُبدَّلُ سيِّئاتُهم حسناتٍ، فيسعدون في مصيرهم، فتكون الجنان، ونِعمَ المصيرُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 34.

الاستغراقُ مِن شأنِه أن يكشف عن غاية عظمة الله لهم

علَّةُ التَّعبير بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

عبَّر القرآنُ بـ: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو جَمْعُ عالَم، والعالَمُ اسمٌ لِما يُعْلَم به، كالخاتَم والقالَب، غلَب فيما يُعلَم به الصّانعُ تعالى مِن المصنوعاتِ، أي: في القدر المشترك بينَ أجناسِها وبينَ مجموعِها؛ فإنَّه كما يُطلق على كلِّ جنسٍ جنسٌ منها في قولهم: عالَمُ الأفلاكِ، وعالَمُ العناصرِ، وعالَمُ النَّباتِ، وعالَمُ الحيوانِ، إلى غير ذلك، يُطْلَق على المجموع أيضًا، كما في قولنا: (العالَمُ بجميع أجزائه مُحْدَثٌ)[1]، وسِرُّ التَّعبير به الإبلاغُ في ترغيبِ فرعونَ وملئِه؛ ليتعرَّفوا إلى اللّٰه فيما يَحْضُر في أذهانهم مِن أفرادِ العالَم، وما أكثرَها! فهي لا تَكاد تُعدُّ، ولا تُحْصَى، ولذلك عرفها بـ(الـ) الدّالَّة على استغراق أفرادِ كلِّ عالَمٍ من العالَمين بأسرها.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

القومُ أعمُّ من المَلَإِ

الملأ والقوم:

إنَّ الملأَ والقومَ كلٌّ منهما جماعةٌ مِن النّاسِ، قد تكونُ جماعةً قليلةً، وقد تكونُ جماعةً كثيرةً، وكلٌّ منهما فيه قوَّةٌ، لكنَّ القوَّةَ الَّتي في: (القوم) هي التي تُميِّزُهُم عن النِّساءِ، مِن الانتِصابِ للشَّيء، والعَزْمِ في سبيلِه، فهي قوَّةٌ خاصَّةٌ مِن جهةِ النِّساءِ، وعامَّةٌ في أفرادِ الرِّجالِ؛ ولذلك لا يُطلَق: (القوم) في الأصل إلّا على الرِّجالِ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11]، ثمَّ قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، وإنَّما سُمِّي الرِّجال دون النِّساء قومًا؛ لأنَّهم يقومون في الأمور، وعندَ الشَّدائدِ، وأمّا القوَّةُ التي في: (الملأ)؛ فهي قوَّةٌ خاصَّةٌ، لا تنظرُ إلى النِّساء، وإنَّما تنظر إلى الرِّجالِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 37. (تفسير سورة الفاتحة).

أنفُسِهم، وقوَّتُهم مُؤسَّسَةٌ على امتلائِهم بالهيبة والوقار والجلال والشَّرفِ؛ بسبب جاه أو سلطان أو مال، ونحْوِ ذلك، وعُبِّر بالملأ هنا؛ لأنَّهم عِلْيةُ قومٍ فرعونَ المقابلونَ لعِلْية قوم رسول الله محمَّد ﷺ الَّذين آذوه، وقالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31][1].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والصاحبي في فقه اللغة، والراغب، المفردات: (قوم) ، (ملأ).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ٤٧﴾ [الزخرف: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

فِقْهُ اتِّصالِ الآيةِ بما قبلَها يهدي إلى بعض محطّاتِ القصَّة الَّتي سُكِت عنها

لَمّا ذكَر تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّه أرسَل موسى ﷺ إلى فرعونَ وملئه بآياتِه الدّالَّة على نبوَّتِه ورسالتِه، وقولَه لهم: إنَّه رسولٌ مِن قِبَل ربِّ العالَمين؛ ذكَر في هذه الآيةِ ما يَطْلُبُه الأقوامُ مِن الأنبياءِ والرُّسُلِ مِن الدَّلائلِ والبراهينِ على صِدقِه وصدقِ ما جاءَ به مِن هُدًى، فجملةُ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: مُقدِّمةُ القصَّةِ، وجملةُ: ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: هو أوَّلُ ما يقولُه المُرْسَلُ للمُرْسَلِ إليهم، ثمَّ إنَّهم يطلبونَ منه أن يأتيَ بآيةٍ أو أكثرَ؛ دليلًا على صحَّة قولِه ذاك.

المَعْنى الإجماليُّ:

كُذِّبَ موسى، ولكن كانت عاقبتُه محمودة، فكذلك رسولُنا

يقولُ تعالى: فلمّا جاء موسى بآيات اللّه التِّسْعة الدّالَّةِ على ألوهيَّته وعظمته سبحانه ورسالتِه إلى فرعونَ وملئه؛ فاجَؤوه بالضَّحِك منها؛ سخريةً واستهزاءً؛ ليوهِموا أتْباعَهم أنَّ تلك الآياتِ سِحْرٌ، وأنَّهم قادرونَ عليها، فكلَّما جاءهم بآيةٍ مِن عندِ اللّه، فعلوا ذلكَ معَه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَلَمَّا﴾:

نصر الله تعالى رسلَه بآياته ومعجزاته

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: معناها التَّعقيب والتَّرتيب من غير مهلة، أي: إنَّ موسى جاءهم بالبيِّنات عقب قولِه لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولِهم له: ائتِ بآية إن كنتَ مِن الصّادقين؛ لأنَّه مُرْسَلٌ بالآياتِ، ويعرفُها، ويعلمُ حقيقتَها، بل

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 51، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 57.

قد دُرِّبَ على بعضِها، وهذه الفاءُ يدلُّ ترتيبُها على ما قبلَها في الظّاهر على تقدير محذوفٍ، وهو أنَّهم طلبوا آيةً أو أكثرَ من آيةٍ، قال الزَّمخشريُّ: "ما أجابوه به عندَ قولِه: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهو مطالبتهم إيّاه بإحضار البيِّنة على دَعْواهُ، وإبرازِ الآيةِ"(1).

علّة التَّعبير بالمجيء مادَّةً وصيغةً:

إتيانُ موسى بالآياتِ جِدُّ عظيمٍ

لَمّا كانَ إتيانُ الأنبياءِ والرُّسُلِ المُعظَّمِينَ مِن قِبَلِ اللهِ مَن أُرسِلوا إليهِم - بالآياتِ القاهراتِ الشّاهِداتِ بوحدانيَّةِ اللّهِ المُرْسِل، وبصدقِ المُرْسَلِ - ذا خطَرٍ عَلِيٍّ وعظيم هيبةٍ وشديدِ جلالٍ؛ عبَّر القرآنُ بالمجيءِ الَّذي هو إتيانٌ بصعوبةٍ، ونظْمُ المجيء فعلًا ماضيًا يشيرُ إلى أنَّ فرعونَ وملَأَهُ إنَّما ضَحِكوا مِن الآياتِ مِن بعدِ تمامِ تحقُّقِ عَرْضِها عليهم؛ إذ تمامُ تحقُّقِ حصولِ المجيءِ يترتَّبُ عليه ذلكَ، فقد قامت عليهم الحُجَّةُ، وظهرت، وبانت، وقهرت، ثمَّ إنَّهم منها يضحكون.

فائدةُ التَّعبيرِ بالضَّمير (هم):

ما لم يُصرَّحْ به مِن معالِمِ القِصَّةِ هو مقصودٌ تَبَعًا

أوقع القرآنُ فعلَ المجيءِ على الضَّميرِ: (هم) مفعولًا به في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهذا يعني مواجَهةَ موسى لجَمْعِهم، وأنَّهم تجمَّعوا، واتَّحدوا في مواجهته، وأسندَ الضَّحِكَ إلى هذا الضَّميرِ مبتدأً في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾؛ فدلَّ على تجمُّعِهم وتوحُّدِهم في الاستهزاءِ بموسى وبالآياتِ الإلهيَّةِ الَّتي جاءَهُم بها؛ وذلك كلُّه مُؤسَّسٌ على أنَّ هذا الضَّميرَ قد جَمَعَ فرعونَ وملَأَه في لفظٍ واحدٍ، وهذا كان حالَهُم، فـ: ﴿هُم﴾ يُصَوِّرُ الواقعَ، قال البقاعيُّ: "﴿إِذَا هُم﴾، أي: بأجمعِهِم"(2).

(1) الزمخشري، الكشاف: 14/ 150.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 34.

بلاغةُ التَّعبير بـ: ﴿إِذَا﴾:

فاجوؤا المُجيء بها - من غير توقُّفٍ ولا كسل - بالضَّحِكِ؛ سخريةً واستهزاءً

كلمةُ: ﴿إِذَا﴾ حرفُ مفاجأة، يدلُّ على أنَّ ما بعدَه حصَل مِن غير ترقُّبٍ، فتُفْتَتَحُ به الجملةُ الَّتي يُفاد منها حصولُ حادثٍ على وجهِ المفاجأة، والأصلُ في جوابِ: (لَمَّا) أن يكون جملةً فعليَّةً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [يوسف: 96]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]، وإذا الفجائيَّة هنا جملةٌ اسميَّةٌ؛ سدَّتْ مَسَدَّ الجملة الفعليَّة؛ لأنَّ ما في ﴿إِذَا﴾ مِن معنى المفاجأة يقومُ مقامَ الجملةِ الفعليَّة، والمعنى: فلَمّا جاءهم بآياتنا؛ فاجؤوه بالضَّحِكِ منها، و﴿إِذَا﴾ الفجائيَّةُ تفيدُ معنًى غيرَ مُتوقَّعٍ بالنِّسْبةِ للمعنى الَّذي قبلَها؛ لأنَّ المُتوقَّع الَّذي يترتَّبُ على مجيءِ الآيات هو إمّا الانقيادُ والتَّسْليمُ، أو المراجعةُ والتَّدبُّرُ، من أجل استيعابِ الآيات، أمّا المبادرةُ بالاستهزاء؛ فهذه هيَ المفاجأة[1]، وهذه المفاجأةُ مُؤسَّسةٌ على ذاتِ المجيءِ، وعلى خصوصِ التَّعبيرِ بالآيةِ، وخصوصِ الجَمْعِ الَّذي هو الآياتُ، وعلى خصوصِ التَّعبيرِ بضميرِ العظمة: (نا)، وعلى إضافةِ الآياتِ إلى هذا الضَّمير.

نكتةُ تقديم المسند إليه ﴿هُم﴾:

التَّقديمُ يُصوِّرُ كمالَ المفاجأة والمباغتة

في قولِه تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: قدَّم القرآنُ المسندَ إليه الضَّمير المنفصل: ﴿هُم﴾ على الخبرِ الجملةِ الفعليَّة: ﴿يَضْحَكُونَ﴾؛ لتقوية الحُكْم وتوكيدِه في النَّفْسِ وتحقيقِه فيها، مِن طريقِ إسنادِ الضَّحكِ إلى واو الفاعلينَ تارةً، وإسنادِ جملةِ الضَّحك إلى الضَّمير: ﴿هُم﴾ تارةً أخرى، فكأنَّ معنَى الجملة قيلَ مرَّتَيْن، ثم عندما يتلقَّى المُتلقِّي المسند إليه؛ يقَع في نفْسِه أنَّ حديثًا ما سيُخْبَرُ به عنه، فيترقَّبُه، فإذا ما تلقّاه؛ تمكَّن في نفْسِه، ورسَخ، ووقَع فيها موقعًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225، وأبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 404 - 405.

حميدًا؛ لأنَّه تلقّاه، وقد انتظَرَه، واشتاق إليه، وتطلَّع له، وهذه الدَّلالةُ للتّقديمِ تُصوِّرُ حالَ النَّفْسِ المُتلقِّية مضمونَ الكلامِ، فلَمّا كان مِن شأنها التَّعجُّبُ والاستغرابُ مِن ترتُّبِ الضَّحكِ على مجيء موسى بالآياتِ الإلهيَّةِ الباهرةِ إلى حدِّ الإنكارِ؛ عومِلَت معاملةَ المُنكِر، فأكَّد القرآنُ الحُكْم لها، وآنَسَها به، وحقَّقَه فيها، وذلك كلُّه مُؤسَّسٌ على تكرار قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وعلى المفاجأة في: ﴿إِذَا﴾.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿مِّنۡهَا﴾:

مِثْلُ آياتِ اللهِ لا يُضْحَكُ منها

قولُه تعالى: ﴿مِّنۡهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلّق بالفعل في قوله تعالى: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾؛ والضَّميرُ في قوله: ﴿مِّنۡهَا﴾ يعود إلى الآيات، وكان يمكن في النَّظْم أن يُقال: (إذا هم يضحكون منها)؛ ولكِنَّ التَّقديمَ اعتنى بالآيات، واهتمَّ بها، ووجهُ ذلكَ أنَّ في التَّقديمِ إنكارًا لطيفًا عليهم أن يضحكوا منها؛ لَمّا جاءهم موسى بها، التَّقديمُ يقولُ: أنّى وكيفَ يكونُ منهم ذلك؟ ونتَج عن ذلك توفُّر الانسجامِ الصَّوتيِّ بين هذه الفاصلةِ: ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ وبينَ ما قبلها وما بعدَها مِن الفواصل.

بلاغةُ الكناية في الآية:

المُكنَّى عنه قريبُ الفَهْمِ مُتعدِّدٌ

أخبر القرآنُ عن فرعونَ وملَئِه بأنَّهم يضحكونَ؛ لَمّا جاءَهم موسى بآياتِ الله العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾، وذلك كنايةٌ قريبةٌ عن صفةِ الاستخفافِ بالآياتِ العظيمةِ الباهرة القاهرةِ، والتَّكذيبِ بها، معَ أنَّ إضافتها إلى ضمير العظمة يقتضي الإيمان بها، وتوقيرها وإجلالها، والانقياد لها، والعملَ بمقتضاها، فكان فرعونُ ومَن معه عاشين عن تلك الآيات العظيمةِ صُمًّا عُمْيًا في ضلالٍ مُبينٍ، كما كان قومُك يا محمَّدُ، ومعك برهان نبوَّتك القرآن العظيم، واختار القرآنُ معنى الضَّحِكِ مكنًّى به؛ لأنَّه شأنُ الكُبَراء المُتْرَفينَ في باب السُّخْرية والاستهزاء، ولَمّا كانت القرينة في أسلوب الكناية غير مانعة مِن إرادة المعنى الحقيقيِّ

المُكنَّى به، فقد يكونُ حاصلًا في الواقع، وقد لا يكونُ حاصِلًا فيه: لا يتعيَّنُ أن يكونَ كلُّ الحاضرين صدر منهم ضحكٌ، ولا أنَّ ذلك وقَع عند رؤيةِ آيةٍ؛ إذ لعلَّ بعضَها لا يقتضي الضَّحِكَ(1).

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يَضۡحَكُونَ﴾:

الإســـرافُ فـــي الـكـفـر والاســتــهــزاء والإيـــذاء مِـن ســمــت قــوم رسولنا وفرعون وملئه

نظَم القرآنُ معنَى الضَّحِك الَّذي هو كنايةٌ عن الطَّنْزِ بالآياتِ وموسى، والتَّكذيبِ بهما فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ﴾؛ للدَّلالة على إبلاغِهم في السُّخْرية بالآيات وموسى، والاستهزاءِ بهم، وهذا في حدِّ ذاتِه إسرافٌ في رفض الآيات وموسى، وجحودِهما، والتَّكذيبِ بهما، كما أسْرَفَ قومُ رسولِ اللّٰه محمَّدٍ ﷺ في الكفر، على ما ورَد في مطلع السّورة: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾ [الزخرف: 5]، وفهِم الشَّيخ أبو موسى أنَّ المضارع هنا واقع موقِعَ الماضي؛ لأنَّ الحدث قد وقَع، وهذا المضارعُ يستحضرُ الصّورة، وكأنَّك تراهم، وتسمعُهم، ووراء ذلك تأكيدُ هذا الموقفِ العجيبِ المُسْتهْتِرِ والمُسْتهْزِئ بالآياتِ في النَّفْسِ، وهذا لُبُّ المقصودِ(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.
(2) أبو موسى، آل حم: الشورى - الزخرف - الدخان: دراسة في أسرار البيان، ص: 405.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨﴾ [الزخرف: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

المعجزاتُ الَّتي أيَّد اللهُ بها نبيَّه موسى كانت كلّها عظيمةً كبيرةً

بعد أن تحدَّثت الآيتان السابقتان عن إرسال اللّه تعالى نبيَّه موسى عليه السلام مؤيَّدًا بالآيات إلى فرعونَ وملئه، ووضَّحت أنَّهم قابلوا معجزاتِه بالسُّخرية والاستهزاء؛ ناسب أن تُبَيِّنَ هذه الآيةُ حالَ تلك المعجزات، وأنَّها كانت ذاتَ شأنٍ كبيرٍ في العظمةِ والفخامةِ، بحيثُ لا يَمْلِكُ المُخاطَبون أمامَها إلّا التَّصديقَ والإيمانَ، لكنَّهم كفروا بها، وأصرّوا على ما هم فيه، فاستحقّوا العذابَ الَّذي أخذهم به اللّهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُرِيهِم﴾: (رأي) أصلٌ يَدُلُّ عَلى نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ أو بَصِيرةٍ، والرِّئْيُ: ما رَأتِ العَيْنُ من حالٍ حَسَنَةٍ، والعَرَبُ تَقولُ: رَيْتُهُ في مَعنَى رأيْتُه، وتَراءَى القَوْمُ: إذا رَأى بَعضُهُم بَعضًا، وراءَى فُلانٌ يُرائِي، وفَعَلَ ذَلِكَ رِئاءَ النّاسِ، أي: فَعَلَ شَيئًا؛ لكي يَراهُ النّاسُ[2]، والرُّؤيَةُ: إدراك المرئيِّ بالحاسَّة، وما يجري مجراها، قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 6 - 7]، وقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 60] وقال أيضًا: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27][3].

2) ﴿ءَايَةٍ﴾: أصل الآية: العلامة الثّابتة، من قولك: تأيَّيْتُ بالمكان؛ إذا أقمتُ به، وثبتُّ فيه، يُقال: لأجعلنَّك آيةً، أي: علامةً،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 442، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأي).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (رأي).

وسُمِّيت الآيةُ من القرآن؛ لأنَّها بمفارقتها كلامَ البشر علامةٌ على صِدق الدَّعوة، وهي في القرآن على وجهين: أوَّلهما: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يُعتبَر بها، وتكون علامةً لصِدقه، وشاهدًا على أنَّ اللّٰه قادرٌ على ما يريده، والآخر: العَلامة، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيَّته، والوجهان متقاربان يصلحان في مكان بعضهما[1].

3) ﴿أُخْتِهَا﴾: أصل الأخ: أخَوَ على وزن فَعَلَ، ودليلُ ذلك أنَّك تقول في التَّثنية: أخوان[2]، ويُستعار في كلِّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدّين، أو في صنعة، أو في معاملة، أو في مودَّة، أو غيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]، أي: لمُشاركيهم في الكفر، والأخت: تأنيث الأخ، جُعِل التّاءُ فيه كالعوض عن المحذوف منه، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: 28]، أي: أخته في الصَّلاح لا في النَّسب، وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، معناه: من الآية الَّتي تقدَّمتها، وسمّاها أختًا لها؛ لاشتراكهما في الصِّحَّة والإبانة والصِّدق[3].

4) ﴿وَأَخَذْنَٰهُم﴾: (أخذ) أصلٌ واحِدٌ هو: حَوزُ الشَّيءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، تَقولُ: أخَذْتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أخْذًا، وهوَ خِلافُ العَطاءِ، أي: التَّناوُلُ[4]، ومن معانيه: الإهلاك والعقاب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [غافر: 5]، أي: عاقبتهم، ومثله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102][5]، وهو المقصود هنا.

5) ﴿يَرْجِعُونَ﴾: (رجع) أصلٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ عَلى رَدٍّ وتَكْرارٍ، تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا؛ إذا عادَ، وراجَعَ الرَّجُلُ امرَأتَهُ، وهيَ: الرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ، والرُّجْعَى: الرُّجوعُ[6]، والرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله، ويُقال: رَجَعْتُ عن كذا رَجْعًا، ورَجَعْتُ الجوابَ، قال

(1) العسكري، الوجوه والنّظائر، ص: 91، و92.
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 95.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (أخ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 40.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع).

تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: 83]، وقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [المائدة: 48]، وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، معناه: يرجعون عن الذَّنب[1]، أو يرجعون عمّا هم فيه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّ كلَّ معجزة من المعجزات، الَّتي أيَّد اللهُ تعالى بها نبيَّه موسى عليه السلام عندما أرسله إلى فرعون وملئه، كانت أكبرَ من أختها، بمعنى: أنَّ كلَّ آيةٍ تعدُّ كأنَّها أكبرُ من أختها وزميلتها؛ إذ كلُّ واحدةٍ لكمالِها في نفسِها ووفائِها بالغرض المقصود منها، كأنَّها أكبرُ من زميلتها، فلمّا لم يؤمنوا؛ أخذهم اللهُ بالسِّنين، وأصابهم بنقص الزَّرع، وقلَّة الضَّرع، وسلَّط عليهم القُمَّل والضَّفادع والدَّم... إلخ، لعلَّهم يرجعون عمّا هم فيه، ويثوبون إلى رشدهم[2].

آياتٌ عظيمةٌ، ترتَّب على الاستهزاء بها العذابُ والإهلاكُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الواو ودلالتها في صدر الآية:

الأظهر أنَّ الواوَ في قوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها تبيِّن حالَ الآيات الَّتي كذَّب بها فرعونُ وقومُه، وتلقَّوها بالتَّكذيب والاستهزاء، وتوضِّح أنَّها كانت عظيمةً، بحيث لا يستطيعُ أحدٌ من البشر أن ينكرَها، أو يأتيَ بمثلِها، والمعنى: "كان فِرعَونُ وقَومُه يَستَخِفّونَ بالآياتِ الَّتي جاءَ بِها موسى في حالِ أنَّها آياتٌ كَبيرَةٌ عَظيمَةٌ"[3].

استَخَفَّ فرعونُ وقومُه بالآياتِ وهي كبيرةٌ عظيمةٌ

نكتةُ النَّفي بـ(ما):

(ما) في جملة: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾ هي النّافية العاملة عمل ليس، أوثر النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصها نفيَ الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهي آكدُ

لا توجدُ في الآياتِ الَّتي جاء بها موسى آيةٌ غيرُ عظيمة

(1) الراغب، مفردات القرآن: (رجع).
(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 398، و399.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

في النَّفي من (ليس)، وأوسع استعمالًا منها أيضًا؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجمل الاسميَّة فحسب[1]، والنَّفي بـ (ما) أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفيَ إراءة فرعون وقومِه آياتٍ غيرَ كبيرةٍ، وغيرَ مُقِيمةٍ للحُجَّة عليهم نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإراءة مسندًا إلى ضمير العظمة:

الآياتُ الَّتي جاء بها موسى تدفعُ إلى تصديقِه والإيمانِ به

عبَّر النَّظم بفعل الإراءة الموضوع لإدراك الأشياء بحاسَّة البصر في قوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ للدَّلالة على ظهور الآيات ورؤيتهم لها رؤيةً لا مجال فيها للزَّيغ أو الالتباس، ما من شأنه أن يُلزم المتلقِّي الحجَّةَ والتَّسليم، ويدفعه إلى التَّصديق والإيمان بمن أظهرها اللّه تعالى على يديه، وفي إسناده إلى ضمير المتكلِّم بصيغة التَّعظيم تفخيمٌ للآيات، وإعلاءٌ لشأنها، وبرهانٌ على أنَّها من عند اللّه بما "له من الجلال والعُلوِّ والكمال"[2]، وبما له من القدرة الَّتي لا يستطيعُ إعجازَها أحدٌ في الأرض ولا في السَّماء.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الإراءة مضارعًا:

استحضارُ الصّورة يساعد المُتلقّي في التَّأثُّر والاستجابة

أوثر التَّعبيرُ بفعل الإراءة مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم﴾؛ لدلالته على تجدُّد الإراءة؛ كلَّما تجدَّد تأييدُ اللّه نبيَّه موسى بمعجزةٍ من المُعجزات الَّتي تعدَّدت، وتنوَّعت، ولِما يمتازُ به المضارعُ من استحضار الحالة الماضية[3]، الَّتي يدور الحديثُ عنها كأنَّها حاضرةٌ ماثلة، يبدو فيها فرعونُ وقومُه، وهم يشاهدون تلك الآيات آيةً آيةً ومعجزةً معجزةً، فتعمل تلك الصّورةُ عمَلَها في نفوس المتلقِّين من كفّارِ مكَّةَ وعقولِهم، وتثيرهم إلى ألّا يكونوا مثلَ فرعونَ وقومِه في تكذيب الآياتِ والاستهزاءِ بالمعجزات.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 442.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

مرجعُ الضَّمير في فعل الإراءة ودلالته:

تأكيدُ اختصاص فرعونَ وقومِه بالإراءة وإقامةِ الحجَّة

ضميرُ الغائب المنصوب في الفعل: ﴿نُرِيهِم﴾ يرجع إلى فرعون وقومه، وأوثر التَّعبيرُ عنهم به جريًا على الأصل في البيان عن الاسم الَّذي سبق ذكرُه بالضَّمير، ولما يفيده التَّعبير به هنا من تأكيد حصول الإراءة لهم، واختصاصِهم بها اختصاصًا يحول دون صرفِ الحديث عنهم إلى غيرهم، والمعنى: وما نُري فرعونَ وملأه من آيةٍ إلّا هي أكبرُ من أختِها.

نوع ﴿مِّنْ﴾ وفائدته:

ليس لفرعونَ وقومِه أيُّ عذرٍ في الاستهزاء بالآيات

﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ بيانيَّة تفيد تأكيد كون كلِّ الآيات الَّتي جاء بها موسى من الكِبَرِ والعظمةِ بمكان، وأنَّه ليس فيها واحدةٌ غيرَ كبيرةٍ أو غيرَ عظيمةٍ.

الغرضُ من تنكير: ﴿ءَايَةٍ﴾:

جيء بالاسم المجرور: ﴿ءَايَةٍ﴾ نكرةً منوّنًا؛ لِما يفيدُه تنكير الاسم الواقع في سياق النَّفي وتنوينه من تأكيدِ عمومِ النَّفي وشمولِه كلَّ الآياتِ الَّتي جاء بها نبيُّ اللّه موسى.

نوع ﴿إِلَّا﴾ ولطيفة التَّعبير به:

تكذيبُ فرعونَ وقومِه بالآياتِ راجعٌ لمكابرتِهم وعنادِهم

﴿إِلَّا﴾ في الآية حرف استثناء، وما بعدها في موضع الحال، ما يعني: أنَّ الاستثناء من الأحوال[1]، وفي التَّعبير بحرف الاستثناء نوعٌ من الإثارة والتَّشويق إلى الآتي بعده، حتّى إذا ورد؛ ثبت في نفس المتلقّي، وتأكّد لديه بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ أنَّ جميعَ الآيات الَّتي جاء بها موسى متناهيةٌ في العظمة والكِبَر، ومقيمةٌ للحجَّة على فرعون وقومه، ودافعةٌ لهم إلى التَّصديق والإيمان، وأنَّه لا وجهَ لتكذيبهم بها وضحكِهم منها، وأنَّهم ما كذَّبوا بها لضعفِها وحقارتِها، وإنَّما "لمُكابرتِهم وعنادِهم"[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.

الآياتُ الَّتي يؤيِّد اللهُ تعالى بها رسلَه لا تكون إلّا عظيمةً كبيرةً

نوعُ القصر وبلاغته:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة، طريقُه النَّفي والاستثناء، قَصَر فيه النَّظمُ حالَ الآيات الَّتي جاء بها موسى على كونها كبيرةً عظيمةً، تدفع مَن يراها إلى التَّصديق والإيمان، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أو قصرًا إضافيًّا بغرض قلبِ ما قد يظنُّه الكفّارُ، ويتوهَّمونه من أنَّ الآيات الَّتي جاء بها موسى أثارت ضحك فرعون وقومِه وسخريتَهم لضعفها وهوانها.

وأوثر النَّفيُ والاستثناء طريقًا للقصر؛ لما يمتاز به من الحسم والتَّأكيد الَّذي يناسب المخاطَبَ المُنكِرَ، أو الشّاكَّ في كون الآيات عظيمةً، والظّانَّ أنَّها لم تكن حاملةً على التَّصديق والإيمان، فيتمُّ إبطالُ ذلك الظَّنِّ من خلال إثبات أنَّ جميعها متماثلٌ في العظمة والكِبَر، بعد نفي أيِّ حالٍ آخر عنها نفيًا قاطعًا؛ إزالةً للشَّكِّ، وإثباتًا لكِبْر فرعون وقومِه وغرورِهم.

كلُّ آيةٍ يصحُّ أن تكون بُرهانًا على صدق نبيِّ الله فيما يُبلغه عن ربِّه

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

أوثرَ التَّعبيرُ في الكلام الواقع بعد ﴿إِلَّا﴾ بالجملة الاسمية: ﴿هِيَ أَكْبَرُ﴾؛ لما تفيده من تقوية عِظَم الآيات وتأكيدِ كِبَرِها؛ لدلالتها على الثُّبوت والدَّوام، والضَّمير المنفصل فيها ﴿هِيَ﴾ عائدٌ إلى النَّكرة المجرورة: ﴿ءَايَةٍ﴾، وفيه دلالة على أنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات الَّتي أتى بها موسى عليه السلام يصحُّ أن تكون برهانًا منفردًا على صِدقه، ناطقًا بأنَّه رسول من عند الله، مثيرًا مَن يراه، ويشاهدُه إلى التَّصديق والإيمان.

عـادةُ الرُّسل التَّدرُّجُ في إراءة المخاطَبين الآياتِ بسببِ إصرارِهم على التَّكذيب

نكتةُ التَّعبير باسم التَّفضيل:

قولُه تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ اسمُ تفضيلٍ، خبرُ الضَّمير المنفصل في جملة الحال، أوثر التَّعبير به لأحد معنيين:

أوّلهما: الدَّلالة على أنَّ كلَّ آيةٍ من الآيات - الَّتي جاء بها نبيُّ الله موسى - كانت أكبرَ وأعظمَ من الَّتي سبقَتْها، وأدلَّ على

صِدقه في البلاغ عن ربِّه من أختها الَّتي تقدَّمَتْها، ما يعني أنَّه تدرَّج في إراءتهم الآيات من الأدنى إلى الأعلى؛ جريًا على عادة الرُّسل في ذلك؛ بسبب "إصرارهم على الكفر وعدم ارتداعهم عن الاستهزاء والتَّكذيب"(1).

والآخر: أن يكون التَّفضيل عامًّا، والمراد هو التَّأكيد على أنَّ كلَّ الآيات الَّتي جاءتهم متناهيةٌ في العظمة والكِبَر، وأنَّ كلَّ واحدة منها تصلح دليلًا منفردًا على صِدقه، وأنَّهنَّ موصوفات بالكِبَر، لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء الَّتي تتلاقى في الفضل، وتتفاوت منازلُها فيه التَّفاوتَ اليسير، أن تختلف آراءُ النّاس في تفضيلها، فيفضل بعضُهم هذا وبعضُهم ذاك، فعلى ذلك بَنى النّاسُ كلامَهم ... وقد فاضلت الأنماريَّةُ بين الكَمَلَة من بنيها، ثمَّ قالت: لمّا أبصرتْ مراتبَهم متدانيةً قليلةَ التَّفاوت: ثكلتُهم؛ إن كنت أعلمُ أيُّهم أفضلُ، هم كالحلْقَةِ المفرغة لا يُدرى أين طرفاها(2)، وعلى ذلك "فالمَعنَى: وما نُريهم مِن آيةٍ إلّا وهيَ آيةٌ جَليلَةُ الدَّلالَةِ عَلى صِدق الرَّسول ﷺ تَكادُ تُنسيهِمُ الآيَةَ الأُخرى"(3).

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في: ﴿مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في: ﴿مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ هي البيانيَّة الَّتي توضِّح المُفَضَّلَ عليه، وتؤكِّد كِبَرَ كلِّ آيةٍ من الآيات الَّتي جاء بها موسى، وتقوِّي كفايتَها في إقناع فرعونَ وقومه بأنَّه رسولُ اللّه.

لطيفةُ التَّعبير بلفظ: ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾:

الآيـــاتُ الَّـتي جاء بها موسى تتساوى وتتماثلُ في البرهنةِ على صِدقِه

عبَّر النَّظمُ عن الآية بلفظ: ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على تماثُلها وتساويها في القوَّة والإبانة والبَرْهَنَةِ على صِدق نبيِّ اللّه، وأنَّه لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 225.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 255، و256.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.

فرقَ بينها في ذلك، فهنَّ موصوفاتٌ بالكِبر لا يكدن يتفاوتن فيه، على معنى أنَّ كلَّ واحدة لكمالها في نفسها إذا نظر إليها؛ قيل: هي أكبر من البواقي لاستقلالها بإفادة المقصود[1]، أو يكون بينها ما بين الإخوة والأخوات في الاختلاف والتَّنوُّع.

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾:

الآياتُ الَّتي جاء بها موسى تتآزر وتتعاضد في تصديقه

في تعبير البيان عن الآية بوصف ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾ استعارة تصريحيَّة؛ إذ الأصل الَّذي يرجع إليه هذا المجاز: (وما نريهم من آية إلّا هي أكبر من الآية السّابقة عليها)، فاستُعير لفظ ﴿أُخۡتِهَاۖ﴾ للآية بعد تشبيهها بها، وتنوسي التَّشبيه، وادُّعي أنَّ المشبَّه جزء من المشبَّه به، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، الَّتي تبرز ما بين الآيات الَّتي جاء بها نبيُّ اللّه موسى إلى فرعون وقومه مِن تماثُلٍ في القوَّة والوضوح، وتَعاضُدٍ ومُؤازرةٍ في دعمِه والبرهنةِ على كونه رسولًا من عند اللّه إلى فرعون وقومه، وأنَّ فرعونَ وقومَه هم الَّذين استكبروا، وعاندوا.

السِّرُّ البلاغيُّ في حذف الصِّفة:

حذفُ الصِّفةِ مؤذنٌ بتساوي الآيةِ مع سابقتها ولاحقتها في العظمة والكِبَر

اقتصر النَّظم على ذكر الموصوف في قوله: ﴿مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾، وتمَّ حذفُ الصِّفة؛ لدلالة السِّياق عليها، وفهمها من المقام الَّذي جاء فيه البيان؛ إذ التَّقدير: إلّا هي أكبر من أختِها السّابقةِ، وهو حذفٌ مؤذنٌ هنا باستواء كلِّ آية مع سابقتها ولاحقتها في الكبر والعظم، لدلالته على عموم التَّساوي وعدم حصره في السّابقة وحدها، وهو حذفٌ شائعٌ في البيان القرآنيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]؛ إذ التَّقدير: كلُّ سفينة سليمة، وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [البقرة: 71]، أي: بالحَقِّ الواضحِ البَيِّنِ[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 87.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 13/ 93.

وجهُ كون الجملةِ من التَّعبير الجامع المانع:

كلامُ اللهِ تعالى كلُّه جامعٌ مانعٌ، والآياتُ كلُّها متناهيةٌ في العظمة

يُعدُّ قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ من الكلام الجامع المانع، شأنُه شأنُ كلامِ اللّٰه تعالى كلِّه؛ لأنَّ معناه: أنَّ كلَّ واحدة من هذه الآيات، إذا أفردتَها بالفكر؛ استغرقت عظمتُها الفكرَ وبهرَتْه؛ حتّى يجزمَ أنَّها النِّهاية، وأنَّ كلَّ آية دونها، فإذا نقل الفكرة إلى أختها؛ استوعبت أيضًا فكرَه بعِظَمِها، وذَهَل عن الأولى، فجزم بأنَّ هذا النِّهاية، وأنَّ كلَّ آية دونها، والحاصل أنَّه لا يقدر الفكرُ على الجمع بين آيتين منهما؛ لتتحقَّق عنده الفاضلةُ مِن المفضولة، بل مهما أفرده بالفكر؛ جزم بأنَّه النِّهاية، وعلى هذا التَّقدير يجري جميع ما يردُ من أمثاله[1].

لطيفةُ العطف بالواو:

العـذابُ الَّـذي نـزل بفرعونَ وقومِه مِنَ الآياتِ الدّالَّةِ على صِدقِ نبيِّ اللهِ موسى

جاءت جملة: ﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ بالواو لاتِّفاق الجملتين في الخبريَّة، وثمَّ لطيفةٌ بلاغيَّةٌ تتمثَّل في أنَّ العذابَ الَّذي أخذهم اللّٰهُ تعالى به يعدُّ آيةً من الآيات[2]، الدّالَّة على صِدق نبيِّ اللّٰه موسى، والمؤكِّدة عنادَ فرعون وقومِه واستكبارَهم، ما يعني أنَّ الجملة عُطِفت على ما قبلها عطفَ الخاصِّ على العامِّ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الأخذ ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير العظمة:

العـذابُ الَّـذي نـزل بفرعونَ وقومِه لا يُقادر قدرُه، ولا يُمكنُ دفعُه أو الفرارُ منه

عبَّر البيانُ عن نزول العذابِ بفرعونَ وقومِه بفعل الأخذ في: ﴿وَأَخَذْنَـٰهُم﴾؛ للدَّلالة على قوَّة العذاب وشدَّتِه واتِّصافه بالقهر والغلبة[3]؛ إذ ترتَّب عليه استئصالُهم وهلاكُهم، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على تحقُّقِ وقوعه من غير شكٍّ أو ارتياب، وفي إسناده

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 13/ 93.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 443.

إلى ضمير اللّه تعالى بصيغة التَّعظيم دلالةٌ على أنَّه عذابٌ لا يُقادَر قَدْرُه، ولا يستطيع أحدٌ دفعَه أو الفرارَ منه.

نكتةُ التَّعبير عن المفعول بالضَّمير:

قابلوا الآياتِ بالتَّكذيب، فقوبلوا بالبلاء والتَّعذيب

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ عن مفعول الأخذ بضمير الغائب المنصوب في قوله: ﴿وَأَخَذۡنَٰهُم﴾؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولِما يفيده التَّعبيرُ به من تعيين المفعول تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى أحد غيرِه، ما يعني: أنَّ الَّذين أخذهم اللّهُ بالعذاب هم فرعونُ وقومُه الَّذين كذَّبوا الآياتِ الَّتي جاء بها موسى، وقابلوها بالسُّخرية والاستهزاء، على الرَّغم من كِبَرِها وعِظَمِها.

نوعُ الباءِ ودلالتها في: ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

تأكيدُ أنَّ العذابَ الَّذي نزل بفرعونَ وقومِه كان غايةً في القوَّةِ والشِّدَّةِ

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ للاستعانة، كما تقول: خذ الكتاب بقوَّة، أي: ابتدأناهم بالعذاب قبل الاستئصال؛ لعلَّ ذلك يفيقهم من غفلتهم[1]، وقد يكون التَّعبير بالتَّسبُّب هو اللّائق مع إسناد الفعل إلى اللّه جلَّ شأنُه، قال المراديُّ: "والنَّحويّون يعبِّرون عن هذه الباء بالاستعانة، وآثرت على ذلك التَّعبير بالسَّببيَّة، من أجل الأفعال المنسوبة إلى اللّه تعالى؛ فإنَّ استعمال السَّببيَّة فيها يجوز، واستعمال الاستعانة لا يجوز"[2].

نوع (ال) ودلالتها في: ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾:

الحديثُ عن نزول العذابِ بفرعون وقومِه فيه تعريضٌ بكفّارِ مكَّةَ وتهديدٌ لهم

(الـ) في قوله: ﴿بِٱلۡعَذَابِ﴾ لتعريف العهد؛ إذ المقصود به العذاب الدُّنيويُّ الشَّديد الَّذي ورد ذِكرُه في مواضع أخرى من كتاب اللّه، وهو: الأخذ بالسِّنين والطّوفان والجراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم، قال تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 39.

﴿وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: 133][1]، وفيه تعريضٌ بكفّار مكَّة؛ إذ أصيبوا بسني القحط[2]، وتحذيرٌ لهم من إمكان أخذهم كما أُخِذَ فرعونُ وقومُه؛ إن هم نهجوا نهجهم، فأصرّوا على الكفر بالله تعالى وتكذيب رسوله، ولم يتراجعوا.

علَّةُ فصل: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عمّا قَبْلَه:

يري الله تعالى عباده آياته؛ ليتّعظوا، وينزجروا

جاءت جملة: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤال أثارَتْه الجملةُ الأولى في نفس المتلقّي عن أثر أَخْذِ فرعونَ وقومِه بالعذاب المتعدِّدِ المتنوِّعِ، فتأتي الجملةُ الثّانية؛ لتوضِّح أنَّ أثرَ ذلك ونتاجَه هو الأملُ والرَّجاءُ في أن يتَّعظوا، ويرجعوا عمّا هم فيه، ومِن ثَمَّ فُصِلت عن سابِقتِها، كما يُفصلُ الجوابُ عن السُّؤال.

نكتةُ التَّعبير بحرف التَّرجّي:

حقيقٌ بمن يرى الآيات أن يؤمن بها، ويرجع عن غيِّه

عبَّر النَّظمُ بالحرف: (لَعَلَّ) المفيد للتَّرجّي في قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ لأنَّ الَّذي يغلبُ على الظَّنِّ، ويُتوقَّع حصولُه من أيِّ عاقلٍ رشيدٍ عندما يتواتر عليه العذابُ أن يتأمَّل حالَه، ويعرف خطأه، فيتراجعَ عنه، ويثوبَ إلى طريق الحقِّ، ولكنَّ فرعونَ وقومَه لم يفعلوا ذلك، وأصَرّوا على العنادِ والاستكبارِ، والمعنى: "ليكون حالُهم عند ناظرهم الجاهلِ بالعواقب حالَ مَن يُرجى رجوعُه"[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يَرۡجِعُونَ﴾:

تصويرُ فرعون وقومه في صورة المُنصرفين إلى طريق الجادَّة والصَّوابِ

في تعبير القرآن بالفعل ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيها الاعترافُ والإذعانُ بالرُّجوع، بجامع العود في كلٍّ، ثم استُعير الرُّجوعُ للاعتراف والإذعان[4]، بعد تناسي التَّشبيه، وادِّعاء أنَّ

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 86، و87.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 443.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 226.

المشبَّه فردٌ من أفراد المشبَّه به، ثمَّ اشتُقَّ منه ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ بمعنى: يذعنون، ويعترفون بخطئهم، ويؤمنون بموسى وما جاء به، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تصوِّر فرعونَ وقومَه في صورة المنصرفين من طريق خطأ، كانوا يسيرون فيه إلى طريق الجادَّة والصَّواب الَّذي يوصِّلُهم إلى المراد.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الأخْذ والإهلاك:

الأخذُ عقابٌ بالقتل والاستئصال، والهلاك قد يكون موتًا بلا عذاب

الأخذُ أصلُه: الجمعُ، ومن معانيه: العقاب والقتل، وفي التَّعبير به دلالة على قوَّة العقاب وشدَّته - كما سبق بيانه - أمّا الهلاك والإهلاك؛ فقد يُعَبَّر به عن انتهاء الأجل، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: 34]، أو افتقاد الشَّيء عنك، وهو عند غيرك موجود، كما في قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29][1]، ولمّا كان البيانُ قاصدًا إلى تحذير مشركي مكَّة من الإصرار على الكفر باللّه تعالى وتكذيب رسوله؛ ناسب التَّعبير بمفردة (الأخذ) الدّالَّة على شدَّة العقاب وقوَّة العذاب الَّذي أنزله اللّه بفرعون وقومه، لفعلهم ذلك مع نبيِّ اللّه موسى؛ تهديدًا للمشركين وتحذيرًا لهم، بخلاف مفردة الإهلاك الَّتي قد يُفهم منها أنَّهم ماتوا بلا عذابٍ، وهو ما يدفع الكفّارَ إلى مزيدٍ من الاجتراء والكفر.

الرُّجوع والتَّوبة:

الرُّجوع عودٌ إلى الفطرة السَّليمة، والتَّوبة ندمٌ لا يتأكَّد معه الإقلاع

الرُّجوع يكون إلى مُنتَهى المَقصِد ولغيره، يُقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق، وهو أيضًا: المصير إلى الموضع الَّذي قد كانَ فيهِ قبل[2]، والتَّوبَة: النَّدَم على الخَطِيئَة مَعَ العَزْم على ترك المعاودة[3]، ولمّا كان

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 338.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 303.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235.

القصد من تواتر العذاب على فرعون وقومه أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى ربِّهم؛ ناسب التَّعبير بفعل (الرُّجوع) الَّذي هو أعمُّ من التَّوبة، والَّذي يُقصد منه هنا العودة إلى أوَّل أمر الإنسان من الفطرة النَّقيَّة، والنَّشأة السَّليمة الَّتي خلق اللّٰه تعالى النّاس عليها، والَّتي لا مردَّ بعدها إلى الشِّرك، بخلاف التَّوبة الَّتي لا ضمان معها لعدم العودة إلى الشِّرك.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝٤٩ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ۝٥٠﴾

[الزخرف: 49 - 50]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قبلَهما:

المـراوغـةُ بطلب تخفيف العذاب مـع الـتَّـعَـهُّـد بـالاهـتـداء والإيمان

بعد أن بيَّنت الآيةُ السّابقةُ عِظَمَ المُعجزاتِ الَّتي أيَّد اللّٰهُ تعالى بها نبيَّه موسى عليه السلام، وذكرت أنَّ الحقَّ سبحانه عاقب فرعونَ وقومَه بالعذاب والإهلاك حتَّى يرجعوا عن كفرهم بتلك الآيات، ويتوبوا من إصرارهم على تكذيب الرَّسول؛ ناسب أن تَذْكر هاتان الآيتان مراوغَتهم بالتَّعهُّد لموسى بالاهتداء والإيمان؛ إذا خفَّف اللّٰهُ عنهم العذابَ، وأن توضِّحا أيضًا عدمَ وفائِهم بهذا التَّعَهُّد بعد تمام التَّخفيف(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾: (سحر) أُصولٌ ثَلاثَةٌ مُتَبايِنَةٌ: أَحَدُها: السِّحْرُ، قالَ قَوْمٌ: هوَ إخراجُ الباطِلِ في صورَةِ الحَقِّ(2)، ويُقال على معانٍ: منها الخداعُ وتخييلاتٌ لا حقيقة لها، نحو ما يقوم به المُشَعْبِذُ من صرف الأبصار عمّا يفعله لخفَّة يده، وما يفعله النَّمّامُ بقول مُزَخرَفٍ عائقٍ للأسماع، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116]، وقوله: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66]، وبهذا النَّظر سمّوا موسى ساحِرًا، فقالوا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾(3).

2) ﴿عَهِدَ﴾: (عهد) أصلٌ دالٌّ عَلى مَعنًى واحِدٍ، هو: الاحتفاظُ بِالشَّيءِ وإحداثُ العَهدِ بِهِ، ومِن ذَلِكَ قَولُهُم: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعهَدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 87.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سحر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (سحر).

عَهدًا، وهو مِنَ الوَصِيَّةِ، وإنَّما سُمِّيَتْ بذَلِكَ؛ لأنَّ العَهْدَ مِمّا يَنبَغِي الاحتِفاظُ بِهِ[1]، والعَهْدُ: المَوْثِقُ، وجَمْعُهُ: عُهودٌ، وعَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ يَعْهَدُ، أي: ألقى إليه العهدَ، وأوصاه بحفظه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، وقال: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: 60][2]، واستعمل في معنى العلم بوجودٍ دائمٍ في حَوزة، كقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: 134]، أي: بما وصّاك أن تدعوَ به ليُجيبَك[3].

3) ﴿كَشَفْنَا﴾: (كشف) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى سَرْوِ الشَّيءِ عَنِ الشَّيءِ، كالثَّوبِ يُسرَى عَنِ البَدَنِ، يُقالُ: كَشَفْتُ الثَّوبَ وغَيْرَهُ أكشِفُهُ، وكَشَفْتُ الثَّوبَ عن الوَجْهِ وغيرِه[4]، ومعناه المحوريُّ: تنحِّي ما شأنُه أن يُغَطّى من ظاهر الشَّيء، فيَظهر ما تحتَه، كظهور جِلد مقدَّم الرَّأس، وظهور ما تحت الشَّفة في الضَّحك، ومن تنحية الغطاء المادّيّ قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل: 44]، ثم استُعمل في تنحية ما يَغشى معنويًّا، كقوله: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ [الأعراف: 134]، وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 41]، و: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62][5]، وهو المراد هنا.

4) ﴿يَنكُثُونَ﴾: (نكث) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى: نَقْضِ شَيءٍ، يُقالُ: نَكَثَ العَهْدَ يَنكُثُهُ نَكْثًا، وانتَكَثَ الشَّيءُ: انتَقَضَ، وقالَ قَوْلًا لا نَكِيثَةَ فِيه، أي: لا خُلْفَ، ومِنهُ: طَلَبَ حاجَةً، ثُمَّ انتَكَثَ لأُخرى، كَأنَّهُ نَقَضَ عَزْمَهُ الأوَّلَ، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم﴾ [التوبة: 12]، وقال: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[6]، أي: ينقضون عهدهم.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تُبَيِّن الآيتان أنَّ فرعونَ وقومَه حين أخذهم الله تعالى بالعذاب، قالوا لموسى - على سبيل التَّذلُّل والتَّعظيم من شأنه - يا أيُّها السّاحر الَّذي غلبنا بسحره وعِلمه، ادع لنا ربَّك بحقِّ عهده

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (عهد).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كشف).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كشف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (نكث).

إليك بالنُّبوَّة، لئن كشف عنا ربُّك هذا العذاب - الَّذي نزل بنا - إنَّنا لَمُهتَدونَ، أي: لمؤمنون ثابتون على ذلك، متَّبعون لك في كلِّ ما تأمرنا به، أو تنهانا عنه، فلمّا استجاب اللّه تعالى دعاء نبيِّه، وخفَّف عنهم ما نزل بهم؛ نقضوا عهدهم، فلم يؤمنوا، واستمرّوا على كفرهم وعنادهم(1).

تعهُّدٌ بالاهتداءِ إذا خُفِّف العذابُ، ونكثٌ للوعد بعد حصولِ التَّخفيف

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها في أوَّل الآية:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿وَأَخَذۡنَـٰهُم بِٱلۡعَذَابِ﴾، والمعنى: ولمّا أخذناهم بالعذاب على يد موسى سألوه أن يدعو اللّه بكشف العذاب عنهم(2)، وأوثر العطف بها لما بين الجملتين من اتِّفاق في الخبر، فيما يُعرف بلاغيًّا بالتَّوسُّط بين الكمالين.

من علامات المشركين الرُّجوعُ إلى الله حين الضَّرّاء، والصَّدُّ عنه حين السَّرّاء

دلالةُ التَّعبير بفعل القول مُسندًا إلى ضمير الجماعة:

التَّعبيرُ بالفعل: (قالوا) الموضوع لإبراز ما يُتَصوَّر في النَّفس(3) مع إسناده إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم متَّفقون في طلبهم هذا بعد عموم البلاء بهم، ويدلُّ أيضًا على أنَّهم قالوا ذلك بلسان المقال كما فعل فرعونُ، أو بلسان الحال والاتِّباع، كما فعل قومُه وأتباعُه(4).

كان فرعون وقومه يحبّون رفع العذاب، ويحبّون البقاء على ما هم فيه من الشِّرك

نكتة النِّداء بـ(يا):

(يا) حرف نداء يُستعمل للبعيد، وهو أكثرُ حروف النِّداء استعمالًا، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف سواها، وقد يُنادى بها القريبُ توكيدًا(5)، وقيل: "(يا) حرف نداء، وضع في أصله لنداء البعيد،

الخطابُ الَّذي يأتي بعد حرفِ النِّداء مَعْنِيٌّ به جِدًّا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (قول).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 444.
(5) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 429.

فإذا نودي به القريبُ المُفاطِنُ؛ فذلك للتَّأكيد المُؤذِن بأنَّ الخطابَ الَّذي يَتْلوه مَعنِيٌّ به جِدًّا"[1]، ففي نداء فرعون وقومه نبيَّ اللّٰه موسى به تمهيدٌ وتوطئةٌ للإقبال عليه، وتنبيهٌ على أنَّهم سيطلبون منه أمرًا بالغ الأهمّيَّة، لا يمكن للأحد غيره أن يقوم به، ويجوز أن يكون في ندائهم له بأداة البُعد دلالة على "بُعده من قلوبهم"[2].

دلالةُ التَّعبير بـ (أيُّهَ):

إشعارُ موسى بأنَّه ذو أهمّيَّة عندهم، للطَّمع في إجابة طلبهم

(أيّ) اسمٌ مبهمٌ مُفتقِرٌ إلى ما يوضِّحه، ويُزيل إبهامَه، ولا يُعلَم المقصودُ بالنِّداء إلّا بإردافه بنعتٍ يُزيل إبهامَه، ودخول (ها) على (أيّ) في النِّداء، توجب التَّنبيه على أنَّه المقصود بالنِّداء، وهي في هذه الصِّيغة تعاضِدُ حرفَ النِّداء وتُقَوّيه، فتزيدُه قوَّةً وتأكيدًا[3]، والسِّرُّ في ندائهم نبيَّ اللّٰهِ موسى ﵇ بهذه الصّيغة تفخيمُه وتعظيمُه، وإشعارُه بأنَّه ذو أهمّيَّة عندهم، وملجؤُهم في النَّوازل والملمّات.

الغرضُ من النِّداء بوصف السّاحر:

السّاحرُ قديمًا هو العالمُ بخفايا الأمور المطَّلعُ على ما لا يطَّلع عليه الآخرون

نداؤهم نبيَّ اللّٰه موسَى بِوَصْفِ: ﴿ٱلسَّاحِرُ﴾ نداءُ "تعظيم؛ تزلُّفًا إليه؛ لأنَّ السّاحر عندهم كان هو العالم، وكانت علوم علمائهم سحريَّة، أي: ذات أسباب خفيَّة لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم"[4]، "ولم يكن السِّحر في زمانهم مذمومًا عندهم، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص؛ لأنَّ الحالَ حالُ ضرورةٍ منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنَّما هو تعظيم في زعمهم"[5]، وفي النِّداء بجانب ذلك نوعٌ من الاستغاثة بمَن يأملون فيه العونَ والمُساعدةَ في رفع العذابِ الَّذي حلَّ بهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/ 89.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 444.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 403، والهروي، الأزهية، الأزهية في علم الحروف، ص: 107.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 211.

الغرضُ من الأمرِ في: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾:

قدْ يُقصد من الأمرِ التَّوسُّلُ والرَّجاءُ واستعطافُ المأمور

قولُ فرعونَ وقومِه: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ أسلوبُ أمر خرج عن معناه الحقيقيِّ إلى التَّوسُّلِ والرَّجاءِ والطَّمعِ في أن يستجيبَ نبيُّ اللّه موسى لهم، فيتوجَّه إلى اللّه تعالى بالدُّعاء والتَّضرُّع من أجل رفع العذاب عنهم، مع وعده بالاهتداء والإيمان؛ إذا استجاب ربُّهُ لدعائه، ورَفَعَ ما أنزله بهم من عذابه.

نوع اللّام في: ﴿لَنَا﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

المعذَّبون لا يرغبون في التَّضرُّع إلّا من أجل إنقاذهم

اللّام في قولهم: ﴿لَنَا﴾ حرفُ جرٍّ يفيد التَّخصيص، وفي التَّعبير به دلالة على رغبتهم في أن يكون تضرُّع موسى إلى ربِّه خاصًّا بهم، وأن يكون ابتهالُه إليه من أجلهم، والضَّمير المجرور فيه يعود على القائلين، وهم فرعونُ وقومُه، وفيه ما يدلُّ على أنَّ العذابَ الَّذي أخذهم اللّهُ تعالى به قد أحدث فيهم - جميعًا بلا استثناء - آثارًا بالغةً، وألحق بهم أضرارًا فادحةً، جعلتهم يطلبون الابتهالَ والدُّعاءَ من نبيِّ اللّه.

الغرضُ من تقديم الجار والمجرور على المفعول:

المعذَّبون لا يهتمّون عادة إلّا بما يخصُّهم، ويُنجيهم

آثر المتكلِّمون تقديم الجار والمجرور: ﴿لَنَا﴾ على المفعول: ﴿رَبَّكَ﴾ في قولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؛ لأنَّ اهتمامَهم منصبٌّ على طلب الدُّعاء والنَّجاة لأنفسهم، فالمُعذَّبون لا يهتمّون عادة إلّا بما يخصُّهم، ويُنجيهم، يُضاف إلى ذلك عِلمُهم بأنَّ موسى لن يدعوَ أحدًا غيرَ ربِّه ﷻ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿رَبَّكَ﴾ وإضافتها إلى ضميره:

مظاهرُ إحسانِ اللّه تعالى إلى أنبيائه وخَلقهِ باديةٌ جليَّةٌ

المقصود بـ ﴿رَبَّكَ﴾: الرَّبُّ الَّذي دعاهم موسى لعبادته، وآثروا التَّعبيرَ عنه بعنوان الرُّبوبيَّة؛ لِما رأوه من مظاهر رعايته لموسى والاعتناء به والإحسان إليه، والمعنى: "ربُّك المحسنُ إليك بما يفعل معك من هذه الأفعال الَّتي نهيتنا بها إكرامًا لك"[1]، وأضافوه إلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

ضمير المخاطَب العائد إلى موسى؛ لأنَّهم "كانوا يحسبون أنَّ لكلِّ أمَّة ربًّا، ولا يحيلون تعدُّد الآلهة، وكانت لهم أربابٌ كثيرون مُختَلِفَةٌ أعمالُهُم وقَدَرُهُم، ومثلُ ذلك كانت عقائد اليونان"[1].

نوع الباء ودلالة التَّعبير به:

الباء في قوله: ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ هي باء السَّببيَّة، والمعنى: بسبب ما عهد عندك[2]، ويمكن أن تكون للاستعانة[3]، والمعنى: ادعُ لنا ربَّك متوسِّلًا بما عهد عندك[4].

نوع (ما) ودلالته:

ما اختصَّ به اللهُ تعالى أنبياءَه ورسلَه دون غيرهم كثيرٌ لا حصرَ له

كلمة (ما) في قولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ يمكن أن تكون اسم موصول، والجملة بعدها صلة، والعائد محذوف، تقديره: بالَّذي عهده عندك، ويمكن أن تكون مصدريَّة منسبكة مع ما بعدها في تأويل مصدر، تقديرُه: بعهده عندك[5]، وأيًّا كانت، ففي التَّعبير بها نوعٌ من التَّكثير والتَّعميم الدّالِّ على أنَّهم يطلبون من نبيِّ اللّه أن يتضرَّع إلى ربِّه متوسِّلًا بكلِّ ما خصَّه به دون غيره، ممّا ساعده على أن يأتي بخوارق العادة[6]، والمعنى: "بِما عَهِدَ عِندَكَ أو بعهده عندك: من أنَّ دعوتك مستجابة، أو بعهده عندك، وهو النُّبوَّة، أو بما عهد عندك، فوفَّيت به، وهو الإيمان والطّاعة، أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمَّن اهتدى"[7].

دلالةُ التَّعبير بفعل العهد:

الكفّارُ يوقنون أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ، ولـذا يطلبون من أنبيائهم التَّضرُّعَ إليه

العَهْدُ: هو الائتمانُ على أمر مهمٍّ، وليس مرادهم به النُّبوءةَ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 88.
(5) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 615.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 227.
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 257.

لأنَّهم لم يؤمنوا به، وإذ لم يعرفوا كُنْهَ العهد؛ عبَّروا عنه بالموصول وصلته؛ لأنَّهم لمّا رأوا الآيات؛ علموا أنَّ ربَّ موسى قادرٌ، وأنَّ بينه وبين موسى عهدًا يقتضي استجابة سؤلِه(1).

وجهُ التَّعبيرِ بالعنديَّة:

ما هو موجودٌ عند المرسلين ليس موجودًا عند أحدٍ غيرِهم

عبَّر المنادون على نبيِّ اللّٰه موسى بالظَّرف المُضاف إلى ضميره في قولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾؛ جريًا على عادتهم في أنَّهم كانوا يَحسَبونَ أنَّ "تلكَ الآياتِ مَعْلولَةٌ لِعللٍ خَفيَّةٍ، قِياسًا عَلى مَعارِفِهم بِخَصائِصِ بَعضِ الأشياءِ الَّتي لا تَعرِفُها العامَّةُ، وكانَ الكَهَنَةُ يَعْهَدونَ بِها إلى تَلامِذَتِهم، ويوصونَهُم بالكِتْمانِ"(2)، ما يعني: أنَّهم يؤكِّدون اعتقادَهم جدارةَ موسى بندائهم؛ لأنَّ عندَه ما ليس موجودًا عند أحدٍ غيره.

موقعُ جملة: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وسِرُّ فصلِها:

علموا أنَّ النَّجاة في التَّوبة والاهتداء، لكنَّهم عاندوا وجحدوا

جُملَةُ: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ جوابٌ لِكَلامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَليهِ قولُهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، والمعنى: فَإن دَعَوْتَ لَنا ربَّك، وكَشَفَ عَنّا العَذابَ؛ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ، كَما في آيَةِ الأعرافِ: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: 134](3)، أي: إنَّها تدلُّ على سبب طلبهم من نبيِّ اللّٰه أن يبتهلَ إلى ربِّه برفع العذاب عنهم، ما يعني: أنَّها فُصِلَتْ عمّا قبلها، كما يُفْصَل السَّببُ عن المُسَبَّب، فيما يُعرف بلاغيًّا بشبه كمال الاتِّصال.

وجهُ تتابع المؤكِّدات في: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾:

الشَّكُّ في كلامِ المُنادين كفيلٌ بصرف المُنادَى عن مساعدَتِهم

أكَّد المنادون قولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ بـ(إنَّ) واللّام المُزحلقة والجملة الاسميَّة؛ لِحَمل نبيِّ اللّٰه على تصديقِهم، وإشعارِه بأنَّهم جادّون في كلامهم، صادقون في عزْمِهم على التَّوبة والرُّجوع إلى طريق الهدى والرَّشاد، ومن ثَمَّ يحصل ما يرجونه، وهو الدُّعاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.

بكشف العذاب عنهم؛ إذ الشَّكُّ في كلامهم كفيلٌ بصرف موسى عن مساعدتهم.

تَعَهُّدُ الكفّارِ بأن يكون إيمانُهم راسخًا عند رفع العذاب عنهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (مُهْتَدونَ) مادَّة وصيغة:

(مُهْتَدونَ) في قولِه: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ اسمُ فاعِلٍ مُستعمَلٌ في مَعنَى الوَعدِ، وسَمَّوا تَصديقَهُم إيّاهُ اهتِداءً؛ لأنَّ موسَى سَمَّى ما دَعاهُم إلَيهِ هَدْيًا، كَما في آيَةِ سورَةِ النّازِعاتِ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ١٩﴾ [النازعات: 19]، وآثروا التَّعبيرَ باسم الفاعل؛ لأنَّه مُنْصَرِفٌ إلى المُستَقبَلِ بالقَرينَةِ، كَما دلَّ عَلَيهِ قَولُه تعالى: ﴿يَنكُثُونَ﴾[1]، ولما يفيده التَّعبيرُ بالاسم من الثُّبوت والدَّوام، والمعنى: مهتدون "اهتداء ثابتًا، ومؤمنون إيمانًا راسخًا يصير لنا وصفًا لازمًا عند كشفِ العذابِ عنّا"[2].

ما أسرعَ الكفّارَ في نكثهم للعهد! وما أشدَّهم في التَّمسُّك بالكفر!

فائدةُ التَّعبير بالفاء في: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عاطفةٌ ما بعدها على كلامٍ محذوفٍ، تقديرُه: فدعا موسى ربَّه، فأجاب اللّهُ دعوتَه بأن كشفَ عنهم، فلمّا كشفنا عنهم العذاب؛ إذا هم ينكثون، وأوثر العطف بالفاء الَّتي تفيد التَّعقيب؛ للدَّلالة على سرعة نكثهم ما تعهَّدوا به، وشدَّة إصرارهم على الكفر، ما يدلُّ على أنَّ "حالَهم حالُ من يعتقد أنَّه ساحرٌ فعلًا؛ لأنَّهم أسرعوا الخيانةَ بالكذب فيه، من غير استحياءٍ ولا خوفٍ"[3].

من خُبْثِ فرعون وقومِه وسوءِ طويَّتِهم أن يُصاحبَ نكثُهم للعهد رفْعَ العذابِ عنهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (لَمَّا):

(لَمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ حرفُ تعليق، كما قال سيبويه، أو ظرف زمان، كما قال أبو عليٍّ الفارسيُّ[4]، وأيًّا كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 228.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.
(4) المرادي، الجنى الداني، ص: 595.

نوعُها؛ فهي هنا تربط بين جملتين، وتدلُّ على وقوع الثّانية منهما مع حصول الأولى؛ إذ يُفهم من التَّعبير بها مصاحبةُ إصرار فرعون وقومه على الكفر، وتزامنُ نَكْثِهم للعهد الَّذي قطعوه على أنفسهم بالاهتداء مع رفع العذاب عنهم، ما يدلُّ على خبثِهم وسوءِ طويَّتِهم وتمكُّنِ الكفر منهم، وتغلغُلِه في قلوبهم، بصورةٍ لا يمكنهم الانفكاكُ عنها، أو التَّخلُّصُ منها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿كَشَفۡنَا﴾ مادَّة وصيغة:

كشفُ العذاب سهلٌ على الله تعالى بما له من العظمة الَّتي تُرهب الجبال

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل: ﴿كَشَفۡنَا﴾ الموضوع لتنحية ما يُغطِّي - كما سبق بيانه - للدَّلالة على أنَّ الله تعالى قد تفضَّل برفع العذاب عنهم رفعًا كاملًا؛ استجابةً لدعاء نبيِّهم موسى، وبناءً على تعهُّدهم بالإيمان والاهتداء، وأوثر التَّعبير به ماضيًا؛ لتأكيد حصوله على وجه السُّرعة مِن غير شكٍّ أو ارتياب، وأُسند إلى ضمير العظمة؛ للإشارة إلى سهولته على الله تعالى بما له "من العظمة الَّتي تُرهب الجبال"[(1)].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بفعل الكشف:

إبرازُ رفع العذابِ في صورةٍ محسوسةٍ يعرفُها المخاطَبون، ويتصوَّرونها

في التَّعبير بفعل الكشف في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، شُبِّه فيها رفْعُ العذاب عن فرعون وقومِه بكشف الغطاء عن الشَّيء، ثمَّ استُعير الكشفُ للرَّفع بعد تناسي التَّشبيه، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة الَّتي تُبرز رفْعَ العذاب في صورةٍ محسوسةٍ قريبةٍ يعرفها المخاطَبون، ويتصوَّرونها، وتوضِّحُ كيف كان العذابُ محيطًا بهم.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المفعول:

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (عن) في قوله: ﴿عَنۡهُمُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذاب كان ملاصقًا لهم، يحيط بهم، كما يحيط الإناءُ المُغَطَّى بما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

فيه، ما يؤكِّدُ أنَّ ذلك العذابَ كان مَهْلَكَةً لهم، وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ على المفعول: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾؛ لبيان الاهتمام بذكر إنجائِهم؛ تكريمًا لنبيِّ اللّه موسى عليه السلام، واستجابةً لدعائِه، وإقامةً للحجَّة عليهم.

دعاءُ الأنبياءِ له أهمّيَّتُه ويلقى الاستجابةَ مِنَ اللهِ تعالى

نوع (ال) في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ ومعناه:

(الـ) في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ للعهد الذِّكريِّ، ما يجعل المُراد به: العذاب الَّذي سبق ذكره في قوله: ﴿وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، والمعنى: فلمّا كشفنا عنهم العذاب الَّذي أخذناهم به[1]، وقد فُصِّل هذا العذاب في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ﴾ [الأعراف: 133].

عـادة فـرعـونَ وقومِه إذا كُشِفَ عنهم العـذابُ أن يرجعوا إلى خُبثِهم ومكرِهم

الغرض من التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾:

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ هي الفُجائيَّةُ، الدّالَّة على أنَّ نكثَهم التَّعهُّد بالاهتداء أمرٌ مثيرٌ للدَّهشة والاستغراب، ولا يُتَوقَّع حصولُه مِن عاقلٍ رشيدٍ، رأى العذابَ بعينيه، والتجأ إلى نبيِّ اللّه طالبًا الدُّعاءَ بالنَّجاة منه، والتَّخفيفِ من شدَّته، "فَجُملَةُ: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ جَوابُ (لَمّا)، و﴿إِذَا﴾ رابِطَةٌ لِلجَوابِ لِوقوعِ جَوابِ الشَّرطِ جُملَةً اسميَّةً، فَلَمّا كانَ ﴿إِذَا﴾ حَرْفًا يَدُلُّ على مَعنَى المُفاجَأةِ؛ كانَ فِيهِ مَعنَى الفِعْلِ، كَأَنَّهُ قيل: فاجأوا فاجَؤوا بِالنَّكْثِ، أي: بادَروا بِه، ولم يُؤَخِّروهُ، وهَذا وصْفٌ لَهُم بِإضمارِ الكُفْرِ بِموسَى وإضْمارِ النَّكْثِ لِليَمِينِ"[2].

نـكـثُ الـكـفّـارِ تـعـهُّـدَهـم بالإيمانِ أمرٌ في غـايـةِ الـدَّهشـةِ والاستغرابِ

سرُّ التَّعبير بالضَّمير مُقدَّمًا على المُسنَد الفعليّ:

عبَّر النَّظمُ عن فرعون وقومه بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿هُمۡ يَنكُثُونَ﴾؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولما يفيده الضَّمير من تعيين المُتَحَدَّث عنه تعيينًا يحول دون صرف المراد عنهم إلى أحد آخر، والمعنى: إذا فرعونُ وقومُه

الَّـذيـن طـلـبـوا تخفيف العذاب هم الَّذين نقضوا الوعد بالإيمان والاهتداء

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 9/ 73.

الَّذين هرعوا إلى طلبِ تخفيفِ العذابِ، ينكثون بعد أن خفَّفَه اللّهُ عنهم، وفي تقديم المسندِ إليه الضَّمير على الخبر الفعلي: ﴿يَنكُثُونَ﴾ تأكيدٌ وتقويةٌ لحصول النَّكث منهم المرَّةَ بعد المرَّة.

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بفعل النَّكث:

تصويرُ حُمقِ فرعون وقومه، وبيان عنادهم وشدَّة إصرارهم على الكفر

حقيقةُ النَّكث: نَقْضُ المَفتولِ مِن حَبلٍ أو غَزْلٍ، كما سبق بيانه، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النَّحل: 92]، وفي التَّعبير به استعارة تصريحيَّة، شُبِّه فيها عدمُ الوفاء بالعهد بالنَّكث، بجامع الهدم في كلٍّ، ثم استُعير النَّكث لعدم الوفاء بالعهد بعد تناسي التَّشبيه، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، الَّتي تُبرز حُمقَ فرعون وقومِه، وعنادَهم وشدَّةَ إصرارهم على التَّمسُّك بما هم فيه، على الرَّغم من كونه سببًا في نزول العذابِ بهم[1].

وجهُ التَّعبيرِ بالخبر فعلًا مضارعًا:

كان فرعونُ وقومُه ينكثون عهدَهم المرَّةَ بعدَ المرَّة

جيء بالمسند: ﴿يَنكُثُونَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لما يمتاز به المضارع - بجانب استحضار الصّورة الماضية كأنَّها حاضرة ماثلة - من الدَّلالة على تجدُّد نكث فرعون وقومه للتَّعهُّدات الَّتي كانوا يقطعونها على أنفسهم بالإيمان؛ كلَّما تجدَّد نزولُ العذاب، وتغيَّر نوعه، والمعنى: فاجَؤوا كشف العذاب بتجديد النَّكث بإخلاف بعد إخلاف[2].

دلالةُ حذف المفعول به:

نكثُ العهدِ غايةُ فرعون وقومِه وقصْدُهم

أوثرَ حذف المفعول من جملة: ﴿يَنكُثُونَ﴾، والتَّقدير: ينكثون عهدَهم؛ لكونه معلومًا من سياق الكلام، وللدَّلالة على أنَّ النَّكث كان غايتَهم وقصْدَهم، وأنَّهم كانوا يبيِّتون القيامَ به، وكانوا يَكْذبون فيما يتعهَّدون به لنبيِّ اللّه كلَّ مرَّة.

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 9/ 73.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 445.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

سورةُ الأعراف تقصد إلى بسط قصص الأنبياء، وسورةُ الزُّخرف تعرضُها بإيجاز

ورد التَّعبيرُ عن نقضِ فرعونَ وقومِه تعهُّدَهم بالاهتداء؛ إذا رَفَع اللّه عنهم العذابَ بالنَّكث في موضعين من كتاب اللّه الكريم، **أحدُهما:** قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾، **والآخر:** قولُه: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ [الأعراف: 135]، ومن الملحوظ أنَّ البيانَ في آية سورة الأعراف عبَّر عن العذاب بـ ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾ [الأعراف: 135]، **ومعناه**: العذاب المقلقل لشدَّته، قلقلةً شديدة متتابعة، وأصل الرَّجز في اللُّغة: تتابع الحركات، فمن ذلك قولهم: ناقةٌ رجزاء؛ إذا كانت ترتعد قوائمُها عند قيامها[1]، كما جاء البيانُ مشتملًا على قيدٍ يبيِّن أجَلَ كشف العذاب في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ [الأعراف: 135]، وهو قيدٌ دالٌّ على أنَّ فرعون وقومَه اعتادوا نكثَ الوعد ونقْضَه مع كلِّ عذاب ينزل بهم، حتّى انتقم اللّه تعالى منهم، فأهلكهم بالغرق، وهذا ما خلا منه البيان في آية سورة الزُّخرف، والسِّرُّ في ذلك أنَّ سورة الأعراف قامت على بَسْطِ أحداث القصص الَّتي وردت فيها، في حين اعتمدت سورة الزُّخرف على بيان تلك الأحداث بنوعٍ من الإيجازِ والاختصارِ.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرَّبُّ والإلهُ:

الاستغاثةُ وطلب المساعدة من مقامات الرُّبوبيَّة

الرَّبُّ في الأصل: من التَّربية، وهو إنشاء الشَّيء حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمام، يقال: رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ، ولا يُقال: الرَّبُّ مطلقًا إلّا للّه تعالى المتكفِّل بمصلحة الموجودات[2]، والإلهُ: اسمٌ لكل معبودٍ لهم، مثل اللّات، وسمّوا الشَّمسَ إلاهَةً؛ لاتِّخاذهم إيّاها معبودًا، وألَهَ فلان يَألُهُ الآلهة: عَبَدَ، وقيل: تَألَّهَ، فالإلهُ على هذا هو المعبود[3]، ولمّا

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/ 149.

(2) الراغب، مفردات القرآن: (رب).

(3) الراغب، مفردات القرآن: (أله).

كان السّياق للاستغاثة وطلب المساعدة؛ آثر فرعونُ وقومُه التَّعبير بمفردة ﴿رَبَّكَ﴾؛ لمناسبتها ما يرجونه من مصلحة رفعِ العذاب، والإنجاءِ من الهلاك.

النَّكث والنَّقض:

النَّكْثُ أيسرُ وأعمُّ من النَّقض، وهو المناسب لحال فرعون وقومه

النَّكْثُ في الأصل: نَكْثُ الأَكْسِيَةِ والغَزْلِ[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: 92]

ويُستعار لِنَقضِ العَهدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: 12][2]، والنَّقْض بالكسر: اسم البناء المنقوض؛ إذا هُدِم، والجمَل الَّذي قد هَزَلَه السَّفر وأضناه، وما نُكِثَ من الأخبِيَة والأكسية، فغُزِل ثانية، وقِشْرُ الأرض المنتقِضُ عن الكَمأة؛ إذا أرادت أن تخرج[3]، ويُفهم من أنَّ النَّكث أسهل من النَّقض وأسرعُ، ومن ثَمَّ ناسب تعبير البيان به؛ للدَّلالة على تراجع فرعون وقومه عن العهد الَّذي قطعوه على أنفسهم بالاهتداء؛ إذا رُفع عنهم العذاب؛ لبيان سهولة التَّراجع عليهم، وعدم مبالاتهم بحصوله منهم المرَّة بعد المرَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكث).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (نكث).

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 115، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نكث).

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣﴾ [الزخرف: 51 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مبادرةُ فرعونَ إلى إثناء قومِه عن الإيمانِ بموسى

بعد أن ذكرت الآيتان السّابقتان أنَّ اللّهَ تعالى كَشَفَ عَنهُمُ العَذابَ بِدَعْوَةِ موسَى، وأنَّ فرعونَ وقومَه أضمَروا نَكْثَ الوَعْدِ الَّذِي وعَدوهُ بأن يَهتَدوا؛ ناسب أن توضِّح هذه الآياتُ خشيةَ فرعون أن يَتَّبِعَ قَوْمُهُ دَعْوَةَ موسَى، ويُؤمِنوا بِرِسالَتِه، فَأعلَنَ فيهم التَّذكير بِعَظَمَةِ نَفسِه؛ لِيُثَبِّتَهُم عَلى طاعَتِه، ولِئَلّا يَنقُلَ إلَيهِم ما طلبه مِن موسَى وما حَصَلَ مِن دَعوَتِهِ بِكَشفِ العَذابِ، ولِيَحسَبوا أنَّ ارتِفاعَ العَذابِ أمرٌ اتِّفاقِيٌّ؛ إذ قَوْمُهُ لَم يَطَّلِعوا عَلى ما دارَ بَينَهُ وبَينَ موسَى مِن سُؤالِ كَشفِ العَذاب[1].

وثمَّ وجهٌ آخر من أوجه التَّناسب، وهو أنَّه بعد أن ذكرت الآياتُ السّابقةُ انصياعَ قوم فرعون لِما يأمرهم به، واتِّباعَهم له في كلِّ ما يشير إليه من الوعود بالاهتداء، ثُمَّ نكث هذه العهود، والإصرار على الكفر؛ ناسب أن تذْكر هذه الآياتُ جانبًا جديدًا من جوانب طغيان فرعونَ وفجوره، واستخفافه بعقول قومِه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَادَىٰ﴾: النِّداءُ: رفْعُ الصَّوت وظُهورُهُ، ويُقال للصَّوت المجرَّد، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 229.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 88.

يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، وللمركَّب الَّذي يُفْهَم منه المعنى، كما في قوله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشعراء: 10]، وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 58]، أي: دَعوتُم[1]، والمَعنَى: أظهَرَ قولَه، ورفع صوتَه.

2) ﴿مِصْرَ﴾: المِصْرُ: اسم لكلِّ بلد ممصور، أي: محدود، يقال: مَصَرْتُ مَصْرًا، أي: بنيْتُه، والمِصْرُ الحدُّ، وكان من شروط هجر: اشترى فلان الدّار بِمُصورِها، أي: حدودها، وقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: 61]، هو البلد المعروف، وصَرَفَه لخفَّته[2]، وقيل: كلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو بمعنى: مصر النّيل، عدا هذه الآية، فإن كلمة ﴿مِصْرًا﴾ [البقرة: 61] فيها تحتمل أن تكون مصرَ النّيل، وأن تكون أيَّ (مصرٍ) أي: مدينة[3].

3) ﴿مَهِينٌ﴾: (هون) أصلٌ يَدُلُّ عَلى سُكونٍ أو سَكِينَةٍ أو ذُلٍّ، مِن ذَلِكَ الهَون: السَّكِينَةُ والوَقارُ، قالَ سُبْحانَهُ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والهونُ: الهَوانُ، قالَ ﷻ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل: 59][4]، والَّذي في القرآن من التَّركيب بعضُه من الإهانة، كـ: ﴿يُهِنِ﴾ [الحج: 18]، و﴿هُونٍ﴾ [النحل: 59]، و﴿مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة: 90] و﴿مَهِينٌ﴾ و﴿مُهَانًا ۝٦٩﴾ [الفرقان: 69]، وسائرُه من (الهَوْن) بمعنى: اللّين واليسر والسُّهولة[5].

4) ﴿يُبِينُ﴾: (بين) أَصلٌ واحِدٌ، هوَ بُعْدُ الشَّيءِ وانكِشافُهُ، ومنه: بانَ الشَّيءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانكَشَفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ مِن فُلانٍ، أي: أَوْضَحُ كَلامًا مِنهُ، وسُمّي الكلام بيانًا؛ لكشفه عن المعنى المُراد إظهارُه، نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138]، وسُمِّي ما يُشرح به المُجمَل والمُبهَم من الكلام بيانًا، نحو قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: 19]، ويُقال: بَيَّنْتُهُ وأَبَنْتُهُ؛ إذا جعلت له بيانًا تكشفُه، نحو قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، و﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصافات: 106]، وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، معناه: لا يُبَيِّن[6].

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (ندا).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (مصر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (هون).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

5) ﴿أَسْوِرَةٌ﴾: الإسوارُ والأسوِرَةُ من أساورة الفرس أكثر ما يستعمل في الرُّماة، وقيل: إنَّه فارسيٌّ معرَّب، وإنَّ سِوارَ المرأة معرَّب، وأصله: دستوار، وكيفما كان؛ فقد استعملته العرب، واشتُقَّ منه: سَوَّرْتُ الجارية، وجارية مُسَوَّرَةٌ ومخلخلة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾، وقال: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21][1].

6) ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾: (قرن) أصلانِ، أحَدُهما: يَدُلُّ عَلى جَمْعِ شَيءٍ إلَى شَيءٍ، يقال: قارَنْتُ بَينَ الشَّيئَينِ، والقِرانُ: الحَبلُ يُقْرَنُ بِهِ شَيئانِ، والقَرَنُ: الحَبْلُ أيضًا[2]، ومنه: اقترن الشَّيئان، وتقارنا، قال تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، بمعنى: يَحْمونه، ويقيمون حجَّته[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

اجتماعٌ ونداءٌ ومقارنةٌ وتعجيزٌ

تبيِّنُ الآياتُ الكريماتُ أنَّ فرعونَ جمع قومَه في مكانٍ واحدٍ كالسّوق مثلًا، أو جمع أشرافَهم، وهم بلَّغوا عنه، وقد حاول في هذا الاجتماع تأكيدَ تميُّزه وأفضليَّته على نبيِّ اللّه[4]، قائلًا: يا قومي أليس لي ملكُ مصر، وهذه فروعُ نهر النّيل تجري من تحتي، وتسير بأمري، أفلا تبصرون تلك الحقائق؟ أولا تبصرون أنّي خيرٌ من هذا الَّذي هو فقيرٌ ضعيفٌ مهينٌ، يمتهن نفسه في قضاء مصالحه، ولا يكاد يبين، أو يفصح عن حجَّته بقوَّة، وذلاقة لسان، وحسن تصرُّف؟ فهلّا أُلقيَ عليه أسورةٌ من ذهبٍ، تجيء له من قِبل ربِّه الَّذي يدَّعي أنَّه ربُّ السَّماوات والأرض، أو تجيء معه الملائكةُ متعاونين مجتمعين؛ ليؤيِّدوه، ويدفعوا عنه[5].

---

(1) الراغب، مفردات القرآن: (سور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرن).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 381.
(5) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 399.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في أوَّل الآية:

جمع فرعون بين نكث العهد والاستكبار عن الحقِّ

الواو في: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ يمكن أن تكون لعطف ما بعدها على جملة: ﴿يَنكُثُونَ﴾؛ استكمالًا لبيان ما فعله فرعونُ بعد أن نقض هو وقومُه الوعودَ الَّتي أعطوها لنبيِّ اللّه بالإيمان والاهتداء، ويمكن أن تكون استئنافيَّةً جيء بها؛ للتَّنبيه إلى ما قام به فرعونُ تحصينًا لقومه من إضلال موسى وسِحره، والحقُّ الَّذي لا شكَّ فيه أنَّه استخفافٌ بعقولِهم وتلاعبٌ بعواطفهم، كما هو شأن الطُّغاة الظّالمين.

دلالةُ التَّعبير بفعل النِّداء:

ارتفاعُ صوت المُنادِي يؤذن بحرصه على وصول كلامه أبعدَ مدى

التَّعبيرُ بفعل النِّداء في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾ الموضوعِ لإظهار الصَّوت بالحديث ورفعِه - كما سبق بيانُه - يدلُّ على صدور النِّداء من أعماق فرعون، وحرصه الشَّديد على وصول صوته أبعدَ مدى، ما يُؤذن بخوفِه العميق وقلقِه المُتزايدِ مِن أن يتَّبِعَ قومُه موسى، ويؤمنوا به، لا سيَّما إذا نَما إلى علمِهم ما تمَّ الاتِّفاقُ عليه بينهما من إيمان فرعون بموسى؛ لقاءَ رفع العذاب الَّذي أنزله اللّهُ تعالى به وبقومِه.

بلاغةُ إسنادِ فعل النِّداء إلى ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾:

كان فرعونُ حريصًا على وصول كلامِه إلى أتباعِه بكلِّ الطُّرقِ والوسائلِ

إسنادُ فعلِ النِّداءِ إلى ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ يمكن أن يكون على سبيل الحقيقة، بأن جَمَعَ قومَه في مكان واحد كالسّوق مثلًا، أو جمع أشرافَهم، ونادى فيهم بما يودُّ أن يقولَه، وهم بلَّغوا عنه، فكأنَّه نادى فيهم جميعًا[1]، ويمكن أن يكون الإسنادُ على سبيل المجاز العقليِّ[2]، الدّالِّ على أنَّ فرعونَ لم يقم بالنِّداء بنفسه في ربوع مصر، وإنَّما قام به المختصّون بهذه المهمَّة، وقد أسنده النَّظمُ الكريمُ إليه؛ لأنَّه الآمرُ

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 399، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 49.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25: 229، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 49.

به، وللدَّلالةِ على انشغالِه بمضمونه، وحرصِه الشَّديدِ على وصولِه إلى كلِّ أتباعه، بجميع الطُّرق والوسائل المُباشرة وغيرِ المُباشرة.

السِّرُّ في التَّعبير بالاسم الظّاهر دون الضَّمير:

إبرازُ إصرارِ فرعون على الكفر، وبلوغِه في الفحش مبلغًا لم يبلغه غيرُه

آثر البيانُ إسنادَ فعل النِّداء إلى الاسم الظاهر: ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ دون الضَّمير، للتَّصريح بفاعل النِّداء تصريحًا يحول دون التباسه بغيره، أو دون صرف الفعل عنه إلى أحد سواه، ولِما في ذكره من الدَّلالة على أنَّه ما زال مُصِرًّا على الكفر، موغِلًا في الكبر، مُتَدَنِّيًا في الأخلاق، بالغًا في التَّدنِّي والفحش مبلغًا لم يبلغْهُ أحدٌ سواه؛ إذ أضاف إلى نكث الوعد الادِّعاء بأنَّه خيرٌ من نبيِّ اللّٰه، ولم يكتفِ بذلك، بل وصَفَه بأخسِّ الصِّفات وأحطِّ الكلمات، يُزاد على ذلك الدَّلالةُ على أنَّ كلماتِه وتوجيهاتِه لها أثرٌ بارزٌ في قومِه وأتباعه؛ إذ يكفيهم أن يُنادِيَ فرعونُ، أو يَقولَ، أو يُنقلَ عنه أنَّه يقولُ.

دلالةُ تعديةِ فعل النِّداء بحرف الظَّرفيَّة:

وصولُ نداء فرعون قومه أجمعين

في تعدية فعل النِّداء إلى المعمول ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ - بحرف الجرِّ المفيد للظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِي﴾ - نوعٌ من التَّصوير، الَّذي يَبرُزُ من خلاله ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ متوسِّطًا قومَه، وقد أحاطوا به إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، وأخذوا يستمعون إلى ما نادى عليهم من أجله، كما أنَّه يدلُّ على رغبته في تغلغل رسالته وتَمَكُّنِها وانتشارها بين النّاس(1)، ولعلَّه أمَرَ بذلك ليضمن لها سعةَ الانتشار، والفرقُ واضحٌ بين ما جاء عليه البيانُ وبين قولِنا: (ونادى فرعونُ قومَه)، الَّذي يدلُّ على مجرَّد صدور نداء منه إلى قومه، دون إبرازٍ لمدى حرصِه على تغلغُلِ هذا النِّداءِ وتَمَكُّنِه وانتشارِه.

الغرضُ من التَّعبير بـ ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ دون غيره:

أوثَرَ التَّعبير بـ ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ دون ملَئِه أو أتباعِه أو غير ذلك؛ لِما يدلُّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 89.

الـطُّـمـوح في معـاونة قـومِه ومؤازرتِهم ضدَّ موسى

عليه أصلُ هذه الكلمة من المعاونة والمؤازرة، الَّتي يطمحُ إليها فرعونُ من أتباعه في مواجهة موسى ، ولِما فيها من إثارة الرَّوابط والعلائق الَّتي تربطُه بهم، وتربطُهم به[1]، والَّتي تجعل كلامَه إليهم محلَّ قبولٍ وأخذٍ وتنفيذٍ، والفرقُ واضحٌ بين ما جاء عليه البيانُ، وبين أن يُقال: (ونادى فرعونُ في النّاس).

سِرُّ فصل: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ عمّا قبلها:

الـفـصـل إمّـا لكمال الاتِّصال أو لشبهه

جاءت جملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها، لما يُعرف بلاغيًّا بكمال الاتِّصال، الَّذي تنزل فيه الجملةُ الثّانيةُ من الأولى منزلةَ التّابع من المتبوع، فتنفصل عنها؛ لما بينهما من ارتباط معنويٍّ شديدٍ يغنيهما عن الرّابط اللَّفظيِّ، ذلك أنَّ جملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ بمنزلة البيان أو البدل من جملة: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾، ويمكن أن يكون الفصلُ لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤال أثارته الجملةُ السّابقةُ في نفس المتلقّي عمّا قاله فرعونُ في ندائه لقومه[2]، فتأتي الجملةُ الثّانيةُ؛ لتُجيب عن السُّؤال، ولتُفصل عن الأولى، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

الغرضُ من النِّداء بحرف البُعد:

يـظـنُّ فـرعـونُ أنَّ قـومَـه في غفلةٍ وبُعدٍ عمّا يُـضـمـرُه لهم موسى

آثر فرعونُ نداءَ قومِه بـ (يا) الَّذي يُنادى به البعيدُ؛ لاعتقاده أنَّ عندهم نوعًا من الغفلة وعدمِ الإدراك لِما يحيكُه موسى، ما يجعله خائفًا من تأثيره عليهم، ومن استجابتهم لدعوته والدُّخولِ في دينه، فكان نداؤه بحرف البُعد؛ لما فيه من التَّنبيه إلى بُعدهم عمّا يُنادَون من أجله، ومن أجل لفت أنظارهم إلى ما يأتي بعد النِّداء من معانٍ تحتاجُ إلى التَّنبُّه واليقظة؛ ليتمَّ استقبالُها على الوجه الَّذي يحقِّقُ الغرضَ من النِّداء والقول.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 446.

سِرُّ التَّعبير عن المُنادَى بـ (قَوْمِ) مضافًا:

التَّذكيرُ بما بين فرعون وقومِه من وثيق العلاقةِ المؤسّسة للنُّصرة والعون

نداءُ فرعون أتباعَه بـ (قَوْمِ) المضاف إلى ضميره مؤذنٌ بالتَّحنُّن إليهم واستعطافِهم بإعلامِهم أَنَّهم لُحمةٌ واحدةٌ، ومستنهضًا همَّتَهم بوصفهم بأنَّهم ذَوو قوَّةٍ على ما يحاولونه[1]، لِما يحمله هذا اللَّفظ من تذكير بما بينه وبينهم من وثيق العلاقة المؤسَّسة للمُناصحة والمُناصرة، وفي هذا من التَّهيئة لهم أن يُقبلوا عليه، ويفتحوا قلوبهم لحسن تلقّي ما يخبرهم به؛ لعلَّ هذه القلوبَ تستجيبُ لما يدعوهم إليه.

الغرضُ من الاستفهام في: ﴿أَلَيۡسَ لِي﴾:

تنبيهُ المخاطَبين وتقريرُهم بما يراه متميِّزًا به عن موسى

عبَّر فرعونُ بالاستفهام في قولِه: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾؛ لِما يمتاز به هذا الأسلوبُ من إثارة ذهن المخاطَب وتحريكِ عقله ولفت انتباهه إلى المستفهَم عنه، والاستفهام هنا تقريريٌّ، وغرضُه من التَّعبير به: تقريرُ قومِه بهذه الحقيقة الَّتي يرى نفسَه متميِّزًا بها عن موسى، كما يراها موجبةً عليهم اتِّباعَه، وعدمَ الاستجابةِ لغريمِه.

نوعُ اللّام في: ﴿لِي﴾، ودلالة تقديمه على المسند إليه:

الاختصاصُ بالمُلك يقتضي عدمَ المُنازَعة والمُقاهَرة

اللّامُ في قولِه: ﴿لِي﴾ حرفُ جرٍّ يفيد التَّمليك، والمعنى: إنَّ ملك مصر لي وحدي، لا ينازعني فيه أحدٌ، وفي تقديم الجارِّ والمجرور على اسم ليس ﴿مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ تخصيصٌ وتأكيد لمعنى كونه مَلِكًا لمصر بلا مُنازِع، ومن ثمَّ "فلا اعتراضَ على بني إسرائيل ولا غيرهم؛ لينتجَ له ذلك على زعمه أنَّ غلبته على بني إسرائيل ومقاهرته على إخراجهم من تحت يده بغيٌ على مَن له الملك، فتكون فسادًا، فلا بأس عليه إذا خدع مَنْ فعل به ذلك، بما عاهده عليه عند مسِّ الضُّرِّ"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿مُلۡكُ﴾ دون غيره:

تعبيرُ فرعون بالمصدر: ﴿مُلۡكُ﴾ الموضوع لقوَّة الشَّيء وصحَّته[3]

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 446.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 446.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

التَّعبيرُ بالمصدر يدلُّ على السَّيطرة والاستقرار، بخلاف الفعل الموحي بعدم الاستقرار

يبعث إلى أتباعه برسالة دالَّةٍ على سيطرته التّامَّة على هذا البلد، وقدرته على تصريف أموره[1]، ما يجعل طاعتَه فريضةً عليهم، واتِّباعَهم له واجبًا لا شكَّ فيه ولا جدال، بخلاف التَّعبير بالمضارع (أَمْلِكُ) الدّالِّ على التَّجدُّد، والموحي بعدم استقرار ملكه لمصر، واحتمال كونه مُلكًا مؤقَّتًا، كما أنَّ التَّعبير بالاسم المشتقِّ (مالِك) ليس في قوَّة التَّعبير بالمصدر ﴿مُلۡكُ﴾ الَّذي هو أصل المشتقّات وأقواها في الدَّلالة على الدَّوام.

نكتةُ الإضافة في: ﴿مُلۡكُ مِصۡرَ﴾:

مُلكُ مصرَ يوجِبُ عدمَ الخضوع لأحد، وعدمَ الالتزام بعهدٍ من وجهة نظر فرعون

إضافةُ الـ ﴿مُلۡكُ﴾ إلى ﴿مِصۡرَ﴾ يبعث برسالة إلى قومه، يؤكِّد فيها أفضليَّته على موسى بامتلاكه هذا البلدَ المعروف، الممتدَّ من الإسكندريَّة إلى أسوان[2]، بغرض استمالتهم إلى اتِّباعه وطاعته، ودعوتهم إلى عصيان نبيِّ اللّه وعدم الإيمان به، فقولُه: ﴿مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ سببٌ يقدِّمه، وحجَّةٌ يحتجُّ بها؛ لتبرير عدم التزامه بالوعد الَّذي قطعه على نفسه مع موسى، فكأنَّ مَلِكَ مصر من وجهة نظره لا يخضع لسلطان أحدٍ، ولا يجب عليه الالتزامُ بشيء، ولا يصحُّ أن يكون هناك مَن هو أعلى منه، أو مَن يرشدُه، ويوجِّهُه، وهذا ممّا يثير العامَّةَ، ويعجبُهم في الملوك، ويغري بتصديقهم، ويوحي بقوَّة الملوك وهيبتهم.

نوعُ الواو ودلالتها في: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

تفاخر فرعون بملك مصر والتَّحكُّم في نيلها

الواو في جملة: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يمكن أن تكون حاليَّةً، والجملةُ بعدها لبيان الحال الَّتي يعيشُها فرعونُ، ويحظى فيها بالمُلك والنَّعيم، ويمكن أن تكون لعطف ما بعدها على قوله: ﴿مُلۡكُ مِصۡرَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فرعون يتفاخر بملكه لمصر، وسيطرته على مائها، وتحكُّمه في أنهارها، وهو ما لا يملكه موسى، ولا يقدر عليه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 89.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 381.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة:

استحضارُ صورة الأنهار الجارية يستميل الحاضرين إلى تصديق فرعون

عبَّر فرعونُ باسم الإشارة: (هَذِهِ)؛ للدَّلالة على قُربِ المُشار إليه من المخاطَبين، ورؤيتِهم له في الرّواح وفي العشيِّ، وليستحضر الحاضرون صورةَ الأنهار المقصودة، وهي تجري من تحت قصوره، كأنَّها مشاهدة لعيونهم[1] أثناء إلقائه هذا النِّداء إليهم، فتعمل الصّورةُ عملها في الاستجابة له، والانصراف عن غيره، حتّى ولو كان رسولًا مُؤيَّدًا بالمُعجزات، مدعومًا بالآيات.

نوع (ال) في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ونكتة جمعه:

كلُّ فرعٍ من فروع النِّيل يصلحُ أن يكون نهرًا مستقلًّا

كلمة ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يمكن أن تكون بدلًا من اسم الإشارة، ويمكن أن تكون خبرًا له، و(الـ) فيها لتعريف العهد؛ لأنَّه يقصد نهر النّيل وفروعه، الَّتي لِعِظمِها جعل كلَّ واحدٍ منها مثلَ النَّهر، أو نهرًا مستقلًّا، وجمعها على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وإنَّما هي لنهر واحد هو النّيل، وهذه الأنهار هي: التّفاريع الَّتي تبتدئ قرب القاهرة؛ إذ يتفرَّع النّيل عندها إلى فرعين عظيمين هما: دمياط ورشيد، وله تفاريع أخرى يُسمّى كلُّ واحدٍ منها ترعةً، مثل ترعة الإسماعيليَّة وغيرها، وهنالك تفاريع أخرى تُدْعى الرَّياح[2]، وقيل: الخلجان الَّتي تخرج من النّيل المبارك كنهر الملك، ونهر دمياط، ونهر تنيس، ونهر طوطون كان منها إذ ذاك، لكنَّه اندرس، فجدَّده أحمد بن طولون[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿تَجۡرِي﴾ مضارعًا:

جريانُ الماء واندفاعُه من أدلَّةِ التَّرف والتَّنعيم

قوله: ﴿تَجۡرِي﴾ جملة في محلِّ رفع خبر لاسم الإشارة، ويمكن أن تكون في محلِّ نصب حالًا من ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، والتَّعبير فيها بفعل الجريان مضارعًا يدلُّ على سرعة اندفاع الماء في هذه الأنهار، وتجدُّد جريانه فيها، واستمرار ذلك من غير توقُّف ولا انقطاع،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 230.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 381، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 89.

ما يفيد كثرة خيراتها وتعدُّد ثرواتها، وجمال منظرها، وعبَّر بـ ﴿تَجۡرِي﴾ دون "تتحرَّك"؛ لأنَّ "أحسن الماء ما كان جاريًا غير قارٍّ؛ إذ يكون بذلك جديدًا؛ كلَّما اغترف منه شارب، أو اغتسل منه مغتسل"[1]، كما أنَّه من لوازم النَّعيم والتَّرف.

نوعُ المجاز وبلاغته في جريان الأنهار:

كأنَّ الأنهارَ هي الَّتي تجري من سرعة تدفُّق المياه فيها

إسنادُ ﴿تَجۡرِي﴾ إلى ضمير ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه المكانيَّة؛ إذ من المعلوم أنَّ النَّهر لا يجري، إنَّما الجاري ماؤه، وفيه نوع من التَّصوير البارع، الَّذي يرينا سرعة المياه في جريانها، والأمواج في تلاحقها، حتى ليخيَّل إلينا أنَّ الأنهار هي الَّتي تجري، ولو قيل: تجري من تحتها المياه؛ لما كشفت هذه الحقيقة عن امتلاء الأنهار بالماء وسرعة جريانه فيها، ولكان أقصى ما يُستَشفُّ منها مجرَّدُ وصف الماء بالجريان.

دلالةُ التَّعبير بالظَّرف مضافًا إلى ضمير المتكلِّم:

النّيلُ يجري من تحت فرعون حقيقةً أو تسخيرًا

قوله: ﴿تَحۡتِيٓۚ﴾ ظرفُ مكانٍ أُضيف إلى ضمير المُتكلِّم العائد إلى فرعون، والتَّعبير به يجوز أن يكون على سبيل الحقيقة؛ إذا كانت الأنهار تجري من تحت قصر فرعون فعلًا، فممّا قيل: كان له سريرٌ عظيمٌ مرتفعٌ تجري من تحته أنهار أخرجها من النّيل، وقال قتادة: كانت له جنانٌ وبساتينُ بين يديه تجري فيها الأنهارُ[2]، ويمكن أن يكون كنايةً عن التَّسخير، كقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ [التحريم: 10]، أي: كانتا في عصمتهما، ما يعني: أنَّ النّيل مسخَّرٌ له، وأنَّه يأتمر بأمره؛ إذ كانت مياهه لا تجري في الخزّانات والسُّدود إلّا بإذنه، ما يُعدُّ تلويحًا بالعقوبة على مخالفته، وترهيبًا وتحذيرًا من اتِّباع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 348.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 381، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 89.

موسى؛ لما يُفهِمُه من أنَّه يهوِّل عليهم، ويهدِّدهم بأنَّه إذا شاء؛ قطع عنهم الماء[1].

ويجوز أن يكون استعارةً؛ لتمكُّن فرعون من تصاريف النّيل في طول مصر وعرضها؛ إذ شُبِّه تمكُّنُه من التَّحكُّم فيها، بتمكُّن الرّاكب ممّا هو تحته، وقدرته على توجيه مساره والتَّحكُّم فيه، ثم استعار التَّحتيَّة للتَّحكُّم بعد تناسي التَّشبيه، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التي تُبرز سيطرتَه على سبب حياتهم، وذلك مثل الاستعارة في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤﴾ [مَرْيَم: 24] على تَفْسير ﴿سَرِيًّا ٢٤﴾ [مريم: 24] بنهر، وكان مثلُ هذا الكلام يروج على الدَّهماء لسذاجة عقولهم[2].

فرعونُ متمكِّنٌ من تصاريف النّيل تمكُّن الرّاكبِ من مركوبه

الغرضُ من الاستفهام في: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾:

الاستفهام في قوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ غرضُه التَّقريرُ على النَّفي تحقيقًا لإقرارهم، كأنَّ المُقَرِّر يفرض لهم الإنكارَ، فلا يُنكرون[3]، والمعنى: أفلا تبصرون عظمتي وقدرتي وضعفَ موسى وعجزَه، فتعلموا ببصائر قلوبكم أنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن ينازعني[4].

التَّقريرُ بمشاهدة قومِه براهينَ عظمته وقدرته، وأدلَّةَ عجزِ موسى وضعفِه

دلالة التَّعبير بفعل الإبصار مضارعًا مسندًا إلى ضمير الجماعة:

عبَّر فرعونُ عن المستفهَم عنه بالفعل ﴿تُبْصِرُونَ﴾؛ لدلالته على أنَّهم يشاهدون ما يقرِّرهم به بأبصارهم، ويرونه بعيونهم، والمعنى: ألا تشاهدون في الذَّهاب والإياب ما يدلُّ على أنَّني خيرٌ من موسى، وأولى منه بالطّاعة وعدم المنازعة؟ وعبَّر به مضارعًا؛ لأنَّه يريد تقريرهم بما يرونه في الحال، ولو قال: (أما أبصرتم؟)؛ لفُهِم أنَّ ذلك كان في الماضي، وليس له وجودٌ في الوقت الَّذي يتحدَّث إليهم فيه، كما عبَّر

رغبةُ فرعون في حصول الإقرار المُفضي إلى الطّاعةِ من جميع أفراد قومه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 230.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 230.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 381، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 447.

بفعل الإبصار مسندًا إلى ضمير الجماعة، لرغبته في أن يحصل الإقرارُ المفضي إلى الطّاعة والاتِّباع مِن قومِه جميعًا بلا استثناءٍ.

دلالةُ ﴿أَمۡ﴾ في: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾:

يرى فرعون أنَّه يمتاز عن موسى في الصِّفات الشخصيَّة كما امتاز عنه في الملك والقدرة

اختلفوا في معنى ﴿أَمۡ﴾، فقيل: هي المنقطعة بمعنى (بل)، والمعنى: بل أنا خير، وعلى هذا فقد تمَّ الكلام عند قوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، ثم ابتدأ، فقال: أم أنا خير، بمعنى: بل أنا خير، وقال الباقون: ﴿أَمۡ﴾ هذه متَّصلة؛ لأنَّ المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟ إلّا أنَّه وضع قولَهُ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ موضع ﴿تُبۡصِرُونَ﴾، لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خير؛ فهُم عنده بصراء، وقال آخرون: تمام الكلام عند قوله: ﴿أَمۡ﴾، وقوله: أنا خير ابتداء الكلام، والتَّقدير: أفلا تبصرون، أم تبصرون؟ لكنَّه اكتفى فيه بذكر ﴿أَمۡ﴾، كما تقول لغيرك: أتأكل أم؟ أي: أتأكل أم لا تأكل؟ تقتصر على ذكر كلمة ﴿أَمۡ﴾؛ إيثارًا للاختصار فكذا هاهنا[1]، وأيًّا كان نوعها؛ فتعبيرُه بها في سياق الاستمالة يثير المخاطَبين إلى عقد مقارنة بينه وبين موسى، تفضي - من وجهة نظره - إلى تفضيله على نبيِّ اللّه؛ لأنَّه يمتاز عنه في الصِّفات الشخصيَّة، كما امتاز عنه في صفات المُلكِ والقدرةِ.

الغرضُ من الاستفهام في: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾:

غرضُ فرعونَ تصغيرُ شأنِ موسى في نفوس قومِه، وصرفُهم عن اتِّباعِه

سبق القول بأنَّ ﴿أَمۡ﴾ يجوز أن تكون منقطعة، للإضراب الانتقالي، والتَّقدير: بل أأنا خير، والاستفهام اللازم تقديره بعدها تقريريٌّ، ومقصوده: تصغير شأن موسى في نفوسهم بأشياء هي عوارض ليست مؤثِّرة، انتقل من تعظيم شأن نفسه إلى إظهار البون بينه وبين موسى، الَّذي جاء يحقر دينه وعبادة قومه إيّاه، فقال: أنا خير من هذا[2].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 637.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 230، و231.

دلالةُ التَّعبير بضمير المتكلِّم:

عاـدةُ الطُّغاة تعظيمُ أنفسهم وتفخيمُ ذواتهم

عبَّر فرعونُ عن نفسه في جملة الاستفهام بـ: ﴿أَنَاْ﴾؛ لدلالته - بمعناه ومبناه المختوم بألف المدِّ - على تعظيم شأنه وتفخيم ذاته، وبلوغه في ذلك مبلغًا لم يبلغْهُ غيرُه، والمعنى: "أفهذا الَّذي جاء يسلبنا عبيدَنا بني إسرائيل خيرٌ عندكم منِّي مع ما وصفت لكم من ضخامتي، وما لي من القدرة على إجراء المياه الَّتي بها حياةُ كلِّ شيء"[1]، وهو في قوله هذا أشبه مقولة إبليس من قبله: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ١٢﴾ [الأعراف: 12].

نكتةُ البيانِ عن نبيِّ الله باسْم الإشارة:

منهجُ الطُّغاة التَّقليلُ من شأن الرُّسل والمصلحين والاستخفافُ بهم

عبَّر فرعون عن نبيِّ اللّه باسم الإشارة في قوله: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ للقصد إلى التَّقليل من شأنه، والتَّهوين من أمره[2]؛ إذ لم يذكرْهُ باسمه (موسى)، ولا صفته (رسول اللّه)؛ لأنَّ ذِكْرَهُ باسمه - في مقام استعطاف قومِه واستمالتِهم، وصرفهم عن طاعة موسى والإيمان به - فيه إعلاءٌ لشأنه، وتفخيمٌ لمنزلته، والتَّعبيرُ عنه بصفته فيه اعترافٌ برسالته.

دلالةُ التَّعبيرِ باسْم الموصول:

الادِّعاء بأنَّ مضمونَ جملة الصِّلة شيءٌ عُرف به موسى بين النّاس واشتُهِر

عبَّر فرعون بالاسم الموصول: ﴿ٱلَّذِى﴾؛ الَّذي يدلُّ على الإبهام، ولا يزول إبهامه إلّا بجملة صلة الموصول؛ ليتوصَّل من خلاله إلى الادِّعاء بأنَّ مضمونَ جملة الصِّلة شيءٌ عُرف به موسى بين النّاس، واشتُهِر[3].

دلالةُ تقديم المسند إليه على الخبر المشتقِّ:

قدَّم فرعونُ المسندَ إليه، والَّذي هو ضمير الغائب: ﴿هُوَ﴾ العائد إلى نبيِّ اللّه موسى عليه السلام على الخبر المشتقِّ: ﴿مَهِينٌ﴾؛ لتقوية وتأكيد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 447.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.

تأكيدُ كونِ موسى شخصًا ضعيفًا ليس في مكانة فرعون ولا في سلطانه

كون موسى شخصًا حقيرًا ضعيفًا، ليس في مكانة فرعون، ولا في سلطانه أو منزلته؛ ليزيد نفورَ قومه من اتِّباعه والإيمانِ به.

وجهُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مَهِينٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّذكيرُ بأنَّ موسى شخصٌ غريبٌ ليس من بيوت الشَّرف في مصر

آثر فرعونُ الإخبارَ عن موسى بقوله: ﴿مَهِينٌ﴾ الدّالِّ على الذُّلِّ والضَّعف، كما سبق بيانُه؛ لتذكير قومه بأنَّ موسى غريبٌ ليس من بيوت الشَّرف في مصر، وليس له أهلٌ يعتزُّ بهم، أو يرتكن إليهم، وأنَّه ضعيفٌ حقيرٌ، يتعاطى أمورَه بنفسه، وليس له مُلكٌ، ولا قوَّةٌ يُجْري بها نهرًا، ولا ينْفِذ بها أمرًا[1]، وآثر التَّعبير عن هذا المعنى بالاسم دون الفعل؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الوصف من الأوصاف الثّابتة اللّازمة، الَّتي لا يمكن أن تنفكَّ عن موسى، أو تتغيَّر في عقول النّاس ومعتقداتهم عنه، "وهذا سفسطةٌ وتشغيبٌ؛ إذ ليس المقامُ مقامَ انتصارٍ حتى يُحَقَّرَ القائمُ فيه بقلَّة النَّصير، ولا مقامَ مباهاةٍ حتى يُنْتَقَصَ صاحبُه بضعف الحال"[2].

نوعُ الواوِ في: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾:

ادِّعاءُ عدمِ جدارة موسى بتلقّي الوحي بعد تحقير شخصه

الواو في جملة: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لعطف ما بعدها على قولِه: ﴿مَهِينٌ﴾، فبعد أن حقَّر فرعونُ من شخص موسى، أراد أن يبيِّن لقومه عدم جدارته بتلقِّي وحي اللّٰه؛ لأنَّه لا يستطيع الإبلاغ عنه؛ بسبب الحُبسة والفهاهة الَّتي كانت في لسانه، والَّتي أحاط بها فرعونُ من خلال معرفته له واختلاطه به عندما كان يعيش معهم في القصر[3].

دلالةُ النَّفي بـ (لا):

ادِّعاءُ عجز موسى عن البيان

آثَرَ فرعونُ نفيَ فعل الإبانة بحرف النَّفي المختوم بألف المدِّ (لا)؛ للإشارة إلى بلوغ موسى في العجز عن الإفصاح مبلغًا لا حدودَ له،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.

ما يؤكِّد - في زعمه - عدم جدارته بتلقِّي الوحي، وعدم صلاحيَّته للرِّسالة مطلقًا.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَكَادُ﴾ و﴿يُبِينُ﴾:

عجزُ موسى عن الإبانةِ أمرٌ ملازمٌ لـه في الحاضرِ والمستقبلِ

عبَّر فرعونُ في الفعلين ﴿يَكَادُ﴾ و ﴿يُبِينُ﴾ بصيغة المضارع بعد النَّفي؛ للإشارة إلى أنَّ العجز عن الإبانةِ والإفصاحِ أمرٌ ملازمٌ لموسى، ويتجدَّدُ حصولُه له في كلِّ مرَّة يحاول فيها الإعراب عن معنًى من المعاني الَّتي يريد إيصالَها، ما يعني أنَّ ذلك يحصل له في الحاضر، وسيحصل له أيضًا في المستقبل، والمعنى: "لا يقرب من أن يعرب عن معنى من المعاني؛ لما في لسانه من الحُبسة، فلا هو قادر في نفسه، ولا له قوَّة بلسانه على تصريف المعاني وتنويع البيان؛ ليستجلبَ القلوب، ويُدْهِشَ الألباب، فيكثر أتباعُه، ويضخم أمرُه"[1].

نوعُ الفاءِ ودلالتها في: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ﴾:

التَّصعيدُ في مواجهة موسى بمطالبته الإتيانَ بأدلَّةٍ تثبتُ كونَه رسولًا

الفاء في قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ﴾ للتَّفريع، فإنَّه لَمَّا تضمَّن وصفُ فرعونَ موسى بـ ﴿مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أنَّه مكذِّبٌ له دعواه الرِّسالة عن اللّه؛ فرَّع عليه قولَه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ﴾؛ ترقِّيًا في إحالة كونه رسولًا من اللّه، وكان فرعونُ لجهله أو تجاهله يُخَيِّلُ لقومه أنَّ للرِّسالة شعارًا كشعار الملوك[2].

دلالةُ التَّعبير بـ (لَوْلا):

عـادةُ الجبابرة تـعـجـيـزُ مَـن ينازعُهم ويُظهرُ عجزَهم

(لَوْلَا) في قوله: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ﴾ حرفُ تحضيض، عبَّر به فرعونُ بغرض تعجيز نبيِّ اللّه، بحثِّه على أن تُلقى عليه أسورةٌ من ذهب تدلُّ على أنَّ اللّه تعالى اختاره للرِّسالة، واصطفاه للقيام لها وبها، "وكان من عادة القوم، إذا جعلوا واحدًا منهم رئيسًا لهم؛ سوَّروه بسوار من ذهب، وطوَّقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعونُ من موسى مثل هذه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 448.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.

الحالة"[1]، وجواب لولا هنا محذوف، ويمكن أن يكون تقديره: لآمنّا بدعوته، أو لصدَّقناه.

دلالةُ التَّعبير بفعل الإلقاء مبنيًّا لِما لم يُسَمَّ فاعله:

اهتمامُ فرعون مُـنْـصَـبٌّ على حصول الإلقاء بغضِّ النَّظر عن فاعله

الإلقاء: الرَّميُ، استُعمل هنا في: الإنزال، والمعنى: هلّا أُنزل عليه من السَّماء أساورة من ذهب، أي: سوَّرهُ الرَّبُّ بها؛ ليجعله مَلِكًا على الأمَّة[2]، وعبَّر به جريًا على ما اعتاده النّاسُ من أنَّ الكراماتِ والحُبى والخُلَعَ تُلقى على المُكَرَّم بها إلقاءً، وجيء به مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لكون فاعل الإلقاء معلومًا، وهو ربُّه الَّذي أرسله، أو لأنَّ اهتمامَهم منصبٌّ على حصول الإلقاء من أيِّ ملقٍ كان[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَسۡوِرَةٌ﴾ جمعًا نكرةً:

كـلَّـمـا كـانـت الأسـاورُ كثيرةً كانت دليلًا قويًّا علـى الاصطفاء للرِّسالة

﴿أَسۡوِرَةٌ﴾ جمع سِوار، والسِّوار: حلَقَةٌ عريضةٌ من ذهب أو فضَّة تحيط بالرَّسغ، وكان السِّوار من شعار الملوك بفارس ومصر، يلبس الملكُ سوارين، وكان من شعار الفراعنة لبسُ سوارين أو أسورة من ذهب، وربَّما جعلوا سوارين على الرُّسغين وآخرين على العَضُدين، فلمّا تخيَّل فرعونُ أنَّ رتبةَ الرِّسالة مثلُ المُلك؛ حسب افتقادَ ما هو من شعار الملوك عندهم أمارةً على انتفاء الرِّسالة[4]، وعبَّر به نكرة جمعًا؛ لما يفيده التَّنكير والجمع من التَّكثير الدّالِّ على التَّكريم والاصطفاءِ.

دلالةُ قيد الـ ﴿أَسۡوِرَةٌ﴾ بالجارِّ والمجرور:

التَّعريضُ بفقر مـوسى وعـجـزه وعدم صلاحيَّته للرِّسالة

قولُه: ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ جارٌّ ومجرورٌ في محل رفع صفة لـ ﴿أَسۡوِرَةٌ﴾، و﴿مِّن﴾ فيه هي البيانيَّة الموضِّحةُ نوعَ الأسورة المطلوب إلقاؤها على نبيِّ الله موسى، وأنَّ الواجب فيها أن تكون من الذَّهب لا من شيء آخر، ونَصَّ فرعون على أن تكون من الذَّهب؛ "ليكون ذلك أمارةً

(1) الرازي، فتوح الغيب: 27/ 637.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 231.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 449.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 232.

على صِدق صحَّة دعواه، كما يفعل هو عند إنعامه على أحد من عبيده بالإرسال إلى ناحية من النَّواحي لمهمَّة من المهمّات"[1]، وفيه تعريضٌ بفقر موسى وعجزه وعدم صلاحيَّته للرِّسالة بسبب ذلك، وحاصل الكلام "أنَّ فرعون كان يقول: أنا أكثر مالًا وجاهًا، فوجب أن أكون أفضلَ منه، فيمتنع كونه رسولًا من الله؛ لأنَّ منصبَ النُّبوَّة يقتضي المخدوميَّة، والأخسُّ لا يكون مخدومًا للأشرف"[2].

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

طغيانُ فرعون في التَّكذيب والتَّعجيز

﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ﴾ حرفُ عطفٍ يفيد التَّرديد، والمعنى: إن لم تُلقَ عليه أساورةٌ من ذهبٍ؛ فلتجئ معه طوائفُ من الملائكة شاهدين له بالرِّسالة[3]، وهذا مبالغة في إنكار رسالة موسى عليه السلام، ومحاولةٌ لتعجيزه وتكذيبه في ما جاء به.

دلالةُ التَّعبير بفعل المجيء مادَّة وصيغة:

مجيءُ الملائكةِ مع موسى أمرٌ له خطرُه وأهمّيَّتُه في إثبات كونه رسولًا

عبَّر فرعونُ في قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ﴾ بفعل المجيء الموضوع للإتيان بصعوبة[4]؛ للدَّلالة على أنَّه مجيءٌ له خطرُه وأهمّيَّتُه، نظرًا لما يترتَّب عليه من إقامة الدَّليل على كون موسى نبيًّا مُرسَلًا من عند الله جلَّ في علاه، وعبَّر به ماضيًا مع أنَّه لن يكون إلّا في المستقبل؛ للإشارة إلى أنَّه مطلبٌ أكيدٌ لا تراجع عنه، ولا بديل له، وأنَّهم لن يؤمنوا بصدق موسى في دعواه الرِّسالة إلّا بعد مجيء الملائكة معه مجيئًا حقيقيًّا لا شكَّ فيه ولا ارتياب.

نكتة تقييد فعل المجيء بـ: ﴿مَعَهُ﴾:

القصدُ إلى مصاحبة الملائكة لموسى، ومشاهدتهم بالبصر

قَيَّد فرعونُ مجيء الملائكة بكونه مع موسى في قوله: ﴿مَعَهُ﴾؛ للمطالبة بمصاحبتهم له ومشاهدتهم معه عندما يأتي إليهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 449.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 637.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 232.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (جاء).

بهذا النَّبأ الجسيم والأمر العظيم[1]، ففي التَّقييد به قصدٌ لمعنى المشاهدة، الَّذي يريدونه من وراء طلبهم مجيء الملائكة، فهُم لا يريدون أن يكون مجيئُهم مستترًا، بحيث لا يراه، ولا يسمعه إلّا موسى وحده، بل يريدون رؤيتهم بالعين؛ لتكون تلك الرؤيةُ دليلًا محسوسًا على أنَّه رسولٌ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جمعًا:

كلَّما كان عددُ الملائكة كثيرًا؛ كان الدَّليل على صِدق موسى أقوى وأدعى للتَّصديق

جيء بفاعل المجيء ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جمعًا لقصد التَّكثير، المُفضي إلى التَّصديق وعدم الشَّكِّ أو الرَّيب في كون موسى رسولًا، بمعنى: أنَّه كلَّما كان عدد الملائكة كثيرًا؛ كان الدَّليل أقوى، وأدعى إلى التَّصديق.

موقع ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ الإعرابي ودلالته:

تأكيدُ مصاحبةِ الملائكة لموسى، وتقويةُ رؤيتهم معه

قوله ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ حال من الملائكة، ومعناه: إمّا مقترنين به، من قولك: قرنْتُه، فاقترن به، وإمّا من: اقترنوا، أي: تقارنوا، بمعنى: يمشون معه، فيدلّون على صحَّة نبوَّته[2]، لَمّا وصف فرعونُ نفسه بالمُلك والعزَّة، ووازن بينه وبين موسى، فوصفه بالضَّعف وقلَّة الأعضاد؛ اعترض، فقال: هلّا إن كان صادقًا؛ ملَّكَهُ ربُّه، وسوَّده، وسوَّره، وجعل الملائكةَ أعضادَه وأنصارَه[3]، والتَّعبير به تقويةٌ وتأكيدٌ لمعنى مصاحبة الملائكة الَّتي يطلبها فرعون؛ دليلًا على أنَّ موسى رسولٌ؛ لئلّا يُحمل معنى المعيَّة على إرادة أنَّ الملائكة تؤيِّده بالقول فقط، دون المصاحبة والرُّؤية بالعين[4].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

البصَر والنَّظر:

البَصَر: اسم للرُّؤية، ويُسمَّى العلمُ بالشَّيء - إذا كانَ جليًّا -

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 449.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 415.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 258.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.

أدلَّةُ تميُّزِ فرعون عن موسى لا تحتاجُ إلى إعمالِ فكرٍ من وجهة نظر فرعون

بصرًا، يُقال: لَك فِيهِ بصر، يُراد: أنَّك تعلمُه، كَما يراهُ غَيرك، ويُقال لقوَّة القلب المدركة: بَصِيرَة وبَصَر[1]، والنَّظَر: طلب مَعرفَة الشَّيء من جِهَته ومن جِهَة غَيره، وحَدُّه: طلب إدراك الشَّيء من جِهَة البَصَر أو الفِكر، ويحتاج في إدراك المَعنى إلى الأمرينِ جَميعًا، وأصل النَّظر المُقابلَة، فالنَّظر بالبصر: الإقبالُ به نَحْو المبصَر، والنَّظَر بالقلب: الإقبال بالفكر[2].

ولمّا كان فرعونُ يريد أن يثبت لقومِه بالدَّليل أنَّه أفضلُ من موسى، وأولى منه بالطّاعة والاتِّباع؛ ناسب أن يعبِّر في قوله لهم بكلمة: ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ الدّالَّة على أنَّ البراهين الَّتي ساقها لهم واضحةٌ جدًّا، تبصرها عيونُهم بجلاء، ولا يحتاجون معها إلى إعمال فِكْر؛ لأنَّها تنطق بأفضليَّته على موسى.

الأسورة والحُلِيّ:

الأسورة علامةٌ متعارفٌ عليها في الإرسال، أما الحُليُّ؛ فيستعملها العامَّةُ والخاصَّة

الأسوِرَةُ من أساورة الفرس أكثر ما يُستعمل في الرُّماة، وقيل: هو فارسيٌّ معرَّب، وأصله أسوار، والأسوار من الفرسان غلب في الرّامي منهم[3]، والحُلِيُّ جمع حَلْي، وهو: ما يُزيَّن به من مصوغ المعدنيّات والحجارة الكريمة[4]، ولمّا كان فرعون يعتقد أنَّ رتبةَ النُّبوَّة تناظر رتبة المُلك؛ طالب نبيَّ اللهِ موسى أن يُلقيَ عليه ربُّه أسورة، أو يُلبسَه أسورةً من الذَّهب؛ لتكون دليلًا على أنَّه أرسله إليهم؛ جريًا على عادة النّاس بصفة عامَّة والملوك بصفة خاصَّة؛ إذا أوفدوا أحد أتباعهم برسالة، ولم يُعَبِّر بالحُلِيِّ لاستواء العامَّة مع الخاصَّة في استعمالها، ولأنَّها ليست علامةً معترفًا بها على الإرسال، ولم يجرِ العرفُ باستعمالِها فيه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 82، والراغب، مفردات القرآن: (بصر).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 74.

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 233.

(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (الحلي).

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 54 - 56]

سببُ نزولِ العذابِ بالأوَّلين تكذيبُهم رُسُلَ الله وطاعتُهم أعداءَ الله

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لَمّا وضَّحت الآياتُ السّابقةُ ما نادى به فرعونُ في قومه؛ ليحذِّرهم من اتِّباع موسى والإيمان به، بعد أن رفع اللّهُ تعالى عنهم العذابَ استجابةً لدعائِه؛ إذ ذكَّرهم بعظمته، وهدَّدهم بقدرته على التَّحكُّم في مياه النّيل، ثمَّ حقَّر نبيَّ اللّه، وطالبه أن يأتي بشعار من ذهب دليلًا على أنَّه رسولٌ، أو يصحب معه عددًا من الملائكة؛ ليشهدوا له بذلك أمامَ أعينِ النّاس؛ ناسب أن تُبَيِّن هذه الآياتُ أنَّ قومَه قد استجابوا لسخافاته، وانصاعوا لضلالاته، فعَصَوا موسى نبيَّ اللّه، وأطاعوا فرعونَ عدوَّ اللّه، فغضب اللّهُ تعالى عليهم، وأنزل بهم من العذاب ما صاروا به عِبرةً ومثلًا للكافرين على مرِّ الأيّامِ والسّنين.

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾: (خفف) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ شَيءٌ يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانَةَ، يُقالُ: خَفَّ الشَّيءُ يَخِفُّ خِفَّةً، وهوَ خَفِيفٌ وخُفافٌ، ويُقالُ: أخَفَّ الرَّجُلُ؛ إذا خَفَّت حالُهُ[1]، ويقال: خفيف فيمن يطيش، وثقيل فيما فيه، وقار، ويقال: خفيف في الأجسام الَّتي من شأنها أن ترجَّح إلى أسفل، كالأرض والماء، وخِفُّ المتاع: الخفيف، ومنه كلام خفيف على اللِّسان، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾، أي: حملهم أن يخفّوا معه، أو وجدهم خفافًا في أبدانِهم وعزائِمهم، وقيل: معناه: وجدَهم طائشين[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خف).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (خف).

2) ﴿ءَاسَفُونَا﴾: (أسف) أصلٌ واحدٌ يَدُلُّ عَلى الفَوتِ والتَّلَهُّفِ وما أَشْبَهَ ذَلِكَ، يُقالُ: أسِفَ عَلى الشَّيءِ يَأسَفُ أسَفًا مِثل تَلَهَّفَ، والأسِفُ الغَضْبانُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: 150]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾، معناه: أغضبونا[1].

3) ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾: (نقم) أصلٌ يَدُلُّ عَلى إنكارِ شَيءٍ وعَيبِه، ونَقَمْتُ عَليهِ أنقِمُ: أنكَرْتُ عَلَيهِ فِعْلَهُ، والنِّقْمَةُ مِنَ العَذابِ والانتِقام، كَأَنَّهُ أنكَرَ عَليه، فعاقَبَهُ[2]، والمعنى المحوريُّ: ضَمُّ القلب على كراهة بالغة ورَفْضٌ لشيء، قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 8]، وتأتي صيغة الافتعال فيه للأخذ بمقتضى ما في النَّفس من غضب وإنكار، فالانتقامُ يعني: العقوبة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾[3].

4) ﴿سَلَفٗا﴾: (سلف) أصلٌ يَدُلُّ عَلى تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ، مِن ذَلِكَ السَّلَفُ الَّذِينَ مَضَوا، والقَومُ السُّلّافُ: المُتَقَدِّمونَ، قال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]، أي: يُتَجافى عمّا تقدَّم من ذنبه، وقال أيضًا: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾، أي: مُعتَبَرًا متقدِّمًا[4].

5) ﴿وَمَثَلٗا﴾: (مثل) أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلى مُناظَرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، وهَذا مِثْلُ هَذا، أي: نَظِيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعنًى واحِدٍ[5]، ومعناه المحوريُّ: تشخُّصُ الشَّيء قائمًا على هيئةٍ أو صفاتٍ معيَّنة: كالتِّمثال، والنَّصل، وكالشَّيء الشّاخص يستوفي بهذا هيئته الكاملة[6]، ومن معانيه: العِبرة، كما في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾، و﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، أي: صارت له شهرة كشهرة الأمثال السّائرة، وصار مَنْ بعدهم يتمثَّل بهم؛ إذا رأى مثلَ حالهم[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (أسف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نقم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (سلف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مثل).
(7) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 452.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الفسقُ وسرعةُ الاستجابةِ لاستخفافِ الظّالمين يغضبُ اللهَ ربَّ العالمين

تُبيِّنُ هذه الآياتُ أنَّ فرعونَ طالَبَ قومَه بسرعةِ الاستجابةِ لِما يأمرُهم به، فأطاعوه لخفَّة عقولِهم وسوءِ تفكيرهم، ولا غرابةَ في ذلك، فقد كانوا قومًا فاسقين، كما تُبَيِّنُ الآياتُ الكريماتُ أنَّهم أغضبوا اللّهَ تعالى، وأسخطوه عليهم؛ بسبب كثرة أعمالِهم السَّيّئةِ الَّتي لم يرتدعوا عنها على الرَّغم من كثرة التَّنبيه وتوالى النُّذر، وتوضِّحُ أنَّهم لَمّا آسَفوا اللّهَ سبحانه؛ انتقم منهم بعذابٍ بئيسٍ، فأغرقهم أجمعين، ونجَّى موسى ومَن معه مِنَ المؤمنين، وجعل فرعونَ وقومَه سلفًا وقدوةً لمن يأتي بعدهم من الكفّار، وجعلهم كذلك مثلًا وعبرةً للآخَرِين من الأمم، فانظروا يا آلَ مكَّة: أين أنتم من هؤلاء، وكيف تكون عاقبةُ الكُفّار الظّالمين؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في صدر الآية:

طالَبَ فرعونُ قومَه بسرعة الاستجابة؛ ليقطعَ عليهم طريقَ الإيمان بموسى

الفاء في قولِه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾ لِلتَّفريع، أي: فتفرَّعَ عن نداء فرعون قومه أن أثَّر بتمويهه في نفوس ملئه، فعجَّلوا بطاعته بعد أن كانوا متهيِّئين لاتِّباع موسى؛ لمّا رأوا الآيات[2]، وفي التَّعبير بها دلالةٌ على أنَّه طالبهم بسرعة الاستجابة لكلامِه بعد أنِ انتهى منه مباشرة؛ ليقطع عليهم طريقَ الإيمانِ بموسى، لا سيَّما بعد أن رأوا ما جاء به من آياتٍ، وبعد أن رَفع اللّه تعالى عنهم ما نزل من العذاب استجابةً لدعائه، فالمعنى: وبعد أن قال فرعونُ لقومه ما قال من تطاولٍ على نبيِّ اللّه؛ طلب منهم الخِفَّةَ والسُّرعةَ والمُبادرةَ إلى الاستجابة لما قاله لهم[3].

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 400.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 89.

دلالةُ التَّعبير بفعل الاستخفاف:

استخفافُ فرعونَ لقومِه صادِرٌ عن معرفتِه القويَّةِ بخفَّة عقولِهم

عبَّر النَّظمُ بفعل الخفَّة مُقترنًا بالسّين والتّاء في قولِه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ فرعونَ بالغ في مطالبة قومِه بالخفَّة، وألحَّ عليهم للإسراع في فعل ما أمرهم به، خشيةَ أن يؤمنوا بموسى، فأطاعوه في طلبه، واستجابوا لإلحاحِه[1]، أو أنَّه استخفَّ عقولَهم، فأسرعوا إلى التَّصديق بما قاله بعد أن صدَّقوا موسى في نفوسهم؛ لَمّا رَأوا آياته نزولًا ورفعًا[2]، وقيل: معناه استخفَّ أحلامَهم، أي: وجدهم خفيفةً أحلامُهم، أي: قليلةً عقولُهم، فصيغة الاستفعال للوِجْدان كالأفعال، يُقال: أحمدتُه بمعنى: وجدته محمودًا[3]، ولا مانعَ من أنَّه استخفَّهم لمعرفته القويَّة بخفَّةِ عقولِهم، فحملهم بغروره على ما كانوا مهيَّئين له في خفَّة الحِلم[4]، والخفَّة هنا مستعارةٌ للانتقال من حالة التَّأمُّل في خلع طاعة فرعون والتَّثاقل في اتِّباعه إلى التَّعجيل بالامتثال له، كما يخفُّ الشَّيء بعد التَّثاقل[5].

دلالةُ إضافة القوم إلى ضمير فرعون:

تأكيدُ ما بين فرعونَ وقومِه مِن علاقةِ القيامِ والمُناصرة

في إضافة لفظِ القوم إلى ضمير الغائب العائد إلى فرعون في ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ تأكيدٌ لما بينه وبين ملَئِه بصفة خاصَّة، وما بينه وبين قومه بصفة عامَّة من وثيق العلاقة المرتكزة على القيام لمناصرته ومعاونته فيما يذهب إليه، وما يتكلَّم به، والَّتي تبرُزُ هنا في سرعة إجابتهم لما استخفَّهم إليه.

وجهُ العطف بالفاء في: ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾:

القومُ متهيِّئون لطاعةِ فرعون راغبون فيها عازمون عليها

جاءت جملة: ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ معطوفةً بالفاء الَّتي تُفيد التَّعقيب على قوله: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم فعلوا ما استخفَّهم إليه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 638.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 91.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 450.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.

على وجهٍ بالغٍ من الإسراع، فلم يتفكَّروا في أمر موسى، ولم يتأمَّلوا استجابةَ اللّه تعالى دعاءَه برفع العذاب عنهم، ما يعني: أنَّهم كانوا مُتَهَيّئين لطاعة فرعون، راغبين فيها، عازمين عليها[1].

استجابةُ القوم لاستخفاف كانت طواعيةً بلا تردُّد ولا تأخُّر

دلالةُ التَّعبير بفعل الطّاعة ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير الجماعة:

عبَّر النَّظمُ عن استجابة القوم لاستخفافِ فرعون بفعل الطّاعة في قوله: ﴿فَأَطَاعُوهُۚ﴾ الموضوع للانقياد والمُضِيِّ إلى ما أمرهم به[2]؛ للدَّلالة على فِعْلِهم ذلك طواعيةً وبلا تردُّد أو إكراه، وجيء به ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّهم أطاعوه في الحال من غير تباطؤٍ ولا تأخُّر، وفي إسناده إلى ضمير الجماعة إشارةٌ إلى أنَّهم استجابوا جميعًا لاستخفافِه، ولم يتخلَّف أحدٌ منهم عن طاعته.

الإصرارُ على الفسق والعصيان سببٌ في الصَّدِّ عن الحقِّ والإعراض عنه

سرُّ فصلِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ عمّا قبلها:

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجُملةُ الثّانية عن سؤال أثارَتْه الجملةُ الأولى في نفس القارئ عن سبب استجابة قوم فرعونَ لاستخفافِه، والسِّرِّ في طاعتهم له وعزوفِهم عن طاعة نبيِّ اللّه ورفض الإيمان به[3]، فتأتي الجملةُ الثّانية لتُبَيِّن أنَّ سببَ ذلك هو تغلغلُ الفسق في كينونتهم، ولتُفصَلَ عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

رجوعُ القوم إلى طاعة فرعون بأدنى سبب

وجهُ تصدير الجملة بالحرف (إنَّ):

جاءت جملة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ مُصَدَّرةً بـ (إنَّ)، وهي تفيد التَّعليل هنا، كما هو الشَّأن؛ إذا جاءت في غير مقام التَّأكيد، فإنَّ كونَهم فاسقين أمرٌ بيِّنٌ ضرورةً؛ لأنَّ موسى جاءهم، فدعاهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 233.

إلى ترْكِ ما كانوا عليه من عبادة الأصنام، فلا يقتضي المقامُ تأكيدَ كونهم فاسقين، أي: كافرين، والمعنى: أنَّهم إنَّما خفّوا لطاعة رأس الكفر لقرب عهدهم بالكفر؛ إذ كانوا يؤلِّهون فرعون، فلمّا حصل لهم تردُّدٌ في شأنه ببعثة موسى عليه السلام؛ لم يلبثوا أن رجعوا إلى طاعة فرعون بأدنى سبب[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكينونة:

تَغَلْغُلُ الكفرِ والشَّرِّ في نفوس القومِ حتى غَدَوا لا يستطيعون الخلاصَ منه

عبَّر النَّظم بالفعل: ﴿كَانُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الشَّرَّ والنِّفاقَ قد تغلغل في نفوسهم، حتى صار في جبلّاتهم، وأنَّهم أُشربوا الكفرَ في كينونتهم، حتّى غدوا لا يستطيعون الخلاصَ منه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفسق مادّة وصيغة:

قومُ فرعونَ كانوا عريقين في الخروجِ عن طاعة اللهِ إلى معصيته

المرادُ بالفسق هنا: الكفر، كما قال الله تعالى في شأنهم: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 145]، أوثر التَّعبيرُ به دون (كافرين) لشموله الكفرَ وغيره ممّا يُغضِب اللّهَ تعالى، ويوجِب عذابَه، وعبَّر به اسمًا مفيدًا للثُّبوت والدَّوام؛ للدَّلالة على أنَّهم كانوا "عريقين في الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، حتَّى صار لهم ذلك خُلقًا ثابتًا"[3]، لا ينفكُّ عنهم.

نكتةُ عطف: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ بالفاء:

التَّعقيب بذكر المقصود من سرد قصَّة فرعون مع نبيِّ الله موسى

جاء قولُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ معطوفًا على ما قبله بالفاء الَّتي تفيد التَّسبُّب والتَّعقيب؛ لأنَّه محلُّ العِبرة من القصَّة، ومن ثمَّ فُرِّعَ عليها تفريعَ النَّتيجة على المقدِّمات، فإنَّه بعد أن ذكر كُفْرَ فرعون وملَئِه وتكذيبَهم موسى، ونكْثَهم الوعدَ معه بالاهتداء؛ إذا كشف اللّهُ عنهم العذاب؛ عقَّب ما مضى من القصَّة بالمقصود الَّذي يترقَّبه السّامع، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.

ما ترتَّب من الانتقام فالإغراقِ، فجَعْلِهم سلفًا ومثلًا للآخرين، ولأنَّ ذلك محلُّ العِبرة؛ كان الموقعُ في عطفه لفاء التَّرتيب والتَّسبُّب[1].

دلالةُ التَّعبير بـ (لَمّا):

التَّشويقُ إلى معرفةِ العقاب الَّذي ترتَّب على صنيع القومِ مع نبيِّ الله

(لمّا) في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ هي الحينيَّةُ المُتَضَمِّنةُ معنى الشَّرط، والَّتي تربط بين جملتين، تترتَّب الثّانيةُ منهما على الأولى ترتُّب المُسبَّب على السَّبب، وفي التَّعبير بها نوعٌ من إثارة المتلقّين وتشويقهم إلى معرفة العقاب الَّذي ترتَّب على صنيع فرعون وقومِه مع نبيِّ الله موسى عليه السلام، حتّى إذا ورد؛ ثبت في نفوس مشركي مكَّة، واستقرَّ في عقولِهم أنَّ مَن يَحذو حذوَ فرعونَ وقومِه مع رسول الله سينتقم الله تعالى منهم، كما انتقم مِن أسلافهم.

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿ءَاسَفُونَا﴾:

الله تعالى عامل فرعونَ وقومَه، كما يُعامل السَّيِّدُ المأسوفُ عبدًا أسِفَه

الأسَفُ هو: الغَضَبُ المشوبُ بحزنٍ وكَدَرٍ، وأُطلق على صنيع فرعون وقومه فعل ﴿ءَاسَفُونَا﴾؛ لأنَّه فعلٌ يترتَّب عليه انتقامُ الله منهم انتقامًا يشبه انتقامَ الآسِف؛ لأنَّهم عصَوا رسوله، وأصرّوا على الكفر بعد ظهور الآيات الدّالَّة على صِدقه، فاستُعير ﴿ءَاسَفُونَا﴾ لمعنى: عَصَوْنا للمشابهة، والمعنى: فلمّا عَصَوْنا عصيان العبد ربَّه المُنْعِمَ عليه بكفران النِّعمة، والله يستحيل عليه أن يتَّصف بالآسف، كما يستحيل عليه أن يتَّصف بالغضب على الحقيقة، فيؤول المعنى إلى أنَّ اللهَ عاملهم، كما يُعامل السَّيِّدُ المأسوفُ عبدًا أسِفَهُ، فلم يترك لرحمة سيِّده مسلكًا[2].

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الأسف ماضيًا وتعليقه بضمير العظمة:

ما يُغضبُ الرَّسولَ، ويحزنُه يغضِبُ اللهَ تعالى ويوجِبُ عذابَه

جيء بفعل الأسف: ﴿ءَاسَفُونَا﴾ ماضيًا؛ ليدلَّ على إيغالهم فيما يُغضِبُ، وتماديهم فيما يُؤَسِف، والمعنى: فعلوا ما يغضبُ إغضابًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 74 (بتصرف) و: 25/ 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234.

شديدًا، بإغضاب أوليائنا لنكثهم مرَّة بعد مرَّةٍ، وكرَّةً في إثر كرَّة[1]، وفي تعليقه بضمير الله تعالى بصيغة التَّعظيم تقبيحٌ لصنيعهم وتشنيعٌ بفعلهم، ودلالةٌ على أنَّ ما يُغضبُ الرَّسول، ويحزنُه، يغضِبُ اللّهَ تعالى، ويوجِبُ عذابه.

بلاغةُ الإيجاز في: ﴿ءَاسَفُونَا﴾:

في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ إيجازٌ؛ لأنَّ كونَهم مؤسفين لم يتقدَّم له ذِكْرٌ، حتّى يُبْنَى أنَّه كان سببًا للانتقام منهم، فدلَّ إناطةُ أداة التَّوقيت به على أنَّه قد حصل، والتَّقدير: فآسفونا، فلمّا آسفونا؛ انتقمنا منهم[2]، وفي هذا الحذف دلالةٌ على أنَّ فعلَ فرعون وقومِه ما يؤسِفُ أمرٌ مسلَّمٌ به؛ لاعتيادهم ذلك المرَّة بعد المرَّة.

فِعْلُ فرعون وقومه ما يؤسِفُ أمرٌ مسلَّمٌ به لاعتيادهم ذلك المرَّة بعد المرَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الانتقام ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير العظمة:

جيء بفعل الانتقامِ المترتِّب على فعل الأسف ماضيًا في جملة جواب الشَّرط، فقيل: ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى تحقُّق حصول الانتقام على وجهٍ بالغ في الإسراع، بحيث لم يتمكَّنوا من دفعه أو الفرار منه، والمعنى: أنَّهم أفرطوا في المعاصي، وعَدَوا طورَهم، فاستوجبوا أن نُعَجِّل لهم عذابَنا وانتقامَنا، وألّا نحلُمَ عنهم[3]، وأُسند الفعل إلى ضمير الله تعالى بصيغة التَّعظيم للتَّفخيم والتَّهويل، والمعنى: أوقعنا بهم على وجه المكافأة؛ لِما فعلوا برسولنا عليه السلام عقوبةً عظيمةً منكرةً مكروهةً[4].

أوقعَ اللهُ تعالى بفرعونَ وقومِه عقوبةً عظيمةً مُنْكَرةً مكروهةً

معنى الإغراق ووجه عطفه على الانتقام:

الإغراقُ هو: الإلقاء في الماء المُستَبحِر الَّذي يغمُر المُلْقَى، فلا يترك له تنفُّسًا[5]، وعُطِفَ ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ على فعل الانتقام بالفاء، مع

ذِكْرُ الإغراقِ أقوى تأثيرًا في نفوس المشركين المُعاندين من عدم ذِكْرِه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 259.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 451.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 75.

أنَّ إغراقَهم هو عين الانتقام منهم، إمّا لأنَّ ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾ مؤوَّل بقدَّرنا الانتقام، فيكون عطف ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ بالفاء كالعطف في قوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، وإمّا أن تُجعل الفاء لتأكيد تسبُّب ﴿ءَاسَفُونَا﴾ في الإغراق، وأصل التَّركيب: انتقمنا منهم، فأغرقناهم، على أنَّ جملة: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ مبيِّنة لجملة: ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾، فجاءت الفاء لتأكيد معنى التَّبيين، وإمّا أن تُجعل الفاء عاطفةً ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾ على ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ﴾ ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وتكون: ﴿ٱنتَقَمۡنَا﴾ معترضة بين الجملة المفرَّعة والمفرَّعة عنها[1]، ولا شكَّ أنَّ ذِكر الإغراق - أيًّا كان تأويله - فيه إيضاح وبيان لكيفيَّة الانتقام، وهو أقوى تأثيرًا في نفوس المشركين المعاندين من أن يُقال: (فانتقمنا منهم أجمعين).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإغراق ماضيًا مُسنَدًا إلى ضمير العظمة:

حصولُ الإغراق على وجه من الإسراع يزيلُ الشَّكَّ وينفي الرَّيب

جيء بفعل الإغراق ماضيًا؛ للدَّلالة على حصوله على وجه من الإسراع يزيلُ أيَّ شكٍّ في وقوعه، وينفي أيَّ ريبٍ في حصوله، وأوثر إسناده إلى ضمير الحقِّ تعالى بصيغة التَّعظيم لتفخيم الإغراق وتهويله؛ لِما للتَّهويل من تأثيرٍ بالغٍ في العقول المُنكرة، وتخويفٍ شديدٍ للقلوبِ الجاحدةِ المستكبِرة.

دلالةُ التَّعبير بـ: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

الإغراق شَمِلَ فرعونَ وكُلَّ مَن استخفَّهم مِن الملأ ومِن القوم على السَّواء

قوله: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ توكيدٌ للضَّمير المنصوب في ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، جيء به لتأكيد إغراقِهم جميعًا بلا استثناء، ما يعني أنَّ الإغراقَ طالَ فرعونَ، وطالَ أيضًا كلَّ مَنِ استخفَّهم، فأطاعوه من الملأ ومن العامَّة على السَّواء، والمعنى: "أهلكناهم إهلاكَ نفس واحدة، لم يفلت منهم أحد على كثرتهم وقوَّتهم وشدَّتهم، وهذا لا يكون في العادة إلّا بعد علاجٍ كثيرٍ أو اعتناءٍ كبيرٍ"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 234، و235.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452.

دلالةُ الفاء في: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا﴾:

أفعالُ فرعون وقومِه سببٌ في أن يتَّعظَ بهم غيرُهم

الفاءُ في جملة: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا﴾ هي فاءُ التَّفريع، الدّالَّةُ على أنَّ جعْلَهم سلفًا ومثلًا للآخرين ترتَّب على إهلاكهم؛ بسبب إيغالهم في معصية اللّه تعالى، وإبلاغهم في إيسافِ نبيِّه موسى، حتّى لا يحذوَ أحدٌ من المتأخِّرين حذوَهم، أو يسيرَ على منوالهم، والمعنى: "لمّا كان إهلاكُهم بسبب إغضابهم للّه وبالكِبر على رسله، كانوا سببًا لأن يتَّعظ بحالهم من يأتي بعدهم"[1].

نكتةُ إسنادِ فعل الجعل إلى ضمير العظمة:

جعْلُ فرعونَ وقومِه أو غيرِهم سلفًا ومثلًا للآخرين أمرٌ سهلٌ على الله

أوثر إسنادُ فعل الجعل إلى ضمير الحقِّ بصيغة التَّعظيم في قوله تعالى ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾؛ لتفخيم الفعل وتعظيمه، وللإشارة إلى سهولته على اللّه ﷻ، وقدرته على أن يُنْزل بغيرهم مثلَ ما أنزل بهم، ويجعلهم سلفًا ومثلًا كما جعلهم.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿سَلَفٗا﴾ والغرض من تنكيره:

جَعَلَ الله فرعونَ وقومَه سلفًا للآخرين لاختلافِهم عن غيرهم من الكافرين

السَّلَفُ جمع سالف، والسّالِفُ: الَّذي يسبق غيرَه في الوجود أو في عمل أو مكان، ولمّا ذُكِر الانتقامُ؛ كان المرادُ بالسَّلف هنا: السّالفُ في الانتقام، أي: إنَّ مَن بعدهم سيلقون مثلَ ما لَقوا[2]، وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنَّ الواجبَ على النّاس بعامَّة، وعلى كفّار مكَّة ومَن حولَها بخاصَّة، أن يتأمَّلوا ما حدث لهم، وأن يحذروا الاقتداءَ بهم، حتّى لا يلقَوا مصيرَهم، فالمعنى: "﴿سَلَفٗا﴾ متقدِّمًا لكلِّ مَن يهلك بعدهم إهلاكَ غضب، في الهلاك في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، وقدوةً لمن يريد العلوَّ في الأرض، فتكون عاقبتُه في الهلاك عاقبَتَهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ [القصص: 41]"[3]، وأوثر التَّعبير به نكرة؛ لما يفيده التَّنكيرُ من التَّعظيم الدّالِّ على أنَّهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 235.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452.

كانوا مختلفين عن غيرهم في القوَّة والإمكانيات، وفي الإصرارِ على الكفر، ونكثِ العهد، وإيسافِ نبيِّ اللّه، ومع ذلك لم يستعصوا على اللّه سبحانه.

معنى المَثَل ونكتة عطفه على السَّلَف:

جمعَ اللّهُ لفرعونَ وقومِه بين العقاب الحسّيِّ والعقاب المعنويِّ

المَثَل: النَّظير والمشابه، أُطلق على لازمه على سبيل الكناية، أي: جعلناهم عِبرةً للآخرين يعلمون أنَّهم إن عملوا مثلَ عملهم؛ أصابهم مثلُ ما أصابهم، ويجوز أن يُراد بالمَثَل هنا: الحديث العجيب الشَّأن الَّذي يسير بين النّاس سير الأمثال، والمعنى: جعلناهم للآخرين حديثًا يتحدَّثون به، ويعظُهم به مُحَدِّثُهم[1]، وجيء به معطوفًا على ﴿سَلَفًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى شهَّر بهم؛ إذ هيَّأ الأسبابَ لذيوع خبر إغراقهم وانتشاره في العالمين، ما يعني: أنَّه تعالى جمع لهم بين عقابين مُخيفين ورادعين لَمَن يأتي بعدهم، **أحدُهما**: العقاب الحسّيُّ المتمثِّل في الانتقام بالإغراق، **والآخر**: العقاب المعنويُّ بجعلهم حديثًا يتناقله النّاسُ للعِبرة والعظة.

نوعُ اللّام في: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾:

جعل اللّه في قصص الأمم عِبرة وعظة للمتَّعظين

اللّامُ في قوله: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ هي لامُ الاختصاص الدّالَّةُ على أنَّ الغرض من جعل فرعون وقومه سلفًا ومثلًا هو أن يتَّعظ بهم غيرهم، وأن يستفيدوا ممّا حصل لهم، فيتجنَّبوا ما كان سببًا في انتقام اللّه منهم، لا سيَّما الإصرار على الكفر، ونكث العهد، وإيساف نبيِّ اللّه ومشاقَّته، وهو عين ما يقوم به كفّارُ مكَّة مع رسول اللّه محمَّد ﷺ.

نوع (ال) في: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ ودلالتها:

(الـ) في ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾ هي لامُ الجنس الدّالَّةُ على أنَّ اللّه تعالى جعل فرعونَ وقومَه سلفًا ومثلًا لكُلِّ النّاس "الَّذين خلفوا بعدَهم من زمنهم إلى آخر الدَّهر، فيكون حالُهم عظةً لناسٍ وإضلالًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 235.

لآخرين، فمن قُضيَ أن يكون على مثلِ حالهم عملَ مثلَ أعمالِهم، ومن أراد النَّجاةَ ممّا نالهم؛ تجنَّبَ أفعالَهم"(1)، ويدخل كفّارُ مكَّةَ المكذَّبون لرسول اللّه دخولًا أوّليًّا في لفظ (الآخِرينَ)؛ لأنَّ هؤلاء - أي: كفّار مكَّة - هم آخر الأمم المشابهة لقوم فرعون في عبادة الأصنام وتكذيب الرَّسول، والمعنى: فجعلناهم سلفًا لكم، ومثلًا لكم، فاتَّعِظوا بذلك(2).

تحذيرُ كفّار مكَّة وغيرهم من أن يحذو حذوَ فرعون وقومه

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفسق والعصيان:

الفِسقُ: الفُجورُ والخروجُ عن الحقِّ، وتَرْكُ امتثالِ أمرِ اللّه، ورجلٌ فُسَقٌ وفسِّيقٌ: دائمُ الفسق، وفسَقَت الرُّطَبة: خرجت عن قِشرها، والفِسق أعمُّ من الكفر، ويقع على كثير الذَّنْب وقليله، لكن تُعورف في الكثير أكثر، وفيمن التزم حكم الشَّرع، ثمَّ أخلَّ بأكثر أحكامه(3)، والعصيان هو: الخروج عن الطّاعة(4)، وأصله: من الصَّلابة وعدم الانثناء أو الانقياد(5)، والعاصي: هو من ارتكب معصية أو عدَّة معاصٍ، وربَّما لم يصل إلى حدِّ الفسق؛ لأنَّه لم يجاهرْ بها، ولم يصرَّ عليها، ولمّا كانت حقيقةُ قوم فرعونَ أنَّهم ألِفوا المعصيةَ، واعتادوا نكْثَ العهدِ وفعل ما يغضب، ويؤسف؛ كان التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَٰسِقِينَ﴾ أنسبَ لحالهم، وأكثر دقَّةً في وصف واقعهم.

الفاسق مَن اعتاد الخروج عن الحق، والعاصي مَن ارتكب معصية، وربَّما لم يجاهرْ بها

الأسَف والغضب:

الأسَفُ: الحزنُ والغضبُ معًا، وقد يُقال لكلِّ واحدٍ منهما على الانفراد، وحقيقته: ثوران دم القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان

الأسفُ حزنٌ وغضبٌ معًا، والغضبُ اشتدادُ السُّخط

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 452، و453.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 235، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 638.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 193.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (عصا).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصو).

ذلك على مَن دونه؛ انتشر فصار غضبًا، ومتى كان على مَن فوقه؛ انقبض فصار حزنًا، ولذلك قال ابن عباس عن الحزن والغضب: مخرَجُهُما واحدٌ واللَّفظ مختلف، فمَن نازع مَن يقوى عليه؛ أظهره غيظًا وغضبًا، ومَن نازع مَن لا يقوى عليه؛ أظهره حزنًا وجزعًا[1]، أمّا الغَضَبُ؛ فهو: اشتِدادُ السُّخْطِ، وإذا وصف اللّهُ به؛ فالمراد به الانتقام دون غيره[2]، والغَضَبُ الَّذي توجبُه الحميَّةُ هو: انتِقاض الطَّبع بِحال يظهر في تغيُّر الوَجْه، والغَضَب الَّذِي توجبه الحكمة: جنسٌ من العقوبَة يضادُّ الرِّضا، وهو الَّذِي يوصف اللّه بِهِ[3]، ولمّا كان الحاصلُ لنبيِّ اللّه موسى من فرعون وقومِه هو مزيجٌ من الغضب والحزن بسبب نكثهم العهود، وإصرارهم على الكفر، وادِّعاء فرعون أنَّه أفضلُ وأشرفُ مِن نبيِّ اللّه؛ كان التَّعبيرُ بـ ﴿ءَاسَفُونَا﴾ أنسبَ؛ لأنَّه يصفُ الواقعَ بدقَّةٍ لا توجد في الغضب.

السَّلف والأسوة:

التَّعبيرُ بالسَّلف يعني أن يتَّعظ بهم الآخرون إلى قيام السّاعة

السَّلَفُ: الَّذينَ مَضَوا، والقَومُ السُّلّافُ: المُتَقَدِّمونَ[4]، والأُسوة والإِسوَةُ كالقُدوة والقِدوة، وهي الحالة الَّتي يكون الإنسان عليها في اتِّباع غيره إن حسنًا، وإن قبيحًا، وإن سارًّا، وإن ضارًّا[5]، ولا يُشترط فيه أن يكون متقدِّمًا، ولَمّا كان القصدُ من البيان أن يكون فرعونُ وقومُه مثلًا لِمَن جاء بعدهم إلى قيام السّاعة؛ ناسب التَّعبيرُ بقوله: ﴿سَلَفًا﴾ الدّالِّ على التَّقدُّم، والَّذي يؤذن لكلِّ مَنْ جاء بعدهم إلى يوم القيامة أن يتَّعظ بما نزل بهم من العذاب والعقاب، بالإضافة إلى التَّشهير والفضيحة، بخلاف لفظ الأسوة الَّذي يُقَلِّل نطاق الاتِّعاظ بهم، ويحول دون فضيحتهم، والتَّشهير بقبائحهم.

(1) الراغب، مفردات القرآن: (أسف).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (غضب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 130.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلف).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (أسا).

﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ [الزخرف: 57 - 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكرُ افتراءِ المشركين على عيسى ودحضُه كما دحضَتِ السّورةُ غيرَه من الفِرَى

بعد أن ذكرت السّورةُ الكريمة أربعًا من مفتريات المشركين، وردَّت عليهم ردودًا مُفْحِمة، وهي أباطيلُ تتلخَّص في: أنَّهم جعلوا للّه من عباده جزءًا، وجعلوا الملائكة الَّذين هم عباد الرَّحمن إناثًا، وقالوا: لو شاء الرَّحمن؛ ما عبدنا الأصنام، وقالوا: لولا أُنزِلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم؛ ناسب أن تَذكر هاتان الآيتان وما بعدهما فِريتَهم الخامسةَ، الَّتي تتعلَّق بنبيِّ اللّه عيسى - على نبيِّنا وعليه أفضلُ الصَّلاةِ وأتمُّ السَّلامِ - وتدحضَها كما دحضَتْ ما سبقَها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصِدُّونَ﴾: الصُّدود: الإعراض، وقد صَدَّ عنه، يَصُدُّ صَدًّا وصُدودًا، قال تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وصدَّه عن الأمر صدًّا: صَرَفَه، ومنعه، قال تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النمل: 43]، أي: صَدَّ بِلقيسَ عن الإيمان العادةُ الَّتي كانت عليها من عبادة الشَّمس، وصدَّ يصُدُّ ويصِدُّ، أي: ضَجَّ، قال تعالى: ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾[2]، بمعنى: يَضِجّون أو يُعرِضون[3].

2) ﴿جَدَلَۢاۚ﴾: (جدل) أصلٌ واحدٌ، وهوَ: استِحكامُ الشَّيءِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 639، وحجازي، التفسير الواضح: 3/ 401.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 390.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 51.

في استِرسالٍ يكونُ فيه، وامتداد الخُصومةِ ومراجعة الكلام[1]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه: الجديل، وجدلت البناء: أحكمته، ومنه: الجِدال، فكأنَّ المتجادلين يفتل كلُّ واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجِدال: الصِّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجَدالَة، وهي الأرض الصُّلبة، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وقال أيضًا: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾[2].

3) ﴿خَصِمُونَ﴾: (خصم) أصلانِ: أحَدُهُما المُنازَعَةُ، ومنه: الخَصْمُ الَّذي يُخاصِمُ، والذَّكَرُ والأُنْثَى فيه سَواءٌ، والخِصامُ: مَصدَرُ خاصمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا[3]، وأصل المُخاصمة: أن يتعلَّق كلُّ واحد بخصم الآخر، أي: جانبه، وأن يجذب كلُّ واحد خصم الجوالق من جانب، والجمعُ خُصومٌ وأخصامٌ، قال تعالى: ﴿خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟﴾ [الحج: 19]، وقال: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ﴾ [ق: 28] والخَصِيمُ: كثير الخصام والمخاصمة، والخَصِمُ: المختصُّ بالخصومة، قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[4].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

صُدودٌ وضجيجٌ قائمٌ على الخصومةِ والجدالِ، لا من أجلِ الوصولِ إلى الحقِّ

تُبَيِّنُ الآيةُ الأولى فعلَ المشركين حين ضَرَبَ ابنُ الزِّبعرى المثلَ بعيسى عليه السلام، مُحتجًّا بعبادة النَّصارى له، فإنَّه لمّا نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء: 98]؛ شقَّ ذلك على أهل مكَّة، وقالوا: شتم محمَّد آلهتنا، فجاءهم ابن الزِّبعرى، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: شتم محمَّد آلهتنا، قال: وما قال، قالوا: قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (جدل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (خصم).

﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ [الأنبياء: 98] قال: ادعوه لي، فدعا محمَّدًا صلّى اللّٰه عليه وعلى آله وسلَّم، فقال ابن الزِّبعرى: يا محمَّد هذا شيء لآلهتنا خاصَّة أم لكلِّ ما عبد من دون اللّٰه؟ قال: "بل لكلِّ ما عبد من دون اللّٰه ﷻ"، قال: فقال خصمتك وربِّ الكعبة، يا محمَّد ألست تزعم أنَّ عيسى عبد صالح، وعزيرًا عبد صالح، والملائكة عباد صالحون، قال: "بلى"، قال: فهذه النِّصارى تعبد عيسى، وهذه اليهود تعبد عزيرًا، وهذه بنو مليح تعبد الملائكة، قال: فضجَّ أهل مكَّة، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، قال: ونزلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾؛ إذ فاجأ كفّارُ قريش رسولَ اللّٰهِ بالصّياح والضَّجيجِ والضَّحكِ؛ فَرَحًا بما قالَه ابنُ الزِّبعرى، وظنًّا منهم أنَّه قد انتصر على رسول اللّٰه في الخصومة والمجادلة(1)، وتُبَيِّنُ الآيةُ الثّانيةُ حجَّتَهم الَّتي بَنَوا عليها باطلَهم، وهي أنَّ رسولَ اللّٰه أخبرهم بأنَّ عيسى بنَ مريم رسولٌ من رسل اللّٰه، وأنَّه خيرٌ من آلهتهم، فإن كان في النّار يوم القيامة؛ فقد رَضوا بأن يكونوا معه، والواقع أنَّهم ما قالوا ذلك من أجل الوصول إلى الحقِّ، وإنَّما قالوه من أجل الجدل والغلبة في القول؛ لأنَّهم قومٌ دَرَجوا على الخصومةِ واللَّجاجِ في الباطل، حتّى صاروا كالمجبولين عليه(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو في أوَّل الآية:

بيانُ فِريَةٍ جديدةٍ ونوعٍ آخرَ من لجاجِ مشركي مكَّةَ وجدالِهم لرسول اللّٰه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ عاطفة، عطفت قصَّة من أقاصيص كفرهم وعنادهم على ما مضى من حكاية أقاويلهم(3)؛ لبيان فِريةٍ جديدة ونوعٍ آخرَ من لجاج مشركي مكَّة، وإمعانِهم في

(1) الوادعي، الصحيح المسند من أسباب النّزول، ص: 135.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 260، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 91، و92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 236.

المكابرة[1] والجدالِ القاصدِ إلى إحراج رسولِ الله ﷺ ومشاقَّتِه وإيسافِه، كما كان يفعلُ مَن سبقوهم مع رسلِ الله تعالى وأنبيائِه.

دلالةُ التَّعبير بـ (لَمَّا):

التَّشويقُ المُفضي إلى التَّعجيب مِن صنيع المُشركين

(لمّا) في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ هي الحينيَّةُ المُتَضَمِّنةُ معنى الشَّرط، والَّتي تجمع بين جملتين، ترتبطُ الثّانيةُ منهما بالأولى ارتباط المُسبَّب بالسَّبب، وهي تفيدُ وجودَ جوابها عند وجود شرطِها أو توقيته[2]، وفي التَّعبير بها نوعٌ من الإثارة والتَّشويق المُفضي إلى التَّعجيب والدَّهشة مِن فعل مشركي مكَّة عندما ضَرَبَ ابنُ الزِّبعرى قبل إسلامه المثلَ بعيسى بن مريم، على نبيِّنا وعليه أفضل الصَّلاة والسَّلام.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وتوجيه المتشابه اللَّفظي:

عادةُ القرآنِ التَّعبيرُ بعيسى في مقام التَّكليف، وبالمسيح في مقام الثَّناء، وبابن مريم في مقام ضرب المثل

هذا الموضعُ أحدُ موضعين تمَّ التَّعبيرُ فيهما عن المسيح عليه السلام بكنيته، وهي ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، حيث ورد أيضًا في سورة (المؤمنون) قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]، أمّا بقيَّة المواضع؛ فقد يُعبَّر عنه فيها باسمه: (عيسى)، أو لقبه: (المسيح) منفردين أو مجتمعين، متبوعًا بـ (ابْنُ مَرْيَمَ) أو بدونه، ومن الملحوظ أنَّ التَّعبير عنه بالمسيح يأتي في سياق الثَّناء، أو تصحيح العقيدة، ولا يأتي في سياق إيتاء البيِّنات أو الرِّسالة، والتَّعبير عنه بعيسى يأتي في سياق التَّكليف، وفي سياق المدح والثَّناء، وفي سياق النِّداء؛ لكونه عامًّا وعَلَمًا عليه، أمّا التَّعبير عنه بـ (ابن مَرْيَمَ)؛ فلم يأتِ في مقام التَّكليف، ولا في مقام الثَّناء أو النِّداء، وإنَّما ورد في مقام بيان وجه الإعجاز في خلقه، كما في سورة (المؤمنون)، أو في مقام ضرب المثل به، كما في سورة الزُّخرف[3].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 98.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 236.

(3) السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص: 916.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّة:

ردودُ فعلِ المشركين دائمًا على النَّقيض ممّا يجبُ أن تكون

عبَّر النَّظمُ في جواب (لَمّا) بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّة؛ للدَّلالة على أنَّ ما قام به المشركون عندما ضُرب المَثَلُ بعيسى كان أمرًا مفاجئًا، أثار عجبَ رسولِ اللّه ﷺ ودهشتَه؛ لأنَّه لا يَتوقَّعُ حصولَه منهم، وما ذلك إلّا لحسن ظنِّه فيهم، وأملِهِ في أن يكون ما تلاه عليهم مِن وحي اللّه - لا سيَّما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] - رادعًا لهم، مزلزلًا لمشاعرهم، لكنَّهم كانوا على العكس ممّا يَظُنُّ، ويرجو، وعلى النَّقيض ممّا يجب أن يكون.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (قَوْمُ) مضافًا إلى ضمير الرَّسول:

حقيقٌ بقوم النَّبيِّ نصرته وطاعته

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الكفّار بقوله: ﴿قَوۡمُكَ﴾؛ للإشارة إلى ما منحهم اللّهُ تعالى من نعم كثيرةٍ، تأتي على رأسها القدرةُ الَّتي تُعينُهم على القيام بما يحاولونه[1]، وأوثر التَّعبيرُ به مضافًا إلى ضمير الرَّسول لزيادة التَّعجيب منهم، والإنكار عليهم، كيف فرحوا مِن تغلُّب ابن الزِّبعرى على النَّبيِّ ﷺ بزعمهم في أمر عيسى عليه السلام، أي: مع أنَّهم قومُك، وليسوا قومَ عيسى ولا أتباعَ دينِه، فكان فرحُهم ظلمًا شديدًا من ذوي القربى[2].

دلالةُ التَّعبير بحرف الجرِّ في: ﴿مِنۡهُ﴾:

جَعَلَ المشركون المثلَ المضروبَ سببًا للصَّدِّ والإعراضِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنۡهُ﴾ ابتدائيَّة، وليست لتعدية ﴿يَصِدُّونَ﴾ إلى ما في معنى المفعول؛ لأنَّ الفعل إنَّما يتعدّى إليه بحرف (عن)، ولكنَّها متعلِّقة بـ ﴿يَصِدُّونَ﴾ تعلُّقًا على معنى الابتداء، أي: يَصِدّون صدًّا ناشئًا منه، أي: مِنَ المَثَل، أي: ضُرِبَ لهم مثلٌ، فجعلوا ذلك المثل سببًا للصَّدِّ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 455.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 238.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.

حالُ الكفّارِ مع الرّسول دائمًا الصَّدُّ والتَّشكيكُ في كلِّ ما يُخبِرُ به

توجيهُ القراءاتِ المتواترة في: ﴿يَصِدُّونَ﴾:

قرأ نافعٌ وابنُ عامر والكسائيُّ، وأبو جعفر وخلف: ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضمِّ الصّاد[1]، من الصُّدود، إمّا بمعنى: الإعراض، والمعنى: من أجل هذا المثل يَصُدّون عن الحقِّ، ويُعرضون عنه[2]، والمُعْرَضُ عنه محذوف؛ لظهوره من المقام، أي: يعرضون عن القرآن؛ لأنَّهم أوهَموا بجدالهم أنَّ في القرآنِ تناقضًا، وإمّا على أنَّ الضَّمَّ لغةٌ في مضارع: (صَدَّ) بمعنى: ضجَّ، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وحمزةُ وعاصم ويعقوبُ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصّاد، وهو الصَّدُّ بمعنى الضَّجيج والصَّخب والمعنى: إذا قريشٌ قومُك يصخَبون، ويضِجّون من احتجاج ابن الزِّبعرى بالمَثَل بعيسى بن مريم عليه السلام[3]، ولا تعارض بين القراءتَيْن بل كلُّ قراءة منهما تكمل القراءة الأخرى، فإنَّهم عند ضرب المثل بعيسى عليه السلام ضجّوا، وصخبوا، ثمَّ أعرضوا عنه.

استحضارُ المشهد يثيرُ المتلقّي إلى ترقُّب الرَّدِّ على افتراءاتِ الكُفّار

دلالةُ التَّعبير بفعل الصَّدِّ مُضارعًا:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بفعل الصَّدِّ مضارعًا، فقال: ﴿يَصِدُّونَ﴾؛ لِما يمتازُ به المضارعُ من استحضار الحالةِ الماضيةِ كأنَّها حاضرةٌ ماثلةٌ يبدو فيها الكفّارُ فرحين متهلِّلين بما قاله ابنُ الزِّبعرى، فيسهمُ استحضارُ هذا المشهد في التَّشنيع بهم، وتقبيح صنيعهم، كما يثير المتلقّي إلى ترقُّب ردِّ القرآن الكريم على جدالِهم، ودحضِه لافترائِهم، حتى إذا ورد؛ ثبتَ في الأذهان، واستقرَّ في العقول.

الكفّارُ لا يكتفون بالصَّدِّ والإعراضِ وإنَّما يضيفون إليه القولَ بما يُغري السُّفهاءَ

دلالةُ الواو في: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿يَصِدُّونَ﴾، وهي تدلُّ على أنَّ القومَ لم يكتفوا بالصَّدِّ

---

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 369.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 639.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 369، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 238.

والإعراض، وإنَّما أضافوا إليه هذا الكلام قصدًا إلى إحراج النَّبيِّ ﷺ والتَّشكيكِ فيما يقولُه، و"تمهيدًا لما بَنوا عليه من الباطل المُمَوَّه بما يغترُّ به السُّفَهاءُ"[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل القول ماضيًا مُسندًا إلى ضمير الجماعة:

الجـــدالُ والتَّشكيكُ مِن وسائل المشركين لإثبات أنَّهم على حقٍّ

تعبيرُ القرآنِ بفعل القول الموضوع لإبراز ما يُتَصوَّر في النَّفس في جملة: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾، فيه دلالةٌ على اعتقادِ الكُفّارِ أنَّهم على حقٍّ في عبادةِ الأصنام، وأنَّ ما جاء به النَّبيُّ هو الباطل، ومِن ثَمَّ كان القولُ والتَّشكيكُ وضرْبُ هذا المثل وغيرِه وسائلَهم لإثبات ذلك، وفي التَّعبيرِ به ماضيًا مُسندًا إلى ضمير الجماعة دلالةٌ على تحقُّق صُدوره منهم جميعًا[2]، من غير شكٍّ أو افتراءٍ؛ لأنَّهم قالوه بلسانِهم، أو وافقوا مَن قالَه، وأُعجِبوا بكلامه.

الغرضُ من الاستفهام في: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾:

فَـهْـمُ المشركين الخاطئ لا يغير الحقائق

قولُه: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ جملةٌ في محلِّ نصب مقول فعل القول المسند إلى ضمير الكفّار، والهمزة فيها للاستفهام التَّقريريِّ؛ للعلم بأنَّ النَّبيَّ يُفَضِّل عيسى على آلهتهم، أي: فقد لزمك أنَّك جعلتَ أهلًا للنّار مَن كنتَ تفضِّلُه، فأمرُ آلهتِنا هيِّنٌ[3]، وقيل: إنَّ الاستفهامَ مقصودٌ به الإفحامُ، وهو يتضمَّن أنَّ آلهتَهُم خيرٌ من نبيِّ اللّه عيسى عليه السلام؛ لأنَّهم قالوا: إنَّ النَّصارى يعبدون آدميًّا، أمّا نحن؛ فإنَّنا نعبد الملائكة، فهُم يعتقدون أنَّ آلهتَهم خيرٌ، ثمَّ عَنَّ لهم أن يستفهِموا على سبيل التَّنَزُّل مِنَ الخبر إلى الاستفهام[4].

مرجعُ الضَّمير ﴿هُوَۚ﴾ في: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾:

سبقت الإشارةُ إلى أنَّ جملة: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ هي مقولةُ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 260، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 385.

قصدُ الكفّارِ تفضيلُ آلهتهم والسُّخريةُ من رسول الله

الكفّار؛ تأييدًا لابن الزِّبعرى في كلامه عن المسيح، والضَّمير ﴿هُوَۚ﴾ فيها يمكن أن يرجع إلى عيسى ؛ إذ قيل: إنَّ الكفّار لمّا سمعوا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ [آل عمران: 59]؛ قالوا: نحن أهدى من النَّصارى، لأنَّهم عبدوا آدميًّا، ونحن نعبد الملائكة، فنزلت، وقولُه: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ على هذا القول: تفضيل لآلهتهم على عيسى، وقيل: إنَّ الضَّمير يرجع إلى الرَّسول ﷺ؛ إذ روي أنَّه لمّا نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ﴾ [آل عمران: 59]؛ قالوا: ما يريد محمَّدٌ بهذا إلّا أن نعبده، وأنَّه يستأهل أن يُعبَدَ وإن كان بشرًا، كما عبدت النَّصارى المسيح - وهو بشر - وغرضُهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم السُّخريةُ والاستهزاءُ به[1].

سرُّ فصلِ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ عمّا قبلها:

توضيحُ السَّبب الَّذي حَمَلَ الكفّارَ على ضرب المثل

جاءت جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤال أثاره الكلامُ السّابقُ في نفس المتلقّي عن السَّبب في ضرب الكفّارِ المثلَ بعيسى بن مريم لرسول اللّه ﷺ، فجاءت جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾؛ لتُبيِّن أنَّ غرضهم من ضربه هو إثارةُ الجدل واللَّجاجُ في الباطل، ومِن ثمَّ فُصِلت عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ أداة للنَّفي:

ليس للكفّار مِن وراء ضرب الأمثال أيُّ غرضٍ سوى الجدالِ والخصومة

آثر النَّظمُ الكريم النَّفي بـ ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾؛ لأنَّ من خصائصها نفيَ الجملة الاسميَّة والفعليَّة، كما أنَّها آكدُ في النَّفي من (ليس)، وأوسع استعمالًا منها؛ لأنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجملة الاسميَّة فحسب، ولأنَّ ﴿مَا﴾ هنا تفيد بمعناها ومبناها المختومِ بألف المدِّ نفيَ وجود أيِّ غرضٍ من ضرب الكفّار

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 260.

المثلَ بعيسى بنِ مريم سوى الجدل ومحاولة المحاجَّة والإفحامِ نفيًا واسعًا لا حدودَ له.

مرجعُ الضَّمائر في: ﴿ضَرَبُوهُ﴾:

ضميرُ الرَّفع (الواو) في ﴿ضَرَبُوهُ﴾ عائد إلى ابن الزِّبعرى وقومِه الَّذين أُعجبوا بكلامِه، وقالوا بموجبه، وضمير الغائب (الهاء) المنصوب يجوز أن يعود إلى المَثَل في قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾، والمعنى: ما ضربوا لك ذلك المَثَلَ إلّا جدلًا منهم، أي: محاجَّة وإفحامًا لك، وليسوا بمعتقدين هونَ أمرِ آلهتهم عندهم، ولا بطالبين المَيْز بين الحقِّ والباطل، فإنَّهم لا يعتقدون أنَّ عيسى خيرٌ من آلهتهم، ولكنَّهم أرادوا مجاراة النَّبيِّ في قوله؛ ليُفضوا إلى إلزامه بما أرادوه من المناقضة، ويجوز أن يكون الضَّمير المنصوب عائدًا إلى مصدر مأخوذ من فعل: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، أي: ما ضربوا ذلك القول، أي: ما قالوه إلّا جدلًا، فالضَّرب بمعنى الإيجاد[1].

دلالةُ اللّام في: ﴿لَكَ﴾، ومرجع الضَّمير فيه:

قصدُ الكفّار من ضرب الأمثال مغالطةُ الرَّسول وصرفُه عن دعوته

اللّامُ في قوله: ﴿لَكَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاص، وضميرُ الخطاب المجرور فيه يعود إلى النَّبيِّ ﷺ، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على أنَّ الحديثَ عن عيسى بن مريم ومقارنته بآلهتهم تمَّ استدعاؤُه وإثارتُه من أجل مجادلة الرَّسول ﷺ ومحاجَّته وإحراجِه، بإيهام أنَّ فيما جاء به نوعًا من التَّناقض وعدمِ الإحكام، بقصد صرف النّاس عن اتِّباعِه والإيمانِ به، كما سبق بيانه.

موقعُ ﴿جَدَلَۢا﴾ الإعرابيّ ودلالته:

حالُ الكفّار هو القصدُ إلى الجدالِ، وليس الرَّغبةَ في الإيمان

قوله: ﴿جَدَلَۢا﴾ يجوز أن ينتصبَ على المفعول لأجله، والمعنى: ما ضربوه لشيء إلّا للجدل، ويجوز أن يُنصب على الحال بتأويله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 239.

بمجادلين، أي: ما ضربوه في حال من أحوالهم إلّا في حال أنَّهم مجادلون لا مؤمنون بذلك(1).

بلاغةُ القصر بالنَّفي والاستثناء:

التَّأكيد الجازم والنَّفي القاطع لأن يكـون لـلـمـشـركـين غرض من ضرب المـثـل سـوى الجدل

في جملة: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَاۢ﴾ قَصرَ النَّظمُ الكريمُ ضربَ الكفّار المثلَ بعيسى عليه السلام على كونه جَدَلًا، قصْرَ موصوفٍ على صفةٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ طريقُه النَّفي والاستثناء، بغرض التَّأكيد الجازم والنَّفي القاطع لأن يكون للمشركين غرضٌ من ضرب هذا المثل سوى اللَّجاج والجدال بالباطل، وأنَّه ليس ثمَّة احتمالٌ لأن يريدوا من ورائه قولَ الحقِّ أو بيانَ الصَّواب؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما جاء به الرَّسولُ هو الحقُّ، وأنَّ ما يقولونه، ويجادلون فيه هو الباطل، ومِن ثَمَّ قصرَه النَّظمُ على الجَدَل بعد أن نفى عنه أيَّ صفةٍ أخرى نفيًا قاطعًا؛ "لأنَّ الكلامَ ما كان إلّا في أصنامِهم، ولأنَّ الخصوصَ في كلامهم شائعٌ، ولأنَّه عقَّبَ بما يبيّن الخصوصَ، ويزيل اللَّبسَ على تقدير تسليمه، فلم يقتدوا قطُّ بما ألزموا به أنَّه لازم"(2).

سرُّ فصلِ: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ عمّا قبلها:

تأكيدُ أنَّ الكفّار لا يـضـربـون الأمثالَ إلّا جدلًا وخُصومةً

جاءت جملة: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لكمال الاتِّصال، الَّذي تنزل فيه الجملةُ الثّانيةُ من الأولى منزلةَ التّابع من متبوعه، ومِن ثَمَّ تُفصل عنها، كما يُفصل التّابعُ عن المتبوع، فقولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ يعدُّ تقويةً وتأكيدًا "لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل، لا لطلب الحقِّ، ويُعدُّ كذلك إضرابًا عن مزاعمهم وعن مجاراتهم في خصومتهم"(3).

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

﴿بَلۡ﴾ في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ حرفُ إضرابٍ عبَّر به النَّظمُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 456.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 92.

لينتقل إلى بيان وصفِ الكفار الثّابت الدّائم الَّذي لا ينفكّون عنه في كلِّ أحوالهم، حتّى صار كالجبلَّة لهم، وهو أنَّهم "قومٌ يحبّون الخصامَ، ويظهرون من الحجج ما لا يعتقدونه؛ تمويهًا على عامَّتهم"[1].

الانـتـقـالُ إلى وصـفِ الـكـفّار الثّابتِ الّـذي لا يتغيَّر

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّمير ﴿هُمۡ﴾:

الـكـفّارُ الّـذيـن ضَـرَبـوا المثـلَ والّـذيـن ضجّوا بـالـصِّـيـاحِ والـضَّحِكِ قومٌ خصمون

عبَّر النَّظم عن الكفّار بالضَّمير في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظّاهر الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولِما يفيده البيانُ بالضَّمير هنا من استحضار المُسنَد إليه وتعيينه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: بل قومُك الَّذين ضربوا هذا المثل والَّذين ضجّوا بالصِّياح والضَّحك عند ضربه قومٌ خصمون.

دلالةُ تَكرار التَّعبير بـ: ﴿قَوۡمٌ﴾ منكَّرة:

الـكـفّـارُ لا يـوظِّـفـون قدرتَهم إلّا في القيام للباطل والخصومة مع الحقِّ

كان من الممكن أن يُقال: (بل هم خصمون)؛ اكتفاءً بالضَّمير العائد إلى لفظ ﴿قَوۡمُكَ﴾ السّابق ذكرُه في جملة: ﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾، لكنَّ البيانَ أعاد التَّعبيرَ به قائلًا: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ﴾؛ للتَّأكيد على ما منحهم اللّهُ من القوَّة الَّتي تجعلهم قادرين على القيام بما يحاولونه[2]، لكنَّهم لا يستعملونها إلّا في القيام للباطل والخصومة مع الحقِّ، وتنكير اللَّفظة لتحقيرهم أو لتعظيم خصومتهم للنَّبيِّ ﷺ ولدعوته.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿خَصِمُونَ﴾:

توجيهُ الرَّسول إلى الإعـراضِ عـن الـكـافـرين وعـدمِ الاكـتراث بأقوالهم

قولُه تعالى: ﴿خَصِمُونَ﴾ صفة لـ ﴿قَوۡمٌ﴾، عبَّر به النَّظمُ الكريمُ بصيغة المُبالغة؛ ليدلَّ على أنَّهم مبالغون في الخصومة، شديدو التَّمسُّك باللَّجاج وجدال الرَّسول مع وجود الحقِّ معه؛ لإظهار أنَّه ليس على حقٍّ[3]، وأوثر التَّعبير به اسمًا لما يمتاز به من إفادة الثُّبوت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 640.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 456.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 640، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 456، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.

والدَّوام الدّالِّ على أنَّ هؤلاء القوم صاروا كالمجبولين على اللَّجاج والخصومة من كثرة ما يقومون بها، وفيه توجيهٌ للرَّسول بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بأقوالهم، والمعنى: ذرهم - أيُّها الرَّسول الكريم - في باطلهم يعمهون، فإنَّهم قومٌ مجبولون على الخصومة في الحقِّ، واللَّجاج في الباطل[1].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الصَّدُّ والإعراضُ:

الصَّدُّ إعراضٌ ومنعٌ، أمّا الإعراضُ؛ فهو ميلٌ إلى الجانب وتلقٍّ بالعرض

الصَّدُّ هو: الإعراض والمَنْع عَن قصد شيء مخصوص، قالَ تَعالَى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يمنَعون النّاس عَن قَصده[2]، والإعراض: هو الانحراف بالوجه عن الشَّيء، واستقباله بالعَرْض[3]، كناية عن عدم الاهتمام به، والتَّعبير عن موقف المشركين من ضرب المثل بعيسى بلفظ ﴿يَصِدُّونَ﴾ الدّالِّ على الإعراض والمنع هو الأنسب؛ لأنَّهم لم يكتفوا بالإعراض، وإنَّما قاموا بالضَّحك والضَّجيج؛ إعجابًا بفعل ابن الزِّبعرى، ولصرفِ النّاس عن اتِّباع الرَّسول والإيمان به، وهو ما لا يقوم بتصويره فعل الإعراض؛ لو جاء التَّعبير به.

الخصومة والمجادَلة:

الخصومة تعني المنازعة، والجدال قد يكون لإثبات الحقِّ

الخصومة تعني: المُنازَعَة، والذَّكَرُ والأُنْثَى فيهِ سَواءٌ، وأصل المُخاصَمَة: أن يتعلَّق كلُّ واحد بخصم الآخر، أي: جانبه، وأن يجذب كلُّ واحد خصم الجوالق من جانب - كما سبق بيانه - أمّا الجدال؛ فهو أن تفتل الخصم عن مذهبه بحجَّة أو شُبْهة أو شغب، ويفتلك عن مذهبك بمثل ذلك، إلّا أنَّه يمكن أن يُستعمل في المناظرة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 92.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).

لإثبات الحقِّ وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وفي هذا دليل على أنَّ الجدال لإقامة الحجَّة حسنٌ، وأنَّه تقوم به الحجَّة، ولولا ذلك لم يجادل نوح عليه السلام[1]، ولمّا كان هدف مشركي مكَّة وقصدُهم إحراجَ رسول اللّه وصرفَ النّاس عن الإيمان به، والعملَ على إحراجِه وإيسافِه؛ كان التَّعبيرُ بقوله: ﴿خَصِمُونَ﴾ أدلَّ على حالهم، وأنسبَ لواقعهم، من لفظ الجدل، الَّذي يمكن أن يوهم أنَّهم على شيء من الحقِّ، ينافحون عنه.

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 167.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾

[الزخرف: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تقريرُ عبوديَّة عيسى لإظهار خطل مَن يعبدونه، والحرص على الاستدلال للحقِّ

بعد أن ذكرت الآيتان السّابقتان المَثَل الَّذي ضربه المشركون ومعهم ابنُ الزِّبعرى بالمسيح ابن مريم، والذي احتجَّ فيه بأنَّ النَّصارى يعبدونه من دون اللّه؛ ناسب أن يُردف ذلك بتقرير عبوديَّة عيسى؛ إظهارًا لخطل رأي الَّذين ادَّعوا إلهيَّته، وعبدوه، وهم النَّصارى حرصًا على الاستدلال للحقِّ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنْعَمْنَا﴾: (نعم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصَلاحٍ، مِنهُ النِّعمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تَعالَى عَلى عَبْدِهِ بِهِ مِن مالٍ وعَيْشٍ، والنِّعْمَةُ: الحالَةُ الحسنَةُ، والإنعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْرِ، ولا يقال إلّا إذا كان الموصَلُ إليه من جِنْسِ النّاطِقينَ، والنُّعْمَى نقيضُ البُؤْسَى، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾(2)، والمعنى: أنعَمْنا عليه بالنُّبوَّة والمعجزات وغير ذلك(3).

المَعْنى الإجْماليِّ:

عيسى عبدٌ من عباد الله أنعم عليه بالنُّبوَّة وأيَّده بالمعجزات وجعلَه مَثَلًا

ترفَعُ الآيةُ الكريمةُ مِن شأن عيسى عليه السلام وتُحَدِّد منزلتَه، وتنفي عنه غلوَّ المغالين، وإنقاصَ المُنقصين، فهي تقطع بأنَّه عبدٌ من عباد اللّه، أنعم عليه بنعمة النُّبوَّة، وجعل ذكرَه جديرًا بأن يسير سيرَ الأمثال لبني إسرائيل الَّذين أرسله إليهم؛ إذ خلقه من غير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (نعم).
(3) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 167.

أبٍ، وأيَّده بالمعجزات الباهرات، الَّتي منها: إبراءُ الأكمه والأبرص وإحياءُ الموتى بإذن اللّه ... وهذا كلُّه دليلٌ على وحدانيَّة اللّه تعالى، وكمال قدرته، ونفاذ إرادته(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ فصل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ عمّا قبلها:

جمع عيسى عليه السلام بين العبوديَّة والوحي

جاءت جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال الَّذي تُجيب فيه الجملةُ الثانيةُ عن سؤال يدور في ذهن المتلقّي عن حقيقة عيسى بن مريم بعد أن تحدَّثت الآياتُ السابقةُ عن ضرب المشركين المثل بعبادة النَّصارى له، فتأتي هذه الجملةُ؛ لتوضِّح أنَّه ليس إلهًا، وإنَّما هو عبدٌ أنعم اللّهُ تعالى عليه بالنُّبوَّة، وأيَّده بكثيرٍ من المعجزات، ومِن ثَمَّ فُصلت عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

وجهُ استعمالِ ﴿إِنْ﴾ أداةً للنَّفي:

تأسيسُ الكلام على تأكيد حقيقة عيسى عليه السلام

﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ حرفُ نفي، أوثر التَّعبيرُ به دون غيره من الحروف؛ لأنَّه يدلُّ على القوَّة والحسمِ وتأكيدِ النَّفي، ولتؤسس الآية على أسلوب الحصر والقصر بالجمع بين أداة النَّفي ﴿إِنْ﴾ وأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، والمعنى: ما هو إلّا عبد.

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

القطعُ بأنَّ عيسى بنَ مريم عبدٌ كسائر العبيد وليس إلهًا من دون الله

عبَّر النَّظمُ عن المسيح عليه السلام بالضَّمير في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظاهر الَّذي سبق ذكره بالضَّمير، ولِما يفيده البيانُ بالضَّمير هنا من استحضار المُسند إليه وتعيينه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: ما عيسى إلّا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه(2).

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 93.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 640، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 457.

بلاغةُ القصر بالنَّفي والاستثناء:

تأكيدُ ضلالِ النَّصارى، والحرصُ على الاستدلال للحقِّ

في جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ قَصرَ النَّظمُ الكريمُ المسيحَ ﷺ على كونه عبدًا لله، قصْرَ موصوفٍ على صفة بغرض القلب؛ وذلك للرَّدِّ على الَّذين زعموه إلهًا[1]، وأوثر النَّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لأنَّه يمتاز بالنَّفي القاطع لأن يكون عيسى بنُ مريم إلهًا، ويؤكِّد تأكيدًا جازمًا على أنَّه ليس إلّا عبدًا من عباد الله، اختصَّه اللهُ بالنُّبوَّة، وأيَّده بالمعجزات، فلم يدَّعِ الألوهيَّةَ، ولم يطلبْ من أحدٍ عبادتَه، ولكنَّ أتباعه هم الَّذين فعلوا ذلك، ومِن ثمَّ قَصَرَه النَّظمُ الكريمُ على صفةِ العبوديَّة بعد أن نفى عنه صفةَ الألوهيَّة الَّتي تضادُّها؛ تأكيدًا لضلال النَّصارى الَّذين ادَّعوا إلهيَّته، وعبدوه، وحرصًا على الاستدلال للحقِّ[2].

الغرضُ من كثرة المؤكِّدات في الجملة:

ترسيخُ عبوديَّةِ المسيحِ في أذهان مَن يعبدونه، ومَن يضربون به المثلَ وغيرِهم

جاء قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ مشتملًا على جملة من المؤكِّدات، وهي حرف النَّفي، والجملة الاسميَّة، وأسلوب القصر الَّذي يُقوِّي المعنى، ويُؤَكِّده من خلال النَّفي أوَّلًا والإثبات ثانيًا؛ تثبيتًا لمعنى عبوديَّة المسيح، وترسيخًا له في أذهان النّاس بصفة عامَّة، وأذهان مَن يعبدونه مِنَ النَّصارى، ومَن يضربون به المَثَلَ مِن كفّار مكَّة بصفةٍ خاصَّةٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإنعامِ مسندًا إلى ضمير العظَمة:

تفضيلُ عيسى ببعض النِّعم لا يعني كونَه إلهًا

قولُه: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ جملة في محل رفع صفة لـ ﴿عَبْدٌ﴾، عبَّر فيها النَّظمُ بفعل الإنعام؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى فُضِّل ببعض النِّعم، فليست له خصوصيَّةٌ مزية زائدة على بقيَّة الرُّسل، وليس تكوينُه بدون أبٍ دليلًا على أنَّه إلهٌ، ولكنَّه كان إرهاصًا لنبوَّته[3]، وجيء به

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 240.

مسندًا إلى ضمير الحقِّ بصيغة التَّعظيم تنويهًا بالنِّعمة ودلالةً على عظمةِ المُنعِم، وقدرتِه على كلِّ شيء، وجدارته بالأُلوهيَّة الَّتي أطلقها الضُّلّالُ على واحدٍ مِن عباده الَّذين تفضَّل سبحانه بالإنعام عليهم.

دلالةُ تعدية فعل الإنعام إلى الضَّمير بحرف الاستعلاء:

في تعدية فعل الإنعام إلى ضمير المسيح عليه السلام في قوله: ﴿أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى اختصَّه بنِعم لم يُنعِم على أحدٍ غيرِه بمثلِها، مثل ولادته من غير أبٍ، وكلامِه في المَهد، واختصاصِه بإبراء الأكمه والأبرص، وإقدارِه على إحياء الموتى بإذن اللّه، وغير ذلك ممّا لا يقدر على التَّوفيق إليه أحدٌ إلّا اللّه عز وجل[1]، وأوثر التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء؛ للدَّلالة على أنَّ تلك النِّعَم من النُّبوَّة وغيرها محضُ عطاءٍ تَنَزَّل من اللّه تعالى عليه، وليس له فيها أيُّ كسبٍ أو تأثير.

نِعَمُ اللهِ على عيسى محضُ فضلٍ أُنْزِل عليه، وليس له فيها أيُّ كسبٍ أو تأثير

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الجَعْل ماضيًا مُسندًا إلى ضمير العظَمة:

في التَّعبير بالفعل: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾ الدّالِّ هنا على الخلق والتَّصيير[2] مسندًا إلى ضمير العظمة دلالةٌ على ما في إيجاد المسيح وخلقِه من باهر القدرة، وعجيب الصُّنعة، وخرق العادة المألوفة في إيجاد النّاس وتكوينهم[3]؛ إذ خلقه اللّهُ من غير أبٍ، وأقدره على إبراء مَن لا سبيل إلى بُرئِهم، كما جعل في استطاعته إحياءَ الَّذين انتهت حياتُهم، وغير ذلك ممّا يجعل الحديث عنه جديرًا بأن يسير في النّاس بعامَّة، وفي بني إسرائيل بخاصَّة سير الأمثال الدّالَّة على قدرة اللّه على كلِّ شيء، والَّتي تدفعُ القلوبَ إلى الإيمان، وتُثيرُ النُّفوسَ إلى الإخبات والإذعان.

بيانُ ما في خلق المسيح من باهر القدرة، وعجيب الصُّنعة، وخرق العادة المألوفة

وفي التَّعبير بفعل الجعل ماضيًا دلالةٌ على أنَّ جعْلَ المسيح عِبرةً عجيبةً تسير في بني إسرائيل سير الأمثال أمرٌ قدَّره اللّه تعالى في الأزل؛ لعلمه أنَّ ذلك يعود عليهم بالخير والنَّفع، كما سيأتي بيانه.

جَعْلُ عيسى مثلًا وعِبرةً لبني إسرائيل أمرٌ قدَّره اللهُ في الأزل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 385.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 457.

الغرض من تنكير ﴿مَثَلًا﴾:

قدرُ اللهِ عجيبٌ، وفعلُهُ حكيمٌ

قولُه: ﴿مَثَلًا﴾ هو المفعول الثّاني للفعل (جَعَل)، أوثر التَّعبيرُ به نكرة مُنَوَّنًا؛ لما يفيده التَّنكير والتَّنوين من التَّعظيم والتَّفخيم معنًى وجرسًا، والمعنى: جعلناه أمرًا عجيبًا(1) بالغًا في الدَّهشة والعجب أن يسير سيرَ المثل، وأن يُضربَ به المثلُ.

نوعُ التَّشبيه في الآية وبلاغته:

المسيحُ مَثَلٌ عظيمٌ مستقلٌّ

في جملة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا﴾ شُبِّه المسيحُ بنُ مريم - من خلال ضمير الغائب المتَّصل بفعل الجَعْل - بالمَثَل تشبيهًا بليغًا من غير وجهٍ ولا أداة؛ إذ التَّقدير: صيَّرنا عيسى عجيبةً كالمثل السّائر(2)، وحذْفُ الأداة يؤذن بقوَّة التَّشبيه، ويدلُّ على أنَّ المسيحَ مَثَلٌ مستقلٌّ لتفرُّده فيما اختُصَّ به، وعدم الإنعام على أحد في عصره بمثل ما أنعم اللّه به عليه، وحذفُ الوجهِ يؤذن باتِّساع الجوانب الَّتي صار فيها عيسى بن مريم مثلًا لبني إسرائيل، فهو مَثَلٌ في عجيبة الخلق، ومَثَلٌ في الإيمان، ومَثَلٌ في الطِّبِّ، ومَثَلٌ في البرِّ، ومَثَلٌ في عمل الخير، ومَثَلٌ في غير ذلك ممّا يعلمُه بنو إسرائيل، ويعرفونه، والمعنى: "جعل أَمْرَهُ واضحًا جدًّا، بحيث إنَّه يُمَثَّل به، فيكون موضِّحًا لغيره، ولا يحتاج هو إلى مَثَلٍ يوضِّحُه عند مَن له أدنى بصيرة"(3).

نوعُ اللّامِ ودلالتها في: ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الغرضُ من بعْثِ المسيح في بني إسرائيل تجديدُ إيمانِهم وإعادةُ تشريفِ الله لهم

اللّام في قوله: ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاصَ، وهي تَعني: أنَّ اللّهَ تعالى خلق عيسى على نحوٍ عجيبٍ، وأيَّده بمعجزات لم يؤيِّد بها أحدًا غيره؛ ليكون مثلًا لبني إسرائيل على وجه الخصوص؛ "لأنَّهم كانوا قد ضعُف إيمانُهم بالغيب، وبَعُد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 457.
(2) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 14/ 166.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 458.

عهدُهم بإرسال الرُّسل، فبعثه اللّه مجدِّدًا للإيمان بينهم، ومُبَرهِنًا بمعجزاته على عظيم قدرة اللّه، ومعيدًا لتشريف اللّه بني إسرائيل؛ إذ جعل فيهم أنبياء؛ ليكون ذلك سببًا لقوَّة الإيمان فيهم، ومُظهِرًا لفضيلة أهل الفضل الَّذين آمنوا به، ولعناد الَّذين منعهم الدَّفعُ عن حرمتهم من الاعتراف بمعجزاته، فناصبوه العداء، وسعوا للتَّنكيل به وقتله، فعصمه اللّه منهم، ورفعه إليه من بينهم، فاهتدى به أقوام، وافتتن به آخرون.

المسيحُ رسولُ اللهِ إلى بني إسرائيل بخاصَّة وليس إلى أحدٍ غيرِهم

في قوله: ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةٌ أخرى إلى أنَّ عيسى لم يُبعث إلّا إليهم، وأنَّه لم يدعُ غيرَهم إلى اتِّباع دينه، ومَن اتَّبعوه من غير بني إسرائيل في عصور الكفر والشِّرك، فإنَّما تقلَّدوا دعوتَهُ؛ لأنَّها تنقذهم من ظلمات الشِّرك والوثنيَّة والتَّعطيل"[1].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

بنو إسرائيل واليهود:

بنو إسرائيل كلُّ أبناء يعقوب بما فيهم اليهود، واليهود هم الَّذين هادوا بعد الانحراف

بنو إسرائيل هم: كلُّ مَن جاء من نسل نبيِّ اللّه يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [مريم: 58]، أمّا اليهودُ؛ فهُم الَّذين هادوا إلى اللّه من بني إسرائيل، أي: رجعوا إليه بعد أن انحرفوا، فتابوا من ذلك، واتَّبعوا نبيَّ اللّه موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 156]، ولمّا كان المسيح عليه السلام رسولًا إلى بني إسرائيل بصفة عامَّة، وليس إلى اليهود وحدهم؛ ناسب التَّعبير بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 241.

﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ۝٦٠﴾

[الزخرف: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إبطالُ ألوهيَّةِ الملائكةِ وبنوَّتِها لله، كما سبق إبطالُ ألوهيَّةِ المسيحِ وبنوَّتِه لله

بعدما أشارت الآيةُ السّابقةُ إلى إبطال ضلالةِ الَّذين زعموا عيسى عليه السلام ابنًا لله تعالى، بقصره على كونه عبدًا لله، أنعم اللّه عليه بالرِّسالة، وجعله عِبرةً ومثلًا لبني إسرائيلَ؛ ناسب أن يُعَقِّبَ ذلك بإبطال ما يُماثل تلك الضَّلالة، وهي ضلالة بعض المشركين في ادِّعاء بنوَّةِ الملائكة لله، المُتقدِّم حكايتُها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾ [الزخرف: 15]، ببيان أنَّ الملائكة عبادٌ لله جعل مكانَهم العوالم العليا، وأنَّه لو شاء؛ لجعلهم من سكّانِ الأرض يخلفون النّاس، ويتوالدون مثلَهم[1].

شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ﴾: (ألك) أصلٌ واحدٌ، هو تَحَمُّلُ الرِّسالَةِ، فالألوكُ الرِّسالةُ، وهيَ المَألَكَةُ عَلى مَفعلَةٍ، وسُمِّيتِ الرِّسالةُ ألوكًا؛ لأنَّها تُؤْلَكُ في الفَم، مُشْتَقٌّ من قولِ العَرَبِ: الفَرَسُ يَألُكُ بِاللِّجام، ويَعْلُكُهُ؛ إذا مَضَغَ الحَديدَةَ[2]، وألِكْني إلى فلان: أبْلِغْه عنّي، والمَلَأكُ: المَلَكُ؛ لأنَّه يبلغ الرِّسالة عن الله تعالى، فحُذفت الهمزة، وأُلقيت حركتها على السّاكن قبلها، والجمع: ملائكة، جَمَعوه مُتَمَّمًا، وزادوا الهاءَ للتَّأنيث، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 31]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ [آل عمران: 80]، أمّا قوله عز وجل: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ [الحاقة: 17]؛ فقد عُنيَ به الجنس[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 241.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ألك).

2) ﴿يَخْلُفُونَ﴾: (خلف) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُها: أن يَجيءَ شَيءٌ بَعدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والخَلَفُ: ما جاءَ بَعدُ، يَقولونَ: هوَ خَلَفُ صِدْقٍ من أبيه، وخَلْفُ سَوءٍ من أبيه، فَإذا لَم يَذْكُروا صِدْقًا ولا سَوْءًا؛ قالوا لِلجَيِّد: خَلَفٌ، ولِلرَّدِيِّ: خَلْفٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169][1]، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا: قام بالأمر عنه، إمّا معه، وإمّا بعده، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾، أي: يخلفونكم مثل أولادكم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ تعالى قادرٌ على أن يأتيَ بما هو أعجبُ مِن خَلقِ المسيحِ

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ أنَّه لو يشاء اللّه؛ لجعل بدلكم - أيُّها المشركون - ملائكةً في الأرض يخلفونكم في عمارتها، فهو على كلِّ شيء قدير، ولو يشاء؛ لجعل منكم - يا رجال مكَّةَ - ملائكة مع أنَّها ليست من جنسكم كما خلق عيسى بلا أبٍ، ملائكة تخلفكم في عمارة الأرض، كما تخلفكم أولادكم؛ لتعلموا أنَّ اللّه هو القادر، ولتعلموا أنَّ الملائكة خلقٌ من خلْقِ اللّه، فكيف يعبدون؟ وبأيِّ شكل تقولون: إنَّهنَّ بنات اللّه؟![3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها في أوَّل الآية:

الخالقُ والمتصرِّف هو الحقيق بالعبادة وحده دون المخلوق

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ إذ الجملتان تأتيان في سياق بيان قدرة اللّه على الإتيان بعجائب الأمور وبدائع الفطر، فالجملةُ المعطوفُ عليها تبيِّنُ قدرةَ اللّه على إيجاد المسيح على نحوٍ عجيبٍ يجعله مثلًا سائرًا، والجملةُ المعطوفةُ تبيِّن قدرتَه تعالى على إنزال الملائكة من السَّماء لخلافة خلقهِ في الأرض، وتوالدهم كما يتوالد

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 52.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (خلف).
(3) الحجازي، التفسير الواضح: 3/ 402.

الخلق، ما يعني: أنَّ المسيحَ والملائكةَ من عباد اللّه ومخلوقاته، وليس أحدٌ منهم إلهًا على الإطلاق.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف الشَّرط (لَوْ):

إنــزالُ الملائكةِ إلى الأرض أمرٌ مرتبطٌ بإرادة اللّه، وليس مرتبطًا بأهواء النّاس

(لَوْ) في قوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾ حرفُ شرط يفيد تعليقَ حصول الجواب على حصول فعل الشَّرط[1]، وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنَّ إنزالَ الملائكة من السَّماء إلى الأرض، وجَعْلَهم يخلفون الخلقَ، كما يخلفهم أولادُهم، أمرٌ راجعٌ إلى إرادة اللّه ومشيئته، وليس مردُّه إلى رغباتِ النّاسِ وأهوائِهم، فمتى شاءه اللّهُ؛ حصل، ووقع، كما شاء خَلْقَ عيسى من أمٍّ بلا أبٍ، فَحَصَلَ، ووقع.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع فعلًا للشَّرط:

مشيئةُ الله لم تزل ممكنةً بأن يعوِّض للملائكة سُكنى الأرض

عبَّر النَّظمُ في جملةِ الشَّرط بالفعل المُضارع، فقال: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على دوام قدرة اللّه على تجديد الإبداع[2]، ما يعني: أنَّ مشيئَتَه لم تزل ممكنةً بأن يعوِّض للملائكة سُكنى الأرض[3]، وأنَّ هذا الأمرَ مِن الممكن أن يحدثَ في أيِّ وقتٍ.

دلالةُ التَّعبير بفعل الجَعْل مسندًا إلى ضمير العظَمة:

جَـعْـلُ الملائكةِ يخلفون النّاسَ في الأرضِ أمرٌ سهلٌ على اللهِ

في التَّعبير بالفعل: (جَعَلْنا) الدّال على الخلق والتَّصيير - كما سبق بيانه - مُسْنَدًا إلى ضمير العظمة دلالةٌ على ما في إنزال الملائكة إلى الأرض وجعْلِهم يخلفون النّاس من باهر القدرة، وعجيب الصُّنعة، والتَّفوُّق في الغرابة والدَّهشة على ما كان في خلق المسيح عليه السلام[4]، وفي إسناده إلى ضمير الحقِّ بصيغة التَّعظيم دلالةٌ على سهولته على اللّهِ عز وجل، وتأكيدٌ لارتباطِه بمشيئته، وخضوعِه لإرادته.

---

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 274.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 459.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 242.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 459.

معنى (مِنْ) في: ﴿مِنكُم﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿مِنكُم﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ هنا على البدليَّة والعِوَض كالَّتي في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التوبة: 38]، أي: بدل الآخرة، والمعنى: لجعلنا بدلكم ملائكة[1]، ويمكن أن تكون ابتدائيَّةً بمعنى: (جعْلًا مبتدئًا منكم، إمّا بالتَّوليد كما جعَلْنا عيسى عليه السلام من أنثى من غير ذكر، وجعَلْنا آدم عليه السلام من تراب من غير أنثى ولا ذكر).

تغييرُ الأمور وتقليبها من حال إلى حال بيد الله تعالى وحده

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنكُم﴾ على المفعول:

قولُه: ﴿مِنكُم﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بالفعل: ﴿لَجَعَلۡنَا﴾، وجيء به مقدَّمًا على المفعول ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾؛ للاهتمام بمعنى كون الملائكة بدلًا من الخلق وتأكيده، ولتتعمَّق أفهام السّامعين في تدبُّره[2].

تعميقُ أفهام السّامعين في تدبُّر كون الملائكة بدلًا من النّاس

وجهُ تنكيرِ المفعول ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ وجمعه:

جيء بمفعول فعل الجعل ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ نكرةً منوَّنًا للتَّعظيم والتَّكثير، ما يعني: أنَّه من غير المستبعد أن يحلَّ الملائكةُ محلَّ الخلق أجمعين، مهما بلغ عددُهم، ومهما كانت طاقاتُهم وإمكاناتُهم.

اللهُ تعالى قادرٌ على أن يُحِلَّ الملائكةَ محلَّ الخلق أجمعين

دلالةُ التَّعبير بالجارّ والمجرور: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قولُه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان بـ ﴿لَجَعَلۡنَا﴾ أو بـ﴿يَخۡلُفُونَ﴾، وفي التَّعبير به تأكيدٌ لكلا الفعلين، وزيادةٌ في التَّعجيب؛ إذ من المعروف أنَّ الملائكةَ من أهل السَّماء، ونزولُهم إلى الأرض ممّا يُطالِب به المشركون الرُّسلَ من باب التَّعجيز، لكنَّ البيانَ هنا يؤكِّد من خلال الجار والمجرور إمكانَ حصول هذا الأمر المعجز العجيب بكلِّ يسرٍ وسهولةٍ؛ متى أراده اللّهُ جلَّ في علاه.

تأكيدُ نزولِ الملائكةِ من السَّماءِ إلى الأرض متى أراده اللهُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 385، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 242.

الملائكةُ والمسيحُ كلاهما بعيدٌ عن رتبة الألوهيَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يَخۡلُفُونَ﴾ مضارعًا:

قولُه تعالى: ﴿يَخۡلُفُونَ﴾ جملة في محلِّ نصب صفة لـ ﴿مَّلَـٰٓئِكَةٗ﴾، أوثر التَّعبير به؛ ليكون بيانًا لقوله: ﴿مِنكُم﴾، ومعناه: يكونون خَلَفًا لكم شيئًا بعد شيء بعد إعدامكم، فجعلناهم مثلًا لكم، كما جعلنا عيسى عليه السلام مثلًا لبني إسرائيل، ويجوز أن يكون المعنى: لجعلنا بعضَكم ملائكةً بأن نُحَوِّل خِلقتَهم، فنجعلهم خَلَفًا لَمن تحوَّلوا عنهم، ونُخْلِف بعضَهم بعضًا، فإنَّهم من جملة عبادنا أجسامٌ تقبَل التَّوليد، كما تقبَل الإبداع، وعلى كلا التَّقديرين، فذلك إشارةٌ إلى أنَّ الملائكةَ ذواتٌ ممكنةٌ من جملة عبيد الله، يَصَرِّفُهُم في مراده إن شاء في السَّماء، وإن شاء في الأرض، لا شيء منهم إلّا وهو بعيد جدًّا عن رتبة الإلهيَّة؛ إرشادًا لهم إلى الاعتقاد الحقِّ في أمره سبحانه، بشمول قدرته وكمال علمِه اللّازمِ منه أنَّه لا إلهَ إلّا هوَ[1].

وأوثر التَّعبير بالفعل: ﴿يَخۡلُفُونَ﴾ مضارعًا؛ لاستحضار صورة الملائكة، وهي تسكنُ الأرض، وتتكاثرُ فيها، وتعمرُها، وتقوم بكلِّ الوظائف الَّتي كان يقوم بها الخلق، فيتأكَّد لدى المُغالين فيهم أنَّهم ليسوا آلهةً، وأنَّ شأنَهم شأنُ خلقِ اللهِ تعالى وعبيدِه، تمامًا بتمام.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 459، و460.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾

[الزّخرف: 61 - 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

من الافتراض إلى التَّحقيقِ الإنذارُ يصبح واقعًا

لمّا ذكر سبحانه في الآية السّابقة إمكان إعدامِ المشركين الَّذين قاسوا آلهتهم على عيسى ﵇ بالقياس الفاسد، واستبدالِهم بالملائكةِ خلفاءَ في الأرض مكانهم، وكان ذلك على سبيل الافتراضِ إنذارًا وزجرًا بسبب قياسهم الباطل في عيسى؛ ذكر هنا أنَّ إنزال عيسى ﵇ إلى الأرض آخر الزَّمان أمارةٌ على إعدام النّاس تحقيقًا لا افتراضًا، فجاء بالآية مؤكِّدًا لأجل إنكارهم[1]، وهذا على القول بأنَّ الكلام مازال مستمرًّا حول عيسى ﵇، وأنَّ الضَّمير في قوله: (إنَّه) عائد إليه.

ويحتمل أن تكون الآية انتقالًا إلى إثبات أنَّ القرآن حقٌّ، بعد أن أُشبع مقام إبطال إلهيَّة غير اللّه بدلائل الوحدانيَّة، ويكون الضَّمير في قوله: (إنَّه) عائدًا إلى القرآن، عطفًا على جملة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44]، ويكون ما بينهما مستطردات واعتراضًا اقتضته المناسبة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمۡتَرُنَّ﴾: المِريَة: هي التَّردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشَّكِّ، وأصله من: مَرَيْتُ النّاقةَ؛ إذا مسحتُ ضرعَها لِلحَلَب، والامتراء والمُماراة: المحاجَّة والجدال فيما فيه مِريَة وشكٌّ[3]، فهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 460.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 244.
(3) الراغب، المفردات: (مرى).

جدالٌ بسبب الشَّكِّ[1]، ومَرَى النّاقةَ يَمْريها: مَسَحَ ضَرْعَها، فَأَمَرَتْ هي: دَرَّ لَبَنُها، ومَرَى الشَّيءَ: استَخْرَجَهُ، والمِرْيَةُ بالكسر والضَّمِّ: الشَّكُّ، والجَدَلُ[2]، وقوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: لا تكذِّبوا بها، ولا تشكّوا فيها، وهاهنا وصل بالباء؛ لأنَّه بمعنى التَّكذيب، ومن شكَّ في شيء؛ فقد كذَّب به[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

حتميَّةُ القيامةِ تستوجِب الاستقامة على الصِّراط القويم

بيَّن سبحانه بعض ما يتعلَّق بعيسى ﷺ من خبَرِ الحقِّ ووعدِ الصِّدق، فجاء فيه بالفصل والحقيقة، لا كما ادّعى فيه المشركون بضربهم المَثَل به على معبوداتهم الباطلة، فقال سبحانه: وإنَّ عيسى ﷺ، لدليل على قُرب قيام السّاعة، وإنَّ القادر على إيجاده من أمٍّ بلا أبٍ، قادر على بعْثِ الموتى من قبورهم، أو إنَّ عيسى ﷺ، سينزل في آخر الزَّمان، ويكون نزوله علامةً من علامات السّاعة، ودليلًا على أنَّ نهاية الدُّنيا توشك أن تقع[4]، فلا تشكّوا أنَّ السّاعة واقعة، فإنَّ الشَّكَّ فيها كفر[5]، واتَّبعوني فيما جئتكم به من عند اللّه، هذا الَّذي جئتكم به هو الطَّريق المستقيم الَّذي لا اعوجاج فيه، ولا يصرفنَّكم الشَّيطان عن الصِّراط المستقيم بإغوائه وإغرائه، إنَّه لكم عدوٌّ بيِّن العداوة[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ ممّا قبلها:

القرآنُ ذِكْرٌ بإصلاح الحال، وعِلْمٌ بما يقع في المآل

جملة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ معطوفةٌ على جملة:

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرى).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (مرى).
(3) الواحدي، البسيط: 20/ 70.
(4) طنطاوي، الوسيط: 13/ 94، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 768.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 768.
(6) مركز تفسير، المختصر في التفسير، ص: 494.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44]، ويكون ما بينهما استطرادًا واعتراضًا اقتضته المناسبة، وهي التَّوسُّع في مقام إبطال إلهيَّة غير اللّٰه (فرعون، وآلهة المشركين، وعيسى ﵇) بدلائل الوحدانيَّة، فثنّى أنَّ القرآن هو عِلمٌ لوقوع السّاعة[1]، فكأنَّه قال: (هو ذِكْرٌ لك ولقومك بالإيمانِ والتَّكليف، وعِلْمٌ لكم بوقوع السّاعة)، فجمع لهم في القرآن وصفين: الذِّكْر في الحال والعِلم بالمآل وهو السّاعة، فكأنَّ القرآنَ العظيم جاءَ سبيلًا رابطًا ووسيلةً ممتدَّة بين العاجل والآجِل، فهو كالنِّسْبة الكائنة بين سعي الإنسان ومصيره، فإذا أخلَّ الإنسانُ بهذه النِّسبة بالمعصية والمخالفة أثناء سعيه، فقد جازف بعاقبته ومصيره، ولاقى ما لا يَسْعد به عند وقوع السّاعة، وهذا التَّوجيه في حال عود الضَّمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ على القرآن.

نـــزولُ عيسى ﵇ من كبريات علامات السّاعة

ويجوز أن يعودَ الضَّمير على أقرب مذكور، وهو عيسى ﵇، وعود الضَّمير عليه، يجعل جملة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: 59][2]، أي: وإنَّ عيسى ﵇ سببٌ ودليلٌ يُعلَمُ به وقوع السّاعة أو قُرب وقوعها، وهذا العلم حاصلٌ بميلاده، فإنَّ ولادته من غير أبٍ دليلٌ على إحياء الموتى والبعث أو برسالته، فإنَّ معجزته في إحياء الموتى على يديه بإذن اللّٰه دليلٌ على إمكان البعث والإعادة، أو بنزوله آخر الزَّمان، فإنَّ ذلك دليلٌ وعلامة من علامات السّاعة الكبرى[3].

نكتةُ حذفِ المضاف في: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾:

التَّعبيرُ بالذّات أشـمـلُ في اسـتـيـعـاب المتُعلّقات

لم يقل في السّياق الكريم: (نزوله علم للساعة)، أو (معجزة إحيائه الموتى علمٌ للساعة)، أو (ميلاده من غير أبٍ علمٌ للسّاعة)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 242.
(2) صافي الجدول: 13/ 100.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 82، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 343.

فجرى الكلام على حذف مضاف؛ للتَّوسُّع في المعنى وعدم حصر الدَّلالة، فلو قال القرآن: (نزوله علم للساعة)؛ لكان المعنى مقصورًا فقط على نزوله في آخر الزَّمان، وكان مجرَّد حدث يقع قبل السّاعة، ولو قال: (ميلاده علم للسّاعة)؛ لفُهِم أنَّ ولادته فقط هي العلامة، لكن عندما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، صار يشمل كلَّ ما يتعلَّق بعيسى عليه السلام، من ميلاده العجيب، ومعجزاته، ورفعه إلى السَّماء، ونزوله آخر الزَّمان، وكلُّ ذلك مرتبطٌ بالسّاعة، فاجتمع في ذلك الإيجازُ مع قوَّة الدَّلالة، فجاء بالضَّمير (إنّه)؛ ليكثِّف المعاني كلَّها في كلمة واحدة، فيبقى السّياق مفتوحًا؛ ليشمل كلَّ هذه الأبعاد، فيجعل (عيسى نفسه) عِلمًا للسّاعة، وليس فقط نزوله أو ميلاده، صار وجوده كلُّه مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بيقينِ وقوعِ السّاعة، وكأنَّ شخصه هو العلامة الكبرى.

نكتةُ تسمية العلامة أو الشَّرط عِلمًا:

العِلْمُ له قرائنُ وعلاماتٌ تُمَهِّدُ له

(عِلمُ السّاعة) في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ مجازٌ عن سبب العِلم، فهو عبارة عنِ العلامة والشَّرط الَّذي يكون دليلًا على ما يتحقَّق بعده[1]، فعبَّر عن سبب حصول العِلم (العلامة والدَّليل والشَّرط)، بمُسَبَّبه وهو العِلم للمبالغة[2]، ووجْهُ المبالغة: التَّأكيد على القطعيَّة: فالعِلم يعني إدراكًا يقينيًّا، في حين أنَّ العلامة قد تكون ظاهرة، لكنَّها غير قطعيَّة، ولذا عبَّر عنها بالمصدر؛ لنفي الاحتمال والظَّنِّ عنها؛ تنبيهًا على أنَّها ممّا لا يُتَرَدَّد فيه، وتسمية الدَّليلِ والعلامةِ عِلْمًا، مجازٌ مرسل، علاقته هي المسبَّبيَّة، أطلق المسبَّب، وأراد السَّبب.

(1) قباوة، المفصل في التفسير، ص: 1741.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 621، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 94.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ﴾:

تصويرُ العلمِ بالسّاعة مُتجسِّدًا في شخص عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

التَّعبيرُ بالمصدر يُجرِّد المعنى من الحدوث والزَّمن، فيزداد معنى التَّركيب ثباتًا وتحقيقًا، فيجعل عيسى نفسه هو (العِلْم)، وكأنَّه جزءٌ من معرفتنا بالسّاعة، فكأنَّ العلم بالسّاعة مُتجسِّدٌ في شخص عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فتسميةُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِلْمًا يدلُّ على كونه حقيقة اعتقاديَّة راسخة موجِبةً للعِلم واليقين في السّاعة، فهو علامة جوهريَّة فارقةٌ للسّاعة، كأنَّ ذاته تحوَّلتْ إلى معنى العلم بالسّاعة[1]، وكأنَّ حقيقة العِلم بالسّاعة لا تنفكُّ عن ذاتِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو من مكوِّناتها الَّتي لا تقع السّاعة إلّا بوجودها، فالإيمان به جزءٌ من الإيمان بالسّاعة.

كلامُ الله تعالى هو العلم الجامع للحقائق

وعلى اعتبار عود الضَّمير على القرآن، فقد أخبر عنه بالمصدر، بجعْلِه هو نفس العِلمِ بالسّاعة؛ مبالغةً في تقرير أنَّه لا يوجد مصدر صحيحٌ - على جهة اليقين الجازم تؤخَذُ منه أخبار السّاعة، وتتقرَّر به عقيدة البعث على جهة القطع والصَّواب الجازم - إلّا القرآنُ؛ لدرجةِ أنَّه كأنَّه هو حقيقةُ العِلم ذاتِه، وليس مصدرها حسب، كأنَّه لا يكون عِلْمٌ في هذا الباب أصلًا إلّا من طريق القرآن.

بلاغةُ العدولِ الاشتقاقيِّ إلى التَّعبير بالمصدر:

التَّعبيرُ بالمصدر يُنزِّل الشَّيء منزلةَ الحقيقة المطلقة

عدل في السّياق الكريم عن التَّعبير الاشتقاقيِّ أو التَّقدير الإضافي، فلم يقل: مُعلِم، أو علامة، أو ذو عِلْم، مع جواز تأويل المصدر بهذه التَّأويلات؛[2] "مبالغةً في كونه محصِّلًا للعِلم بالسّاعة؛ إذ لم يقاربْهُ في ذلك كتابٌ من كتب الأنبياء"[3]، وهذا على عود الضَّمير على القرآن.

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 190.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 243.

أمّا على عوده على عيسى عليه السلام؛ فيكون في إطلاق المصدر عليه مبالغة؛ لكونهِ حقيقة دالَّة على السّاعة، لا تقع السّاعة إلّا بنزوله.

بلاغةُ المجاز في إسناد (عِلم السّاعة) إلى الضَّمير في: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

الأنبياءُ والكتب المنزَّلة هم مصدر الحقيقة ومرجِع اليقين

في إسناد (عِلْم السّاعة) إلى الضَّمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ العائد على عيسى عليه السلام أو القرآن، مجازٌ عقليٌّ[1]؛ لأنَّ مَرجِع الضَّمير (القرآن أو عيسى) هو سبب العلم بوقوع السّاعة، وليس هو نفْس العلم بها، فالسَّببيَّة هي العلاقة المجازيَّة في هذا الإسناد، فالقرآن هو وسيلة العلم بوقوع السّاعة ومصدر ذلك العِلم، ونزول عيسى عليه السلام بيِّنةٌ قطعيَّةٌ يحصل بها ذلك العِلم أيضًا.

ويجوز أن تكونَ الجملة من المجاز المرسل ذي العلاقة المسبَّبيَّة؛ إذ أطلق المسبَّب، وهو العلم، وأراد السَّبب، وهو عيسى ومعجزاته، كقولك: (أمطرتِ السَّماءُ نباتًا)، أي: مطرًا يتسبَّب عنه النَّبات[2].

معنى اللّام في: ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾:

عيسى عليه السلام عِلمٌ مختصٌّ بالسّاعة وجزءٌ من هويَّتِها نفْسِها

اللّام في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ للاختصاص، أي: وإنَّ عيسى لَعِلمٌ مختصٌّ بالسّاعة، وكأنَّه يتعلَّق تعلُّقًا خاصًّا بالسّاعة دون غيرها، وهذا الاختصاص يفيد في تحديد العلاقة بين عيسى عليه السلام وقضيَّة السّاعة، بجعْلِه مصدرًا خاصًّا في معرفتها والعِلم بها.

ويصحُّ أن تكون اللّام للتَّعليل، أي: إنَّه لَعِلمٌ لأجل السّاعة، أي: إنَّ وجوده أو نزوله في آخر الزَّمان هو للتَّنبيه على قرب السّاعة، فلام التَّعليل تشير إلى الهدف من العلامة.

ويصحُّ أن تكون اللّام في: ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ لامَ المِلْك والاستحقاق، على معنى: (عِلمٌ تملِكه السّاعة)، أي: إنَّ هذا (العلم) هو من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 243.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 396.

خصائص السّاعة وأماراتها، فالسّاعة تملِك هذا الدَّليل القاطع ضِمْنَ مظاهرِها، وكأنَّ عيسى عليه السلام جزءٌ من هويَّةِ السّاعة نفْسِها.

ويصحُّ - على ضعفٍ - أن تكون اللّام بمعنى (على)(1)، أي: إنَّ عيسى - أو القرآن - لعلامة ودليل على وقوع السّاعة واقترابها.

تقديرُ المضاف في: ﴿لِّلسَّاعَةِ﴾ على وجهي الضَّمير في: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

الإيمانُ باليوم الآخر متلازِمٌ مع الإيمان بوقوع الوحي والرِّسالات

على اعتبار عود الضَّمير على القرآن، فالمضاف المقدَّر: الوقوع، أي: القرآن علمٌ لوقوع السّاعة، فقد جاء بأخبارها وبتقرير حتميَّتها، أو التَّقدير بالقُرب: القرآن عِلْمٌ لِقربِ السّاعة، فقد أخبر بقُربها في نحو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1](2)، ووجْهُ كونِ القرآنِ علامةً على القُرب: أنَّه "جاء بالدّين الخاتم للشَّرائع، فلم يبقَ بعد مجيء القرآن إلّا انتظار انتهاء العالم، وهذا معنى ما روي من قول الرَّسول صلى الله عليه وسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين»"(3).

وعلى اعتبار عود الضَّمير على عيسى عليه السلام، فالتَّقدير بالقرب أو الوقوع أيضًا، أي: عيسى عليه السلام علامةٌ بنزوله آخر الزَّمان على قُرب قيام السّاعة؛ لأنَّ في نزوله إرهاصًا بإعدام الخلائق كلِّهم بالموت، وهذه علامة الاقتراب، وعلى تقدير الوقوع، أي: عيسى عليه السلام في براهين نبوَّته، مِن أنَّه كان يُحيي الموتى، وكذا إبراؤه الأسقام علامةٌ واضحة؛ للقطع بوقوع السّاعة الَّتي هي القيامة، فهو عليه السلام سببٌ للعلم بالأمرين: عموم إعدام الخلائق، وعموم قيامهم(4).

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 94.

(2) الدر المصون، السمين الحلبي: 9/ 603.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 243، والحديث متّفقٌ عليه، يُنظر: البخاري: (6504)، ومسلم: (2951).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 460.

موقع ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾:

حضور العلامات والقرائن من موجبات الإيمان والتّسليم

جملة: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ تفريعيَّة على الجملة قبلها، أو فصيحة عاطفةٌ مدخولَها على شرطٍ مقدَّر، أي: فإن كان ذلك كذلك من ثبوت عيسى عليه السلام، أو القرآن عِلمًا لوقوع السّاعة، فلا تمترنَّ بها، وهذه الفاء معناها السَّببيَّة، أي: الجملة المؤكِّدة في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ سببٌ في النَّهي بعدها في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾؛ لأنَّ القرآن أو عيسى عليه السلام "لم يُبْقِ لأحدٍ مِريَة في أنَّ البعث واقع"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالامتراء:

الامتراءُ لا يقع على وجهٍ محمودٍ أبدًا

لم يقل في السّياق الكريم: (فلا تشكّوا)، أو (لا تجادلوا)، بل قال: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾، من المِراء والمُمارة والامتراء؛ لأنَّ الامتراء هو الشَّكُّ المصحوب بالجدال، فهو (شكٌّ جدليٌّ)[2]، يُمارَس على الرَّغم من وضوح الأدلَّة، نابعٌ من العناد لا من الجهل، ولذلك لم يعبِّر بالشَّكِّ وحده؛ لأنَّ الشَّكَّ قد يكون عن نقصٍ في المعرفة، ولم يعبِّر بالجدال وحده؛ لأنَّ الجدال قد يصدر عن الحجَّةِ والبرهان واليقين، فيقع على نحوٍ محمود[3]، لكنَّه هنا جدالٌ على غير أساسٍ وعلى غير يقين، ولذا عبَّر عن تلك الحال المضطربة المختلطة من الشَّكِّ والجدل بالامتراء.

دلالةُ دخول نون التَّوكيد على الفعل:

سياقات النَّهي عن محظورات الاعتقاد يناسبها التَّوكيد والتَّشديد في أسلوب الخطاب

اقترن الفعلُ المنهيُّ عنه بنون التَّوكيد: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾؛ لتأكيد النَّهي وصَبْغِه بالقوَّة والحزم، والإشعار بأنَّ مضمون النَّهي أمرٌ بالغ الأهمّيَّة لا تساهل فيه، كأنَّه قال: (لا مكان للمِراء في هذه الحقيقة الكبرى)، وهذا التَّوكيد فيه إشارة؛ لضرورة إنهاء حالة الجدل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 243.

(2) الراغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مرى).

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (جدل).

العِناديِّ والشَّكِّ الهوائيِّ، وهذه الحالة لا تقوم على أصل ولا برهان، وهذا التَّوكيد مِن مَنتوجِ التَّوكيد في السّياق قبله، فبعد أن أكَّد اللّهُ أنَّ عيسى عليه السلام (عِلمٌ للسّاعة)، بأكثر من مؤكِّد، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ جاء النَّهي: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ مباشرةً، فجاء بالدَّليل مؤكَّدًا، ثمَّ نهى عن الامتراء فيه؛ لأنَّ الامتراء بعد وضوح الدَّليل عَيْنُ السَّفه، ومحض العِناد.

دلالةُ صيغةِ بناء الفعل على صيغة (افتعل):

التَّكلُّف خروجٌ مُتصاعِد عن حدِّ الاعتدال

جاء الفعل ﴿تَمْتَرُنَّ﴾ على صيغة (الافتعال - افتعل)؛ للدَّلالة على التَّكلُّف والمبالغة في الإتيان بالفعل؛ لأنَّهم إن صدر منهم جدال وتردُّد بعد ثبوت الحقيقة ومجيء البرهان؛ فهو حينئذٍ شكٌّ متكلَّف وجدالٌ مُتَصَنَّع؛ لأنَّه لا عن غموضٍ في البيان أو افتقارٍ للحُجَّة، بل عن عِنادٍ واستكبار.

ويدلُّ أيضًا على المبالغة في الفعل؛ لأنَّ المِراء في الواضحات البيِّنات يحتاج إلى مُبالغةٍ في إتيانه؛ فكلُّ ما يجيء على تكلُّف يحتاج في فِعلِه وصدوره إلى وازِعٍ من الجُهْدِ والمبالغة.

ويصحُّ توجيه المبالغة في حيِّز النَّهي، كأنَّه نهاهم عن الامتراء بحذافيره، من أدناه إلى أعلاه، فيقع الانتهاء عن الفعل ببالِغ الوجوه وأتمِّها، كأنَّه قيل: "لا تشكّوا أدنى شكٍّ، وتضطربوا أدنى اضطراب، وتجحدوا أدنى جحد، وتجادلوا أدنى جدل"[1].

قـوَّةُ الانفعالِ قـوَّةٌ متدرِّجة مُقاوِمَة

ويدلُّ بناء (افتعل) أيضًا على التَّدرُّج في الانفعال، بما يصوِّر التَّصاعد النَّفسي المتدرِّج للمقاومة الدّاخليَّة ضدَّ قضيَّة السّاعة وحقيقة اليوم الآخر، فكلُّ مُجادِلٍ مُرتاب تتعارك نفسُه مع الفِكرة والقضيَّة الَّتي يمتري فيها، وتلك الحالة الانفعاليَّة لا تنشأ دفعةً واحدة، بل تتدرَّج في النَّفس، وتتصاعد حتّى تتمكَّن، وتتمحَّض.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 461.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

يُخاطَبُ بالنَّهي المتلبِّسُ علاجًا له، والبريءُ وقايةً له

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة في النَّهي الوارد في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾؛ لأنَّ النَّهي طلبُ التَّرك في شيءٍ له صفة الاستمرار؛ لأنَّ النَّهي لا يتوجَّه إلّا إلى ما هو استقباليٌّ ساعةَ صدوره إلى المُخاطَبِ به، مع ما في الفعل بهذه الصّيغة من الإشارة إلى استمرار عنادهم وتوقُّعِ جدالهم وشكِّهم، ولذا صحَّ خطابهم بالنَّهي؛ لتوقُّع ملابستهم للمنهيِّ عنه.

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

جنابُ العقيدة كالثَّوب الأبيض أدنى مُلابسةٍ تؤثِّر فيه

الباء في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ سببيَّة[1]، أي: لا يقع منكم امتراءٌ بسبب استبعادِكم لقيام السّاعة، فقد جاء أشراطُها، وتحقَّق وعْدُها، وعدّي الامتراء بالباء، وهو ممّا يُعدّى بـ(في)؛ لتضمينه معنى التَّكذيب، وهو ممّا يُعدّى بالباء، فيقال: (كذَّب بكذا)، أو يجوز حمْل الباء على معنى (في) الظَّرفيَّة من غير تضمين الفعل[2]، وفي التَّعدية بالباء هنا دون (في) مناسبةٌ بديعة مع التَّوكيدات في التَّركيب، وهو أنَّ معنى الإلصاق والملابسة لا يكادان ينفكّان عن الباء، فالقصد بالتَّعدية بها دون (في) ألّا يقع منهم امتراءٌ بأدنى ملابسة، فيتجرَّد اعتقادهم في البعث والسّاعة عن ملاصقة الشَّكِّ، ولو بأدنى وجه، وأمّا (في)؛ فتدلُّ على المُداخلَة والتَّعمُّق في مستوى الامتراء، فيكون إيثارُ الباء أولى وأبلغ؛ لتنزيه جنابِ الاعتقاد عن جناية الامتراء، ولو بأدنى كيفيَّةٍ له، وفي أدنى تعلُّقٍ له بحرَمِ الإيمان واليقين.

دلالةُ صيغة (افتعل) في: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾:

اتِّباعُ منهج الله يحتاجُ إلى عزمٍ وإتقان

التَّضعيفُ في فِعل الأمر (اتَّبِعْ) في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾؛ لتنبيه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 461.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 244.

المُخاطَب إلى إتقان الاتِّباع والإحسان فيه، فيمتثِل الأمر على أتمِّ وجوه الاجتهاد والعناية في إتيانه وتحصيله[1].

نكتةُ عطْفِ الأمر على النَّهي في: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾:

تقديمُ التَّخلية على التَّحلية

عطف الأمر بالاتِّباع في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ على النَّهي في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾، هو من باب الانتقال من نفي الباطل إلى إثبات الحقِّ، بدءًا بالتَّخلية قبل التَّحلية، وهو من عادات القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 256].

تصحيحُ الفِكْرِ والاعتقاد تمهيدٌ لاستقامة السُّلوك

وقدَّم النَّهي عن الامتراء، على الأمر بالاتِّباع؛ تقديمًا لباب الاعتقاد على باب السُّلوك، وما هو ألصق بأعمال القلوب والباطن، على ما هو أقرب لحال الظّاهر.

حالُ الحياد بين الشَّكِّ والإيمان غير مقبولةٍ في أصول الاعتقاد

ولم يقتصر على النَّهي ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾ دون الأمر ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾؛ لأنَّ نفي الامتراء بالانتهاء عنه لا يُثبِتُ لزوم الصِّراط المستقيم، فقد ينتفي الشَّكُّ والجدال عن غير مؤمنٍ بلا شيء، فجمع بين النَّهي والأمر؛ للإشارة إلى أنَّ حال الحياد بين الشَّكِّ والإيمان غير مقبولة.

وفي إتباع النَّهي عن الامتراء بالأمر بالاتِّباع تقريرٌ للسُّلطة الإلهيَّة والنَّبويَّة في تعيين مرجِع الهداية والإيمان، وأنَّ ذلك مُقيَّدٌ باتِّباع اللّهِ في وحيِه وحُكْمِه، واتِّباع رسوله في بلاغه وتشريعه.

موقعُ: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ ممّا قبلها:

مَن ضيَّع الأوامر والنَّواهي، فقد ضيَّع الصِّراط المستقيم

قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ جملة استئنافيَّة بيانيَّة، كأنَّ سائلًا سأل عن كُنْهِ النَّهي والأمر الوارِدَيْن، فأجيب: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، أو الجملة تعليليَّة للطَّلبِ من النَّهي والأمر في قوله: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ﴾، فعلَّل النَّهي والأمر بما يُحفِّز على امتثالهما، والمعنى أنَّ ذلك التَّكليف - بعدم الامتراء، وباتباع ما جاء به النَّبيُّ - هو الصِّراط المستقيم الَّذي تكون به نجاة العبد.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 17/ 461.

دلالةُ التَّنبيه والإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾:

لزومُ الصِّراط المستقيم ينتفع به العبد وحده، والله غَنِيٌّ عنه

الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ تعود على ما سبق ذكره من النَّهي والأمر في قوله: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ﴾، فأشار إلى أنَّ الامتثال لذلك هو الصِّراط المستقيم، كأنَّه قيل: هذا الَّذي أدعوكم إليه - من عدم المِراء والاتِّباع - هو الصِّراط المستقيم.

ويجوز أن تكون الإشارة للقرآن المتقدِّم ذكره في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أو إلى ما هو حاضر في الأذهان ممّا نزل من القرآن، أو الإشارة إلى دين الإسلام المعلوم من المقام، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: 153][1].

لا ضمانة إلّا مع الله ولا أمان إلّا في سبيله

والإشارة هنا أعطتِ المعنى درجةً عُليا من التَّوكيد والتَّنبيه إليه، وكأنَّ الصِّراط المستقيم بمثابةِ طريقٍ يُشار إليه مباشرةً؛ ليُصبح محسوسًا في ذهن المتلقّي، فاسم الإشارة نزَّلَ المعنى المعقول منزلة المشاهد المحسوس، فميَّز الهداية والإيمان (الصِّراط المستقيم) أكمل تمييز بالإشارة المحسوسة إليه[2]، وفائدة ذلك: تعزيز اليقين بحكم الله سبحانه، وأنَّه لا سبيلَ حقيقيًّا معصومٌ إلّا سبيله، وتحفيز المخاطَب وتنبيهه إلى أهمّيَّة ما يُشار إليه؛ لِيَنهضَ، ويَجِدَّ فيما خوطِب به من الإيمان والاتِّباع، كأنَّ الآية تقول له: لا مجال للجدال أو الشَّكِّ، فالطَّريق المستقيم أمامك جليٌّ واضح، فاسلكْهُ، ولا تتخلَّف عنه.

الحقُّ قريبٌ من القلوب، لا غموض فيه ولا تعقيد

بيان حال المُشار إليه في القُرب[3]، فالإشارة تصوِّر الصِّراط المستقيم بصورة الشَّيء القريب واضح المعالم، لا لبْس ولا غموض، لِقربه من النّاظر إليه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ قريبٌ من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 244.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 88.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 88.

القلوب، لا غموض فيه ولا تعقيد، فالصِّراط المستقيم واضحٌ ودانٍ لمن أراد الهداية، واستجهز نفسَه لِسلوكه والسَّعي فيه.

تعظيمُ المشار إليه والموصوف بالصِّراط المستقيم، فالإشارةُ بأداة القريب يُراد بها استحضار عظمة المشار إليه أمام القلوب والعيون[1].

تعظيم الصِّراط المستقيم من دواعي الاستقامة عليه

نكتةُ التَّعبير بلفظ (السّاعة):

اختيارُ لفظِ السّاعة على غيره في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾، فلم يقل: (يوم القيامة)، أو (اليوم الآخر)؛ لأنَّ لفظ (السّاعة) يحمل معه عنصر المفاجأة والبغتة، ولذا كثُرَ اقترن هذا المعنى بالسّاعة، كما في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: 31]، ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: 187]، ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ [يوسف: 107]، إذًا ذِكر (السّاعة) يُركِّز على البُعد الصّادم والمفاجئَ الَّذي يُبقي الإنسان في حالة استعداد دائم، كأنَّ الآية تقول للمخاطَب: (انتبه، ليس الكلام عن قضيَّة مؤجَّلة أو بعيدة، بل قد تأتيك في أيِّ لحظة)، بخلاف التَّعبير بيوم القيامة أو اليوم الآخر، فيُشعِر بيوم له مراحل وأحداث.

تحقيقُ الصَّدمة الوجدانيَّة للغافلين في سياق التَّهديد

موقعُ: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ ممّا قبلها:

جملةُ: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾، كأنَّه قال: اتَّبِعوا الحقَّ الَّذي أرشدتكم إليه، ولا يصرفنَّكم الشَّيطان عن اتِّباعي[2].

بيانُ الحقِّ لا يتمُّ إلّا بالتَّحذير من سبيل الشَّرِّ والغيِّ

نكتةُ تعقيب النَّهي في: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ للأمر في: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾:

إتْباع النَّهي الأمر بمجيء قوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، هو من باب الأمر بالشَّيء، ثمَّ النَّهي عن ضدِّه، فكأنَّه قيل: (اتَّبعوا صراطي المستقيم، ولا تتَّبعوا

الجمعُ بين الأمر بالشَّيء والنَّهي عن ضدِّه لتأكيد المعنى

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 89.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 53.

صراط الشَّيطان)، وهذا من تعليم أبواب الشَّرِّ بعد معرفة الخير؛ ليحترزوا من الشَّرِّ ومزالقه وفِخاخه.

وجهُ استعمالِ: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ دلالةً وصيغة:

الشَّيطان عدوٌّ غويٌّ مبينٌ

استعمالُ لفظ الصَّدِّ مقترنًا بنون التَّوكيد: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾؛ لتغليظ النَّهي وتوكيده، واصطفاء الصَّدِّ دون غيره، ينطوي على دلالاتٍ عديدة:

منها: الدَّلالة على القطع والمنع الشَّديد[1]، فالشَّيطان لا يقتصر على التَّزيين والإغراء والوسوسة، بل له عزمٌ وبأسٌ في إضلال النّاس بحيث يقصِد إلى منعهم عن الصِّراط المستقيم بالحوائل القويَّة والصَّوارف الشَّديدة، وكأنَّ التَّعبير بالصَّدِّ يصِفُ عزائم الشَّيطان في عدواته لبني آدم وتصميمه على إضلالهم.

التَّعبيرُ بالصَّدِّ في: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ الهداية هي الأصل، وهي الباب الأيسر الأخفُّ[2]، وإنَّ الانحراف عنها يحتاج إلى (صدٍّ) متعمَّد.

الإخـــلاصُ والتَّيقُّظ هما عُدَّةُ ابن آدم في وجه إبليس

والتَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾؛ للدَّلالة على استمرار الصَّدِّ، الَّذي يستوجب استمرار النَّهي، وفي المضارعة تنبيهٌ على أنَّ الشَّيطان لا يُحبَطُ بمحاولةٍ واحدة، ولا يتوقَّف عن الصَّدِّ بمجرَّد معصية الإنسان له، بل هو في حالة صدٍّ مستمِرٍّ، ممّا يوجِب على الإنسان تيقُّظًا دائمًا من مكايده، وإخلاصًا للّه في أيِّ عمل يقوم به.

بلاغةُ توكيدِ فعل الصَّدِّ بالنّون:

استمرَّ التَّحذير ترسيخًا للنَّهي عن الصَّدِّ

ويناسب الاستمرارَ الَّذي أدّاه الفعل المضارع التَّوكيدُ بنون التَّوكيد؛ "لأنَّ نون التَّوكيد إنَّما تدخل في الأكثر؛ لتفرِّق بين فعل

(1) ابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (صدد).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 461.

الحال والفعل المستقبل، فهي تلزم المستقبل في الأكثر "[1]، ثمَّ إنَّ نون التَّوكيد تناسب الموضع الَّذي يليق به توكيد الأمر، وتقريره، وإثباته على أقوى الوجوه، وأفاد هنا شدَّ النَّهي عن مكائد الشَّيطان.

موقع ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ممّا قبلها:

لا عقل لِمن يأمَنُ عـدوًّا ظـاهِـرَ العداوة

جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليليَّة[2] لجملة النَّهي قبلها: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ﴾، أي: ذلك النَّهي عن الصَّدِّ؛ لأنَّه عدوٌّ لكم، وشأن العاقل أن يحترز من العداوات، لا سيَّما من ظهرت عداوتُه بالصَّدِّ، وحرف (إنَّ) هنا موقعه موقع فاء التَّسبُّب في إفادة التَّعليل[3].

دلالةُ التَّوكيد بـ(إنَّ) في: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾:

السُّلوك يكشف حقيقة الاعتقاد

التَّوكيد بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّ أفعال التّابعين للشَّيطان هي أفعال من يُنكِر عداوته[4]، فأفعال كثير من النّاس تَشِي، وكأنَّهم ينكرون، أو يغفلون عن عداوته، برغم إقرارهم العقليِّ أو اللَّفظيِّ بها، فالإنسان قد يعلم نظريًّا أنَّ الشَّيطان عدوٌّ، لكنَّه يتصرَّف في الواقع، وكأنَّه صديق له، يستجيب لوساوسه، وينقاد لغوايته، ويتَّبع خطواته، وهذا التَّناقض بين (العلم) و(السُّلوك) يجعل التَّوكيد ضروريًّا، كأنَّه يقول لهم: (إنْ نسيتم، أو غفلتم، أو تصرَّفتم بما يوحِي أنَّكم لا تدركون عداوته؛ فاعلموا يقينًا: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾)، فالتَّوكيد هنا يُلمِح إلى أنَّ السُّلوك يكشِف حقيقةَ الاعتقاد، فليس كلُّ مَن قال بلسانه: (أنا أعلم أنَّ الشَّيطان عدوٌّ)، يكون مؤمنًا بذلك إيمانًا حقيقيًّا، بل إذا لم يُعادِ الشَّيطان بأفعاله وسلوكه؛ فهو معدودٌ في جملةِ المنكرين لعداوته.

التَّوكيد يُعزِّز البناءَ التَّحذيري في حركة السّياق

التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يتَّسق مع الإيقاع

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 402.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 100.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 245.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 462.

التَّوكيدي المطَّرد في النَّظم، فقد أكَّد النَّهي، وغلَّظه بتوكيد الفعل في قوله: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ﴾، فجاء تعليلُ ذلك النَّهي مؤكَّدًا كذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ ليتكامل البناء التَّحذيريُّ في الآية من خطر الشَّيطان؛ لِتَثْبُتَ تلك الحقيقةُ في النَّفْس الإنسانيَّة ثبوتًا مركزيًّا وجادًّا، تتقوّى به مناعةُ الإنسان أمام لحظاتِ ضعفِه، فلا تستحكم فيه الغفلة، ولا تستفزُّهُ نزغاتُ الشَّيطان، ولا يتساهل في وارِداتِ تزيينه ومكيدته.

عداوةُ الشَّيطان للإنسان دائمةٌ، وثابتة، ومؤكَّدة

دلالةُ اسميَّة الجملة في: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾:

التَّعبير بالاسميَّة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، ولم يقل: (يعاديكم)؛ لتحقيق الجانب الوجودي الثَّابت في عداوة الشَّيطان للإنسان، فهو عدوٌّ للإنسان منذ أن وُجِد، وسيظلُّ عدوًّا له حتّى آخر لحظةٍ من وجوده على الأرض.

عداوةُ الشَّيطان تختصُّ بالأفراد وتستغرقهم شخصًا شخصًا

فائدةُ لفظ ﴿لَكُمۡ﴾ مقدَّمًا:

عداوةُ الشَّيطان شخصيَّةٌ تخصُّ أفراد المخاطَبين شخصًا شخصًا؛ ولتأكيد ذلك جاء بلام الاختصاص وضمير الخطاب، وقدَّمهما على اسم (إنّ)، فلم يقل: (إنَّه عدوٌّ لكم)، فأفاد بتقديم شبه الجملة تخصيص عداوته بالمخاطَبين، كأنَّه قيل: عداوته موجَّهةٌ إليكم أنتم خاصَّة، فهو لم يستثنِ أحدًا منكم خارج دائرة العداوة.

لا عذرَ لمن والى الشَّيطان وعادى المَلِك الرَّحمن

نكتةُ وصف لفظ ﴿عَدُوّٞ﴾ بأنَّه ﴿مُّبِينٞ﴾:

وصف ﴿عَدُوّٞ﴾ بقوله: ﴿مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عداوته ظاهرة[1]، لا تحتاج إلى برهان، كأنَّ في هذا الوصف قطعًا لأعذار مَنِ اتَّبعه، فلا عذرَ بالجهل لمن أطاع الشَّيطان؛ لأنَّ عداوته جليَّة واضحة لا إمكانَ لخفائها، فهي عداوةٌ قطعيَّة لا جدال فيها، وظاهرة لا لَبْس

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 635، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 768.

معها، ولا احتمالَ يشوبها، ومن بلاغة صيغة (فعيل) هنا جريانها بمعنى الفاعل على اللُّزوم، ومعنى المفعول على التَّعدّي، فالشَّيطان ظاهر العداوة في نفسه من أبان اللّازم، ومُظهِرها لغيره من أبان المتعدّي، فقد أقسم بإغواء العباد أجمعين[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 95.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾ [الزخرف: 63 - 64]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

إنعامُ الله على عيسى عليه السلام بكونه مَثَلًا على القدرة، وعلامةً على السّاعة، هو امتحانٌ للنّاس فيه

لمّا ذكر سبحانه في السّياق السّابق أنَّه أنعم على عيسى عليه السلام، وجعله مثلًا لبني إسرائيل، ولوَّح إلى اختلافهم، وأنَّ بعضهم نزَّل المَثَلَ به على غير مَنزِله، وحذَّر مَن اقتدى بهم في نحو ذلك الضَّلال، وأمَر باتِّباع الهادي، ونهى عن اتِّباع المُضِلِّ؛ صرَّح هنا أنَّه ما هو إلّا عبدٌ رسول، أنعم اللّه عليه بالوحي، فجاء بني إسرائيل بالبيِّنات والحكمة، بعد أن أبرزه اللّه لهم مَثَلًا على قدرة اللّه، الَّتي تخرِق نظام المادّيّات المعهودة، وذلك بحالِه العجيبة في ميلاده، ثمَّ ذكر حالهم هم معه من التَّحزُّب والاختلاف فيه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

الطريق المستقيم واحد لا يتعدَّد، فهو موضوع الرِّسالات جميعًا وغايتها

أخبر سبحانه في هاتين الآيتين ما قاله عيسى عليه السلام لقومه، عندما بعثه اللّه إليهم، فقال لهم على سبيل النُّصح والإرشاد وأداء البلاغ: يا قوم لقد جئتكم بالمعجزات البيِّنات الواضحة الَّتي تشهد بصدق نبوَّتي، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات، وجئتكم بالعِلم والنُّبوَّة والإنجيل المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهيَّة من تشريعات وتكليفات وأدبيّات ومواعظ، وأنا قد جئتكم بالحكمة؛ لأعلِّمَكم ما ينبغي على الوجه الَّذي ينبغي، وجئتكم أيضًا؛ لأبيِّن لكم، ولأصحِّح لكم بعض الَّذي تختلفون فيه من أمر الدِّين وتشريعاته، فبيَّنت لكم صوابَه وجوابه، فيزول عنكم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 462.

بذلك اللَّبس، فجاء ﷺ مكمِّلًا ومتمِّمًا لشريعة موسى ﷺ، ولأحكام التَّوراة، وأتى ببعض التَّسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به[1]، فإذا وصلكم ذلك، وتمَّ بلاغُه لكم؛ فاتَّقوا اللّه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأطيعوني فيما آمركم به، وأنهاكم عنه؛ وذلك لِأنَّ اللّه هو ربّي وربُّكم، لا ربَّ لنا غيره، فأخلصوا له وحده العبادة، وهذا الَّذي آمركم به من التَّوحيد، وأنهاكم عنه من الشِّرك هو الطَّريق المستقيم الَّذي لا اعوجاج فيه، فتَصِلون بسببه إلى السَّعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ ممّا قبلها:

تـواتـرُ القصصِ يُناسِبُ استمرار العِنادِ والجحود

جملة: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ﴾ عطْفٌ على قصَّة إرسال موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ [الزخرف: 46][3]؛ لبيان حقيقة إنعامه ﷻ على عيسى ﷺ، وأنَّه مرسل من عند ربِّه، كما أنَّ موسى ﷺ كذلك، وقيل: هو كلام مستأنفٌ مسوق لبيان تعنُّت بني إسرائيل[4].

دلالةُ (لَمّا) الحينيَّة أو الرّابطة في مطلع الآية:

بـلاغُ الـرَّسـول يـنـفـي حـجَّـةَ الـكـافـرِ في عدم إيمانه

(لمّا) في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ظرف زمان، بمعنى: (حين)، فتفيد وجود شيء لوجود آخر، والثّاني منهما مترتِّب على الأوَّل، فهو بمنزلة الجواب المعلَّق وقوعه على وقوع شيء آخر[5]، و(لمّا) هذه تُسمّى: الحينيَّة، والظَّرفيَّة والوجوديَّة، والرّابطة، وهي أداة شرط (وجود لوجود)، وجود الجواب لوجود الشَّرط، وجواب (لمّا) يحتمل أنَّه محذوف؛ لدلالة بقيَّة الكلام عليه، وهو قوله:

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 768، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 95.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 95، ومركز تفسير، المختصر في التفسير، ص: 494.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 245.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 101.
(5) عباس حسن، النحو الوافي: 2/ 296.

﴿تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾، أي: (لمّا جاءهم عيسى اختلفوا)، وتكون جملة: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ مبيِّنة لجملة: ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وليست جوابًا لشرط (لمّا) الَّذي جُعل التَّفريع في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ دليلًا عليه[1]، ويحتمل أن تكون جملة: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ هي جواب (لمّا)، كما سيأتي.

موقعُ: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ ممّا قبلها:

الحكمةُ هي الميزان الَّذي أقامه الرُّسُل في النّاس

على القول بحذف الجواب، يكون قوله: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: (لمّا جاءهم عيسى بالبينات؛ ماذا قال لهم؟)، فأجيب: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

الحكمةُ جُنَّةٌ من الاختلاف والشِّقاق

ويصحُّ أن تكون جملة: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ جوابًا للشَّرط في قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[2]، ويكون جواب الشَّرط: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، مُفرَّعًا عنه قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، كأنَّه قال: (لمّا جاءهم عيسى بالبيِّنات؛ قال لهم: قد جئتكم بالحكمة الَّتي من شأنها أن تمنع وقوع الاختلاف، وجئتكم؛ لأبيِّن لكم ما وقع بينكم من الاختلاف بالفعل، ومع ذلك فاختلف الأحزاب من بينهم)، وهذا الوجه أظهر من تقدير جوابٍ محذوف يُستدلُّ عليه بما بعده، لا سيَّما وأنَّ هذا الوجه، وهو اعتبار ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ جوابًا قد اشتمل على معنى الجواب المقدَّر عند من يقول بحذفه؛ لأنَّ مجيئه بالحكمة يعني أنَّه جاء؛ ليحكم بينهم بما يمنع وقوع الاختلاف أصلًا، وانعطف عليه ما يفيد حسم الاختلاف الواقع بينهم بالفعل كذلك، في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، وعليه يتجلّى التَّفريع بعده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 246.

(2) صافي، الجدول: 13/ 102، والخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 229.

في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، كأنَّه قال: جاءهم بما يحسم الخلاف، ومع ذلك اختلفت أحزابهم.

معنى الباء في: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

عيسى عليه السلام هو نفسُه بيِّنةٌ وآية

الباء في قوله: ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ باء الملابسة، أي: جاءهم ملتبِسًا بالبيّنات، ويتوجَّه معنى الملابسة على أنَّه عليه السلام كان بيِّنة في نفسه، بدليل قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، وأنَّ آيات الله البيِّنات كانت تلابسه، فقد أجراها على يديه، فأحيا به الموتى، وأبرأ به الأكمه والأبرص، وعلى اعتبار أنَّ البيِّنات هي الوحي بالإنجيل، فالباء للمصاحبة، أي: جاء ومعه البيِّنات.

نكتةُ التَّعبير باسْم ﴿عِيسَىٰ﴾ من غير إضافته إلى مريم:

تأكيدُ عيسى بشخصيَّته النَّبويَّة، لا النَّسَبِيَّة

لم يعبِّر النَّظم المبارك بلفظ: (عيسى بن مريم)، وجاء بالاسم دون وصف البنوَّة المضاف إلى (مريم)، وذلك أنَّه حين يكون السّياق عن أداء عيسى عليه السلام في رسالته وتبليغه المباشر، فإنَّ الغرض يتوجَّه إلى إبراز مقام النُّبوَّة مستقلًّا عن كونه ابن مريم، ففي هذا الموضع: الحديث عن البلاغ ومجيئه بالبيِّنات والحكمة، وليس عن نَسَبِه أو كونه آيةً بخِلْقَته، بل باعتباره نبيًّا مُبَلِّغًا، وأمّا إضافة (ابن مريم)؛ فتأتي غالبًا في سياق الدِّفاع عن طهارةِ ولادته، أو لبيان إعجاز خَلْقِه، أو ابتداء اصطفائه من الله بإيتاء الكتاب لِقَداسَتِه في ولادته الَّتي اقتضت قَداسَتَه في النُّبوَّة، لا في الألوهيَّة؛ إذ هو مولود، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة: 87]، ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ [الحديد: 27].

دلالةُ ﴿قَدۡ﴾ في: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾:

لم يقل في السّياق الكريم: (قال جئتكم بالحكمة)، بل أدخل

حججُ الأنبياءِ ومُهِمَّتهم واضحة من البداية، وأقوامهم يجحدون برغم ذلك

﴿قَدۡ﴾ التَّحقيقيَّة: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾؛ لإفادة التَّحقيق والتَّوكيد[1]، أي: إنَّ مجيء عيسى لهم بالحكمة أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّد، لا شكَّ فيه، فتركيب ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾ أفاد التَّحقُّق والثُّبوت من لفظ الفعل الماضي ﴿جِئۡتُكُم﴾، ثمَّ ازداد هذا التَّحقُّق شِدَّةً وقوَّة بدخول ﴿قَدۡ﴾ عليه، والفائدة من ذلك: توكيد مقول عيسى عليه السلام لقومه، وكأنَّه يخبرهم بأنَّه جاءهم بما لا مجال للشَّكِّ فيه من الأدلَّة الواضحة والمعجزات البيِّنة، فقد جاءهم بالبيِّنات الموصوفة بأنَّها (حكمة)، كأنَّه يقول لهم: جئتكم بأعلى صنوف البيِّنات، وهي بيِّنات الحكمة الَّتي ينقشع بسلطانها كلُّ شكٍّ وريبة، كما تنقشع الظُّلمة بضوء الشَّمس، فلا يبقى معها من الظُّلمةِ شيءٌ ولا أثَر.

دلالةُ اختصاص الرَّسول بالمجيء إليهم دون سواهم:

مقابلة التَّشريف والتَّكليف بالعصيان والتَّكذيب والتَّحريف

اقترانُ المجيء بكاف الخطاب الجمعيِّ في قوله: ﴿جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، ولم يقل: (جئتُ بالحكمة)؛ للدَّلالة على خصوصيَّة رسالته عليه السلام لبني إسرائيل، فالخطاب هنا موجَّهٌ إلى بني إسرائيل، وعيسى عليه السلام كان نبيًّا مرسلًا إليهم خاصَّة، كما في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: 49]، فذِكْر ﴿جِئۡتُكُم﴾ يدلُّ على أنَّ رسالته كانت محدَّدة لهذه الأمَّة دون غيرها، كما أنَّ جعْلَ المجيء متوجِّهًا إليهم فيه تخصيصٌ بتشريفهم والامتنان عليهم، وتكليفهم بالاتِّباع والطّاعة، كأنَّه قيل: لقد جاءكم نبيٌّ مخصوصٌ بكم، وهذا يقتضي وجوب اتِّباعه وعدم الإعراض عنه، فتزداد مسؤوليَّتهم في تحقيق الإيمان به ومقابلته بالتَّوقير والإنصاف، لا بالإعراض عنه والتَّآمر عليه، فالتَّخصيص بـ ﴿جِئۡتُكُم﴾ فيه تذكيرٌ بأنَّ الحجَّة قد قامت عليهم، فهم ليسوا معذورين في ردِّ دعوته.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 309.

دلالةُ (الحِكْمَةِ) على النُّبوَّة والشَّريعة:

النُّبوَّة رأس الحكمة وأعلاها؛ لصدورها عن اصطفاءِ العَليِّ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، دلَّتِ (الحكمة) هنا على النُّبوَّة والشَّريعة(1)، أمّا النُّبوَّة؛ فترتبط في القرآن بالحكمة غالبًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]؛ إذ جعل الحكمةَ ضمن المعطيات الَّتي تلقّاها عيسى عليه السلام بالوحي، كما جاء في قوله تعالى عن داوود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]، أي: النُّبوَّة، وإطلاق الحكمة على النُّبوَّة؛ للدَّلالة على أنَّ النُّبوَّة واقعةٌ في مواقعها المُستحقَّة سواء في محلِّها القابلِ لها، وهو النَّبيُّ الَّذي يوحَى إليه، فهو محكومٌ بمنهجها وحاكمٌ بها وحكيمٌ في فهمها والعمل بمقتضياتها، أو في غايتها، بإيصالها إلى مواقعها المقصودة في البلاغ والبيان، فهي واصلةٌ - أي: علوم النُّبوَّة - إلى الجهة المأمور إيصالها إليهم، وهم القوم المبعوث فيهم النَّبيُّ، فهي واصلةٌ إليهم على جهة الإحكام الَّذي تنتفي معه الجهالة والإعذار.

عمَلُ الرَّسولِ بالتَّشريع والبيان من مقتضيات الحكمة

وأمّا دلالة (الحكمة) على الشَّريعة؛ فالحكمة في سياق الرِّسالات تعني التَّشريعات الإلهيَّة الَّتي تحقِّق العدل والمصلحة، وتحسم الاختلاف، فهي عبارة عن وضع الأشياء في مواضعها بما يضبط حركة النّاس، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النّساء: 113]، يعني أنَّ الكتاب لمّا نزل؛ لا بدَّ من تنزيل مضامينه على منازلها الصَّحيحة في التَّطبيق والعمل، ولا يكون هذا إلّا بحركةٍ تشريعيَّة بيانيَّة تصدر عن الرَّسول، هذه الحركة التَّطبيقيَّة التَّشريعيَّة هي وظيفة الرَّسول، وهي حقيقة واسِطَته بين اللّهِ سبحانه والخلْق، إذًا فالحكمة هي صلاحيةُ الرَّسول وعمَلُه بالتَّشريع والبيان، وهو لازمٌ من لوازم نبوَّته والوحي إليه، فعيسى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 246، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 95.

ﷺ جاء مكمِّلًا لشريعة موسى ومصحِّحًا للتَّحريفات، وهذا يظهر في قوله: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾، أي: إنَّ من وظيفته إعادة النّاس إلى الشَّريعة الصَّحيحة.

الحكمةُ علاجٌ يُعيد ضَبْط إيقاع الأرواح والأبدان

وهذا هو سِرُّ استعمال لفظ (الحكمة) هنا، بدلًا من (الشَّريعة) أو (الكتاب) أو (النُّبوَّة)؛ وذلك للإشارة إلى: أنَّ عيسى ﷺ لم يأتِ بشريعة مستقلَّة كالتَّوراة، بل جاء بحكمةٍ تهدي إلى التَّطبيق الصَّحيح لما أُنزِل من قَبْله، فهو يسلِّط الضَّوء بإيثار لفظ (الحكمة) على الجانب العمليِّ والتَّطبيقيِّ والوظيفيِّ لمنصب النُّبوَّة، وهو إنفاذ الحكمة وإعادة الأمور لنصابها ووضعها مواضعها.

معنى (ال) في: ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾:

النُّبوَّة هي لُبابُ الحكمةِ المعصومة

(الـ) في لفظ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ في قوله: ﴿جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ عهديَّة ذهنيَّة؛ لأنَّ المراد بالحكمة - كما سبق - النُّبوَّة والشَّريعة[1]، ولو كانت (الـ) للجنس؛ لكان المعنى عامًّا يشمل أيَّ نوعٍ من الحكمة، سواء كانت إلهيَّة أم بشريَّة، لكن سياق الآية يدلُّ على أنَّ المقصود حكمة مخصوصة ومعصومة مرتبطة بالوحي والنُّبوَّة، لا بالتَّجربة الإنسانيَّة، أي: حكمة اللّه في التَّشريع والهداية، ممّا يجعل العهد الذِّهنيَّ أظهر وأولى.

نكتةُ إيثار العَطْف:

لتؤتي الحكمة ثمارَها؛ لا بدَّ من ترجمتها إلى سلوك وعمل

لم يقل: (جئتكم بالحكمة؛ لأبيِّن لكم) بدون عطف؛ لأنَّ العطف يعطي دلالاتٍ أوسع من تركه، ومن هذه الدَّلالات:

التَّفريق بين (الإتيان بالحكمة) و(التَّبيين) كأمرين مستقلَّين، فلو قيل: (جئتكم بالحكمة؛ لأبيِّن لكم)؛ لفُهِم أنَّ التَّبيين هو الغاية الوحيدة للحكمة، لكنَّ العطف يدلُّ على أنَّ (الإتيان بالحكمة)

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 246.

و(التَّبيين) وظيفتان متلازمتان، مع استقلالهما، أي: إنَّ عيسى جاء بالحكمة كأصلٍ عامٍّ، وجاء - أيضًا - لأجل التَّبيين على أنَّها وظيفةٌ خاصَّةٌ.

الحكمةُ أوسع من مجرَّد التَّبيين

الحكمةُ تشمل النُّبوَّة، والتَّشريع، والتَّوجيه الصَّحيح، والموعظة، والتَّزكية، وليس مجرَّد بيان الاختلافات، أمّا التَّبيين؛ فهو جزء من مهمّات الحكمة، لكنَّه ليس كلَّ الحكمةِ، فلو قيل: (جئتكم بالحكمة؛ لأبيِّن لكم)؛ لفُهِم أنَّ الحكمةَ بكاملها محصورةٌ في البيان فقط، وهذا ليس صحيحًا، وعليه فالعطف من إتباع الخاصِّ بالعامِّ؛ للتَّنبيه على أهمّيَّة الخاصِّ.

الحكمةُ هي القانون الَّذي يجري عليه البيان والبلاغ

تأكيدُ (التَّبيين) بوصفه غايةً إضافيَّة مركزيَّة، وليس مجرَّد نتيجة تابعة للحكمة، فالعطف يُبرز (التَّبيين) بوصفه وظيفة لها خصوصيَّتها، وليس مجرَّد أثرٍ تلقائيٍّ للحكمة، كأنَّه يقول: (جئتكم بالحكمة)، وهذا في ذاته رسالةٌ وغاية، وأيضًا: جئتكم؛ لأبيِّن لكم بعض ما تختلفون فيه، وتلك غايةٌ أخرى للمجيء إليك.

دلالةُ التَّبعيض في بيان عيسى عليه السلام:

البيانُ يطَّرد مع الحاجة وجودًا وعدمًا، فمن احتاج للبيانِ؛ بُيِّن له، وإلّا فلا

قال سبحانه: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾، ولم يقل: (كلُّ الَّذي تختلفون فيه)؛ للإشعار بالرَّحمة بهم، وبالسَّتر عليهم؛ إذ بيَّن البعض، وترك البعض الآخر؛ لأنَّه لا ضرورة تدعو إلى بيانه[1]؛ لأنَّ النّاس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها[2]؛ ولأنَّ كلَّ ما يختلفون فيه، منه ما يرجع إلى أمور الدّين، ومنه ما يرجع إلى أمور الدُّنيا، فبيَّن لهم أمرَ الدّين والتَّشريع وما يتعلَّق بالتَّكليف دون الأمور الَّتي لم يُتعبَّدوا بمعرفتها ممّا يتعلَّق بأمر الدُّنيا، كعلوم الأفلاك والزِّراعة وسائر علوم المعاش، فإنَّ الأنبياء لم

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 95.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 641.

يُبعثوا؛ لبيان ما اختُلف فيه من ذلك[1]، ولذلك قال ﷺ: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[2].

ويصحُّ أن يُراد بالبعض أمورُ الدّين، ويكون المعنى: ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه، ممّا يُحتاج لبيانه، وما وُكِل إليكم الاجتهاد في بيانه، ولا أبيّنه كلَّه؛ لأنَّكم ممتَحنون فيه إمّا بالاجتهاد فيه، وإمّا لِحين مجيء حكم لاحق يزيل الاختلاف، أو مجيء رسول آخر يكمِّل البيان[3]، وإمّا بردِّه إلى المُحكم الَّذي بُيِّن لكم، فالبعض الَّذي بيَّنه عيسى عليه السلام لهم، حينئذٍ يكون "كافيًا في ردِّ بقيَّة المتشابه إلى المحكَم بالقياس عليه، فإنَّ الشَّأن في كلِّ كتاب أن يجمع المحكم والمتشابه، فالمحكم ما لا لبس فيه، والمتشابه ما يكون مُلْبِسًا"[4]؛ ليتبيَّن الصّادق الَّذي يردُّ ما اختُلِفَ فيه إلى الواضحات المحكمات، أو يقول: (اللّه أعلم)، ولا يزيغ، مِنَ الكاذب الَّذي يفتتن، ويزيغ[5].

دلالةُ صيغة المضارع في: ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾:

عجلةُ الاختلاف في بني إسرائيل لا تتوقَّف

صيغة المضارع في قوله: ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّه عليه السلام جاء؛ ليعالِج اختلافًا قائمًا الآن فما يزال حاصلًا في واقعهم الحاضر[6]، ولو قيل: (اختلفتم) بالماضي؛ لاحتمل أنَّه عليه السلام جاء ليعالج خلافاتٍ سابقة فقط، وأيضًا: صيغة ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ تدلُّ على أنَّ الاختلاف سِمة متجدِّدة ومستمرَّة في طبيعة بني إسرائيل، كأنَّه يقول لهم: هذا دأبكم المستمِرُّ أنَّكم تختلفون، ولذا جئت؛ لأصحِّح بعض هذه الانحرافات.

موقع: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ممّا قبلها:

تقوى الله غاية ما جاءت به الرُّسل

جملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تفريعٌ على ما قبلها، فالفاء تفريعيَّة أو

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 95.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 14/ 170، وينظر: صحيح مسلم: رقم الحديث: (2363).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 247.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 463.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 463.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 463.

فصيحة[1]، أي: إذا كان قد تمَّ لكم نزول البيِّنات، وبلاغُ الحكمة، وتوضيح ما اختلفتم فيه، فذلك يستلزم منكم أن تعملوا بتقوى اللّه سبحانه وطاعة رسوله فيما أوحي إليه لأجلكم، ويجوز جعلُ الفاءِ استئنافيَّة، فيكون الكلام مستأنفًا من اللّه؛ للدَّلالة على طريق الطّاعة ومحجَّتها الواضحة[2].

دلالةُ العطف بالواو في: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

الـرَّسـول هـو مِفتاحُ الوصول إلى تقوى الله سبحانه

قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ معطوفٌ على الأمر بالتَّقوى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ التَّقوى والطّاعة أمران متلازمان ومتساويان في استقلالِ كلِّ واحدٍ منهما في الالتزام به، فمطلوبٌ إيقاعهما والجَمْع بينهما؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسول ليست مجرَّد نتيجة للتَّقوى، بل كلُّ جزءٍ منهما أصلٌ في الدّين مطلوبٌ بذاته.

دلالةُ الأمر بالطّاعة لنفْسِه في: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾:

الـتَّـفـريـق بين الإيـمـان بالله والإيمان برسله كفر

لم يقل: (فاتَّقوا اللّه، وأطيعوا، أو وأطيعوه)، بل جعل الطّاعة لنفسه، فقال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم مُتَعَبَّدون بطاعة الرَّسول باعتباره مُبلِّغًا عن اللّه؛ إذ كيف لا تكون طاعته واجبة، وهو واسِطتهم إلى اللّه سبحانه؟ فلا يمكن بحال أن تصحَّ طاعةُ اللّهِ مع معصية رسولِه، وفيه تنبيهٌ على الفصل بين المبدأ العام للتَّقوى، والمبدأ الخاص باتِّباع الشَّريعة الَّتي جاء بها عيسى عليه السلام، فالآية ذكرت أمرين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وهذا أمر عامٌّ يشمل كلَّ المؤمنين في كلِّ زمان ومكان، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، أي: أطيعوا ما جئتكم به من شريعةٍ خاصَّة، وفي الأمر بطاعته أيضًا - بعد أمْرِه لهم بتقوى اللّه - تعريضٌ منه ببني إسرائيل فيما تفشّى بينهم من التَّفريق بين اللّه ورسله، فيطيعون فيما يوافق أهواءهم، ويردّون ما

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 464، وصافي، الجدول: 13/ 102.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 101.

لا يعجبهم، فيدَّعون الإيمان باللّه، ويُناهضون الرَّسول فيما يأتيهم به من عند اللّه[1].

موقع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ ممّا قبلها:

إقامةُ العبوديَّة للّه وحده هي الغاية المطلقة

جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ استئناف بيانيٌّ لقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]، فهي في موقع جواب لسؤال مقدَّر عن إجمالِ ما أمرهم به عيسى عليه السلام في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، كأنَّه قال قائل: فما إجمالُ غرضِه الَّذي يريد تقريرَه من هذين الأمرين؟ فأجيب بالغرض الجامع المفسِّر والمبيِّن لهما، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، فكأنَّه عليه السلام فصَّل لهم ما يُراد منهم، ثمَّ بيَّن لهم الأصل الَّذي ينبني عليه ذلك، ويتغيّا به.

ويصحُّ أن تكون الجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ تعليليَّة لجملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّه إذا ثبت تفرُّده بالرُّبوبيَّة؛ توجَّه الأمر بعبادته؛ إذ لا يخاف اللّهَ إلّا من اعترف بربوبيَّته وانفراده بها[3].

نكتةُ مجيء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

تقريرُ العقيدة الصَّحيحة للمنحرفين عنها يستلزم توكيد الخطاب لهم

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أفاد الحصر والتَّوكيد[4] بما يرفع الالتباس في الخطاب من كلِّ وجه، فحين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي﴾، ولم يقل: (إنّ اللّه ربّي وربُّكم)، فقد أخرج الجملة من حيِّز الإخبار الاعتيادي، إلى الحيِّز التَّوكيدي الحاسم في تقرير المعنى وإثباته بما لا يقبل الجدال والشَّكَّ، وأفاد انحصار حقيقة الرُّبوبيَّة الشّاملة في اللّه سبحانه، بل وأفاد إضافة الرُّبوبيَّة إلى ضمير عيسى، وإلى ضميرهم ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ بانحصارهم التّامِّ تحت سلطان ربوبيَّة اللّه سبحانه،

(1) طنطاوي، الوسيط: 3/ 367.
(2) صافي، الجدول: 13/ 102.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.

فليس لهم ربٌّ سواه، وفائدة هذا الضَّمير في هذا المقام البلاغي - تبليغ عيسى البيِّنات - هو الرَّدُّ على الغلوِّ الَّذي أصابهم في مكانة عيسى عليه السلام، فقد بالغوا فيه عليه السلام، ورفعوه إلى مرتبة الألوهيَّة، فجاء الضَّمير؛ ليدفع هذا الوهم، ويؤكِّد أنَّ الرُّبوبيَّة منحصرة في اللّٰه وحده، وليس في أحدٍ غيره، لا في عيسى ولا في غيره.

دلالةُ تقديم ﴿رَبِّي﴾ على ﴿وَرَبُّكُمْ﴾:

أهــلُ الحــقِّ يُقِرّون الحقَّ على أنفسهم أوَّلًا قبل إقراره على من سواهم

قدَّم ضميرَ عيسى على ضميرهم في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ ليؤكِّد أنَّه مربوبٌ لا ربٌّ، فهو عبدٌ رسول لا يتجاوز هذا المقام، وعليه: فمراعاة مقتضى حال المخاطَبين هنا - وهو كونهم انحرفوا في مفهوم الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، ووقعوا في الشِّرك أو الغلوِّ في عيسى عليه السلام - اقتضى تعزيز الجانب التَّوكيدي للمعنى المقرَّر بتوظيف ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ واستعماله في الجملة.

علَّةُ تفريعِ الأمر بالعبوديَّة على تقرير الوحدانيَّة:

من عرف اللهَ حقَّ معرفته؛ فقد ألزم نفسه بعبوديَّته

جملة: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ تفريعٌ على مضمون الخبر المؤكَّد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، أي: إذا تقرَّر انفراده سبحانه بربوبيَّته عليكم؛ فذلك يستوجب منكم أن تعبدوه؛ لأنَّ المنفرد بالألوهيَّة والرُّبوبيَّة حقيقٌ بأن يُعبَد[1].

موقعُ جملة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ ممّا قبلها:

إتباعُ موضوعِ الخطابِ بفصل الخطاب الَّذي يُلخِّصُه ويُجمِلُه

جملة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تذييلٌ ختاميٌّ بعد الأمر بالتَّقوى والطّاعة، والعبادة، وهو إمّا من تمام مقول عيسى عليه السلام، أو من مقول اللّٰه سبحانه مُقرِّرًا ومُصادِقًا على مضمون كلام عيسى لهم[2].

مرجعُ الإشارةِ في: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾:

الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ تعود إلى الأمر العظيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 95، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 53.

لا استقامةَ في غير عبوديَّة الله واتِّباع رسله

الَّذي هو مجموع ما دعاهم إليه عليه السلام [1] وهو مجموع المضامين السّابقة في مقول عيسى عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، أي: مجموع ذلك المقول الَّذي هو عبارة عن الاعتقاد الحقِّ هو الصِّراط المستقيم.

العبوديَّة الخالصة هي الصِّراط المستقيم الموصول بالله وحده

ويصحُّ أن تعود الإشارة على مضمون قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، أي: عبادتكم لله هي الصِّراط المستقيم، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: 5 - 6]، فالصِّراط المستقيم منوطٌ بأمر العبادة، فكذلك هنا هو منوط بالأمر بها في قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾، أو عائدة على مضمون قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 465.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 248.

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦﴾ [الزّخرف: 65 - 66]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

وجودُ الحزبيَّة والفِرَق علامةٌ على تنكُّب الصِّراط المستقيم الَّذي يجمع، ولا يفرِّق

لمّا ذكر في الآية السّابقة وجوبَ لزوم الصِّراط المستقيم؛ لأنَّه سبب الوحدة والاجتماع؛ لكونها معيارًا ثابتًا لا يتغيَّر، ولا يختلُّ؛ أخبر هنا في هذه الآية أنَّهم اقترفوا ما لا يليق ببلاغ عيسى ﵇ وبيانه ودعوته إيّاهم إلى الصِّراط المستقيم، فاختلفوا، وتحزَّبوا برغم أنَّه توفَّر لهم ما يستوجب اجتماعهم وإيلافهم[1]، ولمّا توعَّد بعد ذلك من خالف الحقَّ بعد وضوحه[2]، وظلموا أنفسهم باختلافهم على أنبيائهم، وكان ذلك وعيدًا عامًّا يدخل فيه كلُّ مُختَلِفٍ بالظُّلم والعدوان، لا بالحقِّ والبرهان[3]؛ أتبع ذلك بحتميَّة ملاقاتهم لِما توعَّدهم به، وإن فرّوا منه؛ لأنَّ السّاعة تنتظرهم وإن غفلوا عن انتظارها، وستهجم عليهم بغتةً، وإن تنصَّلوا من الاكتراث بها وعدم التَّفكير فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾: أصل (حزب): يدلُّ على تجمُّع الشَّيء، ومن ذلك الحزب: الجماعة من النّاس، والطّائفة من كلِّ شيء حزب[4]، والحِزب: جماعةٌ فيها غِلَظ[5]، والأحزاب: الجماعات الكثيفة[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 474.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 397.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 475.
(4) ابن فارس، المقاييس: (حزب).
(5) الراغب، المفردات: (حزب).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (حزب).

والمراد هنا بالأحزاب: الفرق الذين اختلفوا، وصاروا شيعًا في عيسى عليه السلام، فمنهم من يُقِرُّ بأنَّه عبد الله ورسوله - وهو الحقُّ - ومنهم من يدَّعي أنَّه ولد الله، ومنهم من يقول: إنَّه الله، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا[1].

2) ﴿بَغۡتَةً﴾: (بغت) أصلٌ واحدٌ، منه البغت، وهو أن يَفْجَأ الشَّيءُ، البَغْتُ، والبَغْتَةُ، والمُباغَتَةُ: المفاجأةُ، وهي مجيء الشَّيء على غفلةٍ من حيث لا يُحتَسبُ، ولا يُعْلَم، وهي فجْأة شِدَّةٍ أو مكروه[2]، يقال: لستُ آمنُ بغتاتِ العدوِّ، أي: فجآته[3]، وهو معنى اللَّفظة في الآية، فالسّاعة لا تأتي إلّا فجأة، ولا يعلم ميقاتها إلّا اللّه تعالى.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الـضَّـلال في الـتَّـحـزُّب والاخـتـلاف، والـنَّـجـاة في الـتَّـوحـيـد والاعتصام

تُبيِّن لنا الآيات الكريمات موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى عليه السلام وأنَّه لمّا جاءهم بالنُّبوَّة وبيان ما اختلفوا فيه؛ اختلفت طوائف النَّصارى في شأن عيسى، فمنهم من يقول: هو إلهٌ، ومنهم من يقول: هو ابن الله، ومنهم من يقول: هو وأمُّه إلهان، فويل للَّذين ظلموا أنفسهم - بما وصفوا به عيسى من الألوهيَّة، أو البُنوَّة، أو أنَّه ثالث ثلاثة - من عذاب موجع ينتظرهم يوم القيامة[4]، ثمَّ دعا المشركين عامَّة من قوم الرَّسول ﷺ، ومشركي أهل الكتاب الذين ما زالوا على عقيدة الاختلاف والتَّحزُّب والطّائفيَّة الباطلة في شأن عيسى عليه السلام إلى الاستجابة للرَّسول ﷺ إذا دعاهم لما يصلحهم، من قبل أن يأتي يوم لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ، فقال محذِّرًا: هل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك والمشركون من الأحزاب المختلفين في شأن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 237.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغت).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بغت).
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 768، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 95، و96، ومركز تفسير، المختصر في التفسير، ص: 494.

عيسى إلّا قيام السّاعة، وهذا القيام سيأتيهم فجأة، وبدون شعور منهم بها، وحينئذٍ يندمون، ولن ينفعهم النَّدم، ولو كانوا عقلاء؛ لاتَّبعوا الحقَّ الَّذي جاءهم به رسولنا ﷺ، قبل فوات الأوان[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ ممّا قبلها:

جملة: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ معطوفة على جملة جواب الشَّرط: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، والفاء للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة، أي: تسبَّب عن دعوته لهم أنِ اختلف الأحزاب من بينهم[2]، أو الفاء للتَّفريع على جملة الشَّرط: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، وجملة ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾ حينئذٍ دليلُ جوابٍ محذوف، وهي في معنى العلَّة للجواب المقدَّر، أي: ولمّا جاء عيسى بالبَيّنات؛ جاؤوه بالاختلاف بسبب وقوع اختلاف الأحزاب من بينهم[3].

الـكـافـرُ يعمل ضـدَّ نـفـسه، يُؤتَى بالحكمة، فـيـزداد بـها شططًا وانحرافًا

معنى (الـ) في: ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾:

(الـ) في: ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ عهديَّة ذهنيَّة، فالمرادُ بهم أهل الكتاب (بنو إسرائيل من اليهود والنَّصارى)، وهم أمَّة دعوته عليه السلام، فانقسموا، وتحزَّبوا، وخالف بعضهم بعضًا، فمنهم مَن آمن، وهم قليل، كيحيى بن زكريّا، ومريم أمِّ عيسى، والحواريّين الاثني عشر، وبعض نساءٍ: مثل مريم المجدليَّة، ونفر قليل، ومنهم من كفر، كجمهور اليهود وأحبارهم.

الأنبياءُ في عناء مـن شـتـاتِ أقـوامـهـم وتفرُّقهم عليهم

أو المراد بالأحزاب أمَّة إجابته عليه السلام الَّذين آمنوا به، فاختلفوا من بعده أحزابًا، وصاروا ثلاث فِرَق: مَلْكانيَّة، ونَسْطوريَّة، ويعقوبيَّة، فالأولى تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾ [المائدة: 73]، والثّانية تقول: ﴿ٱلۡمَسِيحُ

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 96، ومركز تفسير، المختصر في التفسير، ص: 494.

(2) قباوة، المفصل في التفسير، ص: 1742.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 249.

﴿ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: 30]، والثّالثة تقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾ [المائدة: 17][1]، وعلى كلٍّ فـ(الـ) في ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ للعهد.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في: ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾:

الـشّـتـات والانقسام يبدأ من الدّاخلِ، فلا سبيل لعلاجه إلّا بـنـهـضـةٍ جماعيَّة

﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ ابتدائيَّة، أي: اختلافًا ناشئًا ابتدأ من بين بني إسرائيل[2]، وفائدة ﴿مِنۢ﴾ الابتدائيَّة التَّنبيه على أنَّ اختلافهم نشأ من تلقائهم ومن أنفسهم، فلم يَدخل الاختلافُ عليهم من غيرهم[3]، فعلى القولِ الأوَّل: نشأ الاختلاف من بين المبعوث إليهم عيسى، وعلى القول الثّاني: نشأ الاختلاف والانقسام من الطَّوائف والفِرَق الَّذين كانوا في الأصل من أتباعه وأهل ملَّته.

ويصحُّ أن تكون ﴿مِنۢ﴾ للتَّبيين[4]؛ لِبيان أنَّ هذه الأحزاب المتفرِّقة كانوا من القوم الَّذين دعاهم عيسى، فالتَّفرُّق كان فيهم لا من خارجهم، فالمعنى متوجِّه إلى توضيح ماهيَّة الأحزاب، فكأنَّ السّامع قد يسأل: مَن هم الأحزاب الَّذين اختلفوا؟ فتأتي ﴿مِنۢ﴾؛ لبيان أنَّهم كانوا من بين القوم أنفسهم.

ويصحُّ أن تكون ﴿مِنۢ﴾ صلة زيدت للتَّأكيد[5]، فتفيد تقوية المعنى، والتَّنبيه على شدَّة الاختلاف وانحصاره داخلهم، فكأنَّه يقول: (فاختلفوا اختلافًا شديدًا، استحكم بينهم أنفسهم).

موقع: ﴿فَوَيۡلٞ﴾ ممّا قبلها:

الاخـتـلاف في أصـول الـدّيـن أمارةٌ على الظُّلم ومـن مـوجـبـات العذاب

الفاء في جملة: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لتفريع مدخولها على ما

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6695، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 62، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 96، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 249.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 474.
(3) ابن عطيّة المحرر الوجيز: 5/ 63.
(4) قباوة، التفسير المفصل، ص: 1742.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 9/ 181.

قبلها، فجملة: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مفرَّعة على جملة: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، وهي فاءُ تعقيبٍ بالجزاء والوعيد، أي: اختلفوا، وصاروا أحزابًا، فاستحقّوا الويلَ، وجوزوا به[1].

يوم الحساب بالِغُ الويل والهَول

دلالةُ تنكيرِ (ويل) في: ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

تنكير (ويل) في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ﴾، له دلالاتٌ عدَّة: منها: التَّعظيم والتَّهويل، أي: هلاكٌ عظيمٌ وصْفُهُ ينتظرهم، ومنها: التَّنويع، أي: فهو جِنْسٌ من الويل، ذو أنواعٍ متفاوتة، بحسب نوع الظُّلم الَّذي ارتكبه كلُّ ظالم، ومنها: الإبهامُ لغرض الإرهاب، أي: ويلٌ مجهولٌ في فظاعته، مُبهمٌ في مداه ومقداره، يُرهِبُ النُّفوس، ويُحيِّر العقول.

معنى اللّام في: ﴿لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

الظُّلمُ سبب عقوبتهم، المختصَّة بهم، المستحقَّة لهم بما عملوا

اللّام في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، لام الاستحقاق أو الاختصاص، ومعنى الاستحقاق: يؤكّد على حتميَّة لحوق الويل بهم؛ لاستحقاقهم إيّاه، ومعنى الاختصاص يؤكّد على تقييد الويل بالظّالمين وحدهم، وكأنَّ الويل مُعدٌّ لهم خِصِّيصًا.

نكتةُ الإظهار في مقام الإضمار:

إيقاعُ التَّهديدِ عامًّا في سياقٍ خاصٍّ؛ ليعتبِر الجميعُ، ويحذروا

لم يقل في السّياق الكريم: (فاختلف الأحزاب من بينهم، فويل لهم)، بل قال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فعبَّر بالاسم الظّاهر بدل الضَّمير؛ تعميمًا للحكم[2] بالويل؛ ليقع التَّهديد عامًّا لكلِّ ظالم، ولو أضمر؛ لاقتصر الحكم على الأحزاب وحدهم.

وتعليلًا للحكم[3]، ببيان سبب استحقاقِهم للويل، فلو قيل: (فويل لهم)؛ لعاد الضَّمير إلى الأحزاب الَّذين اختلفوا، لكنَّ الإظهار بـ(الذين ظلموا) يُبيِّن أنَّ سببَ الويل هو الظُّلم، أي: إنَّ عاقبتهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 250، وقباوة، المفصل في التفسير، ص: 17/ 42.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 475.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 475.

ليست فقط بسبب الاختلاف، بل لأنَّهم ظلموا في هذا الاختلاف أو في غيره، أو لأنَّ اختلافهم ناشئٌ عن ظلمهم، وفي هذا تفصيلٌ بعد إجمال؛ إذ أوضحتِ الآيةُ أنَّ سبب استحقاقهم للعذاب ليس مجرَّد الخلاف، وإنَّما الظُّلم الَّذي ارتكبوه.

عـدم المشاركة في الظُّلم وقايةٌ وعافية

في الإظهار هنا بقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، بدل الإضمار (فويل لهم) - إشعارٌ بالتَّفريق بين الأحزاب أنفسِهم، بأن ليس كلُّ المختلفين ظالمين[1]، فقد يكون بعض أفراد الأحزاب لم يظلموا، وهم حزب المؤمنين منهم، فلو قيل: (فويل لهم)؛ لشمل الويلُ الجميعَ، لكنَّ الإظهار بـ(الذين ظلموا) يحدِّد أنَّ الويل خاصٌّ بالظّالمين منهم، فلا يُحمَل العقابُ على من لم يشارك في الظُّلم.

بيانُ المتشابهِ اللَّفظي في التَّعبير بوصْف الظُّلم دون الكفر:

الاخــتــلافُ في الـدّيـن بـابٌ إلى الظُّـلـم العظيم وهـــو الـشِّـرك الأكبر

التَّعبيرُ بوصف الظُّلم هنا في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لمراعاةِ النِّسبةِ إلى السّياق، وهو مجيء الرَّسول لهم بالحكمة، في قوله: ﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾، والحكمة وضع الشَّيء في أتْقنِ مواضِعه، فلمّا قابلوا ذلك بالرَّدِّ والاختلاف، وكان أنهضَ لهم على الإيمان والائتلاف، صاروا بذلك واضعين للأشياء في غير مواضعها؛ إذ قابلوا ماجاءهم بضدِّه، وبعكس ما يستلزمه، وتنزيل الشَّيء على غير منزله وعلى غير ما يستلزمه هو إيقاع له في غير موقعه، وذلك هو عين الظُّلم، فلا جرم أن آثر التَّعبير عنهم بوصف الظُّلم دون غيره[2].

وجُعِلَتِ الصِّلةُ في سورة مريم فعلَ ﴿كَفَرُواْ﴾ [مريم: 37] في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم: 37]؛ لأنَّ المقصود من آية سورة مريم الَّذين كفروا من النَّصارى؛ ولذلك أردف بقوله:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 96.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 475.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [مريم: 38]؛ إذ أريد التَّخلُّص إلى إنذار المشركين بعد إنذار النَّصارى[1]، وأمّا هنا في الزُّخرف؛ فأراد بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أمرين: **الأوَّل:** أنَّ الاختلاف بين الأحزاب أفضى بهم أن صار أكثرُهم مشركين، فعبَّر عنهم بوصف الظُّلم؛ جريًا على عادة القرآن في تسمية الشِّرك بالظُّلم.

الثّاني: تعميم المراد من التَّذييل بقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، بأن يكون التَّذييل (الذين ظلموا) يعمُّ المُذَيَّل - الأحزاب المختلفين - وغيره، فيشمل عمومُ هذا التَّذييلِ مشركي العربِ المقصودين من هذه الأمثال والعِبَر[2].

وعبَّر في سورة مريم بقوله: ﴿مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم: 37]، وفي الزُّخرف هنا بقوله: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ الفاصلة في مريم واردةٌ بعد سياق شهادة، ومقام إشهاد، فقد شهِدوا على براءة مريم بعدما قذفوها، بتكليم عيسى لهم في المهد، وقد أشهدهم عيسى على براءة أمِّه بما يُثبِتُ لهم أنَّه حالةٌ فذَّة وآيةٌ معجِزة يمتنِع معها أن يكون من ولادةٍ غير نزيهة، فكان المقامُ مقامَ شهودٍ منهم، وإشهادٍ من عيسى عليهم، فناسَبَ أن يتوعَّد بما هو من جنس ذلك، فقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ [مريم: 37]، كأنَّه قال: الَّذين كفروا بهذا المشهد العظيم - وهو تكليم عيسى لهم في المهد - ويلٌ لهم من مشهدِ يومٍ عظيم لا قوَّة لهم على دفْعِه وردِّه.

وأمّا هنا؛ فقد قال: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾؛ جريًا على أصل الوعيد أن يكون بالعذاب الأليم في يوم السّاعة الَّذي عيسى عليه السلام عِلْمٌ لها وبيِّنةٌ عليها، كما جاء في السّياق القريب قبله.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في: ﴿مِنۡ عَذَابِ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ يصحُّ أن تكون ابتدائيَّة، على معنى أنَّ الويل ناشئ وصادرٌ ومبتدِئٌ من عذاب يوم أليم، أي: إنَّ العذابَ هو المصدر الَّذي ينطلق منه هذا الويل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 250.

ما يُذكَر في الوعيد أمْثِلَةٌ منه فقط!

كلُّ إضرارٍ أوقع ألَمًا فهو قطعةٌ من العذاب

ويصحُّ أن تكونَ ﴿مِنۡ﴾ بيانيَّة، فيكونَ قوله: ﴿عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ بيانًا للتَّهديد بالويل.

بلاغةُ المجاز العقليّ (الإسناد المجازيّ):

لفظة ﴿أَلِيمٍ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ صفةٌ لـ﴿يَوۡمٍ﴾ على الإسناد المجازيِّ[1]، فنِسبة الألم إلى اليوم مجاز عقليٌّ؛ لأنَّ الألم في الحقيقة لا يُنسَب إلى اليوم، بل يُنسَب لمن يُعذَّب فيه على معنى أنَّه (مُتألِّم)، أو يُنسَب إلى العذاب؛ لأنَّه سبب حصول الألم، بمعنى: مؤلِم - بكسر اللّام - ونكتة هذا الإسناد المجازيِّ: المبالغة في تهويل العذاب، بجعلِ الزَّمن نفسِه واليوم كلِّه مشحونًا بالألم والهول، وكأنَّه مصدر الألم ذاته، فكيف بالعذاب الَّذي يقع فيه، فتكون الفظاعة مُضاعفَة.

وتصوير اليوم وكأنَّه كائن حيٌّ يشعر بالألم، ويسري فيه الإحساسُ به، وهذا على جعل ﴿أَلِيمٍ﴾ بمعنى: مؤلَم - بفتح اللام - أي: واقعٌ عليه الألم، كأنَّ اليوم ذاته يئِنُّ، ويتوجَّع من شدَّة ما فيه من العذاب، فأُسند الألم إلى اليوم بدلًا من المعذَّبين فيه، كأنَّ الألم من فظاعته سَرى منهم إليه.

وللإيحاء بشموليَّة العذاب طوال اليوم كلِّه، فعندما يوصف اليوم بأنَّه ﴿أَلِيمٍ﴾، يكون المعنى أنَّ العذاب ممتدٌّ في كلِّ لحظةٍ من لحظاته، فكأنَّ العذاب لا ينفكُّ عن أهل الظُّلم طوال هذا اليوم، ممّا يزيد من شدَّة التَّهديد.

وللتَّخويف والتَّرهيب من الزَّمن نفسه، ففي العادةِ أنَّ الإنسان يخاف من العذابِ ذاتِه، لكن هنا يُجعل اليوم نفسه مصدر رعبٍ، بحيث يكون مجرَّد الدُّخول فيه أمرًا مفزعًا قبل أن يبدأ العذاب نفسه، ممّا يجعل استعدادَ الإنسان وإيمانَه وخشيتَه من اليوم الآخر

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 96.

نفسِه بغضِّ النَّظر عن وقائعه، ولا يخفى ما في هذا من تعزيز الإيمان بالغيبيّات الواجبة، وتعزيز التَّسليم بها واليقين فيها.

ويصحُّ أن يكون ﴿أَلِيمٍ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ وصفًا للعذاب، لا وصفًا لليوم، ووصف العذاب بـ﴿أَلِيمٍ﴾ إمّا حقيقيٌّ، على أنَّ ﴿أَلِيمٍ﴾ بمعنى (مؤلِم - بكسر اللام)[1]، وإمّا مجازيٌّ على أنَّ ﴿أَلِيمٍ﴾ بمعنى (مؤلَم - بفتح اللام)[2]، وفائدةُ الإسناد المجازي المبالغة، ووجْهُ المبالغة: إفادة أنَّ الألم بلغ الغايةَ حتّى سرى من المعذَّب إلى العذاب المتعلِّق به، فوصف العذاب بالأليم (فعيل - مَفْعَل) مع أنَّ الموصوف به حقيقةً هو المعذَّب لا العذاب، لكن لمّا كان بين المعذَّب والعذاب ملابسةٌ بولِغَ في اتِّصاف المعذَّب بالألم، فأُسنِد إلى العذاب نفسِه المتعلِّق به، فكأنَّ الألم سرى منه إليه[3].

موقعُ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ ممّا قبلها:

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ استئناف بيانيٌّ، بتنزيل السّامع لقوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ منزلةَ من يطلب البيان، فيسأل: متى يحلُّ هذا اليوم الأليم؟ وما هو هذا الويل؟ فجاءت جملة: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ جوابًا عن الشِّقِّ الأوَّل من السُّؤال، وسيجيء الجوابُ عن الشِّقِّ الثّاني في قوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤﴾ [الزخرف: 74][4].

السّاعةُ هي بابُ المصير، فالتَّهديد بها إيذانٌ بما بعدها

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾:

﴿هَلۡ﴾ في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾ حرف استفهام لطلب التَّصديق معناه النَّفي[5]، وعليه: فالاستفهام هنا

في التَّهديد بالسّاعة قرعٌ لأسماع الغافلين؛ لينتبهوا قبل فوات الأوان

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 2/ 135.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 346.
(3) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد بهامش القونوي: 2/ 135.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 251.
(5) فخر قباوة، المفصل في التفسير، ص: 1742.

مجازيٌّ لا حقيقيٌّ؛ لأنَّه لغرض تقرير النَّفي والإنكار على المخاطَب المقصود، وليس لطلب التَّصديق؛ لأنَّه لا يُراد منه طلب الجواب بـ(نعم، أو لا)، فليس طلب التَّصديق مقصودًا من الاستفهام، فكأنَّ المعنى: (ما ينتظر هؤلاء بعد تكذيبهم إلّا قيام السّاعة تغشاهم بغتة)، ومجيء الاستفهام على معنى النَّفي والإنكار هنا، له دلالات:

منها: التَّقريع والتَّوبيخ: يوبِّخهم على تجاهلهم الآيات والبيِّنات الَّتي كان ينبغي أن تعصمهم من الاختلاف في عيسى بن مريم، ومع ذلك اختلفوا، وأشركوا.

ومنها: التَّعجُّب من غفلتهم، فكيف اطمأنّوا للشِّرك، واستساغوا الاختلاف، والسّاعة على أبوابهم تؤذِن بنفاد آجالهم.

ومنها: التَّقرير بحتميَّة وقوع السّاعة، فالمعنى الضِّمنيُّ أنَّهم لا مفرَّ لهم منها، فهي قادمةٌ لا محالة.

ومنها: التَّحذير من المفاجأة، فالآية تصوِّر حالهم عندما تأتيهم السّاعة على حالين: حال الفجأة، وحال عدم الشُّعور، فهُم في غمرةٍ مانعةٍ لهم من إمكان التَّنبُّه للخطر، أو استشعار الضَّرر، وهذا يستلزم تحذيرهم من هذه الموانع الَّتي تحجبهم عن الاحتياط واليقظة.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿يَنظُرُونَ﴾ دون (ينتظرون):

الانتظارُ فيه نوع توقُّعٍ وتعمُّد واكتراث

التَّعبير بالفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ بدلًا من (يَنتَظرونَ) يحمل نكتة بلاغيَّة مهمَّة؛ إذ إنَّ كلًّا من ﴿يَنظُرُونَ﴾ و(ينتظرون) قد يتقاربان في المعنى، لكن اختلاف الصّيغة يؤثِّر في عدم تطابقهما، فـ(ينتظرون - يفتعلون) تعني أنَّهم في حالة ترقُّب متعمَّد، أي: إنَّهم يعلمون أنَّ السّاعة قادمة، وينتظرون وقوعها، وأمّا ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ فتعني أنَّهم ينظرون إليها دون وعي أو اكتراثٍ حقيقيٍّ، أو أنَّهم ينتظرونها بطريقةٍ غير واعية، أي: إنَّها ستفاجئهم، وهم في حالة غفلة.

فالنُّكتة البلاغيَّة إذًا من اختيار ﴿يَنظُرُونَ﴾ دون التَّعبير بـ(ينتظرون)؛ لتصويرهم وكأنَّهم لا يتوقَّعون وقوع السّاعة أصلًا، بل إنَّهم ينظرون إلى الحياة، وكأنَّها مستمرَّة بلا نهاية، في حين أنَّ (ينتظرون) تعني أنَّهم على وعيٍ بمجيئها بحيث يقدِّرونها قدرها، ويستجهزون لها، وهذا لا يتناسب مع حالهم من إنكارها أو تجاهلها، فـ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا تعني عدم الشُّعور الحقيقيِّ بالسّاعة، فهُم ليسوا في حالةِ ترقُّبٍ لها، أمّا (ينتظرون)؛ فتُشعِر بأنَّهم يرصدون مجيئها، وهذا غير دقيق لوصف حال الغافلين.

بلاغةُ الاستثناء المفرَّغ في الآية:

في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾ استثناء مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، على معنى: لا ينتظرون إتيان شيء من الأشياء إلّا إتيان السّاعة، وقد أفاد حصر الانتظار المذكور في السّاعة وحدها، أي: إنَّ السّاعة وحدها هي الَّتي يترقَّبونها، حتّى لو كانوا غافلين عنها في الظّاهر، ففي الاستفهام معنى التَّقرير، وكأنَّ الآية تقول: لا شيء يمكن أن ينتظروه، أو يفاجئهم إلّا السّاعة.

إذا أتتِ السّاعة تفرَّغَتِ النُّفوس لحادِثها وهَوْلِها

وفي هذا الاستثناء المفرَّغ تصويرٌ لغفلتهم الشَّديدة عن الحدث الحتميِّ (إتيان السّاعة وحدها)، ولو قال صراحة بدون تفريغ الاستثناء (هل ينظرون شيئًا إلّا السّاعة)، فقد يُفهم أنَّهم يعلمون بانتظارها، لكنَّ الاستثناء المفرَّغ يجعل السّياق أقوى؛ إذ يوحي بأنَّهم لا ينتبهون لأيِّ شيء آخر، وليس لديهم وعي بأنَّ السّاعة ستأتيهم، لكنَّها قادمة لا محالة.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في هذا السّياق:

اصطفاء لفظ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، ولم يقل: (يوم القيامة) أو (العذاب) أو تعابير أخرى؛ لأنَّ كلمة (السّاعَة) في أصلها تدلُّ على جزءٍ محدَّدٍ

تـأتي السّاعة بالفناء والانقلاب الكلّي كأنَّها الميزان الَّذي سيُعاد به ضبطُ الأمور على غير ما كانت عليه

من الزَّمن، وليس مجرَّد حدَث عامٍّ، فالتَّعبير بها يُضفِي شعورًا بالدِّقَّة والحتميَّة، فهي لحظةٌ محدَّدة آتيةٌ - لا محالة - وأيضًا: للإشعار بسرعتها في أحداثها[1]، وسرعتها في نفسها؛ لسهولةِ إتيانها وحضورها، فهي ساعةٌ وموعِد لا بدَّ من هجومه عليهم في أيِّ وقت.

فلفظُ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يوحِي بأنَّ الأمر ليس طويل الأمد، بل لحظة مفاجئة تقلب كلَّ شيء، وهذا يتناسب تمامًا مع قوله بعدها: ﴿بَغۡتَةً﴾، ممّا يجعل الصّورة أكثر رهبةً وسرعةً وانقضاضًا، وأيضًا التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يَستصحِبُ معه معاني الفناء والانقلاب الكلّي، فالسّاعة ليست مجرَّد لحظة زمنيَّة ستمرُّ عليهم، بل هي لحظة فاصلة بين حالين: من الدُّنيا إلى الآخرة، من الغفلة إلى اليقين، من التَّمادي في الكفر إلى إدراك الحقيقة حين لا ينفع الإدراك، فالتَّعبير بالسّاعة يجعل القارئ يشعر بالفجائيَّة التامَّة لهذا الانتقال العاصف، وهذا اللَّفظ: ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ مُجتلَبٌ للتَّهويل والتَّشويق باللَّفظ ذاته، ففي السّياق القرآنيِّ، لفظ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يحمل رهبة خاصَّة؛ لارتباطه دائمًا بالقيامة والهول العظيم، فمجرَّد ذكر الكلمة يثير في النَّفس مشاعر الرُّعب والاضطراب، ويوحي بأنَّ ما بعدها أمر جسيم لا يُستهان به، كما أنَّ هذا الاصطفاء يختزل أحداثًا جسيمة في لفظٍ واحدٍ قويٍّ، فبدلًا من وصفٍ طويلٍ عن أحداث القيامة، جاءت ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾؛ لتعبِّر عن كلِّ ذلك في كلمة واحدة تختزل المعنى القويَّ والمخيف، وهذا من إيجاز القرآن المعجز؛ إذ تحمل الكلمة الواحدة معاني ضخمة ومترابطة.

وعليه فورود ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ هنا ليس مجرَّد تسمية، بل اختيرت؛ لتوحي بالحتميَّة، والدِّقَّة، والمفاجأة، والانقلاب الكلّيِّ، والرَّهبة العظيمة.

دلالاتُ البدل المطابق في: ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾، جاءت جملة: ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾ بدلًا مطابقًا من ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾[2]؛ لأنَّ انتظارهم للسّاعة معناه انتظارهم لإتيانها، فكأنَّه قال: (هل ينظرون إلّا إتيان السّاعة)، فالبدل المطابق هنا يوضِّح المقصود بدقَّة من المبدل منه، فيؤكِّد أنَّ المراد بالسّاعة هو لحظة وقوعها نفسها، ولو اقتصر التَّعبير على ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 251.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 251.

وحدها، فقد يُفهم أنَّ انتظارهم لها مجرَّد فكرة أو شيءٍ نظريٍّ لم يتعدَّ حيِّز الإخبار، لكن لمّا جاء البدل ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾؛ انتقل الحدث من مجرَّد التَّرقُّب النَّظريِّ إلى الواقعيَّة، كأنَّ الآية تنقل المُخاطَب إلى لحظة وقوع السّاعة نفسها، ففائدة البدل المطابق هنا في قوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾ تصوير الواقعة بأنَّها ستأتيهم حتمًا، فلم تكتفِ الآية بذكر ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾، بل أضافت تفصيلًا بصيغة الفعل ﴿تَأۡتِيَهُم﴾؛ ليدلَّ على أنَّها ستحِلُّ عليهم قطعًا، وكأنَّها تتحرَّك نحوهم بلا مهرَب.

تأتي السّاعة بغتةً؛ ليمتاز بها الأمان الزّائف من الأمان الحقيقيِّ بين الكافر والمؤمن

وأيضًا: التَّعبير بالبدل ﴿أَن تَأۡتِيَهُم﴾ بعد ذكر ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ يجعل السّاعة في مشهدٍ مقابِلٍ لحالهم، فهُم في حالة سكون وطمأنينة زائفة، ثمَّ فجأة تأتيهم السّاعة بشكل مباغِت، فالسّاعة آتية تتحرَّك إليهم، وهم راقدون قاعدون.

سرُّ إيثارِ فعل الإتيانِ دون المجيء:

الكلام عن السّاعة مستقبليٌّ

الإتيانُ قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول[1]، والكلام على السّاعة الَّتي لم تقع، ولم يتحقَّق بعدُ حصولها؛ فناسب فعل الإتيان لا المجيء، فلم يقل: (أن تجيئهم).

دلالةُ قيد إتيان السّاعة بكوْنه: ﴿بَغۡتَةٗ﴾:

حالُ البغتةِ لا يُتاح معه إدراكٌ أو استيعاب؛ لتتكشَّف أحوال النّاس على ما هم عليه

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾، جاءت ﴿بَغۡتَةٗ﴾ مُقيَّدًا بها إتيانُ السّاعة، ولها دلالاتٌ ونِكات:

منها: التَّأكيد على عنصر المفاجأة الكاملة، فـ﴿بَغۡتَةٗ﴾ تعني أنَّ السّاعة ستأتي دون أيِّ مقدِّمات يشعرون بها.

ومنها: نفيُ التَّوقُّع والاستعداد، فلم يقل: (فجأة)، بل اختار ﴿بَغۡتَةٗ﴾، وهي أشدُّ وقعًا؛ لأنَّ البغتة لا تتيح لحظةَ إدراك أو استيعاب؛

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

لأنَّها من حيث لا يحتسِب[1]، ولكونها فجأةَ شدَّةٍ أو مكروه[2]؛ ولذا كان التَّعبير بـ﴿بَغۡتَةٗ﴾ يحمِل معه إحساس الصَّدمة القويَّة، فهي ليست مجرَّد مفاجأة عاديَّة، بل هي تحوُّل فجائيٌّ من حالٍ إلى حالٍ أخرى، تُسبِّب الهلع والرُّعب، كأنَّ السّاعة تنقضُّ عليهم، وهم في غفلتهم، فلا مهرب منها، وهذا يتناسب مع حال الكفّار الَّذين كانوا ينكرون السّاعة، أو يؤجِّلون التَّفكير فيها والاعتبار بها، فيفاجَؤون بها دون استعداد.

بلاغةُ مجيءِ الحال مصدرًا في: ﴿ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾:

بغتةُ السّاعة لن تسمح لأحدٍ أن يظهر على غير حقيقته، كما كان يفعل إذا اختلط مع النّاس

في الآية الكريمة: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾، جاءت ﴿بَغۡتَةٗ﴾ حالًا على هيئة مصدر، بدلًا من أن تأتي بصيغة اسم الفاعل (مثل: باغِتةً)، وذلك لغرض المبالغة في وصف المُباغَتة، فعندما تأتي الحال بصيغة المصدر بدلًا من الوصف المشتَقّ، يكون ذلك أشدَّ قوَّة وأبلغ تأثيرًا، فكلمة ﴿بَغۡتَةٗ﴾ تعني مباغتةً شديدةً لا تحتمل التَّدريج، أي: إنَّ وقوعَ السّاعة سيكون بكامل معنى المباغتة، وليس مجرَّد مفاجأة جزئيَّة، فالمصدر يصوِّر حدث السّاعة وإتيانها، وكأنَّه ذاته عنصرُ المفاجأة، فلو قيل: (باغتةً) اسم فاعل، فقد يفهَم أنَّ السّاعة تحدث، وفيها عنصر الفجأة، أي: آتيةٌ على تلك الهيئة، لكن استعمال المصدر ﴿بَغۡتَةٗ﴾ يجعل الأمر أقوى؛ إذ يصير المعنى: أنَّ طبيعة مجيء السّاعة نفسها هي المباغتة الخالصة، وكأنَّها لم تأتِ إلّا بصفتها هذه، ومن ثَمَّ فالمصدر يُشير إلى أنَّ السّاعة لا تعطي فرصةً لأيِّ إدراك أو تفاعل، فهي ليست مجرَّد حدث مفاجئ، بل هي كاملُ المُباغتة في لحظة خاطفة لا تُدرَك.

(1) الراغب، المفردات: (بغت).

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغت).

دلالةُ الحال المؤكِّدة في: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

الكافر في غفلةٍ مستمرَّة عن الحقائق، فأعظم حقيقةٍ - وهي السّاعة - لن يدركها

قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالٌ مؤكِّدة لمضمون الجملة قبلها[1] في قوله: ﴿تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾؛ لأنَّ مدلول (إتيانها بغتة) يقتضي عدم شعورهم بوقوع السّاعة حين تقع عليهم[2]، فهذه الحال هنا توضِّح طبيعة المباغتة في الجملة قبلها، ولذلك لو قيل فقط: (تأتيهم السّاعة بغتة) وسكت، فقد يُفهم أنَّ هناك درجاتٍ متفاوتة من المباغتة، كأن يشعروا ببعض علاماتها، ولكن لا يتوقَّعونها بالكامل، لكن إضافة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ تؤكِّد أنَّ المباغتة تامَّة، بلا أيِّ إدراكٍ مُسْبَق، حتّى على مستوى الشُّعور الغامض الباطنيِّ، وهو ما يندرج فيه التَّخمين والتَّوقُّع، فالحال المؤكِّدة هنا تنفي عنهم كلَّ استعدادٍ نفسيٍّ أو فكريٍّ، فمجرَّد الشُّعور الدّاخلي باقترابها مفقود عندهم، وهذا يجعل البغتة أعظم، ويصوِّرهم، وكأنَّهم مغمورون في الغفلة برغم لحظةِ الانقضاض المباغِتَة للسّاعة، وعليه: فاعتبار قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالًا مؤكِّدة معناه أنَّها لا تضيف حدَثًا جديدًا، بل تؤكِّد، وتعمِّق معنى ﴿بَغۡتَةٗ﴾ في الجملة قبلها.

ويصحُّ أن تكون جملة: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالًا مؤسِّسة، تضيف معنًى جديدًا لم يكن مفهومًا مباشرةً من الكلام السّابق، وهو وصفهم بعدم الشُّعور في عموم أحوالهم لغفلتهم وانكبابهم على زهرة الحياة الدُّنيا، لا بالنَّظر إلى خصوص ذلك الموقف، وهو (مجيء السّاعة بغتة)، فكأنَّه قال: (تأتيهم السّاعة بغتة، والحال أنَّهم قوم لا يشعرون في كلِّ حال، فأنّى لهم بإدراك تلك الحالة الخاصَّة، وهي مجيء السّاعة، لا ريب أنَّ شعورهم بها أنفى وآكَد، والفرق بين هذه الحال والحال المؤكِّدة، أنَّ عدم شعورهم - على

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 308.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 251.

اعتباره حالًا مؤكِّدة لما قبلها - يقترن بمضمون الجملة قبله، فإذا انقضى مجيء السّاعة بغتة؛ انقضى معه حالهم بعدم شعورهم، وأمّا على اعتبار ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالًا مستقلَّة، فهي حالٌ لا تلزم عمّا قبلها وجودًا أو عدمًا.

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩﴾ [الزّخرف: 67 - 69]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

أهل التَّقوى هم أهـل الجماعة والاعتصام

لمّا ذكر في الآية السّابقة الوعيد والتّهديد بإتيان السّاعة بغتة، لأولئك المشركين والمتحزّبين المختلفين ظلمًا وعدوانًا، وكان في العادة أنَّ أفراد كلِّ حزبٍ وطائفة يتعاضدون، ويتوادون، ويصيرون أخلّاءَ على ما اعتنقوه، وأذعنوا له، فكان بعضُهم وليًّا وخليلًا لبعض؛ أخبر هنا في هذه الآية عن مصير أولئك بعد أن تأتيهم السّاعة، وتقوم قيامتهم، فلا تدوم خُلَّةٌ ولا ولايةٌ لأحدٍ مع أحد، إلّا لأهل التَّقوى والإيمان، وهم أهل الجماعةِ والاعتصام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾: جمع (خليل)، وهو الحبيب، والرَّفيق، والنّاصح، والصّادق[1]، والصَّديق، والخُلَّة: الصَّداقة والمودَّة[2]، وأصله من (الخَلَل) وهو الفُرجةُ بين شيئين، والخَلُّ: خَلُّك الكساءَ على نفسك بالخِلال، ومن هذا الخليل الَّذي يخالُّك، كأنَّكما قد تخاللتما، كالكساء الَّذي يخلُّ، والخُلَّةُ: المودَّة، إمّا لأنّها تتخلَّل النَّفس، أي: تتوسَّطها، وإمّا لأنَّها تُخِلُّ النَّفس، فتؤثِّر فيها تأثير السَّهم في الرَّميَّة، وإمّا لفرط الحاجة إليها، فهي تُصيب النَّفس بالخَلَل[3]، ومعنى ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ في الآية: الصّاحب الملازم[4].

(1) الأزهري، التهذيب: (خل).
(2) الجوهري، الصحاح: (خلل)، وابن الهائم، التبيان، ص: 144.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 253.

المَعنى الإجْماليُّ:

يُديم اللهُ اجتماع أهل التَّقوى في الآخرة، كما اجتمعوا على دينه ووحيه في الدُّنيا

جاءت هذه الآياتُ المُحكمات إنذارًا للكافرين الَّذين كانت صداقاتهم في الدُّنيا تقوم على محاربة الحقِّ، ومناصرة الباطل، وبشارةً عظيمة للمتَّقين الَّذين بنوا صداقاتهم في الدُّنيا على طاعة اللّه تعالى ونصرة دينه، والعمل بشريعته، ومعنى الآيات: الأصدقاء الَّذين كانوا أخلّاء في الدُّنيا يصير بعضهم لبعض يوم القيامة أعداء؛ لأنَّهم كانوا يجتمعون على الشُّرور والآثام في الدُّنيا، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان، فلمّا جاء يوم القيامة، وانكشفت الحقائق؛ انقلبت صداقتهم إلى عداوة، إلّا المُتَّقينَ، فهُم في سلام وأمان من العداوة، فإنَّ صداقتهم في الدُّنيا تنفعهم في الآخرة؛ لأنَّهم أقاموها على الإيمان والعمل الصّالح والطّاعة للّه ربِّ العالمين[1]، ثمَّ ذكر ثواب المتَّقين، وأنَّ اللّه تعالى يناديهم يوم القيامة بما يَسُرُّ قلوبهم، ويُذهِب عنهم كلَّ آفةٍ وشرٍّ، فيقول: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كلِّ وجه؛ ثبت المحبوب المطلوب[2]، ثمَّ وصف سبحانه هؤلاء العباد، وأخبر أنَّهم إنَّما استحقّوا هذا التَّكريم من اللّه ﷻ بندائهم، وبإضافاتهم إلى ذاته ﷻ؛ لأنَّهم آمنوا بآيات اللّه، وعملوا بما جاءتهم به رسلهم، وكانوا مستسلمين منقادين للّه ربِّ العالمين بقلوبهم وجوارحهم، فجمعوا بين الاتِّصاف بعمل الظّاهر والباطن[3]، أو كانوا مسلمين قبل أن يكونوا مؤمنين، فقبل أن يؤمنوا على يد الرُّسل، ويصدِّقوا بآيات اللّه الَّتي في أيديهم،

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 98.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 796.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 160، ومجمع الملك فهد، الميسر في التفسير، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 769.

كانوا مسلمين، أي: على فطرتهم السَّليمة، الَّتي لم تفسدها الأهواء الموروثة، فكانوا على السَّلامة والبراءة، حتى إذا التقَوا برسل اللّه، ونظروا فيما معهم من آيات؛ استجابوا لدعوة الحقِّ، وآمنوا بآيات اللّه، فكانوا كالأرض الطَّيِّبة، الَّتي احتفظت بكلِّ ما فيها من خير، حين لم تجد الماء الَّذي يحيي مواتها، حتّى إذا أمطرها الغيْث؛ اهتزَّت، وربت، وأنبتت من كلِّ زوج كريم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ﴾ ممّا قبلها:

انقلاب الصَّداقات وتحوُّل العلاقات يوم القيامة على أساس ميزان التَّقوى والإيمان

جملة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ بديع المناسبة مع ما قبله، كأنَّه لمّا قال: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾، وقال عنهم: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾، كأنَّه سأل سائل: فما حال أولئك الأحزاب المجتمعين المتعاضدين، كلُّ فريقٍ منهم صاروا أخلّاءَ على ما اعتنقوه، وأذعنوا له؟ كيف حالهم؛ إذا أتتهم السّاعة، وقامت القيامة؟ فأجيب بأنَّهم ينقسمون إلى فريقين: حزب الأخلّاء الأعداء المتخالفين، وحزب المتَّقين الخُلصاء المتوالفين، فذلك الجوابُ هو قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

بيانُ أهوال القيامة موعظة وتحذير

ويفيد هذا الاستئنافُ أمرين: **أحدهما**: بيانُ بعض الأهوال الَّتي أشار إليها إجمال التَّهديد في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾، **والآخر**: موعظة المشركين بما يحصل يوم القيامة من الأهوال لأمثالهم والحَبَرة للمؤمنين[2].

معنى (ال) في: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 160.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 253.

المتَّقون يبتعدون عن العداوات في الدُّنيا، وهم سالمون منها يوم القيامة

عَدُوٌّ﴾ للاستغراق العرفيِّ، أي: الأخلّاء من فريقي المشركين والمؤمنين أو الأخلّاء من قريش المتحدَّث عنهم، وسبب أنَّه استغراق عرفيٌّ أنَّه يوجد مِنَ الأخلّاء غير المؤمنين من لا عداوة بينهم يوم القيامة، وهم الَّذين لم يستخدموا خُلَّتهم في إغراء بعضهم بعضًا على الشِّرك والكفر والمعاصي، وإن افترقوا في المنازل والدَّرجات يوم القيامة[1].

العهد الذِّهنيُّ يُراعى فيه حال المخاطَب في أسبقيَّة معرفته بما سيُلقى عليه

ويصحُّ أن تكون (الـ) في ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، على اعتبار أنَّ الآية تشير إلى نوع معيَّن من الأخلّاء معروف في الذِّهن، وهم الأخلّاء في الدُّنيا الَّذين جمعتهم المودَّة والصَّداقة على غير التَّقوى؛ لأنَّ الاستثناء في الآية ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ المقصود هم الأخلّاء الَّذين لم يكونوا على تقوى، والفرق بين كونها للاستغراق العرفيِّ، أو للعهد الذِّهنيِّ، هو اعتبار حال المخاطَب في أسبقيَّة معرفته بما سيُلقى عليه، ففي العهد الذِّهنيِّ يقع الخطاب بما للمخاطَب عهدٌ به، فينجذب ذِهنُه إليه، وأمّا في الاستغراق العرفيِّ؛ فلا ينبني على هذا الاعتبار.

نكتةُ تقديم الظَّرف: ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾:

يوم القيامة يفضح حقائق العلاقات، الزّائف منها والحقيقي

تقدَّم الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ برغم تعلُّقه بـ﴿عَدُوٌّ﴾[2] في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾، فلم يقل: الأخلّاء بعضهم لبعض عدوٌّ يومئذٍ، أو الأخلّاء بعضهم لبعض يومئذٍ عدوٌّ؛ وذلك لنكات بلاغيَّة بديعة، منها: الاهتمام بالظَّرف والزَّمان المدلول عليه[3]، فبتقديم ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾، يصبح الاهتمام منصبًّا على ذلك اليوم العظيم (يوم القيامة)، وذلك يلفت الانتباه إلى التَّحوُّل الجذريِّ الَّذي سيحدث فيه؛ إذ تتبدَّل الصَّداقات إلى عداوات.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 253.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 97.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 347.

كأنَّ الآية تقول: في ذلك اليوم خاصَّة، وليس في أيٍّ يوم آخر، سيتحوَّل الأخلّاء إلى أعداء، فتترسَّخ بذلك في الذِّهن هيبةُ الموقف.

ومنها: الإيحاء بالمفارقة العظيمة بين الدُّنيا والآخرة، فحين يسمع القارئ كلمة ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ أوّلًا، يتوقَّع حديثًا عن الصَّداقة أو المحبَّة، ثم تأتي ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ فجأة؛ لتشعره بالتَّحوُّل الكبير الَّذي سيحصل، فيزيد من عنصر المفاجأة والتَّدبُّر في النَّظم، وهذه المفارقة بين ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾: المودَّة في الدُّنيا، و﴿عَدُوٌّ﴾: العداوة في الآخرة، تتجلّى بشكل أقوى عندما يأتي الظَّرف مبكِّرًا؛ ليجعل القارئ يتساءل: لماذا هذا الانقلاب في العلاقات؟

ومن أسرار تقديم الظَّرف هنا أيضًا: التَّنبيه إلى أنَّ العداوة مقيَّدة بيوم القيامة فقط، فلو تأخَّر الظَّرف ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ إلى آخر الجملة، فقد يُفهم أنَّ العداوة مستمرَّة في كلِّ زمان، في حين أنَّ المقصود أنَّ التَّحوُّل يقع تحديدًا يوم القيامة، فبالتَّقديم يصبح المعنى: هذه العداوة غير ظاهرة في الدُّنيا، بل هي عداوة تظهر فقط يوم القيامة، وهذا يزيد من التَّأثير الغيبيِّ المؤذن بعاقبة السّوء في الآية، ولا ينفي وجودها في الدُّنيا، بل ينفي إدراكها وظهورها فقط فيها.

نكتةُ الإخبار بالبعضيَّة في: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾:

ترسيخُ التَّناقضِ بين الحبِّ في الدُّنيا والعداوة في الآخرة

لم يقل: (الأخلاء يومئذٍ أعداء)؛ للتَّنبيه بالبعضيَّة على العداوة المتبادلة، فلو قيل: (الأخلاء أعداء)، فقد يُفهم أنَّ العداوة من طرف واحد، أي: إنَّ بعضهم يعادي الآخرين، لكن لا يلزم أن يكون الجميع في حالة عداء متبادل.

أمّا حين يقول: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾؛ فهذه الصّياغة تؤكِّد أنَّ العداوة ليست من طرف واحد فقط، بل هي عداوة متبادلة بين جميع الأخلّاء، كلُّ واحد يعادي الآخر؛ لأنَّ كلَّ واحد يشعر بأنَّه كان

سببًا في ضلال صاحبه، وفي التَّعبير بالبعضيَّة تصويرٌ دقيقٌ لحال التَّفرُّق والانقسام، بتصوير كيف أنَّ الأخلّاء الَّذين كانوا في الدُّنيا على قلبٍ واحد، يتفرَّقون، ويتعادون يوم القيامة، فكأنَّه حين يقول: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ معناه أنَّهم صاروا تباعيض تفاريق، وهذه الهيئة أبلغ من مجرَّد وصفهم بـ(الأعداء)؛ لأنَّها توضِّح كيف تنقسم المجموعة إلى أطراف متنازعة، كلُّ طرف يتبرَّأ من الآخر، وفي ذكر البعضيَّة أيضًا تنويعٌ في مقدار العداوة بين الأفراد، فبعض العلاقات قد تكون أشدَّ عداوة من غيرها، فهناك من كان أكثر تأثيرًا في إضلال صاحبه، فاستعمال ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ يشير إلى أنَّ العداوة قد تختلف في شدَّتها من شخص لآخر، لكنَّها تشمل الجميع.

وأيضًا قوله: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فيه إشارة إلى استغراق العداوة في كلِّ أفراد الأخلّاء، فحين يقول: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ﴾ يفيد أنَّ كلَّ واحد منهم يُعادي الآخر، فيشمل ذلك جميع الأخلّاء في علاقاتهم المتشابكة، في حين أنَّ التَّعبير بـ(أعداء) قد يوحِي - فقط - بوصف عام دون بيان التَّفاعل الدّاخليِّ بين الأفراد، ولا يخفى ما في التَّعبير بالبعضيَّة من تعزيز المفارقة بين تحالف الدُّنيا واتِّحادها، فكان بعضهم لبعضٍ نصيرًا وظهيرًا، وفي الآخرة بعضهم لبعضٍ عدوًّا ومبغضًا.

نكتةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

عداوةُ الظّالمين يوم القيامة بمثابة هويَّة متأصِّلة في نفوسهم

عبَّر بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ولم يقل: (يعادي بعضهم بعضًا)؛ لِما في الاسميَّة من الدَّلالة على الدَّوام والثُّبوت[1]، فقوله: ﴿عَدُوٌّ﴾ بدلًا من (يُعادي) يفيد أنَّها عداوتهم في حالٍ مستمرَّة ودائمة بينهم يوم القيامة، فلا تقبل الانقطاع الَّذي يطرأ على الأزمان؛ لأنَّه لا زمنَ يوم القيامة، فعبَّر كذلك بما هو

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 347.

أنسب بواقع الموقف، ولا يخفى ما في التَّعبير بالاسميَّة من التَّصوير البليغ لحقيقة العداوة، بجعل العداوة كأنَّها صفة ثابتة للأخلّاء يوم القيامة، وكأنَّها شيء متحقِّق لا يتغيَّر، ولو قال: (يُعادي)، فيحتمل أنَّ العداوة تحدث في وقت معيَّن، لكن لا يلزم ديمومتها، هذا والاسميَّة في قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾، يُشعِر السّامع بأنَّ العداوة المذكورة ليست في الأفعال فقط، بل صارت من خصائص طباعهم ومن حقيقة ذواتهم، فهي حقيقة ثابتة، وأصيلة في كيانهم يوم القيامة، ومن أهمِّ ما يوحِي به التَّعبير بالاسميَّة هنا المقابلة البديعة مع لفظة ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾، فكأنَّه يقول: كما كانت خُلَّتُهم ثابتةً في الدُّنيا يُعرفون بها، ويوالون عليها، بل كانت لهم عنوانًا وعلامة، فيقال: هؤلاء فلانٌ وفلان وفلان أخلّاء، كأنَّهم جماعةٌ واحدة ونَسَبٌ واحد، فكما كان ذلك كذلك من الثُّبوت وعدم الانقطاع، فكذلك عداوتهم يوم القيامة ثابتةٌ لا تنقطع، وكأنَّ هذا من باب السُّنَّة المطَّردة أنَّ الجزاء من جنس العمل!

وجهُ التَّعبيرِ بلفظة ﴿عَدُوٌّ﴾ دلالةً ومعنى:

شـدَّةُ الـعـداوةِ في الآخـرة تفوق مـا في الـدُّنـيـا، فـهـي دائـمـة ومـسـتـنـفـدة للنُّفوس

كلمة ﴿عَدُوٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ صيغة مبالغة على زنة (فَعول) من اسم الفاعل (عادٍ)، فهي كصبور وشكور؛ للدَّلالة على كثرة الفعل وقوَّته ودوامه[1]، كأنَّه لشدَّة العداوة فيهم وشمولها لهم صاروا كأنَّهم ذاتٌ واحدة تُستنفَدُ في العداوة، كما يُستنفَدُ الوَقودُ في الاشتعال والاحتراق[2]، فصار معنى ﴿عَدُوٌّ﴾ هنا: (مُعادٍ شديدُ العداوة).

ويجوز أن يكونَ ﴿عَدُوٌّ﴾ اسمًا شبيهًا بالمصدر؛ لكونه على

(1) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 100.
(2) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 101.

وزنٍ من أوزانه[1]، فيدلَّ على العداوة نفسها دون أن يكون مصدرًا صريحًا، فكأنَّه يقوم هنا مقام المصدر، ويحلُّ محلَّه، فهو يحمل معنى (العداوة)، إلّا أنّه يحتفظ بالمعنى الدّالّ على الذّات المتَّصفة بالعداوة كاسم الفاعل وصيغة المبالغة، ولذلك كان شبيهًا فقط، وليس مصدرًا صرفًا، وليس كذلك اسم مصدر؛ لأنَّ اسم المصدر يتعلَّق بالتَّخفيف اللَّفظي من حروف المصدر دون تعويض، مع دلالته على الحدث مجرَّدًا[2].

نكتةُ مجيء ﴿عَدُوٌّ﴾ بصيغة الإفراد:

عـــداوةُ أهـل الباطل بينهم يـوم القيامة شاملة لهم فردًا فردًا

لم يقل في السّياق الكريم: بعضهم لبعضٍ أعداء، بل عبَّر بصيغة الإفراد: ﴿عَدُوٌّ﴾؛ للتَّنبيه على وحدة تلك العداوة فيما بينهم، فكأنَّها محلُّ اتِّفاقٍ وإجماعٍ منهم، فلا أحد يدعو هنا إلى فضِّ النِّزاع، أو إعادة المودَّة كما كانت، فكأنَّ العداوة تحوَّلت إلى كيان واحد يلتفّون حوله جميعًا، فهُم يشتركون في هذه العداوة، وكأنَّهم جميعًا خصمٌ واحد لبعضِهم بعضًا، كذلك التَّعبير بصيغة الإفراد مُشْعِرٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ منهم عدوٌّ للآخَر، فالواحد فيهم عدوٌّ لكلِّ ما سواه، فانتفى عنهم مبدأ الحزب أو الجماعة أو الأخوَّة كليَّةً.

وفي التَّعبير بصيغة الإفراد: ﴿عَدُوٌّ﴾ تصويرُ أنَّ مستوى العداوة بينهم واحد، فكلُّ فردٍ فيهم تحقَّقت فيه العداوة للآخر بنفس المستوى الَّذي وُجِدَ في صاحبه له، على خلاف ما يكون في الدُّنيا، فقد يتعادى اثنان، وعداوة أحدهما أقلُّ من عداوة الآخر، بل قد يُخاصِم الإنسانُ مَن لا يُخاصمه، ولا يُعاديه، وأمّا في الآخرة؛ فلا مثنويَّة في العداوة ولا تفريط، كأنَّهم يُعذَّبون بها مِن غليانها في نفوسهم وعدم انفكاكها عنهم.

---

(1) صافي، الجدول: 1/ 113.

(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 164.

بلاغةُ المجازِ المرسل في كلمتَي: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ و﴿عَدُوٌّ﴾:

في كلمة ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما كان، فإنَّ إطلاق وصف الأخلّاء عليهم يوم القيامة هو بهذا الاعتبار الماضي في الدُّنيا؛ لأنَّه تمتنع الخُلَّةُ بينهم بثبوت وصف العداوة لهم[1]، ونكتةُ التَّعبير بالمجاز: التَّذكير بحقيقة علاقتهم في الدُّنيا، وأنَّها كانت في أتمِّ درجات الوِفاق، فانقلبت إلى عداوةٍ محضة، لئلّا يُتوهَّم أنَّها عداوةٌ عن علاقةٍ هشَّة أو قاصرة، ولإيقاف المخاطَب على التَّحوُّل العظيم والانقلاب الصّادم في العلاقة، فالمجاز يعمِّق أثرَ المفارقة، وفجأةَ تحوُّل الحال في النُّفوس، وفي ذلك المجاز تحسيرٌ وتبكيتٌ لهم وتهكُّمٌ بهم، فحين يقول: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾، ثمَّ يقول: ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾، كأنَّ الآية تقول: أين صداقتكم الآن؟ أين محبَّة الدُّنيا ومصالحها؟ لقد ذهبت، وأصبحت عداوة.

المـجـاز في (الأخلاء) يعمِّق الحسرة على صداقة لم تكن على تقوى

دلالةُ النِّداء في: ﴿يَٰعِبَادِ﴾:

النِّداء في قوله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ إيذانٌ بتشريفهم وتعظيم مقامهم عند الله؛ لأنَّ افتتاح الكلام بالنِّداء (يا) يدلُّ على الاهتمام والعناية بالمُنادى، وفي النِّداء استدعاءٌ لهم أن ينتبهوا؛ لما سيُلقَى عليهم من البُشرى العظيمة بنفي الخوف والحزن عنهم الَّذي هو إيذانٌ لهم بالفوز بالنَّجاة والنَّعيم الأبديِّ، وفي النِّداء أيضًا إشعارٌ لهم باستحقاق الأمن والتَّطمين بسبب تقواهم، بعد الإخبار عن عداوة الأخلّاء، فكأنَّه بالنِّداء يجلّي معنى المقابلة والمفارقة بين الفريقين، فهناك من انقلبت مودَّتهم إلى عداوة، فاستحقّوا الإبعاد والإقصاء، وهناك المتَّقون العباد المخلصون، فاستحقّوا الإقبال عليهم وتقريبهم بالنِّداء والاجتباء.

النِّداء الإلهيُّ تشريفٌ وتطمين للمتَّقين في جوٍّ مشحونٍ بالعداوات

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 97.

دلالةُ إيثار النِّداء بلفظ العباد:

عبادُ اللهِ المخلصون أهلٌ للتَّشريف والتَّكريم

اختيار كلمة (عِبادِ) بدلًا من أيِّ وصفٍ آخر يُظهر تشريفهم وإكرامهم؛ لأنَّهم عباد اللّه المُخلِصون له بالتَّقوى في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فهذا الخطاب يأتي بعد ذكر حال الأخلّاء الَّذين صاروا أعداءً، فيكون فيه مقابلة بين حال أهل العداوة وأهل التَّقوى، فيزداد التَّشريف وضوحًا، ونداؤهم بوصف العبوديَّة يحمل بُعدًا عاطفيًّا يُثير مواجيدَهم، فحين يُخاطبهم بـ﴿يَٰعِبَادِ﴾، فكأنَّه يُخاطبهم باللُّطف الإلهيِّ والحنان الرَّبّانيِّ، فهو ليس مجرَّد خطابٍ عاديٍّ، بل خطاب حبٍّ ورضًا ومودَّة، وكأنَّ اللّه يُجازيهم بعكس أولئك، فإذا كان لِلأخلّاء العداوة والاضطراب، فلكم أنتم يا عبادي مودَّة الرَّحمن الَّتي تُنْهِي المخاوف، وتقطع الأحزان، ولا يخفى ما فيه من المقابلة البديعة في الجزاء.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿يَٰعِبَادِ﴾:

سياقاتُ التَّكريم تستوجب التَّعبير بألفاظ الكرامة والتَّشريف

جاءت الآية على قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، ولم يقل: (يا عبيدي)؛ لأنَّ لفظ (عباد) يعبِّر عن التَّشريف والتَّكريم، في حين لفظ (عبيد) يوحِي بالقهر والمِلك المجرَّد، ولفظ (عباد) يدلُّ على أنَّهم عبدوا اللّه اختيارًا بإرادتهم، وليس كلُّ الخلق كذلك، ثم إنَّ سياق الآية عن المقام الأخرويِّ، وهو سياق رحمةٍ وبشرى وتكريم، يتناسب معه التَّعبير بـ(عباد)، ولو قال: (عبيدي)؛ لأشعرَ بالقهر والإخضاع، وهو غير مناسبٍ لمقام التَّكريم والإنعام.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿يَٰعِبَادِ﴾:

جملة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ واقعةٌ مقولًا لقولٍ محذوف، وتقدير الكلام: (... إلّا المتَّقين، يقول اللّه لهم: يا عباد لا خوف عليكم)، وحُذِفَ ذلك القول للإيجاز، وللإسراع بندائهم بالبشرى، دون الحاجة لتعيين القائل؛ لشدَّة ظهور ذلك؛

إذ لا يُناديهم بوصف العبوديَّة إلّا الله، ففي ذلك الحذف إشارةٌ إلى سرعة حدوث ذلك الخطاب في الآخرة، بما يُشْعِر بالفصل الفوريِّ بين أهل النَّجاة وأهل العذاب، وحذف القول - أيضًا - من دلائل الاهتمام بالمنادى والدُّخول عليه مباشرةً من غير تطويلٍ وإطناب، ففيه إشعارٌ بقربهم من الله، وأنَّهم منه في مقام الحضور والشُّهود، وفي الحذف - أيضًا - قَصدُ تنبيه السّامع مباشرةً إلى النِّداء الإلهيِّ لهم؛ ليتشوَّق إلى جوابه - جواب النِّداء - ويقبِل على النِّداء الإلهيِّ بكامل وجدانه.

الخطابُ الرَّبّانيُّ لأهـل الإيـمـان يـعـكـس رحمة الـلـه ومقابلة جزائـهـم بجزاء الأعداء

دلالةُ النَّفي للخوف:

نفيُ الخوفِ في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ ليس مجرَّد نفي عاديٍّ، بل هو تأنيسٌ وتطمينٌ للمؤمنين، ونفي الشَّيء يكون بليغًا ومؤكَّدًا؛ إذا صدر من جهةٍ عليا، فكيف إذا صدر من الله سبحانه؟ وهذا النَّفي يتَّسق مع السّياق الأخرويِّ، فالآية تخاطِب المؤمنين في موقف القيامة، وهو يوم أهوال عظيمة، فكان هذا النَّفي بمنزلة تأمين وطمأنينة لهم وسط مشاهد الفزع والهلع، كأنَّ الله يخبرهم: ألّا تخافوا من الحساب أو العذاب، فأنتم في أمان تامٍّ.

الأمــــنُ يــوم الـقـيـامـة جـزاء التَّقوى والإيمان

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسميَّة:

التَّعبير بـ ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ بالجملة الاسميَّة يدلُّ على ثبوت الأمن واستمراره، لا مجرَّد نفيه في لحظة معيَّنة، فهذا يعني أنَّ الخوف غير موجودٍ وغير مُمْكِنٍ أصلًا في حقِّهم، لا في الحاضر ولا المستقبل.

الأمــــن يــوم الـقـيـامـة حـالٌ دائــمــة لأهـل الإيمان

نكتةُ الجمع بين الخوف والحزن في حيِّز النَّفيِّ:

الجمع بين نفي الخوف والحزن في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، يؤكِّد كمال النَّعيم النَّفسيِّ لأهل الجنَّة، فلا مخاوف مستقبليَّة ولا أحزان على ما مضى.

لا يكون النَّعيم كاملًا حتّى يخلو مـن المـخـاوف والأحزان

فائدةُ شبه الجملة في: ﴿عَلَيۡكُمُ﴾:

الفزعُ حالٌ عامَّة ليوم القيامة يأمنُ منها المؤمنون وحدهم

ذكر ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ بعد ﴿لَا خَوۡفٌ﴾ يُفيد التَّخصيص، أي: إنَّ هذا النَّفي موجَّه إليهم خصوصًا، وليس عامًّا لكلِّ النّاس، فشبه الجملة دلَّ على أنَّهم المقصودون بالنَّفي دون سواهم، فأفاد أنَّهم متميّزون بالأمان في حين أنَّ غيرهم قد يخاف، وهذا يشبه قول اللّه: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]، أي: إنَّ الفزع موجود، لكنَّه لا يصيبهم.

دلالةُ الظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في سياق نفي الخوف عنهم:

يحصل الأمن للمتَّقين في أصعب الأوقات خطرًا وفزعًا!

التَّقييد بالظَّرف في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ دلَّ على تعيين الزَّمان الَّذي يقع فيه أمان المتَّقين من الخوف الحالِّ بغيرهم، فكأنَّه يقول لهم: في هذا اليوم المشحون بالخوف، أنتم في أمان تامٍّ، وهذا التَّعيين الظَّرفيُّ يُعزِّز من المُفارقة الحاصلة في الجزاء بين أهل الإيمان وأهل العذابِ، وأيضًا لمجيء الظَّرف هنا وظيفة بديعة في سياق نفي الخوف عنهم، وهو التَّوكيد على الأمن في أشدِّ الأوقات حاجةً إليه، ففي الحياة الدُّنيا، قد يُقال لشخص: (لا تخف) في موقفٍ عاديٍّ، لكن قيمة الجملة تتضاعف؛ إذا قيلت أثناء خطرٍ شديد، كذلك هنا جاء نفي الخوف في أصعب موقف يمكن أن يمرَّ به الإنسان، وهو يوم الحساب، ممّا يجعل هذا التَّأمين ذا دلالةٍ عظيمة، وهو التَّوكيد على أنَّ انتفاء الخوف واقعٌ لهم في أشدِّ الأوقاتِ خَطَرًا، وأيضًا في الإتيان بالظَّرف في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ تلميحٌ إلى نفي الخوف بعده؛ لأنَّه إذا كان لا خوف عليهم في هذا اليوم العصيب الَّذي لا نظير له في كربه وشدَّته، فمن باب أولى أنَّه سيستمرُّ انتفاءُ الخوف عنهم بعده في الجنَّة.

سرُّ تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ:

تقديمُ المسند إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿تَحۡزَنُونَ﴾ أفاد

تأكيد النَّفي وتقويته مع حصره وقصره عليهم دون غيرهم، فكأنَّه قيل لهم: (أنتم لا تحزنون وغيركم يحزن في ذلك اليوم)، ممّا يجعل الجملةَ أوضحَ في التَّفريق وتقرير التَّباين بين المؤمنين وغيرهم من الكافرين، فكأنَّ المعنى: أمّا أنتم، فمُبَاينون تمامًا لهؤلاء الكافرين، فلا حزن عليكم.

خصوصيَّة النَّجاة ثابتةٌ للمؤمنين وحدهم

نكتةُ نفي المصدر في الخوف، ونفي الفعل في الحزن:

في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ نفى الاسم في الخوف، ونفى الفعل في الحزن؛ لأنَّ الخوف يكون توقُّعًا لِما سيحصل، والحزن انفعالٌ لِما قد حصل، والَّذي سيحصل لم يقع بعدُ في زمن الخطاب، فحَسُن أن ينفي لهم وجوده أصلًا، وذلك يكون بالاسم لا بالفعل، وأمّا الحزنُ؛ فإنَّه لا يكون في الحاضر إلّا على سببٍ حصل في الماضي، وهؤلاء قد حصلت لهم أحزانٌ في الدُّنيا، فليس لهم ماضٍ إلّا في الدُّنيا، فلو عاوَدَتهم في الآخرة ذكرياتُ الأحزان لتجدَّد لهم الحزن، فنفى اللّهُ عنهم ذلك التَّجدُّد وتلك المُعاوَدَة، وهذا يناسبه التَّعبير بالفعليَّة، فكأنَّه قال لهم: الخوف غير موجود، والحزن لن يُعاودكُم، ولن يتكرَّر لكم؛ لأنَّ أسبابه الماضية انقطعَتْ في الزَّمن بفواتها، وانقطعَتْ في الشُّعور، فاجترارها لا يغمُّهم، بل يُفرحهم؛ لأنَّها ذهبتْ، ولن تعود.

أمْنُ المؤمنين من المخاوف يقتضي انتفاء الحزن تلقائيًّا

دلالةُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جملة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ نعت للمنادى من قوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، وجيء فيها بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ ليتمكّن وصفه بمضمون الصِّلة، وذلك لدلالتها على علَّة انتفاء الخوف والحزن عنهم[1]، فدلَّت هذه الصِّلة على أنَّ نفي الخوف والحزن عنهم مُسَبَّبٌ عن إيمانهم واستسلامهم للّه.

الإيمانُ والاستسلام سبب الأمن في الآخرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 254.

دلالةُ ارتباط الإيمان بآيات الرَّحمن:

ذكر اللَّه الإيمان مقرونًا بآياته مجموعًا مضافًا إلى ضمير التَّعظيم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، ولم يقل مثلًا: (آمنوا باللَّه)؛ للدَّلالة على أنَّ الإيمانَ الحقَّ المقبولَ لا يكون إلّا من خلال آيات اللَّه سبحانه، فالَّذي يؤمن باللَّه، ولا يؤمن بآياته، إيمانُه غير مقبول، بل هو واهِمٌ ومُدَّعٍ في إيمانه، سواء كانت هذه الآيات كونيَّة، مثل: الشَّمس والقمر والنُّجوم والخلْق، أم آيات قرآنيَّة، مثل: الوحي والكتاب المنزَّل، أم الآيات البيِّنات، مثل: المعجزات والحجج الَّتي أرسلها اللَّه على أيدي رسله.

الأمـانُ يـوم القـيـامـة لمن صـدَّق بـآيات الله، لا لمن طلب تغييرها أو كذَّب بها

وتخصيص الآيات بالذِّكر مقرونةً بالإيمان، فيه تعظيمٌ وتشريف لها، ومدى اعتبارها عند اللَّه سبحانه، وأنَّها وسيلةٌ إلى العِلم به سبحانه، واللَّه سبحانه هو غاية الغايات، فلا بدَّ أن تكون الوسيلةُ إليه عظيمةً وجليلةً وشريفة، وفي تخصيص الآيات بالذِّكر هنا ردٌّ على الكافرين الَّذين كذَّبوا بالآيات، وما زالوا يطمعون في رحمة اللَّه مع إعراضهم عنها، فكأنَّ اللَّه يقول لهم: لا أمن لكم يوم القيامة، وقد كذَّبتم بالآيات، فالَّذين آمنوا بها أحقُّ بالأمن منكم، فجاءت هذه الجملة لتقابِل مَن كذَّبوا بها، أو أعرضوا عنها، بفريق المؤمنين في الجزاء والعاقبة.

معنى الواو في: ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾:

جملة: ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ داخلةٌ في حيِّز صلة الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، ودخولها في حيِّز الصِّلة إمّا بطريق العطف، أو بطريق الحاليَّة، فالواو في قوله: ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ واو العطف، أو واو الحال، والمعنى على العطف: الَّذين جمعوا بين الإيمان بالآيات والإسلام بالعمل والخضوع، فواو العطف للجَمْع والرَّبط بين المتعاطفين بضمِّ أحدهما للآخر، والمعنى على أنَّها واو الحال: الَّذين

حين يقع الإيمانُ عـلى هـيـئـة الاسـتـسـلام يـكون الأمـان في المصير

آمنوا بآياتنا، وقد كانوا على حال الإسلام، فآمنوا متلبِّسين بحال الاستسلام والخضوع، وهو معنى أبلغ[1]؛ لتضمُّن الحاليَّة معنًى زائدًا، وهو بيان هيئة الفاعل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في زمن وقوع الفعل - فِعل الإيمان - فهذا البُعد البيانيُّ للكيفيَّة والهيئة وتوصيف الحالة أثناء حدوث الفعل، يعمِّق وضوح الصّورة في عقل المتلقّي أكثر وأدقّ.

دلالةُ فعل الكينونة:

العـاقـبـةُ لمن استمرَّ وأخلص وثبت

كان مقتضى الظّاهر على وجْهِ الحاليَّة أن يقال: (الذين آمنوا بآياتنا مسلمين)، لكنَّه عدل عن هذه العبارة إلى قوله: ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾، بإيراد كلمة (كان)؛ ليكون آكدَ وأبلغ[2]، فالتَّعبير بفعل الكينونة في قوله: ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ يفيد تحقيق النِّسبة بين الاسم - ضميرهم - والخبر ﴿مُسْلِمِينَ﴾، فأفاد تحقُّقهم بالإسلام، بحيث صار كأنَّه جزء من كيانهم، فهو جرى فيهم مجرى الخُلق والجِبلَّة الثّابتة[3]، وفعل (كان) يدلُّ على الاستمرار أيضًا[4]، أي: هم دائمون على الخضوع والاستسلام لأحكام اللّه القدريَّة والشَّرعيَّة، وقد استمرّوا على ذلك حتّى مماتهم، وفيه: أنَّ الأمان يوم القيامة ليس لمن آمن مؤقَّتًا، ثم ارتدَّ، بل لمن ثبت حتّى نهايةِ أجَله، فكان الإيمان والإسلام المذكوران مشروطين بالثَّباتِ عليهما حتّى الموت.

نكتةُ المخالفة بين الصِّلتين:

أصـلُ الاعـتـقـادِ يـقـع دفـعـةً واحدة فلا يقبل التَّدريج

لتوكيد الفرق بين الإيمان والإسلام خالف بين الصِّلتين، وهما قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقوله: ﴿وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾، فلم يقل: (الذين آمنوا، وأسلموا)؛ لأنَّ الإيمان هو انعقاد القلبِ بالتَّصديق، فيحصل دفعةً واحدة؛ ولذا عبَّر عنه بالماضي المُحقَّق: ﴿ءَامَنُواْ﴾، وأمّا الإسلام؛ فهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 97.

(2) ابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد على هامش القونوي: 17/ 348.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 477.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 97.

الإتيان بقواعد الإسلام الخمس إتيانًا عمليًّا، فهو بذلك معروض للتَّمكُّن من النَّفس تدريجيًّا، فلذلك أوثِرَ بفعل (كان) الدّالِّ على اتِّحاد خبرِه باسمه حتّى كأنَّه من قَوام كيانِهم[1].

بلاغةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

أكبر شهادةٍ في الملأ الأعلى حين يشهد اللهُ بذاته على إيمان عباده

الآية تبدأ بخطابٍ للمؤمنين: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، ثم تنتقل إلى أسلوب الغيبة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وهذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يُشعِر بمدح المؤمنين أمام الآخرين، ممّا يعظِّم شأنهم، فكأنَّ المتكلِّم لم يعد يخاطبهم فقط، بل يتحدَّث عنهم بمدحٍ أمام العالَمين، كأنَّ اللّه يُشهِد العالَمَ على فضلهم، فيرتفع قدرهم، ويعظم مدحهم في الملأ الأعلى، فلا يخفى ما في هذا الالتفات من إظهار العناية الإلهيَّة بالمؤمنين.

والالتفات يُظهِرُ سبب استحقاقهم لنفي الخوف والحزن عنهم، فعندما كان الكلام موجَّهًا إليهم بالمخاطَبة، كان الغرض طمأنتهم: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، لكن عند ذكر السَّبب الَّذي أهَّلهم لهذا الأمان، جاء بأسلوب الغيبة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وكأنَّ هذا تقرير لحقيقة ثابتة، وليس مجرَّد خطابٍ شخصيٍّ لهم، أي: إنَّ الأمان ليس لهم وحدهم فقط، بل هو قانونٌ عام مطَّرِد: (كلُّ من آمن بآيات اللّه، وأسلم؛ فله هذا الجزاء)، ففي ذلك الالتفات: تحويلُ السَّببِ إلى صيغةٍ تقريريَّة عامَّة، بجعلِ الأمانِ قاعدةً جزائيَّة مستحقَّة لكلِّ من آمن، وأسلم.

والالتفات إلى الغيبة يُلقِي بالهيبة والجلال على مقام هؤلاء المؤمنين، ووجْهُ ذلك: أنَّه عند الخطاب: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 254.

وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، يكون القرب والملاطفة واضِحَين، لكن عند التَّحوُّل إلى الغيبة، يدخل نوعٌ من الجلال والعظمة، وكأنَّ السّياق يقول: (هؤلاء ليسوا أشخاصًا عاديّين، بل هم فئة مميَّزة شهِد لهم اللّهُ بالإيمان والإسلام)، فيشعر السّامعُ بجلال الموقف، وعظمة مقام هؤلاء المؤمنين في ميزان اللّه.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزّخرف: 70 - 71]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

في تفصيل جزاء المتَّقين ترغيبٌ لغيرهم في اللّحاق بهم

لمّا ذكر في الآية السّابقة ما لِعباده المتَّقين من البشارة لهم بالأمن التّامِّ يوم الفزع الأكبر، وكان قد أورَد ذلك على وجْهٍ في إجمال؛ بيَّن هنا تفصيل ذلك والكَيْفيّات الَّتي يحصل بها وأمْثِلَته في التَّكريم والنَّعيم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: أصل (حبر) يدلُّ على الأثر في حُسنٍ وبهاء[2]، ومنه الحِبْرُ: الأثر المستحسَن[3]، والحِبْرُ: الَّذي يُكتَب به[4]؛ لوقوعه بالحُسْن في الخطِّ والكتابة، والحَبْرُ والحُبور والحَبْرة: السُّرور[5]، وقوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: تُسَرّون سرورًا يظهر حِبارُه - أي: أثرُه - على وجوهكم[6]، أي: بسبب ما هم فيه من الإكرام والنَّعيم والسَّعادة[7].

2) ﴿بِصِحَافٖ﴾: أصل (صحف) يدلُّ على انبساطٍ في شيءٍ وسَعة[8]، والصِّحاف: جمع صَحْفَة، وهي القَصْعة العريضة في الطَّعام، خاطبهم الله بما يألفون، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ﴾[9]، قال الكسائيُّ: أعظم القِصاع الجَفْنة، ثمَّ القصعة -

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 477.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حبر).
(3) الراغب، المفردات: (حبر).
(4) الجوهري، الصحاح: (حبر).
(5) الجوهري، الصحاح: (حبر).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 340، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 281.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 238.
(8) ابن فارس، المقاييس: (صحف).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (صحف).

تليها - تُشبع العشرة، ثمَّ الصَّحْفة تُشبع الخمسة، ثمّ المِئْكلة تُشبع الرَّجُلين والثَّلاثة، ثمَّ الصُّحَيفة تُشبع الرَّجُل[1].

3) ﴿وَأَكۡوَابٖ﴾: الأكواب: جمع (كوْب)، وهو القدح أو الإناء أو الكوز الَّذي لا عروةَ له، أي: لا أُذُن له، وهي الحلَقةُ البارزةُ في جانبِه يُمْسَك منها، فلا مقابِض لها، وقيل: لا خرطوم له كذلك، فإن كان له؛ فهو إبريق، وقيل: هو ما كان مستدير الرَّأس، مع ما مرَّ من الأوصاف[2].

4) ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾: أصل الشَّهْوَةِ نزوعُ النَّفس إلى ما تريده، وذلك في الدُّنيا ضربان: صادقة، وكاذبة، فالصّادقة: ما يختلُّ البدن من دونه كشهوة الطَّعام عند الجوع، والكاذبة: ما لا يختلُّ من دونه، وقد يسمّى المُشتَهى شهوة، وقد يقال للقوَّة الَّتي تَشتَهي الشَّيء: شهوة[3]، وشَهِيَ الشَّيءَ، وشَهاهُ يَشهاهُ شَهوَةً واشتَهاهُ وتَشَهّاهُ: أَحَبَّه، ورَغِب فيه[4]، وقوله: ﴿تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾: ترغبه، وتحبُّه وتنزِع إلى طلبه من الأشياء المعقولة والمسموعة والملموسة وغيرها كائنًا ما كان[5]، واللّه يخلق في أهل الجنَّة الشَّهوات اللائقة بعالم الخلود والسُّموِّ[6].

5) ﴿وَتَلَذُّ﴾: أصل (لذَّ) يدلُّ على استطابةِ الحواسِّ للشَّيء[7]، واللَّذَّة: نَقِيضُ الألم، واحِدَةُ اللَّذّاتِ، ولَذِذْتُ الشَّيءَ بِالكسرِ لَذاذًا ولَذاذَةً، أي: وجَدْتُهُ لَذيذًا[8]، ومعنى: ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾، أي: تستحسنه الأعين، وتستطيبه، وترتاح له بمشاهدته[9]، ولذَّة الأعين في رؤية الأشكال الحسنة والألوان الَّتي تنشرح لها النَّفس، فلذَّة الأعين وسيلة للذَّة النُّفوس[10].

---

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، والقاموس المحيط: (صحف).

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسمين، عمدة الحفاظ: (كوب)، والفراء، معاني القرآن: 3/ 37، و123، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 644، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 63.

(3) الراغب، المفردات: (شها).

(4) ابن منظور، اللسان: (شها).

(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 479، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 373.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 255.

(7) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لذذ).

(8) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (لذذ).

(9) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 96.

(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 255.

المَعنى الإجْماليُّ:

صحافُ الجنَّة وأكوابها مليئةٌ بما لذَّ وطاب من الطَّعام والشَّراب

تخبرنا الآيات أنَّه بعد أن يجتمع المؤمنون على هذا النِّداء الكريم من ربِّهم لهم، يدعوهم اللّه ﷻ إلى ضيافته في الجنَّة، فيُقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾؛ إذ تَلقَون المسرَّة والحبور مع أزواجكم اللّاتي آمَنَّ معكم، فيكتمِل أنسُكم، ويتِمُّ نعيمُكم[1]، ثم بيَّن - سبحانه - مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد، بعد أن يدخلوا الجنَّة، ويستقرّوا فيها[2]، بأنَّه يُطاف بالخِدمةِ عليهم في الجنَّة بأوانٍ واسعةٍ من ذهبٍ مليئةٍ بالأطعمة، ويُطاف عليهم بالشَّراب في أكوابٍ نحو ذلك، وفي هذه الأواني والأكواب - خصوصًا - من الأطعمة والأشربة، وفي الجنَّة لهم - عمومًا - من سائر صنوف النَّعيم، ما تشتهيه أنفسُهم، وتَسَرُّ به أعينُهم، وهم ماكثون فيها أبدًا[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ ممّا قبلها:

الإذنُ بدخول الجنَّة يلزم عنه نفي الخوف والحزن

جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ استئناف بيانيٌّ في حيّز النِّداء في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[4]، فكأنَّه قيل: فماذا يُقال لهم بعد أن نودوا بالأمان التّامِّ؟ فأجيب: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، فجاءت جملة الأمر الإكراميِّ جوابًا عن سؤال مقدَّر، يطرأ في الذِّهن بعد سماع النِّداء الأوَّل، فجملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هي البيان العمليُّ لِما في جملة النِّداء: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ من البُشرى ووعد الأمان، ويصحُّ أن تكون جملة الأمر: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ متَّصلة بحيِّز النِّداء على جهة التَّعليل المعنويِّ له، كأنَّه ناداهم بنفي الخوف والحزن عنهم؛ لأنَّهم مأذون لهم في دخول

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني، للقرآن: 13/ 161.
(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 99.
(3) مجمع الملك فهد، الميسر في التفسير.
(4) صافي، الجدول: 13/ 106.

الجنَّة، فبسبب هذا الإذن بدخول دار السَّلام ناداهم بأنَّهم سالِمون من الخوف والحزن.

بلاغةُ الانتقالِ من النِّداء إلى الأمر:

الانتقال من النِّداء القوليِّ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إلى الأمر الفعليِّ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هو تدرُّجٌ منطقيٌّ ضروريٌّ من تحيَّتهم بالقول في قوله: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ - وهو في معنى قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: 44] - إلى إنجاز إقامتهم وضيافتهم في دار السَّلام بالإذْن لهم فيها في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، وهذا في معنى قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ٤٤﴾ [الأحزاب: 44]، فحيّاهم أوَّلًا، ثمَّ وطَّنَهم فيما أعدَّه لهم ثانيًا، فالآية الأولى من قبيل تحيَّة الضَّيف والتَّرحيب به، والثّانية تحليته بالضّيافة والإذن له فيها، كمن يقول لضيوفه: تفضَّلوا بالدُّخول بعد أنِ استدعاهم، وقرَّبهم، إذًا فالانتقال من النِّداء إلى الأمر ليس - فقط - تدرُّجًا من رتبة النِّداء بالبشرى إلى رتبة الإذنِ لهم بمعايشتها، بل هو استكمالٌ ضروريٌّ للمعنى، بحيث يكون دخول الجنَّة هو غاية منطقيَّة ضروريَّة لندائهم بالأمان.

تبدأ الضّيافة بالتَّحيّات، ثمَّ ينتقلون للإقامة في دار السَّلام

معنى الأمر في: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

الأمر في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ أمْرُ إذْنٍ وتكريم، لا أمْر تكليفٍ وإيجاب، فأسلوب الخطاب هنا إكراميٌّ لا تكليفيٌّ، وكأنَّه إجازةُ عبورٍ، وتصريح دخول، دون عارضٍ أو عائق.

لا يسمع أهل الجنَّة إلّا خطاب السَّلام والقول الطَّيّب

ومن قرائن التَّكريم البديعة هنا مجيء الإذن بدخول الجنَّة فورًا، بمجرَّد ندائهم بالأمان في قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، فتعقيب الأمر بعد النِّداء بلا فاصلٍ ولا حاجز بينهما يدلُّ على سرعة إكرامهم بعد تمهيد نفوسهم وطمأنتها وتهيئتها بنداء الأمْنِ، فهذا الانتقالُ السَّريع من الطَّمأنة إلى التَّكريم يُشعر المخاطَبين،

يُقادُ أهل الجنَّة إليها إسراعًا بهم إلى مأوى النَّعيم والخلود

وكأنَّهم يُقادون إلى النَّعيم مباشرةً بلا أيِّ فاصل زمنيٍّ، أو مرحلةٍ انتقاليَّة، فكأنَّهم يدخلون الجنَّة في موكبٍ من بشارةِ النِّداء الإلهيِّ المتزامِن معه، وفي ذلك إفصاحٌ عن سرعة إيصالهم إلى النَّعيم دون انقطاعٍ أو فجوة، كما يوحِي ذلك التَّعقيب السَّريع بين النِّداء والأمر بعدم حصول انتظارٍ منهم أو ترقُّب، فلا يتركهم بعد ندائهم يتشوَّفون إلى ما سيحصل لهم، فلا يوجد تشويقٌ مُقْلِقٌ هنا؛ لأنَّ الشَّوقَ والتَّرقُّب ينطويان على مزيجٍ مختلطٍ من الرَّهبةِ والرَّغبة، وقد انتفى عنهم الخوفُ كلُّه، فلا يصيبهم شيءٌ منه، ولو كان جُزءًا من شَوق.

دلالةُ الحاليَّة في: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾:

أهلُ الجنَّة لا ينفكّون عن حال السُّرور والحبور حتّى من قبل أن يدخلوها

جملة: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ في محلِّ نصبِ حال من فاعل ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾[1]، أي: إنَّهم يدخلون الجنَّة في حال كونهم مُحَبَّرين، أي: في حالةِ السُّرور والنَّعيم والتَّكريم[2]، وهذه الجملة حاليَّة؛ لدلالتها على حالهم أثناء دخولهم، فالمعنى: لا تدخلون الجنَّة، ثمَّ تُحبَرون لاحقًا، بل أنتم تدخلونها، وأنتم في حالة الحبور أصلًا، فالحبور وصفٌ لحالتهم أثناء الدُّخول نفسه، فهو ملازمٌ لهم من لحظة دخولهم.

نكتةُ التَّعبير بالاسميَّة، وتأخير الفعل:

التَّركيبُ الاسميُّ يعكس هدوء النَّعيم وثبات السَّعادة واستقرارها

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أصالةِ تلك الحال فيهم ودوامها معهم ولزومها لهم.

ولذلك لم يقل: (تحبرون أنتم وأزواجكم) بتقديم الفعل، بل قال: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾، والفرق بين التَّركيبين: أنَّ تقديم الضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ مع العطف بالواو ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، ثمَّ الجملة الفعليَّة ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ يوحِي بأنَّ الجماعة كلَّها مشترِكةٌ في هذا النَّعيم كوحدةٍ

(1) صافي، الجدول: 13/ 106.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 478.

ودُفعة واحدة، أي: إنَّ الحبور يشمل الجميع في آنٍ واحد، أمّا إذا جاء الفعل في البداية، ثمَّ تأخَّر الفاعل: (تحبرون أنتم وأزواجكم)، فهذا التَّرتيب قد يوهِم بأنَّ الحبور يبدأ بهم، ثم يشمل الأزواج، فيُفهَم منه عدمُ الدُّخول الجماعيِّ المتساوي في النَّعيم.

وأيضًا تقديم ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ قبل الفعل ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ يجعل الاهتمام منصبًّا على المخاطَبين أنفسِهم، فيدلُّ على معنى أنَّ النَّعيم مُخصَّصٌ لهم شخصيًّا قبل وصف حالتهم بالحبور، ففي تقديمهم تكريمٌ لهم، وتنبيهٌ على أنَّهم هم المقصودون بالتَّشريف أصلًا دون سائر الخلق، ثمَّ يأتي وصفهم بالحبور كنتيجةٍ بدهيَّة بعد جعلِهم في محلِّ التَّقديم والتَّكريم.

بلاغةُ العطفِ بين كلٍّ من: ﴿أَنتُمۡ﴾، و﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾:

عطْفُ أزواجِهم عليهم في الإذن بدخول الجنَّة في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾؛ لاستتمام نعمةِ التَّمتُّع باقتران الزَّوجيَّة والمصاحبة الَّتي كانت بينهم وبين أزواجهم في الدُّنيا[1]، فهذا العطف يُؤذِن بخلود العلاقة الزَّوجيَّة بين المؤمنين، فلا يدخل أحدٌ الجنَّة وحده، بل مع رفيقه الَّذي كان معه في الدُّنيا، وهذا كناية عن زيادة الأنس والفرح، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ كمال النِّعمة وتمام النَّعيم في اجتماع العائلة؛ إذ لا يشعر أحدٌ بالوحدة أو النَّقص.

من تمام نِعَم الله على عبده أن ينعم أهله معه

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾:

إضافةُ الأزواج إلى ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ للاختصاص التّامِّ، فيخرج منهنَّ من لم يؤمن[2]، ومعنى أنَّ الإضافة للاختصاص التّامِّ يعني: أنَّ هذه الإضافة تقييديَّة، وليست مجرَّد إضافةٍ لبيان العلاقة، فـ(أزواجكم) لا تشمل أيَّ زوجة أو زوج

الزَّوجيَّة يوم القيامة تعتمد على المُناظَرة في الاعتقاد قبل أيِّ اعتبارٍ آخر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 254.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 97.

بإطلاق، بل الَّذين آمنوا معكم فقط، فكلُّ من لم يكن مؤمنًا لا يشمله هذا الوعد، حتّى لو كان زوجًا في الدُّنيا، فالاختصاص التّامُّ، أفاد القصر على فئةٍ معيَّنةٍ في الأزواج دون غيرها.

نكتةُ بناء الفعل ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ للمفعول:

مصادر الحبور والنَّعيم في الجنَّة لا تُحصَى

جاء الفعل على بناء ما لم يُسمَّ فاعله في قوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾؛ لغرض إظهار النَّعيم دون تعيين مصدره، وذلك لتعظيمه، كأنَّ المعنى: أنتم تُكرَّمون، وتُنعَّمون بأمر عظيم واسع، فكلُّ شيء في الجنَّة مسخَّر لمسرَّتكم، وفي عدم التَّصريح بالفاعل إيحاء بأنَّ تحبيرهم له مصادر متعدِّدة.

بلاغةُ الوقف على الجملة الفعليّة والابتداء بالاسميَّة:

الحبور حال دائمة لأهل الجنَّة، فلا تهدأ فَوْرتُه بعد دخولهم فيها، كمسرّات الدُّنيا بعد إلفها

في وجهٍ إعرابيٍّ يجوز الوقف على الجملة الفعليَّة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، على أنَّها جملة مستقلَّة من فعل وفاعل ومفعول، والابتداء بالجملة الاسميَّة: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ على أنَّها جملة مستقلَّة من مبتدأ ﴿أَنتُمۡ﴾، ومعطوف عليه ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، وخبر ﴿تُحۡبَرُونَ﴾، وليس على اعتبار كونها حالًا من ضمير ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، كما في الإعراب السّابق[1]، ومن وجوه بلاغة هذا التَّوجيه: إعطاء أمر الدُّخول قوَّة واستقلاليَّة، فعندما نقف على: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، يصبح أمر الدُّخول مستقلًّا وكاملًا في ذاته، ممّا يعطيه هيبةً ووضوحًا، فهذا الوقف يجعل الخطاب كأنَّه تصريحٌ رسميٌّ قاطعٌ بالدُّخول، وكأنَّ الباب قد فُتح لهم تمامًا، دون الحاجة لربطه بالحال بعدها.

ومنه جعلُ الحبور حقيقة ثابتة قائمة بذاتها، فحين يكون الابتداء بقوله: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ على طريقة الإخبار المُستأنَف

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 237.

بعد الإذن بالدُّخول، يصبح المعنى أنَّ الحبور حالة دائمة لهم بعد الدُّخول، وليس مجرَّد حال لهم في وقت الدُّخول.

ومنه الانتقال من الفعليَّة إلى الاسميَّة؛ لتقرير النَّعيم، فجملة ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ فعليَّة تفيد الاستقبال وتجدُّدَ الإذن بالدُّخول لكلِّ وافدٍ عليها، والجملة الثّانية اسميَّة: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ تفيد الثُّبوت والدَّيمومة، فتدلُّ على أنَّ وضْعَهم في النَّعيم والحبور دائمٌ وآبِد.

موقعُ: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ ممّا قبلها:

خيرُ ما يُبْتَدَأُ به الضَّيفُ إطعامُه الولائم

جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ استئناف بيانيٌّ[1]، لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وهذا الاستئناف جوابٌ ضمنيٌّ عن سؤالٍ مقدَّر بعد الإذن لهم بدخول الجنَّة: فماذا يحصل لهم إذا دخلوها، وهم يُحبَرون؟ أو فكيف فيها يُحبرون؟ والجواب: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، ويصحُّ أن تكون الجملة ﴿يُطَافُ﴾ واقعةً جوابًا لشرطٍ مُقدَّر من جنس جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: إذا دخلوها؛ يطاف عليهم[2].

نكتةُ بناء الفعل ﴿يُطَافُ﴾ لما لم يسمَّ فاعله:

الخدمة في الجنَّة بلا طلب، والنَّعيم فيها بلا انقطاع

بُني الفعل ﴿يُطَافُ﴾ في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾؛ لِما لم يسمَّ فاعله؛ للعناية بالفعل نفسِه، بصرف النَّظر عن فاعله، وذلك يوحِي بتعظيم فعل التَّكريم، ويجعل خِدمتَهم بالنَّعيم حاصلةً لهم تلقائيًّا من غير سعيٍ منهم ولا طلب، كأنَّ هناك نظامًا كاملًا مُجهَّزًا لخدمتهم؛ إذ لا يُذكر الفاعل؛ لأنَّ الأمر مفروغٌ منه، فالخدمة جزء من طبيعة العيش في الجنَّة، وفي هذا تلويحٌ بالتَّرف المطلق والاسترخاء؛ إذ لا يحتاجون حتّى إلى معرفة من يخدمهم، فالنَّعيم يجري لهم بسلاسة تامَّة.

(1) صافي، الجدول: 13/ 106.
(2) صافي، الجدول: 13/ 106.

بلاغةُ الالتفاتِ في: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾:

تصويرُ نموذج من النَّعيم بوصفه مشهدًا مستقلًّا؛ لقصد تعظيمه

وعلى كون قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ﴾ جملة استئناف بيانيٍّ، يصحُّ أن تكون التفاتًا بالغيبة بعد الخطاب، في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾، فلم يقل: (يطاف عليكم)، بل تحوَّل إلى الغيبة: ﴿عَلَيۡهِم﴾، ونكتة هذا الالتفات[1]: استدعاء مبدأ الكلام في الحديث عن المتَّقين، فقبل هذا الموضع، كان السّياق يتحدَّث عن المتَّقين بأسلوب الغيبة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فالحديث عنهم كان بصيغة الغائبين، بما يضعهم في موضع تميُّزٍ من غيرهم، فهُم فئة خاصَّة لها شأنها العظيم.

ربْطُ الجزاء بالعمل

ثمَّ جاء الخطاب لهم في ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، لكن عند ذكر نعيمهم، عاد الأسلوب إلى الغيبة في ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ لربط القارئ بمصدر الكلام وتذكيره به؛ ليستعيدَ التَّركيز على التَّقوى بوصفه مبدأ لاستحقاق النَّعيم، فلو اطَّرد الخطاب (يطاف عليكم بصحاف من ذهب)؛ لربَّما اقتصر الانتباه على مشهد التَّكريم وحده، لكنَّ التَّحوُّل إلى الغيبة يُذكِّر القارئ بأنَّ هؤلاء ليسوا كأيِّ أحد، بل هم المتَّقون الَّذين استحقّوا هذا النَّعيم بسبب سلوكهم وتقواهم، فكأنَّ الالتفات إلى الغيبة يعيد السّامع إلى البداية؛ إذ كان الحديث عن المتَّقين؛ ليربط بين السَّبب والنَّتيجة.

دعوةُ المخاطَب للتَّفكُّر في حاله مقارنةً بأهل الجنَّة

جعْلُ القارئِ في موضع التَّأمُّل المُساءلة من زاويةٍ خارجيَّة بدلًا من موقع المشاركة، فعندما كانت الآية على أسلوب الخطاب، كان يمكن أن يشعر السّامع كأنَّه من المخاطَبين، لكنَّ التَّحوُّل إلى الغيبة في ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ يجعله متأمِّلًا في سبب تفضيل هؤلاء، وهو التَّقوى، كأنَّ الآية تدعوه إلى أن يسأل نفسه: ما الَّذي ميَّز هؤلاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 478.

حتى صاروا في هذا النَّعيم؟ وهل أنا منهم؟ هل أنا من هؤلاء المتَّقين الَّذين يستحقّون هذا النَّعيم؟

فبذلك الالتفات يتحقَّق التَّناغم مع البداية دون كسر السِّياق، فالحديث بدأ عن المتَّقين بأسلوب الغيبة، ثمَّ جاء الخطاب لهم في لحظةِ الدُّخول تكريمًا وتعظيمًا، ثمَّ عاد إلى الغيبة للتَّذكير؛ بسبب هذا الفضل العظيم.

بلاغةُ جملة الاعتراض في: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ ...﴾:

اعـــتراضٌ يـزفُّ البشرى ويُمَثِّل للنَّعيم

يرى ابن عاشور - رحمه الله - أنَّ جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ "معترضة بين أجزاء القول، فليس في ضمير ﴿عَلَيۡهِم﴾ التفات، بل المقام لضمير الغيبة"[1].

فهو يرى أنَّ الجملة معترضة في الكلام؛ بدليل اطِّراد الكلام على الخطاب بعد هذه الجملة في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وهو يرى أنَّ الاعتراض هنا يمنع الالتفات، فليس هناك التفات في الجملة من الخطاب في: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾، إلى الغيبة في: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾؛ لأنَّ الأصل في الاعتراض أنَّه مُقحَمٌ بين أجزاء الكلام، فلا يمنع مِن اطِّرادِه، ولا يقطع وحدةَ أسلوبِه، وليس مقصودًا به التَّحوُّل والانتقال والالتفات في غرض المتكلِّم به؛ لأنَّ الجملة المعترضة دخيلةٌ على الكلام لغرضٍ زائدٍ على أصله، وسيقت جملة الاعتراض هنا بأسلوب الغيبة؛ لأنَّها تُقْحَمُ مسوقةً كما تساق الأخبار، والأصل في الإخبار أن يجري على الغيبة، ولعلَّ هذا هو المراد من قوله: "بل المقام لضمير الغيبة"، ولعلَّه يقصد منه: أنَّ الجملة الاعتراضيَّة المذكورة واقعة على أصل ما استقرَّ عليه المقام، فإنَّ المقام في أصلِه جارٍ على الغيبة في قوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 254.

﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فكما أخبر عن المتَّقين بالغيبة، أخبر هنا عن ضيافتهم بالغيبة في: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾، أي: (على المتَّقين).

تقريبُ نعيم الجنَّة بلقطةٍ منه نابضة تفيض بسَعة الإكرام

على اعتبار جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ اعتراضيَّة بين مقام الخطاب في: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ ... ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فإنَّ لهذا الاعتراض دلالات بلاغيَّة، منها: إبرازُ نعيم الضّيافة بعد دخولهم الجنَّة كأمر مستقلٍّ وعظيم، وكأنَّ قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ لقْطةٌ منفصلةٌ تصوِّر جانبًا من أوجه النَّعيم، وهو الضّيافة، فهذا التَّقطيع البلاغيُّ يجعل النَّعيم متتابعًا ومتنوِّعًا، وكأنَّ هناك مفاجآت متوالية من التَّكريم والرَّفاهية.

وفيها إبرازٌ للضّيافة على أنَّها أحد علامات التَّشريف، فالاعتراض بالجملة - هنا - يُشبه تقديمَ مشهدِ ضيافةِ الملوك؛ إذ لا يُترك الدّاخلَ؛ ليكتشف النَّعيم بنفسه، بل يُستقبَل مباشرةً بأعلى درجات التَّكريم، فالجملة المعترضة تقطع سياق الحبور العام في قوله: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾؛ لتُسلِّط الضَّوء على الضّيافة تحديدًا، وكأنَّها تقول: ومن أنواع الحبور هذا المشهد العظيم: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾.

وفيها التَّخصيص بعد التَّعميم في النَّعيم، فجملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ خطابٌ بشمول النَّعيم والحبور في الجنَّة، فتجيء الجملة الاعتراضيَّة لِتخصِّص صورةً حيَّة من ذلك النَّعيم، بذِكر مِثالٍ رفيعٍ عليه، وهو قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، ففي هذا المِثال الاعتراضيِّ جمْعٌ بين النَّعيم النَّفسيِّ، وهو شعورهم بالحبور، والنَّعيم الحسّيِّ بأتمِّ أنظمة الخدمة وأرفع وسائل الرّاحة، فيتصوَّرُ للقارئِ أهلُ الجنَّة، وهم يُكرَّمون بهذا النَّعيم المنطوي

على الإمتاع الحسّيِّ، بدلًا من الاكتفاء بمجرَّد الإخبار النَّظريِّ عن نعيمهم وحبورهم، وعليه: فالقرآن لا يسرد النَّعيم بأسلوب خِطابيٍّ تقريريٍّ فقط، بل يأخذ المُخاطَبَ في رحلةٍ داخل الجنَّة واقعيَّة، فالجملة المعترضة هنا تعطي إحساسًا بالحركيَّة والتَّفاعل.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ (صِحافٍ) دلالة وصيغة:

الصِّحاف في الجنَّة رمز الوفرة والتَّنوُّع

كلمة (صِحافٍ) هي جمع (صَحْفَة)، وهي قصعة الطَّعام العريضة الواسعة المنبسطة[1]، وهذا التَّعبير يحمل عدَّة دلالات بلاغيَّة تتَّصل بمعنى الإطعام في الجنَّة، فاختيار (صِحاف) يدلُّ على وفرة الطَّعام وكثرته بلا نقصٍ ولا نفاد، وهو ما يتناسب مع صيغة جمع الكثرة (فِعال)، وفي ذلك إلماحٌ إلى سَعةِ كرم المُضيفِ لهم، وهو الرَّحيم الكريم ﷻ، وإلى حفاوة الضّيافة، والإكرام الفائق، وفيه إشارة بديعةٌ إلى أنَّ الطَّعام في الجنَّة يمتنع معه الجوع امتناعًا تامًّا؛ لأنَّه صادرٌ عن ضيافةٍ إلهيَّة راقية ممتلئةٍ بالكرامة والتَّشريف.

والإشارة بـ(الصّحاف) إلى أنَّ طعامَ الجنَّةِ متنوِّعٌ جدًّا، وليس نوعًا واحدًا؛ فالصِّحاف تُستعمل - عادةً - لتقديم أنواع مختلفة من الطَّعام، ممّا يزيد لذَّة النَّعيم، وهذا يتناسب مع ما جاء في الآية بعدها: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾، أي: إنَّ كلَّ ما يمكن أن يتخيَّله الإنسان من طعام يجده في هذه الصِّحاف.

نكتةُ تقديم الصِّحاف على الأكواب:

توافقُ النَّعيم الأخروي مع العادة البشريَّة

تقديم الصِّحاف على الأكواب في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾؛ لأنَّ العادة تقديم الأكل على الشُّرب[2]، فالطَّعام قبل الشَّراب سنَّةٌ في الدُّنيا والآخرة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (صحف).
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 349.

نكتةُ جمع الكثرةِ في: (صِحافٍ)، وجمع القلّة في: (أكْوابٍ):

تباين الوظائف بين الصِّحاف والأكواب يؤثّر في الدَّلالة العدديَّة فيهما

ترتبط الدَّلالة العدديَّة بوظائف الأشياء، ومن هنا جاء (صحاف) على جمع الكثرة، و(أكواب) على القلَّة في قوله: ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾؛ لأنَّ أواني الأكل تكون كثيرةً على الموائد بالنِّسبة إلى أواني الشُّرب[1].

معنى ﴿مِّن﴾ في: ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾:

فخامةُ وعاء الطَّعام يزيد من تنعُّم الآكِل منه

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ تحتمل أمرين: إمّا ابتدائيَّة، على معنى: (صحافٌ ناشئةٌ من الذَّهب صادرةٌ عنه)، وعلى هذا المعنى فالصِّحاف مصنوعةٌ من الذَّهب الخالص، لا أنَّها مموَّهةٌ به فقط، بل جوهرها الذَّهب، ولذلك لم يقل: (صحاف ذهبيَّة)، بل قال: ﴿مِّن ذَهَبٖ﴾؛ للإشعار بالخلوص ظاهرًا وباطنًا.

وإمّا بيانيَّة؛ لبيان الجنس، أي: إنَّ مادَّة الصِّحاف من جنس مادَّة الذَّهب، فالذَّهب هو جنس المعدِن أو المادَّة المصنوع منه الصِّحاف، وعلى هذا المعنى يتبيَّن أنَّ الصِّحاف وأواني الجنَّة منحوتةٌ مصنوعة من أخصِّ المعادن وأثمنها.

دلالةُ جعل الصِّحاف مِن ﴿ذَهَبٖ﴾:

الذَّهبُ في الجنَّة رمز التَّشريف والرِّفعة

ذِكرُ الذَّهب في وصف أواني الطَّعام في الجنَّة يدلُّ صراحةً على عظمة التَّكريم ورفعة الشَّأن، فالذَّهب في العُرف البشري أثمن المعادن وأغلاها، ولا يُستعمل إلّا في المقامات الفاخرة والمترَفَة، فجعْلُ الصِّحافِ من ذهب يوحي بأنَّ النَّعيم في الجنَّة بلغ أعلى درجات الفخامة والكرامة.

وفيه مبالغة في النَّعيم والمتعة الحسّيَّة البصريَّة، فلم يقتصر النَّعيم على الطَّعام الشَّهيِّ، بل حتّى الصِّحاف نفسها أصبحت مصدرًا للزِّينة والمتعة؛ إذ يتلألأ الذَّهب أمام الأعين، فتزداد اللَّذَّة.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 349.

وفيه كسرٌ للقيود الدُّنيويَّة وتحقيق الكمال في النَّعيم، ففي الدُّنيا كان التَّزيُّن بالذَّهب محظورًا على الرِّجال، واستعمال أواني الذَّهب والفضَّة منهيٌّ عنه، أمّا في الجنَّة؛ فتُرفع هذه المحظورات، ويُعطى المؤمنون ما حُرِموا منه في الدُّنيا، وهذا من كمال الجزاء والتَّعويض عن زهدهم وتقواهم في الدُّنيا.

وفيه مقابلة النَّعيم بالعذاب في مشاهد يوم القيامة، فأواني الذَّهب في الجنَّة تُقابِل أواني الجحيم، كما في قوله تعالى عن الكفار: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: 19]، وقوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ٥٤﴾ [الواقعة: 54]، وقوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ [إبراهيم: 16]، فالصَّبُّ والشُّربُ والسُّقيا من أواني العذاب الَّتي تكون من نارٍ وقيْح، في حين أواني أهل الجنَّة من ذهبٍ فاخرٍ، فهذه المقابلة تجلّي عظمة الفارق بين الفريقين.

وفيه الاتِّساق مع سائر طقوس النَّعيم في النَّظم، جاءت هذه الآية ضمن سياقٍ وصفٍ متكامِل للنَّعيم، فقد ذكر النَّظم قبلها: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾، ثم ذكر بعدها: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾، أي: إنَّ كلَّ تفاصيل النَّعيم مصمَّمة لإبهار أهل الجنَّة وإكرامهم بأقصى درجة، فكان لابدَّ أن تكون صِحافُ الطَّعام على نفس مستوى الفخامة المطلقة.

دلالةُ حذفِ وصف الأكواب:

إبـرازُ النَّعيم في جزء، وطيِّه عن جـزء، يزيـد من تـعلُّق النَّفْس وتطلُّعها إليه

لم يقل في السِّياق الكريم: (وأكواب من ذهب)، بل حذف وصف الأكواب؛ إيجازًا واكتفاء بوصف الصِّحاف قبله؛ لدلالته عليه في قوله: ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، فالحذفُ لعدم التَّكرار تخفُّفًا من ثِقَلِه في النَّظم ولعدم الحاجة إليه.

وفي حذف وصف الأكواب إشارة إلى تنوُّع النَّعيم دون التَّقيُّد بتفاصيل موحَّدة، فالأكواب ليست كلُّها من ذهبٍ فقط، بل ربَّما

توجد أنواع أخرى من الفضَّة أو غيرها من الموادِّ النَّفيسة، كما في قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥﴾ [الإنسان: 15]، فالحذف يدلُّ على أنَّ نعيم الجنَّة متنوِّع ومتعدِّد، لا يتقيَّد بنمطٍ واحد، فقد تختلف الأكواب عن الصِّحاف في مادَّتها، ثمَّ يأتي الحذف لمادَّتها؛ إيماءً إلى هذا التَّباين، وتحقيقًا لعنصر المفاجأة والتَّشويق إلى اكتشاف كنهها.

دلالةُ توجيهِ القراءات في: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ﴾:

قرأ المدنيّان وابن عامر وحفص ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾ بزيادة هاء ضمير مذكَّر بعد الياء، وكذلك هو في المصاحف المدنيَّة، والشّاميَّة، وقرأ الباقون بحذف الهاء ﴿تَشۡتَهِي﴾ بحذف الهاء، وكذلك هو في مصاحف مكَّة والعراق(1)، والفرق بين القراءتين بلاغةً أنَّ قراءة الحذف أعمُّ من قراءة الإثبات؛ لأنَّ إثباتَ العائد يجعل القصد متَّجهًا إلى الموصول، كأنَّه قال: (فيها الَّذي تشتهيه أنفسكم)، أي: تقْصِدُ إليه نفوسُكم بالاشتهاء، فالتَّصريح بإعادة الضَّمير إلى الموصول يُنشِئ في الأنفسِ القصدَ إليه نصًّا، وأمّا عند حذفِ العائد يختفي القصد إلى الموصول، وإن كان موجودًا ضِمنًا وتقديرًا، لا نَصًّا، وإطلاق الفعل على غير قصد أعمُّ من إطلاقه على قصدٍ ونيَّة، وعليه: فتعديةُ الفعل إلى المفعول (هاء الضَّمير العائدة على الموصول) ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾ يعني: أنَّ ما تشتهيه الأنفس شيءٌ مُحدَّدٌ موجودٌ في الجنَّة، أي: إنَّ جميع رغبات أهل الجنَّة متحقِّقةٌ ومهيَّأةٌ لهم بالكامل، وأيضًا وجود الهاء يُشعِر بتأكيد النِّعمة وتخصيصها بأنَّها مُلبّاةٌ لهم تمامًا، فيزيد التَّشويق والرَّغبة في هذا النَّعيم.

وأمّا على قراءة حذف الهاء، أي: حذف مفعول التَّشهّي في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِي ٱلۡأَنفُسُ﴾؛ ففيها تعميمٌ وإطلاق، يزيد من الإيحاء بسَعة النَّعيم وتعدُّده، وأنَّه ليس محصورًا في شيء معيَّن، فالمعنى هنا أعمُّ وأوسع، ويدلُّ على مطلق الشَّهوة والرَّغبة دون تقييدٍ بمفعولٍ معيَّن، فهذه القراءة تُشير إلى أنَّ كلَّ ما يمكن أن تشتهيه الأنفس من أيِّ شيءٍ على الإطلاق موجود في الجنَّة، دون الحاجة إلى تحديده أو تعيينه أو التَّقييد به.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 370.

فـ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾ تدلُّ على تحقُّق كلِّ ما تشتهيه النَّفس بشكل خاصٍّ ومحدَّد، و﴿تَشۡتَهِي﴾ تدلُّ على أنَّ الجنَّة مليئةٌ بما تشتهيه النَّفْسُ على إطلاقه، دون حصرٍ في شيءٍ معيَّن.

في الجنَّة من صنوف النَّعيم ما تعرفه الأنفس، فتشتهيه، وما لا تعرفه، لكنَّه مُمْكِنُ الاشتهاء

والجمع بين القراءتين يعطينا صورةً أكثر شمولًا وتكاملًا، فالجنَّة فيها كلُّ ما قد يخطر في بالك من مشتهيات، وذلك على قراءة ﴿تَشۡتَهِي﴾.

وكلُّ مشتهًى هناك موجودٌ ومتحقَّقٌ لك بالفعل، وذلك على قراءة ﴿تَشۡتَهِيهِ﴾، فالقراءتان تكمِّلان بعضهما: الأولى بالإثبات تؤكِّد تحقُّق المشتهيات وتخصيصها لأهل الجنَّة، والثّانية بالحذف تفتح المجال لكلِّ ما قد تشتهيه النَّفس دون تحديدٍ، بما يعكس سَعة النَّعيم وكماله في الجنَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾ و﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ جمعًا:

في الجنَّةِ لكلِّ نفسٍ مُشتَهًى، ولكلِّ عينٍ لذَّة

لم يعبِّر بالمفرد، فيقال: (ما تشتهيه النَّفس، وتلذُّه العين)، لا سيَّما وأنَّه قد يقال: إنَّ استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع[1]، فيكون التَّعبير به أولى؟ والجواب: أنَّه عبَّر بالجمع؛ ليتناسب مع سياق الخطاب في النَّظم، فالنَّظم جارٍ على الجمع، ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾، ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾، فكأنَّه هنا يقول: (ما تشتهيه تلك الأنفس الَّتي خصَّصتها بالخطاب).

وعبَّر بالجمع أيضًا؛ ليدلَّ على أنَّ النَّعيم في الجنَّة متنوِّعٌ بقدر ما توجد أنفُس وأعيُن، وليس مجرَّد مشتهًى واحد تتشاركه كلُّ النُّفوس أو كلُّ العيون، فالتَّعبير بالمفرد (النفس) و(العين) قد يوهِم بأنَّ هناك نوعًا واحدًا من المشتهيات والملذّات يصلح لكلِّ نفْسٍ وعين، أو تشترك في اشتهائه والتذاذه كلُّ نفس وعين، في حين أنَّ الجمع يفتح المعنى على التَّنوُّع والاختلاف في المشتهيات واللَّذّات بين الأفراد.

(1) الكرماني، تحقيق الفوائد الغياثيّة في المعاني والبيان: 1/ 361.

نكتةُ إسنادِ الشَّهوة إلى النَّفس، وإسناد اللَّذَّة إلى الأعين:

إسناد الشَّهوة إلى النَّفس واللَّذَّة إلى الأعين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾؛ لأنَّ الشَّهوة تتعلَّق بالرَّغبة الدّاخليَّة العميقة الَّتي تنبع من النَّفس، وعُلِّق الاشتهاءُ بالنَّفس؛ لكونها مصدرَ أعمقِ الرَّغبات، والشَّهوة سابقةٌ على الفِعل، فلا يُشترط فيها الاندماج والتَّفاعل، فالشَّيءُ يُشتَهى برغم الحرمان منه، وأمّا اللَّذَّة؛ فتتعلَّق باستشعار المحسوسات، فهي مُتْعةٌ فوريَّة تسري في الحِسِّ لإمتاعه، ولذا يُشترط فيها المُلابسة والتَّفاعل والاندماج حتّى تحصل، فلا لذَّة مع الحرمان، وأغلب ارتباطها بالحواسِّ؛ لأنَّها أداة التَّفاعل والاندماج مع المرغوبات، ولذا علَّقها هنا بالعين؛ لأنَّها أسرع الحواسِّ إدراكًا للَّذَّة، وأوَّل ما يُلفِت النَّظر إلى النَّعيم، وفي الإخبار عن التذاذها تنبيهٌ على أنَّ النَّعيم البصريَّ في الجنَّة بلغ غايةَ الإدهاش، وأنَّ مُطالعةَ الجمالِ فيها تحصل به في العيون لذَّةٌ عاجلة من غير مجهودٍ بأيسرِ تفاعل، وتعليقُ اللَّذَّة بالمحسوسات النّاجِزَة بالتَّفاعل والملابسة معروفٌ في نعيم الجنَّة من القرآن، فقد أخبر الله عن لذَّة التَّذوُّق للشّاربين من خمرها، فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦﴾ [الصافات: 46]، وقال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: 15]، فلا لذَّةَ إلّا من طريق الحاسَّة عند ملابسة سببها.

في الجنَّة ترى النَّعيم، فتلتذُّ عيناك قبل أن تصل إليه يداك

نكتةُ تقديم شهوة النَّفس على لذَّة العَيْن:

قُدِّمت شهوةُ النَّفس على لذَّة العين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ من باب تقديم الأعمِّ على الأخصِّ(1)، والمصدر على الوسيلة، فالنَّفس مركز جميع الرَّغبات، فهي الَّتي تتحكَّم في الشَّهوات الحسّيَّة (الطَّعام، الشَّراب، الزَّواج ...)،

النَّفس أوَّلًا؛ لأنَّها مركز الشَّهوات المادّيَّة والمعنويَّة

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 96، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 479، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 255.

وكذلك الشَّهوات المعنويَّة (الرّاحة، الأمن، السُّرور، العظَمَة، المُلك ...)، وأمّا العين؛ فهي وسيلة لإدراك الجمال، لكنَّها لا تُمثِّل كلَّ رغبات الإنسان، بل هي جزء ممّا يُسعده، فتقديم النَّفس أوَّلًا يُشير إلى شمول النَّعيم لكلِّ رغبات الإنسان، المادّيَّة والمعنويَّة، قبل الحديث عن اللَّذَّة البصريَّة، وفي تقديم الأنفس على الأعين ترتيبٌ للنَّعيم بحسب الأولويَّة والحاجة، فالإنسان في الدُّنيا، يحتاج أوَّلًا إلى إشباع جوعه وعطشه ورغباته الأساسيَّة، ويُعنى بحاجته في الرّاحة والنَّعيم، ثمَّ بعد ذلك يبحث عن الأمور الجماليَّة الَّتي تُمتِّع بصره؛ فقدَّم ما هو أولى وأهمُّ في الرُّتبة، على ما يحصل كدرجةٍ مكمِّلةٍ للنَّعيم، وهو لذَّة الأعين، أو قدَّم الباطن على الظّاهر، فالشَّهوة باطنة، تنبع من أعماق الإنسان، وهي نفسُه، واللَّذَّة البصريَّة ظاهرة، تعتمد على الإدراك الخارجي، والتَّعبير القرآنيُّ يراعي العمق قبل السَّطح، فبدأ بما يملأ الدّاخل (النَّفس) قبل ما يُبهِج الظّاهر (العين)، وفي تقديم الأنفس على الأعين مراعاةٌ وتناسبٌ مع حال أهل الجنَّة، فأهل الجنَّة يدخلونها بعد مشقَّةِ الدُّنيا وعناء التَّكاليف، فأوَّل ما يتطلَّعون إليه هو إشباع رغباتهم العميقة الَّتي حُرموا منها في الدُّنيا، وهي جواهر النَّعيم، ثم بعد ذلك يستمتعون بجمال المحلِّ، فلا عجب أن يقدِّم ما يُلبّي الرَّغبات الجوهريَّة - شهوة النَّفْس - ثمَّ يتبعه بما يزيد النَّعيمَ نعيمًا، وهو لذَّة العين.

نكتةُ الجمع بين شهوات الأنفُسِ ولذّات الأعيُنِ:

الجمع بين مشتهيات الأنفس ولذّات الأعين في قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نعيم الجنَّة كاملٌ لأهله، فذِكْرُ ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ يدلُّ على كلِّ أنواع النَّعيم الحسّيِّ والمعنويِّ (طعام، شراب، زواج، راحة ...)، ثم أتبعه بـ ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾؛ لأنَّ الجمالَ البصريَّ يُضاعِف المتعة، ويزيد النَّعيم كمالًا، وفي الجمع بينهما مراعاةٌ لطبيعة الإنسان في رغباته ولذّاته، فالإنسان مكوَّن من جانبٍ نفسيٍّ داخليٍّ (الاشتهاء)، وجانبٍ إدراكيٍّ حسّيٍّ خارجيٍّ (اللَّذّة البصريَّة)، والجمع بينهما يشير إلى أنَّ نعيم الجنَّة لا يُشبِع جانبًا واحدًا فقط، بل يُغطّي كلَّ حاجات الإنسان الداخليَّة والخارجيَّة، وتظهر النُّكتةُ في ذلك: أنَّ النَّفس قد تشتهي شيئًا لا يكون جميلًا للعين، والعين قد تستمتع بجمال شيءٍ لكنَّ النَّفس لا تشتهيه، أمّا في الجنة؛ فيجتمع الاشتهاء والجمال في كلِّ شيء.

كمالُ النَّعيم في الجَمْع بين المزايا لا في الاكتفاء بأحدها

الجمع بين ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّه الأعين، يستدعي صورة النَّقص في نعيم الدُّنيا، فقد يحصل الإنسان في الدُّنيا على ما يشتهيه، لكنَّه قد لا يكون جميلًا في منظره، أو قد يرى شيئًا جميلًا، لكنَّه لا يستطيع امتلاكه، أمّا في الآخرة؛ فالنَّعيم مطلقٌ وكامل؛ إذا يجتمع الاشتهاء والجمال معًا بلا نقص أو حرمان، فهذا الجمع بينهما يستدعي لهم كمال عطاء الله، الَّذي عوَّضهم خيرًا عن دار الفناء والنَّقص (الدُّنيا).

نكتةُ اصطفاء ﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ دون غيرها من الحواسِّ:

العينُ أسرع الحواسِّ في إيصال المتعةِ إلى النَّفْس

اختيار الأعين دون غيرها من الحواسِّ في هذا السّياق، في قوله: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾؛ لأنَّ في ذكْر ﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ كنايةً بليغة عن كلِّ الحواسِّ الأخرى؛ لأنَّه لا يوجدُ شيءٌ يُستمتَع به إلّا والعين تدركه أوَّلًا، حتّى إنَّهم يقولون: (العين تأكل قبل الفم)، فلو قيل: (تلذُّ الأسماع) أو (تلذُّ الألسنة)؛ لكان النَّعيم مقتصرًا على السَّمع أو الذَّوق، لكنَّ العين هي المَدخَل والنّافذة لكلِّ هذه اللَّذّات، فهي أكثر الحواسِّ اتِّصالًا باللَّذَّة، وهي أسبق الحواسِّ لإدراك متعةِ النَّعيم، حتّى في الدُّنيا فاللَّذّات تبدأ بالنَّظر، فتحصل الرّاحةُ والإمتاع بالنَّظر إلى الشَّيء، قبل أن يُلمَس، أو يُسمَع صوتُه، ومتعة العين أكثر تأثيرًا في النَّفس من سائر الحواسِّ، فلذَّة العين تدوم أكثر من غيرها، فقد يشبع الإنسان من الطَّعام، لكنَّه لا يملُّ من رؤية الجمال، وفي الجنَّة اللَّذَّة أبديَّة، فناسب أن يُذكر ما لا يُملُّ منه أبدًا، وهو التَّمتُّع البصريُّ، والاقتصار على ﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ يتناسب مع شمول النَّعيم في الجنَّة، فنعيم الجنَّة يتجاوز الحواسَّ الجزئيَّة، فهو ليس مجرَّد طعام أو رائحة أو مَلْمَس، بل هو مشهد شاملٌ من الجمال والكمال، ووظيفة ﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ أن تلتقط هذا المشهد العام، فتكون أقوى حاسَّةً مُعبِّرةً عن النَّعيم الواسع الَّذي يحيط بأهل

الجنَّة، في الاقتصار على ﴿ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ مراعاة؛ للإيجاز البليغ الَّذي هو من طبائع القرآن العظيم، فلو ذكر اللّه كلَّ الحواسِّ (تشتهيه الأنفس، وتلذُّه الأعين، وتطرب له الآذان، ويُستمتع بملمسه ...)؛ لطال السّياق، فاكتفى بما يعبِّر ضِمنًا عن كلِّ ذلك، بذِكْر الأعين الَّتي هي بريدُ سائر الحواسِّ.

بلاغةُ الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

الانتقالُ من الحكاية إلى الحقيقة ومن الخبر إلى اليقين في وصف النَّعيم

الالتفاتُ من الغيبة في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ليس مجرَّد تنويع في الأسلوب، ولذلك انتقل فيه من الفعليَّة إلى الاسميَّة في تقديم النَّعيم، فـ﴿يُطَافُ﴾ يدلُّ على الزَّمنيَّة المتجدِّدة، وأمّا ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ فهو تقريرٌ للدَّوام الأبديِّ لهذا النَّعيم، فجاء هذا الالتفات؛ ليؤكِّد أنَّ هذا النَّعيم ليس وقتًا محدودًا، بل هو مُلكٌ أبديٌّ مضمونٌ للمخاطَبين، أيضًا الالتفات هنا يحقِّق أقصى درجات التَّشويق والتَّأثير النَّفسيِّ، فالسّامع حين يسمع ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ قد يشعر أنَّ الحديث عن قوم آخرين، لكنَّه فجأةً يجِدُ الخطاب موجَّهًا إليه ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فيزداد تعلُّقه بالمشهد، ويشعر وكأنَّه جزء من الحدث، فهذا الالتفات يجعل وقْعَ الجملة أشدَّ تأثيرًا في النَّفس؛ إذ يتحوَّل النَّعيم من كونه مجرَّد وصفٍ لآخرين إلى وعدٍ صريح للمخاطَبين، فهذا التَّغيير المفاجئ - الالتفات - ينقُلُ المتلقّي من مقام المشاهدة، إلى مقام المشاركة، فكأنَّ السّامع كان ينظر إلى مشهدٍ بعيدٍ، ثمَّ فجأة وجد نفْسَه داخِلَه!

دلالةُ عطف جملة الفاصلة على ما قبلها:

جملة: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إمّا معطوفة على: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ وما بينهما اعتراضٌ، فيه التفات[1]، بحسب ما سبق بيانه، وإمّا معطوفة

(1) صافي، الجدول: 13/ 106.

لـذَّة النَّعيم تكتمِل بيقين الخلود

على ما قبلها جملة: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾[1]، ويجوز أن تكون حالًا من الضَّمير في ﴿عَلَيۡهِم﴾ على تقدير الالتفات[2]، وأيًّا ما كان، فالتَّذييل بهذه الجملة: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في ختام سياق النَّعيم؛ لتأكيد أنَّ النَّعيم الَّذي وُصف لا يُخشى انقطاعه، كما كان في نعيم أهل الدُّنيا، بل هو دائمٌ أبديٌّ، فيرتفع مستوى الاطمئنان في قلوب المخاطَبين، ويجعل النِّعمةَ عليهم أعظم وأكمل، والعطف هنا بجملة الخلود يعكس أسلوب التَّدرُّج البلاغيِّ في الوعد: فأوَّلًا يُذكر النَّعيم ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ ... ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾ ... ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾، ثمَّ ثانيًا يُثبِت أنَّ هذا النَّعيم مستمرٌّ لا نهاية له، ولا يتحوَّل عنهم، وذلك بالإخبار عن خلودهم فيه، وفي هذا التَّذييل: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تقويةٌ للتَّرابط بين لذَّة النَّعيم وراحة النَّفس، فالنَّفس قد تقلق؛ إذا خشيت انقطاعَ النَّعيم، فلا تستوفيه، ولا يتمحَّض لها النَّعيم؛ لتوقُّع انقطاعه، لكن حين يقول: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، يصبح النَّعيم أكثر سكينةً واطمئنانًا، إذًا العطف هنا تعميقٌ لمعنى الطُّمأنينة والسَّعادة الدَّائمة.

دلالةُ الاسميَّة في جملة الفاصلة:

الجملةُ الاسميَّة تثبيتٌ لمعنى النَّعيم الأبديّ

التَّعبيرُ بصيغة الاسميَّة في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة أنَّ خلودهم في الجنَّة أمرٌ ثابت، لا يحتمل انقطاعًا ولا تحوُّلًا، وفي التَّعبير بالضَّمير المنفصل (أنتم) مع ﴿خَٰلِدُونَ﴾ تقويةٌ لمعنى خلودهم باستحضار ذواتهم موضوعًا لهذا الخلود الحاصل، ممّا يرسِّخ في نفوسهم معنى دوام النَّعيم لهم، كأنَّه يقول: (أنتم بأنفسكم وبذواتكم مستقرّون فيها استقرار الخالِد، الَّذي لا فناء ولا انقطاع يصيبه).

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 239.
(2) صافي، الجدول: 13/ 106.

دلالةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾ على ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

تـقـديـمُ ضمير الجنَّة مسارعة لـلـبـشـرى والاطمئنان

قدَّم ﴿فِيهَا﴾ على الخبر في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولم يقل: (وأنتم خالدون فيها)؛ صيانةً للفاصلة، وتحقيقًا للاختصاص والتَّوكيد والحصر، فخلودهم محصورٌ في الجنَّة وحدها، كأنَّه يقول لهم: (لن تخرجوا منها، ولن تنتقلوا عنها، فهي داركم الأبديَّة)، فهذا التَّقديم يقطع احتمال التَّصرُّف أو التَّغيير أو التَّحوُّل، فيشعر السّامع بالطُّمأنينة المطلقة، وتقديم ﴿فِيهَا﴾ يتناسب مع مقام التَّكريم والتَّشريف، فقدَّم ضمير الدّار (الجنَّة)، الَّتي هي المبدأ والأساس ومحلُّ إكرامهم وخلودهم.

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾ [الزّخرف: 72 - 73]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ضيافةُ الجنَّة بلا انتهاء، وملكيَّتها بلا استرداد

لمّا ذكر في الآية السّابقة نموذجًا من جلال ضيافتهم وفخامتها في الجنَّة بعد دخولهم فيها، وكان قد أخبرهم باستمرار مُكثهم وطول إقامتهم في ذلك النَّعيم، وربَّما خطر ببالِ أحدٍ أنَّهم برغم ذلك ضيوفٌ في المكان، والضَّيفُ مهما طالَتْ ضيافتُهُ لا يتملَّك، ولا يَخلُصُ له استحقاقُ المكانِ على وجْهِ التَّمام، بل يمكن للمُضِيف أن يستردَّ مقرَّ ضيافته متى شاء؛ أخبرهم هنا في هذه الآية بأنَّ جنَّتهم حقٌّ خالصٌ لهم، ضيَّفهم اللّهُ فيها مع تمليكها لهم، فهي بالنِّسبة إليهم كالإرثِ الخالص، والملكيَّة المحضة الَّتي لا نزاع فيها، ولا استرداد لها.

في الجنَّة لا قوتَ عن جوعٍ، بل هو تفكُّهٌ عن لذَّة

ولمّا كان مِثالُ تلك الضّيافة في الآية السّابقة صحافًا من ذهب وأكوابًا فيها من أطايب الطَّعام والشَّراب ما لا تشتهيه نفسٌ ولا تلذُّه عينٌ إلّا وجدته؛ ذكر هنا في الآية النَّموذج الأطيب في تلك المطاعم والمشارب وهي الفاكهة الكثيرة الَّتي لا ينقطع أكُلُها، ولا تنفد لذَّتها، ولا ينفكُّ عنها وصف التَّفكُّه والتَّرفُّه، فجعل الفاكهة مِثالًا وعلامة على أنَّ سائر صنوف المأكولات والمشروبات في الجنَّة تؤكَل، كما تؤكَل الفاكهة تفكُّهًا عن لذَّة، لا قوتًا عن جوعٍ وحاجة[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

وراثةُ الجنَّة فضلٌ من اللهِ أوسع وأكبر من أعمال الصّالحين

ختم سبحانه هذا التَّكريم لعباده، بأن قال لهم مُخاطبًا إيّاهم على سبيل التَّشريف والتَّكريم: وهذه الجنَّة الَّتي أورثتموها بسبب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 480.

أعمالكم الصّالحة في الدُّنيا، لكم فيها فاكهة كثيرة، وثمار شهيَّة لذيذة، منها تأكلون أكلًا هنيئًا مريئًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ ممّا قبلها:

استدعاءُ مشهد تـسـلُّـمِ أهـلِ الجنَّةِ مُلكَهُم الأبديَّ

جملة: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ واقعةٌ مقولًا لقولٍ مقدَّر، أي: (ويقال لهم تلك الجنَّة)، والقول المقدَّر معطوف على ما تقدَّم ممّا يقال لهم[2]، فالجملة تذييلٌ لِما قد قيل لهم من خطاب النّعيم السّابق، فهي خاتِمةُ ذلك المقول لهم[3].

دلالةُ اسم الإشارة البعيد (تِلْكَ):

الجنَّة كالمسافِر البعيد ينالها أهلها بعد طول غيابٍ وانتظار

أفاد اسم الإشارة في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ زيادةَ تمييزٍ وتعظيم؛ تنويهًا بشأن الجنَّة في بُعد منزلتها، وعلوِّ رتبتها، فكما هي عالية المكانة، عاليةٌ في مكانها كذلك، ولذلك قال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾ [المطففين: 18 - 19]، ولم يقل: (هذه الجنَّة)؛ لأنَّ (تلك) إشارة للبعيد، و(هذه) للقريب[4]، وفي التَّعقيب بالإشارة إيذانٌ بأنَّ الأوصاف الَّتي مَرَّتَ ليس كلَّ نعيمها، وهذا أبلغ؛ لأنَّ إخفاء النَّعيم وتبعيده في الرُّتبة والمنزلة من كمال التَّرغيب، كأنَّه يقول: (ذلك النَّعيم البعيد المنال، ها هو قد صار لكم).

والتَّعبير بـ(تلك) الدّالِّ على البعيد، يتناسب مع وصف الجنَّة بكونها موروثة في قوله: ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾، فالإرثُ تستشرفُه الأنفس من بعيد، واستعمال (تِلْكَ)؛ للإشارة إلى الجنَّة مع

(1) طنطاوي، الوسيط: 13/ 100.
(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 240.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 256.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 91.

﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ يرفع من قدرِهم، كأنَّهم مُلوك ورِثوا مملكةً عظيمة، دون أن ينازعهم فيها أحد.

بلاغةُ التَّذييل بـ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾:

نعيمُ الجنَّة جزاءٌ محفوظٌ لأهله لا يُنقَصُ، ولا يُسْلَب

تذييل ما قيل لهم من خطاب النَّعيم بقوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾؛ لتأكيد استحقاقهم في الجنَّة، وبيان سبب ذلك، مع توصيف الكيفيَّة الَّتي تؤول بها الجنَّة إليهم، وهي كونها تؤول إليهم، كما يؤول الإرث لصاحبه، فجاءت هذه الجملة خاتمةً مَهيبة تذكِّرهم بأنَّ هذا النَّعيم لم يأتِ اعتباطًا، بل هو إرثٌ لهم بسبب أعمالهم، فالفعل ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ يدلُّ على أنَّ الجنَّة أصبحت حقًّا خالصًا لهم، كما تورَّثُ التَّركةُ لمستحقّيها دون منازع.

نكتةُ التَّعبيرِ باسْم الموصول ﴿ٱلَّتِيٓ﴾:

تعريفُ الصِّلة يؤذِنُ بكمالِ المُعرَّف

الموصول في قوله: ﴿ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ توصِّل به إلى وصف المعرفة بالجملة، فأجْريَ وصفُ الجنَّة بالموصول وصِلَتِه؛ تنويهًا بالمتَّقين الوارثين لها، فهُم أهل الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133]، وقال هنا في السّياق: ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فالخطاب هنا لهم، وتمييزًا للموصوف ﴿ٱلۡجَنَّةُ﴾ أكملَ تمييزٍ بزيادة تعيينه، فالجنَّة هي دار الجزاء لا غيرها، ولذا فالموصول ﴿ٱلَّتِيٓ﴾ أفاد العهد والعِلم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾ دلالةً وصيغة:

توَرُّثُ الجنَّةُ بسبب الأعمال لا بسبب الأنساب

وصف الجنَّة بأنَّها مورَّثَة في قوله: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّها مِنحةٌ سهلة تؤول إليهم، كما يؤول الإرث، لا نكد فيه ولا كدر، وللدَّلالة على أنَّها حاصلةٌ لهم بسببٍ كحصولِ الإرث بسببِه، فهي حاصلةٌ لهم بسبب أعمالهم، وهُم يستحقّونها، فهي من

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.

عوائد الأعمال، كما الإرث من عوائد الأنساب، فاستبدل الأنساب بالأعمال؛ لأنَّه لا أنساب بينهم يومئذٍ، ولا ينفع مالٌ ولا بنون، وأبقى العوائد والجوائز المترتِّبة عليها كالإرث، كما كان الميراث يترتَّب عن أسبابه في الدُّنيا، فدلَّ لفظ الإرث على جانب الفضل والاستحقاق معًا، وجاء بالفعل ماضيًا في: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾؛ لأنَّه خطابٌ لهم بعد دخولهم فيها، وبُني لما لم يسمَّ فاعله للعلم به، وهو اللّه ﷻ؛ إذ هو وحده من يدخل العباد جنَّته، كما قال: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾ [مريم: 63].

سرُّ إيثارِ لفظ الإيراث دون غيره:

الإرثُ أتمُّ أنواع التَّمليك

إيثار لفظ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ دون غيره من ألفاظ التَّمليك كالبيع والهبة؛ لأنَّه أتمُّ أنواع التَّمليك من حيث إنَّه لا يُعقَب بفسخٍ ولا استرجاعٍ ولا إبطال، أو لأنَّه انتقالٌ كالميراث، فيورَثُ المتَّقون من الجنَّة المساكنَ الَّتي كانت لأهل النّار؛ لو آمنوا، فيرثونها عنهم[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾:

إبـقـاءُ الـجـنَّـة لِمُستحقّيها، كما تُستَبقَى التَّرِكَة لوارثيها

اشتُقَّ لفظ ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ من (الميراث) المستعار للجنَّة، فجرت الاستعارة في المشتقِّ تبعًا لجريانها في المصدر، فهي استعارة تبعيَّة[2]، فجعل الجنَّة لهم بمنزلة العوائد المدَّخرة لمستحقّيها؛ تشبيهًا لها بمالِ الموروثِ الَّذي يصير إلى وارثه آخر الأمر، والاستعارة مكنيَّة لحذف المشبَّه به، ويلزم عن ذلك تشبيه العمل نفسه بالمورِّث[3]، بجامع أنَّه صادرٌ عنهما، فكما أنَّ المورِّث تسبَّب عنه إيصال التَّركةِ لِوَرَثته، فكذلك أعمال المتَّقين تسبَّبَ عنها استحقاق الجنَّةِ وإيصالهم لهم، أو التَّعبير بالإيراث مجازٌ مرسل[4]، أريد به

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100، و101.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100.

الإبقاء، علاقته اللازميَّة، أي: نُبْقِيها لعبادنا، فأطلق الإيراث، وأراد لازمه، وهو البقاء، ويصحُّ أن تكون الاستعارة تمثيليَّة[1]، بملاحظة مجموع التَّركيب، فيكون قد شبَّه حال أهل الجنَّة في استحقاقهم لها بأعمالهم الحسنة وإيصالها إليهم بحال الوَرَثَة الَّذين استحقّوا تَرِكَةَ مَيِّتِهم من بعده فيما خلَّفه من أرزاقٍ وأملاك.

معنى الباء في: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

الأعمالُ سببٌ جعليٌّ شرعيٌّ، لا ذاتيٌّ

الباء في قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّة[2]، أي: بسبب أعمالكم أورثتموها، فباء السَّببيَّة هنا تؤكِّد عدل اللّه، وتربط العمل بالجزاء، مع ضرورة فهمها في ضوء النُّصوص الأخرى الَّتي تثبت أنَّ الجنَّة تُنال بفضل اللّه ورحمته، بعد أن يكون العمل سببًا في استحقاقها، فهي سببيَّة بجعل اللّه ووعده[3]، فلولا اعتبار اللّه لها في الأسباب؛ لم يكن لها تأثيرٌ في الاستحقاق، فالسَّببيَّة هنا ليسَتْ سببيَّة ذاتيَّة، فالأعمال لا تستوجب الجنَّة لذاتها، فليسَتْ كافيةً بذاتها، بل السَّبب الذّاتيُّ في ذلك يرجع إلى رحمة اللّهِ الذّاتيَّة.

وأورد الآلوسيُّ في تفسيره أنَّ الباء هنا للمقابَلَة[4]، ومعنى أنَّها للمقابلة، أي: الجنَّة مقابل الأعمال، وباء المقابلة كالباء في قول القائل: (بعتُ هذا الكتاب بعشرة دنانير)، فالباء تدلُّ على أنَّ المال كان عِوضًا عن الكتاب، وفي الآية هنا لو كانت الباء للمقابلة؛ فالمعنى: (هذه الجنَّة جُعلت لكم عوضًا عن أعمالكم)، أي: جزاءً لها.

دلالةُ الاسم الموصول: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

العمل الصّالح مهما كان قليلًا ينفع في الجزاء

(ما) اسم موصول عامٌّ[5] يشمل كلَّ الأعمال الَّتي قاموا بها، سواء

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 400.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 256.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 100.
(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 131.

صغيرة أو كبيرة، ظاهرها وخفيّها، ولذلك لم يقل: (بأعمالكم)، بل قال: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ ليكون المعنى أوسع وأشمل، وكأنَّ الجنَّة جزاء لكلِّ ما بدر منهم من عملٍ صالحٍ دون استثناءِ مثقالِ ذرَّةٍ منه، فعموم الموصول هنا بديعٌ في إيجازه وإعجازه، فبدلًا من تفصيل الأعمال الصّالحة واحدًا واحدًا، عملًا عملًا، جاء التَّعبير بـ (ما)؛ ليشمل كلَّ عملٍ خالصٍ لله، فهذا الإجمال بالعموم أوقعُ وأدقُّ وأعمق، وكأنَّ الجنَّة ليست مرتبطةً بعملٍ معيَّن، بل بنهجِ حياةٍ كاملٍ يقوم على العمل الصّالح المستمرِّ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل النّاقص: ﴿كُنتُمۡ﴾:

الجــزاءُ يــوم القيامة مبنيٌّ عــلى المَـسـيرة الكاملة للإنسان

الفعل الماضي النّاقص ﴿كُنتُمۡ﴾ مع المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ يدلُّ على الاستمرار في العمل الصّالح طوال حياتهم[1]، فالكينونة ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تدلُّ على أنَّهم كانوا أهل عملٍ وحركة، فالعمل الصّالح ديدنهم من لوازم طِباعهم، فثبتوا عليه حتّى المات[2]، فالمعنى: بسبب جميع أعمالكم الَّتي كنتم دائمين عليها في الدُّنيا، فلم يكن العمل عرَضًا مؤقَّتًا في حياتهم، بل كان نهْجًا وطريقة، وحالًا وحقيقة.

موقعُ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ممّا قبلها:

استدامةُ النَّعيم ووفرتـه يضمن لأهـل النَّعيـم راحــة الـبـال وسكينة الفِكر

جملة: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾، وإمّا استئناف بيانيٌّ[3] لما قبلها: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، كأنَّه بعد هذا التَّقرير سأل سائلٌ: فما أحسنُ ما في تلك الصِّحاف؟ أو لمّا قال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾؛ سأل سائل: فعلى أيِّ مِثالٍ يجري النَّعيم فيها؟ فأجيب: على مثال التَّفكُّه لأجل اللَّذَّة، لا لأجل القوتِ وطلبِ الشِّبَع؛ لأنَّه لا فناء فيها للقوَّة، فلا تختلُّ أبدانهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 480.
(3) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 25/ 241.

بالجوع حتّى يكون أكلهم لأجل الشِّبَع[1]، فضَرَبَ لتقريرِ ذلك المعنى المَثَلَ بالفاكهة، فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، فيجري نعيمهم فيها على ذلك المِثال، وإن أكلوا لحمًا وخبزًا، فهُم يتناولونه تفكُّهًا لا قوتًا، التذاذًا لا حاجة[2].

فائدةُ تقديم: ﴿لَكُمْ﴾:

الجنَّةُ موطنُ النَّعيم الخالص، فلا يوجد خارجه بديلٌ يماثله

تقديم ضميرهم على ضمير الجنَّة في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾؛ لأنَّهم المقصودون بخطاب التَّكريم، فتقديمهم أوقع في الإكرام، وثنّى بضمير الجنَّة: ﴿فِيهَا﴾؛ لأنَّها محلُّ التَّكريم ومكانه، وتقديم ﴿لَكُمْ﴾ و﴿فِيهَا﴾؛ للاعتناء والحصر، والتَّأكيد على أنَّ النَّعيم ليس إلّا لهم، وأنَّه لا نعيم لهم إلّا في الجنَّة، فمن حُرِم نعيمهما؛ فلا أمان له في سواها، كأنَّه قيل: لكم وحدكم لا لغيركم، والتَّفكُّه مقصورٌ عليها، لا في غيرها.

ودلَّ قوله: ﴿لَكُمْ﴾ على الملكيَّة والاختصاص، فكلُّ ما في الجنَّة هو مِلكُهم وحدهم، مختصٌّ بهم، لا ينازعهم فيه أحد، ولا يخفى ما فيه من زيادة التَّكريم والتَّشريف.

وفي تقديم ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ تهيئةٌ لذهن المتلقّي قبل إخباره بالنِّعَم العظيمة، فحينما يسمع ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ ينتبه بالتَّشوُّق والاستشراف إلى اكتشاف ما هو له فيها من النَّعيم، ثمَّ يأتي قوله: ﴿فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ فتُعزِّز هذا التَّوقُّع، فيكون أكثر تأثيرًا، فيَلَتَذُّ بنظم الخطاب في تركيبه، كما يلتذُّ عند وقوع مضمونه له.

نكتة اختصاص الفاكهة بالذِّكر دون غيرها:

التَّفكُّه والتَّرفُّه وصفٌ دائم لأُكُلِ الجنَّة

ضرْبُ المِثال هنا بالفاكهة دون غيرها؛ لكونها أحسنَ ما يُستَلَذُّ من المآكِل، وطعومها معروفة لكلِّ سامع[3]، أو لأنَّ صفةَ التَّفكُّه الَّتي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 480.
(2) البقاعي نظم الدرر: 17/ 480.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 257.

في الفاكهة هي الوصف الجامع والمشترك في كلِّ مطعومات الجنَّة ومشروباتها، أنَّها تُتناوَل كما تُتناوَل الفاكهة؛ لأجل التَّفكُّه، أي: التَّنعُّم والتَّرفُّه والتَّلذُّذ، فلا طعام فيها يُتناوَل، كما تُتناوَل الأقوات لحفظِ الطّاقة وتعويض القوَّة؛ لأنَّه لا يعتري الأبدانَ فيها شيءٌ من نقصٍ أو ضعفٍ، وعليه: فكلُّ ما فيها، وإن كان لحمًا، أو كان غيرَ ثَمَرٍ؛ فمقصودٌ به التَّفكُّه، فهو كالفاكهةِ في الغرضِ والأثَر، لا في الصِّنفِ والجنس[1]، ويصحُّ أن يكون في ذِكْرها خاصَّة دون غيرها دلالةٌ على أنَّها أساس الطَّعام في الجنَّة، فهي مأكولٌ مُقَدَّمٌ ورئيس.

دلالةُ وصف ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ بأنَّها ﴿كَثِيرَةٌ﴾:

تنوُّع مطاعم الجنَّة في اللَّذّات والمذاقات

وصف (الفاكهة) بأنَّها ﴿كَثِيرَةٌ﴾ في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الوفرة والتَّنوُّع، فيلزم عنه تجدُّد اللَّذَّة وتباينها بحسب تباين مصادرها، فكلُّ نوعٍ له لذَّته الخاصَّة في المنظر والمذاق، والكثرةُ هنا عامَّةٌ في الأصناف والأفراد، أي: فاكهةٌ أنواعها كثيرة، وكلُّ نوعٍ منها أفراده كثير[2]، والوصف بالكثرة هنا من لوازم الحبور وسعة الصِّحاف وطول مُكثِهم بالخلود، في قوله: ﴿تُحْبَرُونَ﴾، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾، ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فإنَّ الفاكهة لابدَّ أن تكون كثيرةً في وجود تلك القرائن المذكورة في مُعطيات النَّعيم.

معنى (مِنْ) في: ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾:

ليس في الجنَّة شيءٌ يَبْلَى، فنعيمها يتجدَّد ويُعَوَّض

(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تبعيضيَّة، وهو الأنسب مع وصف الكثرة، أي: يأكلون بعضها؛ لثبوت وصف الكثرة لها، فكثرتها لا تتأثَّر، ولا تنقُص بأكلهم منها؛ لأنَّهم كلَّما أكلوا منها؛ نبتَ مكانها بدَلَها، فلا تنفد أبدًا، فهي على صفة الماء النّابع، لا يُؤخَذ منه شيءٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 480.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 101.

إلّا خلَفَ مكانَه مِثلُه أو أكثرَ منه في الحال[1]، أو لأنَّ بعضها للأكل، وبعضها على الأشجار للزّينة وإمتاع الأنظار، فلا تُنْزَع هذه الثِّمار مِن أشجارها أبدًا[2]، ويصحُّ أن تكون (مِنْ) ابتدائيَّة[3]، أي: يبدأ أَكْلُهم منها، فهي مُقَدَّمُ طعامِهم.

دلالةُ تقديم ﴿مِّنۡهَا﴾:

طعامُ الجنَّة يُؤكل للتَّلذُّذ لا للقوت

تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ لرعاية الفاصلة، والحصر الإضافي[4]، أي: قَصْرُ أَكْلِهم على الفاكهة، وحدَّها بالنِّسبة إلى النَّعيم في هذا السّياق خصوصًا، أي: إنَّه لم يُذكَر في الآية إلّا الفاكهة، فناسب أن يُذكر الأكل مقصورًا عليها في هذا السّياق؛ لإبراز الفاكهة عنصرًا أساسيًّا في نعيمهم؛ مبالغةً في قيمتها واستحواذها على قدرٍ في النَّعيم كبير، لكنَّه ليس حصرًا حقيقيًّا عامًّا؛ لأنَّه في مواضع أخرى ذكر اللّه أنَّهم يأكلون غير الفاكهة، كما في قوله: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة: 21].

ويصحُّ أن يكون الحصر حقيقيًّا؛ إن أريد بالفاكهة ما يستغرق الأطعمة؛ بناءً على أنَّ كلَّ الأطعمة فيها تؤكَل للتَّلذُّذ والتَّفكُّه لا للقوت[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 480، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 351.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 101.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 351.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 101.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 480، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي 17/ 351.

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦﴾

[الزّخرف: 74 - 76]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

حديثٌ عن سوءِ عاقبةِ الكافرين بعد الحديثِ عن حُسنِ عاقبةِ المؤمنين

إنَّ اللّهَ تعالى لَمّا ذَكَرَ الوَعدَ؛ أردَفَه بالوَعيدِ على التَّرتيبِ المُستمِرِّ في القُرآنِ[1]، فلمّا ذَكَرَ تعالى حالَ أهلِ الجنَّة، وما يُقالُ لهم مِن لَذائذِ البِشارةِ؛ أعقبَ ذلك بذِكرِ حالِ الكَفرةِ وما يُجاوَبونَ به عند سُؤالِهم[2]، وكذلك لَمّا ذَكَر ما للقِسمِ الثّاني مِن الأخِلّاءِ - وهم المتَّقونَ - تَرغيبًا لهم في التَّقوى؛ أتبَعَه ما لأضدادِهم - أهلِ القِسمِ الأوَّلِ - تَحذيرًا مِن مِثلِ أعمالِهم[3].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: أصلُ الكَلِمَةِ مِن الجَرْمِ، وهو: القَطْعُ[4]، وقيل: أصلُه الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهلِه، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِه[5]، والإجْرامُ: ارتِكابُ الجُرْمِ، وهو الإثْمُ العَظيمُ، وأعظَمُ الإجرامِ الكفرُ[6]، والمُجْرِمُ في اصطِلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، وهو المقصودُ هنا، فالمجرمون: هم الرّاسخون في الإجرامِ، الَّذين اجترموا في الدُّنيا الكفرَ باللّهِ[7].

2) ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾: أصلُ الفُتورِ: الضَّعفُ والسُّكونُ، ويدورُ معنى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 643، وسيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 100.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 388.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 480.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 643، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 269.

الفَتْر على الانكسارِ والضَّعفِ، يقال: فَتَرَ الماءُ، أي: سَكَنَ حَرُّهُ، فهو فاترٌ، وفَترَ عَزْمُ فلانٍ؛ إذا ضَعُفَ، وفترتْ هِمَّتُه: سكنَتْ بعد حِدَّةٍ ونشاط، أي: ضَعُفتْ وخفَّتْ[1]، ومعنى ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾: لا يُخفَّفُ عنهم العذابُ بإزالته، ولا بتهوينِ عذابه[2].

3) ﴿مُبْلِسُونَ﴾: أصلُ (بلس) يدلُّ على اليأسِ، وأبلسَ الرَّجلُ: سكتَ، والإبلاسُ: الانكسارُ والحُزن، يقال: أبْلَسَ فلانٌ؛ إذا سكتَ غمًّا، وهو: الحُزنُ المعترِضُ من شدَّةِ اليأس، ويقال: أبْلَسَ فلانٌ: سكتَ، وانقطعتْ حجَّتُه[3]، والمُبْلِسُ: الحزينُ الباهتُ اليائسُ منَ النَّجاة عند ورودِ الهَلَكةِ، لا يُحيرُ جوابًا لشِدَّةِ ما نزل به من سوءِ الحال[4]، والمُبْلِسُ في هذا الموضع: هو الآيسُ من النَّجاةِ ومن كلِّ خير، اليائسُ السّاكتُ سكوتَ يأسٍ من فَرَجٍ، الَّذي قد قَنِطَ، فاستسلمَ للعذابِ والبلاءِ[5].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

عذابُ المجرمين من أهلِ النّارِ وأسبابُه

إنَّ الذين أجْرَموا في الدُّنيا بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رُسُلِه، وعِصيانِ أمرِه في عذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا، لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ، وهم فيه آيِسونَ من كلِّ خَيرٍ، وما ظلَمْناهم، ولكِنْ هم ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ باللهِ والعِصيانِ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فصْل ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عمّا قبلها:

استئنافٌ بيانيٌّ بعد وصفِ أحوالِ المؤمنين، أو إتمامٌ تفصيلٍ لِما أُجمِلَ قبلُ

هذه الجُملَة استئنافٌ بيانيٌّ يُثيرُه ما يُسمَعُ من وصفِ أحوالِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فتر)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 166.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 643، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 770.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلس).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 292، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 12/ 535.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 643، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 264.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 439، و640.

المُؤمنين المُتَّقين من التَّساؤل: كيف يَكونُ حالُ أضدادِهم المُشركين الظّالِمين؟ فبينَ الجُملتَين شِبهُ كمالِ اتِّصال، وقد جاءت إتمامَ تفصيلٍ لِما أجْمَلَه الوَعيدُ الَّذي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ [الزّخرف: 65]، عَقِبَ تَفصيلِ بَعضِه بقَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الزّخرف: 66]، وبقَولِه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزّخرف: 67]؛ إذ قُطِعَ إتمامُ تَفصيلِه بالاعتِناءِ بذِكْرِ وعدِ المُؤمنين المُتَّقين، فتكون في هذا المَوقِعِ بيانًا لجُملَةِ الوَعيدِ، وتفصيلًا لإجمالِها[1].

دلالةُ التَّأكيد بالأداة ﴿إِنَّ﴾:

تَنزيلُ السّائِلِ المُتَلَهِّفِ للخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في مَضمونِه

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ افتتاحُ الخَبَرِ بحَرف ﴿إِنَّ﴾؛ للاهتِمام به، أو لتَنزيلِ السّائِلِ المُتَلَهِّفِ للخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في مَضمونِه؛ لشِدَّةِ شَوقِه إليه، أو نَظَرًا إلى ما في الخَبَرِ من التَّعريضِ بإسماعِهِ المُشركين، وهم يُنكِرون مَضمونَه، فكأنَّه قيل: إنَّكُم أيُّها المُجرمون في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدون[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

الكفرُ جُرْمٌ عظيمٌ يستحقُّ صاحبُه الخلودَ في النّار

البيانُ القرآنيُّ آثَرَ استعمالَ لفظِ المجرمين؛ للتَّنبيهِ على أنَّ شِركَهم إجرامٌ، والإجرامُ هو الإثمُ العظيم[3]، وأنَّهم بلغوا الكمالَ في الإجرام، فإجرامُهم كان طبعًا لهم، لا ينفكّون عنه أصلًا ما بَقوا[4].

سرُّ مجيءِ الكلامِ على طريقة الالتفات:

المَقتُ والتَّبعيدُ لائقانِ بمَن كانت صفتُه الكمالَ والرُّسوخَ في الإجرام

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الخطابِ في الآية السّابقة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ [الزخرف: 73] إلى الغَيبة في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾؛ تلوينًا للكلام بما يُجدِّدُ الانتباهَ له، والتَّأمُّلَ فيه، والتفاتًا عن المجرمين مقْتًا وتبعيدًا لهم؛ إذ إنَّ مقامَ الغَيبةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 257.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 258.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 481.

- الَّذي هو مقامُ المَقتِ والتَّبعيدِ والطَّردِ - لائِقٌ بمَن كانتْ صفتُه الكمالَ في الإجرام.

بلاغة تعلُّق الجارِّ والمجرور ﴿فِي عَذَابِ﴾ بـ: ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

تقييدُ خُلودِ الكافرين في عذابِ جهنَّم دليلٌ على شِدَّة عذابِهم

تعلُّقُ الجارِّ والمجرور ﴿فِي عَذَابِ﴾ بقوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ على أحدِ قولين[1] يُفيدُ تقييدَ خَلودِ الكافرين في عذابِ جهنَّم، وإحاطتَه بهم إحاطةَ الظَّرفِ بمظروفه، بما يَدلُّ على شدَّةِ هذا العذاب، والَّذي أكَّده ما تبعَه من نفيٍ لأيِّ نقصانٍ وتخفيفٍ يعتري هذا العذابَ، كما يعهد في عذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم هم وقودُها بقوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾[2].

سرُّ إضافةِ لفظ ﴿عَذَابِ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

عذابُ الكافرين عذابٌ عظيمٌ مهولٌ ليس كعذابِ الدُّنيا

إضافةُ ﴿عَذَابِ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ إضافةٌ بيانيَّةٌ، جاءتْ بيانًا للعذابِ الَّذي أعدَّه اللّهُ للكافرين؛ لأنَّه اسمُ عَلَمٍ على النّار، وتهويلًا لشأنِ هذا العذاب، فهو عذابٌ عظيمٌ مهولٌ ليس كعذابِ الدُّنيا، بل هو عذابُ النّارِ الَّتي من شأنها لقاءُ مَن دخلها بالتَّجهُّم والكَراهة والعُبوسة، كما كان يعملُ الكافرُ عند قطعهِ لأولياء اللّه تعالى[3]، وفي هذا تخويفٌ عظيمٌ للكافرين من عذابِ اللّه.

الغَرضُ من تقديم شِبه الجملة على الخبر في: ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾:

في التَّركيزِ على أنَّ عذابَ المجرمين وخُلودَهم هو في جهنَّم تخويفٌ وتهديد

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ شِبهَ الجملة: ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾ على الخبر ﴿خَٰلِدُونَ﴾، ولم يقلْ: (خالدون في عذابِ اللّه)؛ للاهتمام والتَّركيز على بيانِ شدَّةِ عذابِ المجرمين، واستغراقِهم في عذابِ جهنَّم، وهذا فيه من التَّخويف ما فيه، وكذلك في التَّقديم رعايةٌ للفاصلة القرآنيَّة.

سرُّ اصطفاءِ النَّظمِ لفظةَ جهنَّم دونَ سواها:

آثرَ البيانُ الحكيمُ اسمَ جهنَّمَ في قوله تعالى: ﴿فِي عَذَابِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 55.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 481.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 481.

في ذِكْرِ جهنَّم بعيدةِ القَعْر شديدةِ الغضب مزيدُ تخويفٍ منها

﴿جَهَنَّمَ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ هذا العذاب، فجَهنَّمُ على أحدِ الأقوال هي اسمٌ لجميعِ نارِ الطَّبقات السَّبع[1]، أو لأنَّ جهنَّمَ تدلُّ على بُعْدِ القَعْرِ[2]، وهي شديدةُ الغضب، منظرُها مستنكَرٌ وكَرِيهٌ، كما أنَّ اسمَ جهنَّمَ عَلَمٌ للنّارِ الَّتي يُعذِّبُ اللّهُ بها في الآخرة، فهي الأشهرُ والأكثرُ ورودًا بين أسماءِ النّار في القرآن، فقد وردَتْ سبعًا وسبعين مرَّةً، فكان في ذِكْرِها مزيدُ تخويفٍ وتنفيرٍ منها، وأشدُّ وقعًا على النَّفس.

الغَرضُ من التَّعبير بأسلوب النَّفيِ في: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾:

نفيُ فُتورِ العذابِ عن المجرمين يُؤكِّدُ استمرارَ عذابِهم وخُلودِهم في النّار

نفى البيانُ القرآنيُّ فتورَ العذابِ عن الكافرين؛ ليُعْلِمَ أنَّ النّارَ، وإنْ أنضجَتْ جلودَهم، وأحرقتْهم، لا يُفَتَّرُ التَّألُّمُ عنهم بنُضجِ الجلودِ، بل التَّوجُّعُ والتَّألُّم بعد نُضجِ جلودِهم واحتراقِها على ما كان قبلَ النُّضجِ[3]، فنَفَيُ فتورِ العذابِ عن المجرمين يُؤكِّد استمرارَ عذابِهم، ويُؤكِّد خلودَهم في النّار، بعد قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ لأنَّ المؤمن العاصي يُخَفَّفُ عنه عذابُ النّارِ، ولا يَخْلُدُ فيها.

نُكْتَةُ بناءِ الفعل المُضَعَّف ﴿يُفَتَّرُ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

تركيزٌ على نفي تخفيفِ العذاب عن المجرمين وحَصْرٌ للوعي فيه

بناءُ الفعل ﴿يُفَتَّرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للتَّركيز على الحَدَثِ، وهو نفيُ تخفيفِ العذابِ عنْهُم، وحصرِ الوَعي فيه، وللإيجاز؛ إذ لو عَبَّر بقوله: (لا يُفتِّر اللّهُ عنهم العذابَ)؛ لكان في الكلامِ إطالةٌ تَذهبُ بجماله، وقد جاء ﴿يُفَتَّرُ﴾ مضعَّفًا، ولم يقل: (لا يَفتُر)؛ للمبالغة في بيانِ عدمِ تخفيفِ العذابِ عن الكافرين، فلفظُ ﴿يُفَتَّرُ﴾ يدلُّ على نفي إضعافِ العذاب بنَوعٍ من الضَّعف، فنفيُ التَّفتير نفيٌ للفُتورِ من غير عكس[4].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جهن).

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 186.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 481.

سرُّ التَّقييدِ بجملة: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾:

حالُ المجرمين في عذابِ جهنَّم مستمرَّةٌ على عدمِ تخفيفِ العذاب عنهم

جملةُ: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ في موضعِ الحال، أي: حالُ المجرمين وهم في عذابِ جهنَّم أنَّهم لا يُفَتَّر عنهم العذابُ، وجاءت صيغةُ الفعل بالمضارع؛ لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، والتَّصوير، ممّا يدلُّ على أنَّ حالَهم هذه من العذاب الأليم وعدمِ تخفيفه عنهم مستمرَّةٌ متجدِّدة في عذاب جهنَّم.

معنى الواوِ ودلالتُها في: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾:

تسبَّبَ عن كفرهم خلودُهم في النّار وعدمُ تخفيفِ العذاب ويأسُهم

جُمْلَةُ: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ إمّا أن تكون عَطْفًا على جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾[1]، وفي هذا العطفِ جمعٌ بين خُلودِ الكافرين في النّارِ، وعدمِ تخفيفِ العذاب عنهم، ويأسِهم من الخُروجِ منها، وفي هذا بيانٌ لشدَّةِ هذا العذاب الَّذي استحقّوه؛ بسببِ جُرمهم العظيم، وهو الكفر، وإمّا أن تكون جملة حاليَّة، ويكون الغَرَضُ بيانَ حالِهم في انقطاع أملهم في الخروج من العذاب ويأسِهم من ذلك، وورودُها اسميَّةً يُقوّي هذا المعنى.

الغرضُ مِن تقديم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُبۡلِسُونَ﴾:

تخصيصُ إبلاسِهم في عذابِ جهنَّم دليلٌ على شِدَّته ورهبتِه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾، فلم يقل: (وهم مبلسون فيه)؛ لإفادةِ تخصيصِ إبلاسهم في هذا العذابِ الشَّديد، ممّا يَدلُّ على شدَّته، ويكون أدخلَ في ترهيبهم وتخويفهم منه، وفي التَّخصيصِ إلماحٌ إلى أنَّ عصاةَ أهلِ التَّوحيد يُفتَّرُ عنهم العذابُ بدليلِ الخطاب، بمفهوم المخالفة، وأنَّ المؤمنين لا إبلاسَ لهم، وإن كانوا في بلائهم، فهُم على وصفِ رجائهم، ويَعُدّون أيّامَهم[2]، كما أنَّ في التَّقديمِ مراعاةً لفاصلةِ الآيات.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 258.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 269.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾:

نَفيُ استِعظامِ ما جوزوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، فهُم من ظلموا أنفسهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ إمّا اعتراضيَّة، والجملةُ مُعتَرِضةٌ في حِكايةِ أحوالِ المُجرمينَ، قُصِدَ منها نَفيُ استِعظام ما جوزوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفيُ الرِّقّةِ لحالِهم المحكيَّةِ بِقَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾[1]، أو عاطفةٌ[2]، والمعنى: وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أيُّها النّاسُ أنّا فعلنا بهم من التَّعذيب بعذابِ جهنَّم[3]، بل هم الَّذين ظلموا أنفسهم.

دلالةُ النَّفي بالأداة (ما) في: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾:

اللهُ تعالى مستحيلٌ في حقِّه أيُّ نوعٍ من أنواعِ الظُّلم

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ نافيةٌ، ووقوعُ فعل ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ في سياقِ النَّفي يقتضي عمومَ مدلولِه؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّفي بمنزلةِ النَّكرة في سياقه، وعمومُ الفعل يستلزمُ عمومَ متعلِّقاتِه من مفعولٍ ومجرور، فيَعمُّ نفيَ جميعِ أنواعِ الظُّلم، والمعنى: ما ظلمناهم نوعًا من الظُّلم؛ لأنَّه تعالى مستحيلٌ في حقِّه الظُّلم[4]، ولأنَّ معاملته إيّاهم بتلك المعاملةِ هي جزاءٌ على ظلمهم، فلذلك عقَّبَ بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

معنى (الواو) ودلالتُها في: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

في بيانِ حالِ المجرمين الظَّلَمةِ مزيدُ عذابٍ لهم بلَوْمِهم أنفسَهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: وما ظلمناهم، والحالُ أنَّهم كانوا هم الظّالمين، وقد جاء الجواب بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ليزيدَ عذابهم برجوعهم بالملامةِ على نفوسهم، ووقوعِهم في منادماتِ النَّدامات[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 258.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 107.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 8/ 55.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 482.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 482.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب القَصْر في: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

قَصْرُ صفة الظُّلمِ على المجرمين تأكيدٌ على مبالغتهم في ظُلمِ أنفسهم

ضَميرُ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُجتَلَبٌ؛ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الظُّلمِ على اسمِ (كان)[1]، وفي القصر تمكينٌ لمعنى الظُّلم، وتقويةٌ له، ومبالغة في وجوده فيه طبعًا وسجيَّةً، كأنَّه خاصٌّ بهم، لا يتعدّاهم إلى سواهم.

نُكْتَة ردِّ العَجُزِ على الصَّدر في الآية:

المجرمون هم الَّذين أرادوا هذا العذابَ، واشتروهُ بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم

ابتداءُ قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بلفظ: ﴿ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾، واختتامُه بلفظ: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يشيرُ إلى أنَّ المجرمين هم الَّذين أرادوا هذا العذابَ الأليم، واشترَوهُ بأعمالهم وبظلمهم لأنفسهم، وهذا من المحسِّنات البديعيَّة الَّتي تُعرفُ بِرَدِّ العَجُز على الصَّدر، والَّتي تزيدُ الكلام حُسنًا، والمعنى تَمَكُّنًا.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإجرام والعِصيان:

الكفرُ جُرمٌ عظيمٌ يستحقُّ الخلودَ في النّار والإبلاسَ من رحمةِ الله

الإجرامُ أعظمُ وأفظعُ من العصيانِ، وعقوبتُه أشدُّ؛ إذ "الجُرْمُ لا يُطلقُ إلّا على الذَّنبِ الغليظ"[2]، فالإجرامُ هو الإثْمُ العَظيمُ، وأعظَمُ الإجرام الكفْر[3]، بينما العصيانُ أخفُّ من الإجرام، ويُطلَقُ على المخالفاتِ الصَّغيرة والكبيرة، والعِصيانُ امتناعٌ وتَمرُّد؛ إذ أصلهُ اللُّغويُّ يدلُّ على الفرقةِ والخروجِ عن الطّاعةِ، ومخالفةِ أوامرِ اللّه[4]، وقد ناسبَ هنا استعمالُ لفظِ المجرمين؛ لكونه جاء وصفًا للكافرين الَّذين اكتسبوا الإثمَ العظيمَ، وهو كفرهم باللّه، فاستحقّوا الخُلودَ في النّارِ والإبلاسَ من رحمةِ اللّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 258.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جرم).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 210.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عصى).

الإبلاس والقُنوط:

الإبلاسُ أبلغُ من القُنوط وأوسعُ دلالةً، فالإبلاسُ هو اليأسُ الشَّديدُ المصحوبُ بالسُّكوت غَمًّا، وبالحُزنِ والحيرةِ والانكسارِ والانقطاعِ عن الأمل، واليأس من النَّجاة، والعجزِ عن إبداء الحُجَّة، أو أيِّ فعلٍ؛ لشِدَّةِ ما نزلَ به من سوءِ الحال[1].

الإبلاسُ أبلغُ من القنوطِ، وأنسبُ في وصفِ حالةِ المجرمين الخالدين في النّار

بينما القنوطُ هو اليأسُ الشَّديد من رحمةِ اللّه، وانقطاعُ الأمل؛ إذ أصلُ القُنوط: المَنْعُ، ومنه سُمِّيَ اليَأسُ قُنوطًا؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ مِن رَحْمَةِ اللّهِ تعالى[2]، ومن هنا كان التَّعبير بلفظ ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ أبلغَ في وصفِ حالةِ المجرمين الخالدين في النّار وتصويرِها، فهُم في يأسٍ شديدٍ مصحوبٍ بحُزنٍ وحَيرةٍ وانكسارٍ، وفي انقطاعٍ عن أيِّ أملٍ للنَّجاة، عاجزون عن إبداءِ أيِّ حُجَّة، ساكتون غمًّا ونَدَمًا على سوءِ حالِهم وما وصَلوا إليه؛ نتيجةَ إجرامِهم وكُفرِهم.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلس).

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قنط).

﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٨﴾ [الزّخرف: 77 - 78]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

مـع عِـلْـمِ المُعذَّبِين باليأسِ علَّقوا آمالَهم بالخلاص

لـمّا كان من مفهوم الإبلاسِ السُّكوتُ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾؛ أعلَمَ اللهُ بأنَّ سكوتَ المُعَذَّبين ليس دائمًا؛ فنادَوا يتمَنَّون الموتَ؛ حرصًا على تخفيفِ العذاب عنهم، وأعلَمَ أنَّهم مع علمهم باليأس علَّقوا آمالَهم بالخلاص، كما يَقعُ للمُتَمَنِّين للمُحالات في الدُّنيا؛ ليكونَ ذلك زيادةً في الهَمِّ، فقال: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) (مالِكُ): اسمُ فاعل من مَلَكَ الشَّيء يَملِكه مَلْكًا، أي: حازَه، وانفردَ بالتَّصرُّف فيه[2]، واللهُ هو المالِكُ على الحقيقة، أي: "مالكُ الأشياءِ كلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته، لا يَمْتَنِع عَلَيه مِنها شيءٌ؛ لأنَّ المالِكَ في كلامِ العَرَبِ للشَّيءِ: هو المُتصرِّفُ فيه، القادرُ عَليه"[3]، ومعنى (مالِكُ) في الآية: اسمُ المَلَكِ الموَكَّلِ بِجَهَنَّمَ، أي: خازنُ جهنَّم، خاطَبوهُ؛ لِيَرْفَعَ دَعوَتَهُم إلى اللهِ تعالى شَفاعَةً[4].

2) ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا﴾: أصلُ (قضى) "يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ، وإتقانِه وإنفاذِه لجهته"[5]، وهو من الألفاظِ المشتركةِ الدَّلالة، ويتعيَّنُ معناه بحسبِ السِّياقِ الواردِ فيه، ومنه "الفراغُ من الشَّيء بإتمامه حسبَ المراد، أداءً أو تحصيلًا، أو إتمامَ عمل"[6]، والقضاءُ: الحُكْمُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 482.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس، عدد من الباحثين، المعجم الوسيط: (ملك).
(3) ابنُ إسحاق الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 43.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 640، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 259.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضى).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (قضى).

والصُّنعُ، والحَتْمُ، والبيانُ، وفصْلُ الأمرِ فعلًا كان أو قولًا، ويُعبَّرُ عن الموتِ بالقضاء، فيُقال: قضى نَحْبَه، كأنَّه فصلَ أمرَه المختصَّ به من دنياه[1]، والقَضاءُ هنا بِمَعنَى: الهلاك والإماتَة، أي: ليُمِتْنا ربُّكَ، فيفرغ من إماتتنا[2].

3) ﴿مَّٰكِثُونَ﴾: أصلُ المُكثِ يدُلُّ على تَوَقُّفٍ وانتِظارٍ وتلبُّثٍ في المكانِ[3]، والماكِثُ: المُنتظِرُ[4]، ويُقال المُكْثُ: الإقامةُ مَعَ الانتِظارِ والتَّلَبُّث في المَكانِ[5]، أو ثباتٌ مع انتظارٍ[6]، والمَكيثُ: المقيمُ الثّابتُ، والمعنى المحوريُّ للمُكث: اللُّبْثُ والتَّلَبُّثُ في المكان زَمَنًا، كالمقيم الثّابت[7]، ومعنى ﴿مَّٰكِثُونَ﴾: لابثونَ مقيمونَ في عذابِ جهنَّم، لا تخرجون منها أبدًا[8].

4) ﴿لِلْحَقِّ﴾: (حقق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصحَّته، فالحَقُّ: نقيضُ الباطل[9]، والحقُّ في الأصلِ: الثُّبوتُ، يُقال: حَقَّ الأمرُ: ثبتَ، واستقرَّ، ووَجَبَ، وقيل أصلُه: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعُه حُقوق وحِقاق، والحَقيقَةُ: الشَّيءُ الصَّحِيحُ يَقينًا، والحقُّ: اسمٌ من أسماءِ اللّهُ تعالى، ومن معاني الحقِّ أيضًا: الصِّدقُ، والعَدلُ، والإسلامُ، وأمرُ النَّبيِّ ﷺ وما أتى به من القرآن[10]، "والمرادُ بالحقِّ: كلُّ ما أمرَ اللّهُ به على ألسنِ رسلِه، وأنزلَهُ في كُتبه، وقيل: هو خاصٌّ بالقرآن"[11].

5) ﴿كَٰرِهُونَ﴾: أصلُ (كره) يدلُّ على خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ، يُقالُ: كَرِهتُ الشَّيءَ أكرَهُهُ كَرْهًا، والكُرْهُ الاسمُ، والكَرْهُ: أن تُكَلَّفَ الشَّيء، فتَعمَلَهُ كارِهًا[12]، والكَراهَةُ مِنَ الكُرْهِ أوِ الكَرْه، وهو المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمتُ على كُرهٍ، أي: على مَشقَّةٍ، ومنه سُمِّيَت

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 276.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 640، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (مكث).
(4) الخليل، العين: (مكث).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (مكث).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مكث).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).
(8) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 770، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 401.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(10) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حقق).
(11) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 647.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).

الحَربُ كَرِيهَةٌ[1]، والمكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمكروهُ: ما يَكرَهُهُ الإنسانُ، ويَشُقُّ عليه[2]، ومعنى ﴿كَٰرِهُونَ﴾: لا تقبلونَهُ، وتنفرونَ منه، وتشمئزّونَ منه؛ لأنَّ مع الباطلِ الدَّعَةَ، ومع الحقِّ التَّعَبَ[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

مناداةُ المجرمين خازنَ النّارِ طلبًا للموتِ ليستريحوا

نادَى المُجرِمونَ - وهُم في النّارِ - مالِكًا خازِنَ النّار، فقالوا: يا مالِكُ، لِيُمِتْنا رَبُّك، فيَقبِضْ أرواحَنا؛ لِنَستريحَ مِمّا نحن فيه مِنَ العَذابِ، فقال لهم مالِكٌ: إنَّكم باقونَ في العَذابِ أبدًا، بدون موتٍ يُريحكم من عذابها، وبدون حياةٍ تجدونَ معها الرّاحةَ والأمان، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ [طه: 74]، ولقد أرسلنا إليكم يا معشرَ قريش رسولَنا محمَّدًا ﷺ بالحقِّ، ولكنَّ أكثرَكم كان كارهًا للحقِّ والهُدى[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾:

الــواو بين العاطفة والحاليَّة والاستئنافيَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ إمّا عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾، أو حاليَّةٌ، والجُملَةُ حالٌ مِن ضَميرِ: ﴿وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾[5]، أو استئنافيَّة[6]، فأتَتْ هذه الآية: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾؛ لتكملَ أخبارَ الكافرين وأحوالَهم.

الغرض من التَّعبير بالنِّداء في: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾:

نــداءُ المجرمين بأعلى صوتهم طلبًا للموت دليلٌ على شدَّةِ عذابِهم وإبلاسهم

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ النِّداء؛ وذلك لكون لفظ النِّداء أنسبَ لوصفِ حالِ الكافرين وشِدَّة

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 265، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 647.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 20/ 649، و651، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 101.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110.
(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 25/ 110.

عذابِهم في النّار، فالنِّداءُ هو رفعُ الصَّوتِ صياحًا، ويأتي بمعنى دعاء الشَّخص؛ ليَلْتفتَ، أو ليَحْضرَ عند المُنادِي[1]، فقد نادَوا بأعلى صوتِهم خازنَ النّارِ طالبين أن يُميتهم اللّهُ؛ ليستريحوا ممّا هم فيه، وكأنَّه رجاؤهم الأخير، وهذا يدلُّ على شدَّةِ عذابهم مع يأسهم من الخروجِ من النّار، ويتناسَبُ مع حالهم وما هم فيه من الإبلاس.

نُكْتَةُ إيثارِ الإضمار على الإظهار في: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾:

اختصارٌ يحملُ تحقيرًا لشأنِ المُجرمين بعدمِ ذِكْرهم مرَّةً أُخرى

آثرَ البيانُ القرآنيُّ الإضمارَ على الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾، فلم يقلْ: (ونادى المجرمون يا مالكُ) اختصارًا؛ لكونه مفهومًا من السّياق، وكذلك لتحقير شأنِ المجرمين بعدمِ التَّصريح بذِكرهم مرَّةً أُخرى.

سرُّ التَّعبير بالماضي عمّا سيقع مستقبَلًا في: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾:

القيامةُ لَمّا كانت واجبةَ الوقوعِ؛ جعلَ اللهُ مستقبلَها كالماضي

حُكِيَ نِداءُ المُجرمين بصِيغَةِ الماضي، مع أنَّه مِمّا سيَقَعُ يومَ القِيامَة، وهو في المستقبل؛ إمّا لأنَّ إبلاسَهم في عَذابِ جَهَنَّم - وهو اليَأسُ - يَكونُ بعدَ أن نادَوا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، وأجابَهم بما أجابَ به، وذلك إذا جُعِلَت جُملَةُ: ﴿وَنَادَوۡاْ﴾ حاليَّةً، وإمّا لتَنزيلِ الفِعلِ المُستَقبَلِ مَنزِلَةَ الماضي في تَحقيقِ وُقوعِه؛ تَخريجًا للكَلامِ على خِلافِ مُقتَضَى الظّاهِرِ، وهذا إن كانَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوۡاْ﴾ مَعطوفَةً[2]، فالإخبارُ عمّا سيقعُ في المستقبل بصيغة الماضي يحملُ تنبيهًا على تحقيقِ وقوعه؛ إذِ القيامةُ لَمّا كانتْ واجبةَ الوقوعِ؛ جعلَ اللّهُ مستقبلَها كالماضي.

الغرضُ من إسناد فعل المُناداة إلى واو الجماعة:

لِعظَمِ الكربِ الَّذي حلَّ بأهلِ النّارِ جميعًا نادَوا بصوتٍ واحد

أسندَ البيانُ الحكيم فعلَ (نادَوا) إلى واو الجماعة في قوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾؛ للإيذانِ باشتراكِ جميعهم في هذا النِّداءِ الجماعيِّ، وأنَّه صدرَ من الجميع، وهذا يدلُّ على عظمِ الكربِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ندى).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 259.

والضّيقِ الَّذي حلَّ بهم جميعًا، وشدَّةِ الإبلاس الَّتي وصلوا إليها، حتّى نادَوا بصوتٍ واحد، طالبين الموتَ؛ ليستريحوا.

سرُّ نداءِ خازنِ النّار باسْمه ﴿يَـٰمَٰلِكُ﴾:

نداءُ خازنِ النّار باسْمه يحملُ استعطافًا وخضوعًا واستسلامًا

المُنادَى في قوله تعالى: ﴿يَـٰمَٰلِكُ﴾ اسمُ المَلَكِ الموكَّل بجهنَّم، وقد خاطبوه باسمه استعطافًا؛ ليرفعَ دعوتهم إلى الله تعالى شفاعةً[1]، وخضوعًا واستسلامًا، فهُم يعترفون بسُلطته عليهم، وقد يكون في نداءِ المشركين المُعذَّبين في النّار مالكَ دونَ اللّهِ سبحانه - أي: توسُّلُهم به إلى اللّه سبحانه؛ ليسألَه لهم أن يقضيَ عليهم بالموت؛ ليستريحوا من العذاب - إشارةٌ إلى انغماسهم في الضَّلالِ الَّذي حرمَهم التَّوفيقَ في الدُّنيا والآخرة؛ إذ لو نادَوا اللّهَ؛ لكان ذلك أقربَ إلى الإجابة[2]، ويدلُّ كذلك على شدَّةِ يأسِهم واستسلامِهم، فهم أُبْلِسوا من طلب الرَّحمة أو النَّجاة، فطلبوا الموتَ؛ ليَنقضيَ عذابُهم.

دلالةُ اسمِ (مالك) خازنِ النّار مقابلَ (رضوان) خازنِ الجنَّة:

مسؤوليَّةُ خازنِ النّارِ وسلطتُه تعكسُ شدَّةَ عذابِ أهلِ النّار

قال المُحقِّقون: سُمّيَ خازنُ النّارِ مالكًا؛ لأنَّ المُلْكَ عَلَقةٌ، والتَّعلُّق من أسبابِ دخولِ النّار، كما سمّي خازن الجنَّة رضوانًا؛ لأنَّ الرِّضا بحُكم اللّهِ سببُ كلِّ راحةٍ وسعادةٍ وصلاحٍ وفلاح[3]، بالإضافة إلى أنَّ اسمَ (مالك) مشتقٌّ من المُلْك أو التَّملُّك، ممّا يعكسُ سلطتَه على النّار وتصرُّفَه فيها بأمرِ اللّه تعالى، ويُعبِّر هذا الاسمُ عن شِدَّةِ المسؤوليَّة المرتبطةِ بمهمَّتِه، بينما اسمُ (رضوان) مشتقٌّ من الرِّضا، فيُعَبَّر عن السَّعادةِ والرِّضا اللَّذَين يُحيطان بالجنَّة وأهلها، وهذا الاسم يعكسُ طبيعةَ الجنَّة كمكانٍ للسُّرورِ والرِّضا الإلهيِّ.

الغرضُ من التَّعبير بالمضارع المقترن بلام الأمر في: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ لامُ الأمرِ، والطَّلبُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 376.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 190.

طَلَبُ أهلِ النّار الموتَ إمّا تمنِّيًا أو استغاثةً أو دُعاءً

وجه التَّمَنِّي والرَّغبة، أو على وجْهِ الاستِغاثَةِ، وإلّا فَهُم عالِمونَ بِأنَّهُ لا خَلاصَ لَهم عَن ذَلِكَ العِقابِ، ولا يَبعدُ أن يُقالَ: إنَّهم لِشِدَّةِ ما هم فِيهِ مِنَ العَذابِ نَسوا تِلْكَ المَسألَةَ، فَذَكَروهُ على وجْهِ الطَّلَبِ[1]، أي: بمعنَى الدُّعاءِ[2]، وتوجيهُ الأمرِ إلى الغائب في قوله تعالى: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ لا يَكونُ إلّا على معنى التَّبليغِ كما هنا، أو تَنزيلِ الحاضِرِ مَنزِلَةَ الغائِبِ لاعتِبارٍ ما، مثلِ التَّعظيمِ في نحو قولِ الوزير للخليفة: لِيرَ الخليفةُ رأيَه[3]، وهم يعلمون أنَّ الأمرَ كلَّه وقتَها بيدِ اللّه وحدَه، ولا يملكُ أحدٌ شيئًا، والقَضاءُ في قوله تعالى: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ بِمَعنَى: الإماتَةِ، كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القَصَص: 15]، وطَلَبُ الكافرين المُعذَّبين في جهنَّم أن يزيلَ اللّهُ عنهم الحياة؛ ليستريحوا من إحساسِ العذاب، بما يدلُّ على شدَّتهِ الَّتي لا تُطاق، وهَذا لا يُنافي ما ذُكرَ من إبلاسِهم؛ لأنَّه جُؤارٌ وتَمَنٍّ للموتِ؛ لفَرْطِ الشِّدَّةِ[4]، فأُجيبوا بأنَّهم ماكثون؛ جوابًا جامعًا لنَفيِ الإماتة، ونفيِ الخُروج، فهو جوابٌ قاطِعٌ لِما قد يسألونه من بعد[5]، وقد عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة المضارع في قوله: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا﴾؛ لإفادةِ استمرارِ موتِهم، أي: تَمنَّوا موتًا لا حياةَ بعدَه، وهذا يعكسُ استمراريَّةَ طلبِهم للقضاءِ والإماتة، كما أنَّ المضارع يُعطي إحساسًا بالواقعيَّة والحقيقة الَّتي يعيشونها، ويُشيرُ إلى استعجالهم في القضاء، أي: لِيَقْضِ علينا الآنَ، فلا نُريدُ تأخيرًا، ممّا يَدلُّ على شدَّةِ العذابِ الَّذي يلاقونه، والحالِ الَّذي وصلوا إليه مِنَ اليأسِ وانقطاعِ الأمل في الخَلاص.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 644.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 55.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260.

الغَرضُ من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكَۖ﴾:

لفتُ الانتباهِ لحالهم، وتخصيصها بالموت يُشيرُ إلى استعجالهم للموت

في قوله تعالى: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ على الفاعل ﴿رَبُّكَۖ﴾، ولم يقل: (ليقضِ ربُّك علينا)؛ لفتًا لانتباهِ (مالك) لحالهم، وتركيزًا عليها، ولإفادةِ الاختصاص، أي: ليَخُصَّنا اللّهُ بهذا الموتِ دونَ غيرنا، وكذلك استعجالًا منهم للقضاء عليهم، وكأنَّهم أرادوا أن يُقضى عليهم بأقصى سُرعةٍ وبأقربِ وقت.

إيثارُ استعمالِ لفظ ﴿رَبُّكَۖ﴾ في هذا الموقف:

ما يُلاقونه من عذابٍ شديدٍ جعلهم يطلبون إحسانَ اللّه ورحمتَه بإماتتهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ ذِكرَ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾، ولم يقل: (ليقضِ علينا اللّه)؛ لكونه أنسبَ لحالهم، فما يُلاقونه من عذابٍ شديد جعلهم يطلبون إحسانَ اللّه سبحانه بذِكرِ اسمِ الرَّبِّ الَّذي يتضمَّن معنى الرَّحمةِ والتَّربيَةِ والإشعارِ باللُّطفِ والإحسانِ والعطاء، وإشارةً إلى أنَّهم لم يُراعوا مقتضى الرُّبوبيَّة، فوقعوا في هذه الشِّدَّة.

سرُّ إضافةِ لفظِ (الرَّبِّ) إلى ضمير المخاطب في: ﴿رَبُّكَۖ﴾:

عادةُ الكافرين من الغَباوةِ والجَلافةِ جعلَتْهُم يستشفعون بـ (مالك) عند ربِّه

إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى المُخاطبِ - وهو المَلَكُ، مالكُ خازن النّار، في جملة: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ - دون الإضافة للمتكلم، فلم يقولوا: (ليقضِ علينا ربُّنا)؛ للإشارةِ إلى جَرَيانهم على عادتهم في جَعْلِهم بينهم وبينَ اللّه واسطةً، وعلى عادتهم من الغَباوةِ والجَلافة، فلم يَرَوا للّهِ عليهم إحسانًا، وهم في تلك الحالة، فلا شكَّ أنَّ إحسانَه ما انقطعَ عن موجودٍ أصلًا، وأقلُّ ذلك أنَّه لا يُعذِّبُ أحدًا منهم فوقَ استحقاقه[1]، أو أنَّهم أضافوه كذلك إلى المَلَكِ لحَثِّه على الشَّفاعةِ لهم بأن يُميتَهم اللّهُ، لا إنكارًا لرُبوبيَّة اللّهِ تعالى يومَ القيامة[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 483.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 101.

فصل ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ عمّا قبلَها:

جوابُ نداءِ المُعذَّبين في جهنَّم هو المُكْثُ الأبديُّ فيها

فَصلَ القرآنُ جملة: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ عن الجملة الَّتي قبلَها؛ لِما بين الجُملَتَين من شِبهِ كمالِ الاتِّصال، أي: جاءتِ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا، وذلك بعد أنْ نادى المُعَذَّبون في جهنَّم مالكًا: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾، كأنَّ سائلًا سألَ: ماذا كان الجوابُ على طلبِ هؤلاء؟ فجاءَ الجواب: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

سرُّ إضمار الفاعل في: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾:

في إضمار القائلِ اختصارٌ وتركيزٌ على مقولِ القولِ

أضمرَ البيانُ الحكيمُ الفاعلَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، فلم يقل: (قال مالك إنّكم ماكثون)؛ اختصارًا لكونه قد سبقَ في الكلام؛ إذ جاء القولُ من (مالك)؛ ردًّا على ندائهم له: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، أو لإفادةِ أن يشملَ أكثرَ من معنًى، بحيثُ يمكن أن يكون من كلامِ اللّه تعالى أو من كلامِ (مالك)، وكذلك في الإضمار تركيزٌ على مقولِ القول، وما جاءهم من الرَّدِّ أكثر من التَّركيز على القائل.

الغَرضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة وبالأداة (إنَّ):

في تأكيدِ استمرارِ مُكوثِ الكافرين في النّار مَزيدُ عذابٍ لهم

في قوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أتى بالجملةِ الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوتِ والاستمرار، وأكَّد مكوثَ الكافرين في العذاب بـ (إنّ)، والمعنى: إنَّكم ماكثون في العذابِ أبدًا، لا خلاصَ لكُم منهُ بموتٍ ولا بغيرِه[1]، وذلك لكونهم يطمعون في الخَلاص؛ لأنَّ كلامهم هذا - ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ - يُفهَم منه الرَّجاء[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بضمير الخطاب في: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾:

التَّصدّي بالمواجهةِ أشدُّ على نفوسِ أهلِ النّارِ وأبلغُ في قطعِ أملهم بالخلاص

أتى البيانُ الإلهيُّ بضميرِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، أي: أتى الخطابُ مباشرةً لأهلِ النّار، ولم يقل: (إنَّهم ماكثون)؛ لِما يحملُ الخطاب من التَّنبيهِ الشَّديدِ لهم، والتَّهديدِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 55.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 483.

بالمواجهة والتَّصدّي لهم، ممّا يزيدُ من يأسِ أهل النّار، وقطعِ أملهم نهائيًّا في الخلاص.

سرُّ التَّعبير باسم الفاعل مجموعًا ﴿مَّٰكِثُونَ﴾:

المُكوثُ في جهنَّم ثابتٌ ومُلازِمٌ لجميعِ المجرمين

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿مَّٰكِثُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المُفيدِ للثُّبوت والدَّوام؛ للإيذان بأنَّ مُكوثَ الَّذين أجرموا في النّارِ ثابتٌ دائمٌ، وملازمٌ لهم، بما يَدلُّ على استحالةِ الانعتاق من العذاب الَّذي لا يُطاق، فهُم لابِثون ثابِتون مُنتظِرون في النّارِ أبدًا، لا خلاصَ لكُم منهُ بموتٍ ولا بغيره[1]، وأتى باسم الفاعل مجموعًا؛ للإشارة إلى كثرتهم، وأنَّ المُكوث يشملهم جميعًا.

دلالةُ فصل: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ عمّا قبلها:

إعراضُ الكافرين عن الحقِّ عِلَّةٌ لمُكوثهم في العذاب أبدًا

فَصَلَ القرآنُ جملةَ: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ عن جملة: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجُملتَين من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ الجملة الثّانية: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ جاءت تتمَّةَ الجوابِ؛ إنْ كان في (قالَ) ضَميرُ اللهِ، وإلّا فجَوابٌ منه، فكَأنَّه تعالَى تَوَلَّى جَوابَهم بعدَ جَوابِ مالِكٍ - على قولٍ في التَّفسيرِ - فهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهَةِ اللهِ تعالى، مُقَرِّرٌ لجَوابِ مالِكٍ، ومُبَيِّنٌ لسَبَبِ مُكثِهِم في النّار[2]، أي: جاءتِ الجملةُ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملَةِ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ باعتِبارِ تَمامِ الجُملَةِ، وهو الاستِدراكُ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[3].

الغرضُ من التَّعبيرِ بأسلوب القَسَم:

قَسَمٌ وتحقيقٌ يُفيدُ المبالغةَ في مجيءِ الكافرين بالحَقِّ

﴿لَقَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ تتضمَّن اللّامَ الموطِّئة لجوابِ قَسَم مُقدَّر، والتَّقدير: (واللهِ لقدْ جئناكم بالحق)، والقَسَمُ واللّامُ أفادتا توكيدَ إرسالِ الرُّسلِ وإنزالِ الكُتبِ لهم في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 55.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 96، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 55.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260.

الدُّنيا، وتتضمَّن كذلك حرفَ التَّحقيق (قد)، الَّذي يُقرِّب الماضي من الحال، ويجعلُه أقربَ للتَّحقيق، بما يفيدُ هنا تأكيدَ المُخْبَرِ به، وهو مجيئُهم بالحقِّ، وفي توالي المُؤكِّداتِ مبالغةٌ في تأكيدِ إرسالِ الرُّسل والكتبِ بما يُقيمُ الحُجَّة على الكافرين.

إيثارُ ﴿جِئۡنَٰكُم﴾ على (آتيناكم)، وكونه ماضيًا:

المجيءُ أدلُّ على المبالغةِ في تأكيد تـمـام الإتـيـان بالحقِّ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ استعمالَ لفظِ المَجيء دونَ الإتيان؛ لكون لفظِ المَجيء أعمَّ وأشْمَلَ من الإتيان؛ إذ هو تمامُ الإتيان، وأنسب للمقام والسّياق؛ إذِ المَجيءُ يكون في الشَّيء الَّذي فيه صعوبةٌ وشدَّةٌ وقصدٌ وتدبير، وهذا شأنُ الحقِّ، فهو الشَّيءُ الثّابتُ الَّذي لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل[1]، وأُكِّدَ ذلك المَجيء باستخدامِ صيغة الماضي ﴿جِئۡنَٰكُم﴾، الَّتي تُفيدُ التَّحقُّقَ والوقوعَ، أي: لقد تحقَّق مجيئكم بالحقِّ، كما ناسبَ التَّعبيرُ بالماضي معنى المجيء الَّذي هو الحصول والتَّحقُّق، ووافقَ عادةَ القرآنِ؛ إذ لم يَرِد لفظُ المَجيء في القرآن إلّا بما يُفيدُ الحدوثَ الفعليَّ، وتحقُّقَ الوقوع.

مرجعُ ضمير الفاعل ودلالتُه في: ﴿جِئۡنَٰكُم﴾:

اللّـهُ هـو الَّـذي جاءهم بالحقِّ عــن طــريــقِ الرُّسل وألزمهم الحُجَّة

ضَميرُ ﴿جِئۡنَٰكُم﴾ يعودُ إلى اللهِ، وهو الأظهرُ والأرجح، فاستعمالُ نون العَظَمة يدلُّ عليه، والمعنى: إنّا أرسلنا إليكم الرُّسلَ، وأنزلنا معهم الكتبَ، فَدَعَوكم، فلم تَقْبلوا، ولم تُصَدِّقوا[2]، فالخطابُ من الله تعالى لأهل مكَّةَ عمومًا، مُبيِّنٌ لسببِ مُكْثِ الكفّار في النّار[3]، ويحتملُ أن يعودَ إلى (مالك)، أي: من كلامِ مالك لأهلِ النّار، جارٍ مجرى العِلَّة، كأنَّه قال: إنَّكم ماكثون؛ لأنّا جئناكم ... إلخ، ويكون

(1) القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 12/ 376.
(2) القنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 12/ 376.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 1750.

معنى ﴿أَكۡثَرَكُمۡ﴾: كلّكم، و(الحقُّ) الوَحيُ الَّذي نَزَل به جِبريلُ - على قولٍ أيضًا - فنَسَبَ مالِكٌ المَجيءَ بالحَقِّ إلى جَمعِ المَلائِكَةِ على طَريقَةِ اعتِزازِ الفَريقِ والقَبيلَةِ بمَزايا بَعضِها(1).

معنى الباء ودلالتُها في: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

(الباءُ) في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ﴾: للإلصاق والمُلازمة، والمعنى: لقد جئناكم بدينٍ مُلاصقٍ مُطابقٍ للحقِّ لا ينفكُّ عنه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ رسالاتِ اللّه جاءتْ ملاصقةً للحقِّ الواضحِ الَّذي تمَّ تبليغُه، وهم لم يتَّبعوه، وفي هذا إقامةٌ للحُجَّة عليهم.

رسالاتُ اللّه جاءتْ ملاصقةً للحقِّ الواضحِ الَّذي تمَّ تبليغه

دلالةُ الاستدراك بالأداة (لكنّ):

(لَكِنَّ) في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ حرفُ استدراكٍ وتوكيد، أتى به؛ ليُثْبِتَ معنًى جديدًا يقابلُ، ويخالفُ ما قبلَهُ، وقد دلَّ الاستدراكُ على تناقضهم وشِدَّةِ كفرهم؛ إذ كان ينبغي عليهم قَبولُ الحقِّ بعدما جاءهم، ولكنَّهم بدا منهم خِلافُه، فكانوا كارهين للحقِّ، وهذا يدلُّ على عِلَّة إقامتِهم في النّار؛ أنَّهم كَرِهوا دينَ اللّه، وأعرضوا عنه.

استدراكٌ دلَّ على تناقضهم وشِدَّةِ كفرِهم

نُكْتَةُ نسبةِ كراهةِ الحَقِّ لأكثرهم لا لجميعهم:

نُسِبت كراهةُ الحقِّ إلى أكثرهم دونَ جميعِهم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾؛ وذلك للتَّنبيه على دَورِ الرُّؤساءِ والقادَةِ في إضلالِ النّاس، وتحذيرًا منهم؛ لأنَّ المشركين فريقان، **أحدهما:** سادةٌ كُبراءُ لمِلَّةِ الكفر، وهم الَّذين يَصدّون النّاس عن الإيمان بالإرهابِ والتَّرغيب، ويُجاهرون بكُرههم للحقِّ، مثلُ أبي جهلٍ حينَ صَدَّ أبا طالبٍ عند احتضاره عن قولِ لا إلهَ إلّا اللّه، وقال: "أترغبُ عن مِلَّة عبد المطلب"؛ **وثانيهما:** دَهماءُ وعامَّة، وهم تبعٌ لأئمَّة الكُفر،

أكثرُ المُجرمين الَّذين يكرهون الحقَّ هُم من أئمَّةِ الكُفر وكبرائِهم

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 1750، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 260، و261.

وهؤلاء قِلَّةٌ منهم، لم تكن كارهةً للحقِّ، ولكنَّها كانتْ مُنقادةً لأمرِ سادتِها وكُبرائها، وقد أشارت إلى ذلك آياتٌ كثيرة، منها قوله: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: 166][1]، كما أنَّ في التَّعبيرِ بالأكثريَّةِ إشارةً إلى أنَّ الكراهة ليست صفةً لازمةً لكلِّ فَرْد، بل هي حالةٌ تتغيَّرُ؛ إذا تغيَّرتِ الظُّروفُ والقناعات، وهذا يُعطي أملًا للكفّارِ الَّذين يسمعون القرآنَ بأن يُقبِلوا على الحَقِّ في المستقبل، وكم من كافرٍ كان يكره الإسلامَ والنَّبيَّ ﷺ، ثمَّ أقبلَ على الحقِّ، وآمنَ به!

سرُّ إيثار لفظِ (الحقّ) في: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾:

كُرْهُهم شاملٌ لكلِّ ما أمرَ اللهُ به على ألسنِ رسلِه، وأنزلَه في كُتبه

عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ (الحقِّ) دون غيره؛ ليشملَ كلَّ ما أمرَ اللّهُ به، فإنَّ كُرْهَهم لم يقتصرْ على فَرْدٍ من أفرادِ الحقِّ، بل شملَهُ كلَّه، وللإشارة إلى شِدَّةِ جهلِهم وطُغيانهم، فقد أنكروا، وكرهوا ما به قَوامُ صلاحِهم وفوزِهم في الدُّنيا والآخرة، وهو عَدْلٌ وصِدقٌ وصَوابٌ وثابتٌ لا يتغيَّر، ولا ريبَ فيه ولا كَذِبَ، وهو راسخٌ ومُحْكَمٌ ومتمكِّنٌ بشريعةٍ صحيحةٍ، أو عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ، فالحَقُّ يُفسَّرُ بهذه المعاني كلِّها.

الغرضُ من تقديم ﴿لِلۡحَقِّ﴾ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾:

في التَّقديم تخصيصٌ واهتِمامٌ بالحَقِّ؛ تَنويهًا به، ولفتًا للانتباه إلى مكانته

تَقديمُ قوله: ﴿لِلۡحَقِّ﴾ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾، فلم يقل: (ولكنَّ أكثركم كارهون للحقِّ)؛ للتَّخصيصِ والاهتِمام بالحَقِّ؛ تَنويهًا به، ولفتًا للانتباه إليه؛ ليجعله محورَ الكلامِ ومركزَ الاهتمام، فيعطي أهمّيَّةً خاصَّةً للحقِّ، ويُؤكِّدَ قيمتَه، ويُشيرَ إلى أنَّ كراهيّتَهم له شيءٌ لا يُؤثِّر على مكانةِ الحقِّ، كما أنَّ في التَّقديم مُراعاةً للفاصِلَةِ القرآنيَّة[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 261، وسيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 261.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿كَٰرِهُونَ﴾:

كراهيَةُ الكافرين للحقِّ تشملُ نفورَهم منه، وعدمَ رضاهم به، وقبولَهم له

في التَّعبير بلفظ ﴿كَٰرِهُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ إنكارَهم للحقِّ ليس لأجلِ أنَّ في حقّيَّته نوعًا من الخفاء، وإنَّما لأجل كراهتِهم فقط؛ لكونه يمنعُهم من الشَّهوات المُحَرَّمة[1]، "فكراهتُكم له من أجلِ كونِه مخالفًا لهواكم وشهواتكم"[2]، فالكَراهَةُ: هي المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ[3]، والمَكروهُ: ما يَكرَهُهُ الإنسانُ، ويَشُقُّ عليه[4]، ولفظُ الكراهيَةِ هنا شَمِلَ نفورَهم من الحقِّ، وعدمَ الرِّضا به، وعدمَ القَبولِ له، فالكُرهُ خِلافُ الرِّضا والمَحَبَّة[5]، فهُم ليسوا فقط لا يحبّون الحقَّ، بل أيضًا في نفورٍ منه وعدمِ رضًا به، وعدمِ قَبولٍ له.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النِّداء والقَول:

النِّداءُ هو رفعُ الصَّوتِ صياحًا، وهو أخصُّ من القول

النِّداءُ أخصُّ من القول؛ إذِ النِّداءُ هو رفعُ الصَّوتِ صياحًا، ولا يكون ذلك إلّا للصَّوتِ المُجرَّدِ، ويأتي النِّداء بمعنى دعاءِ الشَّخصِ؛ ليَلْتَفِتَ، أو ليحضرَ عند المنادِي، والتَّنادي: نداءُ بعضهم بعضًا، وأصلُ النِّداءِ يدلُّ على تجمُّعٍ[6].

وأمّا القولُ؛ فأصلُه من النُّطقِ، ويُطلَقُ القولُ على الكلام أيضًا[7]، وهناك استعمالاتٌ أخرى للقول، كالتَّصوُّرِ النَّفسيِّ والاعتقادِ، والدَّلالةِ على شيءٍ، والعنايةِ الصّادقةِ بالشَّيء، وكذلك الحدُّ والإلهام[8].

وقد ناسبَ هنا استعمالُ النِّداء دونَ القولِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 484.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 1750.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(4) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ندى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(8) الرّاغب، المفردات: (قول).

المجرمين لم يقولوا ما قالوه مجرَّدَ قولٍ، وإنَّما رفعوا أصواتَهم صياحًا، ودَعَوا مالكًا لَمّا يَئِسوا من الخروجِ من النّار، وهذا يتناسبُ مع حالهم، وما هم عليه من الإبلاس.

المَكْثُ والإقامة:

المُكْثُ إقامةٌ مع انتظار، وتلَبُّثٌ وثباتٌ في المَكانِ[1]، فالمعنى المحوريُّ للمُكْث: هو اللُّبْثُ والتَّلَبُّث في المكان زَمَنًا كالمقيم الثّابت[2]، وأصلُ (مَكَثَ) يدلُّ على توقُّفٍ وانتظار[3].

المُكْثُ انتظارٌ مع لُبْثٍ وثبات، والإقامةُ دوامٌ واستقرارٌ مع لُبثٍ وثبات

بينما الإقامةُ: هي الدَّوامُ والاستقرار والثَّبات[4]، أقامَ بالمَوضِعِ إقامَةً: اتَّخَذَهُ وطَنًا[5]، وأصل (قوم) يدلُّ على انتِصابٍ أو عَزْمٍ[6]، إذن: يتميَّزُ لفظُ المُكثِ بأنَّه إقامةٌ مع انتظارٍ وثباتٍ في المكان زمنًا، بينما يتميَّز لفظُ الإقامةِ بمعنى الدَّوام والاستقرار، وعلى ذلك فلفظ ﴿مَّٰكِثُونَ﴾ هو الأنسبُ مع أهلِ النّار وخلودِهم فيها، وعدم خروجِهم منها، وانتظارِهم إلى أمَدٍ لا يعرفون نهايتَه، والنّارُ ليست مكانًا للاستقرار.

الكره والسَّخَط:

نفورُ المشركين وعدمُ قبولِهم للحقِّ الَّذي هو أعلى منهم هو كُرهٌ لا سَخَطٌ

السَّخطُ أشدُّ من الكراهية، وأكثرُ حِدَّةً وانفعالًا؛ إذِ الكُرهُ هو الشُّعورُ بالكراهية والنُّفورُ من الشَّيء وعدمُ قَبولِه، فهو خِلافُ الرِّضا والـمَحَبَّة، والكَرهُ: أن تُكَلَّفَ الشَّيءَ، فتَعمَلَهُ كارِهًا[7]، فالكَراهَةُ هي المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ[8]، والمَكروهُ: ما يَكرَهُهُ الإنسانُ، ويَشُقُّ عليه[9].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير: (مكث).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكث).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قوم).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (قوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(9) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (كره).

بينما السَّخطُ: هو الغضبُ الشَّديد المُقتضي للعقوبة[1]، وأسخطَ فلانًا: أغضبَه، وأغاظَه[2]، "والسَّخطُ لا يكون إلّا من الكَبِير على الصَّغِير، يُقال: سخطَ الأمِيرُ على الحاجِب، ولا يُقال: سخطَ الحاجِب على الأمِير"[3]، ومن هنا ناسبَ استعمالُ لفظِ ﴿كَٰرِهُونَ﴾ في الآية دون (ساخطون)؛ لكون الكُرهِ صادرًا من المشركين نحو الحقِّ الَّذي هو أعلى منهم، والذي يجدون مشقَّةً في تكاليفه واتِّباعه والبُعد عن شهواتهم، فهُم في نفورٍ من الحقِّ، وعدمِ الرِّضا والقَبولِ له.

(1) الراغب، المفردات: (سخط).

(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سخط).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 130.

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزّخرف: 79 - 80]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

انتقالٌ من عدمِ إجابتهم لِما طلبوه إلى تأنيبهم على ما كان منهم

لَمّا ذكَر اللّهُ تعالى كَيفيَّةَ عَذابِهم في الآخِرةِ؛ أعقبَه بذِكرِ كَيفيَّةِ مَكرِهم، وفَسادِ باطِنِهم في الدُّنيا، فقال: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾[1]، أي: انتقل من عدمِ إجابتهم لما طلبوه، إلى تأنيبهم على ما كان منهم في الدُّنيا، من مكرٍ بالحقِّ وأهله، وكيف أنَّ هذا المَكرَ السَّيِّئَ كانت نتيجتُهُ الخُسرانَ لهم، وإلى توبيخٍ آخرَ لهم على جهلهم وانطماسِ بصائرهم، فيقول: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾[2].

وأيضًا لَمّا كان قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ خبرًا لا جوابَ فيه - لظهورِ الدَّلائل وتعالي العَظَمة - إلّا الرُّجوع، وكان مَن لا يَرجِعُ إنَّما يريدُ محاربةَ الإلهِ الأعظم؛ قال: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾[3].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾: أصلُ (برم) إحكامُ الشَّيء، وإبرامُ الأمر: إحكامُه، "بحيثُ لا يكون فيه خَللٌ ولا انتقاض"، وأصلُه من أبرمتُ الحبلَ، أي: فتلتُهُ فتلًا مُحكمًا، فهو مبرومٌ وبريمٌ، والمُبْرَمُ الغَزْلُ، وهوَ ضِدُّ السَّحِيل، وذلك أنَّ المُبْرَمَ على طاقَينِ مَفتولَين، والسَّحِيلُ على طاقٍ واحِدٍ، وأبرَمتُ الشَّيءَ: دَبَّرْتُهُ، وبَرِمتُ بالأمرِ: عَييتُ به، وأبرَمَني

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 664.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 101.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 484.

أعياني[1]، وأبرم القاضي الحُكْمَ: قطعَ به، وأيَّده[2]، والإبرامُ هنا مُستَعارٌ لإحكام التَّدبيرِ والعَزمِ على ما دَبَّروهُ[3]، ومعنى ﴿أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾، أي: أتقنوا إحكامَه، أي: أحكموا كيدَهم ومكرهم للنَّبيِّ ﷺ ولأصحابه[4].

2) ﴿يَحۡسَبُونَ﴾: (حسب) أصولٌ أربعة، أحدُها: الحِسْبانُ: وهو الظَّنُّ[5]، وهو المَعنيُّ هنا، والحَسْبُ: العَدُّ والإحصاءُ، وحَسَبْتُه أَحْسَبُهُ؛ إذا عددتُه[6]، والحِسْبانُ: أن يَحكُمَ لأحدِ النَّقيضَين من غيرِ أن يَخْطُرَ الآخَرُ ببالِه، فيحسِبَه، ويَعقِدَ عليه الإصبعَ، ويكونَ بعَرَضِ أن يَعْتَرِيَه فيه شَكٌّ، ويُقارِبَ فيه الظَّنَّ، لكنَّ الظَّنَّ أن يخطُرَ النَّقيضان ببالِه، فيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخر[7]، ومعنى ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ في الآية: يظنّون[8].

3) ﴿وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾: أصلُ (نجو) يدلُّ على سَتْرٍ وإخْفاءٍ، والنَّجْوَى: السِّرُّ بَيْنَ اثنَيْنِ[9]، فهي اسمٌ للكلامِ الخفيِّ الَّذي تُناجِي به صاحبَك[10]، وناجى الرَّجلَ: أسرَّ إليه الحديثَ، وخصَّه به، وانتجى القومُ، وتناجوا: تسارّوا، والجمعُ: أنجية[11]، فمعنى النَّجوى في الكلام: ما يتفرَّدُ به الجماعةُ والاثنان سِرًّا كان أو ظاهرًا[12]، والمرادُ بِالنَّجوَى هنا: ما يَتَناجَونَ به بَينهُم في ذَلِكَ بِحَديثٍ خَفيٍّ[13].

4) ﴿يَكۡتُبُونَ﴾: أصلُ (كتب) يَدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ، والكتابةُ ضَمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعض بالخطِّ، فالأصلُ في الكتابة النَّظمُ بالخطِّ، وفي المقالِ النَّظمُ باللَّفظ، وقد يُستعملُ كُلٌّ واحدٍ للآخر، ويُعبَّرُ عن الإثباتِ والتَّقديرِ والإيجابِ والفرضِ والعزمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برم).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (برم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 389، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 101.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(7) الرّاغب، المُفردات: (حسب).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 647، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 25/ 112.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجو).
(10) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.
(11) ابن سيده، المُحكم، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نجو).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نجو).
(13) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 648، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.

بِالكِتابَةِ[1]، ويأتي بمعنى الحِفظ[2]، ومعنى ﴿يَكۡتُبُونَ﴾، أي: الحفظةُ الَّذين يحفظونَ عليهم أعمالَهم، ويلازمونَهم حيثما كانوا، ويُسجِّلون عليهم كلَّ صغيرةٍ وكبيرة[3].

المَعْنى الإجْماليّ:

نَعيٌ على المشركينَ لما فعلوه من الكيْد برسولِ الله ﷺ

يقولُ اللّهُ تعالى موبِّخًا للمشركينَ: أم أحكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمرًا يَكيدونَ به الحَقَّ وأهلَه، ولم يَقتَصروا على كَراهتِه؟ فإنَّ اللّهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لِكَيدِهم به ومجازاتهم، أيظنُّ أولئك المجرمون أنّا لا نَسمعُ ما حديثُ أنفسِهم بذلك، وما تناجوا به بينهم؟ نسمعُهما، ورُسُلُنا والحفظةُ مع ذلك لَدَيهم، ملازمةٌ لهم يَكتُبونَ ذلك[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتُها في: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾:

الانتقالُ من الشَّنيعِ إلى الأشنعِ توبيخٌ لأهلِ النّارِ

﴿أَمۡ﴾ هي المنقطعة بمعنى (بل) والهمزة، و﴿أَمۡ﴾ للإضراب الانتقاليِّ من حديثٍ إلى حديثٍ مع اتِّحادِ الغَرض، انتقلَ من الشَّنيعِ إلى الأشنعِ، توبيخًا لأهلِ النّار، بحكايةِ شناعةِ حالهم في الدُّنيا، وعدمِ إجابة ندائِهم، إلى حكاية تأنيبهم على ما كان منهم في الدُّنيا من مَكْرٍ بالحقِّ وأهلِه، من رسولِ اللّه ﷺ والمؤمنين، فالجملةُ الكريمةُ كلامٌ مستأنَفٌ مسوقٌ لتأنيبِ المشركين على ما دَبَّروه من الكيدِ للرَّسول ﷺ[5]، والمعنى: بل أحكموا كيدًا للنَّبيِّ ﷺ ولأصحابه؟ فإنّا مُحكِمون لهم كيدًا، أو بل قضوا أمرًا، فإنّا قاضونَ عليهم أمرَنا بالعذاب[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كتب).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 515.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 102، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 835.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 646، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 96.
(5) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 355، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 101.
(6) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 12/ 376.

الغرضُ من الاستفهام في: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾:

ما بينَ إنكارِ وقوعِ كيدهم واستبعادِه، وإنكارِ الواقعِ واستقباحِه

الكلامُ بعد ﴿أَمۡ﴾ استفهامٌ حُذِفتْ منه أداةُ الاستفهام، والتَّقدير: أأبرموا أمرًا، وهو استِفهامٌ للإنكارِ والاستبعاد والتَّعجيب؛ فإن أُريدَ بالإبرامِ الإحكامُ حَقيقةً، فهيَ لإنكارِ الوُقوعِ واستبعادِه، وإن أُريدَ الإحكامُ صورةً، فهي لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه[1]، أو أنَّه للتَّقريرِ والتَّهديدِ[2]، وسببُ هذا الاختلافِ أنَّ مَن نظرَ إلى الواقعِ، وهو الإبرامُ والحسبان، ولم يَرتَضِه سلوكًا، قال: إنَّ الاستفهامَ للإنكار، ومَن نظرَ إلى الواقعِ وحالِ المشركين، وأنَّهم قد ينفونَ ما وصفهم به النَّظم، أو كانوا يتظاهرون بأنَّهم لم يُبرموا، ولم يحسبوا، قال: إنَّ الاستفهام للتَّقرير[3].

الالتفاتُ في: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾:

حطٌّ من قيمةِ المشركين لإشعارِهم بأنَّ كيدَهم بالرَّسول أسوَأُ مِن كَراهَتِهم للحقِّ

عَدَلَ البيانُ الحكيم عن الخِطابِ في قوله السّابق لهم: ﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ إلى الغيبةِ وإسقاطِهم عن الخطاب في قوله: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك أسوأُ مِن كَراهَتِهم للحقِّ[4]، وذلك بالإعراض عنهم، وإنزالِهم بالغَيْبة منزلةَ البعيدِ الَّذي لا يُلتفتُ إليه[5]؛ حطًّا من قيمتهم وقَدْرهم، فقد سقطوا، ولا يستحقّون المخاطبةَ بعد أن تحوَّلت كراهيتُهم إلى كيدٍ لقتلِ النَّبيِّ ﷺ، كما أنَّ في الالتفات إلى الغَيْبةِ إشارةً إلى ما كانوا يفعلونه من الكَيْد في الخفاء، فإنَّ زعماءَ قريش أبرموا قتلَه في خفاء.

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾:

حقيقةُ الإبرام: الفَتْلُ المُحْكم، يُقال: أبرمَ فلانٌ الحَبلَ؛ إذا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 55.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 261.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام، ص: 67، و77.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 96.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 485.

أتقنَ فتلَه، والإبرامُ في قوله تعالى: ﴿أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾ مستعارٌ استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة؛ لإحكامِ التَّدبيرِ والعَزمِ على ما دَبَّروه، ومَكْرِهم السيِّئ وحرصِهم عليه؛ استعارةَ محسوسٍ ماديٍّ لمعقولٍ معنويٍّ، وسرُّها المبالغةُ في تصويرِ شدَّةِ مكرهم وتدبيرهم في وضعِ الخطط للصَّدِّ عن سبيلِ اللّه، وإيقاعِ الأذى برسولِ اللّه ﷺ وتابعيه الأوَّلين[1]، فقد نزلتْ هذه الآيةُ في تدبيرِ قريشٍ بالمَكرِ بالنَّبيِّ ﷺ في دارِ النَّدوةِ، حين استقرَّ أمرُهم على ما أشارَ به أبو جهلٍ عليهم، وهو أن يَبرُزَ من كلِّ قبيلة رجلٌ؛ ليشتركوا في قتلِ النَّبيِّ ﷺ حتّى لا يستطيعَ بنو هاشمٍ المطالبةَ بدَمِه[2].

مبالغةٌ في تصويرِ شدَّةِ مكرِهم للصَّدِّ عن سبيلِ الله وإيقاعِ الأذى برسولِ الله

سرُّ إيثارِ الإضمار على الإظهار في: ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾:

آثرَ النَّظمُ الحكيم الإضمارَ بالضَّمير في قوله: ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾ على الإظهار بالاسم، فلم يقل: (أم أبرم المجرمون أمرًا) اختصارًا؛ فقد سبقَ ذِكْره، ودلَّ عليه السّياق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾؛ إذِ السّياقُ هو حديثٌ عن هؤلاء المجرمين، وفيه إشارةٌ إلى الاستخفافِ بهم بعدمِ التَّصريح باسمهم.

في الإضمارِ اختصارٌ واستخفافٌ بالمُجرمين

الغرضُ من تنكير لفظ ﴿أَمۡرٗا﴾، وسرُّ التَّعبير به:

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿أَمۡرٗا﴾ في قوله: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾؛ للإبهام، فلم يَذكرْ ما هو الأمرُ الَّذي أبرموه؛ للإشارة إلى أنَّه وإن كان مُبهمًا، فإنَّ اللّهَ يعلمُه، وكذلك أفادَ التَّنكيرُ التَّهويلَ والتَّفظيعَ والتَّشنيعَ، أي: أبرموا أمرًا مهولًا وعظيمًا وشديدَ الخطورة من الكيد برسولِ اللّه وبالمؤمنين، وهو أمرٌ شنيعٌ؛ لأنَّه رَدٌّ لأمرِ اللّه ومعاداةٌ لأوليائه، مع علمهم بأنَّه مُطَّلِعٌ عليهم[3]، وهذا يدلُّ على شِدَّةِ خُبثِ

عِظَمُ كيدِ المشركين وشِدَّتُه دليلٌ على شدَّةِ خُبْثِهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 101، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 68.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 485.

نفوسِهم، وفيه من التَّشنيع عليهم؛ لِما يقترفونه في حقِّ النَّبيِّ ﷺ، وقد استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الأمر في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾؛ للإشارةِ إلى عِظَم ما كان المشركون يكيدون للنَّبيِّ ﷺ وخطورته، إذ يشملُ الأقوالَ والأفعال، وهي أمورٌ صادرةٌ من عُلوٍّ مع نفاذ؛ لأنَّ الأمرَ في اللُّغة لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[1]، ويأتي بمعنى الحادثة، والشَّأن، والحال[2]، وغلبَ استعمالُه في الطَّلب الصّادر من الأعلى إلى مَن دونه[3].

نُكْتَةُ اختلافِ الصّيغة بين ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾ و﴿مُبۡرِمُونَ﴾:

تَوَعُّدٌ بأنَّ اللهَ قَدَّرَ نَقْضَ ما أبرَموه جزاءً على ما وقعَ منهم من الإبرام

خولِفَ في الصِّيغةِ بين قوله: ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾ وقولِه: ﴿مُبۡرِمُونَ﴾؛ إذ جاءتِ الأولى فِعلًا ماضيًا، والثّانية اسمَ فاعلٍ؛ لبيانِ شدَّةِ حرصِهم على تنفيذِ ما عزموا عليه، فإبرامُهم وقعَ، ومضى، وزال، وأمّا إبرامُ اللّهِ؛ فقد عبَّر عنه بصيغة اسم الفاعل الدّالِّ على الثُّبوتِ والدَّوام، والمعنى: كلَّما جَدَّدوا كَيدًا وتدبيرًا؛ فأمرُنا ثابتٌ في تدمير ما يُدبِّرون، فإنَّ اسمَ الفاعِلِ حَقيقَةٌ في زَمَنِ الحالِ، أي: نحن نُقَدِّرُ لهم الآنَ أمرًا عَظيمًا، وذلك إيجادُ أسبابِ وقعَةِ بدَرٍ الَّتي استُؤصِلوا فيها[4]، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغتين مُختلفَتَين لجَذْرٍ واحدٍ (برم) هو جِناسُ اشتقاقٍ يُعطِي جماليَّةً في السَّمعِ، ويُحقِّقُ عذوبةً وترنُّمًا، بما يحملُ السّامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسُّخِهِ في الذِّهن، فبَيْنَ لفظَي ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾ و﴿مُبۡرِمُونَ﴾ مشاكلةٌ لفظيَّةٌ تحقيقيَّةٌ؛ إذ سمَّى إبطالُ اللّهِ لكيدهم إبرامًا؛ لوقوعه في صحبة ﴿أَبۡرَمُوٓاْ﴾، وهذا أسلوبٌ بلاغيٌّ يَجذِبُ الانتباهَ، ويُعمِّقُ المعنى، ويُبَيِّنُ أنَّ الجزاء من جنس العمل، وهي العدالة الإلهيَّة المُطلقة، فالتَّدمير من جنس التَّدبير.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أمَرَ).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 43.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.

توالي المؤكِّدات في: ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾:

مبالغةٌ في بيانِ أنَّ مَكرَ اللهِ أقوى من مكرهم، وكيدَه أسرعُ من كيدهم

أكَّدَ اللّهُ إبرامَه لِما يُزيلُ إبرامَ المشركين للرَّسول ولأصحابه ولأهلِ الحقِّ قبلَ وجودِه، ويُعْدِمُهُ، ويُحيلُه، أي: هذا الخبرُ المستعملُ في التَّهديدِ والوعيدِ مُؤكَّدٌ بعدَّة مُؤكِّدات، وهي: الحرفُ المُشَبَّه بالفعل (إنَّ) الَّذي يُفيدُ توكيدَ النِّسبةِ بينَ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في الجملة، ومَجيءُ (إنّا) بصيغةِ الجمع الَّتي تُشيرُ إلى عَظَمةِ هذا الإبرام الإلهيِّ، واسميَّةُ الجملةِ ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾، الَّتي تَدلُّ على الثَّباتِ وقوَّةِ الحُكْمِ وبَقائِه، والتَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُبۡرِمُونَ﴾ الَّذي أكَّد على رسوخِ قُدرةِ اللّه في المُجازاة وإبطالِ كيدِ الَّذين كفروا، والمعنى: إنّا مُبرِمون دائمًا للأُمور؛ لعِلْمِنا بها قبلَ كونِها، وقدرتِنا واختيارِنا، تلك صفتُنا من العِلْم والقُدرة والإرادة الَّتي لا تَحولُ بوجه، ولم يتجدَّدْ لنا شيءٌ لم يكن[1].

التَّعبير بالمُسنَد إليه بضمير العظَمة في: ﴿فَإِنَّا﴾:

كلُّ ما يُبرِمُهُ البشرُ لا قيمةَ له أمامَ عظَمةِ اللهِ وإرادتِه وقُدرتِهِ المُطْلقة

ضميرُ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ يدلُّ على عظَمةِ اللّه وعظَمةِ ما يُبرِمُه سبحانه من أُمور، وأنَّ كلَّ ما يُبرِمُه البشرُ لا قيمةَ له أمامَ عظَمةِ اللّه وإرادته وقُدرته، والمعنى: إنّا بعظمتنا وقُدرتِنا المطلقة مُحكِمون كيدَنا العظيمَ بهم، ومُبطلونَ كيدَهم، وكان مثالُ ذلك يومَ بدرٍ باستئصالِ صناديدِ قريش.

الغرضُ من حذْف مفعول اسْم الفاعل ﴿مُبۡرِمُونَ﴾:

قدرةُ اللهِ مطلقةٌ، فاللهُ تعالى قادِرٌ على إبرامِ أيِّ أمر

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿مُبۡرِمُونَ﴾، إذِ التَّقدير: مُبرمون أمرًا؛ اختصارًا وإيجازًا؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه[2]، وأيضًا: لقصدِ التَّعميم، فاللّهُ تعالى قادرٌ على إبرامِ أيِّ أمر، والمعنى: فإنّا مُبرمون ما نشاء، فاللّهُ يستطيعُ أن يخسفَ بهم الأرضَ، وأن يَحْصِدَ رقابَهم

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 485.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.

بالمَوت، وأن يفعلَ بهم ما يشاء، فلا حدودَ أمامَ إبرام اللّه وقدرتِه المطلقةِ، ممّا يحملُ إيحاءً بالتَّحدّي والتَّهديد للكافرين.

معنى ﴿أَمۡ﴾ في: ﴿يَحۡسَبُونَ﴾:

انتقالٌ إلى توبيخٍ آخرَ للكافرين على جهلهم وانطماسِ بصائرهم

﴿أَمۡ﴾ "منقطعةٌ، تُفسَّرُ بـ (بل) وهمزةِ الإنكار"(1)، وهي منقطعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن وصفهم بتدبيرِ المؤامرات الخَفيَّة ووعيدِ اللّهِ لهم عليها، إلى وصفهم بالظَّنِّ الجاهل، بأنَّ اللّهَ لا يَطَّلعُ على ما يُدبِّرونَه في الخفاء، أي: انتقالٌ من توبيخٍ إلى توبيخٍ آخرَ لهم على جهلهم وانطماسِ بصائرهم.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

ظَنُّ الكافرين الخاطِئ وجَهْلُهم وسوءُ تقديرِهم حَمْلَهم على الكَيدِ للنَّبيِّ ﷺ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الحِسبان في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾؛ لمناسبة معانيه للسّياقِ والمقام؛ إذ حملَ توبيخًا للكافرين عندما أشارَ إلى ظنِّهم الخاطِئ، وجهلِهم وسوءِ تقديرهم، وظُلمِهم لأنفسهم بكيدِهم للنَّبيِّ ﷺ، وأكَّد على عِلْم اللّه المُطلَق؛ عندما بيَّن خطأ اعتقادِهم وجَهْلِهم، فالحِسبانُ يعني: الظَّنَّ أو الاعتقادَ أو التَّقدير(2)، والحِسبانُ: هو اعتقادٌ عن أمارةٍ اعتدَّتْ به، سواءٌ كان له وجودٌ في الحقيقة أو لم يكن(3)، وأن يُحْكَمَ لأحدِ النَّقيضين من غير أن يَخطرَ الآخرُ بباله، فيحسِبَه، ويَعقِدَ عليه الإصبع(4)، واستعمالُ صيغة المضارعة في قوله: ﴿يَحۡسَبُونَ﴾؛ للدَّلالة على فَرْطِ جَهْلِهم وبُعْدِ ضلالِهم، بتَجَدُّد اتِّصافهم بالظَّنِّ الجاهلِ بأنَّ اللّهَ لا يَطَّلعُ على سرِّهم ونجواهم، فظَنُّهم الخاطِئُ وفَرْطُ جهلِهم حالةٌ مستمرَّةٌ ومتكرِّرةٌ ومتجدِّدَةٌ منهم، وهذا يُعزِّزُ فكرةَ اعتقادِهمُ الباطلَ، وأنَّهم يعيشون في وهْمٍ دائم.

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 1750.
(2) ابن عبّاد، المحيط، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 1/ 115، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 52.
(4) الرّاغب، المفردات: (حسب).

اسـتـفـهـامٌ يَحْمِلُ التَّوبيخَ والتَّهديدَ والإنكارَ والتَّعجيب

دلالةُ الاستفهام في: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾:

الاستفهامُ المُقدَّرُ بَعدَ ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ مع التَّهديد، والتَّقدير: (بل أيَحْسبون)[1]، ويَحملُ هذا الاستفهامُ الإنكارَ والتَّوبيخَ على خطَئِهم على هذا الظَّنِّ، والتَّعجيبَ من جهلهم وغفلتِهم عن عِلمِ اللّه المُطلق والشّامل.

تـوكـيـدٌ يحملُ التَّعريضَ بهم والتَّجهيلَ لهم؛ لبُعْدِ ضلالِهم وفَرْطِ غبائِهم

الغرضُ من التَّوكيد في: ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ﴾:

توكيدُ جملةِ الحِسبان بقوله تعالى: ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ - من خلال الجملة الاسميَّة، وحرفِ (إنَّ)، والتَّعبيرِ بضميرِ العظَمة - إشارةٌ إلى أمرٍ خفيٍّ في طواياهم، من أنَّ حِسبانَهم أنَّ اللّهَ غافلٌ عمّا يعملون لم يكن مجرَّدَ حِسبان، بل هو أمرٌ مُحقَّقٌ مُؤكَّدٌ ثابتٌ عندهم، وفي هذا تعريضٌ بهم، وتجهيلٌ لهم؛ لفَرْطِ غبائِهم وبُعْدِ ضلالِهم الَّذي أرداهم.

مـبـالـغـةٌ في بيانِ أنَّ علْمَه سبحانه شاملٌ لكلِّ شيء، حتّى الأسرارَ الَّتي يخفونها

بلاغةُ المجازِ المُرسلِ في: ﴿نَسۡمَعُ﴾:

التَّعبيرُ بالسَّماع في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ مجازٌ مرسل، بإطلاق السَّبب وإرادةِ النَّتيجة، فالسَّمْعُ وسيلةٌ من وسائلِ العِلم، واللّهُ تعالى لا يحتاجُ في علمه إلى وسيلة، ولكنَّه عبَّر بالمجاز هنا لتقريبِ المعنى لأذهان البشر، كما أنَّ التَّعبير بالسَّمع يُعطي دلالةً بأسلوبٍ غيرِ مباشَرٍ إلى أنَّ علمَه سبحانه شاملٌ لكلِّ شيء، وأنَّه مطَّلعٌ على كلِّ شيء، حتّى الأسرارَ الَّتي يخفونها.

ظنُّهم الخاطئ في أنَّ اللّه لا يسمعُ سِرَّهم ونجواهم حالةٌ دائمةٌ لهم

سرُّ النَّفي بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في: ﴿لَا نَسۡمَعُ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ حرفَ النَّفي ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ دون (لم)، فلم يقل: (أنّا لم نسمع)؛ ليشملَ ظنُّهم نفيَ سماعِ اللّه لسِرِّهم ونجواهم في زعمهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.

لجميع الأوقات الماضي والحال والمستقبل، فـ ﴿لَا﴾ تدلُّ على الاستمراريَّة، ممّا يُظْهِر أنَّ ظَنَّ الكفّارِ الخاطِئَ بأنَّ اللّه لا يسمع سِرَّهم ونجواهم هو حالةٌ دائمةٌ مستمرَّةٌ لهم في جميع أوقاتِهم، ولو قالوا: (لم)؛ لاختصَّ النَّفيُ بالزَّمن الماضي وحدَه.

بلاغةُ الطِّباق بين كلٍّ من (السِّرِّ) و(النَّجوى):

علِمُ اللهِ محيطٌ شاملٌ لكلِّ شيءٍ

استعملَ البيانُ القرآنيُّ بلاغةَ الطِّباق في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْۚ﴾، بالجمعِ بين لَفظَين متقابلَين في المعنى، هما: السِّرُّ والنَّجوى، أي: الخفاءُ والعلانية[1]، وهذا يزيدُ الكلامَ حُسْنًا، ويدلُّ على كمالِ عِلْمِ اللّهِ المحيط الَّذي يشملُ كلَّ شيءٍ، سواءٌ ما يُسِرّونَهُ في أنفُسِهم مِن وسائِلِ المَكر للنَّبيِّ ﷺ، وما يَتَناجَونَ بِهِ بَينَهُم في ذَلِكَ.

عِلَّة تخصيص ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْۚ﴾ بالسَّماع:

تخصيصُ سماعِ اللهِ لسِرِّهم ونجواهم بيانٌ لقُبحِ ضلالِهم وخَطأِ اعتقادِهم

خصَّ البيانُ القرآنيُّ ما يُسِرُّه الكافرون في أنفسهم، وما يتناجون به بينهم بالسَّماع، في قوله تعالى: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْۚ﴾، مع أنَّ اللّهَ يسمعُ كلَّ سرٍّ وكلَّ نجوى؛ لأنَّ الحديثَ مسوقٌ لبيان مقابِحِهم، وتفنيدِ خطئهم بظنِّهم واعتقادِهمُ الفاسد.

دلالةُ حرف الجواب ﴿بَلَىٰ﴾، وأثرُه في السّياق:

تأكيدٌ قويٌّ في إثباتِ خلافِ النَّفي للرَّدِّ على ظنِّهم الجاهل

حَرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ جَوابٌ للنَّفي مِن قَولِه: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾، أي: لإثباتِ خلافِ النَّفي، والتَّقدير: بَلى نَحنُ نَسمَعُ سِرَّهُم ونَجواهُم على حدٍّ سواء[2]، وفيه إيجازٌ بالحذفِ كما يظهر، بما يُعطي الكلامَ قوَّةً، في سياقٍ يتَّصفُ بالقوَّةِ في رَدِّ ظنِّهم الجاهل، وفيه تأكيدٌ قويٌّ على حقيقةِ البعث والحساب الَّذي يُنكِره الكافرون.

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 188.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 262.

معنى الواو في: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾:

عطفُ تهديدٍ على تهديدٍ، أو حالٌ فيه تنبيهٌ ووعيد

تحتملُ الواو في قوله: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه: المحذوف المقدَّر بعد ﴿بَلَىٰ﴾، أي: عطفٌ على ما يُترجِمُ عنهُ (بَلَى)[1]، وفائدةُ العطف: ليعلموا أنَّ عِلمَ اللّه بما يُسرّون عِلمٌ يترتَّبُ عليه أثرٌ فيهم، وهو مؤاخذتُهم بما يُسِرّون؛ لأنَّ كتابةَ الأعمال تُؤذنُ بأنَّها ستُحْسَبُ لهم يومَ الجزاء[2]، أي: عطفُ تهديدٍ على تهديد، ويحتملُ أن تكونَ الواو حاليَّةً، والمعنى: نسمعُ سرَّهم ونجواهم، والحالُ أنَّ رسلَنا لديهم يكتبون[3]، وهو وعيدٌ وتنبيهٌ منه لهم، يخبرُ أنَّ رسلَه يكتبون ما يُسرّونِ، ويُخفون من المنكر وغيرِه؛ ليكونوا أبدًا على حَذَرٍ ويَقَظة[4].

سرُّ إضافة الرُّسل مجموعًا إلى ضمير العظَمة في: ﴿وَرُسُلُنَا﴾:

في كثرة الحَفظة وتفخيمهم تأكيدٌ لعظَمةِ اللهِ وقُدرتِه المُطلقةِ وعِلْمِه المحيط

أضافَ البيانُ القرآنيُّ الرُّسلَ إلى ضمير العظَمة (نا) في قوله: ﴿وَرُسُلُنَا﴾، ولم يقلْ: (والرُّسلُ يكتبون)؛ لتربية المهابةِ في النُّفوس، ولتعظيمِ شأنِ الرُّسلِ وتعظيم ما يَكتبون[5]، بما يُؤكِّد عظَمةَ اللّهِ تعالى وقدرتِه المطلقة، فهؤلاء الرُّسلُ تحتَ سيطرتِه سبحانه، ويفعلون ما يُؤمرون من الكتابة وغيرها، ممّا يَدلُّ على عِلم اللّه المحيط بكلِّ شيء، فالحَفَظةُ هم رسلُ اللّهِ سبحانه - من الملائكة - الَّذي وسِعَ عِلْمُه كلَّ شيء، وفي التَّعبير بلفظ (رسل) مجموعًا يُفيدُ التَّكثيرَ للرُّسل، والتَّفخيمَ لهم.

سرُّ التَّعبير بـ (لدى) في: ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بـ(لدى) في قوله: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 263.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 1750.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 189.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 486.

للمبالغة في التَّهديدِ والوعيد، وللتَّأكيد على حضورِ الملائكة، وأنَّهم قريبون جدًّا من البشر، ويرافقونهم في كلِّ لحظة، فلفظُ (لدى) يُفيدُ القُرْبَ الشَّديدَ والملازمةَ والاستمراريَّةَ، ويُعبَّر بها عند اشتدادِ الغرابة؛ لأنَّ حضورَ الملائكةِ مع الإنسانِ، وكتابتَهم لجميعِ أعمالِه على وجهٍ لا يُحسُّ به، هو أمرٌ في غايةِ الغرابة[1]، وفيه زيادةُ تهديدٍ وترهيبٍ للكافرين، كما أنَّ الإضافةَ في لفظ ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ إلى ضميرهم مع عمومِ المعنى؛ لترهيبِهم وتحذيرِهم.

حضورُ الملائكةِ في كلِّ لحظةٍ لكتابةِ الأعمالِ أمرٌ يحملُ الغرابةَ والتَّهديدَ للكافرين

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالكتابة في قوله: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ لأنَّ الكتابةَ أوقعُ في التَّهديد؛ لأنَّ من عَلِمَ أنَّ أعمالَه محصاةٌ مكتوبةٌ، ومُثْبَتةٌ بدقَّة، تجنَّبَ ما يخافُ عاقبتَه؛ لأنَّ الكتابة تدلُّ على حصرِ الأعمال وتقييدها، فهي تُسجَّلُ بدِقَّة، وتُحفَظ من أن تُنْسَى أو تضيع، وأصلُ الكتابة يدلُّ على الجمع والضَّمِّ والإثبات والحِفظ[2]، وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى عدلِ اللّه تعالى، وإلى أنَّه سيحاسب عليها، والحساب سيكون عادلًا؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ مُسَجَّل، ولا مجالَ للإنكار، وجاءتْ صياغة الفعل بالمضارعة؛ للدَّلالة على أنَّ الحفَظَة يجدِّدون الكتابةَ كلَّما تجدَّدَ ما يقتضيها[3]، ممّا يُعطي إحساسًا بأنَّ الإنسانَ في حالةٍ دائمة منَ المُراقبة والمسؤوليَّة.

كتابةُ الحَفَظةِ لأعمالِ العِباد المستمرَّة أوقعُ في التَّهديد وأبلغُ في العَدْل

الغرضُ من حَذْف مفعول الفعل ﴿يَكۡتُبُونَ﴾:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَكۡتُبُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم، أي: "يكتبون كلَّ ما صدرَ عنهُم من الأفعالِ والأقوالِ، الَّتي من جملتها ما ذُكِر من سِرِّهم ونجواهم"[4]، وفي هذا من التَّخويف لهم ما

في كتابةِ كلِّ ما صدرَ عن البشر من أفعالٍ وأقوالٍ تخويفٌ وتهديدٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 486.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 515.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 487.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

فيه، ولهذا وصفَ اللّهُ حالَهم يومَ القيامة بقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49]، وكذلك لمراعاةِ الفاصلةِ بما يُحقِّقُ إحكامَ اللَّفظِ وإحكامَ المعنى، فكتابةُ أعمالِهم تُؤْذِنُ بأنَّ عِلْمَ اللّهِ بما يُسِرّون عِلْمٌ يترتَّبُ عليه أثرٌ فيهم، وهو مُؤاخذتُهم بما يُسرّون.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الإبرام والكيْد:

شـــدَّةُ إحـكـامِ المشركين للكيدِ بالنَّبيِّ ﷺ دليلُ كرهِهم للحقِّ

الإبرامُ: هو إتقانُ الإحكام والتَّدبيرِ، والعَزْمُ على ما دُبِّر، والقَطْعُ به وتأييدُه، فإبرامُ الأمر: إحكامُه بحيثُ لا يكون فيه خَلَلٌ ولا انتقاض، وأصلُه: من أبرمتُ الحبلَ، أي: فتلتُه فتلًا مُحْكَمًا، وجعلتُه طاقَينِ مَفتولَينِ[1].

بينما الكيدُ: هو المَكْرُ والخِداعُ والاحتيالُ، والاجتهادُ فيما يقصدُهُ الإنسانُ، والخُبثُ والمَضرَّةُ، وأصلُه يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّة[2]، والكيدُ: اسمٌ لإيقاع المكروه بالآخر قهرًا، سواءٌ عَلِمَ أم لا، والشّاهدُ قولُكَ: فلانٌ يُكايدُني، فسَمّى فِعْلَه كيدًا، وإنْ عَلِمَ به[3].

وقد ناسبَ هنا استعمالُ لفظِ الإبرام، كونُه أبلغَ من لفظ الكيدِ، وللدَّلالة على شدَّةِ إحكامِهم وإتقانِهم للتَّدبير للنَّبيِّ ﷺ في دار النَّدوة، والعزمِ على ما دَبَّروه، ووصلوا إليه من قتلِ النَّبيِّ ﷺ، والقطعِ به وتأييدِه، ممّا يدلُّ على حِقدِهم وكُرْهِهم للحَقِّ، كما وصفَهم اللّهُ في الآية السّابقة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيد).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259، و260.

الحِسبانُ والظَّنُّ:

حُكمُ المشركين بأنَّ اللهَ لا يسمعُ سِرَّهم ونجواهم تقديرٌ خاطِئ وظَنٌّ جاهل

الحِسبانُ اعتقادٌ عن أمارةٍ اعتدَّتْ به، سواءٌ كان له وجودٌ في الحقيقة أم لم يكن، وهو مشتقٌّ من حسبتَ الحساب[1]، وأن يُحكَمَ لأحدِ النَّقيضين من غيرِ أن يخطرَ الآخرُ بباله، فيحسِبَه، ويَعقِدَ عليه الإصبع[2]، والحِسبانُ: هو الظَّنُّ والاعتقاد أو التَّقدير[3]، بينما الظَّنُّ: هو توقُّعُ وجودِ شيءٍ مُهمٍّ؛ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّين[4]، وهو قوَّةُ أحد الشَّيئَينِ على نقيضه في النَّفس[5]، أي: الظَّنُّ رُجْحانُ أحدِ طَرفَي التَّجويز، فالظَّنُّ قوَّةُ المَعْنى في النَّفس من غير بُلوغ حال الثِّقَة الثَّابتة[6]؛ ولذلك ناسبَ استعمالُ لفظِ الحِسبان؛ للدَّلالة على أنَّ ظَنَّ المشركين أنَّ اللّهَ لا يسمعُ سِرَّهم ونجواهم هو ظَنٌّ واعتقادٌ خاطِئٌ لا دليلَ عليه، ويدلُّ على سوء تقديرهم وجهلهم أيضًا، فقد حكموا بذلك من غيرِ أن يخطرَ ببالهم أنَّ اللّهَ مطَّلعٌ على كلِّ شيء، وأنَّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ، ولهذا أبرموا، وأحكموا الكيدَ والتَّدبيرَ للنَّبيِّ ﷺ.

السِّرُّ والنَّجوى:

النَّجوى كلامُكَ الخَفيُّ مع صاحبك، والسِّرُّ إخفاؤُكَ الشَّيءَ في نفسك

النَّجوَى: اسمٌ للكَلام الخَفيِّ الَّذي تُناجي بِهِ صاحبَكَ، كَأنَّك ترفعُه عَن غَيره، وذَلِكَ أن أصلَ الكَلِمَة الرِّفعَة، ومنه النَّجْوَة من الأرض، وسُمّي تكليمُ اللّه تعالى موسَى عليه السلام مُناجاةً؛ لأنَّهُ كان كلامًا أخفاهُ عَن غَيره، بينما السِّرُّ إخفاءُ الشَّيءِ في النَّفسِ، تقول لصاحبك: هذا سِرٌّ أُلقِيه إلَيكَ، تُريدُ المَعنى الَّذي تُخفيه في نَفسِكَ، والنَّجوى تتناوَل جملَةَ ما يُتَناجَى بِهِ من الكَلام، والسِّرُّ

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 1/ 115، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 52.

(2) الرّاغب، المفردات: (حسب).

(3) ابن عبّاد، المحيط، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حسب).

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنن).

(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 424.

(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

يتَنـاوَل معنـى ذلـك، وقـد يكـون السِّرُّ في غيـر المعانِـي مجازًا، تَقول: فعل سِرًّا، وقد أسـرَّ الأمر، والنَّجوى لا تكون إلّا كلامًا[1]، ولأنَّ الحديث عن تدبيرِ المشـركين ومَكرهم بالنَّبيِّ ﷺ في دارِ النَّدوة في سِرِّهم وفي نجواهم، فكان الرَّدُّ منه سبحانه أنَّه كلُّ ما كان منهم من وسائل للمَكْر به ﷺ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.

﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ٨١ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٨٣﴾ [الزّخرف: 81 - 83]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انتقالٌ من مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أن يكونَ للهِ ولد

لَمّا جرى ذِكْرُ الَّذين ظَلَموا بادِّعاءِ بُنوَّةِ المَلائكَةِ في قولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ [الزّخرف: 65]؛ عَقِبَ قولِه: ﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ [الزّخرف: 57]، وعَقِبَ قولِه قبْلَه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزّخرف: 19]، وأُعقِبَ بما يَنتَظِرُهم من أهوالِ القيامَةِ، وما أُعِدَّ لِلَّذين انخَلَعوا عن الإشراكِ بالإيمانِ؛ أمَرَ اللهُ رَسولَهُ أن يَنتَقِلَ من مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أن يَكونَ للهِ ولَدٌ؛ جَمعًا بين الرَّدِّ على بَعضِ المُشركين الَّذين عَبَدوا المَلائِكةَ، والَّذين زَعَموا أنَّ بعضَ أصنامِهم بَناتُ اللهِ، مِثلُ اللّاتِ والعُزَّى، فأمَرَه بقولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾[1]، ومناسبةُ الَّتي تليها: أنَّه لَمّا قال تعالَى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾؛ نزَّه نَفسَه تَنزيهًا تامًّا عمّا يَصِفونَه به من نِسبةِ الوَلَدِ إليه؛ مُبَيِّنًا أنَّ رَبَّ السَّماواتِ والأرضِ ورَبَّ العَرشِ جَديرٌ بالتَّنزيهِ عن الوَلَدِ، وعن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾: (عبد)، وأصلُه يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[2]، ومنه قولُهم:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 263، و264.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذَلَّلٌ؛ لكثرةِ وطْءِ الأقدام له[1]، والعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كان أو رقيقًا، ويُجمَعُ على عَبِيدٍ وعِبادٍ، يُقالُ: فلانٌ عَبدٌ للّه، أي: مَملوكٌ لَهُ[2]، يُذْهَبُ بذلك إلى أنَّه مَرْبوبٌ لِباريه جَلَّ وعَزَّ، والعابِدُ: الموحِّد[3]، "وعبادَةُ اللّه تعالى: الذُّلُّ له بالانقياد لما أمَرَ، والانتهاءِ عَمّا نهى، وحَدَّ بَعضُهم العِبادَةَ، فقال: هِيَ الأفعالُ الواقِعَةُ على نِهايَة ما يُمكِنُ من التَّذلُّلِ والخُضوع، والمُجاوزَةِ لتذلُّلِ بعض العِباد لبَعضٍ"[4]، ومعنى ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ هنا: المؤمنون باللّه من أهل مكَّة، الموحِّدون له على أنَّه لا ولدَ له، الشّاهدون على ذلك[5].

والأفضل أنَّ ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ من (عَبِدَ يعبَد) بزنة أَنِفَ يَأنَفُ، والعابِدُ: الرّافض، والمعنى: قل إن كان للرَّحمن ولدٌ؛ فأنا أوَّلُ الرّافضين لهذا الإله، وقد حكى الجوهريُّ عن أبي عمرو في قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أنَّه من الأنَف أو الغضب، وحكاه الماورديُّ عن الكسائيِّ والقتيبيِّ، وبه قال الفرّاء، وكذا قال ابنُ الأعرابيِّ: إنَّ معنى ﴿ٱلْعَٰبِدِينَ﴾: الغِضابُ الآنفون[6].

2) ﴿سُبْحَٰنَ﴾: أصلُ السَّبْح: البُعدُ، والتَّسبِيحُ: التَّبعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحْتُ في الأرضِ، أي: أبعَدتُ فيها[7]، والتَّسبِيحُ: التَّنْزيهُ والتَّقْديسُ والتَّبْرئَةُ، يُقالُ: سبَّحتُ اللّهَ، وسبَّحتُ له، أُسَبِّحُهُ تسبيحًا وسُبحانًا، أي: نَزَّهتُه وبَرَّأتُه من كلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[8]، وسُبحانَ: اسمُ التَّسبيحِ، وهو اسمُ مصدر (سَبَّحَ) المُضاعَفِ، وليس مصدرًا؛ لأنَّهُ لم يَجِئْ على أبنيةِ مصادرِ الرُّباعيِّ، وقيل: هو مصدر (سَبَحَ) مُخفَّفًا بمعنى نَزَّهَ، فيكونُ كالغُفرانِ والشُّكرانِ، وقد كَثُرَ استعمالُه منصوبًا على المفعوليَّةِ المُطلَقَةِ بإضمار فِعله[9]، والمقصودُ بـ﴿سُبْحَٰنَ﴾ في الآية: التَّنزيهُ والتَّبرئَةُ له سبحانه عن جميع ما يَصِفُهُ به هؤلاء المشركون من نسبةِ الولد وغيرِ ذلك من الأشياء الَّتي لا ينبغي أن تُضافَ إليه[10].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 7.

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).

(4) ابن الجَوزيِّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 431.

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 648، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 835.

(6) الثّعلبي، الكشف والبيان، والقنّوجي، فتح البيان، سورة الزّخرف، آية: 81.

(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 413.

(10) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.

3) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: أصلُ (عرش) يَدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيءَ، وعَرَّشْتُهُ، أعْرُشُهُ، تَعْرِيشًا، أي: رَفَعْتُهُ، ومِنهُ العَرِيشُ، وهو بِناءٌ يُرفَعُ يُستَظَلُّ بِهِ[1]، وسُمِّي مجلسُ السُّلطانِ عَرْشًا اعتبارًا بعُلوِّه[2]، والعَرْش في كلام العرَب: سريرُ المَلِك، يدلُّ على ذلك سريرُ بلقيس ملكةِ سبأ، ومنه: عرشُ البيت: سَقْفُه[3]، و"العَرْش: اسمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بِجَميعِ السَّماواتِ، سُمّي عَرْشًا؛ لأنَّه دالٌّ على عَظَمَةِ اللّه تعالى، كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبَهُ من المُلوكِ"[4]، والعرشُ هو أعظمُ الأجرام وأقوى الموجودات[5].

4) ﴿يَصِفُونَ﴾: الوصفُ: ذِكرُ الشَّيء بحِليتِه ونَعْتِه، والصِّفةُ: الحالةُ الَّتي عليها الشَّيءُ من حِليتِه ونَعتِه[6]، وأصلُه من تحليةِ الشَّيءِ، واتِّخاذِ الشَّيء هيئتَه التّامَّة[7]، والوصفُ قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا، يُقال: لسانُه يَصِفُ الكذب، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النّحل: 116]، وكَثُر ذِكْرُ الوصفِ بمعنى الكذب[8]، ومعنى ﴿يَصِفُونَ﴾، أي: يُكَذِّبون[9].

5) ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: وذَرَ، يَذَرُ، والأمرُ منه: ذَرْ، وذَروا: فعلُ أمرٍ، لم يَرِد في اللُّغة استعمالُ ماضيه ولا مصدره، ولا يستعملُ منه سوى المضارع والأمرِ، وهو بمعنى التَّركِ والإهمال، تقول: ذَرْهُ، أي: دَعْهُ واتركْهُ، ويقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لِقلَّة اعتداده به، وفيه معنى التَّهديدِ والوعيد، والوَذَرَةُ: قِطعةُ اللَّحم الصَّغيرةِ، وتَسميتُها بذلك لِقلَّةِ الاعتدادِ بها[10]، ومعنى ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: موافِقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: فاترُكْهُم[11].

6) ﴿يَخُوضُواْ﴾: (خوض) تدلُّ اشتقاقاتُها على تَوَسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ، يُقالُ: خُضْتُ الماءَ وغَيْرَهُ، وتَخاوَضوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضوا، وتَداخَلَ كَلامُهُم[12]، وأصلُ الخَوضِ:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 335، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عرش).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 249.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 836.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وصف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصف).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (وصف).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652.
(10) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وذر).
(11) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 837.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).

المَشيُ في الماءِ وتحريكه، ثُمَّ استُعمِلَ في التَّلَبُّسِ بالأمر والتَّصَرُّف فيه، يقال: خاضَ القومُ في الحَديث، وتَخاوَضوا، أي: تَفاوَضوا فيه، والخَوْضُ مِنَ الكَلام: ما فِيهِ الكَذِبُ والباطِلُ، وأكثَرُ ما في القُرآنِ الكريم ورَدَ فِيما يُذَمُّ الشُّروع فيه(1)، ومعنى ﴿يَخُوضُواْ﴾: يدخلوا في باطلهم(2).

7) ﴿يُلَٰقُواْ﴾: (لقي) أصلٌ يدلُّ على تَوافي شَيئَين وتقابُلِهما، وكلُّ شيءٍ استَقبَلَ شَيئًا، أو صادَفَهُ؛ فَقَد لقِيَه(3)، وكلُّ (لَقِيَ والتَقى) هي بمعنى المقابلة والوجودِ القويِّ، أي: يستقبله، ويَلقاه، ويَجِدُه(4)، واللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحد منهما، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحسِّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة(5)، ومعنى ﴿يُلَٰقُواْ﴾: موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ.

8) ﴿يُوعَدُونَ﴾: أصلُ (وعد) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ على تَرجيَةٍ بِقَولٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا، ويكونُ ذلك بِخَيرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعِيدُ؛ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ(6)، والوَعْدُ: مَعروف، وعَدتُ الرَّجلَ أعِدُه وعْدًا حسنًا من مال وغيره، وفُلانٌ وفيُّ الوَعْدِ والموعود(7)، والمَوعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ(8)، والوعدُ هنا بمعنى الوعيد(9).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تلقينُ الحُجَّة للنَّبيِّ وتنزيهُ اللهِ سبحانه عن الوَلَدِ والشَّريك

يُلقِّنُ اللهُ تعالى نَبيَّه الحُجَّةَ الَّتي يَرُدُّ بها على المشركينَ، فيقولُ: قُل - يا مُحمَّدُ - لِمُشرِكي قَومِك: إن كان للرَّحمن ولدٌ فأنا أوَّلُ الرّافضين لهذا الإلَه؛ لأنَّه محتاجٌ له، وأنا محتاجٌ ناقصٌ، ولا أعبد ناقصًا.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوض).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 837.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقى).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (لقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وعد).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

تحقيقٌ لِلحَقِّ، وتَنبيهٌ للكفرة، وردٌّ على أباطيلهم المزعومة

غرضُ الأمر بالقول في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ تَحقيقٌ لِلحَقِّ، وتَنبيهٌ للكفرة على أنَّ مُخالَفَة النَّبيِّ ﷺ للمشركين بِعَدَم عِبادَته؛ لِما يَعبُدونَهُ مِنَ المَلائِكَةِ عليهم السلام، لَيسَت لِبُغضِه وعَداوَته لَهم أو لِمَعبوديهم، بَل إنَّما هو لِجَزمِه باستِحالَةِ ما نَسَبوا إلَيهم، وبَنَوا عَلَيها عِبادَتَهم، مِن كَونِهم بَناتِ اللّه تَعالى[1]، والتَّعبيرُ بلفظ ﴿قُلۡ﴾؛ ليعلموا أنَّ مضمونَ هذا القول تكليفٌ من اللّه تعالى، وأنَّ الرَّسولَ مُبَلِّغٌ عن اللّهِ فيه، بما يُؤَكِّدُ رسالتَه ومقامَه عند اللّهِ سبحانه، وفيه تلقينُ النَّبيِّ المُرسَل الحُجَّةَ، وهو منهجٌ في الحِجاجِ أصيل.

معنى ﴿إِن﴾ في: ﴿إِن كَانَ﴾:

نفيٌ للولد على أبلغِ وجهٍ، وأتمِّ عبارةٍ، وأحسنِ أسلوبٍ

﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، إمّا شرطيَّة على سبيلِ الافتراض، ويكون التَّقدير: قل يا محمَّد إن ثبتَ للّه ولدٌ؛ فأنا أوَّلُ مَن يرفض عبادة هذا الإله، والغرضُ التَّأكيد على أنَّ الحقَّ سبحانه مُنَزَّه عن الولد والصّاحبة، أو أن تكون ﴿إِن﴾ نافيةً بمعنى (ما)، وتقديرُه: ما كان للرَّحمن من ولدٍ، ويكون قولُه: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ ابتداءَ كلامٍ[2]، تفرَّع عمّا سبقه من نفيِ أن يكونَ للّه ولدٌ سبحانه[3].

إيثارُ حرف ﴿إِن﴾ على اعتبارها شرطيَّة:

تلطُّفُ الخطابِ القرآنيِّ في الإقناعِ تأكيدٌ للوحدانيَّة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾ - الَّتي لا يكون التَّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيهِ - في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 648، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 193.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265.

وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾؛ للدَّلالة على انتِفاءِ كَونِ المشركين العابدين على حقٍّ في عبادتهم، وللتَّأكيد على الوحدانيَّة بأبْلَغ الوُجوه وأقواها؛ إذ في الخطابِ تلطُّفٌ في الإقناع، برَبطِ الفعلِ بالاستحالة، وعلى كَوْنِ رَسولِ اللّه ﷺ عَلى قوَّة يَقِينٍ وثَباتِ قَدَم في بابِ التَّوحِيدِ ما لا يَخْفى، مَعَ ما فِيهِ مِن استِنزالِ الكَفَرَةِ عَن رُتبَةِ المُكابَرَة[1].

توجيهُ القراءةِ في: ﴿وَلَدٞ﴾:

في القراءتين إثراءٌ للمعنى؛ إذ نفتا عن اللهِ الولدَ والأهلَ

قَرَأ جمهور القرّاء ﴿وَلَدٞ﴾ بفَتحِ الواوِ وفَتحِ اللّام، وقرأه حمزةُ والكِسائِيُّ ﴿وُلۡدٞ﴾ بِضَمِّ الواوِ وسُكونِ اللّام جَمْعُ ولَدٍ[2]، نحو: أَسَد، وأُسْد، وقال الأخفش الأوسط: الوَلَدُ بالفتح: الابن، والابنة، والوُلْد بالضَّمِّ: الأهل، وقيل: هما لغتان بمعنًى واحد[3]، وفي الجمع بين القراءتين إثراءٌ للمعنى؛ إذ نفتا عن اللّهِ الولدَ والأهل.

فصْل: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عمّا قبلَها:

ربُّنا تعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ ما نسبهُ إليه المشركون

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عن الّتي قبلها؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصال؛ لوقوعها تكملةً لجُزئَي الشَّرط، أي: تَكمِلَةً لِما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأن يَقولَه، وقد جاءت الجملةُ كَلامًا مُستَأنَفًا من جانِبِ اللّهِ تعالى؛ لإنشاءِ تَنْزِيهه عمّا يَقولون، فتكون مُعترضةً بين جُملةِ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾، وجُملَةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ﴾[4].

غرضُ التَّسبيح في: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وسرُّ التَّعبير بالمصدر:

تَنزُّهُ ذاتِه المُقدَّسة تنزُّهًا لائقًا به سبحانه

يتمثَّلُ غرضُ تسبيح اللّهِ لذاته العَليَّة أو أمره بالتَّسبيح في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، في كمالِ تنزيهه سبحانه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 319، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265.

(3) محيسن، المغني في توجيه القراءات: 4/ 16.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265.

عمّا يصفه المشركون من الولد والشَّريك وكلِّ ما لا يليقُ به؛ مبالغةً من جهةِ الاشتقاق من السَّبح[1]، ومبالغةً من جهةِ إسنادِ التَّنزُّهِ إلى ذاتهِ المُقدَّسة، أي: تَنزُّهُ ذاتِه المقدَّسة تنزُّهًا لائقًا به سبحانه، وقد أفاد التَّعبير بلفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ المبالغةَ من جهةِ العدول عن المصدر الدّالِّ على الجنسِ إلى الاسم الموضوعِ له خاصَّةً، ومن جهةِ إقامته مقامَ المصدرِ مع الفعل، أو باعتباره مصدرًا كـ (غفران)، أُريدَ به التَّنزُّهُ التّامُّ والتَّباعُد الكُليُّ.

بلاغة التَّذييل في: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تأكيدُ نفي كينونةِ ولدٍ له سبحانه، بتنزيهه عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله

في جملةِ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَعنَى التَّذييلِ لقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾؛ لأنَّها نَزَّهَتِ اللّهَ عن جَميع ما يَصِفونَه به مِن نِسبَةِ الوَلَدِ وغَيرِ ذلك[2]، أي: جاء التَّذييلُ؛ ليُؤَكِّدَ نفيَ كينونةِ ولدٍ له سبحانه، ويُقَرِّرَ ذلك، ولِيُقدِّمَ دليلًا جليًّا يَدْحَضُ ادِّعاءاتِهم؛ وذلك بتنزيهِ اللّهِ ربِّ السَّماوات وربِّ الأرض عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلالِه، وعن كلِّ شائبةٍ ونقصٍ.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ الرُّبوبيّة دونَ الأُلوهيَّة:

عظيمُ إبداعِ الله ومُلْكِه وإنعامِه ينفي عنه النَّقصَ وحاجتَه إلى الولد

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الرَّبِّ دون (إله) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ زيادةً في التَّشنيع على المشركين؛ إذ أشارَ في تنزيهِ اللّهِ وتقديسِه إلى عظيمِ إبداع اللّه في خلقِ السَّماوات والأرض، وعنايتِه بهما، ومُلْكِه لهما ﷻ، بما ينفي عنه النَّقصَ وحاجتَه إلى الولد. فالرُّبوبيَّة فيها معنى المُلْك والتَّربية والرِّعايةِ والعنايةِ والتَّدبير والقَوامة والإصلاح والعطاء والإنعام، والمعنى: سبحانَ ربِّ السَّماوات والأرض اللَّتَين كلُّ ما فيهما ومَن فيهما مقهورٌ مَربوبٌ، محتاجٌ لا يَصِحُّ أن يكون له منه سبحانه نسبةٌ بغيرِ العبوديَّة

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والخطابيّ، غريب الحديث، ص: 685.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 265، و266.

بالإيجاد والتَّربية[1]، ولهذا المعنى ذاتِه صرَّح بالاسم الظّاهر (ربّ)، ولم يضمره بقوله: (سبحانه).

سرُّ إضافة اسمِ الرَّبِّ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وإلى ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾:

في إضافةِ اسم الرَّبِّ إلى أقوى الموجودات وأعمِّها وأعظمها في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾، تنبيهٌ على أنَّها وما فيها من المخلوقاتِ حيثُ كانتْ هي تحتَ مَلكوتِه ورُبوبيَّتِه، فكيفَ يُتَوهَّمُ أنْ يكونَ شيءٌ منها جُزءًا منهُ سبحانَهُ[2]، وهو ينافي وجوبَ الوجودِ[3]، فقد خلقَ العوالمَ ونظامَ نمائِها ودوامها، وعُلِمَ من كونه خالقَها أنَّه غيرُ مسبوقٍ بعدَم، وإلّا لاحتاجَ إلى خالقٍ يَخلقُه، واقتضى عدمُ السَّبقِ بعَدَمٍ أنَّه لا يَلْحَقُه فناءٌ، فوجودُ الولدِ له يكونُ عبثًا[4].

مـن كـانـتِ المخـلـوقـاتُ تحت مَلكوتِه ورُبوبيَّتِه، فكيف يـتَّـخذُ منها ولدًا؟!

الغرضُ من تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض):

قدَّمَ البيانُ الحكيمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرض) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مناسبةً للمقام؛ فهو مقامُ تنزيهٍ، وجِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرُ؛ لأنَّه أبعَدُ عن النَّقصِ والنَّقيضِ[5]، ولأنَّ السَّماواتِ أعظمُ الأجرام، وأقواها، وأعمُّها.

جِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرُ بالتَّقديم؛ لأنَّـهـا أدلُّ عـلى الـتَّـنزيـهِ والتَّعظيم

نُكْتَةُ تكريرِ اسْمِ الرَّبِّ:

أطنبَ البيانُ الحكيم بتكريرِ اسم الرَّبِّ مع لفظِ العرش في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ توكيدًا لربوبيَّتِه سبحانه على كلِّ شيءٍ، وتَفخيمًا لِشَأنِ العَرشِ، وتنويهًا به[6]، بما يدلُّ على أنَّ مَن هذا مُلْكُه لا حاجةَ له للولد، الَّذي يُحتاجُ إليه لسَدِّ عجزٍ، أو ضَعفٍ، أو تحقيقِ معونة.

في تَفخيمِ شأنِ العَرشِ مبالغةٌ في تـنـزيـهِ الله وتقديسِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56.

نُكْتَةُ فصْل ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ عن سابقه:

ربُّ العرش هو ربُّ السَّماوات والأرض سبحانه

لم يربطِ البيانُ الحكيم في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ بين ربوبيَّته للسَّماوات والأرض وربوبيَّته للعرشِ بالعاطف، فلم يقل: (ربُّ السَّماوات والأرض وربُّ العرش)؛ وذلك لِما بين الجُملتَين من كمالِ اتِّصال؛ لأنَّ ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾ بدلٌ من ﴿رَبِّ﴾ الأولى[1]، ولأنَّ العرشَ من السَّماوات[2].

سرُّ الإضافة في: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ﴾:

مبالغةٌ في تنزيهِ الرَّبِّ الخالقِ المالكِ المدبِّرِ المُستحقِّ للعبادة عن اتِّخاذِ الولد

إضافة لفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للمبالغةِ في تنزيهِ الرَّبِّ الخالقِ للسَّماوات والأرض، المالكِ لهما، المُدبِّرِ لأمورهما، ممّا يدلُّ على عظَمةِ هذا الرَّبِّ المُستحقِّ للعبادة سبحانه، الَّذي يستحيلُ أن يكون له ولدٌ أو شريك.

نُكْتَةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد (الأرْض):

جمعُ السَّماوات أبلغُ في التَّفخيم، وإفرادُ الأرض أخفُّ في النُّطق

جمعَ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وأفردَ (الأرض) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ مناسبةً للمقام الَّذي هو مقامُ تنزيهٍ وتعظيم، وهو أظهرُ في السَّماواتِ السَّبعِ وأجرامها العظيمة ذاتِ النِّظامِ الخاصِّ، المُتفاوتةِ بالصِّفاتِ والآثارِ والحركاتِ، ولكونها أشرفَ من الأرض، والجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيدِ[3]، وأُفردت الأرضُ تخفيفًا؛ إذ جمعُ الأرضِ ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس (أرضون، أرضين)، ولهذا لم تُجمَع الأرضُ في القرآن[4].

معنى (ما) ودلالتُها في: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾:

في الموصوليَّة تنزيهُ اللهِ عن كلِّ وصفٍ لا يليقُ به سبحانه

(ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ اسم موصول، والتَّقدير: عن الَّذي يصفونه به، وقد عبَّر البيانُ القرآنيُّ به مع صلته؛ لقصدِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 111.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92.

(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 429.

التَّعميم؛ لأنَّ (ما) من ألفاظِ العموم، فيَشملُ كلَّ وصفٍ لا يليقُ باللّه سبحانه من نسبةِ الولد أو الشَّريك أو غيرِ ذلك، ويحتملُ أن تكونَ مصدريَّةً، والتَّقدير: عن وصفهم للّه الولد[1].

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَصِفُونَ﴾:

استمرارُ المشركين في وصفِ الله بما لا يليقُ هو دلالةٌ على شدَّةِ طغيانهم

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة في قوله: ﴿يَصِفُونَ﴾ يُشيرُ إلى إيغالِ المشركين في الشِّرك، واستمرارِهم في وصفِ اللّه بما لا يليقُ به من نسبة الشُّركاء والأبناء له، وتجدُّد ذلك منهم، بما يدلُّ على شِدَّة طغيانهم وضلالهم واستمرارهم على هذه الحال، ويُؤَكِّدُه قولُه تعالى بعدَه: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾.

معنى الفاءِ في: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

تأييسٌ من إجداءِ الحُجَّةِ في الكافرين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ إمّا تفريعيَّة، والجملةُ اعتراضٌ بتَفريعٍ عن تَنْزيهِ اللّهِ عمّا يَنسُبونَه إليه مِن الوَلَدِ والشُّركاءِ، وهذا تَأييسٌ مِن إجداءِ الحُجَّةِ فيهم، وأنَّ الأَوْلَى به مُتارَكَتُهم في ضَلالِهم، إلى أن يَحينَ يَومٌ يَلقَون فيه العَذابَ المَوعودَ، وهذا متحقِّقٌ في أئمَّةِ الكفر الَّذين ماتوا عليه، مثل أبي جهل وأُميَّة بنِ خَلَف وشيبة بن ربيعة، وغيرِهم ممَّن قُتلوا يومَ بدر[2]، أو أنَّه تفرَّعَ عن ظهورِ الحقِّ بعد بُطلانِ شُبهتِهم وبيانِ أُغلوطتِهم معرفةُ أنَّهم فاعلون بوضعِ الأشياء في غير مواضعها، فعلَ الخائضِ اللّاعب[3]، أو أنَّها رابطة لجوابِ شرط مُقدَّر[4]، والتَّقدير: "إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيُّها الرَّسول الكريم - فاتركْ هؤلاء الكافرين يخوضون في باطلهم، وينهمكون في لعبهم"[5].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 490.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 13/ 112.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 105.

الغرضُ من التَّعبير بالأمر في: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

تهديدٌ للكافرين على أقوالهم الباطلة، وتسليةٌ للرَّسول وتخفيفٌ عنه

الأمرُ في قولِه: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والوعيد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالِهم الشَّنيعة، مِن قَبيلِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40](1)، يعني: قد ذُكِرتِ الحُجَّةُ القاطعة على فسادِ ما ذكروا، وهم لم يلتفتوا إليها؛ لأجل كونهم مستغرقين في طلبِ المال والجاهِ والرّياسة، فاتركهم في ذلك الباطل واللَّعب حتّى يصلوا إلى ذلك اليوم الَّذي وُعِدوا فيه بما وُعِدوا(2)، وفيه أيضًا دعوةٌ لرسولِ اللّه أن يُهوِّنَ الأمرَ على نفسه، ولا يشقَّ عليها بسببِ عناد قومِه وتماديهم في ضلالهم، فالحقُّ سبحانه يُسلِّي رسولَه، ويُخفِّفُ عنه.

نُكْتَةُ الإضمار دونَ الإظهار في: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾:

في الإضمارِ تقليلٌ من شأنِ الكافرين واستخفافٌ بهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المشركين بالضَّمير دونَ الاسم الظّاهر، في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾؛ تقليلًا من شأنهم، واستخفافًا بهم، فهُم أقلُّ من أن يذكرَهم، وكذلك للاختصارِ، فالسّياق عنهم.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجمع في: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾:

استحقاقُ أئمَّةِ الكفر التَّهديدَ الإلهيَّ؛ لاجتماعهم على الجهالة والخوضِ في الباطل

في التَّعبير بضميرِ الجماعة دلالةٌ على كثرتهم، وإشارةٌ إلى اجتماعهم على الجهالة، والخوضِ في الباطل في الأحاديثِ، ولَعِبِهِم في مَواقِعِ الجِدِّ حِين يهزؤون بالإسلام، ومِن ثَمَّ استحاقُهم كلِّهم لهذا التَّهديدِ الإلهيِّ، ومُتاركتُهم في ضلالهم إلى أن يحينَ يومٌ يَلۡقَون فيه العذابَ الموعود، وهذا متحقِّقٌ في أئمَّة الكُفر الَّذين ماتوا عليه، وهم الَّذين كانوا متصدِّين لمُحاجَّة النَّبيِّ ﷺ، ومجادلتِه والتَّشغيبِ عليه، مثلِ أبي جهل، وأُميَّةَ بنِ خَلَف، وشيبةَ بنِ ربيعة، وعتبةَ بن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 647.

ربيعة، والوليدِ بنِ عتبة، والوليدِ بنِ المُغيرة، والنَّضرِ بنِ عبد الدّار، ممَّن قُتلوا يومَ بدر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع المجزوم ﴿يَخُوضُواْ﴾:

جُزِمَ فعل ﴿يَخُوضُواْ﴾، وفعل ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ بلام الأمر المحذوفة، أو في جواب الطَّلب، وجَزْمُه بلامِ الأمر أولى من جَعْلِه جزمًا في جوابِ الأمر[2]، وجَزْمُ الفعلِ المضارع يُشيرُ إلى أمرِ النَّبيِّ ﷺ بأن يتركَ الكفّارَ يخوضون في باطلهم، ويلعبون، حتّى يحينَ موعدُ يوم القيامة الَّذي وُعِدوا به، بما يفيدُ بأنَّ اللّه تعالى يمنحُهم فُرصةً مؤقَّتة، يستمرّون فيها على حالهم هذه، ممّا يدلُّ على شدَّةِ ضلالهم وإصرارهم على حالهم، وبُعْدِهم عن الحقِّ، وعلى نهايتهم المحتومة، وفي هذا من التَّهديدِ والوعيد ما فيه.

إعطاءُ الكفّار فرصةً واستمرارُهم في خوضهم ولعبِهم دليلٌ على شدَّة ضلالهم

الغرضُ من التَّعبير بالمجاز في: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾:

قوله: ﴿يَخُوضُواْ﴾ استعار الخوضَ في الماء والطّين للحديث الباطل، وللجِدال واللَّجاجِ غيرِ المحمودِ، والرَّديءِ من الكلام[3]، يُقالُ: فلانٌ يَخوضُ، أي: يَتكلَّمُ بما لا يَنْبغي، وتَخاوَضوا في الحَديثِ والأمرِ، أي: تَفاوَضوا، وتَداخَلَ كَلامُهُم[4]، ويُطلقُ اللَّعبُ على كلِّ عَملٍ لا يُجدي نَفعًا[5]، وقد جمعَ بين خوضِ الكفّار ولَعبِهم؛ انعكاسًا لحالهم من الضَّلالِ وعدمِ الجَدِّيَّة في التَّفكير بالحقِّ، فالكفّارُ قد جمعوا بين جدالهم المذموم وكَذِبِهم وباطلِهم، واستهزائِهم بالإسلام، واستخفافِهم بالحقِّ، فأخرجتْهُ الاستعارةُ في صورة حِسِّيَّة مذمومة.

ذَمُّ انشغالِ الكفّار بالباطل قولًا وفعلًا في صورة محسوسة تشنيعًا عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 266.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (لعب).

غايةُ خوضِ الكافرين ولعبِهم هو ملاقاتُهم لليوم الموعود

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾، ودلالتُه في: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيدُ انتهاءَ الغاية في المستقبل، أي: دلَّ التَّركيبُ الفعليُّ (حتّى والفعل المضارع) ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ على المستقبل، فالغايةُ للخوضِ واللَّعب إنَّما هي ملاقاتُهم لليوم الموعود، والمعنى: فَذَر يا مُحَمَّدُ هَؤُلاءِ المُفتَرِينَ عَلى اللّٰه، الواصِفيهِ بأنَّ لَهُ ولَدًا، يَخوضوا في باطِلِهم، ويلعُبوا في دُنياهُم إلى يوم يُصليهِمُ اللّٰه بِفريَتِهم عليهِ جَهَنَّمَ، وهو يومُ القِيامَةِ[1]، وهذا يُشير إلى أنَّ الكفّارَ سيظلّون مستمرِّين في غَيِّهم وخوضِهم ولَعبِهم إلى أجلٍ محدود، وهو يومُ القيامة الَّذي وُعدوا به، فهو سبحانه يُمهلُهم، ولا يُهْمِلُهم، وسيحاسبهم على ما كان منهم.

مقابلةُ المشركين لليومِ القريبِ الموعودِ سيكون مفاجأةً لم يتوقَّعوها

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُلَٰقُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اختارَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ باللِّقاء، وأتى به بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، وهو مجاز بالاستعارة يُفيد تصويرَ حالةِ الكافرين حين يقابلون يومَهم الموعود، الَّذي لم يكونوا يتوقَّعون ملاقاتِه ومقابلتِه، ولم يُؤمنوا به، وقد استقبلهم، وقابلهم وجهًا لوجه، وصادفهم وفاجأهم، وكان قريبًا منهم، إلى درجةِ التَّماسِّ والاتِّصالِ والمواجهةِ بقوَّة، فأدركوه حينها حِسًّا وبصرًا وبصيرةً، حين لا ينفعُ النَّدم؛ إذِ اللِّقاءُ هو مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا؛ مواجهةً أو تماسًّا، أي: بقوَّة، وكأنَّه قريبٌ منه، ويُقالُ ذلك في الإدراكِ بالحِسِّ، وبالبصرِ، وبالبصيرة[2]، وفي إسنادِ الملاقاةِ إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ مجازٌ لغويٌّ؛ إذ نُسبَ لليوم إرادةٌ وإدراكٌ، وكأنَّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقي).

اليومَ قابلَهم، واستقبلهم وجهًا لوجه، وفاجأهم بملاقاته، وكان قريبًا منهم إلى درجةِ التَّماسِّ والاتِّصالِ والمواجهةِ بقوَّة، بما يُعْطِي تصويرًا لهذا اللِّقاء، وقوَّةً في المفاجأة، وتهديدًا ووعيدًا من ذلك اليوم، ويُشيرُ إلى حتميَّةِ وقوعِ يومِ القيامة.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في: ﴿يُلَٰقُواْ﴾:

قوَّةٌ في المواجهة الحتميَّةِ ليوم القيامةِ، وسرعةٌ في وقوعِ ذلك اليوم

قرأ الجمهور ﴿يُلَٰقُواْ﴾ بضمِّ الياء وفتح اللّام وضَمِّ القاف وبألف بعد اللّام، على وزن (يُفاعوا)، على أنَّه مضارع (لاقى)، وهو على وزن (فاعَل) من الملاقاة، وصيغةُ المفاعلة مجازٌ في أنَّه لقاءٌ محقَّقٌ، وقرأه أبو جعفر ﴿يَلْقَوْاْ﴾ بفتح الياء وسكون اللّام وفتح القاف، على أنَّه مضارع المُجرَّد (لقى) الثّلاثي[1]، وفي الجمع بين القراءتين إثراءٌ للمعنى وتنوُّعٌ في الصَّوت؛ إذ إنَّ قراءة الجمهور تُفيدُ المواجهةَ الحتميَّةَ ليوم القيامة بشكلٍ أقوى، بينما قراءةُ أبي جعفر أتَتْ أخفَّ، ممّا قد يُعطي إيحاءً بالسُّهولة والسُّرعةِ في وقوعِ ذلك اليوم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَوۡمَهُمُ﴾:

يومُ القيامةِ هو يومُ الحسابِ والجزاء، ويومُ وعيدٍ وعذابٍ للكافرين

(اليوم) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾ يحتملُ أن يكونَ المرادُ به يومَ القيامة، فإنَّهم يومئذٍ يعلمونَ ما فعلوا وما يُفعلُ بهم، ويحتملُ أن يكون يومَ بدر، وكلاهما قد وُعِدوه[2]، أو يومَ موتِهم، فالغايةُ للخوض واللَّعب إنَّما هو يومُ الموتِ؛ لانقطاعهما بالموت، وقد وردَ أنَّ من ماتَ قامتْ قيامته، والأرجحُ بأنَّه يومُ القيامة، فهو اليومُ الموعود[3]، وهو اليومُ العظيم الذي وعدَ اللّهُ تعالى به الخلائقَ للحساب والجزاء، فهو يومُ وعيدٍ وعذابٍ للكافرين، وقد وردَ التَّهديد به في القرآن الكريم، فهو اليومُ المحتوم الَّذي لا مَفرَّ منه.

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267، ومحيسن، المغني في توجيه القراءات: 4/ 232.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 226.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 105.

سرُّ الإضافة في: ﴿يَوۡمَهُمُ﴾:

يـومُ القيامةِ بالنِّسبةِ للكافرين يومُ تهديدٍ وعذابٍ

خصَّ البيانُ الإلهيُّ الكافرين بيوم القيامة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾، ونسبَه إليهم، مع أنَّ يومَ القيامة لجميعِ النّاس مؤمنِهم وكافرهم؛ وذلك لمَجيء اليوم هنا للتَّهديد والوعيد، بأنَّ الكافرين سيواجهون عاقبةَ أعمالِهم الباطلة في ذلك اليوم لا محالة.

الغرضُ من التَّعبير بالاسْم الموصول صفةً:

في الإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ لفتُ انتباهٍ ومزيدُ بلاغةٍ في التَّهديد

أتى النَّظمُ الحكيم بصفة اليوم ﴿ٱلَّذِى﴾ اسمًا موصولًا، فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾، ولم يقل: (يومهم الموعود)؛ وذلك لإفادةِ الإبهام ثمَّ التَّفصيل، ففي الاسم الموصول إبهامٌ، فصَّلَه صلةُ الموصول ﴿يُوعَدُونَ﴾، ممّا يُعطي لفتًا للانتباه، وتشويقًا لمعرفة ما بعدَ الإبهام، وذلك أبلغُ في التَّهديد، فاسمُ الموصولِ يحملُ وعيدًا للكافرين بما سيكونُ فيه؛ بالإضافة إلى أنَّ التَّعبيرَ بصِلة الموصول فعلًا مضارعًا يُعطي تصويرًا للوعيد الَّذي سيكون في هذا اليوم، فيجعله أكثرَ واقعيَّةً في أذهانِ السّامعين.

دلالةُ التَّعبير بالوعد في: ﴿يُوعَدُونَ﴾ على الوعيد:

وعيدُ الكافرين من شرِّ ذلك اليوم ليَحْذَروه، ويتجنَّبوه قبلَ فَواتِ الأوان

فعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ مشتقٌّ من مادة (وعد)، ويدلُّ في أصله على ترجيَةٍ بقول، ويُستعمل في الخير والشَّرِّ، والوعيدُ لا يكون إلّا بشَرٍّ[1]، وقد دلَّ هنا على الوعيد بقرينة السّياق الَّذي يحمِلُ التَّهديدَ والتَّحذير للكافرين، فحذَّرهم اللّٰهُ تعالى من هذا اليوم، ولم يتركْهم هَمَلًا، بل بيَّن لهم الحقَّ والباطل، وفي هذا إقامةٌ للحُجَّة على الكافرين، فلم يأخذهم على غِرَّة، بل أوعدَهم، وحَذَّرهم من هذا المصير.

الغرضُ من بناء الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (وعد).

﴿يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، أي: عبَّر بصيغةِ المبني للمفعول؛ للتَّركيزِ على المفعول وخطورته وأهمّيَّته، وهو يومُ يوعَدون، أي: يومُ القيامةِ، ممّا يُعطِي إحساسًا بالتَّهديد والوعيد، وأيضًا إخفاءُ الفاعلِ يُعطي إحساسًا بالرَّهبةِ والخوفِ من الفاعل سبحانه؛ إذ لا يحتاجُ إلى التَّصريح باسمه.

التَّركيزُ على يومِ القيامة أبلغُ في التَّهديد والوعيد والانتباهِ لخُطورته

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العرشُ والكرسيُّ:

العرشُ أعظمُ من الكُرسيِّ، فالكُرسيُّ مقارنةً بالعَرْش أصغرُ بكثير، وقد رويَ أنَّ السَّماواتِ والأرض في جوفِ الكُرسيِّ كحلْقَةٍ مُلقاةٍ في فلاة، والكُرسيُّ في جنبِ العَرْش كحلْقَةٍ في فَلاة، فالعَرْشُ هو أعلى المخلوقات، وأعظمُ العالم أو أكبره بالاتِّفاق[1]، فالعَرْش: اسمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بِجميعِ السَّماواتِ، وسُمّي عَرْشًا؛ لأنَّه دالٌّ على عَظَمَةِ اللّه تعالى، كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبَهُ من المُلوكِ[2]، وأصْلُ (عرش) يَدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ[3]، بينما أصلُ (كَرَسَ) يَدُلُّ على تَلَبُّدِ شَيءٍ فَوقَ شَيءٍ وتَجَمُّعِهِ[4]، وقد ذُكِرَ العَرشُ في القرآن الكريم أكثرَ من الكُرسيِّ بكثيرٍ، ممّا يدلُّ على عظَمته وأهمِّيَّته، وخُصَّ العَرْشُ هنا بالذِّكْر؛ لأنَّه أعظمُ المخلوقات، وللتَّناسبِ مع السّياق الَّذي هو سياقُ تنزيهٍ للّه تعالى عن كلِّ شريكٍ وولدٍ.

العَرْشُ أعلى المخلوقات وأعظمُ العالِم وأكبرُ من الكُرسيّ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/ 190، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 387، والكرميّ، إتحاف ذوي الألباب، ص: 77.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 249.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرس).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزّخرف: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قبلَها:

بعد تنزيه اللهِ عن الولدِ، بيَّن أنَّ نسبةَ الوجودِ كلِّه إليه على حدٍّ سواء

لَمّا نَزَّه اللّهُ تعالى ذاتَه عن الولد، ودلَّ على ذلك بأنَّه مالِكُ كلِّ شيءٍ ومَلِكُهُ، وكان ذلك غيرَ ملازمٍ للألوهيَّة؛ أتبعَ ذلك بما يدلُّ على أنَّه مع ذلك هو الإلهُ لا غيرُه في الكونين، بدليلٍ بدهيٍّ يشتركُ في علمه النّاسُ كلُّهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِلَٰهٌ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ جَذْرُه اللُّغويُّ من (أله)، وأصله (إلاه) على وزن (فِعال)، بمعنى مَفعول؛ لأنَّه مألوه، كقولنا: إمام (فِعال) بمعنى مفعول؛ لأنَّه مُؤتَمٌّ به، فلمّا أُدخلَتْ عليه الألف واللّام؛ حُذفتِ الهمزةُ تخفيفًا؛ لكثرته في الكلام، والإلهُ: المَعبودُ، وهوَ اللّه ﷻ، ثُمَّ استَعارَهُ المُشرِكونَ لِما عَبَدوهُ مِن دونِ اللّه تعالى، والجَمعُ آلِهَةٌ[1]، ومعنى ﴿إِلَٰهٌ﴾ في الآية: هو المعبودُ بحقٍّ، وهو اللّهُ ﷻ، لا شيءَ سواه تصلُحُ عبادتُه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرُ الأُلوهيَّة الواحدةِ في السَّماءِ وفي الأرض

يقولُ تعالى مُؤكِّدًا على أنَّه الإلهُ الحقُّ: واللّهُ وحدَه - الَّذي له الأُلوهيَّةُ - هو المعبودُ في السَّماءِ، وهو المعبودُ وحْدَه في الأرضِ، لا شيءَ سواه تصلحُ عبادتُه، وهو الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللّائِقِ به، العَليمُ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ[3].

(1) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح، والفيوميّ، المصباح المنير: (أله).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 652.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾:

نَفيُ الشَّريكِ في الإلَهيَّةِ والبُنوَّةِ لِمَنْ أحاطَ بعَوالِمِ التَّدبيرِ والخَلْقِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ عاطفة، والمعطوفُ عليه جُملَةُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، والجُملَتانِ اللَّتانِ بينَهما اعتراضانِ، وقد قُصِد من العَطفِ إفادَةُ نَفيِ الشَّريكِ في الإلَهيَّةِ مُطلقًا، بعدَ نَفيِ الشَّريكِ فيها بالبُنُوَّةِ؛ ولذا ذُكِرتِ السَّماءُ والأرضُ لبيانِ الإحاطَةِ بعَوالمِ التَّدبيرِ والخَلْقِ؛ لأنَّ المُشركين جَعَلوا للّه شُرَكاءَ في الأرضِ، وهم أصنامُهم المَنصوبةُ، وجَعَلوا له شُرَكاءَ في السَّماءِ، وهم المَلائِكةُ؛ إذ جَعَلوهم بَناتٍ للّه تعالى، فكان قَولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ إبطالًا للفريقَينِ ممّا زُعِمَت إلَهيَّتُهم[1].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور على الخبر:

اختِصاصُ اللهِ بالأُلوهيَّةِ في السَّماء والأرض

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ على الخبر (إلَهٌ) في الجُملتَين الوارِدَتَين في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ دلالةٌ على اختِصاصِه تعالى باستِحقاقِ الأُلوهيَّةِ، فإنَّ التَّقديمَ يدُلُّ على الاختِصاصِ[2].

سرُّ تعلُّق الجارِّ والمجرور في كلٍّ من: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، و﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾:

اللهُ معبودٌ في السَّماء ومعبودٌ في الأرض

شبه الجملة، الجارُّ والمجرور ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلِّقٌ بلفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾، وشبه الجملة الجارُّ والمجرور ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بلفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾؛ لأنَّه في المَوضعَين بمعنى معبود، أي: هو معبودٌ في السَّماءِ ومعبودٌ في الأرض، وبهذا اندفعَ ما قيل من أنَّ هذا يقتضي تعدُّدَ الآلهة؛ لأنَّ النَّكرةَ إذا أُعيدتْ نَكرةً تعدَّدت، والمعنى: أنَّ الإلهَ - وهو اللّه تعالى - معبودٌ في السَّماء والأرض، والمغايرةُ إنَّما هي بين معبودِيَّتِه في السَّماء، ومعبودِيَّته في الأرض؛ لأنَّ المعبودِيَّةَ من الأُمورِ الإضافيَّة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267.
(2) الجَمَل، حاشية على الجلالين: 4/ 98، وطنطاويُّ، التّفسير الوسيط: 13/ 106.

فيَكْفِي التَّغايرُ فيها من أحدِ الطَّرفين، فإذا كان العابدُ في السَّماء غيرَ العابدِ في الأرض؛ صدقَ أنَّ معبودِيَّتَه في السَّماءِ غيرُ معبوديَّتِه في الأرضِ، مع أنَّ المعبودَ واحد[1].

دلالةُ التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، و﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

في الظَّرفيَّة دلالةٌ على الإلهيَّةِ لا على المَكانيَّة

عبَّر القرآنُ الكريم بالظَّرفيَّة المَجازيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾؛ للدَّلالة على الإخبارِ بإلاهيَّتِه في الأرض والسَّماء، لا على الكونِ والاستقرار فيهما[2].

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أكثرُ ما يُعبَدُ من الآلهة هي الآلهةُ السَّماويَّة

قدَّمَ البيانُ الحكيم ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ مراعاةً للسّياق الَّذي يتحدَّث عن نفي الآلهةِ، وتخصيصِ الأُلوهيَّة للّٰهِ تعالى وحدَه، وأكثرُ ما يُعبدُ من الآلهة هي الآلهةُ السَّماويَّة من النُّجوم والكواكبِ والقمرِ وغيرها، ولأنَّ الأرضَ تَبَعٌ للسَّماءِ في غالبِ الأمور[3].

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب القَصْرِ بتعريف الطَّرفَين:

نفيٌ للآلهةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، وتخصيصٌ لاستحقاقِ الإلهيَّةِ باللهِ سبحانه

كان مُقتَضَى الظّاهِرِ بهَذه الجُملَةِ أن يكونَ أوَّلُها: (الَّذي في السَّماءِ إلَهٌ)، على أنَّه وصفٌ للرَّحمنِ من قَولِه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ﴾، فعُدِلَ عن مُقتَضَى الظّاهِرِ بإيرادِ الجُملَةِ مَعطوفَةً، وبإيرادِ مُبتَدَأٍ فيها، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ﴾؛ لإفادَةِ قَصْرِ صِفَةِ الإلَهيَّةِ في السَّماءِ وفي الأرض على اللّٰهِ تعالى، لا يُشارِكُه في ذلك غَيرُه، أي: نفيُ الآلهةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّة[4]؛ لأنَّ إيرادَ المُسنَدِ إليه مَعرِفَةً والمُسنَدِ مَعرِفَةً طَريقٌ من طُرُقِ القَصْرِ، فالمعنى: وهو - لا غَيرُه - الَّذي في السَّماءِ إلَهٌ وفي الأرضِ إلَه[5].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 106.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 491.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 267.

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، ومجيء صلتِه جملةً اسميَّة:

تشويقٌ لوحدانيَّة الله سبحانه، وتوكيدٌ لها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول دونَ الاسم الظّاهرِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾؛ تشويقًا بما يتضمَّنُه الاسمُ الموصول من الإبهام، الَّذي يُشَوِّق السّامعَ للوقوفِ على صلته، وقد جاءت صِلَةُ ﴿ٱلَّذِى﴾ جُملَةً اسميَّةً حُذِفَ صَدرُها، وصَدرُها ضَميرٌ يَعودُ إلى مُعادِ ضَميرِ ﴿وَهُوَ﴾، وحَذفُ صَدرِ الصِّلَةِ استِعمالٌ حَسَنٌ؛ إذا طالَتِ الصِّلَةُ كما هنا، والتَّقديرُ: الَّذي هو في السَّماءِ إلَهٌ[1]، وفي مجيئها جملةً اسميَّة توكيدٌ لمضمونها، وهو وحدانيَّةُ اللّهِ سبحانه؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام.

نُكْتَةُ تكرارِ لفظ (إلَهٌ) مُنَكَّرًا:

طريقُ عبادةِ أهلِ السَّماء للهِ مغايرٌ لطريقِ عبادةِ أهلِ الأرض له

كَرَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفْظَ (إلَهٌ) للتَّأكيد، وقد جاء مُنَكَّرًا؛ لأنَّ الإِلَهَ هنا بمَعنَى المَعبودِ، وهو تعالى مَعبودٌ فيهما، والمُغايَرَةُ إنَّما هي بَيْنَ مَعبودِيَّتِه في السَّماءِ ومَعبودِيَّتِه في الأرضِ؛ لأنَّ المَعبودَ به مِن الأُمورِ الإضافِيَّة، فيَكفِي التَّغايُر فيها مِن أحدِ الطَّرَفَين، فإذا كان العابِدُ في السَّماءِ غيرَ العابِدِ في الأرضِ؛ صَدَقَ أنَّ مَعبودِيَّتَه في السَّماءِ غَيرُ مَعبودِيَّتِه في الأرضِ، مع أنَّ المَعبودَ واحِدٌ[2].

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

اجتماعُ تفرُّدِه سبحانه بصفة الأُلوهيَّةِ مع اتِّصافه بالحكمةِ والعلمِ المُطلَق

يدلُّ العطفُ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ على اجتماعِ التَّفرُّدِ بصفةِ الأُلوهيَّة للّه، لا يشاركُه فيها مشاركٌ، مع اتِّصافه بالحكمةِ فيما يفعلُ سبحانه، وبالعِلم المُطلق بهذا المُلكِ العريض، ويدلُّ على أنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كالدَّليلِ على ما قبلَهُ[3].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 267، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 97، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 391.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 97، والأنصاريّ، فتح الرحمن، ص: 515، والجَمَل، حاشية على الجلالين: 4/ 97.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57.

بلاغةُ التَّذييلِ في: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

من لا يتَّصفُ بكمالِ الحكمةِ والعِلم لا يستحقُّ الإلَهيَّة

جاءَ التَّذييل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾؛ تأكيدًا للدَّليلِ الَّذي في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾، فسبحانَه إنَّه هو الإلهُ الحقُّ، وما عداه باطلٌ، فهو المعبودُ بحقٍّ في السَّماوات، والمعبودُ بحقٍّ في الأرض، وهو الحكيمُ في تدبيرِ خَلْقه، العليمُ بمصالحهم، وفي ذلك تكذيبٌ للمشركين فيما زعموه من نسبةِ الولد والشَّريك للّه، فمَن لا يتَّصفُ بكمالِ الحكمةِ والعِلْم لا يستحقُّ الإلَهيَّة[1]، أو جاء التَّذييل تَدقيقًا للدَّليلِ، أي: بعدَ أن وُصِفَ اللّهُ بالتَّفرُّدِ بالإلَهيَّةِ؛ أُتْبِعَ بوَصفه بالحَكيمِ العَليم[2]؛ إذ دلَّ على نَفيِ إلَهيَّةِ غيرِه في السَّماءِ والأرض، واختِصاصِه بالإلَهيَّةِ فيهما؛ لِما في صِيغَةِ القَصْرِ من إثباتِ الوَصفِ له، ونَفْيه عمَّن سِواهُ، فكان قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تَتميمًا للدَّليلِ، واستِدلالًا عليه[3]، كما جاء هذا التَّذييل في نهايةِ السّورة - وهو وصفٌ للذّاتِ الإلَهيَّة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ - متناسبًا مع التَّذييلِ الأوَّل في فاتحتها، وهو وصفٌ للقرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزّخرف: 4]، بما يُشيرُ إلى أنَّ الحكيمَ سبحانه هو مَن أوحى بهذا الكتابِ المَملوءِ حِكمةً، والمُحْكَمِ في لُغَته وبيانِه وأحكامِه وتشريعاتِه، والمُحْكَم من الباطل، والمَحفوظِ من كلِّ تحريفٍ أو تبديل.

الغرضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

لا يصلحُ للألوهيَّة إلّا مَن كان بالغَ الحِكْمةِ والعِلْم

أكَّدَ البيانُ الكريمُ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ باسميَّة الجملة؛ للدَّلالة على ثُبوتِ التَّفرُّد بالإلهيَّة واستمرارِها،

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 106.

(2) التّدقيق في الاصطلاح هو ذكرُ الشَّيء بدليلِ دليله، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 268.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 97، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 268.

ولعلمه المُطلقِ بهذا المُلْكِ العَريض، كما أكَّده بمجيء الوصفين (حكيم، وعليم) على زِنةِ فعيل صفةً مُشبَّهة؛ لإفادةِ بلوغِ الكمال في الوَصْفَين، فالإلهُ لا يصلحُ للألوهيَّة إلّا إذا كانَ بالغَ الحِكمةِ والعِلم، إلى حدٍّ لا يدخلُ في عقلِ العقلاء[1].

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ على ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾:

الحِكمةُ هي العِلمُ الَّذي لأجلِهِ وجبَ الحُكْم

قُدِّمَتِ الحِكمةُ على العِلم في هذا السّياق؛ لمناسبةِ ذلك لمقام الأُلوهيَّة الَّذي تحدَّثَتْ عنه الآيةُ، فالإلهُ لا يَصلُحُ للأُلوهيَّة إلّا إذا كان يَضَعُ الأشياءَ في محلِّها، بحيثُ لا يتطرَّق إليه فسادٌ، ولا يَضرُّها إفسادٌ؛ وذلك لكونه المُشَرِّعَ الحاكمَ المُطلَق، صاحبَ الحِكمة في تصريفِ شؤونِ الخَلْقِ والمخلوقات، وتشريعِ الأحكام والحُكْم بينَ العِباد، فناسبَ هذا تقديمُ الحِكمةِ؛ لأنَّ العِلمَ الَّذي لأجله وجبَ الحُكْم من قوام من أمر المحكوم عليه في عاجلته وآجلته[2]، ثمَّ ثنّى بالعِلم؛ لأنَّ من صفاتِ الإله كذلك إحاطةَ عِلْمِه بكلِّ ما في الوجود.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 492.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 492.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾ [الزّخرف: 85]

أدِلَّــةٌ أُخــرى بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ لله سبحانه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا نَزَّه اللّٰهُ تعالى ذاتَه المُقدَّسةَ، وأثبَتَ لِنَفسِه استِحقاقَ الإلَهيَّةِ بالإجماعِ مِن خَلْقِه بما رَكَزَه في فِطَرِهم، وهَداهم إليه بعُقولِهم؛ أَتْبَعَ ذلك أدِلَّةً أُخرى بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ بما تَسَعُه العُقولُ، وبما لا تَسَعُه، مُصَرِّحًا بالمُلْكِ، فقال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَبَارَكَ﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثَباتِ الشَّيءِ، يُقالُ: بَرَكَ فُلانٌ على الأمْرِ، وبارَكَ؛ إذا واظَبَ عليه، والتَّبْريك: الدُّعاء بالبَرَكة، وتبارَكَ اللّٰه: تمجيدٌ وتجليلٌ[2]، ومدحٌ للّٰه، وتبارك على وزن (تفاعل) من البركة، ولَيسَ من النَّماء، وإنَّما هو راجع إلى الجلال والعَظَمَة، وتبارك لا يوصف بِهِ إلّا اللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ[3].

2) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: (سوع) أصلٌ يَدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّه، مِن ذلكَ السّاعَةُ سُمِّيَت بذلكَ[4]؛ لأنَّها تَفجأُ النّاسَ في ساعَةٍ، فَيَموت الخَلْقُ كلُّهم عِند الصَّيْحَة الأولى[5]، أو أُطلقت على القيامة باعتبارها الأمَد، أو غايةُ المُهلةِ الَّتي أُمهِلَها النّاسُ على الأرض[6]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 493.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (برك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوع).

والمُراد بالسّاعة في الآية: هي الَّتي تقوم فيها القيامة، ويُحشرُ فيها الخَلْق من قبورهم لموقفِ الحساب[1].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تمجيدُ الخالقِ وتوحيدُه بما يليقُ بربوبيَّته للسَّماوات والأرض والعرشِ العظيم

يقولُ تعالى ذِكْرُه: وتَبارَكَ اللّهُ الَّذي له سلطانُ السَّماواتِ السَّبع والأرضِ وما بيْنَهما، من الأشياء كلِّها، جارٍ على جميع ذلك حُكمُهُ، ماضٍ فيهم قضاؤُه، فكيف يكون له شريكٌ مَن كان في سُلطانه وحُكمه؟ وعِندَه عِلمُ مَجيءِ السّاعةِ الَّتي تقومُ فيها القيامة، ويُحشَرُ فيها الخلقُ من قُبورهم لموقفِ الحساب، وإليه أيُّها النّاسُ تُرَدّونَ من بعد مماتِكم، فتَصيرون إليه، فيُجازي المُحسنَ بإحسانه، والمُسيءَ بإساءته[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَتَبَارَكَ﴾:

إتباعُ إنشاءِ التَّنزيهِ لله بإنشاءِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ

قَولُه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عطْفٌ على ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقد قُصِدَ منه إتباعُ إنشاءِ التَّنزيهِ بإنشاءِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ.

سرُّ إيثارِ لفظ (تَبارَكَ) مادَّةً وصيغةً:

مبالغةٌ في ثباتِ خيرِ الله وزيادةِ إنعامه فلا زوالَ له

(تَبارَكَ) خَبَرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ المَدحِ؛ لأنَّ مَعنَى (تَبارَكَ): كان مُتَّصِفًا بالبَرَكَةِ اتِّصافًا قَويًّا؛ لما تدُلُّ عليه صِيغَةُ (تَفاعَلَ) من قوَّةِ حُصولِ المُشتَقِّ منه، وقد استُعْمِلَت في مُجرَّدِ تَكرُّرِ الفِعلِ، وذلك مِثلُ: تَسامَى وتَعالَى[3]، والمعنى في الآية: تعالى اللّهُ، وتقدَّسَ، وزادَ خيرُه، وكَثُرَ إنعامُه، فلا زوالَ مع التَّيمُّنِ والبَركةِ وكلِّ كمال، فهو سبحانه الَّذي له ملكُ السَّماواتِ والأرض، وله مُلكُ ما بينَهما من

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 653.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 653.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 268.

مخلوقاتٍ أُخرى لا يعلمُها أحدٌ سواه[1]، فلا شبيهَ له حتّى يُدَّعَى أنَّه ولدٌ له أو شريك، تعالى اللّهُ عن ذلك[2].

الغرضُ من التَّعبير بالاسْم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾:

اختصاصُ الله بالمُلكِ والعِلم المُطلق، إيذانٌ بعِلَّة استحقاقِه التَّبريك والتَّعظيم

عبَّرَ القرآنُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقل: (وتبارك مالك السّماوات)؛ للتَّركيزِ على الصِّلة الَّتي تُؤْذِنُ بعِلَّةِ استحقاقِ اللّه التَّبريكَ والتَّعظيمَ والتَّمجيد، واختصاصِه بذلك، وهي مُلْكُهُ للسَّماوات والأرض وما بينهما، واختصاصُهُ وحدَه بعِلمِ السّاعة، وبالرُّجوعِ إليه.

الغرضُ من تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مُلۡكُ﴾:

اختصاصُ الله وانفرادُه بِرُبوبيَّةِ أعظَمِ المَوجوداتِ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شِبهَ الجملةِ على المبتدأ في قوله: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لإفادةِ قَصْرِ مُلكيَّةِ اللّهِ وحَصْرِها للسَّماوات والأرض وما بينهما دونَ سواه، وتأكيدِ اختصاصِ اللّهِ وانفرادِه برُبوبيَّةِ أعظَمِ المَوجوداتِ، وفي هذا تأكيدٌ لانفراده بالرُّبوبيَّة في سياقِ الآيات بقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ﴾[3].

سرُّ تخصيص ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمُلك:

مُلكُ الله للسَّماوات والأرض وما بينهما مُلكٌ لِما اشتملتا عليه

خَصَّ قولُه تعالى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالمُلْكِ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لأنَّهما أعظمُ المخلوقاتِ الظّاهرة، ولأنَّ كلَّ مخلوقٍ لا يخلو من أن يكونَ في هاتَين الجهتَين، فكان في اختصاصه بمُلكِ السَّماواتِ والأرض وما بينهما إشارةٌ إلى ما اشتملا عليه.

دلالةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 106.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 493.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 269.

سَعةُ مُلْكِهِ سبحانه بما يُبيِّن تبارُكَهُ واختصاصَهُ بالإلَهيَّة

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والمعنى: له ملكُ السَّماواتِ والأرض، وله ملكُ ما بينهما من مخلوقاتٍ أُخرى لا يعلمُها أحدٌ سواه[1]، وغرضُ هذا العطفِ بيانُ سَعةِ مُلْكِه سبحانه، بما يُبيِّنُ تبارُكَهُ واختصاصَه بالإلَهيَّة.

معنى اللّام ودلالتُها في: ﴿لَهُۥ﴾:

للهِ وحدَه ملكُ السَّماوات والأرض وما بينهما

لامُ ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ هي لامُ المُلك والاستحقاق؛ لأنَّها واقعةٌ بين معنًى وذات، وفي استعمالها إشعارٌ بقَصْرِ مُلكِ السَّماوات والأرض وما بينهما على اللّهِ ﷻ، وخاصَّةً أنَّه جاء مع تقديم اسم الجلالة المُضمر، ومن ثَمَّ الدَّلالة على اختصاصه بالتَّدبير والتَّصرُّف على وجهِ الاستقلالِ بالإرادة والاختيار، يتصرَّفُ في سلطانه القاهر فيهما، وبما فيهما كيفما يشاءُ، من غيرِ أن يكون لغيره شائبةُ تَصرُّفٍ في شيء من ذلك بوجهٍ من الوجوه.

بلاغة العطف في: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾:

من تمامِ سَعةِ مُلكِ الله مُلكُه للآخرة إضافةً إلى الدُّنيا

لَمّا كان قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُفيدًا للتَّصرُّفِ في هذه العَوالم مُدَّةَ وُجودِها ووُجودِ ما بَيْنَها؛ عطفَ عليه بقَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ للّه مع مُلكِ العَوالِمِ الفانيَةِ مُلْكَ العَوالِمِ الباقيَة، وأنَّه المُتَصَرِّفُ في تِلكَ العَوالمِ بما فيها بالتَّنعيم والتَّعذيب[2]، كما أنَّ المَلِك لا يكون إلّا عالمًا بمُلكه[3]، وكذلك جمعَ بين شرحِ كمالِ قدرتِه وشرحِ كمالِ عِلْمه، والمقصودُ بهذا العطفِ التَّنبيهُ على أنَّ من كان كاملًا في الذّاتِ والعِلمِ والقُدرةِ على الحَدِّ الَّذي شرحناه، امتنعَ أن يكونَ ولَدُهُ في العَجزِ وعَدمِ الوقوف على أحوالِ العالم بالحَدِّ الَّذي وصفَهُ النَّصارى[4].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 106.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 269.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 494.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 648.

الغرضُ من تقديم (عنده) في الآية:

عند الله وحدَه العِلمُ التّامُّ بوقتِ قيامِ السّاعة

يدلُّ تقديمُ (عنده) على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ على حصرِ عِلْم السّاعة لديه دونَ سواه، أي: عندَه وحدَهُ لا أحدَ غيره، فليس عند غيرِه العِلمُ التّامُّ بوقتِ قيام السّاعة[1]، والتَّقدير: لا يعلمُ متى تجيءُ السّاعةُ إلّا هو سبحانَه علّامُ الغيوب[2].

سرُّ إيثارِ هذا الاسم من أسماء يوم القيامة ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

في الإخبار بسُرعةِ قيامِ السّاعة وقُربِها تخويفٌ وتحذيرٌ وتهديد

في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ سُمّيتِ القيامة بالسّاعة؛ لسُرعةِ قيامها وقُربِ وقتها[3]، وسُمِّيَتْ بذلكَ؛ لأنَّها تَفجأُ النّاس في ساعَةٍ[4]، وهذا الاسم مناسبٌ لسياق التَّهديد والوعيد؛ لما فيه من هذه الدَّلالة، وقد سبقت الجملة بما يُؤكِّد القدرةَ على وقوعِها في أيَّة لحظة بما هو في علمه، وهو اختصاصه وحدَه بمُلك ما في السَّماوات والأرض.

دلالةُ الإضمار في عودة الضَّمير على الله:

اختصاصُ الله بالمُلكِ والعِلم بقيامِ السّاعة معلومٌ لا خلافَ فيه

أضمرَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الجليل (اللّه) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، سائقًا بذلك لاختصاصه بالمُلك والعِلم بقيام الساعة مساقَ ما هو معلوم الكون، لا مجالَ للخِلافِ فيه؛ للأدلَّة القَطعيَّة المَركوزة في الفطرة الأولى، فضلًا عمّا يُؤدّي إليه الفكرُ من الذِّكرِ المُنبَّه عليه السَّمعُ، ولأنَّ مَن ثبت اختصاصُه بالمُلك؛ وجبَ قبولُ أخبارِه لذاته[5].

دلالةُ الختم بـ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

إحاطةُ الله بكونه الموجود توطئةٌ لرَجْعَةِ البشر إليه بعد الوجود

في عطفِ قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ المعطوفِ على قوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دلالةٌ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 494، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 106.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 770.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 106.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوع).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 494.

على أنَّ إحاطةَ المَلِكِ سبحانه بكونه الموجود، هو توطئةٌ لرجعةِ البشر إليه بعد الوجود، وإدماجٌ لإثباتِ البَعثِ[1]، وقد جاء التَّرتيبُ بديعًا، فالجملةُ الأولى اعتنت بالبيان عن طلاقة القُدْرة، فأتت الثّانيةُ الدّالَّةُ على قدرته على دمار ما يملك في الوقت الَّذي يشاء، والجملةُ الخاتمة نتيجةُ الثّانية في الرُّجوعِ إليه، والعَودة إليه، وفيه من التَّهديد والوعيد ما فيه، وهو ترتيبٌ موافقٌ للواقع، مشحونٌ بالاحتجاج.

الغرضُ من تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ (إليه) على ﴿تُرْجَعُونَ﴾:

المَرجعُ والمآبُ إلى اللهِ وحدَه لا إلى غيره

قدَّمَ القرآنُ الجارَّ والمجرورَ على الفعل في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ إمّا لإفادةِ القَصْر، أي: إليه وحدَه لا إلى غيره بعدَ قيام السّاعة تُرجعون[2]، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ، فيومَئِذٍ يخلصُ خروجُهم ورجوعُهم إليه، وانقيادهم له[3]، أو لقَصدِ التَّقوِّي؛ إذ لَيس المُخاطَبون بمُثبِتين رُجعى إلى غَيره؛ فإنَّهُم لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ أصلًا، وأمّا قَولُهُم للأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]؛ فمُرادُهم: أنَّهُم شُفعاءُ لهم في الدُّنيا، أو هو على سَبيلِ الجَدَلِ؛ ولذَلِكَ أُتبِعَ بقَولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾، ولمراعاةِ الفاصلة القُرآنيَّة للآيات، بما يحقِّقُ إحكامَ اللَّفظ، وإحكامَ المعنى.

تنوُّعُ القراءةِ في ﴿تُرْجَعُونَ﴾ و﴿يُرْجَعُونَ﴾ وثَراءُ المعنى:

بينَ التَّهديدِ الشَّديدِ بالمواجهة والتَّهديدِ والاستخفافِ بالغَيْبة

قرأ الجمهورُ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ بالفوقيَّة على الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطابِ للمُباشَرَةِ بالتَّهديدِ، بالبناء للمفعول، وقرأ منهم رَوْحٌ عن يعقوب بالبناء للفاعل: ﴿تَرْجِعُونَ﴾، وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائيُّ ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالتَّحتيَّة؛ تبعًا لأسلوب الضَّمائر الَّتي قبلَه[4]، وللإشارةِ إلى الاستخفافِ بهم، لكن رويس عن يعقوب قرأ بالياء وبناء الفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 269.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 494.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 193.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 270.

للفاعل: ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وقراءةُ الجمهورِ أشدُّ تهديدًا من قراءةِ الباقين بالغَيب، وأدلُّ على تناهي الغضبِ على مَن لا يُقبِلُ إليه بالمتاب، بعد رفعِ كلِّ ما يمكن أن يتسبَّبَ عنه ارتيابٌ[1].

فالحجّةُ لمن ضَمَّ: أنّه أراد: تُرَدّون، على اعتبارِ أنّ اللّه أرجعهم قَسْرًا فلا يستطيعون فَكاكًا، والحجَّة لمن فَتَحَ: أنَّه أراد: تَصيرون[2]، أي: سيصير رجوعكم إلينا، وستأتوننا بأنفسكم، كأنَّكم مضبوطون على ذلك، أي: سواءٌ أردتم الرُّجوعَ إلى اللّه أم لم تريدوه فإنَّكم إليه راجعون على كلِّ حال[3].

الغرضُ من بناء الفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

في يُسرِ الرُّجوع إلى الله تحقيقٌ لمُلكِهِ وقطعٌ للنِّزاعِ في وحدانيّته

آثرَ البيانُ القرآنيُّ صيغةَ المبنيِّ للمجهول في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ تركيزًا للانتباهِ على الحَدَثِ ذاته، وهو الرُّجوعُ إلى اللّهِ من بعد الممات، وإشارةٌ إلى سهولته، وأنَّه يَتمُّ بأيسرِ أمر؛ تحقيقًا لمُلكِ اللّه، وقطعًا للنِّزاعِ في وحدانيَّته[4]، واختصارًا؛ إذ لو ذُكِرَ الفاعلُ؛ لطالَ الكلام، ولأنَّ هذا الفعل - وهو ردُّهم بعد موتهم - لا يصلحُ إلّا للّهِ سبحانه، ولا يكونُ إلّا منه، فلا ينصرفُ الذِّهنُ فيه إلّا إليه سبحانه.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الرُّجوع والانقلاب:

منه البَدْءُ سبحانه وإليه المَرجِعُ ليقضيَ قضاءَه الأخير

الرُّجوعُ: هو العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، وتقديرُ البَدءِ مكانًا كان، أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجُزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله[5]، فالرُّجوعُ هو المصيرُ إلى الموضعِ الَّذي قد كان فيه قبل[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 494.
(2) ابن خالَوَيه، الحُجّة في القراءات السَّبْع، ص: 249، وابن الجزري، النشر: 2/ 341.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 669، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 343، والبنّا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعةَ عشرَ، ص: 439.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 494.
(5) الرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير: (رجع).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 249.

بينما الانقلابُ في أصله رَدُّ شَيءٍ مِن جِهَةٍ إلى جِهَةٍ[1]، أي: تغيُّر حالِه إلى عكسِ ما كانت، كقلبِ الثَّوب، والانقِلابُ: الانصراف[2]، فالانقِلابُ إلى الله ﷻ: المَصيرُ إليه، والتَّحوُّلُ[3]، وقد جاء التَّعبيرُ بالرُّجوع متناسبًا مع ذِكْرِ السّاعة؛ إذ الإحياءُ بعد الموتِ للجزاء، فالرُّجوعُ إلى الله: هو المصيرُ والانتقالُ إلى المكان الأصليِّ الَّذي كان فيه أوَّلًا، وقد شُبِّهَ الحضورُ للحساب برُجوعِ السّائر إلى منزله، باعتبار أنَّ اللهَ خلقَ الخَلْقَ، فكأنَّهم صدروا من حضرته، فإذا أحياهم بعد الموت فكأنَّه أرجعَهُم إليه، وهذا فيه إثباتٌ للحَشْرِ والجزاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قلب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (قلب).

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [الزّخرف: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من كمالِ التَّوحيدِ نفيُ الوَلدِ ونفيُ الشُّركاء

لَمّا أطنبَ اللّهُ تعالى في نفيِ الولدِ؛ أردفَهُ ببيانِ نفي الشُّركاء، فقال: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾[1]، ولَمّا أنبأهم أنَّ لله مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وأنَّ عِندَه عِلمَ السّاعَةِ؛ أعلَمَهم أنَّ ما يَعبدونَه من دونِ اللّهِ لا يَقدِرُ على أن يَشفَعَ لهم في الدُّنيا؛ إبطالًا لزَعمِهم أنَّهُم شُفَعاؤُهم عندَ اللّهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡلِكُ﴾: أصلُ (ملك) يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ، وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيءَ: قَوَّيتُه، والأصلُ هذا، ثُمَّ قِيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ المِلْكُ؛ لأنَّ يَدَهُ فيهِ قَوِيَّةٌ صَحيحَةٌ، فالمِلكُ: ما مُلِكَ من مالٍ[3]، ومَلَكَ الشَّيء يَملِكه مَلكًا: حازَه، وانفردَ بالتَّصرُّف فيه، فهو مالِكٌ، والمُلْكُ: يُذَكَّرُ، ويُؤَنَّثُ كالسُّلْطان، ومُلْكُ اللّه تعالى ومَلَكوته: سُلْطانُهُ وعظَمَتُهُ، والمُلْكُ ضربان: مُلْكٌ: هو التَّملُّكُ والتَّولّي، ومُلْكٌ: هو القوَّةُ على ذلك، تولَّى أو لم يتولَّ[4]، ومعنى ﴿وَلَا يَمۡلِكُ﴾ في الآية: لا يَقدِرُ على الشَّفاعة[5].

2) ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾: مصدرٌ للفعلِ شَفَعَ يشفعُ، وأصله (شفع) يدلُّ على مقارنةِ الشَّيئين، من ذلك: الشَّفْعُ خلافُ الوَتر، تقول: كان فَرْدًا،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 648.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 270.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ملك).

(4) الفيروزاباديّ، بَصائر ذَوي التَّمييز، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 648، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 243.

فَشَفَعْتُه، وشَفَعَ فلانٌ لفلانٍ؛ إذا جاء ثانيه مُلتمسًا مَطلبَه ومُعينًا له[1]، "والشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخَر ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يُستعملُ في انضمام مَن هو أعلى حُرمةً ومرتبةً، إلى مَن هو أدنى"[2]، ومعنى ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ في الآية: السَّعيُ والوساطةُ في حصولِ نفعٍ، أو دَفعِ ضُرٍّ، سواءٌ كانت الوساطةُ بطلبٍ من المنتفِعِ بها، أم كانت بمُجرَّدِ سعي المتوسِّطِ[3].

3) ﴿شَهِدَ﴾: (شهد) أصلٌ يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[4]، ثمَّ صُرِّفَتِ الكلمةُ في أداءِ ما تقرَّر عِلْمُه في النَّفس، وشَهِدَ الشّاهدُ عند الحاكم: بيَّنَ ما يعلمُ، وأظهرَه، والشَّهادةُ: إخبارُ الإنسانِ بما عَلِمه[5]، والشَّهادَةُ: خبَرٌ قاطِعٌ، تَقولُ منه: شَهِد الرَّجُلُ على كذا، وقولُهم: اشهَدْ بكَذا، أي: احلِفْ[6]، وشَهِدَ له بكذا شَهادةً، أي: أدَّى ما عِندَه من الشَّهادَةِ، فَهوَ شاهِدٌ[7]، وشَهِدَ الشّاهِدُ عِندَ الحاكِمِ، أي: بَيَّنَ ما يَعلَمُهُ، وأظهَرَه[8]، ومعنى ﴿شَهِدَ﴾ في الآية، أي: يعلمُ الحقَّ، ويعلمُ حقيقةَ ما شَهِدَ به[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا شفاعةَ لأحدٍ إلّا بإذنِ الله

يقولُ اللّهُ تعالى مُبيّنًا أنَّه لا شفاعةَ لأحدٍ إلّا بإذنه: لا يقدِرُ الَّذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دونِ اللّهِ على الشَّفاعةِ لأحدٍ إلّا مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للّهِ - كعيسى والملائكةِ - وهم يَشهَدونَ بذلك على عِلمٍ وبَصيرةٍ، فيَأذَنُ لهم اللّهُ تعالى بالشَّفاعةِ للمُؤمنينَ[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(2) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 486.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(6) الجَوهريُّ، الصّحاح: (الشَّهادة).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شهد).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 654.
(10) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 654، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 243.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ﴾:

من تمامِ مُلكِ اللهِ عدمُ التَّخلُّفِ عن الرُّجوعِ إليه، وعدمُ مدافعةِ قضائِه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، أي: من تمام مُلكِ اللّهِ في الآخرة أنَّه لا يَقْدِرُ أحدٌ منهم على التَّخلُّفِ عن الرُّجوعِ إليه، كما أنَّه لا يَقْدِرُ أحدٌ على مدافعةِ قضائِه وقَدَرِه[1]، ولا يملكُ أحدٌ من خَلْقِه من الأمر شيئًا، ولا يَقْدِرُ على الشَّفاعة أحدٌ إلّا بإذنه[2].

دلالةُ أسلوبِ النَّفي في: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ﴾:

مبالغةٌ في بيانِ عَجْزِ المعبودين من دونِ الله

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ نافيةٌ لكلِّ الأزمنة، فلا أحدَ يملكُ الشَّفاعةَ في كلِّ الأوقاتِ إلّا بإذن اللّه، والمعنى: ولا يملكُ الشَّفاعةَ بوجهٍ مِنَ الوجوه في وقتٍ من الأوقات مَن يجعلونهم في موضعِ الدُّعاء بعبادتهم لهم[3]، وفي هذا من المبالغةِ في بيانِ عجزِ المعبودين من دونِ اللّه ما فيه.

الغرضُ من التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾:

عـمـومُ نفي الـقُـدْرةِ على الـشَّـفاعـةِ من جميعِ المعبودين من دونِ الله

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ التَّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ دونَ الاسمِ الظّاهر، فلم يقل: (ولا يملك المدعوّون من دون اللّه)؛ للدَّلالة على عموم كلِّ من دُعي من دونِ اللّه سبحانه، أمثالِ الأصنامِ والأولياءِ والطّاغوتِ، وأمثالِ عيسى والعزيزِ والملائكةِ، بما يَدُلُّ على كمالِ قُدْرةِ اللّه، وشمولِ العجزِ لكلِّ المَعبودين من دونه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَدۡعُونَ﴾:

استمرارُ المشركين في عبادةِ غيرِ الله دليلٌ على إصرارِهم على الإشراكِ بالله

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ للإشارة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 495.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 770.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 495.

إلى استمرارِ المشركين في جَعْلِ المعبودين من دون اللّٰهِ في موضعِ الدُّعاء بعبادتهم لهم، بما يَدلُّ على إصرارِ المشركين على الإشراك باللّٰه، ويُؤكِّدُ على نفي القُدرةِ على الشَّفاعةِ من جميعِ المعبودين على مرِّ الأزمنة.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مِن دُونِهِ﴾:

بيانٌ لسُفولِ رُتبةِ من يجعله المشركون في موضعِ الدُّعاء

في التَّعبير بلفظ (دون) الذي يُفيدُ معنى الدّونيَّة والاحتقارِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ بيانٌ لسُفولِ رُتبةِ من يجعلونهم في موضعِ الدُّعاء بعبادتهم لهم، فلا يكونُ منهم شفيعٌ كما زعموا أنَّهم شفعاؤهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ في سياق الآية:

في الإيجازِ إشارةٌ إلى ضَعفِ المعبودين وذُلِّهم من دونِ الله

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظِ الشَّفاعة دونَ غيرِها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾؛ اختصارًا؛ لاتِّساع دلالتها؛ فالشَّفاعةُ أن يأتيَ أحدُهم لثانيه مُلتمسًا مطلبَه ومُعينًا له[2]، والشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخَر ناصرًا له وسائلًا عنه[3]، والمعنى: ولا يملكُ الَّذين يدعونَ من دونه جلبَ النَّفعِ لكم، ودفْعَ الضُّرِّ عنكم، وقد اختصره بلفظِ الشَّفاعة الَّتي تعني: السَّعي والوساطة في حُصولِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ[4]، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء: 56]، كما أنَّ في استعمالِ لفظِ الشَّفاعةِ إشارةً إلى ضَعفِ مَن يعبدونهم من دونِ اللّٰه وذلِّهم، فلا يملكون النُّصرةَ والرُّتبةَ العالية؛ لأنَّ من معاني الشَّفاعةِ الانضمامَ إلى آخَر ناصِرًا له، وأكثرُ ما تُستعمل في انضمامِ مَن هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى مَن هو أدنى[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 495.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شفع).
(3) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 155.
(5) الرّاغب، المفردات: (شفع).

سرُّ إضمارِ الاسم الجليل عِوضَ الإظهار:

مع الاختصارِ تنزيهٌ لاسم الله أن يُذكرَ مع المعبودين من دونه

أضمرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ﴾؛ اختصارًا لكونه مفهومًا من السّياق، وتنزيهًا عن ذِكرِ اسم اللّه مع المعبودين، وتناسبًا مع ما سبقَ من ذكرِ الاسم الجليل مُضمرًا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ﴾، وقولِه: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب القَصْر بطريق النَّفي والاستثناء:

لا سبيلَ لقَبول الشَّفاعة إلّا بالتَّوحيد الخالص للحقِّ سبحانه

عبَّر النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بأسلوب القصر؛ لبيان قدر التَّوحيد الخالص لربِّ العالَمين، وللكشف عن منزلة الموحِّدين عند ربِّ العالَمين، والمعنى: ولا يملكُ المعبودون من دون اللّهِ الشَّفاعةَ لأحدٍ من النّاس، إلّا من شهدَ بالحقِّ منهم، وأخلصَ العبادةَ للّه تعالى وحدَه، كعيسى بنِ مريم، وعُزَير، والملائكة، وهو يُؤَكِّد بمفهوم المخالفة أنَّه لا شفاعةَ للأصنام ولا لسواهم من المعبودين من دون اللّه، وفيه قطعٌ لأطماعهم؛ لذا جاء أسلوبُ القَصْر بأقوى الطُّرق، وهو المناسب لخطاب المنكِرين للتَّوحيد.

دلالة لفظ (الحقِّ) في: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

شهادةُ الملائكة والمسيحِ حقٌّ لا باطلٌ، وصدقٌ لا كذبٌ، وعدلٌ لا ظلمٌ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الحقِّ في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ دون غيره؛ لكونه أوسعَ دلالةً؛ إذ يشملُ الحقُّ كلَّ ما طابقَ، ووافقَ الواقعَ؛ إذا انكشفَ أتمَّ انكشاف[1]، ووافقَ تعاليمَ الإسلام، كالحقِّ الَّذي تشهدُ به الفطرةُ، وجاء به الرُّسلُ، وأنزلَه اللّهُ في الكتبِ السَّماويَّة، والمعنى: إلّا مَن شهدَ بوحدانيَّة اللّهِ وأُلوهيَّته ورُبوبيَّته وصفاتِه وأسمائِه، وشهدَ لرسلِه بالنُّبوَّة، وشهدَ بأنَّ القرآنَ حقٌّ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 495.

والبَعثَ والآخرةَ حقٌّ، والجنَّةَ والنّارَ حقٌّ[1]، وللإشارةِ إلى ثباتِ ما يشهدون به وصدقِه وعدلِه وتمكُّنِه؛ إذ هي من معاني الحقِّ[2].

معنى الواو ودلالتُها في: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

الشَّهادةُ بالحقِّ مع العِلمِ بها هي المعتدَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: والحالُ أنَّهم يعلمونَ عِلْمًا يقينًا، أنَّ المستحقَّ للعبادةِ هو اللهُ تعالى[3]، أو: وهم يعلمونَ حالَ مَن يستحقُّ الشَّفاعةَ[4]، وأفادَ قيدُ الحالِ الإشعارَ بأنَّ الشَّهادةَ بالحقِّ مع العِلمِ بها هي المعتدَّة، أمّا الشَّهادةُ بدون علم بالمشهود به؛ فإنَّها لا تكونُ كذلك[5]، وقد عُلِمَ بالآية أنَّ الملائكةَ لا يشفعون للَّذين خالفَ حالُهم حالَ مَن يشهدُ للهِ بالحقِّ[6]، ويُشعِرُ قيدُ الحالِ كذلك أنَّ إيمانَ المُقلِّد لا ينفعُ البتَّة، وأنَّ الشَّهادةَ باللِّسانِ فقط لا تُفيدُ البتَّة[7].

الغرضُ من التَّعبير بالجملة الاسميَّة، وتقديم المسندِ إليه:

علمُ مَن يملكُ الشَّفاعةَ باستحقاقِ الله للعبادةِ ثابتٌ راسخٌ مستمرٌّ

عبَّر البيانُ الحكيمُ بالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للإيذانِ باستمرارِ العِلمِ اليقينيِّ ممَّن يملكُ الشَّفاعة، كعيسى بن مريم، وعُزَير، والملائكةِ، بأنَّ المُستحِقَّ للعبادةِ هو اللهُ تعالى، وهو وحده يقبل الشَّفاعة، ويأذَن بها، وفيه تعظيمٌ للتَّوحيد، وممّا يُقوِّي المعنى، ويُؤكِّدُه: أنَّه قدَّم المُسندَ إليه (هم) على خبره الفعليِّ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، كأنَّه أسند العِلمَ إليهم مَرَّتين؛ دلالةً على يقينهم باللهِ سبحانه، وفي التَّعبير بالمضارع دلالةٌ على تجدُّدِ اليقين باللهِ عندهم.

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 770.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حقق).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 107.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 270.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 107.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 270.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 648.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٨٧﴾

[الزّخرف: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ختامٌ يتمِّمُ الإبطالَ لزعمهم بإلَهيَّةِ غيرِ الله سبحانه

بعدَ أن أمعَنَ البيانُ القرآنيُّ في إبطالِ أن يكونَ إلهٌ غيرَ اللّه، بما سِيقَ من التَّفصيلاتِ؛ جاء هنا بكَلِمةٍ جامِعةٍ لإبطالِ زَعمِهم إلهيَّةَ غيرِ اللّه، بِقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[1]، كما أنَّ السّورةَ لمّا بدأتْ بالحديثِ عن مشركي مكَّة؛ كان ختامُها الحديثَ عنهم، وهذه الآيةُ إعادةٌ لمعنًى سبقَ من قبلُ؛ وهو أنَّ هؤلاء المشركين يُقِرّون بأنَّ اللّهَ هو الَّذي خلقَهم، وخلقَ العالَمَ، وهذا إيمانٌ غيرُ مفيدٍ؛ لأنَّه إيمانٌ منقوصٌ، فقد آمنوا به مشركين لا موحِّدين، وهذا ما أشارَ اللّهُ إليه بقوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾ [يوسف: 106].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سَأَلۡتَهُم﴾: أصلُ (سأل) الاستِدعاءُ والطَّلَبُ، وسألهُ الشَّيءَ: طلبَ منه أن يعطيَهُ إيّاه، ومِن مَعانيهِ أيضًا: الاستِفهامُ، والاستِخبارُ، والاستِعلامُ، والاستِفسارُ[2]، والسُّؤالُ: استِدعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤَدِّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤَدِّي إلى المال، والسُّؤالُ للمعرفة قد يكونُ للاستِعلام، وقد يكونُ لِلتَّبكِيت، واستدعاءُ المعرفةِ جوابُه باللِّسان، وتنوبُ عنه اليدُ، أي: بالكتابةِ والإشارة[3]، والسُّؤالُ: طَلَبُ أحدٍ من آخَرَ بَذلَ شَيءٍ، أو إخبارًا بِخَبَرٍ[4]، والسُّؤال هنا سؤالُ تقريرٍ عمَّن خلقَهم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 270.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سأل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سأل).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 194.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 271.

2) ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾: (أفك) أصلٌ يدلُّ على قَلْبِ الشَّيءِ وصَرفِهِ عَن جِهَتِه، والإفْكُ: الكَذِبُ[1]، وأفكتَه عن الأمر: صرفتَه عنه بالكذب والباطل[2]، والإفكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجههِ الَّذي يَحِقُّ أن يكونَ عليه[3]، كالصَّرفِ عن الحَقِّ في الاعتقادِ إلى الباطل، ومن الصِّدقِ في المقالِ إلى الكَذِب، ومنَ الجميلِ في الفعل إلى القبيح[4]، ومعنى ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾: يُصْرَفون عن عبادةِ الَّذي خَلَقَهم، ويُحرمون إصابةَ الحقِّ في عبادته[5].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

كلمةٌ جامعةٌ لإبطالِ زَعمِ المشركين إلهيَّةَ غيرِ اللهِ

يُبيِّنُ اللّه سُبحانَه ما كان عليه المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولَئِن سألْتَ يا مُحمَّدُ هؤلاءِ المُشرِكينَ باللّه مِن قومِك: مَن الَّذي خلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللّهُ وحْدَه، فكيف يُصرَفونَ عن عِبادةِ اللّه الَّذي خَلَقَهم مع اعترافِهم بذلك، ويُحرَمونَ إصابةَ الحقِّ في عبادته؟[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾:

استئنافٌ أو عطفٌ يُقرِّرانِ إلهيَّةَ اللهِ في الدُّنيا والآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾ استئنافيَّةٌ، أي: بعد أن أبطلتِ الآياتُ أن يكونَ إلهٌ غيرَ اللّهِ؛ استأنفتْ بإظهارِ على المشركين من منطقِ فطرتهم، فإنَّهم لا يفزعون في وقتِ الشَّدائدِ إلّا إلى اللّه، ومن أقوالهم وإقرارهم بأنَّ اللّهَ هو خالقُهم وموجِدُهم بعد العَدَم، أو عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه مُقدَّرٌ، يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(2) الخليل، العين: (أفك).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(4) الرّاغب، المفردات: (إفك).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 655، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 655.

﴿يَعۡلَمُونَ﴾، والتَّقدير: (ولئن سألتهم مَن يُنجيهم في وقتِ كروبهم؛ ليقولُنَّ: اللّه، ليس لِمَن ندعوه من دونه هناك فعلٌ)، فعطفَ عليه قولَه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[1].

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب القَسَم ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾:

الإقـرارُ بالتَّفرُّد بالخَلْق يَلزمُه الإقـرارُ بالتَّفرُّد بالأُلوهيَّة

افتُتِحَت الآيةُ الكريمة بأسلوب القَسَم المُؤكَّد؛ إعلانًا عن مكابرتهم وعنادهم؛ إذ هم مُقِرّونَ بأنَّهم مخلوقون، وأنَّ خالقَهم هو اللّه، وهو مُلْزِمٌ لهم في الإقرار بالألوهيَّة، والإفراد بالعُبوديَّة.

المُرادُ بالمخاطَب والمسؤول في: ﴿سَأَلۡتَهُم﴾:

جـوابٌ واحـدٌ تـنـطـقُ بـه الـفـطـرةُ، فلا يختلفُ باختلافِ السّائلين

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ للنَّبيِّ ﷺ، ويَجوزُ أن يَكونَ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: لكلِّ مَن يصلحُ له الخطابُ، أي: إن سَألَهم مَن يتأتَّى منه أن يَسألَ، وهذا أعَمُّ[2]، والمسؤولُ هم المشركون من قوم النَّبيِّ ﷺ، والمعنى: ولئن سألتَ يا محمَّد المشركين: مَن خلقَهم؛ لأقَرّوا بأنَّ اللّهَ خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا، فكيف ينقلبونَ عن عبادته، وينصرفونَ حتّى أشركوا به غيرَه[3]، أو المُرادُ بالمسؤول: الملائكةُ وعيسى، والمعنى: ولئن سألتَ الملائكة وعيسى مَن خلقهم؟ لقالوا: اللّه، فأنّى يُؤفَكُ هؤلاءِ المشركون في ادِّعائهم إيّاهم آلهةً[4]، أو المُراد: العابدون والمعبودون جميعًا[5].

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب الشَّرط:

تـعـذُّرُ مكابرةِ المـشـركـين عن الاعـتـرافِ باللهِ خالقًا

عبَّر البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ بجملةٍ شرطيَّةٍ، علَّقتْ جوابَ الشَّرط المُقدَّرِ - وهو إقرارهم بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ لكلِّ المخلوقات، الَّذي دلَّ عليه جوابُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 497.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 655.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 123.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 108، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 650.

القَسَم ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ - على أمرٍ آخَرَ، وهو سؤالٌ عمَّن خلقهم، وخلقَ مَن يعبدونهم من دون اللّه؛ للإشارة بهذا الارتباطِ إلى مُكابرتهم عنِ الاعترافِ باللّه خالقًا، وذلك من فَرْطِ ظهورِه وجَلائه[1]، وبانطباعهِ في قلوبهم جِبِلَّةً[2].

الغرضُ من توكيد فعل القول باللّام وبنون التَّوكيد الثَّقيلة في: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

توكيدُ إقرارٍ يصدرُ من الكافرين كلِّهم

جملةُ: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جوابُ القَسَم[3]، وقد أُكِّدَ القَسَمُ باللّامِ وبنونِ التَّوكيد الثَّقيلة، الَّتي هي بمنزلةِ القَسَم، وبمنزلةِ تكرارِ الفعل، والَّتي تفيدُ مع التَّوكيدِ الشُّمولَ والعمومَ عندما يكونُ الكلامُ لغيرِ الواحد، أي: إنَّ هذا القولَ صدرَ من الكافرين كلِّهم، والمعنى: "لَيُقرّونَ جميعًا، ويعترفون بأنَّ خالقهم اللّهُ"[4]، وهذا التَّأكيدُ جعلَ الجوابَ عفويًّا حاسمًا، لا يحملُ أيَّ مجالٍ للتَّشكيكِ أو للاهتزاز؛ لأنَّه تعبيرٌ صحيحٌ عن معنى وجودهم الَّذي لا يحملُ أيَّ مضمونٍ مستقلٍّ، بل هو مفتقِرٌ إلى الارتباطِ باللّه في عمليَّةِ الخَلْق.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع في: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

تجدُّدُ إقرارِ الكافرين بألوهيَّةِ اللهِ وتجدُّدِ عجزهم عن المُكابرة

أفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ تجدُّدَ إقرارِ الكافرين بأُلوهيَّةِ اللّه؛ كلَّما سُئلوا عن خالقهم، وتجدَّدَ عجزُهم عن المكابرة، بما يدلُّ على شدَّةِ التَّناقضِ بين أقوالهم وأفعالهم.

الغرضُ من تقديم المُسنَد إليه على المُسند الفعليِّ المُقدَّر:

اعترافُ الكافرين بحصرِ الخَلق في الله أمرٌ مؤكَّدٌ لا مريةَ فيه

التَّقديرُ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾: "لَيقولُنَّ: اللّهُ خلقَنا"[5]، وهو تقديرٌ قُدِّمَ فيه المسندُ إليه، وهو الاسمُ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾، على المسندِ الفعليِّ المُقدَّر (خلقنا)، بما يفيدُ تقويةَ الحُكمِ وتوكيده؛

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 98.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 497.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 113.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 317.

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 655.

لتكرارِ الإسناد في الجملة، فقد وقعَ الفعلُ ﴿خَلَقَهُمْ﴾ خبرًا عن المسندِ إليه، وهو لفظُ ﴿ٱللَّهُۖ﴾، والفعلُ في الوقتِ نفسِه مسندٌ إلى الضَّميرِ المُستَترِ العائدِ على الاسم، وهو ﴿ٱللَّهُۖ﴾، فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكِر مرَّتين: مرَّةً حين أُسند الفعلُ إلى الاسم، ومرَّةً حين أُسندَ الفعلُ إلى ضميره العائدِ إلى الاسم، وفي هذا دلالةٌ على إقرارهم بحَصْرِ الخَلْقِ في اللّه دونَ سواه.

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾:

تفريعٌ على التَّقرير والإقرارِ بالتَّعجيبِ والإنكار

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ عاطفةٌ تفريعيّةٌ، فرَّعتْ على التَّقريرِ والإقرارِ بقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ الإنكارَ والتَّعجيبَ من انصرافِهم مِن عِبادَةِ اللّهِ إلى عِبادَةِ آلِهَةٍ أُخرَى بقولِه: فَأنَّى يُؤفَكونَ[1]، أي: إنَّ إقرارَهم بالرُّبوبيَّة للّهِ تسبَّبَ عنه إنكارٌ عليهم، وتعجُّبٌ من انصرافهم عن عبادته إلى غيره، بما يدلُّ على غايةِ جهلهم، وسفاهةِ عقولهم وسخافتِها[2]، "فإقرارُهم بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، يُلْزِمُهم به الإقرارُ بتوحيدِ الأُلوهيَّة، وهو من أكبرِ الأدلَّة على بُطلان الشِّرك"[3]، ويحتملُ أن تكونَ الفاءُ رابطةً لجوابِ شرطٍ مقدَّر، والتَّقدير: (فإذا كان الأمرُ هكذا؛ فأنّى تؤفكون)، أي: كَيْفَ يُصرفون، ويكذبون بعد علمهم بذلك؟ فالاستنكافُ عن ذلك لمُجرَّد التَّعصُّب[4].

الغرضُ من التَّعبيرِ بالاستفهام في: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾:

تعجُّبٌ من تناقضهم وإنكارٌ لاعترافهم بالخالقِ وعبادةِ غيره

أداةُ الاستفهام (أنّى) للتَّعجيبِ من أحوالهم المتناقضة، والتَّلويم والإنكارِ عليهم، دونَ مواجهةٍ بالخطاب، وهي اسمُ استِفهام عَن المَكانِ بمعنى: (أين)، فمحلُّه نصبٌ على الظَّرفيَّة؛ فتكون لإنكارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 498.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 770.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 17/ 363.

أن يكونَ للمستفهمِ عنه مكانٌ، أي: إلى أيِّ مكانٍ يُصرَفون[1]، أو بمعنى (كيف)، فتكون لإنكارِ حالِ المستفهَم عنه، والمعنى: ولكنَّها هنا توصِلُ بإنكارِ الحال أو المكان؛ لإنكارِ المستفهم عنه عن طريق الكنايةِ اللَّطيفة، والمعنى: فكيفَ ينقلبونَ عن عبادةِ اللّهِ إلى عبادةِ غيرِه، مع اعترافِهم بكونِ الكلِّ مخلوقًا له تعالى[2]؟

سرُّ بناءِ: ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

الكافرون لم يَصرِفْهم عن الحقِّ صارِفٌ

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الكافرين لم يَصرِفهم صارِفٌ، ولَكِن صَرَفوا أنفُسَهم عن عِبادَةِ خالِقِهم بما يدلُّ على سفاهةِ عقولهم، فبعد أن أثبتوا للّهِ الخَلقَ والأمرَ يُؤفكون، كقَولِ العَرَب: أين يُذهَبُ بك؟ أي: أين تَذهَبُ بنَفسِكَ؛ إذ لا يُريدون أنَّ ذاهِبًا ذَهَب به يَسألونه عنه، ولَكِنَّ المُرادَ أنَّه لم يَذهَبْ به أحَدٌ، وإنَّما ذَهَب بنَفسِه[3].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الخَلْقُ والإنشاء:

إيجادُ الإنسانِ من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ لا يكونُ إلّا للّهِ تعالى

الخَلقُ: هو تقديرُ الأشياء، وإيجادُها على مثالٍ لم يُسبقْ إليه[4]، أي: إبداعُ الشَّيءِ من غير أصلٍ ولا احتذاء، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، وليس الخَلْقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى[5].

وأمّا الإنشاءُ؛ فهوَ الإحداثُ حالًا بعد حالٍ؛ إذ أصلُ الإنشاءِ يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ، ومِنه يُقال: نَشأ الغُلام، وهوَ ناشِئ؛ إذا نما، وزاد شَيئًا، والاسم النُّشوء، فالإنشاءُ: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلق).

والإنشاءُ: ابتداءُ الخَلْقِ، وكلُّ منِ ابتدأ خَلْقَ شيءٍ، واخترعَه؛ فقد أنشأه[1]، فالنُّشوءُ يشملُ الوجودَ ومرحلةَ النُّموِّ إلى قُربِ تمامِ القوَّة[2]، ولهذا استُعمِل لفظُ الخَلْقِ دونَ الإنشاء؛ لكون السّياق يتحدَّث عن تقريرهم بأُلوهيَّة اللّه وإلزامِهم بالحُجَّة على أنَّه خالقهم، وذلك بدليلِ إيجاده وإبداعه لهم من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وهذا لا يكون إلّا للّهِ تعالى.

الإفك والصَّرفُ:

الإفكُ صرفٌ إلى الباطلِ باستخدام الكذبِ وسيلةً لذلك

الإفكُ نوعٌ من الصَّرف، ولكن صَرْفٌ إلى الباطلِ باستخدام الكذب وسيلةً لذلك، فالإفكُ هو الكذبُ الفاحشُ القُبْحِ، مثلُ الكذبِ على اللّهِ ورسوله، ومثلُ قَذْفِ المُحصَنات، والإفكُ: كَذِبٌ متعمَّدٌ، ويُستعملُ في التَّلبيسِ والشَّرِّ وقَلْبِ الحقائق، فهو أسوأُ الكذب، وسُمِّي الكذبُ إفكًا؛ لكونه مصروفًا عن الحقِّ، ولأنَّ الكاذبَ يُخبِرُ بقضيَّةٍ تُخالِفُ الواقع، فيأتي بها على غير وجهها[3]؛ إذ أصلُ الإفكِ قلبُ الشَّيءِ وصَرْفُه عن جِهته[4]، وأفكتَه عن الأمر: صرفتَه عنه بالكذبِ والباطل[5]، والإفكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهه الَّذي يحقُّ أن يكونَ عليه[6]، كالصَّرفِ عن الحقِّ في الاعتقادِ إلى الباطل، ومِنَ الصِّدقِ في المقالِ إلى الكذب، ومن الجميل في الفعلِ إلى القبيح[7].

بينما الصَّرفُ: يُستعملُ لمُطلقِ التَّحويل والرَّدِّ، والَّذي يُحَدِّدُ معناه السّياقُ والحرفُ الَّذي يتعدّى به، فلا يَلزمُ أن يكون الصَّرفُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نشأ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 392، والشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 18/ 11541.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(5) الخليل، العين: (أفك).
(6) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 101.
(7) الرّاغب، المفردات: (إفك).

دائمًا هو الرَّدُّ إلى الكذبِ أو الباطل؛ إذ أصلُ الصَّرفِ رَجْعُ الشَّيءِ، وصَرَفَ الشَّيءَ عن وجهه: رَدَّهُ، فانصرف، وصَرَفَ الشَّيء: أعملَه في غيرِ وجهه، كأنَّه يصرفُهُ عن وجهٍ إلى وجه[1]، واستعمالُ لفظِ الإفكِ في الآية أنسبُ مع السّياق الَّذي يتحدَّثُ عن كفرِ الكافرين، وقلبهم لحقيقةِ الاعتقاد، وكَذِبهم على الله ورسولِه، وهو كَذِبٌ فاحِشٌ وقبيح.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صرف).

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [الزّخرف: 88 - 89]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

أغيَتْهُ الحيلَةُ في المشركين، فَفَوَّضَ أمْرَهُ إلى رَبِّهِ شاكيًا تكذيبَهم

بعد ما مضى من المحاجَّة، ومن حكايةِ إقرارهم بأنَّ الله الَّذي خلقهم بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾، ثمَّ إنَّهم لم يؤمنوا، ولم يتزحزحوا عن الكفر قِيدَ أُنملة؛ اشتدادًا منهم في التَّكذيب والعِنادِ الَّذي لا يزدادُ بمرورِ الزَّمان إلّا قوَّةً؛ حصلَ اليأسُ للرَّسول ﷺ من إيمانهم وأعيتْهُ الحِيلةُ، فَفَوَّضَ أَمْرَهُ إلى رَبِّهِ شاكيًا تكذيبهم بقوله: يا ربِّ بعثْتني إلى قومٍ لا يؤمنون، وذلك ليُجْرِيَ حُكمَه عليهم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقِيلِهِۦ﴾: القيل مصدرٌ كالقول، و(قول) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يَقِلُّ كَلِمُهُ، وهو القَولُ من النُّطقِ، والمِقْوَلُ: اللِّسانُ، ورَجُلٌ قُوَلَةٌ وقَوّالٌ: كثيرُ القَولِ(2)، والقَولُ: مصدرُ (قال)، ومعناهُ: الكلامُ على التَّرتيب، أو كُلُّ لفظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواءٌ كان مُفيدًا أو لم يكُن، قال يقولُ قَولًا، أي: تكلَّم كلامًا، والقَولُ يقعُ على الكلامِ التّامِّ، وعلى الكلمَةِ الواحدَةِ على سبيلِ الحقيقةِ، ويُستعمَلُ بمعنى جميعِ الأفعالِ، كقولهم: قال بيدِهِ هكذا، أي: أخَذَ، وقال برجْله، أي: مَشى(3)، ومعنى ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، أي: قوله، والأظْهَرُ أنَّهُ اسمٌ مُرادٌ بِهِ المَفعولُ، أي: المَقولُ(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 272.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنّووي، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/ 106، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 277.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 655، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.

2) ﴿فَٱصْفَحْ﴾: أصلُ (صفح) عَرْضُ الشَّيءِ وجانِبُهُ، ومِنهُ سُمّيَ العَفْوُ صَفْحًا[1]؛ لأنَّ الَّذي يَصفحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفْحَةِ عُنُقِهِ إعراضًا عن إساءَته، أو يَتَجاوَزُ الصَّفْحَةَ السَّيِّئَةَ، ويُقابِلُهُ بِالصَّفْحَةِ الجَميلَةِ، والصَّفْحُ: العَفْوُ والتَّجاوُزُ عن غيرِه، يُقالُ: صَفَحَ يَصْفَحُ صَفحًا؛ إذا عَفا، وتَجاوَزَ، ويأتي بِمعنى الإعراضِ عن الذَّنْبِ وتَرْكِ العُقوبَةِ، فيُقال: صَفَحْتُ عَنهُ، أي: أعرَضْتُ عن ذَنْبِهِ[2]، "والصَّفحُ: أصلُه أن تنحرفَ عنِ الشَّيء، فتوليَهُ صفحةَ وجهِكَ، أي: ناحيتَه"[3]، والمُرادُ من الصَّفح في الآيةِ: أن يُعْرِضَ النَّبيُّ ﷺ عنهم وعن دعوتِهم وأذاهم، ويتركَهم[4]، كالَّذي يولِّي صفحتَه، أي: عَرْضَه، وجانبَهُ للمُذْنِب.

3) ﴿سَلَٰمٌۚ﴾: أصلُ السَّلام: السَّلامَةُ، فاستُعمِلَ عِندَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتأمينِ المَرْءِ مُلاقِيَهُ، وأنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ، فَصارَ قَولًا عِندَ اللِّقاءِ لِلإكرام، والسَّلامَةُ: البراءةُ مِنَ العيوب، وأن يَسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، واللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلحَقُ المَخلوقِينَ مِنَ العَيبِ والنَّقصِ والفَناءِ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان: 63]، مَعْناهُ، أي: تَسَلُّمًا وبَراءَةً لا خَيْرَ بَيْنَنا وبَينكُم ولا شرَّ، وليس على السَّلامِ المُستَعمَلِ في التَّحيَّة[5]، ومعنى ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ في الآية: توديعُ المشركين بالسَّلامِ ومفارقتُهم، وليس المرادُ التَّحيَّةَ لهم[6]، أي: سَلَّمْنا في المُجادَلَةِ، وتَرَكْناها[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يحكي القرآنُ شكوى النَّبيِّ ﷺ، بعد أن أعيتْهُ الحيلةُ في قومه، ففوَّضَ أمرَه إليه، فيقولُ سبحانه: وقال محمَّدٌ ﷺ قيلَه شاكيًا إلى ربِّه ﷻ قومَه الَّذين كَذَّبوه، وما يلقى منهم: يا ربِّ إنَّ هؤلاء الَّذين أمرتَني بإنذارهم، وأرسلتني إليهم لدعائهم إليكَ، قومٌ لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جِئتُهم به، فيُجيبه اللهُ بقوله: فاصفَحْ يا محمَّد عن أولئك المُشركينَ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 656، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 243.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.

تعظيمُ اتِّجاه الرَّسولِ لربِّه شاكيًا المشركينَ، وتوجيهه بالإعراض عنهم

واتركهم، وأعرِضْ عن أذاهم ومُؤاخَذتِهم وعِتابِهم، وقُل لهم وعيدًا وتهديدًا: سَلامٌ عليكم، فَسوفَ يعلَمونَ ما يَلقونَ منَ البلاءِ والنَّكالِ والعذابِ على كفرهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾:

إيحاءٌ بمدى عُمقِ قِيلِ النَّبيِّ والعنايةِ به من الله

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ إمّا عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو السّاعةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، والمعنى: وعِندَه عِلمُ السّاعةِ وعِلمُ الرَّسولِ: يا رَبِّ، أو للقَسَم، ومَقولُ (قِيلِه) هو ﴿يَٰرَبِّ﴾ فقط، أي: أقْسَمَ بِنداءِ الرَّسولِ ربَّه نِداءَ مُضطَرٍّ، وجوابُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾[2]، وفي هذا العطفِ أو القَسَمِ بقِيلِهِ ﷺ إيحاءٌ بمَدى عُمْقِ هذا القول، ومدى الاستماعِ له، والعنايةِ به، والرِّعايةِ من اللّه سبحانه والاحتفاءِ به.

تنوُّعُ القراءات في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، وثراءُ المعنى:

إثراءٌ للمعنى وتأكيدٌ على قِيلِ النَّبيِّ ﷺ

اختلف القُرّاءُ في قراءة قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، فقَرَأَهُ الجمهور ﴿وَقِيلَهُۥ﴾ بفتْحِ اللّامِ وضَمِّ الهاءِ[3]، ووجهُهُ أنَّ النَّصب عطف على ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾، أي: أم يَحسَبونَ أنّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم، ولا نَسمَعُ قِيلَهُ: يا رَبِّ، أو عطفٌ على مَوضِعِ السّاعَةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: وعِندَه أن يَعلَمَ السّاعةَ وقِيلَهُ، أو نُصِبَ على اعتبارِ أنَّه مفعولٌ مطلق بَدَلٌ من فِعْلِه، أي: وقال الرَّسولُ قِيلَهُ، أو على المَفْعولِ بهِ لِقَولِه: ﴿لَا نَسۡمَعُ﴾، والتَّقديرُ: بَلى نسمعُ سرَّهم ونجواهم، ونَعْلَمُ قِيلَهُ، أي: تَضرُّعَه

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 656، و657.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.

(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.

إلينا، أو بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَليهِ قَوْلُهُ: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: ويَعْلَمُ قِيلَهُ[1].

وقَرَأ عاصمٌ وحمْزَةُ بكسرِ اللّامِ والهاءِ (قِيلِهِ)[2]، وجَرُّه إمّا عطفًا على السّاعةِ كما مرَّ، أي: وعنده علمُ السّاعةِ وعِلمُ قيلِ الرَّسولِ ﷺ، وهو على هذا وعْدٌ لِلرَّسولِ بالنَّصْرِ، وتَهْديدٌ لهم بالانتقام، أو للقَسَمِ به، وفي هذا من رفعِ شأنِه ﷺ وتفخيمِ دُعائِه والتجائِه إليهِ تعالى ما لا يَخْفى[3].

مَرجِعُ الضَّمير في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾، ودلالتُه:

اختصارٌ في الكلامِ، ولا مقصودَ غيرُ النَّبيِّ في الخطاب

مرجِعُ الضَّميرِ في (قِيلَه) هو الرَّسولِ ﷺ، بِقَرِينَةِ سِياقِ الاستدلالِ والحِجاجِ من قَولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾، وبقَرينَةِ قَولِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾، وبقَرينَةِ أنَّهُ قالَ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وبِقَرِينَةِ إجابَتِهِ بِقَولِه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾[4]، ولم يُصرِّح به اختصارًا في الكلام، ولأنَّه لا مقصودَ غيرُه في الخطاب؛ لكونِهِ المُبَلِّغَ عن ربِّه سبحانه، ولِطولِ ما دعا النَّبيُّ ﷺ قومَه إلى الإيمان، وهم مُعْرِضون عن الحَقِّ، ومُكذِّبون بالقرآنِ وبالرَّسول، قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: "شكا النَّبيُّ تخلُّفَ قومِه عن الإيمانِ إلى ربِّه بقوله: قِيْلِه يا ربِّ"[5].

سرُّ إضافَةِ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ ﷺ:

تشريفٌ للقِيلِ ومضمونِه، وإشعارٌ بأنَّه حالٌ مِن أحوالِ النَّبيِّ ﷺ

في إضافَةِ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ تشريفٌ للقِيْلِ ومضمونِه، وإشعارٌ بأنَّه تكرَّر منه، وعُرِفَ به عندَ رَبِّه، أي: عُرِفَ بهذا وبما في مَعْناهُ مِن نَحوِ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 272، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 108.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 57.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 25/ 149.

[الفرقان: 30][1]، وصارَ في مُلازَمَتِهِ وعَدَمِ انفكاكِهِ حالًا مِنَ الأحوالِ، الدّالِّ عَلى وجْهِ قِيلِهِ وانكِسارِ نَفسِهِ بِما دَلَّتْ عَليهِ كَسْرَةُ المَصدَرِ وياؤُهُ المُجانِسَةُ لَها[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغائب:

حِكايَةٌ من الله لشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ تُظهِرُ عِنايَةَ الله بِندائِهِ وشَكواه

ضَميرُ الغائِبِ في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ التِفاتٌ عن الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ فإنَّه بعدَ ما مَضى مِن المُحاجَّةِ ومِن حِكايَةِ إقرارِهِم بأنَّ اللّهَ الَّذي خَلَقهم، ثمَّ إنَّهُم لم يَتَزَحزَحوا عن الكُفرِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ حَصَلَ اليَأسُ للرَّسولِ مِن إيمانِهِم، فقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ التِجاءً إلى اللّهِ فيهم، وتَفويضًا إليه؛ لِيُجرِيَ حُكمَه عليهِم، فمُقتَضى الظّاهِرِ: وقَولُكَ: يا رَبِّ ... إلخ، ويُحَسِّنُ هذا الالتِفاتَ أنَّه حِكايَةٌ لشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ، فجَعَلَ الرَّسولَ بمَنزِلَةِ الغائِبِ؛ لإظهارِ أنَّ اللّهَ لا يُهمِلُ نِداءَهُ وشَكواهُ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ القِيْل في: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾:

تـوكـيـدُ وقـوعِ شكوى النَّبيِّ للهِ حتّى لكأنَّه صارَ أمْرًا ضَروريًّا لَهُ

اختيرَ لِلتَّعبيرِ عَن هذا المَعنى لفظ (القِيل)، وهو مَصدَرُ (قالَ)، يفيدُ توكيدَ وقوعِ نداءِ النَّبيِّ ﷺ وشكواه للّه تعالى، وهو لفظٌ مشتركٌ مع لَفظِ الماضي المَبنيِّ لِلمَجهولِ؛ إشارَةً إلى أنَّ شَكواهُ بذَلِكَ كأنَّها صارَت أمرًا ضَروريًّا لَهُ، لا اختيارَ لَهُ في قَولِه، فَكَأنَّهُ صارَ قَولًا مِن غَيرِ قائِلٍ أو مِن غَيرِ قَصدٍ؛ لأنَّهُ صارَ حالًا مِنَ الأحوالِ؛ لاشتدادِهِم في تَكذيبِهِم ومُباعَدَتِهِم وعِنادِهِم، لا يَزدادُ بمُرورِ الزَّمانِ إلّا قوَّةً؛ ممّا أوقَعَ في نَفْسِ الرَّسولِ ﷺ؛ أسَفًا ورِقَّةً وشَفَقَةً عَليهِم وعَطفًا، وصارَ يَشكو أمرَهُم إلى رَبِّهِ شَكوى المُضطَرِّ سِرًّا وعَلَنًا؛ إرادَةَ التَّيسيرِ في أمرِهِم والتَّهوينِ لِشَأنِهِم[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 271.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 499.

الغرضُ من التَّعبير بالنِّداء، واستعمالِ لفظِ الرُّبوبيَّة في: ﴿يَرَبِّ﴾:

نداءُ مُضطَرٍّ فَزِعَ إلى ربِّه؛ شفقةً على المشركين لشِدَّةِ إعراضهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ في مقولِ (قيلِه) ﷺ: ﴿وَقِيلِهِۦ يَرَبِّ﴾ أداةَ النِّداءِ المستعملة في البُعد على غيرِ العادَةِ في دُعاءِ المُقَرَّبين، فَإنَّها جارِيَةٌ في القُرآنِ بإسقاطِ أداةِ النِّداءِ؛ للإشارة إلى حالِ النَّبيِّ ﷺ من انكسارِ نفسه، والشَّفقةِ عليهم؛ لشِدَّة إعراضهم، وأنَّ نداءَه هو نداءُ مُضطَرٍّ فَزِعَ إلى ربِّه[1]، وفي استعمالِ لفظ الرُّبوبيَّة تأكيدٌ لهذا المعنى، فلفظُ الرَّبِّ دالٌّ على الإحسانِ والعَطفِ والشَّفَقَة والتَّدبيرِ والسِّيادَةِ والاختِصاصِ والوِلايَةِ[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالنِّداءِ بلفظِ الرَّبِّ يُشْعِرُ بالقُربِ، ويوحِي بالإجابةِ، ويُفيدُ كمالَ التَّضرُّعِ[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ ما نودِيَ لأجله:

حَذْفٌ يُشيرُ إلى ثقةِ النَّبيِّ ﷺ بعِلمِ ربِّه بما في ضميره ورحمتِه به

حُذِفَ بعدَ النِّداءِ في المُقسَم به، وهو: ﴿يَرَبِّ﴾ ما نودِي لأجله؛ إذ التَّقديرُ بما دلَّ عليه مَقامُ مَن أعيَتْه الحِيلَةُ فيهم، ففَوَّضَ أمْرَه إلى رَبِّه: (يا ربِّ بعثْتَني إلى قوم لا يؤمنون)، فأقسَمَ اللهُ بتلك الكَلِمَة على أنَّهم لا يُؤمِنون، ولَكِنَّ اللهَ سيَنتَقِمُ منهُم؛ فلذلك قال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[4]، وفي هذا الحذفِ اختصارٌ يُشيرُ إلى ثِقةِ الحبيب ﷺ بعِلم ربِّه بحاله، فهو الرَّحيمُ به، الشَّفوقُ عليه، المُحسنُ إليه، المُدبِّرُ لأُموره.

الغرضُ من التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجُملة:

في التَّوكيدِ دلالةٌ على زِيادةِ تحسُّرِ النَّبيِّ ﷺ على قومِهِ؛ لإعراضهم وغُلوِّهم في كفرهم

إمّا أن يكونَ التَّأكيدُ من النَّبيِّ ﷺ لتكذيب قَومِه بـ﴿إِنَّ﴾ وباسميَّة الجملةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لِما ظَهَرَ لَهُ مِن حالِهِم، وزيادَةً في التَّحَسُّرِ[5]، ودلالةً على إثباتِ رسالته؛ لأنَّه أخبرَ أنَّهم لا يُؤمنون، وقد كان على ما أخبرَ، بما يدلُّ على أنَّه ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.

بالله عَرَفَ ذلك، وعَلِمَهُ[1]، أو أن يكون التَّأكيدُ من الله ﷻ لجوابِ القَسَم بقيلِهِ ﷺ؛ تَعْظيمًا لِلرَّسولِ ولِقيلِه، وتخفيفًا عنه، ورحمةً به، وتطييبًا لخاطره، وتأكيدًا على غُلوِّ قومه في كفرهم، وإعراضِهم عن الحقِّ، وفي المَعْنَيَين إشارةٌ إلى أنَّ تَأخيرَ أمرِهِم يَدُلُّ على أنَّ عدمَ إيمانِهم مقطوعٌ فِيهِ[2]؛ لكونه استعملَ أداةَ النَّفيِ ﴿لَّا﴾ النّافيةِ لجميعِ الأزمنة.

الغرضُ من التَّعبير بالمسند إليه باسْم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

سـوءُ حـالِ المشركين سببُ استشعارِ النَّبيِّ بُعدهُ عنهم

أشارَ البيانُ القرآنيُّ إلى المُشركين من أهلِ مَكَّة بلفظ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، كما هي عادَةُ القُرآنِ غالِبًا، ولَم يُضِفْهم إلى نَفسِه، بِأن يَقولَ: قَومي، ونحو ذلك مِنَ العِبارات، ولا سَمّاهم باسمِ قَبيلَتِهم؛ لِما ساءَهُ من حالِهم، وأتى بالهاءِ المُنَبِّهَةِ قَبْلَ اسمٍ على غيرِ عادَةِ الأصلِ؛ إشارَةً إلى أنَّه استَشعَرَ مِن نَفسِهِ بُعدًا عنهم، واستِصغارًا لَهم واحتِقارًا[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمُسند مُنكَّرًا ﴿قَوۡمٌ﴾:

تَمَكُّنُ الكُفرِ من قومِ النَّبيِّ سببٌ في تفويضِ أمره إلى الله

وَصَفَ البيانُ الحكيمُ المشارَ إليهم - وهم مشركو مكَّة - بلفظ ﴿قَوۡمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ﴾، ولم يقل: (هَؤُلاءِ لا يُؤمِنون)؛ لكون التَّعبير بلفظ ﴿قَوۡمٌ﴾ أدَلَّ على تَمَكُّنِ عَدَمِ الإيمانِ مِنهُم[4]، وللإشارة إلى أنَّ كفرَهم كان كُفرًا جماعيًّا، لا كُفرًا فرديًّا[5]؛ لأنَّ القوم في أصله يدلُّ على جماعةِ ناسٍ[6]، وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا أقوياءَ في الباطل[7]، وفي هذا بيانٌ لسببِ ما أصابَ النَّبيَّ ﷺ من يأسٍ وأسَفٍ على حالهم، ألجأَهُ إلى الشَّكوى إلى الله، وتفويضِ أمرهم إليه.

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 500.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 13/ 108.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

استمرارُ عدمِ إيمانهم، وتجدُّدُ إعراضِهم ومُباعدتِهم عن الحقِّ

التَّعبيرُ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ عدمِ إيمانهم وتجدُّد إعراضهم ومُباعدتهم عن الحقِّ[1]، ولكونه أنسبَ مع لفظ القوم الَّذي يدلُّ على أنَّهم كانوا أقوياءَ في الباطِل.

استعمال الخبر بمعنى الإنشاء في: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تحسُّرُ النَّبيِّ على المشركين وشكايتُهم إلى الله ليُجرِيَ حُكْمَهُ عَلَيهم

ويمكن أن يكون قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرًا بمعنى الإنشاء، مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]، أي: استعملَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في الآية في التَّحسُّرِ أوِ الشِّكايَةِ؛ التجاءً إلى الله فيهم، وتَفويضًا إليَه، لِيُجرِيَ حُكمَهُ عَلَيهِم[2].

معنى الفاء ودلالتُها في: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾:

الفاءُ بين فصيحةٍ تُنبئُ عن محذوفٍ، وسببيَّةٍ تُنبئُ بما يَسرُّ النَّبيَّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾ فَصيحَةٌ؛ لأنَّها أفصَحَتْ عن مُقَدَّرٍ، أي: إذا قُلتَ ذلك القِيلَ، وفَوَّضْتَ الأمرَ إلينا؛ فسَأتَولَّى الانتِصافَ مِنهُم، فاصفَحْ عنهم، أي: أعرِض عنهم، ولا تَحزَن لهم[3] أو سببيَّةٌ، أي: تسبَّبَ على قولِ النَّبيِّ ﷺ الدّالِّ على غاية ما يكون من بُلوغِ الجهدِ ما يَسرُّه بإيمانهم وبلوغِهم الرُّتبَ العالية، الَّتي هي نتيجةُ ما كان مُترجّى لهم أوَّلَ السّورة في سياقِ ظاهرُه التَّهديدُ وباطنُه البشارةُ بالتَّشديد، وهذا على اعتبارِ الصَّفح بمعنى العفو[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالالتفات من الغائب إلى الخطاب في: ﴿فَٱصۡفَحۡ﴾:

المواجهةُ بالأمر إيذانٌ بالاهتمامِ بشأنِه ﷺ وشأنِ ما أُمِرَ به

التفتَ النَّظمُ الحكيم من الغَيْبَة في قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، إلى الخِطاب بقوله: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ تلوينًا في الخطاب، وتنبيهًا لأهمِّيَّة ما سيُؤْمَرُ به ﷺ، فالمواجهةُ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 272.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.

الخطابِ أبلغُ في مقامِ الأمرِ والنَّهي الَّذي يكون مباشرًا وقويًّا، ولكون الخطاب أنسبَ لغَرَضِ الآية، وهو الإرشادُ والتَّسليةُ لرسول اللّه ﷺ.

الغرضُ من التَّعبير بالأمر بالصَّفح عنهم في: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾:

في الأمرِ بالصَّفح عن المشركين تهديدٌ وتحذيرٌ لهم

اختلفَ المُفسِّرون في معنى الصَّفح في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾؛ فقد فُسِّر بمعنى الإعراضِ عن المشركين وتَركِ مجادلتِهم، أي: أعرِض عنهم واترك مجادلتَهم، فَسوفَ يَعلَمونَ سوءَ عاقبةِ كفرِهم وإصرارِهم على باطلهم[1]، فتكون الآيةُ في ظاهرها وباطنها التَّهديد، واختيارُ الصَّفح وفقَ هذا المعنى دونَ لفظِ التَّرك؛ لكونه أبلغَ في بيانِ شدَّةِ الإعراضِ، ففيه مع التَّركِ الإعراضُ بصفحةِ الوجه[2]، وفُسِّر بمعنى العفو، أي: اعفُ عمَّن أعرضَ منهم صفحًا، فلا تلتفتْ إليهم بغير التَّبليغ، وكِلهُم لي، فأنا أكفيكَهُم، فسوف يعلمون بوعدٍ لا خُلْفَ فيه، فتكون الآيةُ في ظاهرها تحملُ التَّهديدَ، وفي باطنها تحمل البشارةَ[3]، واختيارُ الصَّفح وفقَ هذا المعنى دونَ لفظِ العفو؛ لكونه أبلغَ، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصفَحُ، فالصَّفحُ: تركُ التَّثريب.

معنى الواوِ ودلالتُها في: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾:

من كمالِ التَّخفيفِ عن النَّبيِّ ﷺ الابتعادُ عن كلِّ ما يُنغِّصُ عليه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾، وسرُّ الجمع بين الصَّفح (وهو الإعراضُ عنهم) والسَّلام (وهو سلامُ مفارقةٍ لا سلامُ تحيَّةٍ)، هو كمالُ التَّخفيف عن النَّبيِّ ﷺ، والحِرصُ على ابتعاده ﷺ عن كلِّ ما يُنغِّص عليه.

الغَرض من التَّعبير بالخبر ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ وحذفِ المبتدأ، ومن التَّعبير بمقول القول جملةً اسميَّة:

أصلُ ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ مَصدرٌ جاء بَدَلًا من فِعلِه؛ فأصلُه النَّصبُ، سَلَّمْنا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 35/ 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.

سلامًا، أي: وقُل لَهُم؛ إن جادَلوكَ: سَلامٌ، أي: سَلَّمْنا في المُجادَلَةِ وتَرَكْناها، وهو سلامُ مفارقةٍ لا سلامُ تحيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان: 63]، وعُدِلَ إلى رَفعِه ﴿سَلَٰمٞۚ﴾؛ لقَصدِ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ على تركِ المُجادلة مع الكافرين[1]، أي: شأني الآن متاركتُكم بسلامتكم منّي وسلامتي منكم[2]؛ إذِ الجملةُ الاسميَّةُ تُفيدُ الثَّبات.

في الاسميَّة توجيهٌ للنَّبيِّ ﷺ على الثَّباتِ في تَرْكِهِ مجادلةَ الكافرين

معنى الفاءِ ودلالتُها في: ﴿فَسَوۡفَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تفريعيَّةٌ؛ فقد فرَّعَ البيانُ القرآنيُّ على أمرِ اللّه للنَّبيِّ ﷺ بالإعراضِ عن المشركين، وعدمِ الحُزن عليهم، وتركِ مجادلتِهم بتهديدٍ ووعيدٍ وتحذيرٍ للمشركين، وتَسليَةٍ لرَسولِه الكريم ﷺ، بأنَّ اللّهَ منتقمٌ منهم بقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[3].

تفريعٌ على أمرِ الله لنبيِّه ﷺ بالإعراضِ عن المشركين ومجادلتِهم بأنَّه المُنتَقِمُ منهم

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿فَسَوۡفَ﴾:

التَّعبيرُ بحرفِ الاستقبال في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ التَّهديد والوعيد للكافرين وتثبيتِه، وأنَّه واقعٌ لا محالة؛ إذ إنَّ أكثرَ استعمالات (سوف) في القرآن لتأكيدِ الوقوع في القابل، أضف إلى أنَّ في مجيئها مع المضارع إفادةَ تجدُّدِ ما سيعلمونه، ممّا أعدَّه اللّهُ لهم من عذابٍ ينتظرهم يومَ ينكشف المستور، وفي هذا مزيدُ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ.

تأكيدُ التَّهديد والوعيد للكافرين وتثبيتُه

الغَرضُ من حذف مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للتَّهويل؛ لتَذهَبَ نُفوسُهم في تهديدِ اللّه لهم ووعيدِه كلَّ مَذهَبٍ مُمكِن، وهذا على قراءة (تَعْلَمون)[4]، وأمّا على

مبالغةٌ في تهديدِ المشركين وتسليَةِ حبيبِ ربِّ العالَمين ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 501.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 274.
(4) وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، ينظر: ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.

قراءة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ فهي ليَذهبَ ذِهنُ النَّبيِّ ﷺ فيما وعدَهُ اللّٰهُ إيّاه في الانتقام من المشركين كلَّ مذهبٍ[1].

تنوُّعُ القراءةِ في: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ وثراءُ المعنى:

وعيدٌ من اللهِ ورسولِه ﷺ للمُشركينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم

في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ قراءتان متواترتان[2]، **الأولى:** قِراءةُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ بالتّاءِ على الخِطاب، قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جَعفرٍ، بمعنى: أنَّ اللّهَ تعالى أمَرَ نَبيَّه ﷺ أن يقولَ ذلك للمُشركينَ؛ تَهديدًا لهم، مع قَولِه لهم: سَلامٌ، **والثّانية:** قِراءةُ الباقين: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبةِ والخَبَر، على أنَّه وعيدٌ مِن اللّهِ تعالى للمُشركينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم، والمعنى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ يا محمَّد ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾، ثمَّ ابتدأ - تعالى ذِكۡرُه - الوعيدَ لهم، فقال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ما يلقونَ من البلاءِ والنَّكالِ والعذابِ على كفرهم[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصَّفحُ والعفْو:

توليةُ صَفحةِ وجهِهِ ﷺ إعراضًا عنهم، أشدُّ من مجرَّد تَركِ معاقبتِهم

الصَّفحُ أبلغُ من العفو، فقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصفَحُ، فالصَّفۡحُ: ترۡكُ التَّثريب؛ إذ أَصۡلُ (صفح): عَرۡضُ الشَّيءِ وجانِبُهُ، ومِنهُ: سُمّيَ العَفوُ صَفحًا؛ لأنَّ الَّذي يَصفحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفحَةِ عُنُقِه إعراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفۡحَةَ السَّيِّئَةَ، ويُقابِلُهُ بِالصَّفحَةِ الجَميلَةِ[4]، أي: تجاوزتُ الصَّفۡحَةَ الَّتي أثبتُّ فيها ذَنبَه من الكتاب إلى غيرها[5]، "والصَّفحُ: أصلُه أن تنحرفَ عنِ الشَّيء، فتوليَهُ صفحةَ وجهِكَ، أي: ناحيتَه"[6]، بينما العَفۡوُ: تَرۡكُ عُقوبَةِ المُستَحِقِّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 274.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 370.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 657، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 274.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(5) الرّاغب، المفردات: (صفح)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 421.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.

وعَفْوُ اللّه تعالى عن خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم فَضلًا مِنهُ، والعفوُ يدلُّ في أصله على تَركِ الشَّيءِ، وقيل: العَفْوُ: المَحوُ، مِن عَفَتِ الرِّياحُ الأَثَرَ، أي: دَرَسَتْه، ومَحَتْهُ[1]، وقد ناسبَ هنا استعمالُ لفظِ الصَّفح، كونه أبلغَ من العفو في الإعراض عن المشركين - وإن كان المرادُ بالصَّفح هنا المعنى اللُّغويَّ - فقد أمرَ النَّبيَّ ﷺ أن يُعرِضَ عنهم، كالَّذي يولِّي صفحةَ وجهِه لهم، وهذا أشدُّ من مُجرَّد تركِهم دونَ عقاب، وكذلك يتناسبُ الصَّفحُ مع لفظ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾.

السَّلام والتَّحيَّة:

السَّلامُ تحيَّةٌ إسلاميَّةٌ مخصوصةٌ تُستعمَل عند اللِّقاءِ وعند التَّوديع

السَّلامُ تحيَّةٌ مخصوصةٌ، وهو تحيَّةُ الإسلام، ومعنى السَّلام عليكم: أمَّنَكم منَ العذاب في الدُّنيا والآخرة[2]، وأصلُه في اللُّغة من السَّلامَة: وهي البراءةُ منَ العيوب، وأن يَسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، وقدِ استُعمِلَ عِندَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأمِينِ المَرءِ مُلاقِيَهُ، وأنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ، فَصارَ قَولًا عِندَ اللِّقاءِ لِلإكرام[3]، بينما التَّحيَّةُ تشملُ جميعَ أنواع التَّرحيب؛ إذ تُطْلَق على كُلِّ قولٍ أو فِعلٍ يُؤتَى بِهِ عند اللِّقاءِ بِقَصدِ التَّكريم، وأصلُ التَّحيَّة: الدُّعاءُ بِالحَياة، وقَولُ: حَيّاكَ اللّهُ، أي: أبقاكَ، وأدامَكَ، ثمَّ جُعلتِ التَّحيَّة عبارةً عن مُطلقِ الدُّعاءِ؛ وإن لم يكن هو لفظَ الحياة، وغلبتِ التَّحيَّة على سلامِ النّاس بعضِهم على بعض[4]، وقِيل أصْلُها: استِقْبالُ المُحَيّا، وهو الوَجْهُ[5]، وقدِ استَعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ دونَ تحيَّة؛ لأنَّ المقصودَ بالسَّلام هنا توديعُ النَّبيِّ ﷺ المشركين ومفارقتُهم، والبراءةُ منهم، أي: تسلُّمًا وبراءةً، لا خيرَ بيننا ولا شرَّ، وليس المقصودُ التَّرحيبَ بهم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، الزّبيديّ، تاج العروس: (عفو).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 527.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حيا، حيي).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (حيا).

سُورَةُ الدُّخَانِ

سُورَةُ الدُّخَانِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكي والمدني:

سورة الدّخان كلّها مكّيّة بالاتّفاق، قال ابن عطيَّة: "هِيَ مَكِّيَّةٌ لا أَحْفَظُ خِلافًا فِي شَيْءٍ مِنْها"[1]، وقال ابن عاشور: "وقع في الكشّاف استِثْناء قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾، ولَم يَعْزُهُ إلى قائلٍ، ومثلهُ القُرطبِيُّ، وذكرَهُ الكواشِيُّ قَوْلًا، وما عزَهُ إلَى مُعَيَّنٍ"[2].

ترتيب المصحف وترتيب النزول وعد الآي:

هي السّورة الرّابعة والأربعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، جاءت بين سورتيّ الزّخرف والجاثية، وهي الرّابعة والسّتّون في ترتيبها النّزوليّ، نَزَلَتْ بين السّورتَيْن السّابقتَيْن[3].

وَهِي خَمْسونَ وتسع آيات في الكوفيّ، وسبع في البَصْرِيّ، وستّ في عدد الباقِينَ، واختلاف العلماء كان في أربع آيات منها[4].

فضائل السورة:

عند البحث والتّحقيق في الآثار التي وردت في فضلها نجد أنّ الأحاديث التي ذكروها في فضلها لم يصحّ منها شيء، فقد روى التّرمذيّ في فضلها عن أبي هُريرة ﵁، قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حم الدُّخانَ في لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَغْفِرُ لَهُ سَبْعونَ أَلْفَ مَلَك»: ثمّ قال: "هَذا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلّا مِنْ هَذا الوَجْهِ"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 275.
(3) دروزة، التفسير الحديث: 4/ 534.
(4) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 221.
(5) التّرمذي، سنن التّرمذي: بابُ ما جاءَ فِي فَضْلِ حم الدُّخانِ: 5/ 163.

المحور العام للسورة:

محـور الـسّـورة يقـوم على بيان منـهج الـقـرآن الـكـريـم في تحقيق المفاصلة بـين الـحـقّ والباطل

إذا كان محور سورة الزّخرف التي سبقت هذه السّورة يقوم على بيان أثر الاغترار بالقيم المادّيّة الزّائلة في زوال الحضارات وتبديل القيم، فإنّ محور هذه السّورة يقوم على بيان منهج القرآن الكريم في تحقيق المفاصلة بين الحقّ والباطل، وأثر هذه المفاصلة في تحقيق الوعد والوعيد للمؤمنين وللكافرين به، وجاء ذلك فيما يأتي:

أولًا: تبيّن السورة لهم فضل هذا القرآن وفضل اللّيلة التي يُفرق فيها بين الحقّ والباطل.

ثانيًا: بينت السورة لهم أثر الاستعلاء والاستكبار في وقوع الهلاك.

ثالثًا: حذرتهم السورة بعد ذلك من يوم الفصل الذي يُفصل فيه بين جزاء الكافرين وجزاء المتّقين، وأن تبيّن للكافرين جانبًا من العذاب الذي ينتظرهم لا سيّما ما يتعلّق بطعامهم من شجرة الزّقّوم وشرابهم الذي يغلي في بطونهم، وذلك بسبب شكّهم وتكذيبهم بالوحي والرّسالة، وفي المقابل عرضت لجزاء المتّقين ولباسهم وأزواجهم في الجنّة، ثمّ اختتمت بما بدأت به من الحديث عن القرآن ولزوم اتّباعه.

اسم السورة ومناسبة تسميتها:

التـهـديد بآية من آيات الله في تحقيق الوعيد

وردت تسميتها بسورة (الدّخان) و(حم الدّخان) في كتب السّنّة والتّفسير، فقد ذكر البخاريّ تسميتها بـ(حم الدّخان)[1]، وكذلك فعل التّرمذيّ[2]، وقد ذكر الكثيرون أنّ تسميتها بالدّخان إنّما كان لورود هذه اللّفظة فيها في قوله تعالى ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، وهذا ليس بمقنع؛ فقد ورد ذكر هذه اللّفظة في سورة فصّلت في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ

(1) البخاري، صحيح البخاري: باب تفسير سورة حم الدّخان: 4/ 1822.
(2) التّرمذي، سنن التّرمذي: بابُ ما جاءَ فِي فَضْلِ حم الدُّخانِ: 5/ 163.

لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ [فصلت: 11] ولم تُسمّ باسمه[1].

وقد حاول البقاعيّ الرّبط بين اسمها ومقصودها فقال: "ومقصودها: الإِنذار بالهلكة لمن لم يقبل ما في الذّكر الحكيم من الخير والبركة، وعلى ذلك دلّ اسمها (الدخان) إذا تؤمّلت آياته، فإنّه تعالى هدّدهم بأيتيّ العذاب لهم من جهة السّماء، في صورة الدخان، وهدّدهم بالانتقام منهم بالبطشة الكبرى لكذبهم، ومرتكبهم"[2].

ولا شكّ أنّ كلام البقاعيّ في محلّه، فمِحورُ هذه السّورة يقوم على بيان منهج القرآن الكريم في تحقيق الوعد والوعيد للمؤمنين والكافرين به، وبما أنّ جزءًا كبيرًا من السّورة قد أخذ على عاتقه تحذير ووعيد الكافرين باللّه وبكتبه وبالرّسالة، فلا شكّ إذن أنّ تسميتها بالدّخان قد جاء متلائمًا ومتساوقًا مع التّحذير من العذاب الذي عُرض بشكل مميّز في هذه السّورة في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ فتسميتها بسورة الدّخان كان رمزًا للإشارة إلى بدء العذاب للمستحقّين له.

موضوعات السورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورةِ يـــدور حـــولَ تحذير الكافرين ووعـيـدهـم بالعذاب

موضوع سورة الدّخان كسائر موضوعات السّور المكّيّة وسور ال (حم)، وهو بيان أصول العقيدة الإسلاميّة: التّوحيد، والنّبوة والرّسالة، والبعث، فبُدئت السورة ببيان تاريخ بدء إنزال القرآن في ليلة القدر من رمضان، رحمة من اللّه بعباده، وأنّ منزله هو مالك الكون كلّه والمخلوقات جميعها، وأنّه هو الإله الحقّ الواحد الذي لا شريك له، غير أنّ المشركين في شكّ وارتياب من أمر القرآن، ثمّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 275.
(2) البقاعي، مصاعد النّظر: 2/ 471.

وعدتهم بالعذاب الشّديد، وبالدّخان المخيف الذي ينذرهم بأسوأ العواقب، ولكنّهم مع ذلك لم يؤمنوا.

وختمت السّورة بنعت وبيان مصير الأبرار ومصير الفجّار، لترغيب الفريق الأوّل وتبشيره بالعاقبة الحميدة، وترهيب الفريق الثّاني وإنذاره بالنّكال والعذاب الشّديد[1].

الخصائص الموضوعيّة لسورة الدّخان:

تميّزت سورة الدّخان بموضوعات أفردتها عن غيرها من السّور

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال، فلا يوجد سورة من أخواتها الحواميم أو غيرها من السّور التي اُستهلّت بالأحرف المقطّعة، تشبهها في مطلعها هذا، وصحيحٌ أنّ سورة الزّخرف التي سبقتها قد شابهتها في وصف الكتاب بأنّه مبين، لكنّها غايرتها في نظمها بعد ذلك.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بتعانق مطلعها مع خاتمتها تعانقًا عجيبًا، بحيث لو أنّه دُمج المطلع والخاتمة مع بعضهما دون بقيّة الآيات لأوجزت محور السّورة ومقاصدها.

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بموضوعاتٍ وتفصيلاتٍ لم ترد في غيرها من السّور مثل حديثها عن ليلة القدر، ووصفها بصفات لم ترد في سورة القدر، وكذلك الحديث عن الدّخان المرتقب الذي يغشى النّاس، والحديث عن قصّة موسى مع فرعون من جانب مختلف عمّا في بقيّة السّور وعن اختيار قوم موسى على العالمين، وكذلك تميّزت بحديثها عن شجرة الزّقّوم، وأنّها طعام الأثيم، وأنّ المتّقين لا يذوقون الموت إلّا الموتة الأولى، وغير ذلك.

الخصائص الأسلوبيّة لسورة الدّخان:

تميّزت سورة الدّخان بأساليب تعبير أفردتها عن غيرها من السّور

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة بقصر آياتها وقوّة عبارتها، ووجازة ألفاظها، وبلاغة ورقّة أصواتها وجرسها الموسيقيّ، فمعظم فواصلها

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 203 - 204.

تنتهي بحرف النّون المسبوق بحروف العلّة بنسبة تصل إلى ثلاثة أرباعها، وبقيّة آياتها تنتهي بحرف الميم المسبوقة بحروف العلّة كذلك بنسبة الربع تقريبًا، ممّا أعطاها هذا الإيقاع العجيب المنسجم مع محورها العام.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة ببعض التّقابلات الخاصّة بها مثل قوله تعالى في مطلعها للنّبيّ ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، وقوله له في آخرها: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ [الدخان: 59]، والمقابلة بين قولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾، وقوله لهم: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾، وغيرها، وكذلك جاءت المقابلة بين أحوال المتّقين وأحوال الكافرين في الآيات الأخيرة في السّورة الكريمة.

ثالثًا: تكرّرت في السّورة الكريمة لفظة (مبين) خمس مرّات[1]، حيث جاءت وصفًا للكتاب، والدّخان، والرّسول، والسّلطان، والبلاء، وتكرّرت لفظة (العذاب) خمس مرّات[2]، ولا شكّ أنّ هذه الظّاهرة مرتبطة مباشرة بالمحور العامّ للسّورة في تحذير الكافرين ووعيدهم.

رابعًا: تفرّدت السّورة الكريمة بأنساق تعبيريّة فريدة كثيرة خاصّة بها، منها قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾، ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾، ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: 24]، ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الدخان: 29]، ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥﴾ [الدخان: 45]، ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧﴾ [الدخان: 47]، وغيرها الكثير.

خامسًا: تفرّدت السّورة الكريمة بصيغ واشتقاقات لم ترد في غيرها من السّور، مثل: ﴿يُفۡرَقُ﴾، ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، ﴿ٱكۡشِفۡ﴾، ﴿كَاشِفُواْ﴾، ﴿مُعَلَّمٞ﴾، ﴿عَآئِدُونَ﴾، ﴿أَدُّوٓاْ﴾، ﴿وَٱتۡرُكِ﴾ [الدخان: 24]، ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: 47]، وغيرها.

سادسًا: تفرّدت هذه السّورة بلفظة لم يرد لها من جذرها أيّ اشتقاقٍ آخر في القرآن الكريم وهي ﴿رَهۡوًاۖ﴾ [الدخان: 24] في قوله ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: 24]،

(1) الآيات: 2، و10، و13، و19، و33.
(2) الآيات: 11، و12، و15، و30، و48، و56.

وهذه اللّفظة مرتبطٌة بالمحور الرّئيس للسّورة الكريمة، لأنّها تذكّر القارىء بإنجاء الله ﷻ لأوليائه وعباده الذين اتّبعوا وحيه وساروا على هديه.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الدّخان متّصلة تمامًا سورة الزّخرف مضمونًا وأسلوبًا

هذه السّورة متمّمة لما تقدّم في سورة الزّخرف، وقد ذكر ابن الزّبير الغرناطيّ ذلك بقوله:"لمّا تضمّنت سورة حم السّجدة وسورة الشّورى من ذكر الكتاب العزيز ممّا قد أشير إليه، استفتح تعالى سورة الدّخان بما يكمل ذلك الغرض وهو التّعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا"(1).

وتتجلّى مناسبة هاتيْن السّورتيْن من آل حاميم من وجوه ثلاثة:

أولًا: افتتاح كلتا السّورتين بالقسم بالقرآن العظيم تنويهًا به.

ثانيًا: تشابه خاتمة الزّخرف ومطلع سورة الدّخان، حيث ختمت سورة الزّخرف بالتّهديد والوعيد في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٨٣﴾ [الزخرف: 83] فذكر يومًا غير معيّن، ثمّ أبان وصفه في سورة الدّخان في القسم الأول منها حيث أنذر تعالى المشركين في قوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

ثالثًا: حكاية ما قاله النّبي ﷺ لقومه وما قاله أخوه موسى عليه السلام لقوم فرعون، فقال النّبي ﷺ في الزّخرف: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ [الزخرف: 88]، ثم قال الله له: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾ [الزخرف: 89]، وحكى الله عن موسى في سورة الدّخان: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢﴾ [الدخان: 22]، وقال موسى: ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١﴾ [الزخرف: 20 - 21]، والتّشابه واضح في الموقفين(2).

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن: 301 - 303.
(2) الزّحيليّ، التفسير المنير: 25/ 202 - 203.

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا
مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا
كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ [الدُّخان: 1 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

زيـادة التِّبيان؛ لإقـامـة الحجَّة بـالـبرهـان، ورفـعـة مكانة القرآن

لمّا أُشير في حم السَّجدة، وحم الشّورى إلى تنزيل القرآن، وتفصيله، وكونه قرآنًا عربيًّا، وتعلَّق الكلام بعد هذا بعضه ببعض؛ افتتح تعالى حم الدُّخان بما يُكمل ذلك الغرض، وهو التعريف بوقت إنزال القرآن العظيم إلى السماء الدُّنيا، وجعل لهذا الوقت أفضليَّة؛ تعظيمًا وتشريفًا[1] ثمَّ بيَّن سبحانه السبب في إنزاله فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[2]، وبيَّن كذلك أنَّه قد أرسل رسوله بمهمَّة الرِّسالة العظمى رحمةً بهم؛ فهو السَّميع العليم ربُّ السماوات والأرض وما بينهما لا إله إلا هو يحيي ويميت ربُّ السامعين، وربُّ آبائهم الأولين، وبأنَّ هذه هي الحقيقة الناصعة إذا كان السامعون يريدون المعرفة واليقين[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾: أصل (برك) يدلُّ على ثبات الشَّيء[4]، مأخوذ من البَرْك: صدر البعير، ويقال له بِرْكة، وبَرَك البعير يبرُك بروكًا: ألقى بَرْكَه واستناخ، واعتبر منه معنى الثَّبات واللُّزوم، فقيل: ابتركوا في

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 3.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 25/ 120.
(3) محمد دروزة، التفسير الحديث: 4/ 535.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).

الحرب؛ أي: ثبتوا ولازموا موضع الحرب[1]، فكل شيء ثبت وأقام فقد بَرَك، وسُمِّي محبس الماء من حوض يُحفر في الأرض ونحوه بِرْكة؛ لأنَّ الماء ثبت وأقام فيه، وجمعه: بِرَكٌ، والبَرَكة مأخوذة من معنى الثَّبات واللُّزوم، فهي: ثبات وإقامة الخير، ثم خُصَّت البَرَكة بثبوت الخير الإلهيِّ في الشَّيء، والبركة: النَّماء والزِّيادة، والكثرة في كلِّ خير، ويكون المبارَك على هذا المعنى: ما يأتي منه الخير الكثير[2]، ومعنى ﴿مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ في الآية أي: ليلة موضع الخيرات الإلهيّة، لما فيها من أصول الخيرات الثّابتة الدُّنيوية والدِّينية[3].

2) ﴿مُنذِرِينَ﴾: أصل (نذر) يدلُّ على التَّخويف والتَّحذير مما يُخشى منه[4]، والإنذار: إخبار وإبلاغ مع تخويف وتحذير، ومنه النَّذير بمعنى المُنذِر، والنَّذير بمعنى الإنذار، وجمعه نُذُر[5]، والإنذار الإعلام بالشَّيء يُحذِّر منه، والمُنذِر هو المبلغ والمُعلِم بهذا الشَّيء، والمُنذِر كذلك الرَّسول أو النَّبيُّ يبلِّغ الأمرَ العظيم من شأن الآخرة يخوِّفهم ويحذِّرهم منها[6]، وقوله: ﴿مُنذِرِينَ﴾، أي: مخوِّفين عقابنا في تلك اللَّيلة[7].

3) ﴿يُفۡرَقُ﴾: أصل (فرق) يدلُّ على التَّمييز والفصل بين شيئين[8]، والفَرْق: خلاف الجمع، وهو الفصل بين الشيئين، سواء كان بفصل يدركه البصر أو بفصل تدركه البصيرة، وقوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106]؛ أي: بيَّنّاه وأحكمناه وفصَّلناه، مِن فَرَق يفرُق، ومِن فرَّق يفرِّق: أنزله اللّه ﷻ جملة إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ نزل على النَّبي ﷺ في عشرين سنة، ثم فرَّقه في التَّنزيل ليفهمَه النّاس[9]، والفُرْقان: القرآن، وكل ما فُرِّق به بين الحقِّ والباطل فهو فرقان، ومعنى قوله تعالى: ﴿يُفۡرَقُ﴾، أي: يُفصَل ويُقضَى[10].

(1) الراغب، المفردات: (برك).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برك).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (برك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نذر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(7) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 4/ 116.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرق).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(10) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 227، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/ 128، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

4) ﴿مُرْسِلِينَ﴾: أصل (رسل) يدلُّ على الانبعاث والامتداد، وهو يقابل الإمساك[1]، فالرَّسْل: الانبعاث على التُّؤَدة، فيقال: ناقة رَسْلَة: سهلة السَّير، وشعر رَسل: مسترسل، واسترسل الشَّعر: صار سَبْطًا، واسترسل إلى فلان؛ أي: انبسط واستأنس، وترسَّل في الأمور والقراءة والمنطق: اتَّأد وتمهَّل وتوقَّر وتثبَّت[2]، ومنه الرَّسول: المنبَعِث، والذي يتابع أخبار الذي بعثه، ويتصوَّر منه الرِّفق تارة، فيقال: على رِسلك، إذا أمرته بالرِّفق، وتارة الانبعاث، فاشتق منه الرَّسول، والإرسال: التَّوجيه، وقد يكون بتسخير، كما هو في إرسال الرِّيح، وقد يكون ببَعْثِ مَنْ له اختيار، نحو إرسال الرُّسل، ورسل اللّه تارة يراد بها الأنبياء، وتارة يراد الملائكة[3].

5) ﴿مُّوقِنِينَ﴾: أصل (يقن) من يقن الماء، إذا ثبت وسكن[4]، واليقين: العلم وزوال الشَّك وإزاحته وتحقيق الأمر، وهو فوق المعرفة والدِّراية، واليقين نقيض الشَّك، والعلم نقيض الجهل، يقال: علمُ يقين ولا يقال معرفةُ يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

نَــزَلَ أحـسـنُ الحديث بأفضل الـلـيـالي رحـمـةً لتوحيد الكبير المتعالي

في ابتداء السّورة الكريمة بالحروف المقطَّعَةِ بيان لمعجزة اللّه الخالدة الَّتي لا نستطيع أن نأتي بشيء منها - برغم أنَّها من جنس حروفنا وكلامنا الَّذي نتكلَّمُ به - ألا وهي القرآنُ الكريمُ المقْسَمُ به في هذه الآيات والمخْبَرُ عنه بأنَّه الموضِّح لكلِّ ما يحتاجُهُ الإنسانُ من أمور الدِّين والدُّنيا، وبأنَّه المنزَّل في ليلة مباركة هي ليلة القدر؛ لأجل تحذير

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسل).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (يقن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (يقن).

النّاسِ وإرشادهم إلى ما ينفعهم ويَضُرُّهم لتقومَ حُجَّةُ اللّه بذلك على عباده، وفي هذه الليلة يُفْصَلُ كلُّ أمْرٍ محْكَم مُشْتَمِلٍ على الحكمة، حال كونه صادرًا من عند اللّه الذي تَكَفَّلَ بإرسالِ الرُّسُلِ رأفةً منه سبحانه بخلقِه، فهو السَّميعُ لمن تَضَرَّعَ إليه، العليمُ بجميع أحوالِ خَلْقِه، وهو سبحانه خالقُ السَّماوات والأرض وما بينهما من المخلوقات إنْ كنتم أيُّها المشركون على يقين في إقراركم بذلك حين تُسْألونَ، وهو سبحانه الإله الحقُّ الَّذي لا معبودَ سِواهُ، كما أنَّهُ المتصرِّفُ وحده بالإحياء والإماتة وهو خالقكم وخالق آبائكم الأوَّلين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفتاح بالأحرف المقطَّعَة:

الافــتــتــاح بــالــحــروف المقطَّعة دليل إيــجــاز، وآيــة إعجاز

افتُتِحَت هذه السّورةُ بحرفين مِن الحروف المقطَّعة التي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سوَرِ القرآن؛ لبيان إعجازه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْق عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروف العربيَّة التي يَتحدَّثونَ بها[2].

فقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ هما حرفان من حروف الهجاء الذي منه كلامهم، وهُم مع ذلك يعجزون عن الإتيان بمثله[3]، فجاء بها الخطاب القرآنيُّ في أوائل بعض السّور للتَّحدِّي والتَّعجيز، والتَّنبيه إلى أنَّ هذا القرآن مِن عند اللّه ﷻ[4]، فكأنَّه سبحانه يقول للمكذِّبين: هذا هو القرآن، مؤلَّف من كلمات وحروف هي مِن جنس ما تتخاطَبون به، فإن كنتم في شَكٍّ في كونه مِن عنده تعالى فأتوا بسورة مِن مثله، فعَجزوا وانقلبوا خاسرين، وثبت أنَّ هذا القرآن مِن عند اللّه ربِّ العالمين[5].

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 227 - 228.
(2) الدرر السنية، التفسير المحرر: 32/ 325.
(3) الإبياري، الموسوعة القرآنية: 11/ 163.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 115.

بلاغة الإنشاء باستخدام أسلوب القَسَم:

قسم الله العظيم دليل قاطع على الانزال في ليلة القدر

في الإنشاء بأسلوب القسم في هذا الموضع بيان لعظمة القرآن مِن حيث إنّ اللّه العظيم لا يقسِم إلّا بكلِّ عظيم، وأنَّ القسَم الظّاهر الصَّريح في الآية الكريمة بواو القسَم: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ الغرضُ منه توكيد الكلام وتقويته، وهو إنزال القرآن في ليلة القدر المبارَكة.

القرآنُ دليلُ ثبوتِ القرآنِ، وهذه غاية التَّعظيم والبيان

ثالثًا: أنَّه أقسَم به عليه، فكان القرآن هو القسَم وهو جواب القسَم، كأنَّه لمّا أقسم على إنزاله لتقوية هذا المعنى ردًّا على المنكرِين لإثبات أنَّه الثّابت الذي لا ريب فيه - أقسم به على ذلك؛ فكان القرآنُ نفسُه دليلَ ثبوت القرآن[1].

وهذا من بدائع الإقسام من حيث كون المقسَم به والمقسَم عليه من وادٍ واحدٍ؛ وذلك لأنَّ المقصودَ مِن المقسَم عليه - وهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ - تعظيمُ القرآن بأنَّه كثير البركة حتَّى جعل اللَّيلة التي أنزل فيها مبارَكة بنزوله فيها، فلمّا أكَّده بجعل القرآن مقسَمًا به فقد أثبت عظمَتَه بعظمَتِه، فكانا من وادٍ واحدٍ[2].

معنى التَّعريف في (الكِتابِ)،:

القرآن مُقسَمٌ به عليه، وهو مبينٌ عن نفسه؛ وهذا غاية التَّعظيم

يجوز في (ال) التي في (الكِتابِ) أن تكون للجنس، أو للعهد؛ إذ يجوز أن يكون المراد بالكتاب هاهنا: جنس الكتب المتقدِّمة التي أنزلها اللّه على أنبيائه ، ويجوز أن يكون: اللَّوح المحفوظ، ويجوز أن يكون المراد به القرآن المعهود - وهو الرّاجح - وبهذا التَّقدير فقد أقسم بالقرآن على أنَّه أنزل القرآن في ليلة مباركة، وهذا النّوع مِن الكلام يدلُّ على غاية تعظيم القرآن، فقد يقول الرَّجُل إذا أراد تعظيم رَجُل له حاجة إليه: أستَشفِعُ بكَ إليك، وأقسِم بحقِّك

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 654.

(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 494.

عليك[1]، وعليه فقد أقسم اللّه جلَّ ثناؤه بهذا الكتاب، أنَّه أنزله في ليلة مباركة[2].

دلالة وصف الكتاب بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾:

حاجة الناس الى نور القرآن وهداه في دينهم ودنياهم لا تدانيه حاجة

أمّا عن وصف الكتاب بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، فالمُبِين هو المُشتَمِل على بيان ما بالنّاس حاجة إليه في دِينهم ودُنياهم، مِن حلالٍ وحرام وغير ذلك مِن الأحكام[3]، وهو إمّا مِن الفعل المتعدِّي (أبانَ)؛ أي: يُبِين الهُدَى والشَّرع ونحوه، وإمّا مِن غير المتعدِّي؛ أي: هو مبين في نفسه[4].

فوَصَفَه بكونه مبينًا - وإن كانت حقيقةُ الإبانة للّه تعالى - لأجْل أنَّ الإبانة حصَلت به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [النَّمل: 76] وقال في آية أخرى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] وقال ﷻ: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾ [الرّوم: 35] فوَصَفَه بالتَّكلُّم إذ كان غايةً في الإبانة، فكأنَّه ذو لسان ينطق، والمعنى فيه المبالغةُ في وصفه بهذا المعنَى[5]، وهو من قبيل إسناد الحكم إلى سببه لأنَّ المبين في الحقيقة هو اللّه تعالى[6].

كما أنَّ القسَم الذي سبق الإخبار بالنُّزول في ليلة مباركة تضمَّن ثبوت ذلك النُّزول ابتداءً؛ وإلّا فلم يكن ليصلح مقسَمًا به، فكأنَّ نزول القرآن وكونه مِن عند اللّه أمرٌ ثابت سابِق للإخبار بذلك في الآية؛ ولهذا المعنى ناسب وصفه بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ فقد أبان القرآن عن نفسه كما أبان للنّاس النَّجدين وعاقبة كلٍّ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 652.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 7، والماوردي، النكت والعيون: 5/ 244.
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 116.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 68.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 652.
(6) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 494.

المُنزل من الله عظيم لا يبلُغ منزلته كتاب

تعيين المقسم عليه في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ وجوهٌ مِن الاحتمالات وفاق ما يناسب الجملة من تقدير؛ كأن يكون: هذه حم والكتابِ المبِين؛ كقولك: هذا زيدٌ واللّه، ويكون الكلامُ قد تَمَّ عند قوله: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾، فكأنَّ التَّقدير: والكتابِ المبينِ هذه حم، ثمَّ يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ استئنافًا.

أو يكون الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿حمٓ﴾ ثمَّ يقال: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، والتَّقدير: والكتابِ المبين إنّا أنزلناه، غير أنَّ بعض النَّحويِّين أنكره من حيثُ إنَّه صفةٌ للمُقسَم به ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، ولا تكون صفةُ المُقسَم به جوابًا للقَسَم، وأجازه بعضهم من حيث كونه مِن باب الإقسام بالشَّيء على نفسه مبالغة في تعظيمه كما تقدَّم.

أو يكون التَّقدير: و ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، فيكون ذلك في التَّقدير قَسَمَيْن على شيء واحد[1].

ويجوز جعلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جوابَ القَسَم الذي هو ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ فالتَّقدير: والكتابِ المبين إنّا كنّا منذرين، ويكون الوقف على ﴿مُنذِرِينَ﴾، ويُبتَدَأ مِن قوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، على أنَّ قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ اعتراض بين القَسَم وجوابه يتضمَّن تفخيم الكتاب[2].

من وجوه عظمة القرآن بيان شرف الزَّمان الذي أُنزل فيه

علَّة فصل قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾:

وفاقَ ما فُصِّلَ بيانه في النُّكتة السّابقة فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يصحُّ فيه وجهان:

فإمّا أن يكون استئنافًا ابتدائيًّا - على أنَّ تقدير القسَمَ وجوابه: هذه حَم وحقِّ (الكِتابِ المُبِينِ) - للشُّروع في بيان أوجه عظمة القرآن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 651.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 125.

ببيان شرف الزَّمان الذي أُنزل فيه، وإمّا أن يكون هو بذاته جواب القَسَم؛ فلا جرم فُصِل عن سابقه لذلك.

نكتة توكيد جملة جواب القسَم بـ (إنَّ):

تأكيدُ المُنزل ردٌّ على المخاطَب المنكِر

أُكِّد جواب القسَمَ بـ(إنَّ)؛ لزيادة توكيد الخبر أنَّ القرآنَ مِن تنزيل اللّه سبحانه[1] والعناية به، ولأجل استبعاد القوم وإنكارهم إنزال القرآن وقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91] فلأجل هذا أُكِّد جواب القَسَم، وأُتي به في مظهر العظمة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾[2]، فهو ردٌّ على المنكرين، فمتى وُجِّه الخطاب إلى منكِر حسُنَ توكيده بأكثر مِن مؤكِّد؛ لذلك جيء بالقَسَم، وبحرف التَّوكيد.

دلالة التَّعبير بنون العظَمَة في ﴿إِنَّآ﴾:

تعظيم الإنزال يناسبُ عظمة الحدث

تدلُّ النّون على التَّعظيم كما هو ظاهر مِن تسميتها بنون العظمة، وإنَّما يُعبَّر بها للدَّلالة على أنَّ الفعل المسنَد إليها عظيم، وهو هنا إنزال القرآن الكريم في ليلة مبارَكة، ولمّا كان إنزال القرآن هو الحدث الأعظم ناسبه إسنادُ الفعل إلى ضمير العظمة.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾؛ أي: بما لنا مِن العَظَمَة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: الكتاب[3]، فبدأ اللّه ﷻ بتعظيم الألوهيَّة، وتعظيم كتابه الحكيم، ورسوله الكريم ﷺ؛ إذ أتى بالصِّيغة المنبِّهة على الجلال والكبرياء، وهي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾[4].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليِّ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، ودلالة مجيئه ماضيًا:

أُنــزِل أفضل الكلام في أفضل اللّيالي والأيّام، عــلى أفضل الأنـــام، بلُغة العرب الكرام

أوثر التَّعبير بالمسند الفعليِّ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ لتقوية الحُكم وتوكيده، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى اسم إنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 159.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 2.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 2.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198 - 199.

(نون العظَمَة)، ومرَّة إلى ضميره، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة (أنزلنا القرآن، أنزلنا القرآن)، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[1]، أمّا عن مجيئه بصيغة الماضي فللدَّلالة على توكيد وقوع الحدث وانقضائه، وهذا كلُّه ممّا يناسب المقام مِن الحديث عن ثبوت القرآن، والرَّدِّ على المنكِرين والمشكِّكِين.

سرُّ إيثار التَّعبير بالإنزال دون التَّنزيل:

صيغة الإنـزال تناسب معنى نـزول القـرآن دفعة واحدة

أوثر التَّعبير بالإنزال دون التَّنزيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾؛ لأنَّ الفرق بين الإنزال والتَّنزيل أنَّ التَّنزيل مختَصٌّ بالنُّزول على سبيل التَّدريج، أمّا الإنزال فمختَصٌّ بما يكون النُّزول فيه دفعةً واحدة[2]؛ أي: كاملًا جملة واحدة مِن اللَّوح المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ كان جبريل ﵇ ينزِّله على النَّبيِّ ﷺ نجومًا؛ أي: مفرَّقًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع[3]، ولو قال: (نَزَّلْناهُ) لكان يعني: نزَّلناه منجَّمًا[4]، وفي معنى هذا الإنزال قولان: **أحدهما:** أنَّه أُنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السَّماء الدُّنيا، ثمَّ كان جبريل ﵇ يأتي به شيئًا فشيئًا إلى أن أُنزل جميعُه، **والقول الثّاني:** أنَّ المراد بالإنزال هاهنا ابتداء الإنزال، ومعنى قوله: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر[5]، والقولان متقاربان؛ فإنَّ كلَّ آية أو آيات تنزل مِن القرآن فهي منضمَّة إليه انضمام الجزء للكلِّ، ومجموع ما يبلغ إليه الإنزال في كلِّ ساعة هو مسمَّى القرآن إلى أنْ تمَّ نزولُ آخر آية من القرآن[6]، وعلى كلٍّ: فإنَّ هذه الصِّيغة تناسب المقام، وتقوِّي معنى الحديث عن ثبوت القرآن.

---

(1) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي، ص: 125.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/ 254، وابن عادل، اللباب: 3/ 280.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 343.
(4) الهلال، الثري الجامع: 10/ 418.
(5) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 121، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 111.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 277.

توجيه عود الهاء في ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾:

الهاء كناية عن القـرآن، الـذي ابتُدئ إنزاله في ليلة القـدر من رمضان

الهاء في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ تعود على الكتاب المبين المقسَم به، وقد تقدَّم بيان أوجه التَّأويل فيه، فإن أريد به القرآن فالضَّمير في ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ عائدٌ عليه؛ أي: أنزلنا القرآن في ليلة مبارَكة[1]، وإن أُرِيد به اللَّوح المحفوظ فقوله: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا بعض ما فيه، وهو القرآن أيضًا[2]، وإن أُريد به جنس الكتب الإلهيَّة المنَزَّلة فالضَّمير عائد على الوحي أو جبريل، والقرآن داخلٌ فيه ضمنًا، والظّاهر الأوَّل[3].

معنى ظرفيَّة ﴿فِي﴾:

أعظم اللَّيالي بركة ما كوشف فيها بحقائق الأشـــيـــاء، واتَّصلت فيها الأرض بالسَّماء

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ يتضمَّن معنيين: الأوَّل: إنزال القرآن، والثّاني: وقوع ذلك الإنزال في اللَّيلة المباركة[5]، فهي ليلة مباركة؛ لأنَّها كانت ظرفًا حاويًا للرَّحمة المنزَّلة مِن السَّماء إلى الأرض، وهذه الرَّحمة هي القرآن الكريم[6].

نكتة تنكير ﴿لَيْلَةٍ﴾ ودلالة وصفها بـ ﴿مُّبَـٰرَكَةٍ﴾:

لا تُـدانَى ليلةُ إنـزال القـرآن تعظيما، ولا تُسامَى تشريفًا وتكريما

نُكِّرت ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتَّعظيم، ووُصفت بـ ﴿مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ تنويهًا بها وتشويقًا لمعرفتها؛ فهذه اللَّيلة هي اللَّيلة التي ابتُدئ فيها نزول القرآن على خاتم المرسلين محمَّد ﷺ في الغار من جبل حراء في رمضان، وثبت أنَّ اللّٰه سبحانه جعل لنظيرتها مِن كلِّ سنة فضلًا عظيمًا لكثرة ثواب

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: 9/ 397.
(2) الصاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 60.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 87، والهرري، حدائق الرّوح والريحان: 26/ 343.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(5) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 497.
(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 182.

العبادة فيها في كلِّ رمضان؛ كرامةً لذكرى نزول القرآن، وابتداءِ رسالة أفضل الرُّسل محمَّد ﷺ إلى النّاس كافَّة، فذِكرُ فضل الوقت كناية عن فضل القرآن بذكر فضل الوقت الذي ابتُدِئ إنزاله فيه[1]، ولله تعالى أن يفضِّل بعضَ الأزمنة على بعضٍ، وبعضَ الأمكنة على بعضٍ، وبعضَ الرُّسل على بعضٍ، لا رادَّ لفضله، ولا معقِّب لحُكمه[2].

وقوله تعالى: ﴿مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾؛ أي: كثيرة الخير لما يتيح الله فيها مِن الأمور التي يتعلَّق بها منافع العباد في دينهم ودُنياهم، ولو لم يوجَد فيها إلّا إنزال القرآن وحدَه لكفى به بركة[3]، وإنَّما وُصِفت اللَّيلة بالبركةِ لأنَّ نزول القُرآنِ مستتبِعٌ للمنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة بأجمعها، أو لِما فيها مِن تنزُّل الملائكة والرَّحمة، وإجابة الدَّعوة، وقَسْم النِّعمة، وفَصْل الأقضية، وفضيلة العبادة، وإعطاء تمام الشَّفاعة لرسول الله ﷺ، وإنزال البركات والخيرات والثَّواب حتَّى قيل إنَّ ماء زمزم يزيدُ في هذه اللَّيلة زيادةً ظاهرةً[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾:

الإنــــذار عـلّـةُ الإنزال

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ يبيِّن المقتضِي للإنزال؛ والحكمة منه، كأنَّه قيل: إنّا أنزلناه لأنَّ مِن شأننا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العقاب، والتَّبشيرَ بالجنَّة؛ أي: وإنَّما أنزلناه لأنّا كنّا معلِّمين النّاسَ ما ينفعهم، فيعملون به، وما يضرُّهم فيجتنبونه لتقوم حُجَّة الله على عباده، أو فُصِلت لأنَّها جوابٌ للقَسَم الذي هو: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ على أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ اعتراضٌ أو جوابٌ ثانٍ بغيرِ عاطفٍ[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 277.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 116.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 270.

(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 245، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 126، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 111، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 344.

بلاغة تكرار التَّوكيد بـ (إنَّ):

تأكيد الإنذار اسقاط لعذر التشكّك والإنكار

حرف (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يجوز أن يكون للتَّأكيد ردًّا لإنكارهم أن يكون اللّه أرسل رسلًا للنّاس لأنَّ المشركين أنكروا رسالة محمَّد ﷺ بزعمهم أنَّ اللّه لا يُرسل رسولًا من البشر، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91]، فكان ردُّ إنكارهم ذلك ردًّا لإنكارهم رسالة محمَّد ﷺ، فتكون جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مستأنَفَةً[1].

ويجوز أن تكون (إنَّ) لمجرَّد الاهتمام بالخبر، فتكون مُغنيَةً غناءَ فاءِ التَّسبُّب فتفيد تعليلًا، فتكون جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تعليلًا لجملة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلناه للإنذار لأنَّ الإنذار شأننا، فمضمون الجملة عِلَّة العِلَّة وهو إيجاز[2].

نكتة التَّعبير بالكون الماضي:

من أجلِّ نِعَم اللّه تعالى على العباد أن بيَّن لهم سُبُل الهُدَى والرَّشاد

تدلُّ كلمة (كان) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ على الاستمرار والدَّوام، لإفادة أنَّ سنَّة اللّه تعالى التي عوَّد عليها عباده هي أنَّه لا يتركهم هَمَلًا بلا بشارة ولا إنذار، بل بيَّن لهم الذي يتَّقون، فكأنَّه قال: مِن عادتنا الإنذار والتَّخويف[3]، وإن الإنذار ثابت في سنن الخلق دائم لا ينفك عن الناس شكلا من الاحتراز، وتجنّب الزيغ عن سبل الرشاد والهداية.

وهذا مِن أعظم نِعَم اللّه تعالى على العباد: أن بيَّن لهم سبل الهدى والرَّشاد، وحذَّرهم قبل أن يأخذهم بعقاب، وأمهلهم حتَّى يتوبوا إليه ويُنيبوا، فغفر لهم الذنب، وقبل منهم التَّوب، وضاعف لهم الأجر، فما أعظمه من ربٍّ رحيم!.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 3.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 3، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 372، والصاوي، حاشية على الجلالين: 7/ 60.

التخويف سبيلٌ للإنابة

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مُنذِرِينَ﴾ مادةً وصيغةً:

تدور معاني الإنذار حول التَّخويف أو التَّخوُّف، والإبلاغ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويف مِن مكروه سيقع، ويقع على كلِّ شيء فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيرَه[1]، والمنذِر: الذي يخبر بأمر فيه ضرٌّ لقصد أن يتّقيَه المخبَر به[2]، فقوله تعالى: ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ أي: مخوِّفين، ذلك أنَّ النّاس إذا طال عليهم الأمد، وتتابعت عليهم النِّعَم، وألِفوا العافية، مالوا إلى الدُّنيا فنسوا حظًّا ممّا ذُكِّروا به، فقست قلوبهم، فعند ذلك يحسن أن يُخَوَّفوا حتَّى يرتدعوا ويرعووا ويُنيبوا إلى ربِّهم ويُسلِموا له مِن قبل أن يأتيهم العذاب بغتة وهُم لا يشعرون!

وعُبِّر بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام؛ أي: من عادة اللّه سبحانه في خلقه أن ينذرهم ويحذِّرهم ويخوِّفهم.

الإنـذار بالقرآن تخويف للعاصي ورشـــادٌ لأهل الإيمان

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُنذِرِينَ﴾:

حُذِف مفعول ﴿مُنذِرِينَ﴾ لدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ عليه؛ أي: منذرين المخاطَبين بالقرآن[3]، أو منذرين بالرُّسل مِن الضَّلال[4]؛ أو منذرين بالقرآن مَن عصى اللّه[5].

ولا يخفى ما أدّاه الحذف مِن مُحسِّن الرِّعاية على الفاصلة، فتعانق حُسنُ المعنى مع جمال اللَّفظ وروعة النَّظم في سبك بديع.

مِـن مبـادئ الشَّريعة أنَّ دفـع المضارِّ مقدَّمٌ على جلب المصالح

نكتة الاقتصار على الإنذار دون البشارة في ﴿مُنذِرِينَ﴾:

اقتُصِر على الإنذار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مع أنَّ القرآن منذِر ومبشِّر؛ لأجل الاهتمام بمقام الإنذار؛ لأنَّه مقتضَى حال جمهور النّاس يومئذٍ، ويدلُّ على ذلك سبب نزول السّورة وما

---

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نذر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 245.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 94.

عالجته موضوعاتُها، كما أنَّ الإنذار يقتضي التَّبشير لِمَن انتذر، فكأنَّه دلَّ عليه، وهذا غاية الإيجاز[1]، فضلا عمّا فيه من الاكتفاء[2].

بلاغة اللَّفِّ والنَّشر في الآية:

أُنـزِل القرآن للإنذار والتَّخويف، وخُصَّ بليلة القدر؛ لأنَّها مَفرِق كلِّ أمر حكيم شريف

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ لفٌّ بديع بين معنيي: تعيين إنزال القرآن، واختصاص تنزيله في ليلة مباركة.

وتعليل إنزال القرآن بجملة: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ يعني أنَّ الحكمة في إنزال هذه السّورة أنَّ إنذار الخلق لا يتمُّ إلّا بإنزال القرآن، فكأنَّه قيل: أنزلناه لأنَّ مِن شأننا الإنذارَ والتَّحذير مِن العقاب.

أمّا تعليلُ تنزيله في ليلة مباركة فبجملة ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ يعني أنَّ الحكمة في تخصيص هذه اللَّيلة بإنزال القرآن هو أنَّ هذه اللَّيلة يُفرَق فيها كلُّ أمر حكيم، ولا جرم أنَّ إنزال القرآن من أجلِّ هذه الأمور وأحكمها، والمعنى الثّاني معتنقٌ بالأوَّل غير مستقلٍّ بنفسه فأعجِبْ بِنشرٍ فيه لفٌّ[3]!

توجيه متشابه النَّظم مع قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾:

محور سورة القدر هو تعظيم اللَّيلة (الزَّمان)، ومحور سورة الدُّخان هو تعظيم القرآن

تشابه قوله تعالى هنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ مع قوله في مطلع سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1] في وصف اللَّيلة، فقد وُصِفت في الدُّخان بأنَّها ﴿لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، ووُصِفت في القدر بأنَّها ﴿لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1]، يُزادُ على ذلك أنَّ آية الدُّخان وقعت ثالثة في سورتها، أمّا آية القدر فكانت الأولى في سورتها[4]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 344.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 270، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 654، والطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 192 - 193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.

(4) مع ملاحظة أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ هو بعض آية، وتمامها: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾، أمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1] هو آية بتمامها.

ووجه هذا التَّشابه والاختلاف: أنَّ محور سورة القدر هو بيان فضل تلك اللَّيلة بذكر ما يقع فيها مِن أمور كنزول الملائكة وفيها جبريل عليه السلام، وأنَّها خير مِن ألف شهر، وأنَّها سلام مِن الشُّرور حتَّى مطلع الفجر، أي: في ليلة التَّقدير لجميع أمور السَّنَة، والتَّقدير المذكور هو بعينه المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[1]، ولمّا كان المراد في سورة القدر بيان فضل اللَّيلة نفسها ناسب - أوَّلًا - أن تُفتَتَح بها السّورة لينبني ما بعدها عليها، وناسب - ثانيًا - أن تُضاف اللَّيلة إلى القدر الذي مِن معانيه: الشَّأن العظيم، وتأكيدًا لهذا المعنى جاء أسلوب التَّهويل والتَّعظيم في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢﴾ [القدر: 2].

أمّا في سورة الدُّخان فالمحور هو بيان ما نزل في هذه اللَّيلة مِن وحي، وبيان مكانة هذا الوحي، ومِن ثَمَّ أُظهِر اسم الكتاب ليعود عليه الضَّمير في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، وبُيِّنت العلَّة من هذا الإنزال، وهي النِّذارة بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، والإشارة إلى الرِّسالة بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، ثمَّ ذُكِر ما ينزل مِن السَّماء مِن العذاب جزاءً لمن أعرض عن ما نَزَل مِن السَّماء مِن وحي، فلمّا كان المراد في سورة الدُّخان بيان فضل الكتاب المبين الذي أُنزِل فيها، وما ترتَّب عليه من إنذار وبشارة، وبعث للرَّسول الكريم صلى الله عليه وسلم ناسب وصفَ اللَّيلة بالبركة "أي: كثيرة البركات والخيرات"[2]؛ تنويهًا برفعة شأن ما نزل فيها مِن الوحي والخير، فهي ليلة نزل فيها تشريع مبارَك وذِكرٌ مبارَك، مَن اتَّبعه نجا، ومَن أعرض عنه مسَّه العذاب، وناسب أيضًا أن تأتي الآية ثالثةً بعد القسَم بالكتاب في قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

"ولا ريب أنَّها كانت أبرَكَ ليلةٍ وأيمنَها على العالمين، بتنزيل ما فيه الحكمة والهدى، والنَّجاة مِن الضَّلال والرَّدى"[3]، "وكم لها مِن بركات للمسلمين في دِينهم، ولعلَّ تلك البركة تسري إلى شؤونهم الصالحة مِن أمور دنياهم!"[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 341.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 339.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 407.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 278.

عن تنكير ﴿لَيۡلَةٖ﴾[1]، فكأنَّه قيل: لمَ اختُصَّت هذه اللَّيلة بإنزال القرآن فيها؟ فكان الجواب: إنَّما أنزلناه في هذه اللَّيلة المبارَكة؛ لأنَّ ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: ذي حكمة بالغة[2]؛ فإنَّ كونَها مفْرِقَ الأمورِ المحكمة أو المتلبِّسة بالحكمة الموافقة لها يستدعِي أنْ ينزل فيها القرآنُ الذي هو مِن عظائمها[3]، ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة أخرى لـ ﴿لَيۡلَةٖ﴾، وما بينهما اعتراض، فلا جرم فُصِلت عنها[4].

كونُ الليلة مفْرِقَ الأمورِ المحكمة يستوجب أنْ ينزل فيها القرآنُ الذي هو مِن عظائمها

معنى (في):

في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ الحرف (في) موضوع للدَّلالة على معنى الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة كانت هذه الظَّرفيَّة أم زمانيَّة، حقيقيَّة كانت أم مجازيَّة، هذا هو الأصل في معناه[5]، و"الهاء التي في قوله ﴿فِيهَا﴾ عائدة على اللَّيلة المبارَكة"[6].

كانت ليلة القدر وعاءً لفصل الأقضية إعلامًا لا تقديرًا، وإنزال القرآن إنذارًا وتبشيرًا

فالظَّرفيَّة تعني أنَّ هذه اللَّيلة زمانٌ لفصل الأقضية - بمعنى إعلام الحفظة بها وإلّا فهي مقضيَّة أزلًا قبل خلق السَّماوات والأرض بخمسين ألف عام كما صحَّ به النَّصُّ - فكانت هذه اللَّيلة لفصل الأقضية كالوعاء لحفظ الأشياء المهمَّة؛ "أي: جعل اللّٰه اللَّيلة التي أُنزل فيها القرآن وقتًا لإنفاذ وقوع أمور مهمّة مثل بعثة محمَّد ﷺ تشريفًا لتلك المقضيّات وتشريفًا لتلك اللَّيلة[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 111، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 278.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 58، والصاوي، حاشية على الجلالين: 7/ 60، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 653.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 8.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.

لـيـلـة إنــزال القـرآن الكريم مباركةٌ معظّمة

نكتة تقديم شبه الجملة على ما تعلّق به في ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على ما تعلَّق به ﴿يُفْرَقُ﴾ لإفادة معنى الاختصاص، فإنَّ فصل القضاء، وفرق الأمور، وإنزال القرآن، كلُّ هذا إنَّما يقع ذلك في تلك اللَّيلة المبارَكة دون غيرها مِن الليالي، ولا يخفى ما في التَّقديم مِن معاني الاهتمام والتَّعظيم لهذه اللَّيلة، وفيه كذلك بيان "سبب تخصيص نزوله بتلك اللَّيلة، فقال: ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك اللَّيلة المبارَكة ﴿يُفْرَقُ﴾؛ أي: يُكتَب، ويُفصَل، ويُبَيَّن، ويُظهَر للملائكة الموكَّلين بالتَّصرُّف في العالَم ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ "[1]، فقدَّم ضميرها ليتَّصل بما قبله، ولينبني ما بعده عليه.

لـيـلـة إنــزال الـقـرآن وقـتٌ لإنـفـاذ وقـوع أمــور مـهـمّـة تـشـريـفًـا لـهـا وللمقضيّات

نكتة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يُفْرَقُ﴾ مادّةً وصيغة:

الفرق تمييزٍ وتزييلٍ وانفصال بين شيئين يصل إلى العمق؛ كالفَرق في الشَّعر، وهو واصلٌ إلى المنبَت[2]، ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾: يُفْصَل ويُكتَب كلُّ أمرٍ يُراد قضاؤه في النّاس مِن أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم، مِن هذه اللَّيلة إلى ليلة القدر المستقبلة[3]؛ ولهذا يُسمَّى القرآن فرقانًا؛ أي: جعل الله اللَّيلة التي أُنزل فيها القرآن وقتًا لإنفاذ وقوع أمور مهمّة مثل بعثة سيد الأوَّلين والآخرين محمَّد ﷺ؛ تشريفًا لتلك المقضيّات وتشريفًا لتلك اللَّيلة[4].

وقد أوثر بناء الفعل ﴿يُفْرَقُ﴾ للمفعول لكون الفاعل معلومًا للمخاطَب حتى لا يحتاج إلى ذكره له؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النساء: 28]؛ أي: خلق اللّه الإنسان ضعيفًا، فالذي يفرق كلَّ أمر حكيم هو اللّه تعالى، وأمّا صيغة المضارع

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 344.
(2) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرق).
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 278.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.

فلإفادة أنَّ هذا الفَرْق مستمرٌّ في كلِّ ليلة توافق عدَّ تلك اللَّيلة مِن كلِّ عامٍ، ويحتمل أن يكون استعمال المضارع لاستحضار تلك الحالة العظيمة[1].

دلالة التَّعبير بالاسم الدّالِّ على التَّعميم ﴿كُلُّ﴾:

أحـصى لفظُ العموم كلَّ الأشياء، فأكثر في الدَّلالات واختصر في البناء

كلمة ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ يجوز أن تكون مستعمَلَة في حقيقة معناها مِن الشُّمول، وقد علم اللّه ما هي الأمور الحكيمة فجمعها للقضاء بها في تلك اللَّيلةِ، وأعظمُها ابتداءُ نزول الكتاب الذي فيه صلاح النّاس كافَّة، ويجوز أن تكون ﴿كُلُّ﴾ مستعمَلَة في معنى الكثرة، وهو استعمال في كلام اللّه تعالى وكلام العرب، نحو قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: 23] فهو على إرادة التَّكثير والمبالغة لا الحصر، فقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: فيها تُفرق أمور عظيمة[2].

نكتة تنكير ﴿أَمۡرٍ﴾ ودلالة وصفه بـ ﴿حَكِيمٍ﴾:

الأمر المُقضى عظيم، مختصٌّ بكلّ ما هو حكيم

نُكِّرت كلمة ﴿أَمۡرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، ذلك أنّ النُّفوس تذهب في تصوُّر الأمر المُبهم وتقديره كلَّ مذهب، يؤكّد ذلك دلالة السِّياق الذي ابتُدِئ بالأحرف المقطَّعة، فالقسم بالكتاب ووصفه بالإبانة، وتوكيد إنزاله بحرف التَّوكيد متَّصلًا بضمير العظَمَة، وتنكير ليلة ووصفها بالبركة، وتقديم ضميرها لبناء ما بعدها - مِن فرق الأمور الحكيمة - عليها، وهذه كلُّها دلالات تعظيم وأمارات تفخيم لا تخفى على صاحب الذَّوق السَّليم، ثمّ وصف الأمر بالحكمة، وتكرار التَّعبير به منكَّرًا موصوفًا بالوصف الأسمى، ومطرَّزًا بحُلى البيان الأعلى: ﴿أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾، فزِيدَ جزالةً وكسب فخامة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.

أمّا عن وصف الأمر بـ ﴿حَكِيمٍ﴾ فإنَّه لمّا كان إنزال القرآن الكريم مِن أجلِّ الأمور اختُصَّ إنزالُه بفَرْقِ الأمور الحكيمة[1].

عَظُمَ الأمرُ حكمةً بتنزيل ما فيه الخير والهدى، والنَّجاة مِن الضَّلال والرَّدى

وجه التعبير عن الحكمة بصيغة (فعيل):

إنَّ (فعيلًا) التي صُبَّ في قالبها الوصف بالحكمة يصحُّ أن تكون بمعنى (مُحكَم) كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [لقمان: 2]؛ يعني: المحكَم[2]؛ لأنَّه لا يُبدَّل ولا يُغيَّر بعد إبرازه للملائكة ﷺ، بخلافه قبله وهو في اللَّوح، فإنَّ اللّه تعالى يمحو منه ما يشاء ويُثبت[3]؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: جميع ما يكون ويُقدِّره اللّه تعالى وما يوحيه فبأمره وإذنه وعلمه ﷻ[4]، ويصحُّ أن يكون ﴿حَكِيمٍ﴾ بمعنى: (المحكوم به) ونسبته إلى الأمر عليها حقيقة، ويجوز أن يكون المعنى: كلُّ أمرٍ متلبِّس بالحكمة، والأصلُ: حكيمٌ صاحبُه، فتُجوِّز في النِّسبة[5]، وكون ﴿حَكِيمٍ﴾ للنِّسبة؛ كـ(تامرٍ) و(لابنٍ) نسبةً للتَّمر واللَّبن، وقد أبهم اللّه سبحانه هذا الأمر تفخيمًا[6].

فوصف الأمر بالحكمة ليس وصفًا مخصّصًا له، وإنَّما هو وصفٌ مؤكِّد للوصف القائم في ذات الأمر ومبيِّنٌ له؛ كما يُقال في وصف العسل مثلًا بأنَّه حلوٌ، وفي وصفِ المِسك بأنَّه طيِّب الرِّيح[7].

بلاغة الإسناد المجازيِّ في قوله تعال: ﴿أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾:

التخصيص بالأحوال دليلُ حكمةٍ بالغة لذي الجلال

قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: كلُّ شأنٍ ذي حِكمة؛ أي مفعول على ما تقتضيه الحكمة، وهو من الإسناد المجازيِّ، لأنَّ الحكيم

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 498.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 11.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 112.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن: 7/ 246.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 112.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 112.
(7) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 184.

صفة صاحب الأمر على الحقيقة، ووصفُ الأمر به مجازٌ[1]؛ وذلك لأنَّ تخصيص اللّهِ تعالى كُلَّ أحدٍ بحالة مُعَيَّنة من العمُر والرِّزق والأجَل والسَّعادة والشَّقاوة يدُلُّ على حكمةٍ بالغة للّهِ تعالى، فلمّا كانت تلك الأفعالُ والأقضيَة دالَّةً على حكمةِ فاعلِها وُصِفت بكونها حكيمةً، وهذا مِن الإسناد المجازيِّ، لأنَّ الحكيم صفةُ صاحبِ الأمر على الحقيقة، فوَصْفُ الأمرِ به مجازٌ[2].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ للفظ ﴿أَمۡرٗا﴾:

ثراء الدَّلالات بتعدُّد التَّوجيهات والتَّأويلات مِن آيات الإعجاز الباهرات

في نصب قوله تعالى: ﴿أَمۡرٗا﴾ اثنا عشر وجهًا، حاصلُها أنَّ انتصابَه يَرجِع إلى كونه: مفعولا به، ومفعولا له، ومصدرًا، وحالا، وإنَّما التَّكثيرُ بحَسبِ المحالِّ[3]، أو يكون بدلًا مِن الهاء في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أو يكون منصوبًا على الاختصاص؛ أي: أعني بهذا الأمرِ أمرًا حاصلًا مِن عندنا، وكائنًا مِن لدُنّا على مُقتضَى حِكمتِنا، وكما اقتضاه عِلمُنا وتَدبيرُنا، وهو بيان لفخامة الأمر الإضافيَّة بعد بيان فخامته الذّاتيَّة[4].

نكتة تكرار التَّعبير بالأمر، ودلالة تنكيره:

ما يقتضيه علمُ الله تعالى عظيمٌ متفرّدٌ به العليم

المقصود به بالأمر: القرآن أنزله اللّه مِن عنده، أو أنَّه إرسال محمَّد ﷺ نبيًّا أو ما قضاه اللّه في اللَّيلة المبارَكة مِن أحوال عبادِه[5]، فـ"الأمر اسم مشتمل على جميع الأخبار"[6]، وأُعيد ذِكرُه في قوله

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 128.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 616 - 617.
(4) الفراء، معاني القرآن: 3/ 39، والزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1144، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 342 - 343.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 246.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 96.

تعالى: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ لتفخيم شأنه[1]، وأوثر تنكيره للتَّعظيم[2]؛ أي: أعني بهذا الأمر الحكيم أمرًا عظيمًا كائنًا مِن عندنا وحدَنا، وقد اقتضاه عِلمُنا وتدبيرُنا[3].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها في ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾:

من الله تعالى ابتداء الأقضية وهو بُعَيض من قدرته غير المتناهية

الأصل في معنى ﴿مِّنۡ﴾ أنَّه حرفٌ موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[4]، وقوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: مِن جِهَتِنا، وهي لابتداءِ الغاية[5]؛ أي: أنَّ ابتداء فرق الأمور وقضائها وفصلها وتقديرها كان من عند اللّه تعالى، وأعظِم بها مِن نسبة! وأشرِفْ بها مِن بداية! كما "أنَّ مردَّ هذه الكتابةِ والتَّقدير للأشياء إليه وحده؛ فقال: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾[6].

وإنَّ لهذا الحرف ﴿مِّنۡ﴾ لموقعًا في الدَّلالة بديعًا فوق ما تقدَّم، وهو أنَّه دلَّ على أنَّ تقدير الأمور وفصلها وكتابتها على هذا النَّحو المبهر المعجب المعجز ليس مستغرقًا لما تحت قدرة اللّه ﷻ، بل هو بُعَيض ذلك، بل أقلُّ؛ فلأجل هذه النُّكتة أُثْبِت الجارُّ: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: مِن العاديّات والخوارق وما وراءها[7].

معنى العنديَّة وإضافتها إلى ضمير العظمة:

في نسبة القضاء لله ذي الجلال مزيد تفخيم وإجلال

وصف الأمر بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ زيادةً على تفخيم الأمر وتعظيمه؛ إذ فخَّمه أوَّلًا بأنْ وصفه بقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾، ثمَّ زاد في تفخيمه بأن نكَّره، ونصبَه على الاختصاص، ووصفه بقوله: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾؛ أي: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا[8].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 113.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 617.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 7.
(8) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 498.

وهذا الظَّرف ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ هو المقصود الأصليُّ، وإنَّما أُعيد لفظ الأمر تفخيمًا لشأنه، فكان مقتضَى الظّاهر أن يقع قوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾ صفةً لقوله سبحانه: ﴿أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾؛ أي: أمرٍ حكيم مِن عِندنا، فخولف ذلك لهذه النُّكتة؛ أي: أمرًا عظيمًا فخمًا إذا وُصِف بـ ﴿حَكِيمٍ﴾، ثمَّ بكونه مِن عند اللّه تشريفًا له بهذه العِنديَّة، وينصرف هذا التَّشريف والتَّعظيم ابتداءً وبالتَّعيين إلى القرآن إذ كان بنزوله في تلك اللَّيلة تشريفُها وجعلُها وقتًا لقضاء الأمور الشَّريفة الحكيمة[1]، والمراد بالعِنديَّة أنَّه على وفق الحكمة[2].

علّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾:

إرسال الرُّسل بالكتب لأجل الرَّحمة بالعباد

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ إمّا أن يكون بدلًا مِن قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ على معنى: إنّا أنزلنا القرآن؛ لأنَّ مِن شأننا إرسال الرُّسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرَّحمة عليهم، أو جوابًا ثالثًا للقَسَم، أو: مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا؛ يعني: إنّا إنَّما فَعلْنا ذلك الإنذارَ لأجْل ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ يعني: الأنبياء عليهم السلام؛ لأنَّ مِن شأننا إرسالَ المرسَلِين إلى النّاس لأجْل الرَّحمة بهم، والهداية لهم، والرِّعاية لمصالحهم[3]، مشيرًا إلى أنَّه ممّا قضى اللّه به في عباده أن يبعث في هؤلاء الأمِّيِّين رسولًا منهم، يتلو عليهم آيات اللّه ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وذلك ليقيم الحُجَّة على عباده، وليأخذهم بذنوبهم إذا هم عَصَوْا رُسلَه وردّوا الهدَى الذي يحملونه مِن اللّه إليهم، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15][4].

وعلى أيٍّ من التَّأويلات الثَّلاثة فإنَّ حقَّ هذه الجملة أن تُفصَل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 280.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 113.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 653، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 346، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 185.

عن سابقتها، ذلك أنَّه على توجيه البدليَّة أو جواب القسَم فبينها وبين سابقتها تمام اتِّصال، وعلى توجيه الاستئناف البيانيِّ فبينها وبين سابقتها شبه كمال الاتِّصال.

نكتة توكيد جملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾:

يراعي القرآن أحوال المخاطَبين، فيؤكِّد الخطاب إذا وجَّهَهُ للمنكِرين

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ لأنَّه خطاب موجَّه إلى عموم النّاس، وهؤلاء النّاس منهم المؤمنون الموحِّدون، والمشركون المنكِرون والمتشكِّكون، فحسُن توكيده اهتمامًا بالخبر مراعاة لحال المؤمنين، فإنَّ إرسال الرُّسل لهداية البشر مِن الأمور الجليلة التي حُقَّ لها أن تتأكَّد لتُكسَى رداء الاهتمام، كما حسُن توكيده كذلك مراعاة لحال المشركين، ومواجهة لإنكار المعرضين[1].

دلالة التَّعبير بالكون الماضي:

من عادة الله في خلقه، وسُنَّته في عباده أنَّه أرسل لهم رسلًا لإقامة الحُجَّة وبيان المحجَّة

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ أي: من عادتنا إرسال الرُّسل لهداية البشر، واعتبار العادة في بيان المعنى جاء مِن قوله تعالى: ﴿كُنَّا﴾ فإنَّه يُقال: كان يفعل كذا لِما تكرَّر وقوعُه وصار عادةً، ولإفادة هذه النُّكتة عُدل عن (إنّا مرسلون) إلى ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ مع أنَّ الأوَّل أخصَر[2].

فقوله تعالى: ﴿كُنَّا﴾؛ أي: أزلًا وأبدًا ﴿مُرۡسِلِينَ﴾؛ أي: لنا صفة الإرسال بالقدرة عليها في كلِّ حين، والإرسال لمصالح العباد لا بدَّ فيه مِن الفرقان بالبشارة والنِّذارة وغيرهما حتى لا يكون لبسٌ، فلا يكون لأحد على اللّه حجَّة بعد الرُّسل[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿مُرۡسِلِينَ﴾ من حيث مادَّتها وصيغتها:

أصل الرّسَلِ: الانبعاثُ على التُّؤدةِ، والامتدادُ، ومنه: الرَّسولُ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 7.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 114.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 7.

أي: المُنبعِث، وتُصوِّر منه تارة الرِّفق، فقيل: على رِسْلِك، إذا أمرته بالرِّفق، وتُصوِّر منه تارة الانبعاثُ فاشتُقَّ منه الرَّسول، واسترسَلَ الشَّيءُ: سَلِسَ، وأرسلتُ فلانًا في رسالة، فهو مُرسَل ورسول[1].

الإرسال انبعاث بتؤدة، رحمة مِن المرسِل بالمرسَل إليهم، وإتمامًا لمنَّته عليهم

ولمَّا ذَكَر اللّٰه تعالى إنزال القرآن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾؛ ذَكر المرسَل فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾؛ أي: مرسلين الأنبياء بالكتب للعباد[2].

وصيغة اسم الفاعل فيها دالَّة على الثُّبوت والدَّوام؛ أي: مِن عادة اللّٰه سبحانه في خلقه أن يرسل لهم رسلًا تنذرهم وتحذِّرهم وتهديهم وتبشِّرهم.

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُرۡسِلِينَ﴾:

فوائد الرسل لا تعدُّ وفضائلهم لا تحصى

مفعول ﴿مُرۡسِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه مادَّة اسم الفاعل؛ أي: مرسلين الرُّسل الكرام[3] محمَّدًا ﷺ ومَن قَبله مِن المرسَلين[4]، يتلون عليهم آيات اللّٰه مبيِّنات؛ فإنَّ الحاجة كانت ماسَّة إليهم؛ ولهذا قال عَقِيبَه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[5]، هذا وجه في تعيين المحذوف، ويجوز أن يكون المعنى[6]: منزلين ما قضيناه على العِباد، أو: مرسلين رحمةً مِن ربِّك، ولا يخفى ما أفاده الحذف من الرِّعاية على الفاصلة، فكانت حُسنًا على حُسن.

نكتة تنكير ﴿رَحۡمَةٗ﴾، وبيان وجه نصبها:

الإرسالُ بالإنذارِ رحمةٌ بالنّاس ليتجنَّبوا مهاوي العذاب، ويجنوا مكاسب الثَّواب

نُكِّر لفظ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ لإفادة

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رسل).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 398.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 11، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 228، والقنوجي: فتح البيان: 12/ 391.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن: 7/ 246.
(6) الماوردي، النكت والعيون 5/ 246.

التَّعظيم والتَّفخيم[1]؛ فما رَحِم اللّه عبادَه برحمةٍ أجلَّ مِن هدايتهم بالكُتب والرُّسل، وكلُّ خير ينالونه في الدُّنيا والآخرة فإنَّه مِن أجلِ ذلك وسببه، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رُسُله وكُتُبه فرَحِمهم بذلك، ومَنَّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنَّة والإحسان[2].

أمّا عن علَّة نصبه فيجوز أنْ يكون مفعولًا له؛ والمعنى: أنّ مِن عادتِنا إرسالَ الرُّسلِ بالكُتب إلى العباد لأجلِ إفاضةِ رحمتِنا عليهم، أو لاقتضاءِ رحمتِنا السابقةِ إرسالَهم، أو يكون مفعولًا مطلقًا لفعلٍ مقدَّرٍ؛ أي: رَحِمْناكم رَحْمَةً، أو يكون مفعولًا به لقوله: ﴿مُرۡسِلِينَ﴾؛ أي: مرسلين رحمةً، فيُراد بالرَّحمة النَّبيُّ ﷺ، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، أو يكون حالًا أو بدلًا[3].

معنى ﴿مِّن﴾:

الله تعالى مبدأ الرحمة ومصدرها

الأصل في معنى ﴿مِّن﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[4]، وقوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: رحمة عظيمة منشؤها ومصدرها وابتداؤها هو اللّه تعالى، فما أعظمها مِن نسبة، وما أجلَّها مِن صِلة! ولا ريبَ في أنَّ كلاً مِن قسمة الأرزاق وغيرِها والأوامرِ الصّادرة منه تعالى مِن باب الرَّحمةِ، فإنَّ الغاية لتكليف العباد تعريضُهم للمنافعِ[5].

سرُّ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في ﴿رَّبِّكَۚ﴾:

تقتضي الرُّبوبيَّةُ الرَّحمةَ على المربوبين ببعث الأنبياء والمرسَلين

أوثر التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ لِما يتضمَّنه لفظ الرَّبِّ مِن معاني التَّربية التي هي تبليغ الشَّيء إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 113.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(3) الفراء، معاني القرآن: 3/ 39، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1145، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 617، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 571، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59.

كماله شيئًا فشيئًا، والكمالُ الدِّينيُّ أعظم مِن الكمال الحسِّيِّ؛ فتلك التَّربية تكون أعظم أنواع التَّربية[1]، وأيضًا لِما تقتضيه لوازم الرُّبوبيَّة مِن الخلْق، والرِّزق، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والإحسان[2]، وكلُّها مرادة هاهنا، فناسب المقام أن يُعبَّر بها.

وكان ظاهر السِّياق أن يقال: إنّا كنّا مرسِلِين رحمةً مِنّا، لكنَّه عُدِل عنه إلى التَّعبير بالرُّبوبيَّة: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ إيذانًا بأنَّ الرُّبوبيَّة تقتضي الرَّحمة على المربوبين[3]، فقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: المحسِن إليكَ بإرسالكَ وإرسال كلِّ نبيٍّ مضى مِن قَبلِك، فإنَّ رسالاتهم كانت لبثِّ الأنوار في البلاد، وتمهيد الشَّرائع في العِباد، حتَّى استنارَت القلوب، واطمأنَّت النُّفوس، بما صارت تعهد مِن شرع الشَّرائع وتوطئة الأديان، فتسهَّلت طرق الرَّبِّ لتعميم رسالتك حتَّى ملأت أنوارُك الآفاق، فكنتَ نتيجة كلِّ مَن تقدَّمك مِن الرِّفاق[4].

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿رَّبِّكَۚ﴾، وبيان المراد بالخطاب:

في العدولِ ترهيبٌ للكافرين، وترغيبٌ للمؤمنين، وبيانٌ لمكانة رسول ربِّ العالمين

الإضافة في قول الله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ هي إضافةٌ محضَةٌ تفيد التَّعريف[5]، وهي تدلُّ كذلك على التَّشريف؛ أي: تشريف النَّبيِّ ﷺ[6].

ثمَّ إنَّ فيها صرفًا للكلام عن مواجهة المشركين إلى مواجهة النَّبيِّ ﷺ بالخطاب؛ لأنَّه الذي جرى خطابهم هذا بوساطته، فهو كحاضرٍ معهم عند توجيه الخطاب إليهم، فيُصرف وجهُ الكلام تارة إليه كما في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: 29]

(1) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 373.
(2) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، والطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198 - 199.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 8.
(5) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والبروسوي، روح البيان: 8/ 405.

وهذا لقصد التَّنويه بشأنه ﷺ بعد التَّنويه بشأن الكتاب الذي جاء به، وإضافة الرَّبِّ إلى ضمير الرَّسول ﷺ ليتوصَّل إلى حظٍّ له في خلال هذه التَّشريعات بأنَّ ذلك كلَّه من ربِّه؛ أي: بوساطته، فإنَّه إذا كان الإرسال رحمةً كان الرَّسول ﷺ رحمةً كذلك، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، ويعلم مِن كونه ربِّ الرَّسول ﷺ أنَّه ربُّ النّاس كلِّهم إذ لا يكون الرَّبُّ ربَّ بعض النّاس دون بعضٍ، فأغنَى عن أن يقول: رحمةً من ربِّك وربِّهم؛ لأنَّ غرض إضافة (ربِّ) إلى ضمير الرَّسول ﷺ يأبى ذلك، ثمَّ سيصرِّح بأنَّه ربُّهم في قوله: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1]، فجيء هنا بلفظ الرَّبِّ مضافًا إلى ضميره ﷺ على وجه تخصيص الخطاب به ﷺ تشريفًا له ﵇، ودلالة على أنَّ كونه سبحانه ربَّكَ - وأنت مبعوثٌ رحمةً للعالمين - ممّا يقتضي أن يرسل الرَّحمة[2].

نكتة الإظهار في مقام الإضمار:

لا رحمةَ تعادلُ رحــمــة ربِّ العالمين

قوله سبحانه: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ وُضِع فيه الظّاهر مَوضع الضَّمير، ذلك أنَّ إيراد لفظ الرَّبِّ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ ذلك أنَّ مقتضَى الظّاهر أن يقول: رحمة منّا، فوضع الظّاهر موضع الضَّمير، وفائدة هذا الإظهار: الإشعار بأنَّ معنى الرُّبوبيَّة يستدعي الرَّحمة بالمربوبين، وأنَّ هذا الإرسال هو من أحكامِ الرُّبوبيَّة ومقتضياتها[3]، ثمَّ بيَّنَ أنَّ تلك الرَّحمة وقعتْ على وفْقِ حاجات المحتاجِينَ؛ لأنَّه تعالى يسمع تضرُّعاتِهم، ويعلم أنواعَ حاجاتهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 114.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 271، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 654.

علّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تعليلٌ لجملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۞ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: كنّا مرسلِين رحمةً بالنّاس؛ لأنَّ اللّه هو السَّميع العليم[1]، فهو استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، وهو: لماذا يرحم اللّه النّاس بإرسال الرُّسل؟ فالجواب: لأنَّه هو السَّميع العليم.

من حقِّ الاستئناف البيانيِّ أن يُفصَل عن سابقه، ويمهِّد لِلاحقه

وعلى هذا التَّعليل المتداخل بُنِيَت آيات السّورة حتَّى الآن، فكأنَّه لمّا قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ قيل: لم؟ فأجيب: لأنَّه مِن شأننا التَّحذير والعقاب، فقيل: لم خُصِّص الإنزال في هذه اللَّيلة؟ فقيل: لأنَّه من الأمور المحكَمَة، ومِن شأن هذه اللَّيلة أن يُفرق فيها كلُّ أمر حكيم، فقيل: لِمَ كان مِن الأمور المحكَمَة؟ فأجيب: لأنَّ ذا الجلال والإكرام أراد إرسال رحمة للعالمين، ومِن حقِّ المنزل عليه أن يكون حكيمًا؛ لكونه للعالمين نذيرًا، وداعيًا إلى اللّه بإذنه وسراجًا منيرًا، فقيل: لماذا رحمهم الرَّبُّ ﷻ بذلك؟ فأجيب: لأنَّه ﷻ هو وحدَه سميع عليم، يعلم جزئيّات أحوال عباده وكلِّيّاتها، ويعلم ما يحتاجون إليه دنيا وآخرة، وهو وحده ربُّ السَّماوات والأرض، يربِّيهم ويرزقهم ويمنحهم مرافقهم، وهو وحدَه يحييهم ويميتهم، ويثيبهم ويعاقبهم، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[2].

نكتة التوكيد بـ(إنَّ):

يحسن بالأخبار المهمَّة أن تؤكَّد، فلا يبقى ريب في قلب متردِّد

أُكِّد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ اهتمامًا بالخبر، وردًّا على المنكِرين، وذلك يعني أنَّ الرَّحمة المذكورة في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ كانت رحمةً في الحقيقة؛ لأنَّ المحتاجِينَ إمّا أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإمّا أنْ لا يذكروها، فإنْ ذَكَروها فهو تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(2) الطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف: 14/ 197.

يسمع كلامهم فيعلم حاجاتهم، وإنْ لم يذكروها فهو تعالى عالمٌ بها، فثبت أنَّ كونه سميعًا عليمًا يقتضِي أن ينْزِل رحمته عليهم[1]، فحسن لأجل ذلك توكيده.

دلالة توسيط ضمير الفصل مع تعريف الطَّرفين:

عـلَّـة الرُّبـوبيَّة مـنـحـصـرةٌ في السَّميع العليم المستحقّ لها

أفاد توسيطُ ضمير الفصل مع تعريف الطَّرفين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ الحصرَ؛ أي: هو السَّميع العليم لا أصنامكم التي تدَّعونها، وفي هذا إيماء إلى الحاجة إلى إرسال الرَّسول إليهم بإبطال عبادة الأصنام[2]، فالجملة تحقيق لربوبيَّته ﷻ وأنَّها لا تحقُّ إلّا لِمَن هذه نعوتُه[3]، وهذا يفيد انحصار الرُّبوبيَّة فيه سبحانه لانحصار علَّتها فيه ﷻ[4].

بلاغة الكناية الرَّمزيَّة:

عـلَّـة الإرسـال إرادةُ الصَّلاح، ورحـمـة الخلق بتهيئة أسباب الفلاح

الاسمان الجليلان: السَّميع والعليم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تعليلان لجملة ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ بطريق الكناية الرَّمزيَّة؛ "لأنَّ علَّة الإرسال في الحقيقة هي إرادة الصَّلاح ورحمة الخَلْق، وأمّا العلم فهو الصِّفة التي تجري الإرادة على وفقها، فالتَّعليل بصفة العِلم بناء على مقدِّمة أخرى، وهي أنَّ اللّه تعالى حكيم لا يحبُّ الفساد، فإذا كان لا يحبُّ ذلك وكان عليمًا بتصرُّفات الخَلْق كان علمه وحكمته مقتضِيَيْن أن يرسل للنّاس رُسُلًا رحمةً بهم"[5].

معنى التَّعريف والمبالغة في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

لا تـخـفـى على الـلـه تـعـالى خافية، والسِّرُّ عنده علانية

السَّميع والعليم: صفتا مبالغة مشتقَّتان مِن الفعلَيْن: سَمِع، وعَلِم؛ أي: كثير السَّمع والعِلم عظيمهما[6]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 655.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 374.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(6) الهلال، الثري الجامع: 10/ 419.

أي: يسمع كلَّ شيءٍ مِن شأنه أن يُسمَع، ويعلم كلَّ شيءٍ مِن شأنه أن يُعلَم، فلا يخفى عليه شيءٌ مِن أقوال العِباد وأفعالهم وأحوالهم، وهو تحقيق لربوبيَّته ﷻ، وأنَّها لا تحقُّ إلّا لَمن هذه صفاته الجليلة[1].

بلاغة مناسبة ختام الآية بهذين الاسمين الجليلين:

في تخصيص هذين الاسمين الجليلين إدماج لمعنى وعيد الكافرين، ووعد المؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تعليل لقوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ أي: كنّا مرسِلين رحمةً بالنّاس؛ لأنَّه سبحانه عَلِم عبادة المشركين للأصنام، وعَلِم إغواء أئمة الكفر للأُمم، وعَلِم ضجيج النّاس مِن ظُلم قويِّهم ضعيفَهم، وعَلِم ما سوى ذلك مِن أقوالهم؛ فأرسل الرُّسل لتقويمهم وإصلاحهم، وعَلِم أيضًا نوايا النّاس وأفعالهم، وإفسادهم في الأرض؛ فأرسل الرُّسل بالشَّرائع لكفِّ النّاس عن الفساد، وإصلاح عقائدهم وأعمالهم، فأُشيرَ إلى عِلْم النَّوع الأوَّل بوصف ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّ السَّميع هو الذي يعلم الأقوال فلا يخفى عليه منها شيء، وأُشيرَ إلى عِلْم النَّوع الثّاني بوصف ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الشّامل لجميع المعلومات[2].

وفي تخصيص ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إدماجٌ لمعنى التَّهديد والوعيد للكُفّار، والوعد للمؤمنين الذين تلقَّوْا هذه النِّعمة بأنواع الشُّكر[3]، وهو تعليل للإرسال متضمِّن للتَّعريض؛ للإشعار بأنَّ آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئًا[4].

سرُّ تقديم صفة السَّمع على صفة العِلم:

الأقوال تُظهرُ مكنونات النفوس، وتغيّر الأحوال

قُدِّمتْ صفة السَّمع على صفة العِلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ للاهتمام بالمسموعات؛ لأنَّ أصل الكفر هو دعاء

(1) البروسوي، روح البيان: 8/ 405.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(3) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 199، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 282.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 198.

المشركين أصنامهم[1]؛ لكون "الأقوال هي الظاهرة لنا الدّالة على ما في الباطن"[2]، و" لأنه لا بد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه"[3]، وهذه من عادات القرآن، حيث جاءت صفة السَّمع في آياته مقدَّمة على صفة العِلم والبصر والقُرب[4].

توجيه القراءات القرآنيَّة في ﴿رَبِّ﴾:

قرأ الجمهور: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ برفع ﴿رَّبُّ﴾، والرَّفع فيه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ؛ أي: هو ربُّ السَّماوات والأرض، أو: أنَّه خبرٌ آخرُ بعدَ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أو: أنَّه مبتدأ، وخبره جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ بجرِّ ﴿رَبِّ﴾ على أنَّه بدل مِن قوله: ﴿رَّبِّكَۚ﴾، أو بيانٌ أو نعتٌ[5].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

ربُّ السَّماوات والأرض هو الذي لا يخفى عليه شيء مما يقوله عباده ومـمّا يفعلونه

إذا جرينا على قراءة الرَّفع - ابتداءً أو خبرًا - فهو مِن الاستئناف البيانيِّ؛ إذ التَّقدير: إن أردت أن تعرف مَن هو السَّميع العليم فهو ربُّ السَّماوات والأرض[6]، وعليه فبين الجملتين شبه كمال الاتِّصال، وإذا جرينا على قراءة الجرِّ - بدلًا أو نعتًا - فهو مِن كمال الاتصال، وكلا الأمرين - كمال الاتِّصال أو شبهه - موجِب للفصل.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

إذا كان المُنزل (اللهُ) موصوفًا بهذه الجلالة، كان المُنزَل (القرآنُ) في غاية الشَّرف والرِّفعة

الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إضافة محضة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 281.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 654.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 121.
(4) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس: (سمع).
(5) أبو عليّ الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 6/ 165، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 424، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 12، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والسَّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 618، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 571، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

تفيد التَّعريف[1]، غرضها تعظيم المضاف، فربٌّ يملك السَّماوات والأرض وما بينهما هو ربٌّ عظيم جليل، حقيق أن يُعبَد؛ فكيف بعد ذلك يجحده الكافرون لأجل أصنام لا تبصر ولا تسمع، ولا تضرُّ ولا تنفع، ولا تغني ولا تشفع، ولا تملك ذرَّة في السَّماوات والأرض؟!

معنى التَّعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

مُلْكُ الله قد عمَّ الآفـاق، وآلاؤه لا تـنـفـكُّ عـن الإشراق

أفاد التَّعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معنى الاستغراق، ليعمَّ ذلك كلَّ السَّماوات والأرضين، فكلُّ ذلك ملْكٌ للّه الواحد الأحد، وهو من مقتضيات ربوبيَّته سبحانه.

ويصحُّ أن تكون اللّام للعهد، وذلك للتَّسجيل على الكافرين وإقامة الحجَّة على المعاندين؛ أي: هو ربُّ السَّماوات التي عهدتموها تُظلُّكم، والأرض التي عَهِدتموها تُقلُّكم، ولم تدَّعِ السَّماوات ولا الأرض أنَّ لهما ربًّا غير اللّه، فكيف كفرتم أنتم؟! أفَتَحمِلُكم نعماؤه، وتُظلُّكم آلاؤه، ثمَّ تجاهرون بالكفر سافرين؟!

معنى (ما) في ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾:

من كمال قدرة اللّـه تـعـالى، ونـفـاذ إرادتـه استيعاب كلَّ ما يقع في الوجود

(ما): تقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل، فهي أوسع استعمالًا مِن أختها (مَن) وأكثر منها إبهامًا؛ فإنَّ (مَن) تختصُّ بالعقلاء[2]، ومِن هنا يُفهَم مِن التَّعبير بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أنَّه يفيد استيعاب كلَّ ما يقع بين السَّماوات والأرض، عاقلًا كان أو غير عاقل، فقد استغرقت (ما) كلَّ ذلك، ودلَّ عليه إطلاق أَلِفها، وتوسيع الصَّوت بها، وقد وصَفَ اللّه سبحانه ذاتَه العليَّة بما يدلُّ على كمال قدرته، ونفاذ إرادته، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾؛ أي: ما بينهما مِن هواء، ومِن مخلوقات لا يعلمها إلّا اللّه تعالى[3].

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 73.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 117.

نكتة بناء فاصلة الآية على أسلوب الشَّرط:

في الشَّرط إلزام للمشركين بما كانوا به يقرّون، ولكنَّهم ظلّوا في شكِّهم يلعبون

بُنِيَت فاصلة الآية على أسلوب الشَّرط تحريكًا للمشركين بأنَّهم يُقرّون بأنَّ اللّه تعالى خالقُ العالَم، وأنَّه أنزل الكُتُب، وأرسل الرُّسل رحمةً منه، وأنَّ ذلك منهم مِن غير عِلْم وإيقان؛ ولذلك جاء بعده قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: في شَكٍّ لا يزالون فيه يلعبون، فإقرارهم ليس عن جدٍّ ولا تيقُّن(1).

وهذا عَوْدٌ إلى مواجهتهم بالتَّذكير على نحو ما ابتدأت به السّورة، وهو تخلُّصٌ للاستدلال على تفرُّد اللّه تعالى بالإلهيَّة إلزامًا لهم بما يُقرّون به مِن أنَّه سبحانه ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما، ويقرّون بأنَّ الأصنام لا تخلُق شيئًا، غير أنَّهم معرضون عن نتيجة الدَّليل ببطلان إلهيَّة الأصنام، فلذلك تكرَّر في القرآن تذكيرُهم بأمثال هذا مِن مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: 17] وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: 20 - 21](2).

ففي هذا الشَّرط تنزيلُ إيقانهم منزلةَ عدمه لظهور خلافِه عليهم، وهو مُرادُ مَن قال: إنَّه مِن باب تنزيل العالم منزلةَ الجاهل لعدم جريه على موجب العِلم(3)، وذلك أنَّهم كانوا مُقرِّين بأنَّ اللّه سبحانه هو ربُّ السَّماوات والأرض، فقيل لهم: إن كنتم على بصيرة وإيقان مِن ذلك فلا تشكّوا فيه، أو إن كنتم موقنين بشيءٍ فأيقنوا بما أخبرتكم، أو إن كنتم تريدون اليقين فاعلموا ذلك(4).

نكتة التَّعبير بحرف الشَّكِّ ﴿إِن﴾:

الإيمان بربّ العالمين لازمه التسليم واليقين

أوثر التَّعبير بحرف الشَّكِّ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 399.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 103.

﴿مُّوقِنِينَ﴾ لأنَّهم لمّا كانوا مقرِّين بهذه الرُّبوبيَّة ويأنفون مِن وصْفِهم بأنَّهم غير محقِّقين لشيء يعترفون به، أشار إلى ما يلزمهم بهذا الإقرار إنْ كانوا كما يزعمون مِن التَّحقيق فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾؛ أي: إنْ كان لكم إيقان بأنَّه الخالق[1]، فنزَّلهم منزلةَ المشكوك في إيقانهم لعدم جريهم على موجب الإيقان للّه بالخالقيَّة حين عبدوا غيرَه بأنْ أُتِي في جانب فرْضِ إيقانهم بطريقة الشَّرط، وأُتِي بحرف الشَّرط الذي أصلُه عدمُ الجزم بوقوع الشَّرط[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بفعل الكينونة:

لم يقع قولهم من أنفسهم موقع اليقين الذي تدعمه الأدلّة والبراهين

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ حثٌّ للمشركين، وتحريضٌ لهم على الإيمان والتَّفكُّر والتَّبصُّر[3]، وقد أفاد هذا التَّركيب ما لن يفيده (إن أيقنتم)، وذلك لمكان (كان) التي تدلُّ على الاستمرار والدَّوام، وثبوت الصِّفة للموصوف، بخلاف الفعل الماضي الذي قد يقع مِن فاعِلِه لمرَّة واحدة فقط.

والنُّكتة هنا أنَّ هذه الآية جاءت ردًّا على زعم المشركين بأنَّهم مقرّون بِربوبيَّة اللّه تعالى، وأنَّهم لم يكفروا به، فجاء الرَّدُّ: إن كنتم - كما تزعمون - ثابتين على اليقين، ومستمرِّين على الإيمان بربِّ العالَمين لأقررتم بما جاءكم به رسولكم الأمين ﷺ، فلمّا لم يقرّوا بذلك، بل ظلّوا في شكِّهم يلعبون، فُهِم مِن فحوى الخطاب أنَّهم لم يحصل منهم يقين أصلًا، بل كانوا مستمرِّين على خلافه! فهو تعريضٌ باضطرابهم، وسَدَرِهِم في غيِّهم.

بلاغة الإيجاز بحذف جواب الشَّرط:

الإيمان بيقين سرّ عبادة المُخلَصين

جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 9 - 10.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 205.

عليه المقام، والتَّقدير: إنْ كنتم موقنين فلا تعبدوا غيرَه؛ ولذلك أعقبه بجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، أو: إن كنتم مِن أهل الإيقان عَلِمْتم كونَه سبحانه ربَّ السَّماوات والأرض؛ لأنَّه مِن أظهر اليقينيّات دليلًا، وحينئذٍ يلزمكم القولُ بما يقتضيه ممّا ذُكِر أوَّلًا[2]، أو: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بشيءٍ فهذا أولَى ما توقنون به لفرط ظهوره، أو: إن كنتم مريدين لليقين فاعلموا ذلك[3]، أو: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنَّ الله سبحانه هو ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾، فأيقِنوا أنَّ محمَّدًا ﷺ رسولُه، وأنَّ القرآن تنزيلُه[4].

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُّوقِنِينَ﴾:

المـوقـن يسعـى إلــى تـرسيـخ معتقده، وتأكيد علمه بخالقه

حُذِف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُّوقِنِينَ﴾ للعِلم به مِن قوله: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾[5]؛ أي: إن كنتم موقنين به، ويجوز أن يكون المعنى: إن كنتم ممَّن عنده شيء من الإيقان وطرف من العلوم اليقينيَّة، على أنَّ ﴿مُّوقِنِينَ﴾ المتعدِّي مُنَزَّل منزلة اللّازم لعدم القصد إلى ما يتعلَّق به[6]، أو أنَّ مفعوله مقدَّرٌ؛ أي: إن كان إقرارُكم إذا سُئلتم: مَن خلق السَّماوات والأرض؟ فقلتم: الله - صادرًا عن يقين، وعِلم به تحقَّق عندكم ما قلناه[7].

ويجوز أن يُراد بالموقِن ها هنا الذي يريد اليقينَ ويطلُبه، كما تقول: فلانٌ يُنْجِدُ؛ أي: يُرِيدُ نَجْدًا، ويُتْهِمُ؛ أي: يُرِيدُ تِهامَةَ[8]، وفيه - مع ما تقدَّم - رعاية على الفاصلة، فتعانق حسن اللَّفظ مع جودة المعنى وروعة السَّبك.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(3) البروسوي، روح البيان: 8/ 405.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 23/ 511.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(7) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 129.

بلاغة الالتفات من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

في الالتفات تنبيه للغافل، وتذكير للعاقل بأن يعرف أنّه الخالق

خطاب الجمع في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تنبيه للكُفّار عن سُنَّة الغَفلة والتَّقاعد عن موجبات الشُّكر، فرجع إليهم مِن خطاب الرَّسول ﷺ في قوله: ﴿رَّبِّكَۚ﴾، موبِّخًا بما اشتهر عندهم مِن الوصف الذي لا بدَّ لهم أن يُقرّوا به، فأبدل مِن ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، يعني: هذا المذكور مِن إنزال الكتب وإرسال الرَّسول ﷺ رحمة وإنعام ممَّن تقرّون به، وتقولون: إنَّه خالق السَّماوات والأرض وما بينهما، فما هذا التَّهاون؟! فاقبلوها واغتنموا الفرصة إن كنتم تدَّعون الإيقان[1].

ويحتمل أنْ يكون هذا الخطابُ مع المعترِف بأنَّ اللّه خَلَق السَّماوات والأرضَ؛ أي: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ به فاعلموا أنَّ له أن يُرسِلَ الرُّسُل، وينزل الكتب، ويجوزُ أن يكون الخطاب مع مَن لا يَعترفُ أنَّه الخالق؛ أي: ينبغي أن يعرفوا أنَّه الخالق، وأنَّه الذي يُحْيِي ويُمِيتُ[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ عن سابقه:

انفراد تعالى بالربوبيَّة دليلٌ على انفراده بالإلهيَّة

تقدَّم في توجيه قراءة الرَّفع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ أنَّه إمّا على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، والتَّقدير: (هو ربُّ السَّماوات والأرض)، وإمّا أنَّه خبر آخر بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وإمّا على أنَّه مبتدأ، وخبره هو جملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]، فهي بهذا التَّأويل جملةٌ مستأنَفة مقرِّرةٌ لما قبلَها، وقيلَ: هي في محلِّ رفع خبر لقولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ - على قراءة الرَّفع - وما بين الجملتين اعتراضٌ[4].

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 199.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 129.
(3) السَّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 618، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 571.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 59، والبروسوي، روح البيان: 8/ 405، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 654.

وعلى كلٍّ فهي نتيجة للدَّليل المتقدِّم؛ لأنَّ انفراد اللّه سبحانه بربوبيَّة السَّماوات والأرض وما بينهما دليلٌ على انفراده بالإلهيَّة، أي: على بطلان إلهيَّة أصنامهم، فكانت هذه الجملة نتيجة لذلك؛ فلذلك فصلت لشدَّة اقتضاء الجملة التي قبلها إيّاها[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بالقصر نفيًا واستثناءً:

لا يستحقُّ العبادةَ غيرُ الله تعالى

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تنبيه على تمام دليل الوحدانيَّة؛ لأنَّه لا شيء ممَّن في السَّماوات والأرض يبقى ليُسنَد التَّدبير إليه، ويُحال شيء مِن الأمور عليه، فهما جملتان: الأولى نافية لما أثبتوه مِن الشَّركة، والثّانية مثبِتة لما نفَوْه مِن البعث[2].

وهو أسلوب قصر سُلِكت فيه طريقة النَّفي والاستثناء، ومن المتقرِّر أنَّ القصر بالنَّفي والاستثناء إنَّما يكون فيما ينكره المخاطَب[3]، وهو قصرُ إفراد لا قصرُ قلْب؛ لأنَّ المشركين كانوا يُثبتون الألوهيَّة للّه تعالى ويشركون معه غيره، فردَّ اللّه عليهم بكونه لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه[4].

نكتة التَّعبير بعنوان الألوهيَّة بعد التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة:

تمام العبوديَّة يكون بتوحيد الأُلوهيَّة بعد توحيد الرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ تنبيه على تمام دلائل التَّوحيد[5]، فبعد إثبات الرُّبوبيَّة للّه أثبت الوحدانيَّة، فهو الإله الواحد الذي لا إله غيره، وأثبت القدرة فهو المحيي والمميت، يحيي ما يشاء، ويميت ما يشاء، ثمَّ أكَّد الرُّبوبيَّة على البشر بالذّات، فهو ربُّكم أيُّها المخاطبون وربُّ آبائكم وأجدادكم الأوَّلين، ومدبِّر شؤونهم، فهو المستحقُّ للعبادة، دون غيره مِن الآلهة المزعومة[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 11.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 279.
(5) نووي الجاوي، مراح لبيد: 2/ 392.
(6) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 208.

وقد ذُكر توحيد الرُّبوبيَّة إجمالًا في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾، ثمَّ تفصيلًا بذِكر صفة عموم العِلم التي هي صِفة المعبود بحقٍّ بصيغة قصر القَلْب المشير إلى أنَّ الأصنام لا تسمع ولا تعلم، وبذِكر صفة التَّكوين المختصَّة به تعالى بإقرارهم؛ ارتقاءً في الاستدلال على تفرُّد الله سبحانه بالإلهيَّة إلزامًا لهم بما يُقرّون به مِن أنَّه ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما، ويُقرّون بأنَّ الأصنام لا تخلق شيئًا، غير أنَّهم معرِضون عن نتيجة الدَّليل ببطلان إلهيَّة الأصنام[1].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

لا يـقـدر على الإحياء والإماتة إلّا الـلـه، فلا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواه

قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ جملة مستأنَفَة للاستدلال على أنَّه لا إله إلا هو بتفرُّده بالإحياء والإماتة[2]، فهي مقرِّرة لما قبلَها، فالمراد بالإحياء: إحياء الجماد، والمراد بالإماتة: الإماتة بدون تخريب البُنيان، ومعلومٌ بديهةً أنَّه لا يقدر على ذلك إلّا هو سبحانه؛ ولذلك اختير الفصل على الوصل[3]، فهو استئناف بيانيٌّ[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

لمّا يزل الله تعالى مُحيِيًا مُميتا، مقتدِرًا مُقيتًا

استعمال المضارع في قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ للدَّلالة على الاستمرار[5]، فإنَّ الله ﷻ لمّا يزل مُحييًا ومُميتًا، ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29]، وهذا مِن كمال قدرته سبحانه، واستحقاقه للرُّبوبيَّة والألوهيَّة، وللتَّعريض بأنَّ آلهة المشركين لا تقدر على شيءٍ مِن هذا، فكيف ألَّهوها؟! قاتَلَهم الله أنَّى يُؤفَكون!

بلاغة الطِّباق بين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

مَن يخلق ليس كمن لا يخلق

بين قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ﴾، و﴿وَيُمِيتُۖ﴾ طباق إيجاب، يؤكِّد طلاقة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 284.
(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.
(4) محمود صافي، الجدول: 13/ 118.
(5) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.

قدرة الله تعالى على الأمرين، فهو يخلق مِن العدم، ويهب الحياة لِمَن خلَق، فتسري فيه الرّوح حيَّة نابضة، ويسلب الحياة مِن الأحياء فتكون جثثًا هامدة، ولا يملك هذا أو يقدر عليه إلّا الواحد الأحد!

نكتة حذف متعلَّق الفعلين ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

حُذِف مفعولا الفعلين للتَّعميم اختصارًا؛ بمعنى: يُحيِي الأموات، ويُميت الأحياء، أو يُحيِي بعضًا أو قرنًا، ويُمِيت بعضًا أو قرنًا[1].

مناسبة التَّعبير بالإحياء والإماتة في سياق الاستدلال على التَّوحيد:

لا أحد من أهل السَّماء والأرض يبقى ليُسنَد التَّدبير إليه، ويُحال شيء مِن الأمور عليه

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هو منطق المستيقن؛ أي: الذي عَلِمَ عن يقين أنَّ اللّه ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما، فمَن عَلِم هذا واستيقنه، أسلَمه هذا العِلم إلى أنْ يعلم ويستيقن أنَّ ربَّ السَّماوات والأرض وما بينهما، ينبغي أن يكون الإله المتفرِّد بالألوهيَّة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأنَّه سبحانه هو الذي ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، وأنَّه سبحانه ربُّ النّاس جميعًا، السّابقين والحاضرين واللّاحقين[2].

فخصَّ الإحياء والإماتة بالذِّكر مِن بين الأفعال لأنَّهما أدلُّ على القدرة الكاملة مع الإشارة إلى دليل إمكان البعث[3].

والمشركون لا ينازعون في أنَّ اللّه هو المحيي والمميت، فكما استدلَّ عليهم بتفرُّده بإيجاد العوالم وما فيها استدلَّ عليهم بخلْق أعظم أحوال الموجودات، وهي حالة الحياة التي شُرِّف بها الإنسان عن موجودات العالَم الأرضيِّ، وكُرِّم أيضًا بإعطائها للحيوان لتسخيره لانتفاع الإنسان به بسببها، وبتفرُّده بالإماتة وهي سلب الحياة عن الحيِّ للدَّلالة على أنَّ الحياة ليست ذاتيَّة للحيِّ، ولمّا كان تفرُّده

---

(1) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 493.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 187.

(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.

بالإحياء والإماتة دليلًا واضحًا في أحوال المخاطَبين وفيما حولَهم مِن ظهور الأحياء بالولادة، والأموات بالوفاة يومًا فيومًا مِن شأنه أن لا يجهلوا دلالته بَلْهَ جحودهم إيّاها ومع ذلك قد عبدوا الأصنام التي لا تحيي ولا تميت؛ أعقب بإثبات ربوبيَّته للمخاطَبين تسجيلًا عليهم بجحد الأدلَّة وبكفران النِّعمة(1).

فقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾؛ أي: هو خالق العالم، فلا يجوز أن يُشرَك به غيرُه ممَّن لا يقدر على خَلْق شيء، فهو سبحانه يُحيي الأموات ويُميت الأحياء(2).

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الفصل لعلَّة كمال الاتِّصال، تعظيمًا للرَّبِّ ذي الجلال

الرّافع للباء من قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يجوز أن يكون على التَّبعيَّة: بدلاً، أو عطفَ بيان، أو نعتًا لقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على قراءة الرَّفع فيه، ويجوز أن يكون الرَّفع على الابتداء، فيكون قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ مبتدأ، والخبرُ قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويجوز أن يكون الرَّفع على الخبريَّة، فيكون قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبرًا بعد خبرٍ لقولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أو خبرًا لمبتدأ مضمَرٍ؛ أي: هو ربُّكم، ويجوز أن يكون الرَّفع على الفاعليَّة، فيكون قوله: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ فاعلًا لقولِه: (يُميتُ).

أمّا قوله تعالى: ﴿يُحۡيِۦ﴾ ففيه ضميرٌ يرجع إلى ما قبله؛ أي: يُحْيي هو؛ أي: ربُّ السَّماوات، وكان التَّقدير: ويُميتُ هو، فأوقَعَ الظّاهرَ موقع المضمَر، فقال: ﴿وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ﴾(3)، فعلى أيٍّ مِن التَّوجيهات السّابقة فإنَّ الفصل متعيِّن؛ لأنَّه مِن باب كمال الاتِّصال.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 129.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 618.

استيعاب الأوَّلين والآخرين، والتَّسجيل على المخاطَبين

دلالة عطف قوله تعالى: (رَبِّ آبائِكُمْ) على ﴿رَبُّكُمۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ أي: هو ربُّ الجميع[1]، وإنَّما عطف قوله تعالى: (رَبُّ آبائِكُمُ الأوَّلِينَ) على قوله سبحانه: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ ليسجِّل عليهم الإلزام بقولهم قبلُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢﴾ [الزخرف: 22][2]؛ فلذلك خصَّ التَّربية بهم وبأسلافهم جريًا على سنن الخطاب، وتقريرًا لمزيد توخِّي شكر تلك الرَّحمة السَّنيَّة، وهذه النِّعمة الجليلة العليَّة[3].

أقام الله الحُجَّة على المشركين بالبيِّنات، وألزمهم بما كان لهم مِن مقالات

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿ءَابَآئِكُمُ﴾ ودلالة وصفه بـ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

يُطلَق الأبُ في اللُّغة على الأبِ الأدنى (الوالد)، والأبِ الأعلى (الجَدِّ)، والعمِّ، كما في [البقرة: 133]؛ إذ سمَّى إبراهيم أبًا، وهو جَدٌّ ليعقوب، وسمَّى إسماعيل أبًا، وهو عَمٌّ ليعقوب، على رُسِل اللّه وأنبيائه جميعًا الصَّلاة والسَّلام، والمراد بالآباء في قوله تعالى: ﴿ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الأجدادُ مجازًا، وخُصّوا بالذِّكر؛ لأنَّهم سببٌ لهم ولآبائهم بالذّات؛ فالامتنان بهم أمسُّ بالمقام[4]، ووُصِفوا بالأوَّلين؛ لأنَّ المخاطَبين جعلوا أقدم الآباء حجَّة أعظم مِن الآباء الأقربين، كما قال تعالى حكاية عنهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [المؤمنون: 24][5].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

المُبِين هو الواضح بالبُعد أو الموضِّحُ بالفَصل والتَّمييز، والأصل في الظّاهر ظهرُ الإنسان

المبين والواضح والظّاهر:

جذر الواضح يدلُّ على ظهور الشَّيء وبُروزِه[6]، وجذر الظّاهر:

(1) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد 5/ 279.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200.
(4) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 17/ 375.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(6) ابن فارس، المقاييس: (وضح).

أصلٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروز، وانكشاف، ولذلك سُمِّيَ وقتُ الظُّهرِ والظَّهيرة، وهو أظهَر أوقات النَّهار وأضوؤُها، وتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ ما يدلُّ عليه الأصلان متقاربان، ولكنَّ الأصلَ في الظُّهور والظّاهر: ظَهرُ الإنسان، وهو خِلاف بطنه، وهو يجمع البُروزَ والقوَّة[1]، مع شدَّة وغلظ، كالظَّهر من الأرض (ما غلُظَ وارتفَع)[2].

أمّا جذر المبين: فهو بُعدُ الشَّيء وانكشافُه[3]، هو امتدادٌ بين طرفين أو جانبَين مع فصلٍ كبير أو اتساع[4]؛ كما يَرفع البِوانُ (هو عمود من أعمدة الخِباء)[5] سقْفَ الخباء فيفصله عن الأرض ويوسِّعه؛ ومن ذلك الفصل والتمييز جاء معنى الوضوح والظهور في تراكيب الجذر؛ لأنَّ المفصولَ المتميّز من غيره يلفت النَّظر[6].

ويتبيَّن ممّا سبق أنَّ المُبِينَ يعني: الواضح بالبُعد أو الموضِّح بالفَصل والتَّمييز، لذا أوثِر في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ أي: البَيِّن لِمَن أُنْزِلَ عليهم لكونه بلُغتِهم وعلى أساليبهم[7]، وفي ذلك بُعدٌ عن الإبهام والإشكالِ واللَّبْس، أو الذي أبانَ طريقَ الهُدَى من طريقِ الضلالةِ وأبانَ كلَّ ما تحتاجُ إليه الأمَّة[8]، وفي ذلك فَصلٌ وتمييز.

الإنذار والتَّخويف:

الإنذار تخويفٌ مع إعلام موضع المخافة

الإنذارَ: تخويفٌ مع إعلام موضع المخافة، مِن: نذِرت بالشيء إذا علِمته فاستعددت له؛ فإذا خوَّفَ الإنسانُ غيرَه وأعلَمَه حالَ ما يخوِّفه به فقد أنذرَه، وإن لَم يُعلِمْه ذلك لم يقل أنذره[9].

---

(1) ابن فارس، المقاييس: (ظهر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(3) ابن فارس، المقاييس: (بين).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بون - بين).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (بون).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بون - بين).
(7) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 236، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 39، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 64.
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 7، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 202، والزمخشري، الكشّاف: 4/ 236.
(9) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

وتبيَّن ممّا سبق أنَّ في الإنذارِ إقامةَ الحُجَّةِ على النّاس؛ لأنَّ المُنذِرَ يُخبِرُ بأمرٍ فيه ضُرٌّ لِقَصدِ أنْ يتَّقيَه المخبَرُ به؛ ولذا أوثر لفظ الإنذار على التَّخويف في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، وفي آيات أُخَر، كما في سورة يونس الآية (2)، وسورة نوح الآية (1).

الفرق والفصل والفَلْق:

يُقضى في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ كلُّ ما هو كائنٌ في السَّنة

الفصلَ: لا يكون إلا ظاهرًا، أمّا الفرق فقد يكون ظاهرًا أو غير ظاهر[1]؛ ولذلك سُمِّي يوم القيامة يوم الفصل، لأنَّ الفصلَ بين الخلائق يظهر فيه، وأوثِرَ لفظُ الفرق دون الفصل في قول اللّه ﷻ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾؛ لأنَّه يُقضَى ويُكتَب في هذه الليلة من اللَّوح المحفوظ كلُّ ما هو كائنٌ في السَّنة من الخير والشَّر والأرزاق والآجال، فيمشي الرَّجلُ في الأسواق وقد وقعَ اسمُه في الموتى[2]، فلا يُدرك ذلك إلا حين يُدركه الموت.

والفَرْقُ يقارب الفَلْق، لكنَّ الفَلْق: يقال اعتبارًا بالانشقاق، والفرق يقال اعتبارًا بالانفصال، وفَرَقْتُ بين الشَّيئين؛ أي: فصَلتُ بينهما، سواء كان ذلك بفَصلٍ يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، وقوله تعالى: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤﴾ [المرسلات: 4]؛ يعني: الملائكة الذين يفصِلون بين الأشياء حسبما أمرهم اللّه تعالى، وعلى هذا قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[3].

الإرسال والبعث:

في الإرسال جديد، وفي البعث إحياءُ منهجٍ كان موجودًا سابقًا

الإرسال: يدلُّ على الانبعاث والامتداد[4]، والرِّسْل: الانبعاث على التؤدة، ومنه: الرسول المنبعث، وتصوّر منه تارة الرِّفق، فقيل: على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 150.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 227، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 279.
(3) الراغب، المفردات: (فرق).
(4) ابن فارس، المقاييس: (رسل).

رِسلك، إذا أمرته بالرِّفق، وتارة الانبعاث؛ فاشتقّ منه الرَّسول[1]، وأصل البعث: هو الإثارة[2]، والتوجيه[3].

ويفترق الإرسالُ عن البعث بأنَّ الإرسالَ يكون بإرسالِ شيءٍ جديد؛ أي: برسالة جديدة، أو منهج جديد، أو تغيّر، أو تعديل في المنهج السابق، بحسب الزَّمان والمكان، أمّا البعث: فهو إحياء منهج كان موجودًا سابقًا، وغفل عنه النّاس، فإذا أراد اللّه ﷻ إحياء نفس المنهج الذي غفل عنه النّاس، بعث اللّه رسولًا أو نبيًّا لإحياء معالم ذلك المنهج السّابق الذي اندثر[4]، والإرسال: لا يصاحبه إثارة ولا تهييج ولا حثٌّ كما في البعث، أمّا البعث: فيصاحبه إثارة وحضٌّ وتهييج على القيام بالعمل، وحثٌّ عليه[5]، والإرسال: يكون من مكان إلى مكان، أو إلى مكان جديد، أمّا البعث فيكون إلى المكان نفسه، أو القرية نفسها، أو المدينة نفسها[6]، والنبيُّ ﷺ هو خاتم الرُّسلِ والأنبياء، ورسالته هي الرِّسالة الخاتمة، وهو ﷺ رحمةٌ للنّاس كافَّة[7]، ولِذا أوثِر لفظُ الإرسال دون البَعث في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

اليقين والتَّصديق:

مَـنْ أيقنَ قد لا يُصَدِّق

التّصديق: قد يكون مؤخَّرًا عن الإيقان، ولا يكون الإيقان مستلزمًا للتصديق، كالذي شاهد المعجزة فيحصل له العلم اليقينيّ بأنه نبيّ، ومع ذلك لا يصدِّقه؛ فاليقين الضروريّ ربما يحصل ومع ذلك لا يحصل التَّصديق الاختياريّ[8].

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، المقاييس: (بعث).
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/ 221، و222.
(7) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 229، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 193.
(8) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 213.

والمشركون أيقنوا بأنَّ اللّهَ ﷻ هو ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما، ولكنَّهم لم يصدِّقوا بعد إيقانِهم؛ لذا أوثِر لفظُ الإيقان دون التصديق في قول اللّه ﷻ: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وقد نزَّلهم اللّه ﷻ منزِلةَ المشكوكِ في إيقانِهم لعدَم جَريِهم على موجِب الإيقان للّه ﷻ بالخالقيَّة حين عبدوا غيرَه؛ فأُتِي بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾ الذي أصلُه عدمُ الجَزْمِ بوقوعِ الشَّرط[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الدُّخان: 9 - 12]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

يَعظُم المشهد بعِظَم أهواله، وتقلُّب صوره وتغيُّر أحواله

لمّا جاء ذكر اليوم الذي يرجع فيه النّاس لربِّ العالمين في أواخر حم الزخرف فقال سبحانه: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٨٣﴾ [الزخرف: 83]، ولم يُذكر يومٌ معيَّنٌ، ولم يُذكر وصفه كذلك، وكان أكثرهم منكرًا لما لزمه القطع به، أخبر ﷻ بأن قال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾، ليُبَيِّنَ: أنَّهُم غير موقنين بحقيقة ما يُخْبَرونَ به من هذه الأخبار، ثمّ بيَّن سبحانه بعض صفات ذلك اليوم متوعِّدًا بذلك المنكرين المستهزئين، فقال: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[1]، ولمّا كان من المعلوم أنَّهم يقولون عند إتيانه جريًا على عادة جهلهم: ما هذا؟ أجيبوا: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ولمّا انحلّت عُرى تلك العزائم، ووهت تلك القوى من كل عازم، وسفلت بعد العلوِّ تلك الشوامخ من الهمم مدَّعين أنَّهم لغاية الإذعان من أهل القرب والرضوان: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ ثمَّ علَّلوا ذلك بما علموا أنه الموجب كشفه، فقالوا مؤكدين لما لحالهم من المنافاة لخبرهم ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾: أصل (رقب) يدلُّ على انتصاب لمراعاة شيء[3]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 396، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 15 - 16.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رقب).

ورَقَبْتُه: حفظته، والرَّقيب: الحافظ، وحارس القوم؛ وذلك إما لمراعاته رَقَبَة المحفوظ، وإما رفعه رَقَبَتَه، والرَّقيب: المنتظِر، تقول رَقَبْتُ الشَّيء أرقُبه رُقوبًا ورِقبة ورِقبانًا: إذا رصدته[1]، والمَرقَب والمَرقبة: المكان الذي يُشرِف عليه الرَّقيب، وترقَّب: احترز راقِبًا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21]: ينتظر ويتوقَّع ماذا يكون[2]، والتَّرقُّب: الانتظار للشَّيء وتوقُّعه، وكذلك الارتقاب[3]، وترقَّبه وارتقبه: انتظره ورصده، وراقب اللّٰهَ في أمره: خافه[4]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: انتظر[5].

2) ﴿بِدُخَانٖ﴾: أصل (دخن) يدلُّ على ما يكون عن الوقود، ثم يكون فيه كدرة إلى السواد ونحوه[6]، فالدُّخان: المستصحَب للَّهيب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: 11][7]، وجمعه: أدخِنَة ودَواخِن، ودخَنَت النّار تدخِن وتدخُن: كثر دخانها وارتفع، ودَخِنَت النّار تدخَن: إذا ألقيت عليها حطبا، وأفسدتها حتى يهيج لذلك دخان يشتدُّ[8]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ أي: بجدَب بيِّن، يقال إنَّ الجائع كان يرى بينه وبين السَّماء دخانا من شدَّة الجوع؛ لأنَّ الأرض قد أجدبت وأصابت قريشًا مجاعة[9].

3) ﴿يَغۡشَى﴾: أصل (غشي) يدلُّ على تغطية شيء بشيء[10]، وغَشِيَه غِشاوة وغِشاء: أتاه ما قد غشيه، أي: ستره، والغِشاوة والغِشاء: ما يغطَّى به الشَّيءُ من غطاء ونحوه، وغشَّيتُ الشيءَ تغشية: غطَّيته، واستغشى بثوبه، وتغشَّى بثوبه: تغطَّى به كي لا يسمع ولا يرى[11]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7]؛ أي: تغطَّوا بها حتى لا يروا بأعينهم

(1) الجوهري، الصحاح: (رقب).
(2) الراغب، المفردات: (رقب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رقب).
(4) الخليل، العين: (رقب).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رقب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دخن).
(7) الراغب، المفردات: (دخن).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (دخن).
(9) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 656، وابن منظور، لسان العرب: (دخن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غشي).

الدّاعي، ولا يصغوا إلى كلامه، والغِشيان والغاشية: كل ما يغطِّي الشَّيءَ[1]، وقوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أي: يشملهم ويحيط بهم[2].

4) ﴿ٱكۡشِفۡ﴾: أصل (كشف) يدلُّ على سَرْوٍ وإزالة الغطاء ونحوه عن الشَّيء[3]، والكشف: رفعك شيئًا عما يواريه ويغطِّيه[4]، وكَشَفْتُ الثَّوب عن الوجه وغيره أكشِفه كشفًا، وكشَّفه فانكشف وتكشَّف، ويقال: كشف غمَّه، ويقال: تكشَّف البرق، إذا ملأ السَّماء[5]، ومعنى اكشف هنا: ارفع عنا العذاب وأزلهُ عنّا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تهديد الله للمشركين بالعذاب فيه كبير عظة وعبرة لأولي الألباب

يخبر المولى ﷻ في هذه الآيات عن حال هؤلاء المشركين تجاه الخطاب القرآنيِّ المرشد إلى طريق الحقِّ والهداية فَيُبَيِّنُ: أنَّهم غير موقنين بحقيقة ما يُخْبَرونَ به من هذه الأخبار، فهم في شكٍّ من القرآن قد اشتغلوا عنه باللَّعِبِ الباطل الَّذي لا يجدي عليهم إلا الضَّرَرَ، وإذا كان الحال كذلك أيُّها الرَّسولُ الكريمُ، فانتظر بهؤلاء المشركين من قومك يومًا عصيبًا تأتي فيه السَّماءُ بدخان ظاهر واضح يُغطِّي النّاسَ ويَعُمُّهُم، فيقولون لشدَّةِ الهَوْلِ: هذا عذابٌ موجِعٌ مؤلم، فيستغيثون قائلين: ربَّنا ارفعْ عنّا العذاب؛ فإنّا مؤمنون بك وبنبيِّك إنْ كشفته عنّا[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

الخوض في الباطل، واللهو عن الحقّ أمارةُ خلوّ الإيمان واليقين

قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ هو جواب قوله: ﴿إِن كُنتُم

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غشي).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 100.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كشف).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (كشف).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 13 - 22، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 771.

مُّوقِنِينَ﴾، فكأنَّه قال: لا يوقنون، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ يعني: يخوضون في الباطل[1]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهذا السُّؤال هو: فماذا كان منهم؟ هل آمنوا وأيقنوا؟ فجاء الجواب: لم يؤمنوا ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾.

دلالة استفتاح الآية بحرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾:

في معنى ما تفيده ﴿بَلۡ﴾ قولان:

الإيقان يستتبع قبول البرهان

أحدهما: أنَّه إضراب إبطاليٌّ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبه[2]؛ لأنَّهم لو كانوا موقنين حقًّا بذلك لأخلصوا للّه تعالى العبادةَ والطّاعة، فيكون المعنى: إنَّ هؤلاء الكُفّار لم يكونوا موقنين بأنَّ ربَّ السَّماوات والأرض وما بينهما هو اللّه، بل قالوا ما قالوا في ذلك على سبيل الشَّكِّ واللَّعب[3]، فـ"هو كالعدم؛ لأنَّهم خلطوه بالشَّكِّ واللَّعب، فارتفعت عنه خاصيَّة اليقين والإقرار التي هي الجري على موجب العِلم، فإنَّ العِلم إذا لم يجْرِ صاحبُه على العمل به وتجديد ملاحظته تطرَّق إليه الذُّهول، ثمَّ النِّسيان، فضعفَ حتَّى صار شكًّا لانحجاب الأدلَّة التي يرسخ بها في النَّفس؛ أي: هم شاكّون في وحدانيَّة اللّه تعالى"[4]، و" ليسوا بموقنين في إقرارهم بربوبيَّته؛ لأنَّ الإيقان يستتبع قبول البرهان، وإنَّما قولهم في الإيمان هو قولٌ ممزوج بلَعِب، لغشيانِ أدخنةِ أهويةِ نفوسِهم بصائرَ قلوبِهم وأرواحهم"[5].

---

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 268.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 272، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 654، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 118.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 408.

فهو إضراب قبله نفيٌ مقدَّر، كأنَّه يقول: ليس هؤلاء ممَّن يؤمِن ولا ممَّن يتبع وصاة، ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم[1].

والقول الآخر في معنى ما تفيده ﴿بَلۡ﴾: هو أنَّها للإضراب الانتقاليِّ؛ لأنَّ الكلام بها انتقل مِن بابٍ مِن أبواب المعاني إلى باب آخر[2].

نكتة تقديم الضمير ﴿هُمۡ﴾:

تمكين الخبر في ذهن السّامعين، وتأكيد نسبة الشَّكِّ إلى المعاندين

قُدِّم الضمير ﴿هُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ لتمكين الخبر في ذهن السّامع عن طريق التَّشويق له؛ لأنَّ هذا مِن شأنه أن يلفت الانتباه إلى أنَّ هؤلاء سيُذكرون بأمرٍ مهمٍّ، فتستشرف النَّفس إلى معرفة ذلك، وتستيقظ، وتلتفت، فيصادفها حرفُ الظَّرف الدّاخل على الشَّكِّ، وأنَّ هؤلاء ليسوا شاكِّين فحسب، وإنَّما هم داخلون في الشَّكِّ وكائنون فيه فهو يغشاهم ويحيطهم[3].

نكتة التَّعبير بالضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾:

هؤلاء القرشيّون المشركون في شكٍّ يمترون ولا يوقنون

أفاد الضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ معنى: التَّوكيد[4]، والمقصود به: مشركو قريش[5]؛ إذ المعنى: بل هؤلاء المشركون في ﴿شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾؛ أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشُكّون فيه ويمترون، ويُعرِضون ولا يصدقون[6].

ذلك أنَّ هذه الآيات جاءت معقِّبة على مطلع السّورة، ومع أنَّه لم يسبق كلامٌ عن أحدٍ فالمتبادَر مِن نصِّ الآيات أنَّ الضَّمير الغائب عائد إلى الكُفّار[7].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 69، والعليمي، فتح الرحمن: 6/ 245.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 582، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 119، والهلال، الثري الجامع: 10/ 421.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 583.
(4) الهلال، الثري الجامع: 10/ 421.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 12، ومأمون حموش، التفسير المأمون: 7/ 223.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 246.
(7) محمد دروزة، التفسير الحديث: 4/ 538.

المشركون في الشَّكِّ غارقون، وهم في ريبهم يتردَّدون

معنى ﴿فِي﴾:

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[1]، وهذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِي شَكّٖ﴾، فالإتيان بحرف الظَّرفيَّة كان لأجل الدَّلالة على شدَّة تمكُّن الشَّكِّ مِن نفوسهم حتَّى كأنَّه ظرفٌ محيطٌ بهم لا يجدون عنه مخرجًا؛ أي: لا يفارقهم الشَّكُّ، فالظَّرفيَّة استعارةٌ تبعيَّة مثل الاستعلاء في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][2]، والمعنى: هم منغمرون في الشُّكوك والشُّبهات، غافلون عمّا خُلقوا له، قد اشتغلوا باللَّعب الباطل الذي لا يُجدِي عليهم إلا الضَّرر[3]، وهذا أبلغ مِن (يشكّون)؛ إذ إنَّ قوله: ﴿فِي شَكّٖ﴾ قد جعل الشَّكَّ ظرفًا لهم مجازًا، وقُيِّد بأنَّهم ﴿يَلۡعَبُونَ﴾[4].

المشركون منغمرون في شكٍّ عظيم، وجُرم أثيم

دلالة تنكير ﴿شَكّٖ﴾:

أوثر تنكير ﴿شَكّٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ لإفادة التَّعظيم؛ أي: هؤلاء الكافرون في" شكٍّ عظيم ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون ممّا هو مطابق لنفي الأمر عن جِدٍّ وإذعان، بل يقولونه مخلوطًا بهزء"[5].

يسمع المشركون القرآن سماع اللّاعب المرتاب، الغارق في الشَّكِّ والاضطراب

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ ودلالة مجيئه مضارعًا:

اللَّعب فعلٌ يجرى على غير ترتيب تشبيهًا باللُّعاب الذي يسيل لا على نظامٍ مخصوص[6].

وجملة ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ في محلِّ رفع خبرٍ ثان للمبتدأ ﴿هُمۡ﴾، ويجوز أن تكون هي الخبر، ويكون الظَّرف ﴿فِي شَكّٖ﴾ متعلِّقًا بالفعل، وقُدِّم رعايةً

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 375.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(6) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 381.

للفاصلة[1]، وعُبِّر بالمسند الفعليِّ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لتقوية الحكم وتوكيده، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿يَلْعَبُونَ﴾ قد أُسنِد مرَّتين: مرَّة إلى المبتدأ ﴿هُمْ﴾، ومرَّة إلى الضَّمير المتَّصل، وهو واو الجماعة العائد أيضًا على المبتدأ ﴿هُمْ﴾، فهو بمثابة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحكم ويثبت في الذِّهن[2].

وتجري هذه الصِّياغة في المقامات التي تدعو إلى التَّوكيد، والتَّقرير مثل ردِّ الدَّعوى التي يدَّعيها المخاطَب، وإرادة المتكلِّم تثبيت كلامه في نفوس المتلقِّين[3]، وهذا هو داعي التَّوكيد هنا، حيث ردَّ القرآن على المشركين ادِّعاءهم الإيمان مؤكِّدًا بأنَّ ذلك لم يكن عن يقين، بل هو قول قالوه بأفواههم، قد دنَّسه اللَّعب والهزء.

ويجوز أن تكون جملة ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالا مِن ضمير ﴿هُمْ﴾؛ أي: اشتغلوا عن النَّظر في الأدلَّة التي تُزيل الشَّكَّ عنهم وتجعلهم مهتدين - اشتغلوا عنها بالهزء واللَّعب في تلقِّي دعوة الرَّسول ﷺ، فكأنَّ انغماسَهم في الشَّكِّ مقارنٌ لحالهم مِن اللَّعب، ولهذه الجملة الحاليَّة موقعٌ عظيم؛ إذ بها أفيد أنَّ الشَّكَّ حاملٌ لهم على الهزء واللَّعب، وأنَّ الشُّغل باللَّعب يزيد الشَّكَّ فيهم رسوخًا بخلاف ما لو قيل: (بل هم في شكٍّ ولَعِب)[4].

وأمّا إيثار صيغة المضارعة فللدَّلالة على تجدُّد ذلك اللَّعب وحدوثه في كلِّ زمن يستقبلونه[5]؛ أي: يفعلون دائمًا فِعلَ التّارك لما هو فيه مِن أَجَدِّ الجِدِّ الذي لا مِرية فيه، إلى اللَّعِب الذي لا فائدة فيه ولا ثمرة له[6]، فما يستمعون إليه إلّا استماع الأطفال الذين يشغلهم اللَّعب عن كل حديث فيه جِدٌّ[7]، فإنَّهم في شكٍّ لا يزالون فيه يلعبون، فإقرارهم ليس عن جدٍّ ولا تيقُّنٍ[8]، بل يسمعون سماع لاعب، ويقولون قول لاعب، ويقبلون قبول لاعب[9]!

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 115، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 494، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 119.
(2) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(3) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.
(5) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 583.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 12، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 581.
(7) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 188.
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 399.
(9) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 122.

انـصرف الكلام عنهم لمّا انصرفوا عـن الـجِـدّ إلى اللَّعب

بلاغة الالتفات مِن الخطاب إلى الغيبة:

في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ التفات إلى الغيبة ﴿هُمۡ﴾ بعد الخطاب في ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهذا الالتفات عن خطابهم إنَّما كان لفرط عنادهم وعدم التفاتهم، فبعَّدهم وطردهم[1]، والتفت عنهم تحقيرًا لشأنهم، وإعراضًا عنهم، وإبعادًا لهم عن موقف الخطاب، حين أفرطوا في العناد ولم يقبلوا رَسولَ مَن يقرّون أنَّه خالق السَّماوات والأرض وما بينهما، ولم يقبلوا كتابه؛ لكونهم مِن أهل الشَّكِّ والامتراء، وكون أفعالهم الهزء واللَّعب لعدم التفاتهم إلى البراهين القاطعة، وعدم تمييزهم بين الحقِّ والباطل، والضّارِّ والنّافع[2].

حــال الـقــوم مِــن الـلَّـعــب والاضــطــراب يــســتــوجــب الوعيد بالعقاب

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾:

في معنى الفاء من قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ قولان؛ **أحدهما**: أنَّها التَّفريعيَّة، حيث رتَّبت جملة: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ على جملة: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ ترتيب تفريع، فإنَّ كونَهم في شكٍّ ممّا يوجِب ذلك حَتْمًا؛ أي: فانتظر لهم ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[3]، وقد قُصِد من هذا التَّفريع وعد الرَّسول ﷺ بانتقام اللَّه تعالى مِن مكذِّبيه، ووعيد المشركين على جحودهم بدلائل الوحدانيَّة وصدق الرَّسول ﷺ وعكوفهم على اللَّعب؛ أي: الاستهزاء بالقرآن والرَّسول ﷺ، وذكر له مخوِّفات للمشركين لإعدادهم للإيمان وبطشة انتقام مِن أئمتهم تستأصلهم[4].

والآخر: أنَّها الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر،

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 501.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 60، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 654، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 115.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 283.

تقديرُه: إذا عرفت حالهم هذا، وأردت بيان عاقبتهم، فأقول لك: انتظر يا أكمل الرُّسل لكفّار مكَّة ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[1].

الغرض من الأمر في ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، وتعيين المخاطب به:

الوعيد بالعقاب تثبيتٌ لخير البشر، وتخويف للكفّار من العذاب المنتَظَر

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ معناه: فانتظرْ يا خير الرُّسل لمشركي قومِك يوم تأتيهم السَّماء من البلاء الذي يحلُّ بهم على كفرهم بمثل الدُّخان المبين لَمن تأمَّله أنَّه دخان[2]، فالخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والأمرُ مستعمَل في التَّثبيت[3]؛ تسلية للرَّسول ﷺ، وأمرًا له بالصَّبر حتى يحكم اللّٰه بينه وبين قومه[4].

وممّا زاد ذلك حسنًا كونُه واردًا على طريقة الالتفات مِن الغيبة في ﴿هُمۡ فِي شَكّٖ﴾ إلى الخطاب الرَّفيق: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، فقابل إنزال الكتاب بإنزال العقاب مِن السَّماء، يعني: إنَّما أنزلنا الكتاب رحمة لهم، ولكنَّهم أعرضوا عنه، فانتظر إنزال العذاب عليهم[5]، وهذه الطَّريقة هي طريقة القرآن الكريم في توعُّد الكُفّار والتَّأنِّي بهم وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرَّسول الكريم ﷺ والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم[6].

دلالة التَّعبير بلفظ الارتقاب:

الارتقاب انتظار فيه تحفُّظ وترقُّع، ولا يكاد يقال إلّا في المكروه المتوقَّع

الارتقاب هو افتعال، مِن: رقبْته، إذا انتظرته وحرسته[7]، ولا يكاد يُقال ذلك إلّا في المكروه[8]، وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: انتظر بكلِّ جهد عاليًا عليهم، ناظرًا لأحوالهم نَظَرَ مَن هو حارسٌ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 121، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 349.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 19.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 285.
(4) طنطاوي، الوسيط: 13/ 119.
(5) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 13، والزمخشري، الكشاف: 4/ 272.
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 656.

لها، متحفِّظًا مِن مِثلها، بِهِمَّةٍ كهِمَّة الأسد الأرقب[1]؛ فإنَّ وعيدهم قد قرب زمانه، وآن أوانه[2].

ويجوز أن يكون معناه احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، ولذلك سُمِّي الحافظ رقيبًا[3].

وفعل (ارْتَقِبْ) يقتضي بصريحه أنَّ إتيان السَّماء بدخان لم يكن حاصلًا في نزول هذه الآية، ويقتضي كناية عن اقتراب وقوعه كما يرتقب الجائي من مكان قريب[4]، فهو افتعال وراءه احتشاد واحتفال واهتمام وتوقُّع، وهذا ظاهر مِن أنَّ رسول اللّه ﷺ قد بلغ منه الأسى والأسف مِن قومه ما بلغ[5].

تعيين مفعول ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾:

يــوم مـجـيء الـوعـيد واقـعٌ مرتقَب

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: فانتظر، ويقال ذلك في المكروه، والمعنى: انتظر يا خير الرُّسل عذابَهم، فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذُكِر بعدَه عليه، وهو قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، ويجوز أن يكون مفعول الارتقاب هو قوله: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾[6]، ويصحّ كون فعل الارتقاب متعديًّا، ولكنَّه قُصِر تهويلًا لذهاب الوهم في مفعوله كلَّ مذهب[7].

دلالة التَّعبير بـ ﴿يَوۡمَ﴾، وتوجيه نصبه:

يــوم الـعـقـاب وما يقع فيه من حــوادث جلـيَّة من أشدّ الأهوال

أطلق اليوم على الزَّمان في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، فإنَّ ظهور الدُّخان كان في أيّام وشهور كثيرة[8]، فالمراد

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 12، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 772.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 247، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 130.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 285.
(5) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 584.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 98، والزمخشري، الكشاف: 4/ 272.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 13.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

باليوم: مطلق الزمان، وما فيه مِن حوادث[1]، ويجوز في نصب ﴿يَوۡمَ﴾[2]: على أنّه مفعولٌ به لـ ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾؛ أي: فارتقِب يومًا؛ أي: فانتظرْه، فاليوم مرتَقَب، وليس بمرتقَبٍ فيه[3]، ويجوز النصب على أنّه ظرفٌ له، ومفعوله محذوف، وهو النِّقمة أو العذاب، وما أشبه ذلك؛ أي: ارتقب وعد اللّه في ذلك اليوم.

معنى التعريف في ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ ودلالة إفرادها:

عــذابٌ مُـنـزَّلٌ من الملك القهار عـظـيـم الـشأن دقيق الأسرار

المقصود بالسَّماء في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ هو: جهة العلوِّ[4]، وهو المعنى اللُّغويُّ للسَّماء[5]، وفيه دلالة ظاهرة على أنَّ العذاب الذي تأتي به السَّماء في صورة دخان مستعلٍ عليهم متمكِّنٌ منهم، قاهرٌ لهم، لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إلى مقاومته، وأنَّه مِن قوَّة علويَّة لا تُقهر[6].

بلاغة المجاز العقليّ في ﴿تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ﴾:

مـن الأدب مع الـلـه سبحانه نـسبةُ كـلِّ خير إلى تـقـديـره وفـعــالــه، وتنزيهه عمّا لا يليق بجلاله

إسناد الإتيان بالدُّخان المبين إلى السَّماء مِن قبيل الإسناد إلى السَّبب (وهذا على تأويل الدُّخان بالقحط كما سيأتي بيانه)؛ فالسَّماء لا تأتي بالقحط والمجاعة، وإنَّما يحصل القحط والمجاعة بعدم إمطار السَّماء فإسناد إتيانهما إليها مِن قَبيل إسناد الحكم إلى سببه[7].

وإنَّما لم يُسند إلى اللّه ﷻ مع أنَّه سبحانه الفاعل حقيقة؛ ليكون

---

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 376، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 116.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1145، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 572، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 619، وابن عادل، اللباب: 17/ 314، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 494.

(3) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 315، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 4، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 116.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 376.

(6) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 585.

(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 100، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 5، والبروسوي، روح البيان: 8/ 406، والجمل، حاشية على الجلالين: 7/ 118.

الكلام مع سابقه المتضمِّن إسناد ما هو رحمة إليه تعالى شأنُه، على وزان قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: 10][1].

ويجوز أن تكون عَلاقة هذا المجاز هي المكانيَّة (على تأويل الدُّخان بأنَّه المعدود مِن أشراط السّاعة)؛ لأنَّ السَّماء مكانه حين يتصاعد في جو السَّماء أو حين يلوح للأنظار منها[2].

ولمّا كان القوم في مقام الجِدِّ لاعبين؛ اشتدَّ غضب اللّه تعالى عليهم، واتَّسع فصارت السَّماء مِن جند اللّه، وصار الدُّخان مِن جند اللّه، فأرسلتِ السَّماءُ عذابها وصبَّته على أعداء اللّه، وهذا هول آخر عظيم[3]!

معنى الباء في ﴿بِدُخَانٍ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[4]، وهو بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، فكأنَّ السَّماء جاءت بهذا الدُّخان ملتصِقةً به، والباء لتعدية فعل المجيء إلى الدُّخان[5].

نكتة تنكير (دُخانٍ) ودلالة وصفه بـ ﴿مُّبِينٍ﴾:

جلاء الدُّخان يكشف ما وراءه من أهوال، ويُبين عمّا يلابسه من أحوال

أوثر تنكير (دُخانٍ) لإفادة التَّعظيم والتَّهويل، والمبين: البيِّن الظّاهر، وهو اسم فاعل مِن (أبان) الذي هو بمعنى (بان)، والمعنى: أنَّه ظاهرٌ حالُه لكلِّ أحد، فلا يشُكُّ أحدٌ في رؤيته، ولا في

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 200، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 585.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(5) البروسوي، روح البيان: 8/ 406، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 349، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 120.

أنَّه دخان[1]، فيراه النّاس جميعًا، ويحسّونه بحواسِّهم، ويشعرون به شعورًا جليًّا[2].

وإيثار كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ على (بيِّن) للدَّلالة على أنَّ الدُّخان يُبِين ويكشف ما وراءه مِن أهوال وأحوال[3].

شـــدّة الـجـوع تـهـيّء للجائع الظلمة دخانًا

معنى الدخان بين الحقيقة والمجاز:

تعددتِ التوجيهات في معنى الدُّخان بين أنّه ما أصاب قريشًا حين دعا رسولُ اللّه ﷺ ربَّه ﷻ على قريش أن يأخذهم بسنين كسِنِي يوسف، فأُخِذوا بالمجاعَة، وأصيبوا في أبصارهم مِن شدَّة الجوع مِن الظُّلمة كهيئة الدُّخان وليس به، والحديث في صحيح البخاريِّ ومسلم[4]، ويقتضي هذا صرفَ اللَّفظ عن حقيقته إلى المجاز[5]؛ لأنَّ مردَّه إلى ما يتوهَّمه الجائع كهيئة الدُّخان مِن شدَّة الجهد، فهو تشبيه بليغ؛ أي: بمِثل دخان[6]، أو أنَّ إطلاق الدُّخان على ذلك المرئيِّ وإرادة الجدب والمجاعة منه مجازٌ مرسَل مِن باب ذِكر المسبَّب وإرادة السَّبب[7]، أو يكون ذلك تمثيلًا لهيئة ما يراه الجائعون مِن شِبه الغشاوة على أبصارهم حين ينظرون في الجوِّ بهيئة الدُّخان النّازل مِن الأفق، فالمجاز في التَّركيب، وأمّا مفردات التَّركيب فهي مستعمَلَة في حقائقها؛ لأنَّ مِن معاني السَّماء في كلام العرب قبَّةُ الجوِّ، وتكون جملة: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ ترشيحًا للتَّمثيليَّة؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 273، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

(2) طنطاوي، الوسيط: 13/ 121.

(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 585.

(4) ذكره البخاري في مواضع من صحيحه بأرقام: (1007، و1020، و4693، و4774، و4809، و4822، و4823، و4824)، في كتابي: الاستسقاء والتفسير، ومسلم برقم: (2798) في كتاب صفة القيامة، باب الدخان.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 116 - 117.

لأنَّ الذي يغشاهم هو الظُّلمة التي في أبصارهم مِن الجوع، وليس الدُّخان هو الذي يغشاهم[1].

أو أنَّه مِن أشراط السّاعة، التي لم تقع بعد، وفيه يمكث الدّخان في الأرض أربعين يومًا يملأ ما بين السَّماء والأرض، فأمّا المؤمِن فيصيبه مثل الزُّكام، وأمّا الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مسامعهم، ويضيِّق أنفاسهم، وهو مِن آثار جهنَّم يوم القيامة، أو أنَّه يوم فتح مكَّة لما حجبت السَّماءَ الغبرةُ[2]، وفيهما يكون معنى الدُّخان على حقيقته، لكنَّ الإسناد إلى السَّماء مجاز[3]، ووجه اجتماع جَعْل الدُّخان قبل يوم القيامة مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ﴾ ؟ فالجواب: إذا جاء الدُّخان ضجَّ المؤمنون والكافرون وسألوا الله الرَّحمة والعفو، فيكشف عنهم، فيعودون لما كانوا عليه[4].

المؤمن من الدّخان في أمان دائم قبل قيام السّاعة وبعدها

وعلى هذا فالدُّخان يحتمل المعنيين[5]، فإنَّه غير منكَر أن يكون أحلَّ بالكفّار الذين توعَّدهم بهذا الوعيد ما توعَّدهم، ويكون مُحِلًّا فيما يستأنف بعدُ بآخرين دخانًا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك، لأنَّ الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأنَّ ذلك كائنٌ، فكلا الخبرين اللّذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح[6]، ومتى نزِّلت هذه الآيات على هذين المعنيين لم تجد في اللَّفظ ما يمنع مِن ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتمَّ المطابَقَة[7].

هول العقاب بالدّخان عظيم وقعتِ العقوبة أم لم تقع

فالحاصل أنَّه لا منافاة بين كون هذه الآية نازلة في الدُّخان الذي كان يتراءى لقريش مِن الجوع، وبين كون الدُّخان مِن آيات السّاعة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 288.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 13 - 19، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن 16/ 130 - 131.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 377.
(4) السخاوي، تفسير القرآن العظيم: 2/ 316.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 100.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 19.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 773.

وعلاماتها وأشراطها[1]؛ إذ يمكن الجمع بين الحديثين والقول: إنَّ كليهما صحيح، فذلك دخانٌ قد حدث زمن الرَّسول ﷺ وكان يشبه الدُّخان مِن شدَّة الفقر والمجاعة، ودخان آخر قادم مِن أشراط السّاعة[2].

بلاغة الكناية في لفظ الدّخان:

الجدبُ ظلمة للجوّ وأذى للنفس

قد يقال للجوع والقحط: الدُّخان؛ ليُبْس الأرض في سنة الجدب، وارتفاع الغبار بسبب قلَّة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجدب: الغبراء[3]، فإطلاق الدُّخان على شدَّة القحط وغلبة الجوع على سبيل الكناية؛ لأنَّ في عام القحط يظلم الجوُّ لقلَّة الأمطار وكثرة الغبار؛ ولذا يقال لسنة القحط: السَّنة الغبراء، كما قالوا: عام الرَّمادة[4]، وكان بعض العرب يسمّون الشَّرَّ الغالب دخانًا، ووُجِّه ذلك بأنَّ الدُّخان ممّا يُتأذَّى به، فأُطلق على كلِّ مؤذٍ يشبهه، وأريد به هنا: الجدب[5].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ في موضع جرٍّ، مِن صفة قوله: ﴿بِدُخَانٖ﴾[6]؛ أي: بدخانٍ مُبينٍ غاشٍ[7]، وعلى هذا فبين الجملتين كمال اتِّصال، وهو مِن علل الفصل.

توجيه قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

لا ينجو مِن عذاب الله إلّا مَن رحم

معنى قوله تعالى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ أنَّه يحيط بهم ويعمُّهم كما تحيط الغاشية بالجسد؛ أي: لا ينجو منه أحد مِن أولئك النّاس وهم

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 393.

(2) الهلال، الثري الجامع: 10/ 422.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 132.

(4) البروسوي، روح البيان: 8/ 406.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 116 - 117.

(6) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 100، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 572.

(7) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 619.

المشركون، فإنْ كان المراد مِن الدُّخان ما أصاب أبصارهم مِن رؤية مثلِ الغبرة مِن الجوع فالغشيان مجاز، وإن كان المراد منه غبار الحرب يوم الفتح فالغشيان حقيقة أو مجاز مشهور، ويجوز أن يكون غبارًا متصاعدًا في الجوِّ مِن شدَّة الجفاف[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡشَى﴾:

استحضار صورة الغشيان عظة لكلّ انسان

أوثر التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ لاستحضار الصّورة وكأنَّها مشاهَدَة رأي العين، تملؤها الحياة والحركة، أو لمناسبة قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، فإنَّ المضارع يدلُّ على الحال والاستقبال.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾:

النّاس هم كفّار أهل مكّة، أو من أدركوا وقت الاشراط، أو هم عامّة أهل الأرض

في المراد بالنّاس ثلاثة أقوال حسبما تقدَّم في تأويل معنى الدُّخان[2]: فإنْ كان الدُّخان هو الجوع والقحط الذي رأتْه قريشٌ، فـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ خاصٌّ بالكفّار مِن أهل مكَّة، وكشفه اللّه تعالى عنهم بدعاء النَّبيِّ ﷺ، وإنْ كان الدُّخان مِن أشراط السّاعة، فـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ عامٌّ فيمن أدركه وقتُ الأشراط، ومن جعل ذلك يومَ القيامة فـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ عامٌّ على أهل الأرض وقتئذ، وإنْ كان الدُّخان هو ما أثارته الخيل مِن الغبار يوم فتح مكَّة فالمراد بـ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ مَن حضروه.

الدّخان عقاب يصيب جميع المشركين الذين يشهدونه

ويجوز ان يكون التَّعريف للعهد، والمراد بالنّاس مِن قوله: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ هم المشركون الذين كفروا وكذَّبوا، كما هو الغالب في إطلاق لفظ ﴿ٱلنَّاسَۖ﴾ في القرآن، وأنَّه يكشف زمنًا قليلًا عنهم إعذارًا لهم لعلَّهم يؤمنون، وأنَّهم يعودون بعد كشفه إلى ما كانوا عليه، فإنَّ الكلام يؤذن بأنَّ هذا الدُّخان المرتَقَب حادث قريب الحصول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 289.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 100، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 399، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 117، والصاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 61.

فالظّاهر أنَّه حدث يكون في الحياة الدُّنيا، وأنَّه عقاب للمشركين لا ينجو منه أحدٌ منهم[1].

علّة فصل قوله تعالى ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الإخبار عن العذاب بأنه أليم وصفٌ لحالهم في الجحيم

فصل قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر، ذلك أنَّه لمّا كان مِن المعلوم أنَّهم يقولون عند إتيانه - جريًا على عادة جهلهم -: ما هذا؟ أُجيبوا بقوله تعالى - حكاية عن لسان الحال، أو قول بعضهم أو بعض أولياء الله -: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في محلِّ نصب بالقول، وذلك القول حالٌ؛ أي: قائلين ذلك، ويجوز أن لا يكون معمولًا لقول البتَّة، بل هو مجرَّد إخبار[3]؛ فلأجل ذلك فُصِل.

تعيين القائل: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

القول للمشركين تألُّمًا، أو لله تعالى تعجيبًا، و تبكيتًا

اختُلِف في تعيين قائل هذا القول[4]: فإمّا أنَّهم الكافرون الذين غشيهم العذاب؛ يعني: أنَّهم يقولون ممّا نالهم مِن ذلك الكرب والجهد: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهو الموجع، وترك مِن الكلام (يقولون) استغناء بمعرفة السّامعين معناه مِن ذكرها، ويؤيِّد هذا التّأويل سياقُهُ حكايةً عنهم أنَّهم يقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾.

أو أنَّه من قول الله تعالى لهم تعجيبًا منه سبحانه على نحوٍ مِن قوله تعالى لمّا وصف قصَّة الذَّبح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ [الصافات: 106]؛ أي: يقول الله لهم: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أو يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطور: 13 - 14].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286 - 289.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 14، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 619.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 19، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 70، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 132، وابن كثير تفسير القرآن العظيم: 7/ 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 289.

وعلى أيٍّ مِن هذه التَّأويلات فقد حُذف القول للمبادرة بهذه الجملة التي هي قلب هذا الموقف؛ لأنها تحدِّثهم عن ما أصابهم منه وكيف كانت شدَّةُ الإصابة ملجئةً لهم إلى هذا القول وما بعده[1].

دلالة تقديم المسند إليه، وإظهاره معرّفًا بالإشارة:

الحاضرُ المُشاهَدُ مـهـولٌ أمـــرُهُ، مفخّمٌ شأنُه

قُدِّم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليتمكَّن الخبر في نفس السّامع أشدَّ تمكُّن، كما أنَّ هذه الإشارة ميَّزت المشار إليه أكمل تمييز ليقع الخبر بعده فيسند إليه بعد هذا التَّمييز[2].

والإشارة في ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الدُّخان المذكور آنفًا، عُدِل عن استحضاره بالإضمار وأن يقال: هو عذاب أليم، إلى استحضاره بالإشارة، لتنزيله منزلة الحاضر المشاهَد تهويلًا لأمره، وتفخيمًا لشأنه؛ وتقريبًا له، كقولك: هذا الشِّتاء قادم فأعدَّ له[3].

نكتة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾، ودلالة وصفه بـ ﴿أَلِيمٌ﴾:

عـذاب المشركين مـهـول، شـديدٌ ألمه بيّنٌ أثره

أوثر تنكيرُ كلمة ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل؛ أي: هو عذاب عظيمٌ لا يُدرَك كنهه، وقد زاد من تهويله والتخويف منه وصفه بأنَّه ﴿أَلِيمٌ﴾؛ أي: شديدٌ ألَمُه، وعظيم هولُه[4].

سرُّ إيثار التَّعبير بالأليم دون غيره:

الأليم هو الذي يـخـلـص وجـعـه إلى القلب

قوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾؛ أي: يخلص وجعُه إلى القلب فيبلغ في ألمه بما كنتم تؤلمون دعاتِكم إلى اللّه بردِّ مقولهم، والاستخفاف باغتراركم بكثرة العدد والقوَّة والمدد[5]، فكان الجزاء مِن جنس العمل، ولِما سبق مِن تأويله بالجوع الشَّديد، أو الدُّخان الذي يأتي بين يدي القيامة، فهذان يشتركان في الألم والإيجاع البدنيِّ، وإن

(1) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 588.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 588.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 117، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 289.
(4) طنطاوي، الوسيط: 13/ 121، والإبياري، الموسوعة القرآنية: 11/ 164.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 14، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.

كان ما حدث عند فتح مكَّة فهو إيجاع نفسيٌّ شديد لنفوس الذين استكبروا على الإيمان فأبوا الخضوع للواحد الديّان، فدُخلِت عليهم مكَّة، وهُدِمت فيها الأصنام، وأقيم فيها الدِّين، وأذَّن فيها بلال رضي الله عنه.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾:

حين تخور القوى، ويفتر العزم تحضر عبارات الندم

فُصِل قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ عن سابقه كونه استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤال مقدَّر، فكأنَّه قيل: فما قالوا حين تحقَّقوا ذلك؟ قيل: قالوا - وقد انحلَّت عرى تلك العزائم، ووهت تلك القوى من كل عازم -: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾[1].

بلاغة الإيجاز بحذف فعل القول، وأداة النِّداء:

شدّة الإلجاء الى التَّضرُّع توجز الألفاظ، وتختصر المسافات

قوله: ﴿رَّبَّنَا﴾ منادَى منصوب بأداة نداء محذوفة اختصارًا اكتفاءً بالمنادَى[2]، وإنَّما ألجأهم الألم فتضرَّعوا ونادوا ربَّهم فحذفوا حرف النِّداء؛ لأنَّ حالهم مِن الشِّدَّة والجهد لا تعينهم إلّا على هذ الإيجاز الشَّديد[3].

فهذه الجملة مقول قول محذوف، وحملها جميع المفسِّرين على أنَّها حكاية قول الذين يغشاهم العذاب بتقدير: يقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾؛ أي: هو وعد صادر مِن النّاس الذين يغشاهم العذاب بأنَّهم يؤمنون إنْ كُشِف عنهم العذاب.

من هدايات ربّ العالمين تعليم المسلمين الاستعاذة بالله مِن أن يصيبهم العذاب المبين

وممّا تسمح به تراكيب الآية وسياقها أن يكون القول المحذوف مقدَّرًا بفعل أمر؛ أي: (قولوا)، وذلك لتلقين المسلمين أن يستعيذوا باللّه مِن أن يصيبهم ذلك العذاب إذ كانوا والمشركين في بلد واحد كما استعاذ موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: 155]، وفيه إيماء إلى أنَّ اللّه سيُخرج المؤمنين مِن مكَّة قبل أن يحلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 14، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 495.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 589.

بأهلها هذا العذاب، فهذا التَّلقين كالذي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: 286] الآيات[1].

بلاغة الاستعارة في ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾:

تصوير العذاب بالكساء المحيط بصاحبه للمبالغة في شدّته

قوله: ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا﴾ فيها فرط إحساس باستيلاء العذاب وضغطه عليهم وإحاطته بهم وكأنَّه ألبسهم وغطّاهم[2]، فشبَّه العذاب بالغطاء بجامع الإحاطة والشُّمول، ثمَّ حذف المشبَّه به وجاء بشيء من لوازمه، وهو قوله: ﴿ٱكۡشِفۡ﴾ على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة. "وظاهر مادَّة الكشف تقتضي إزالة شيء كان حاصلًا في شيء إلّا أنَّ الكشف هنا لمّا لم يكن مستعمَلًا في معناه الحقيقيِّ كان مجازه محتملًا أن يكون مستعمَلًا في منع حصول شيء يخشى حصوله كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98] فإنَّ قوم يونس لم يحلَّ بهم عذاب فزال عنهم، ولكنَّهم توُعِّدوا به فبادروا بالإيمان فنجّاهم اللّٰه منه"[3].

معنى (عَنْ):

سؤال المعذَّبين أن يُكشف عذابهم أن يبتعد عنهم

الأصل في معنى (عَنْ) أنَّه موضوع للدَّلالة على البُعد والمجاوَزة[4]، ومعنى الحرف في قوله: ﴿ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ أنَّ هؤلاء الكفّار سألوا اللّٰه أن يرفع عنهم العذاب، بحيث يكون العذاب مجاوزًا لهم، مبتعدًا عنهم.

نكتة تعريف ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

يختلف تأويل العذاب بحسب اختلاف الدُّخان وفاق ما ذُكرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 589.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

مِن أقوى صور المبالغات الإخبار عن المعنى بالذّات

آنفًا؛ فإنْ قلنا: التَّقدير: يقولون: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾، فالعذاب هو: القحط الشَّديد، وإنْ قلنا: التَّقدير: يقولون: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ فالعذاب هو: الدُّخان المهلِك الذي يدخل في أسماع الكفرة حتى يصير رأسهم كالرَّأس الحنيذ المشويِّ[1].

وسواء فُسِّر بالجوع أو الدُّخان فمآلهما واحد، فإنَّ الدُّخان إنَّما ينشأ مِن الجوع[2]، وهذا مِن الإخبار عن الذّات بالمعنى؛ لأنَّ الدُّخان محسوس، والعذاب معنى، وهذا مِن أقوى صور المبالغة[3].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾:

مِن سبل دفع العذاب التعليلُ بسبل النجاة

فصل قوله: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه تعليل لطلب دفع العذاب عنهم؛ أي إنّا متلبِّسون بما يدفع عنّا عذاب الكافرين[4]، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا إن كشفت عنّا العذاب آمنّا، لكن عدلوا عنه إظهارًا لمزيد الرَّغبة[5]؛ أي: يقولون: اكشف عنّا العذاب فـ ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: نؤمن بك إنْ كشفته عنّا[6].

دلالة توالي المؤكِّدات في ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾:

تأكيد إيمان المُشركين؛ استرضاءٌ لربِّ العالمين

أُكِّدتْ فاصلةُ الآية بإنَّ، واسميَّة الجملة تأكيدًا لإيمانهم[7]؛ لأنَّ حالهم على عظيم المنافاة لخبرهم وكلامهم[8]، فـ "أسلوب الكلام جارٍ على أنَّ جملة: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ تعليل لطلب كشف العذاب عنهم لما يقتضيه ظاهر استعمال حرف (إنَّ) مِن معنى الإخبار دون

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 394، ونووي الجاوي، مراح لبيد: 2/ 393.
(2) البروسوي، روح البيان: 8/ 407، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 350.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 588.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 117.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 132.
(7) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 560.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 15، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.

الوعد، ومن التَّعليل دون التَّأكيد، ولما يقتضيه اسم الفاعل في زمن الحال دون الاستقبال"[1].

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾:

تنزيل المتعدِّي منـزلـة الـلّازم اهتمامًا بالفعل

قوله: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: عريقون في وصف الإيمان، واصلون إلى رتبة الإيقان[2]، وقد حذف متعلَّقه لتنزيله منزلة اللّازم تأكيدًا لحصول الإيمان، وشمولًا لكلِّ ما يجب الإيمان به، فكأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ بكلِّ ما أنزلت يا ربَّنا واتَّبعنا الرَّسول.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الارتقاب والتَّربُّص والانتظار:

الارتقاب أخصُّ مـن الانـتـظـار بـالـحـراسـة، والتربُّص أخصُّ مـن الانـتـظـار بطول المدَّة

التّربُّص: طولُ الانتظار، والانتظارُ: يكون قصيرَ المدَّة وطويلَها؛ ومِن ثَمَّ يُسمَّى المتربِّص بالطَّعام وغيره متربِّصًا؛ لأنَّه يُطيل الانتظارَ لزيادة الرِّبح، وأصله من الرُّبْصة وهي التلبُّث يقال: ما لي على هذا الأمر رُبْصة، أي: تلبُّثَ في الانتظار حتّى طال[3]، وجذر الانتظار أصلٌ صحيحٌ يَرجِع فروعُه إلى معنى واحد وهو تأمُّل الشَّيء ومعاينتُه، ويقال: نظرتُه، أي: انتظرتُه، وهو ذلك القياس؛ كأنَّه ينظرُ إلى الوقتِ الذي يأتي فيه[4]، وعلى ما تقدَّمَ فإنَّ الانتظارَ مقرونٌ بما يقع فيه النَّظر[5]، أمّا الارتقاب: فجذره أصلٌ واحدٌ مطَّرِدٌ يدلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شيءٍ[6]، والارتقابُ انتظارٌ يدلُّ على قربِ وقوعِ المنتظَر كما يُرْتَقَبُ الجائي من مكان قريب[7]، ويقال:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 290.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 15، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 582.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.
(4) ابن فارس، المقاييس: (نظر).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.
(6) ابن فارس، المقاييس: (رقب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 285.

ارتقِبْ في المكروه(1)، ويُزاد على معنى الانتظار الموجود في الارتقاب معنى الحراسة(2) وتبيَّنَ ممّا سبقَ أنَّ الارتقابَ أخَصُّ من الانتظار بالحراسة، والتربُّصَ أخَصُّ من الانتظار بطول المدَّة؛ لذا أوثِر لفظُ الارتقاب دون التربُّص والانتظار في قول اللّه ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، أي: انتظِر بكلِّ جهدِك عاليًا عليهم ناظرًا لأحوالهم نَظرَ مَن هو حارسٌ لها، متحفِّظًا مِن مِثلها بهمَّةٍ كهمَّة الأسد الأرْقَب(3).

الدُّخان والغُبار والقَتَر:

يدلُّ الدُّخان على التهابِ النّار الظّاهِر في أصلِه ما يزيد الدَّلالةَ على شِدَّةِ العذاب وإيلامِه

جذرُ الدُّخان أصلٌ واحدٌ، وهو الذي يكون عنِ الوقود(4)، والدُّخان: ما يتصاعد عند إيقاد الحطب، أو ما يتصاعد من الوقود عند التهاب النار فيه(5)، والغُبارُ: ما يبقى من التراب المُثار، ومن الغُبار اشتقَّ الغبَرَة: وهو ما يَعلَق بالشَّيء من الغُبار وما كان على لونه(6)، وجذر القَتَر أصلٌ يدلُّ على تجميعٍ وتضييق(7)، والقَتَر من ذلك؛ لأنَّه لَونٌ هو غُبْرَةٌ إلى السَّواد، وهو يَغشَى جِلدةَ الوَجهِ مِن شدَّةِ البؤسِ والشَّقاءِ والخوف، وفي هذا المعنى تجمُّعٌ يجعل الإنسانَ في ضيقٍ شديد(8).

ويُفَرَّق بين الغَبَرةِ والقَتَرة بأنَّ القَتَرةَ ما ارتفعَ من الغُبار فلحِق بالسَّماءِ ورفعَته الرِّيح، والغَبَرةَ ما كان أسفلَ في الأرض(9).

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الدُّخانَ أعمُّ من الغبار والقَتَر؛ لأنَّه مشتملٌ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 98، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 656.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 13.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 13.
(4) ابن فارس، المقاييس: (دخن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 286، و24/ 246.
(6) الراغب، المفردات: (غبر).
(7) ابن فارس، المقاييس: (قتر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 147، وحسن عز الدين الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (قتر).
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 127، والبغوي، معالم التنزيل: 8/ 340.

عليهما؛ لذا أوثِرَ لفظُه دونهما في قول اللّه ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾؛ ولأنَّ الدُّخان في حقيقته يدلُّ على التهابِ النّار الظّاهِر في أصلِه الذي تقدَّم ذكرُه، فترتَّب على ذلك كلِّه أنَّ فيه ما يزيد الدَّلالةَ على شِدَّةِ العذاب وإيلامِه.

الغشيان والتَّغطية والإحاطة:

الغشيان يكون بما يعمّ، والتَّغطية قد تكون بما لا يعمّ، والإحاطة مِن الاستدارة حول الشَّيء

المعنى المحوريّ لجذر الغشيان: تَغَطِّي الشيء بكثيفٍ يعمُّه[1]، وأنَّه تغطيةٌ متمكِّنة[2]، ويدلُّ على ذلك أنَّ الغَشْواءَ من المَعز: التي يَغشَى وجهها كلَّه بياض، وأنَّ القيامةَ سُمِّيت بالغاشية لأنَّها تَغشى الخَلْقَ بأفزاعِها وأهوالِها[3]، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل: 1]؛ أي: يغشى كلَّ ما يواريه بظلامه[4]، أو يعمّ الخلْقَ بظلامه[5].

أمّا التَّغطية فالمعنى المحوريّ لجذرها: سترٌ بما هو كالغِشاء الكثيف عريضًا[6]، وليس في ذلك ما يستلزم أن تكون التَّغطيةُ بما يعمُّ الشيءَ المغطَّى كما في المعنى المحوريّ الخاصّ بجذر الغشيان، ويدلُّ على ذلك أنَّ الغاطِيةَ: هي الكَرْمة كثيرة الأغصان[7]، والأغصان الكثيرة لا تُغَطِّي الكَرْمَةَ كلَّها.

وأمّا المعنى المحوريّ لجذر الإحاطة: فهو الاستدارةُ حول الشيء[8]؛ فالحَوْط: شيءٌ مستديرٌ من فضَّةٍ تُعَلِّقه المرأةُ على جبينها[9]، والحائط: هو الجدار الذي يحوط بالمكان[10]، وأوثِر لفظُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشو - غشي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 294.
(3) ابن منظور، اللسان: (غشو - غشي).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 761، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 317.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 286، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 926.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غطو - غطي).
(7) الأزهري، التهذيب: (غطي).
(8) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حوط).
(9) ابن فارس: المقاييس: (حوط).
(10) الراغب، المفردات: (حيط).

الغشيان دون التغطية والإحاطة في قول اللّه ﷻ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لأنَّ هذا الدُّخان الذي هو عذابٌ للمشركين يعمّهم جميعًا[1]، ولأنَّ إتيانَ السَّماء بدخُان دلَّ على العُلوّ، وعندما يغشَى الشيءُ شيئًا فإنَّه يغشاه مِن أعلاه.

الكشف والإزالة:

أصـلُ الكشف رَفعُ الشَّيء عمّا يغطِّيه، وأصلُ الإزالـة تَنحيةُ الـشَّيء عن مكانِه

يدلُّ الأصل (زَوَلَ) على تنحِّي الشيء عن مكانه؛ يقال: زالتِ الشمسُ عن كبدِ السَّماء، وأزلت الشيءَ عن المكان، أي: نحَّيته[2]، أمّا الكشف فأصله: رَفع الشيء عمّا يواريه ويغطِّيه[3]، أو إزالة الغطاء ونحوه عن الشيء[4]؛ يقال: كشفتُ الثَّوبَ[5].

وأوثِرَ لفظُ الكشف دون الإزالة في قول اللّه ﷻ: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لمناسبة لفظ الغشيان في قول اللّه ﷻ: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وذلك لِما ذُكِر في أصلِ الكَشف.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 288.
(2) ابن فارس، المقاييس: (زول).
(3) ابن منظور، اللسان: (كشف).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).
(5) ابن فارس، المقاييس: (كشف).

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدُّخان: 13 - 16]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مَـنْ لـم تُقنعه الدَّلائل؛ قصَّرت بـه السُّـبل والوسائل

لمّا طلبوا من المولى الجليل سبحانه أن يكشف عنهم العذاب مدَّعين أنَّهم من أهل الإيمان؛ أظهر سبحانه كذبهم وزيف دعواهم، وأخبر أنَّهم قوم لا يتذكرون، وكيف يتذكرون[1] وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة وهو ما ظهر على رسول الله ﷺ من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة[2] بل إنَّهم نسبوا كلَّ ما لا يليق إلى جناب صاحب الرسالة ﷺ زورًا وبهتانًا، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ داءهم عضال، فليس له أبدًا زوال؛ فهم قليلو العيش مع الإيمان سريعو العود إلى الضَّلال، وليس ذلك بخافٍ على العليِّ ذي الجلال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: أصل (ذكر) يدلُّ على خلاف النِّسيان[3]، وحفظ الشَّيء تَذَكُرُه، ويقال: ما زال منِّي على ذُكر وذِكر والضَّم أفصح، وكلاهما بمعنى، أي: لم أنسَهُ، ويكون بالقلب، وباللِّسان، وهو: جري الشَّيء على لسانك، بحيث تذكره بلسانك وتُظهِره[4]، وهيئة للنَّفس بها يتمكَّن الإنسان من حفظ ما يقتنيه من المعارف، فيكون كالحفظ إلا أنَّ الفرق بينهما أنَّه يقال باعتبار حضوره بالقلب واللِّسان، والذِّكرى أيضا: التَّذكير[5]، والذِّكرى: كثرة الذِّكر، وهو أبلغ من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 291، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 15.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذكر).

الذِّكر[1]، وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، أي: من أين لهم التَّذكر والاتِّعاظ؟ وكيف يتذكَّرون ويتَّعظون؟![2].

2) ﴿مُعَلَّمٌ﴾: أصل (علم) يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيء يتمَيَّز به من غيره[3]، وعَلِمتُ الشَّيء: عرفته، فهو عالِم وعليم من قوم علماء، والعِلم: نقيض الجهل، وهو إدراك الشَّيء بحقيقته، ومعرفته على ما هو عليه[4]، ولفظ ﴿مُعَلَّمٌ﴾ في الآية بمعنى: علمه بشر، أو الكهنة والشَّياطين[5].

3) ﴿عَآئِدُونَ﴾: أصل (عود) يدلُّ على تثنية في الأمر، والعَود: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه[6]، وإعادة الشَّيء كالحديث، ونحوه: تكريره، والعِيد: ما يعاود الإنسان مرَّةً بعد أخرى، وكلُّ حالة تعاود الإنسان، والعادة: الدَّيدن يُعاد إليه، والمعاد يقال للعَود نفسه؛ فيكون مصدرًا ميميًّا، وللزَّمان الذي يعود فيه؛ فيكون اسمَ زمان، وقد يكون للمكان الذي يعود إليه، الذي هو المصير والمرجع؛ فيكون اسمَ مكان[7]، وقوله تعالى: ﴿عَآئِدُونَ﴾، أي: عائدون إلينا، مبعوثون بعد الموت[8].

4) ﴿نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ﴾: أصل (بطش) يدلُّ على أخذ الشَّيء بقهر وغلبة وقوة[9]، فالبطش: السَّطوة والعنف، وتناول الشَّيء بصولة وقهر، والأخذ الشَّديد في كلِّ شيء ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، يقال: بطش به يبطِش ويبطُش بطشًا، وباطشه مباطشة[10]، ويقال: هو سرعة الانتقام[11].

(1) الراغب، المفردات: (ذكر).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 230، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علم).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 230، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 657، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 133.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عود).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 133.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطش).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بطش).
(11) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بطش).

5) ﴿مُنتَقِمُونَ﴾: أصل (نقم) يدلُّ على إنكار شيء وعيبه[1]، ونقَمت الشَّيء أنقِم فأنا ناقم، ونقِمتُه: إذا أنكرته وبالغت في كراهته إمّا باللِّسان وإما بالعقوبة، ونقِمت على الرَّجل: عتبت عليه، وانتقم اللّه منه: عاقبه، والنِّقمة والانتقام: العقوبة، وجمع النِّقمة: نِقَم[2]، وقوله تعالى: ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ من العقوبة، من قولهم: انتقم اللّه منه إذا عاقبه[3].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الإيـمـان عند معاينة العذاب مـن المـكـذِّب المرتاب لا يمنع مـن نُـزول العقاب

كيف ومن أين لهم التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ؟ وقد أرسلنا إليهم رسولًا ظاهر الآيات والمعجزات، فأعرضوا عنه وقالوا - كذبًا وافتراءً -: إنَّما يعلمه بشر، كما قالوا أيضًا: مغلوب العقل ناقصه، وعلى الرغم من هذا الإعراض والتَّكذيب تفضَّل اللّه عليهم برفع العذاب عنهم زمانًا قليلًا، لكنَّه بيَّن سبحانه أنَّهُم سيرجعون إلى الكفر والتَّكذيب، ومن ثَمَّ كان الوعيد الشَّديد لهم من اللّه بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة يوم الأخذة الشَّديدة الَّتي سينتقم اللّه فيها من كلِّ متكبِّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

مَن بعُدَ بالشَّك عن اليقين بعُدَ عـن الـذّكـرى بالآيات

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه جواب عن قول القائلين: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ تكذيبًا لوعدهم؛ أي: هم لا يتذكَّرون، وكيف يتذكَّرون وقد جاءهم ما هو أقوى دلالة مِن العذاب، وهي دلائل صدق الرَّسول ﷺ؟

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (نقم).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 230 - 231، والزحيلي، التفسير المنير: 25/ 213 - 214.

أو هي جملة مستأنَفَة ناشئة عن قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾، وهي كالنَّتيجة لها؛ لأنَّهم إذا كانوا في شكٍّ يلعبون فقد صاروا بعداء عن الذِّكرى[1].

الغرض من الاستفهام، ودلالة تصديره بـ﴿أَنَّىٰ﴾:

نـفـيُ صـدق وعـدهـم بـالإيـمـان، اسـتـبـعـادٌ لحصول التَّذكُّر من الكفّار

﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام، أصله استفهام عن أمكنةِ حصول الشَّيء، ويتوسَّعون فيها فيجعلونها استفهامًا عن الأحوال بمعنى (كيف) بتنزيل الأحوال منزلة ظروف في مكان، كما هو هنا بقرينة قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، فمعنى ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾: مِن أين تحصل لهم الذِّكرى والمخافة عند ظهور الدُّخان المبين وقد سُدَّت عليهم طُرقُها بطعنهم في الرَّسول ﷺ الذي أتاهم بالتَّذكير؟

فالتصدير بالاستفهام مستعمَل في الإنكار والإحالة؛ أي: كيف يتذكَّرون وهم في شَكٍّ يلعبون وقد جاءهم رسول مبين فتولَّوا عنه وطعنوا فيه[2]؟! فهو ردٌّ على هؤلاء المشركين، ونفيٌ لصدق وعدهم بالإيمان، وبيانٌ من اللّه سبحانه أنَّ وعدهم هذا إنَّما هو وعدٌ مؤقَّتٌ؛ لغرض كشف العذاب عنهم؛ لذا كان الردُّ عليهم بهذا الأسلوب.

معنى اللّام في ﴿لَهُمُ﴾:

اسـتـبـعـادُ حصول الذِّكرى للمذكورين دون النّاس

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[3]، وهو بهذا المعنى في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾؛ أي: مِن أين يكون اختصاصهم بذكرى بعد كشف العذاب، وقد طعنوا في الرَّسول ﷺ الذي أتاهم بها فسدّوا على أنفسهم سُبُلَها؟!

نكتة تقديم شبه الجملة على المبتدأ:

قُدِّم شبه الجملة على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 291.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

امتناع حصول الذِّكرى مخصوص بالمكذّبين المحاربين للرسول الأمين

﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لإفادة القصر بالتَّقديم لتخصيص المتقدِّم بالحكم، أي: تخصيص امتناع حصول الذِّكرى لهؤلاء الذين جاءهم رسول مبين فكذَّبوه وحاربوه.

دلالة التعريف في ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾:

المحروم من حُرِم الذّكرى التي يحصل بها الإيمان، وتهدي إلى طريق الجنان

اللّام في ﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ للعهد؛ أي: الذِّكرى المعهودة الحاصلة بتذكير الرَّسول ﷺ، فكأنَّها في هذا الموضع جاءت معرفة لتحديد نوع مِن الذِّكرى هو معهود عند السّامع معلومٌ في ذهنه ومناسب للمقام، فكأنَّ التَّقدير: مِن أين يكون اختصاصهم بالذِّكرى التي تهدي إلى الإيمان، وقد فعلوا ما فعلوه في الرسول ﷺ الذي أتاهم بالتَّذكير المبين؟!

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَقَدۡ﴾:

كيف يتذكَّرون وحالهم أنَّهم يكذِّبون؟!

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ هي واو الحال، وجملة ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ﴾ في موضع الحال؛ أي: كيف يتذكَّرون وحالهم أنَّهم جاءهم رسول مبين فكذَّبوه؟! أي: والحال أنَّهم شاهَدوا مِن دواعي التَّذكُّر وموجبات الاتِّعاظ ما هو أعظم مِن ذلك في إيجابهما حيث جاءهم رسولٌ عظيم الشَّأن، ظاهرٌ أمرُ رسالته بالآيات والمعجزات التي تخرُّ لها صُمُّ الجبال أو مظهر لهم مناهج الحقِّ بذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾؛ أي عن ذلك الرَّسول ﷺ وهو هو[1]!

دلالة التَّعبير بالماضي مسبوقًا بحرف التَّحقيق:

مجيء الرَّسول ﷺ واقع مع تكذيبهم ما جاء به

يفيد التَّعبير بالماضي الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ﴾ تحقُّق وقوع الفعل، و(قد) الدّاخلة عليه تقوِّي هذا المعنى، ممّا يؤكِّد معنى مجيء الرَّسول ﷺ مع تكذيبهم ما جاء به! وهذا التَّأكيد جاء مناسبًا للرَّدِّ على إنكار القوم رسالة النَّبيِّ ﷺ، وقولهم: ﴿مُعَلَّمٞ

(1) الآلوسي: روح المعاني: 13/ 118.

﴿مَّجۡنُونٌ﴾ ! فهذا هو المرسِل يؤكِّد بعثه المرسَل برسالة القرآن إليكم أيُّها المخاطَبون، فأنَّى تُكذِّبون؟!

دلالة التَّعبير بالمجيء دون الإتيان:

قصد ارسال الرَّسول هداية المشركين وإخراجهم من الظُّلمات إلى النّور

الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسَّيل المارِّ على وجهه: أَتِيٌّ وأَتاوِيٌّ[1]، والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال (جاء) في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: 4]؛ أي: قصدوا الكلام وتعمَّدوه، فاستُعمل فيه المجيء كما استُعمِل فيه القصد[2].

فممّا سبق يتبيَّن أن المجيء فيه معنى القصد، والحصول، والظُّهور[3]، أي: أنَّ هذا الرَّسول إنَّما بُعِث إليهم وجاءهم برسالة من الله تعالى عامدًا إليهم، قاصدًا هدايتهم وإخراجهم من الظُّلمات إلى النّور، ومع ذلك كذَّبوه وأعرضوا عنه؛ فلذلك عظُم جُرمهم، وكبر عند الله إثمهم، ولأجل هذا كان استنكار حالهم: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ ؟!

نكتة تنكير ﴿رَسُولٌ﴾ ودلالة وصفه بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

إرسال خير البشَر، وأكرم المبعوثين المبين لما به يتذكَّرون

أوثر تنكير لفظ ﴿رَسُولٌ﴾ لإفادة التَّعظيم والتَّفخيم؛ أي: جاءهم رسول عظيم جليل، هو أكرم الرُّسل وخير البشَر.

وأمّا وصفُه بـ ﴿مُّبِينٌ﴾ لزيادة معنى التَّفخيم مِن باب وصفه بالوظيفة التي أرسل بها، كما يوصف القمر بأنَّه منير، فقد كان رسولًا مبينًا، وهو إمّا مِن (أبان) المتعدِّي، وحذف مفعوله لدلالة الذكرى عليه، أي مبين لهم ما به يتذكَّرون، وإمّا مِن (أبان) القاصِر

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (أتى).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (جاء).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جاء).

الذي هو بمعنى (بان)؛ أي: رسول ظاهر؛ أي ظاهرةٌ رسالتُه عن اللّه تعالى بما توفَّر معها مِن دلائل صدقه؛ ولإفادة المعنيين أوثر التَّعبير بـ ﴿مُّبِينٌ﴾ بتخفيف الياء على (مبيِّن) بالتَّشديد، وهو مِن نكت الإعجاز[1].

دلالة التَّعبير بحرف المهلة ﴿ثُمَّ﴾:

التَّولِّي والبهتان أفظع مِن الشَّكِّ واللَّعب

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، وإلّا فهُم قد تولَّوا ريثما جاءهم، وشاهدوا منه ما شاهدوا ممّا يوجب الإقبال إليه ﷺ[2].

وهو ترقٍّ مِن مفاد قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ الذي اتَّصلت به جملةٌ كانت جملةُ ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ مِن متعلَّقاتها، فالمعنى: وقد جاءهم رسولٌ فشكّوا في رسالته، ثمَّ تولوا عنه، وطعنوا فيه، فالتَّولِّي والطَّعن حصلا عند حصول الشَّكِّ واللَّعب؛ ولذلك كانت ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ لا لتراخي الزَّمان، ومعنى التَّراخي الرُّتبيِّ هنا أنَّ التَّولِّي والبهتان أفظع مِن الشَّكِّ واللَّعب[3].

دلالة التَّعبير بالتَّولِّي مادَّة وصيغة:

الانــصـراف مع الإعراض والنُّفور استكبارٌ دافعه الشرور

تدور معاني التَّولِّي في اللُّغة حول القرب والدُّنوِّ، وإذا عدِّي بـ(عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض والانصراف وترك القرب، والتَّوَلِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار إعراضًا وإدبارًا[4]، وعليه ففي التَّولِّي معنى زائدٌ عن التَّوجُّه والانصراف، وهو الإعراض والفرار مِن الشَّيء والرَّغبة عنه، وغالبًا يكون هذا بعد حصول نوع قُرب.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 291.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 118.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 291.

(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ولي).

فالقوم قد جاءهم الرَّسول ﷺ، ودخل عليهم نواديهم وأسواقهم، واستمعوا قوله، وعلموا ما يدعو إليه، فكان حقُّهم أن يؤمنوا بما جاء به، ولكنَّهم أعرضوا عنه وانصرفوا وولَّوا الأدبار استكبارًا وعلوًّا، وعُبِّر بالماضي لإفادة معنى التَّحقيق.

معنى ﴿عَنْهُ﴾:

أدبـروا عـن خير داعٍ وأعـرضـوا، وشاقّوا الرَّسول فشقوا

الأصل في معنى (عَنْ) أنَّه موضوع للدَّلالة على البُعد والمجاوَزَة[1]، ففيها تقوية معنى الإدبار والفرار والإعراض بالتَّجاوز والإبعاد، فالتَّقدير: أنَّهم أعرضوا عنه وأدبروا، وجاوزوه إلى غيره، وسلكوا غير دربه.

نكتة عطف قوله تعالى: (قالوا مُعَلَّمٌ مَّجنونٌ):

عـطـف قيلهم عـلى فعلهم تـصويرٌ لمدى إعـراضـهـم ونفورهم

عُطِف قوله تعالى: (قالوا مُعَلَّمٌ مَجْنونٌ) على قوله سبحانه: ﴿تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ ليفيد أنَّ القوم قد سلكوا كلَّ وسيلة في الإعراض عن الحقِّ، فتارة بالفعل: ﴿تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾، وتارة بالقول: (قالوا مُعَلَّمٌ مَجْنونٌ)، فأدَّى العطفُ دوره في تصوير إعراض القوم عن سماع الهدي الذي فيه سعادتهم ونجاتهم في الدُّنيا والآخرة بأبلغ وصفٍ؛ إذ جمع بين إعراضهم بالقول وإعراضهم بالفعل، فإنَّ القوم لم يكتفوا بثني أعطافهم وإشاحتهم بوجوههم عن أكرم داعٍ وأجلِّ رسول، بل زادوا على ذلك بأنْ اتَّهموه بأنَّه معلَّم ومجنون!

نكتة حذف المبتدأ في ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾:

شـدَّة الإعـراض عـن الـرَّسـول الأمـين ديـدن المُبطلين

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ إيجاز بحذف المبتدأ المُقدّر بـ (هو)، وفيه إشارة لطيفة إلى شدَّة إعراض القوم، فلم يكتفوا بالإعراض عن اتِّباعه، بل أعرضوا حتَّى عن التَّصريح بما يدلُّ عليه مِن ضمير أو إشارة بل اكتفوا بذكر الخبر.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

ويصحُّ هذا الحذف لتعيُّنه لدى المخاطَب، فكأنَّ ذِكر النَّبيِّ ﷺ قد شاع في مكَّة، وشاع خبر نبوَّته ورسالته ﷺ، وكثر - مع ذلك - إعراض القوم عنه، حتَّى اتَّهموه - بأبي هو وأمِّي ونفسي - بما هو بريء منه ومنزَّه عنه، حتَّى صارت هذه السُّبَّة - من فرط ما أذاعوها وتواصوا بها - لا يقصدون بها إلّا الغضَّ من شأنه ﷺ، فاستغنوا عن ذكر المسند إليه لأجل ذلك.

ولا يخفى - كذلك - أدب القرآن العظيم بإسقاط التَّصريح بالضَّمير العائد على أكرم الخلق ﷺ في سياق حكاية ذمِّ المشركين.

محاولة الكافرِ الأثيم الغضَّ مِن شأن الرَّسول الكريم

نكتة تنكير ﴿مُعَلَّمٌ﴾ ودلالة وصفه بـ ﴿مَّجْنُونٌ﴾:

التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ فيه دلالة إلى محاولة الكفّار المعرضين عن النَّبيِّ الكريم للغضِّ من شأنه ﷺ، ولله درُّ أبي الطَّيِّب إذ يقول:

وَهَبْنِي قُلْتُ هَذا الصُّبحُ لَيْلٌ *** أيَعْمَى العالَمونَ عَنِ الضِّياءِ

وهذا أيضًا معنى عجيب جدًّا؛ لأنَّهم لم يتكلَّموا في الذي جاء به، وإنَّما تكلَّموا في شخصه ﷺ، وكذَّبوه مع أنَّه لبث فيهم عُمُرًا مِن قبله[1]!

التنقّلُ في البهتان من قبائح أهل البطلان

توجيه الجمع بين الصفتين: ﴿مُعَلَّمٌ﴾، و ﴿مَّجْنُونٌ﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أنَّهم وصفوه مرَّة بأنَّه يُعلِّمه غيره، ووصفوه مرَّة بالجنون، تنقُّلًا في البهتان، أو وصَفَه فريقٌ بهذا وفريقٌ بذلك، فالقول موزَّع بين أصحاب ضمير ﴿وَقَالُواْ﴾ أو بين أوقات القائلين، ولم يقل: (ومجنون) بالعطف؛ لأنَّ المقصود تعديد قبائحهم، ولا يصحُّ أن يكون قولًا واحدًا في وقت واحد؛ لأنَّ المجنون لا يكون معلَّمًا ولا يتأثَّر بالتَّعليم، وحاشاه ثمَّ حاشاه ﷺ[2].

(1) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 594.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 118، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 292.

علّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾:

فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ الجملة جواب مِن جهته تعالى عن قولهم وسؤالهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾[1] فهو إخبار بالعود على تقدير الكشف؛ أي: إنْ كَشَفْنا عنكم العذاب كشْفًا قليلًا أو زمانًا قليلًا عُدتم.

العـود بعد كشف العذاب دليلٌ على ما في نفوسهم مِن الشَّكِّ والارتياب

سرّ التوكيد بـ(إنَّ):

جاء توكيد جملة ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ بـ(إنَّ) لَمّا كان مخاطبًا به المُنكِرون المرتابون في إجابة اللّه دعاءهم؛ لِما عرفوه مِن أنفسهم مِن عدم استحقاق الإجابة، ويجوز أن يكون التَّوكيد لمجرد الاهتمام بالخبر للدِّلالة على أنَّ هذا العذاب إنَّما جاء به اللّه ولا يرفعه غيره، وفيه تعريض بأنَّ الأصنام لا تضرُّ ولا تنفع؛ فلم تسمع لهم دعاءً، ولم تكشف عنهم عذابًا.

العذاب الذي يقدّره الإله لا يرفعه إلا إيّاه

نكتة التَّعبير بالمشتقِّ ﴿كَاشِفُواْ﴾، ﴿عَآئِدُونَ﴾:

أوثر التَّعبير بصيغة اسم الفاعلِ في ﴿كَاشِفُواْ﴾، ﴿عَآئِدُونَ﴾ للدِّلالة على تحقُّقهما لا محالةَ؛ لكون اسم الفاعل دالّا على الثبوت بالنسبة للفعل، ولقد وقعَ كلاهُما حيث كشف اللّه تعالى بدعاءِ النبيِّ ﷺ فما لبِثوا أنْ عادوا إلى ما كانوا عليه مِن العتق والعِنادِ، ومَن فسَّر الدخان بما هو من الأشراطِ قال: إذا جاء الدُّخانُ تضوَّرَ المعذَّبونَ به مِن الكفّارِ والمنافقينِ وغوَّثوا وقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ فيكشفه اللّه تعالَى عنهُم بعدَ أربعينَ، وريثما يكشفُه عنهم يرتدّونَ ولا يتمهَّلونَ[2]، وفي التعبير باسم الفاعل ﴿عَآئِدُونَ﴾ - فضلا عمّا مضى - معنى: عراقتهم في العودة إلى الكفر.

رحمة الله واسعة وكِبْرُ الانسان يورده المهالك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 292.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 61، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 8/ 414.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

كشف العذاب مختصٌّ بالدّخان

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ للعهد؛ أيْ: إنّا نكشفُ العذابَ المعهود الذي نزل بكم، والحاضر في أذهانكم كشفًا قليلًا أو زمانًا قليلًا ثمّ إنَّكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتُم عليه من العُتوِّ والإصرارِ على الكفر وتنسَون هذه الحالَة[1].

دلالة التَّعبير بلفظ القلّة:

قلّة الزّمان بيانٌ لما ترسَّخ في قلوبهم، وما تميل إليه نفوسهم

جاء التَّعبير بلفظ القلَّة في قوله تعالى: ﴿كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾؛ إقامة للحجَّة عليهم لا لخفاء ما في ضمائرهم عليه سبحانه، ولكن لّما كانوا قد أكّدوا الإخبار بإيمانهم، وهو باطل، أكَّد سبحانه الإخبار بكذبهم، ومَن أصدق منه سبحانه قيلًا؟ فقال تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28][2] بعد زمان قليل ليُعلم أنَّهم لا يفون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه[3]، وكذلك لبيان أنَّ حدَّة الألم هي الأصل، وأنَّه متى انكسرت حدَّة الألم؛ فإنَّهم عائدون[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾:

فصل للاستئناف؛ لبيان ما كان إليه الاستشراف

فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها جملة مستأنَفَة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم إذا سمعوا ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ تطلَّعوا إلى ما سيكون بعد كشفه، وتطلَّع المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب، هل يقلعون عن الطعن؟ فكان قوله: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مبيِّنًا لما يتساءلون عنه[5].

بلاغة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

الالتفات؛ لتوبيخهم، وإقامة الحجّة عليهم بتأكيد عودهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جوابٌ بصيغة الخطاب مِن جهته

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 61.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 17.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 133.

(4) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 595.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 292.

تعالى عن قولهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ بطريق الالتفات مِن الغيبة في ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ التي كانت لإبعادهم وتحقيرهم إلى الخطاب - لا على سبيل التَّقريب ولا التَّشريف - ولكن لمزيد التَّوبيخ والتَّهديد[1]، وفي الخطاب كذلك إقامة للحُجَّة عليهم بأنَّهم سيعودون لما نُهوا عنه لا محالة.

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

توالي المؤكِّدات؛ للتَّأكيد والإثبات بأنّ عودهم للكفر آتٍ

جاء في فاصلة الآية الكريمة ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ عدد من المؤكِّدات منها: إنَّ، ومجيء الجملة الاسميَّة المفيدة للثُّبوت والدوام، والتَّعبير باسم الفاعل المفيد عراقتهم في العودة إلى الكفر، وهذا الحشد مِن المؤكِّدات ووجِه به الكفار الذين قالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ فأكَّدوا الوعد بإيمانهم إنْ كشف العذاب عنهم؛ فردَّ اللّٰه عليهم بأنَّ ذلك لن يحصل منهم[2].

نكتة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿عَآئِدُونَ﴾:

حذف المتعلَّق توسُّعًا، وليذهب الوهم في تصوُّره كلَّ مذهب

حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿عَآئِدُونَ﴾، وأصل الجملة: عائدون إلى الكفر بعد كشف العذاب، وقيل: إنَّكم عائدون إلينا، أي: مبعوثون بعد الموت، وقيل: إنَّكم عائدون إلى نار جهنَّم إن لم تؤمنوا[3].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾:

من يعود بعد كشف العذاب يناله الانتقام بأليم العقاب

فصل قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ الجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا ناشئًا عن قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾؛ فإنَّ السّامع يثار في نفسه سؤال عن جزائهم حيث يعودون إلى التَّولّي والطَّعن، فأجيب بأنَّ الانتقام منهم هو

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 61، وصدِّيق خان، فتح البيان: 12/ 395.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 17.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 133.

البطشة الكبرى، وهي الانتقام التّامُّ، ولأجل هذا التَّطلُّع والتَّساؤل أُكِّدا بحرف التَّأكيد دفعًا للتَّردُّد[1].

نكتة التَّعبير بالظَّرف الزَّمانيِّ مقدّمًا:

دنــوّ تحقّق الوعيد وترقّب للعذاب الأكيد

كلمة ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ للانتقام، وليست معمولةً لقوله: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾؛ لأنَّ ما بعد (إنَّ) لا يعمل فيما قبلها[2]، وإنَّما العامل محذوفٌ يدلُّ عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وأصل الكلام: إنّا منتقِمون يومَ البطشة الكبرى إنّا منتقِمون، وهكذا يوفِّر تقدير العامل هذا القدر مِن التَّوكيد للمعنى، وقالوا في المراد باليوم: هو يوم بدر، وقالوا: هو يوم القيامة، ولكلٍّ وجهة[3]، وإنَّما قُدِّم للاهتمام به لتهويله[4]، ومعنى الزَّمنيَّة فيه مشعر بالتَّرقُّب ودُنوِّ حصول الوعيد.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿نَبۡطِشُ﴾ بصيغة التعظيم:

استحضار صورة العذاب آنًا بعد آن، عند وقوع الجحود والنكران

أوثر التَّعبير بالفعل المضارع ﴿نَبۡطِشُ﴾؛ لاستحضار الصورة وكأنَّها واقعة تُرَى رأي العين لتربية المهابة في النُّفوس، فكأنَّهم يحذرون مِن شيء حالٍّ لا متوقع؛ وليفيد أنَّ هذه حالٌ ملازمة لهم يكرِّرونها دائمًا، وأنَّه مِن الممكن استمرار تعذيبهم، وتجدُّده آنًا بعد آنٍ إذا ما عادوا إلى ما كانوا عليه مِن الجحود والنُّكران.

بلاغة جناس الاشتقاق في ﴿نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ﴾:

إمالة النَّفس والدعوة للإصغاء؛ سبيلٌ للعِظة والارعواء

بين قوله تعالى: ﴿نَبۡطِشُ﴾ وقوله: ﴿ٱلۡبَطۡشَةَ﴾ جناس، واللَّفظان مشتقّان من الجذر (بطش)، والبطش الأخذ بقوة، والإضرار بقوة[5]، وفائدة هذا الجناس الميل إلى الإصغاء إليه فإنَّ مناسبة الألفاظ تُحدث

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 293.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 274، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 100.

(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 597.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 293.

(5) السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، ص: 657، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 222.

ميلًا وإصغاء إليها ولأنَّ اللَّفظ المشترك إذا حمل على معنى ثمَّ جاء والمراد به آخر كان للنَّفس تشوُّقٌ إليه[1].

سرّ تعريف ﴿ٱلۡبَطۡشَةَ﴾ ودلالة وصفها بـ ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾:

التَّعريف للعهد الحاضر في الأذهان؛ لبيان ما جرى يوم الفرقان

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡبَطۡشَةَ﴾؛ للعهد؛ حيث إنَّ المقصود بالبطشة الكبرى - في أحد الأقوال - يوم بدر؛ ووصفت بالكبرى؛ لأنَّ ما أصاب صناديد المشركين يومئذٍ كان بطشة بالشِّرك وأهله؛ لأنَّهم فقدوا سادتهم وذوي الرَّأي منهم الذين كانوا يُسيِّرون أهل مكَّة كما يريدون[2]، أو هو يوم القيامة؛ إذ إنَّ الانتقام التّامَّ إنَّما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾[3].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾:

قدرة الله تعالى على الانتقام تناسب حجم الآثام

فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها جملة مستأنفة، ومبنية لقدرة اللّه تعالى على الانتقام[4]، فهي استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال يثيره قوله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾، فكأنَّه سُئل عن علَّة ذلك، فأجيب ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

الانتقام من الأعداء تقرّ به عيون الأولياء

جاء توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية الكريمة (إنَّ، واسميَّة الجملة، والمشتقّ)؛ تأكيدًا لمضمونها وأنَّ ذلك كائن لا محالة، يواجَه به المنكِرون والمتردِّدون، وأيضًا لتدلَّ الجملة الاسميَّة على أنَّ الانتقام صفة ثابتة لم نزل نفعلها بأعدائنا لنَسُرَّ أضدادهم في أوليائنا[5].

دلالة التَّعبير بالانتقام مادَّةً وصيغة:

الانتقام عقوبة شديدة الإيلام

أصلُ (نقم) يدلُّ على إنكار شيء وعيبه، والنِّقمة من العذاب

(1) السُّيوطيّ، الإتقان: 3/ 310.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 293.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 658، وصدّيق خان، فتح البيان: 12/ 396.
(4) الدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 667.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 18.

والانتقام، كأنَّه أنكر عليه فعاقبه[1] وانتقم اللّه منه، أي: عاقبه[2]، وقد جاء التَّعبير بالانتقام؛ لأنَّهم لمّا أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل اللّه سبحانه على أعدائه عقوبته يوم بدر[3]، وقد جاء التَّعبير بالنِّقمة بدلًا من العقوبة؛ لأنَّ العقوبة تجيء بعد المعصية؛ لكونها من العاقبة، والنِّقمة قد تجيء قبلها، والعقوبة كذلك تكون في المعاصي، والنِّقمة قد تكون في خلقه لأجله، والعقوبة - ايضًا - هي التي تُقدَّر، والانتقام لا يقدّر[4].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّولِّي والإعراض:

مَن تولَّى عنك ترَكَ القربَ منك، ومَن أعرضَ عنك ولَّى مُبديًا عَرْضَه

أصلُ (ولي) يدلُّ على القرب[5]، والفعل تولَّى إذا عُدِّي بـ (عن) اقتضى معنى ترك قربه، والتَّولِّي قد يكون بالجِسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار[6] وبالتكذيب؛ فإنَّ في ذلك كلِّه تركًا للقرب.

والعين والرّاء والضّاد بناءٌ تكثر فروعُه، وهي مع كثرتها ترجِع إلى أصلٍ واحدٍ، وهو العَرْض الذي يُخالف الطّول، ومن الباب: أعرضتُ عن فلان، وأعرضتُ عن هذا الأمر، وأعرض بوجهه؛ لأنَّه إذا كان كذا ولّاه عَرْضَه[7]، ويقال: أعرضَ عني: أي: ولَّى مُبديًا عَرْضَه[8].

العودة والرُّجوع:

العَودة تدلُّ على القيام بالفعل مرَّة ثانية، والرُّجوع يدلُّ على العَوْد إلى ما كان منه البدء

الرُّجوع: هو العَوْد إلى ما كان منه البدء أو تقدير البدء، مكانًا

(1) ابن فارس، المقاييس: 5/ 464.
(2) ابن منظور، لسان العرب: 12/ 591.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 655، والزُّحيلي، التَّفسير المنير: 25/ 212.
(4) الماوردي، النَّكت والعيون: 5/ 248.
(5) ابن فارس، المقاييس: (ولي).
(6) الراغب، المفردات: (ولي).
(7) ابن فارس، المقاييس: (عرض).
(8) الراغب، المفردات: (عرض).

كان أو فعلاً أو قولًا[1]، ورجع عوده على بدئه: أي رجع في الطريق الذي جاء منه، على أنَّ البدءَ مصدرٌ بمعنى المفعول[2].

أمّا العَود فيعني: القيام بالعمل مرَّة ثانية[3]؛ فجذر العودة أصلان صحيحان، يدلُّ أحدهُما على تَثنيةٍ في الأمر[4]، والعَود: تَثنية الأمر عَودًا بعد بدء، يقال: بدأ ثم عاد، والعَودة: المرَّة الواحدة، ويقال: عاد فلانٌ علينا بمعروفه، وذلك إذا أحسن ثم زاد[5]، والعَوْدُ أيضًا: الرُّجوعُ إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[6].

ويتبيَّن مما سبقَ الفرق بين الرُّجوع والعَود، وهو أنَّ قولَ القائل: "رجع فلانٌ إلى بيته" يعني أنَّه سلك في رجوعه إليه طريقَ ذهابه حتى وصل إلى ما بدأ الذهاب منه، ولا يكون هذا المعنى هو المراد، إذا قيل: "عاد فلانٌ إلى بيته"، بل المراد أنَّه كان من قبل في بيته، ثم صار فيه مرَّة ثانية[7]، ولمّا كان العود هو الرُّجوعُ إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه اختيرَ في الآية بلفظ ﴿عَآيِدُونَ﴾ ليناسب معنى عودتهم الى الجحود والكفر بعد أن كشف عنهم العذاب.

البطش والانتقام:

البطش سرعة الانتقام، والانتقام العقوبة بإنكار

البطشَ: سرعةُ الانتقام[8]، وجِذر البَطش: أصلٌ واحدٌ، وهو أخذُ الشيء بقهرٍ وغلبةٍ وقوَّة[9]، وجذر الانتقام أُصَيلٌ يدلُّ على إنكارِ

(1) الراغب، المفردات: (رجع).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 478.
(3) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 239.
(4) ابن فارس، المقاييس: (عود).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (عود).
(6) الراغب، المفردات: (عود).
(7) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 240.
(8) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بطش).
(9) ابن فارس، المقاييس: (بطش).

شيءٍ وعَيّبِه[1]؛ والانتقام: العقوبةُ بإنكار[2]، ولما كان رجوعهم الى ما كانوا عليه من الكفر بعد أن كُشِفَ عنهم العذاب يستحقّ سرعة الانتقام بأشدّ العذاب الموسوم بالقهرٍ والغلبةٍ والقوَّة ناسب اختيار لفظ ﴿نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ﴾.

(1) ابن فارس، المقاييس: (نقم).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نقم).

﴿۞وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الدُّخان: 17 - 18]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ضرب الأمثال؛ تبيين للحال، وتسليةٌ للقلوب، وبَعْثٌ للآمال

لمّا أخبر سبحانه أنَّه ابتلى قريشًا بإرسال محمد ﷺ لهم؛ أتبع سبحانه ذلك ببعض ما كان من أمر موسى عليه السلام مع قوم فرعون؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ، ووعدًا له بالنَّصر وحسن العاقبة، وتحذيرًا لقريش بما سيحلُّ بهم من القحط والبطشة مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويسره وإن كانوا في حالة قوَّة فإنَّه سبحانه قادر عليهم، وهذا المثل وإن كان تشبيهًا لمجموع الحالة بالحالة فهو قابل للتَّوزيع بأن يُشبَّه أبو جهل بفرعون، ويُشبَّه أتباعه بملأ فرعون وقومه أو يُشبَّه محمد ﷺ بموسى عليه السلام، ويُشبَّه المسلمون ببني إسرائيل، وقبول المثل لتوزيع التشبيه من محاسنه(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَنَّا﴾: أصل (فتن) يدلُّ على الابتلاء والاختبار(2)، وهو مأخوذ من الفَتْن، وهو إدخال الذَّهب النّارَ لتَظْهَر جودته من رداءته، وجِماع معنى الفتنة: الامتحان والاختبار(3).

والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى، فتكون بمعنى أنه يبتلي عبادَه ليشكروا أو يكفروا، وتكون من العبد، فتكون بمعنى يمتحنون بها أحوال بعضهم بعضا، ومتى كانت من الله كانت على وجه الحكمة، ومتى كانت من الإنسان بغير أمر الله، تكون بضدِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 400، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 294.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فتن).

ذلك، ولهذا يذمُّ اللّه الإنسان بأنواع الفتنة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾ [البروج: 10][1]، والفتنة: الإضلال عن الحقّ، والفاتن: المضِلُّ عن الحقِّ، والشَّيطان؛ لأنَّه يضِلُّ العباد، وقوله تعالى: ﴿فَتَنَّا﴾ في الآية، بمعنى: بلونا، ومعنى هذه الفتنة والابتلاء بالأمر بالطّاعة[2].

2) ﴿أَدُّوٓاْ﴾: أصل (أدي) يدلُّ على إيصال الشَّيء إلى الشَّيء، أو وصوله إليه بنفسه[3]، والأداء: دفع ما يحقُّ دفعه وتوفيته، كأداء الخراج والجزية وأداء الأمانة، يقال: أدَّى دَيْنَه أداء وتأدية: قضاه[4]، وأصل ذلك من الأداة، تقول: أدوتَ تفعل كذا: احتلت، وأصله من تناول الأداة التي يُتوصّل بها إلى الشَّيء[5]، والأداة الآلة، والجمع: الأدوات، واستأديت: على فلان، نحو: استعديت، يقال: استأديت الأميرَ على فلان، فآداني عليه، بمعنى: استعديته فأعداني عليه، وقول اللّه تعالى: ﴿أَدُّوٓاْ﴾ هو من قول موسى لقوم فرعون؛ أي: سلِّموا إليَّ بني إسرائيل[6].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الاعتبار بأحوال الماضين والاقتداء بالصالحين من سمات عباد الله المرسلين

يُبيِّنُ الحقُّ ﷻ للرَّسول الكريم ﷺ في الآيتين الكريمتين أنَّه قد ابتلى واختبر قبل هؤلاء المشركين من كفّارِ مكَّةَ كثيرًا من الأمم والأقوام السّابقين: كقوم فرعون وهم قبط مصر، الَّذين أرسل اللّه إليهم نبيَّه الكريم موسى عليه السلام؛ لعلَّةٍ هي: أن يُسلِموا إليه بني إسرائيل، ويطلقوهم من الذُّلِّ والهوان؛ ليعبدوا اللّه وحده، وليعيشوا

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فتن).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 230، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 134.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أدى).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (أدى).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أدى).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (أدى).

أحرارًا في هذه الدُّنيا، وتسليمهم للنَّبيِّ الكليم موسى ﷺ بوصفه رسولًا كريمًا أمينًا على وحي الله ورسالته(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في المطلع:

بيان المآل تشبيه للحال بالحال

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ عاطفة، عطفت الجملة السّابقة على قوله سبحانه: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾؛ أي منتقمون منهم في المستقبل وقد انتقمنا مِن قوم فرعون فيما مضى، ويجوز أن تكون الواو للحال؛ فتكون الجملة حالًا مِن ضمير إنا منتقمون(2).

نكتة تصدير الآية بالقسَم:

التَّصدير بالقسم؛ لإزالة الظُّنون، وإظهار الاعتناء بالمضمون

جاء تصدير الآية بالقسَم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ لإظهار الاعتناء بمضمونها؛ لبيان القدرة والعظمة الإلهيَّة، ولجذب ذهن المستمع إليها؛ لما لها مِن مزيد أهميَّة، وأيضًا لكون الخطاب موجَّهًا إلى مخاطَبين منكرين ومتشكِّكين، بل تجرَّؤوا فاستعجلوا العذاب الذي يُتَوَعَّدون به إن ظلّوا في غيِّهم سادرين، فلا جرم أُكِّد الخطاب باللّام الموطِّئة للقَسَم، وحرف التَّحقيق (قد) لأجل ذلك.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَتَنَّا﴾:

يختبر العظيم عباده ليُظهر حقيقة معادنهم

جاء التَّعبير بالماضي في قوله سبحانه: ﴿فَتَنَّا﴾؛ جريًا على الأصل في حكاية الحال الماضية، وهو مفيد للتَّأكيد والدَّلالة على تحقُّق الوقوع حتمًا؛ أي: فعلنا على ما لنا مِن العَظَمة فعلَ الفاتِن، وهو المختبِر كي تظهر حقيقة معادن القوم، فيكون ذلك حجَّة عليهم.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 28 - 30، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 122 - 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 894.

بلاغة تسمية الاختبار فتنة:

الفتنة أشدُّ الاختبار، ليتبيَّن المستحقُّ لدخول النّار

الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغه، وأصل ذلك: عرض الذَّهب على النّار لتبيُّن صلاحه مِن فساده، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13] ويكون في الخير والشَّرِّ، ودليله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: 15] وقوله سبحانه: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17][1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: امتحنّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، والتَّعبير بالفتنة هنا استعارة، والمراد عاملناهم معاملةَ الممتحِن؛ ليظهر حالهم لغيرهم، أو أوقعناهم في الفتنة على أنَّه بمعناه المعروف، والمراد بالفتنة حينئذ ما يفتن به الشَّخص؛ أي: يغترُّ ويغفل عمّا فيه صلاحه[2].

نكتة التَّعبير بالظَّرفيَّة الزَّمانيَّة في ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

التَّعبير بالظَّرفيَّة؛ للتَّحذير من وقوع البليَّة

التَّعبير بالظَّرفيَّة الزَّمانيَّة في قوله تعالى: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ أشعر أنَّ أهل مكَّة سوف يُفتنون كما فُتِن قوم فرعون؛ فكان هذا الظَّرف مُؤْذِنًا بجملةٍ محذوفةٍ على طريقة الإيجاز، والتَّقدير: إنّا منتقمون ففاتنوهم؛ فقد فتنّا قبلهم قوم فرعون، ومؤذنًا بأنَّ المذكور كالدَّليل على توقُّع ذلك وإمكانه، وهو إيجاز آخر، والمقصود: تشبيه الحالة بالحالة، ولكن عُدل عن صوغ الكلام بصيغة التَّشبيه والتَّمثيل إلى صوغه بصيغة الإخبار اهتمامًا بالقصَّة، وإظهارًا بأنَّها في ذاتها ممّا يهمُّ العلم به، وأنَّها تذكير مستقلٌّ، وأنَّها غير تابعة غيرَها[3].

بلاغة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

جاء الالتفات مِن الخطاب في ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ إلى الغيبة في

---

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق، ص: 217.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 16، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 119.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 894.

التذكير بالأحوال يستدعي الإنكار والاعتبار

﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ تنشيطًا لأذن السّامع، وتوسيعًا لمجرى الكلام، إيذانًا بالإعراض عنهم، وتسجيلًا لضلالهم، وتعديدًا لجناياتهم، وتذكيرًا بحال غيرهم؛ ليتعجَّبوا منه، وليستدعي ذلك منهم الإنكار والتَّقبيح.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾:

النسبة الى طاغية كفّار للتَّحقير مِن شأنهم، والتَّحذير من مغبَّة ما وقع لهم

الإضافة في قوله تعالى: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ إضافة معنويَّة محضة، تفيد تعريف المضاف إليه، والغرض منها إحضاره في ذهن السّامع بأخصر طريق وأوجزه، مع إفادة التَّحقير لهؤلاء القوم بنسبتهم إلى طاغيةٍ كَفّار، لأجل حصول العظة لغيرهم والاعتبار.

والمعنى أنَّه فتنهم مع فرعون؛ لأنَّ ما كان فتنة لقومه كان فتنة له؛ لأنَّ الكبير أرسخ في الفتنة بما أحاط به من الدُّنيا[1].

نكتة التَّعبير بالاسم العلَم ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

التعبير بالعلميَّة للتَّحقير، وتخويف المخاطبين من سوء المصير

أوثر التَّعبير بالاسم العلَم ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾؛ للتَّعريض به، ولإحضاره في الأذهان بالاسم الذي عُرِف به مصحوبًا بالهلاك، والتعرُّض للفتن.

وذِكره باسمه العَلَم أتاح أيضًا أن يشبَّه به أبو جهل، ويشبَّه أتباعه بملأ فرعون وقومه[2]، فتحصل بذلك الموعظة البليغة، والتَّحذير من سوء المصير، فكما لم ينفع فرعونُ قومَه، بل إنَّما هلكوا بسبب اتِّباعهم إيّاه فكذلك سيقود أبو جهل ورد أتباعه إلى النّار.

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾:

زيادة التَّفصيل في قصَّة الكليم، للتذكير والتحذير

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ عاطفة، عطفت الجملة السّابقة على قوله تعالى: ﴿فَتَنَّا﴾ وهو عطف مفصَّل على مجمل، وإنَّما جاء معطوفًا إذ المذكور فيه أكثر من معنى الفتنة.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 294.

فلا تكون جملة ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ بيانًا لجملة ﴿فَتَنَّا﴾ بل هي تفصيل لقصَّة بعثة موسى عليه السلام[1].

نكتة تنكير ﴿رَسُولٌ﴾ ودلالة وصفه بـ ﴿كَرِيمٌ﴾:

بيان منزلة موسى الكليم وأن المُصطَفين هم خيار العالمين

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ للتَّعظيم، ووصفه بـ ﴿كَرِيمٌ﴾؛ زيادة في التَّعظيم والتَّشريف، والرَّسول الكريم: موسى عليه السلام، والكريم: النَّفيس الفائق في صنفه، أيّ: رسولٌ مِن خيرة الرُّسل أو مِن خيرة النّاس[2]؛ تكريمًا لنبيِّ اللّٰه الكليم موسى عليه السلام، وتوكيدًا لمعنى أنَّ اللّٰه سبحانه يصطفي للنُّبوَّة والرِّسالة خيرة خلقه، وأكرم عباده، وفي هذا ردٌّ لمقترح المشركين الذي حكاه عنهم القرآن في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31].

سرُّ المغايرة في وصف الرَّسولَيْن بين ﴿كَرِيمٌ﴾ و﴿أَمِينٌ﴾:

يَحسُن ذكر الأمين مع الأداء، والسُّلطان مع العلاء

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ أي مكرَّم معظَّم عند اللّٰه عزّ وجلّ، أو عند المؤمنين، أو عنده تعالى وعندهم، أو كريم في نفسه متَّصف بالخصال الحميدة والصِّفات الجليلة حسبًا ونسبًا[3]، والكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتَّى يظهر ذلك منه[4]، ونقل عن بعض العلماء أنَّ الكرم كالحريَّة إلّا أنَّ الحريَّة قد تقال في المحاسن الصَّغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلّا في المحاسن الكبيرة، وأصل الأمن: طمأنينة النَّفس وزوال الخوف[5].

وفي الآية الأولى جاء الوصف بالكرم؛ لأنَّه وصف صادر من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 895.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 895.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 119.
(4) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 707.
(5) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص: 90.

اللّه تعالى؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾، وقد تقدَّم أنَّ في هذا الوصف دلالة على كرامة الأنبياء على اللّه سبحانه، وأنّه سيكرم أتباعهم، وسينتقم من أعدائهم، وأنّه سبحانه يصطفيهم على خلقه، ويصنعهم على عينه.

أمّا في الآية الثّانية فقد جاء الوصف بالأمانة؛ لأنَّه مِن وصف الرَّسول لنفسه، وذلك في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾، لينفي ما في قلوبهم مِن شكٍّ في قبول رسالته؛ أي: إنِّي رسول لكم مؤتمن على الوحي، لا أغيِّر فيه ولا أبدِّل.

ولا يخفى حسن ذكر الأمين مع الأداء، والسُّلطان مع العلاء، وذكر أنَّ في الأوَّل ترشيحًا للاستعارة المصرَّحة أو المكنيَّة بجعلهم كأنَّهم مال للغير في يده، أمره بدفعه لمَن يؤتمن عليه، وفي الثّاني تورية عن معنى الملك مرشَّحة بقوله ﴿لَّا تَعۡلُواْ﴾ [الدخان: 19][1].

علّة فصل قوله: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾:

لا يجيئ الرّسول إلا بشيرا وداعيًا إلى الله تعالى ونذيرًا

فصل قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه جاء تفسيرًا لما قبله، ويجوز في ﴿أَنۡ﴾ كونها مفسِّرة؛ وذلك لأنَّ مجيء الرَّسول إلى مَن بُعث إليهم متضِّمن لمعنى القول؛ لأنَّه لا يجيئهم إلا مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى اللّه، والمعنى: أرسلوا معي بني إسرائيل وسلِّموهم إليّ، أ هي المخفَّفة مِن الثَّقيلة، ومعناه: وجاءهم بأنَّ الشَّأن والحديث: أدّوا[2]، وعلى كلا التَّوجيهين فالفصل لكمال الاتِّصال لشدَّة التَّرابط بين الجملتين.

بلاغة الإيجاز بحذف فعل:

القـول سبيـلُ التبليغ والإنذار

قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ هو مقول قول محذوف، والتَّقدير: أرسلنا إليهم رسولًا يقول لهم أدّوا إليَّ عباد اللّه؛ وذلك لأنَّ بعث الرَّسول

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 120.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 296.

مستلزم وجود رسالة، وإذا كانت رسالة الأنبياء تبليغًا وإنذارًا لأقوامهم على سواء فإنَّ هذا متضمِّن لمعنى القول بوصفه أداة التبليغ والإنذار، والجهر بالأسرار فحُذف فعل القول لدلالة لفظ ﴿رَسُولٌ﴾ عليه إيجازًا واختصارًا وتفخيمًا لمضمون الرِّسالة.

الغرض من الأمر في ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾ بصيغة الجمع:

ألـقِـي الطَّـلب للجَمْع؛ رجاء أن يُلقِي أحدُهم السَّمْع

الأمر في قوله تعالى: ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾ مستعمَل في حقيقته لأداء معنى الطَّلب؛ فالمعنى أنَّه طلب إليهم أن يسلِّموا إليه بني إسرائيل الذين كان فرعون استعبدهم[1].

والمراد بخطاب الجمع: فرعون ومَن حضر مِن ملئِه لعلَّهم يشيرون على فرعون بالحقِّ، ولعلَّه إنَّما خاطب مجموع الملأ لمّا رأى مِن فرعون صلفًا وتكبُّرًا عن الامتثال، فخاطب أهل مشورته لعلَّ فيهم مَن يتبصَّر الحق[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بفعل الأداء دون غيره:

تـسـلـيـمُ بـنـي اســـرائـــيـــل للرسول الكليم لتبليغهم رسالة الربّ الكريم

تدور معاني الأداء في اللُّغة حول التَّمكُّن والتَّمكين من الشَّيء حوزًا أو إتاحة انتفاع[3]، فهو دفع الحقِّ دفعة، وتوفيته، كأداء الخراج والجزية وأداء الأمانة[4]، وفي الآية الكريمة جعل الحقُّ سبحانه بني إسرائيل كالأمانة عند فرعون على طريقة الاستعارة المكنيَّة[5]، وهذه الأمانة ينبغي أن تردَّ إلى مالكها وصاحب الحقِّ فيها مستوفاة، فقوله: ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: سلِّموا إليَّ بني إسرائيل أجمعين، ومكِّنوني منهم أبلِّغهم رسالة ربِّي، فلا تحولوا بيني وبينهم.

---

(1) صدِّيق خان، فتح البيان: 12/ 397.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 895.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أدو - أدى).
(4) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (أدو - أدى).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 895.

معنى (إلى) في ﴿إِلَيَّ﴾:

الأصل في معنى (إلى) أنَّه موضوع للدَّلالة على انتهاء الغاية[1]، فكأنَّ موسى ﷺ قد جعل نفسه غاية لفعل الأداء، والمعنى: ادفعوا عبادَ اللّه، وهم بنو إسرائيل إليَّ، وذلك بأن تسلِّموني إيّاهم ولا تعذِّبوهم، ولا تحولوا بيني وبينهم، وأرسلوهم معي لأذهب بهم إلى الشّام[2]، وفيه تنبيه على أنَّ فرعون لا حكم له عليهم[3].

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول به:

قُدِّم شبه الجملة على المفعول به في ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ للاهتمام؛ فهو النَّبيُّ المبعوث، والمكلَّف بالقيام بهذه المهمَّة مِن اللّه ﷻ، ولا يبعد أن يكون التَّقديم للاختصاص؛ أي: أدّوهم إليَّ حصرًا.

يقدَّم في طليعة الكلام ما كان به مزيد الاهتمام

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ إضافة محضة معنويَّة، تفيد التَّعريف والتَّشريف، وفيها كذلك معنى التَّخصيص؛ فبنو إسرائيل هم عباد للّه وحده وليسوا عبيدًا لأحد غيره، ففيه ردٌّ لادِّعاء فرعون الألوهيَّة والرُّبوبيَّة!

النّاس جميعا عبادٌ للّه وحده وليس لأحد غيره

وهذا الوصف: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ مبطِلٌ لحسبان القِبط إيّاهم عبيدًا كما قال: ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: 47] وإنَّما هم عباد اللّه، أي: أحرار، ففيه كناية عن الحريَّة، وقد جاء التَّعبير عنهم بعباد اللّه في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ استعباد فرعون إيّاهم ظُلمٌ منه؛ فأجري وصفهم ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ تذكيرًا لفرعون بموجب رفع الاستعباد عنهم[4].

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 463، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 16.
(2) الإيجي، جامع البيان: 4/ 101، والعليمي، فتح الرحمن: 6/ 248، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 284.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 21.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 119، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 295.

توجيه نصب ﴿عِبَادَ﴾ وأثره في المعنى:

المـؤتـمـنُ على الوحي والرسالة حريٌّ بالتفخيم والإعظام

قوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ يجوز أن يكون مفعولًا به، وهم بنو إسرائيل، وأن يكون نداءً لهم، ومفعولُ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ محذوف يدلُّ عليه المقام، أي: أدّوا إليَّ يا عباد الله ما هو واجب لله عليكم مِن الإيمان به، فحذف حرف النِّداء مع مفعول ﴿أَدُّوٓاْ﴾[1]، وعلَّل ذلك بأنَّه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته[2]، والغرض من هذا الحذف التفخيم والإعظام.

والظّاهر مِن شرع موسى عليه السلام أنَّه بُعث إلى دعاء فرعون للإيمان، وأن يرسل بني إسرائيل، فلمّا أبى فرعون أن يؤمن ثبتت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، ويدلُّ عليه قولُه بعدُ: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١﴾ [الدخان: 21] وهذا قريبُ نصٍّ في أنَّه إنَّما يطلب بني إسرائيل فقط، ويؤيِّد ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ [الدخان: 23] فيظهر أنَّه إيّاهم أراد موسى عليه السلام بقوله: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾[3].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

المُرسلُ بالحقّ أحقُّ بالاتّباع

فصل قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر[4]، فكأنَّه قيل: ولمَ نرسل معك بني إسرائيل؟ قيل: لأنِّي مرسل إليكم برسالة من الله تعالى، فقوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليلٌ لقوله: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾؛ فالمعنى اتَّبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحقِّ لأنِّي مرسل إليكم بهذا[5].

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تأكيد أنَّ الكليمَ مِـــن جـمـلـة المرسلين دفعٌ لإنكار المكذّبين

حُشد في هذه الجملة الكريمة عدد من المؤكِّدات، وهي: (إنَّ) التي تقوم مقام إعادة الجملة مرَّتين، وتقديم شبه الجملة ﴿لَكُمۡ﴾

---

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 574، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 119، والزحيلي، التَّفسير المنير: 25/ 217.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 296.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 71، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 895.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 383، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 124.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 895.

على الخبر ﴿رَسُولٌ﴾، ووصف الرَّسول بالأمانة مبالغة في الأداء، واسميَّة الجملة المفيدة للثُّبوت والدَّوام.

وقد توالت هذه المؤكِّدات؛ ليؤكِّد أنَّه عليه السلام مِن جملة المرسَلين، وأنَّه محمَّل برسالة مِن اللّه سبحانه إليهم؛ فعليهم أن يتَّبعوا ما يأمرهم به، ويتجنَّبوا ما ينهاهم عنه، وإذا كانوا منكِرين فقد أكَّد لهم الكلام بأكثر مِن مؤكِّد لرفع هذا الإنكار.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَكُمْ﴾:

تخصيص الأنام بالرّسل إثارة لمعاني الإيمان في نفوسهم

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ بهذا المعنى[2]؛ أي أنَّ نبيَّ اللّه موسى عليه السلام يقول لفرعون وقومه: إنَّه مرسَل مِن اللّه، وقد أرسله اللّه سبحانه خاصَّة لأجل ذلك[3].

ولا يخفى ما في ذلك مِن إثارة معاني الإيمان في النُّفوس التي يُقال لها إنَّ اللّه في عليائه قد اختصَّهم ببعث رسول إليهم ليخرجهم مِن الظُّلمات إلى النّور.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَكُمْ﴾:

مقصود الإرسال تحرير أمَّة إسرائيل من الضلال

جاء تقديم شبه الجملة على المسند في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ للاهتمام بتعلُّق الإرسال بأنَّه لهم ابتداء بأن يعطوه بني إسرائيل؛ لأنَّ ذلك وسيلة للمقصود مِن إرساله لتحرير أمَّة إسرائيل، والتَّشريع لها[4].

نكتة تنكير رَسولٌ ودلالة وصفه بـ ﴿أَمِينٌ﴾:

جاء التَّنكير في قوله: ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ للتَّعظيم، أي: رسول بالغٌ

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(2) الهلال، الثريّ الجامع: 25/ 168.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 21.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 896.

لا يرسل الملك الديّان الا من هو أهلٌ لحمل الأمانة

الأمانة؛ لأنَّ الملك الديّان لا يرسل إلّا مَن كان كذلك[1]، والمعنى: لقد ائتمنني اللّه تعالى على وحيه وصدَّقني بالآيات الباهرة، والمعجزاتِ القاهرةِ[2].

بلاغة المناسبة في تغيُّر أوصاف الرُّسول بين ﴿مُّبِينٌ﴾، و ﴿كَرِيمٌ﴾، و﴿أَمِينٌ﴾:

جاء النبيُّ الأمين بالكتاب المبين ومحذّرًا من تأتي السَّماء بِدُخانٍ مُّبِينٍ

وُصف فيها الرَّسول في الآيات الثَّلاث [الدخان: 13، و17، و18] بأوصاف الإبانة ﴿مُّبِينٌ﴾، والكرم ﴿كَرِيمٌ﴾، والأمانة ﴿أَمِينٌ﴾، وقد جاء كلُّ وصف منها مناسبًا لسياقه تمام المناسَبَة، فإنَّ الرَّسول في الآية الأولى هو النَّبيُّ ﷺ، وقد وُصِف بالإبانة لمناسبة وصف الكتاب بالوصف نفسه في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، فالكتاب المبين جاء به الرَّسول المبين الذي يبيِّن لهم ما يتَّقون، فإنْ آمنوا فبها، وإن أصرّوا على كفرهم وعنادهم فإنَّهم مُنذَرون ومحذَّرون بيوم تأتي السَّماء فيه ﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وُصِف موسى بالكرم والأمانة؛ لأنّه كريم على اللّه تعالى؛ إذ صنعه على عينه، أمينٌ في تبليغ بني اسرائيل الرّسالة

أمّا الآية الثّانية فالرَّسول فيها هو موسى عليه السلام، وقد وُصِف بالكرم لأنَّه كان مرسَلًا إلى فرعون وقومه، وقد كان فرعون يزدري بني إسرائيل ويمتهنهم، كما حكى القرآن عنهم: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: 4]، بل إنَّ فرعون وقومه قد استبعدوا أن يؤمنوا لموسى وأخيه هارون عليهما السلام، ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ۝٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ۝٤٧﴾ [المؤمنون: 46 - 47].

فلذلك وُصِف الرَّسول بالكرم؛ أي: كريم على اللّه، صنعه اللّه على عينه، فلا سبيل لأن ينازع فرعون في ذلك أو يقول: لماذا يختارك اللّه؟ وأيضًا ليكون ردًّا على المشركين من قريش الذين

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 21، والخطيب الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 583.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 61.

استنكروا أن تنزل الرِّسالة على النَّبيِّ ﷺ، فحكى القرآن عنهم في السّورة السّابقة لسورة الدُّخان - والتي تعدُّ سورة الدُّخان امتدادًا لها - قيلهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، ومحصِّل الرَّدِّ أنَّ اللّه تعالى ﴿يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 75] وهو سبحانه ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124]، و ﴿يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 179]، فكان الوصف بالكرم ردًّا على هؤلاء وأولئك.

أمّا في الآية الثّالثة فالرَّسول هو أيضًا موسى عليه السلام، ووصفه بالأمانة كان صادرًا مِن قِبَل نفسه، لا مِن وصف اللّه تعالى له، وقد ناسب هذا الوصف دعوته لقومه، حيث أكَّد لهم أمانته في تبليغ الرِّسالة إيّاهم، فيرتفع شكُّهم وإنكارهم، وكذا حال كلِّ رُسُل اللّه تعالى، يؤدّون رسالات ربِّهم، لا يبدِّلون ولا يغيِّرون.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفتنة والاختبار والبلاء:

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأبلَغُه، والبلاءُ يدلُّ على كثرةِ الاختبار

الفتنةَ: أشدُّ الاختبارِ وأبلَغُه[1]، وأصلها: إدخال الذَّهب النّار ليتميَّزَ جيِّدُه مِن رديئه[2]؛ يقال: فتنت الذَّهبَ والفضَّة، إذا أذبتهما بالنّار لِتُميِّزَ الرَّديءَ من الجيِّد[3]، واستُعمِل ذلك في إدخال الإنسان النّار؛ قال اللّه ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13][4]، أمّا البلاءُ فهو مأخوذٌ من: بَلِيَ الثوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خلق[5]، وأبلَيتُ الثوبَ: أخلقتُه[6]؛ فيقال: بَلَوْتُه، أي: اختبرتُه كأنّي أخلقته من كثرةِ اختباري له، وسُمِّي الغمُّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فتن).
(3) ابن منظور، اللسان: (فتن).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217، والراغب، المفردات: (فتن).
(5) الراغب، المفردات: (بلي).
(6) الجوهري، الصحاح: (بلي).

بَلاءً من حيث إنَّه يُبلي الجسمَ[1]، وأمّا الاختبار فهو وقوعُ الخبَر بحالةِ المختبَر فيه[2]، فيختبرُ الإنسانُ غيرَه ليعلمَ أحوالَ مَن يختبرهم[3]، ولكنَّ اللّهَ تعالى يختبرُ العبادَ حتّى يظهر في الوجود ما في علمه ﷻ، فهو تعالى عليمٌ بهم بدون اختبار[4]، وهو الخبير العليم بما كان وما يكون[5]، ولمّا كان امتحان قوم فرعون أشدُّ الاختبارِ وأبلُغه ناسب اختيار لفظ (الفتنة) في سياق الآية.

الأداء والدَّفع:

الأداءُ يكونُ عن طِيب نَفسٍ وشعورٍ بإيصال واجب، والدَّفع قد لا يكون عن ذلك

أصلُ الدّفع يدلُّ على تنحيةِ الشَّيء[6]، وإذا عُدِّي بـ (إلى) اقتضى معنى الإنالة[7]، وأصلُ الأداء إيصال الشيء إلى الشَّيء أو وصوله من تلقاء نفسِه[8]، والأداء: ما يجب دفعُه وإعطاؤه لمستحقِّه كأداء الأمانة[9]، ويقال: أدَّى فلانٌ ما عليه أداءً وتأديةً، وفلانٌ آدَى للأمانة من فلان[10]، وأوثِر لفظُ الأداء دون الدَّفع في ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾؛ لأنَّ بني إسرائيل جُعِلوا كالأمانةِ عند فرعون، ولأنَّ إعطاءَه نبيَّ اللّه موسى ﵇ عبادَ اللّه وإرجاعَهم إليه واجبٌ على فِرعون[11]، والإيصال في الأداء يكون عن طِيبِ نَفْس[12].

(1) الراغب، المفردات: (بلي).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 216.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 65.
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلو).
(5) ابن منظور، اللسان: (خبر).
(6) ابن فارس، المقاييس: (دفع).
(7) الراغب، المفردات: (دفع).
(8) ابن فارس، المقاييس: (أدي).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أدي).
(10) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (أدي).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 295.
(12) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 20.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ٢١﴾ [الدُّخان: 19 - 21]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مَن جعلَ الله كافيَه وناصرَه؛ أمدَّه سبحانه بمدَدِه؛ فلا يقدرُ مخلوقٌ أن يؤذيَه أو يُغويَه

لمّا أعلمَ الكليمُ عليه السلام قومَ فرعونَ بأنَّه مرسَلٌ مِن عند الله تعالى، ووصَّل لهم القولَ - على سواء - أمَرَهُم على إثر ذلك أن يُطلقوا سراحَ أسرَى بني إسرائيلَ وأن يكفّوا عن تعذيبهم وأذيَّتِهم؛ وأخبرَهُم بأنَّه مأمونٌ على ما يبلِّغهم به غيرُ متّهم فيه؛ أمرَهُم ألّا يَطغَوا ويبغوا على ربّهم؛ فإنَّ استعبادَهُم لبني إسرائيلَ صورةٌ منَ العلوِّ والبغي على صاحب الحقِّ في هذه العبوديّة وهو الله سبحانه وتعالى، وإنَّ ذلك أيضًا مؤدٍّ إلى هلاكهم، ولمّا كان منَ العجائب أن يَقتل منهم نفسًا ثمّ يخرجَ فارًّا منهم ثمَّ يأتي إليهم لا سيَّما إتيانًا يُقاهرُهم فيه في أمرٍ عظيم من غير أن يقع بينهم وبينه ما يمحو ما تقدَّم منه، نبَّهَهُم على أنَّ إتيانه هذا على هذا الحال آيةٌ أخرى دالَّةٌ على السُّلطان؛ ولمّا غلبَ على ظنِّهم أنَّه في قبضَتِهم؛ أخبرَهم تكذيبًا لهذا الظَّنِّ أنَّه محميٌّ من صاحب القوَّة العُظمى التي لا تُغالَب، ولا تُقهَر؛ ومن ثَمَّ لا يقدرُ أحدٌ أن يصل إليه بسوء، ولمّا كان الأصلُ في الرِّسالات البيانَ والبلاغ، وكانت عادتُهم الإيذاءَ لكلِّ مَن خرجَ عليهم؛ أعلمَهُم عليه السلام أنَّه جاء لبلاغِهم ودعوتهم؛ فإنْ لم يُصدِّقوه؛ فليُخلّوا سبيله، ولا يتعرَّضوا له باللِّسان ولا باليد، وأن يجعلوا الأمرَ بينه وبينهم مسالمةً إلى أن يقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659، والبقاعي، نظم الدُّرر: 21/ 18، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 126 - 127، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 29/ 2969، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 356 - 357.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡلُواْ﴾: أصل (علو) يدلُّ على ارتفاع الشَّيء فوق شيءٍ تحته، وسُموِّه عليه(1)، والعلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع، وقد علا يعلو عُلوًّا، فهو عالٍ، وعَلِيَ يَعلَى علاءً، فهو عَلِيٌّ، و(عَلا) بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثر، و(عَلِيَ) بالكسر في الشَّرف.

و"العُلوُّ للّه ﷻ عن كلِّ شيء، فهو أعلى وأعظمُ ممّا يُثنَى عليه"، و"العُلوُّ العظَمَة والتَّجبُّر"(2)، والعَلِيُّ: هو الرَّفيع القدر، والشَّريف؛ مِن (عَلِيَ)، وإذا وُصِف اللّه تعالى به في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: 62]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ۝٣٤﴾ [النساء: 34]؛ فمعناه: يعلو أن يحيط به وصفُ الواصفين، بل عِلمُ العارفين؛ فهو العالي الذي ليس فوقه شيءٌ، وعلى ذلك يقال: (تعالَى).

ومنه العُلوُّ بمعنى التَّكبُّر في الأرض، يقال: علا في الأرض علوًّا: تكبَّر وطغى، وعلوتُ الرَّجل: غلبتُه، وعلوتُه بالسَّيف: ضربتُه، وعلا بالأمر: اضطلع به واستقلَّ(3).

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ﴾؛ أي: لا تتجبَّروا(4).

2) ﴿عُذۡتُ﴾: أصل (عوذ) يدلُّ على الالتجاء إلى الشَّيء(5)، فالعَوذُ الالتجاءُ إلى الغير والاعتصامُ به والتَّعلُّق ثقةً به، يقال: عاذ فلانٌ بفلان عَوْذًا وعِياذًا ومَعاذًا، وهو عياذُه؛ أي: مَلْجَؤُه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾، وأعذتُه باللّه أُعيذه، وعوَّذته به بمعنًى؛ أي قلت: أُعيذكَ بكلماتِ اللّه وأسمائهِ من كلِّ شرٍّ وكلِّ داء(6).

ومعاذَ اللّه؛ أي: أعوذ باللّه معاذًا، فيكون المعنى نلتجئ إليه، ونستنصر به أن نفعل ذلك، فإنَّه سوء نتحاشى من تعاطيه، والمَعاذ أيضًا: ما يُعاذ به، واللّه جلَّ وعزَّ مَعاذُ مَن عاذ به، وملجأ من لجأ إليه(7).

---

(1) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علو).
(2) الخليل، العين: (علو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوذ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عوذ).

والعوذة: ما يُعاذ به من الشَّيء، ومنه قيل للتَّميمة والرُّقية: عوذة، وعوَّذه: إذا وقاه[1].

3) ﴿تَرْجُمُونِ﴾: أصل (رجم) يدلُّ على الرَّمْي بالحجارة[2]، يقال: رجمته أرجُمُه رَجمًا فهو رجيمٌ ومرجوم؛ أي: رميتُه، والرِّجام: الحجارة الضِّخام، والرَّجم: الرَّمْيُ بالرِّجام والحجارة، ويقال على القتل أيضًا؛ "وإنَّما قيل للقتل رجمٌ؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا رَموه بالحجارة حتى يقتلوه، ثم قيل: لكلِّ قتل رجمٌ"[3].

ويُستعار الرَّجم للرَّمْي بالظَّنِّ والتَّوهُّم، وللشَّتم والطَّرد، وممّا جاء بمعنى الشَّتم قوله تعالى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: 46]؛ أي: (لأقولنَّ فيك ما تكره، وأسُبَّنَّك وأشتمنَّك)، والشَّيطان الرَّجيم: بمعنى المرجوم، وهو الملعون المُبعَد، أي: المطرود عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى[4].

4) ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾: أصل (عزل) يدلُّ على تنحيةٍ وإمالة[5]، الاعتزال: تجنُّب الشَّيء عُمالةً كانَت أو براءةً أو غيرَهما، بالبدن كان ذلك أو بالقلب[6]، وعزلَ الشَّيءَ يعزله عزلًا، وعزَّله فاعتزَل، وانعزَل، وتعزَّل: نحّاه جانبًا فتنحَّى، واعتزلتُ القومَ: فارقتُهم وتنحَّيتُ عنهم[7]، وكنتُ بمعزلٍ عن كذا؛ أي: كنتُ بموضعِ عُزلةٍ منه، والعُزلة: الانعزالُ نفسُه[8]، ومعنى: ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾؛ أي: تَنَحَّوْا واتركوني[9].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يواصل السِّياقُ القرآنيُّ في هذه الآيات حديثَ نبيِّ الله موسى عليه السلام مع قومه أثناء دعوتِه لهم وأداءِ رسالته إليهم؛ فيُخبرُ أنَّه عليه السلام قد حضَّهم على ألّا يتجبَّروا على الله سبحانه بتركِ طاعتِه؛ لأنَّه قد جاءهم بحجَّةٍ ظاهرةٍ وبرهانٍ ساطعٍ على صحَّة ما يدعوهم إليه،

(1) الراغب، المفردات: (عوذ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزل).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عزل).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عزل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (عزل).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عزل).

التَّكَبُّرُ على اللهِ مذمومٌ، والاعتصامُ بهِ محمودٌ، والتَّعرُّضُ للأنبياء ممقوت

إلّا أنَّهم توعَّدوهُ بالقتل، فاعتصم باللّه خالقِه وخالقِهم من أنْ يتمكَّنوا من قتْلِه رَميًا بالحجارة أو إيذاءً باليد واللِّسان، مبيِّنًا أنَّهم إنْ لم يُصدِّقوه ويُقِرّوا بِنُبوَّتِه فليس عليهم إلّا أن يُخَلّوا بينه وبين تبليغ رسالتِه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾:

الواو عاطفةٌ: لبيان مدى الاغترار، والعلوِّ على الحقِّ بالتَّكذيب والإنكار

الواو عاطفةٌ، حيث عطفت قولَه تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، على قوله: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ [الدخان: 18] فعطَفت النَّهيَ عنِ الاستكبار عن إجابة أمرِ اللّه أنفةً على طلبِ موسى ﷺ تسليمَ بني إسرائيلَ(2).

وأوثِرَ الوصلُ على الفصل لاتِّحاد الجملتَين الكريمتَين في الإنشائيَّة؛ فالأولى منهما أمرٌ، والثّانية نهيٌ، وليس ثَمَّ ما يقتضي الفصلَ بينهما.

نكتةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح:

المصدرُ المؤوَّل مشتملٌ على الزَّمان، مع النَّهي عنِ العلوِّ والطُّغيان

يفيد المصدرُ المؤوَّل الدَّلالةَ على الزَّمن لاشتماله على الفعل، وهو مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّد معنى الحدثِ دون احتمالٍ زائدٍ عليه؛ ففي (أنْ) تحصينٌ مِنَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمالِ، بخلاف المصدرِ الصَّريح، فليس فيه شيءٌ من هذا(3).

وعلى احتمال كونِ (أن) هنا مصدريَّةً؛ فقد عُبِّر بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح في قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ للإيماء إلى ما يقتضيه ذِكرُ الفعل المضارع مِنَ الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار؛ فكأنَّه قال: انتَهوا عن هذا البغي على ربِّ العالمين سبحانه؛ في جَعْلِ عبوديَّةِ بني إسرائيلَ لكم من دونِ اللّه، ولا تعودوا لمثلهِ أبدًا؛ فليس الزَّجرُ هنا مرتبطًا بزمنِ التَّكلُّم وإنَّما لمُطلق الزَّمن.

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، والهرري، الحدائق: 26/ 356 - 357.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 296.
(3) السامرائي، معاني النحو: 3/ 147 - 149.

من لوازم العبوديَّة الخضوعُ لله تعالى والاستسلامُ له

دلالةُ (أن) المخفّفة ومعناها:

في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: (أنْ) مخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن محذوفٌ، والتَّقدير: "أنَّه"، وفي (أنْ) هاهنا وجهان جائزان؛ **أحدُهما:** أنْ تكون (أنْ) مصدريَّةً، فهي ومدخولُها في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوفٍ، والمعنى على التَّقدير: جئتكم آمرًا بتسليم بني إسرائيلَ، وبكفِّكم عنِ العلوِّ على اللّه تعالى[1]، فكأنَّه جعلَ الأمرَ والنَّهيَ شيئين مُتلازِمَين هنا، لا يُفارقُ أحدُهما صاحبَه، وهذا دليلٌ على أهميَّة هذا البلاغ، وأمانةِ هذا المبلِّغ عليه السلام.

والوجه الآخر: أن تكون (أنْ) حرفَ تفسير؛ لأنَّها مسبوقةٌ بجملةٍ فيها معنى القول دون حروفِه، وهي جملة: (جاءَهُمْ)، وعليه فالجملة مفسِّرةٌ لا محلَّ لها[2]، والمعنى على هذا التَّقدير: جاءَهُم برسالةٍ أو بقولٍ هو: لا تَعلوا على اللّه، فهذا "مِن مضامينِ هذه الرِّسالة، ومِن مَقولِ القولِ الذي واجَهَ به موسى عليه السلام القومَ، وهو أنَّه قد جاءَهُم بسلطانٍ مبين؛ أي: سلطانٌ ظاهرٌ، يعلو كلَّ سلطان"[3].

وفي هذا التَّوجيه إلماحٌ لِما تقتضيه هذه الرِّسالةُ مِن وجود المُرسِل، وتوجيهِ الرَّسول، ونصِّ الرِّسالة، وقصدِ القوم المبلَّغين؛ ممّا ينفي ألوهيَّةَ فرعون المدَّعاةَ.

وقد أدَّى إدغامُ (أنْ) في حرف النَّهي إلى تشديد اللّام، وهذا الصَّوتُ المشدَّدُ يوافق معنى التَّحذير المؤكَّدِ مِنَ التَّعالي على أمر اللّه تعالى بالكفر والعصيان.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 120.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 124، والدرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 668.

(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 195.

يدور وعظ الدّاعية بين نُصحٍ وإرشاد، وترغيبٍ وترهيب

الغرضُ منَ النَّهي في ﴿لَّا تَعۡلُواْ﴾:

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ هي النّاهيةُ، والغرَضُ من هذا النَّهي هو النُّصحُ والإرشاد، بتحذيرِ القوم مِنَ الاستعلاء على الإيمان بالكفر، وهذا مِنَ الأغراضِ المقصودةِ للدّاعية؛ فهو بين نُصحٍ وتحذيرٍ، وترغيبٍ وترهيبٍ.

مَن طلبَ العلوَّ على مَولاه؛ أخسَأهُ المولى وأرداه

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالتُها في ﴿عَلَى ٱللَّهِۖ﴾:

الأصلُ في معنى (على) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك؛ فهي منَ العُلوِّ[1]؛ ومعناها في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾: لا تَطلبوا العلوَّ على اللّه؛ أي: بإنكارِ ربوبيَّتِه، ودعوى الرُّبوبيَّةِ لأنفسِكم، وتكذيبِ رسوله، وغضبِ عباده[2].

تعظيمُ أمرِ الله ربِّ العالمين، والتَّشنيعُ على الجاحدين المتكبِّرين

بلاغةُ الإيجاز بحذفِ المضاف:

قولُه: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: لا تعلوا على أمرِهِ أو على رسوله، فهو على تقدير مضافٍ محذوف.

فلمّا كان الاعتلاءُ على أمْرِ اللّه وأمْرِ رسولِهِ ﷺ ترفيعًا لأنفُسِهم على واجبِ امتثالِ ربِّهم - جُعلوا في ذلك كأنَّهم يتعالَوْن على اللّه[3].

وفي حذف هذا المضاف ومباشرةِ المضاف إليه لحرف الجرِّ زيادةُ تشنيعٍ على المخاطَبين؛ ففرقٌ كبيرٌ بين (لا تعلوا على أمر اللّه)، و(لا تعلوا على اللّه)، وفيه كذلك تعظيمٌ لأمر اللّه تعالى، وأنَّ العلوَّ على أمرِ اللّهِ علوٌّ على اللّه سبحانه.

نكتةُ التَّعبير بالألوهيّة دونَ الرُّبوبيّة في ﴿عَلَى ٱللَّهِۖ﴾:

الاسمُ الأعلى والأسمَى والأجلّ: ﴿ٱللَّهِۖ﴾ عَلَمٌ على الذّات الإلهيَّة؛

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

(2) النَّسفيّ، التَّيسير في التَّفسير: 13/ 325.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 296.

فهو يدلُّ على كلِّ أسماءِ اللّه ﷻ وصفاتِه، وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بعنوان الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّ سياق الآيات فيه ذكرٌ للعبوديَّة في ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ [الدخان: 18]، وفيه نهيٌ عنِ الاستعلاء على أمرِ اللّه تعالى، وذِكرٌ للرِّسالة؛ وكلُّ هذا مِن لوازم الألوهيَّة.

التّعبيرُ بالألوهيَّة تذكيرٌ بمَن له الاستعلاءُ، ومن له تخضع البريَّةُ

أمّا الرُّبوبيَّة فمِن لوازمها: الخَلْقُ، والرِّزقُ، والتَّدبيرُ، والعنايةُ، والرِّعايةُ، والتَّربيةُ، والإحسانُ(1)؛ فلذلك لم يُعبَّر بالرُّبوبيَّة؛ لأنَّ التَّعبيرَ بها يُناسبُ مقامَ النِّعمةِ والمنَّةِ والحفظ؛ والمقامُ مقامُ إنذارٍ وتحذير.

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم﴾:

فُصل قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ عن سابقه لأنَّه تعليلٌ للنَّهي؛ أي آتيكم بحجَّةٍ واضحةٍ لا سبيلَ إلى إنكارها، أو موضِّحةٍ صِدْقَ دَعْواي(2).

الفصلُ للتَّعليل؛ لبيان سطوةِ التَّنزيل

ويحتمل أن يكون استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مقدَّر؛ فكأنَّ القومَ قالوا لموسى عليه السلام: لماذا تطلبُ إلينا ما تطلبُ؟ ولماذا نصدِّقك؟ فالجوابُ: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، فهذا أمرٌ جديرٌ بأن يجعلكم مُذعِنينَ متَّبعين.

نكتةُ توكيدِ الجملة بـ(إنَّ):

جاء التّوكيد بـ(إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ لمواجهة إنكارِ القوم الذين كفروا بما جاءهم به موسى عليه السلام، بل إنَّهم هدَّدوه وتوعَّدوه؛ ولذا أخبرهم مؤكِّدًا أنَّه قد جاءهم بأمرٍ باهرٍ عظيمٍ لا يمكنهم إنكارُه ولا الاستعلاءُ عليه؛ فمِن ثمَّ لا يمكن الاستعلاءُ على اللّه سبحانه.

التّوكيدُ؛ للدَّعم والتّأييد

(1) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 120، والنَّسفيّ، التَّيسير في التَّفسير: 13/ 325.

توجيهُ ﴿ءَاتِيكُم﴾ بين الاسميَّة والفعليَّة:

التّعبيرُ بالاشتقاق؛ لإفادة المجيء بالحُجَّة في الحال

قولُه سبحانه: ﴿ءَاتِيكُم﴾ يجوزُ أن يكون مضارعًا، ويجوزُ أن يكون اسمَ فاعل، وكلاهما مشتقٌّ منَ الإتيان، غيرَ أنَّ في التَّعبير بالفعل معنى التَّجدُّد والاستمرار، كأنَّه قال لهم: كلَّما أحدَثتُم اعتراضًا وجدَّدتُم تكذيبًا فإنَّني سآتيكُم بسلطانٍ مبين، وهذا كما قال ربُّنا ﷻ في حقِّ نبيِّنا محمَّد ﷺ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33].

وفي التَّعبير عنِ السُّلطانِ الذي يَلقَى به القومَ بفعلِ المُضارَعة الذي يُفيد الاستقبالَ: ﴿ءَاتِيكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا السُّلطانَ الذي معه لم يرَهُ القومُ بعدُ، وأنَّهم إذا شاؤوا أن يَرَوْه أراهُم موسى عليه السلام إيّاه[1].

أمّا التَّعبيرُ باسم الفاعل ففيه معنى الثُّبوت والدَّوام؛ أي أنَّ حالي معكم أنَّني آتٍ إليكم بسلطان مبين، فأنا رسولٌ من ربِّ العالمين. "وعلى الاحتمالين فهو مقتضٍ للإتيان بالحُجَّة في الحال"[2].

سرُّ التَّعبير بالإتيان هنا وبالمجيء قبله:

الإتيانُ أنسَبُ لِما أُريدَ له من إظهارِ الآياتِ والعِبَر؛ ففيه مجيءٌ بسهولةٍ ويُسْر

الإتيانُ: مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهه: أتِيٌّ وأتاوِيٌّ[3]، والمجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، والإتيانُ قد يُقالُ باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصول، ويقال (جاء) في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئُه بذاتِه وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ [الفرقان: 4]؛ أي: قصَدوا الكلامَ وتعمَّدوه، فاستُعمل فيه المجيءُ كما استُعمِل فيه القصد[4].

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 195.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 297.
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (أتى).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (جاء).

فممّا سبق يتبيَّن أنّ المجيء فيه معنى القصدِ، والحصولِ، والظُّهورِ، وفيه كذلك معنى الانحدار إلى حيِّزٍ أو تجوُّفٍ سفليٍّ مهيَّأٍ جامعٍ؛ كالماءِ في الهبطةِ والحُفرة[1].

وبناءً على ما سبقَ فإنَّ التَّعبيرَ بالمجيء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧﴾ [الدخان: 17] هو الأنسبُ في سياقه؛ لِما فيه مِن معاني القصدِ والحصولِ والظُّهور؛ فقد قُصِد إرسالُ موسى عليه السلام إلى قومه، وظهورُ ذلك وحصولُه بمُثولِه عليه السلام بين ظَهرانيهم، وقد أنذرَهُم على سواء.

أمّا التَّعبيرُ بالإتيان في ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ فهو الأنسَبُ في مقامه؛ لأنَّ الحُجَّة التي أتى بها موسى عليه السلام لم يكن شاقًّا عليه أن يُظهرَها لهم، ولا أن يتكلَّف أعباءَ حملِها ونقلِها، بل حصل ذلك بسهولةٍ ويُسْر، فما هو إلّا أن ألقَى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾ [الشعراء: 32 - 33].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾:

الباء للإلصاق المجازي؛ لإفادة شدَّةِ الارتباط

الأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]، وهو هنا في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ يُفيد معنى الإلصاق المجازيِّ الذي هو بمعنى المصاحَبَة؛ أي: معي أمرٌ باهرٌ قاهرٌ مِن عند خالقكم ومالككم، آيةٌ بيِّنةٌ تلازمني ملازمةَ الصّاحب لصاحبه، أو كالشَّيء الملتصِق بما التصَق به، وهذا يفيد قوَّةَ الحُجَّة، وظهورَ البرهان.

نكتةُ تنكير (سُلْطانٍ)، ودلالةُ وصْفِهِ بـ ﴿مُّبِينٖ﴾:

آياتُ الله تعالى بلغَ بها الإنذار، وحصلَ بها الإعذار

أوثر تنكيرُ (سُلْطانٍ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جاء).

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

مُّبِينٍ﴾ لإفادة التَّعظيم، وحُقَّ لتسع آياتٍ منها العصا واليدُ والطّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ أن تكون أمرًا عظيمًا.

والسُّلطانُ مِن أسماء الحجَّة؛ فالحجَّةُ تُلجئُ المحجوجَ إلى الإقرار لمن يُحاجِجُه؛ فهي كالمتسلِّط على نفسه، والمعجزةُ: حجَّةٌ عظيمة؛ ولذلك وُصفَ السُّلطانُ بـ﴿مُّبِينٍ﴾؛ أي: واضحُ الدِّلالة بيِّنٌ لا ريبَ فيه[1]، قد بلغ به الإنذارُ، وحصلَ به الإعذارُ.

علَّةُ وصلِ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾:

أوثرَ الوصلُ لاتِّصال الكلام؛ فهو ضمنَ ما جاء به الكليمُ مِنَ البيان والإعلام

جملة ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ [الدخان: 18]، وقد أوثِرَ الوصلُ على الفصل؛ لأنَّ قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ "هو أيضًا مِن مَقول القول مِن موسى عليه السلام إلى فرعونَ ومَلئِه"[2]، فمضمونُ هذه الجملة هو ممّا شمَلَهُ كلامُ موسى عليه السلام حين بلَّغهم رسالتَه، فكان داخلًا في مجمل معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ١٧﴾ [الدخان: 17] الذي فُسِّر بما بعد (أنْ) التَّفسيريَّةِ، وليس ثمَّ ما يدعو إلى الفصل.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

التَّعبيرُ بالاسميَّة لإفادة الثُّبوت، ودوامِ التَّعوُّذ بذي الملكوت

جاء التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ لإفادة الثُّبوت؛ فإنَّه عليه السلام لا يَعوذُ ولا يَلوذُ بأحدٍ سوى خالقِه ومولاه عزَّ شأنُه وتبارك في عُلاه.

والمرادُ بهذا: تحذيرُهم مِن أنْ يرجموه؛ لأنَّ معنى ﴿عُذْتُ بِرَبِّي﴾؛ أي: جعلتُ ربِّي عوذًا؛ أي: ملجأً[3].

نكتةُ توكيدِ جملة ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ بـ(إنَّ):

جاء التَّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾ بـ(إنَّ)؛ لأنَّه من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 297.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 196.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 297.

العجائب أن يَقتل نبيُّ اللّٰه موسى عليه السلام مِن قومه نفسًا، ثمَّ يخرجَ فارًّا منهم، ثمَّ يأتيَ إليهم إتيانًا يُقاهِرُهم فيه في أمرٍ عظيمٍ مِن غير أن يقع بينهم وبينه ما يمحو ما تقدَّم منه؛ لذلك قال لهم - مؤكِّدًا تكذيبًا لظنِّهم أنَّه في قبضتهم -: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي﴾[1].

الخطابُ بالتَّوكيد؛ للمبالغة في تحذير المتكبِّر العنيد

فلمّا دعاهم موسى عليه السلام إلى ما أرسله اللّٰه تعالى به، هدَّدوه ظنًّا منهم أنَّهم قادرون عليه؛ فعبَّر بالتَّوكيد للمبالغةِ في تحذيرِ كلِّ متكبِّرٍ عنيد؛ فإنَّ مَن تعوَّذ به موسى عليه السلام هو ربُّه الذي أحسنَ إليه ورعاهُ وأدَّبه وأسبغَ عليه نِعمَه، وهو أيضًا ربُّهم الذي أحسنَ إليهم بأن أرسلَ إليهم مَن يَستنقذُهم مِنَ العذاب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُسند الفعليِّ ومجيئِه ماضيًا:

أفاد المسندُ الفعليُّ تقويةَ الحكم وتوكيدَه، وأفاد المضيُّ تحقيقَهُ

أوثرَ التَّعبيرُ بالمسنَد الفعليِّ ﴿عُذْتُ﴾ في قوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ لإفادة تقويةِ الحكم وتوكيدِه.

والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسنَد الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّرُ الإسناد؛ لأنَّ الفعلَ فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّةً إلى المبتدأ، ومرَّةً إلى ضميره المُستتر في الفعل، فهو بمثابة التَّعبير بجملةٍ فعليَّةٍ مكرَّرةٍ، فيقوَى الحكمُ ويثبتُ في الذِّهن[2].

وتجري هذه الصِّياغةُ في المقامات التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير؛ مثل مواجهةِ الشَّكِّ في نفس المخاطَب، والرَّغبةِ في إقناعه، ومثل ردِّ الدَّعوى التي يدَّعيها المخاطَبُ، وغيرِ ذلك مِن مقامات التَّقوية والتَّقرير؛ وهي كثيرة[3].

ولمّا كان بطشُ فرعونَ وجنودِه - بموسى عليه السلام ومَن معه - أمرًا متوقَّعًا ناسبَهُ أن يواجَه بالتَّأكيد بالالتجاء إلى ربِّ العالمين ذي الجلالِ القويِّ المتين.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 253.

(2) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

(3) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.

وأوثِرَ التَّعبيرُ بالماضي لإفادةِ تحقُّق وقوعِ التجاءِ موسى ﵇ إلى ربِّه تعالى والتَّعوُّذِ به حتَّى مِن قبل التَّبليغ، فقد جاءَهُم نبيُّ اللّه موسى ﵇ مسلَّحًا بهذا التَّعوُّذ الضّارع باللّهِ القويِّ العظيم الواسع.

وهذا يحملُ في طيِّه إشارةً إلى مدى قوَّةِ فرعونَ وجندِه، وسَعةِ بطشِهم، ومدَى قوَّةِ إيمانِ موسى ﵇ واستجابتِه لأمر ربِّه ﷻ.

الباءُ للاستعانة والإلصاق؛ لإفادة شدَّةِ التّعلُّق بالعظيم الخلّاق

معنى الباء ودلالتُها في ﴿عُذۡتُ بِرَبِّي﴾:

(الباء) حرفٌ موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا؛ هذا هو الأصلُ فيه[1]، وهو هنا في قوله ﴿بِرَبِّي﴾ بمعنى الإلصاق المجازيِّ الذي يُفيد الاستعانةَ؛ والمعنى أنَّهم لمّا هدَّدوهُ أعلمَهُم أنَّه مستعينٌ ومُحْتَمٍ بصاحبِ القوَّة التي لا قِبَلَ لهم بها.

كما أنَّ الباءَ هنا مُشعِرةٌ بشدَّة الثِّقة، وشدَّةِ تعلُّقِ الكليم بربِّه جلَّ في علاه؛ فإنْ كانَ اللّه حمَى موسى ﵇ وهو في المَهد، وربّاهُ في حِجرِ عَدوِّه، فكيفَ لا يحميهِ بعد أن جعلَهُ رسولًا؟!

الاعتصامُ باللّه حَصانةٌ وصيانةٌ؛ وإبانةٌ لأصولِ الدِّيانة

بلاغةُ الاستعارة في ﴿عُذۡتُ بِرَبِّي﴾:

قولُه: ﴿عُذۡتُ بِرَبِّي﴾؛ أي: جعلتُ ربِّي عَوذًا؛ أي: ملجأً. "والكلامُ على الاستعارة بتشبيه التَّذكير بخوفِ اللّه الذي يمنعُهم مِنَ الاعتداء عليه بالالتجاء إلى حصنٍ أو معقِلٍ، بجامع السَّلامة مِنَ الاعتداء، ومثلُ هذا التَّركيب ممّا جرى مجرى المَثَل، ومنه قولُه تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: 18]"[2].

وقد أفادت هذه الاستعارةُ بظلالها الدَّلاليَّةِ معنى كونِ اللّه تعالى ملجأً عظيمًا يحتمي به كلُّ خائف مِن بطشِ طاغيةٍ، فهي إذًا دعوةٌ للمخاطَبين مِن آل فرعونَ وجندِه أن يَتركوهُ، ولا يخافوا بطشَهُ؛ فاللّه

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 297.

تعالى قادرٌ على حمايتهم والذَّبِّ عنهم وإهلاكِ عدوِّهم؛ فلْيؤمنوا بالله سبحانه فهو ﷻ كافيهم.

نكتةُ عطفِ (رَبِّكُمْ) على (رَبِّي):

الــعــطــفُ لــلــتَّــشــريــك في الــمــربــوبــيَّــة؛ والارعــــواء عــنِ الــصِّــفــة الــخــســيــســة الدَّنيَّة

عطف (رَبِّكُمْ) على (رَبِّي)، لإفادة التَّشريك في المربوبيَّة، ففي قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ "مع أنَّهم لا يعترفون بربِّ موسى عليه السلام ربًّا لهم؛ إلزامٌ لهم بالاعتراف بربِّ موسى عليه السلام، وإن لم يَقبلوهُ ربًّا لهم، فذلك هو الحقُّ الذي يقال، سواء قَبِلَهُ القومُ أم رفضوه"[1].

وفيه أيضًا ردٌّ على ادِّعاء فرعونَ الرُّبوبيَّةَ، وإبطالٌ لتلك الدَّعوى الآثمةِ المجرمةِ، وتذكيرٌ للقوم بأنَّ هذا الذي تخافون منه لا يملك لكم ضرًّا ولا نفعًا؛ وإن اعتصمتُم بربِّكم الحقِّ كما اعتصمتُ به أنا فإنَّه كافيكم.

كما أنَّ هذا التَّعبير "أدخلُ في ارعوائِهم مِن رجْمِه حين يتذكَّرون أنَّه استعصمَ بالله الذي يشتركونَ في مربوبيَّته، وأنَّهم لا يخرجونَ عن قدرته"[2].

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة بعد التَّعبير بالألوهيَّة:

أوثِــرَ الــتَّــعــبــيرُ بــالــرُّبــوبــيَّــة لإظهار الافتقار، والاعــــتــراف بالنِّعمة بالإقرار

من لوازم الرُّبوبيَّة: الخلْقُ والرِّزق والتَّدبير، والعنايةُ والرِّعاية، والتَّربيةُ، والإحسانُ[3]، ومن لوازم الألوهيَّة: العلوُّ والتَّفرُّدُ والسَّمعُ والبصرُ والعِلمُ المطلقُ، والقُدرةُ المطلقةُ والإرسالُ والحسابُ والجزاء ... إلخ.

وقد أوثِر التَّعبيرُ بعنوان الألوهيَّة في قوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لأنَّ المقام مقامُ تذكيرٍ بالتَّوحيد وعدم الاستعلاء على مَن أرسل رسولَه بالسُّلطان المبين.

(1) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن: 13/ 196.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 297.
(3) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.

وأوثِرَ التَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّ المقام مقامُ إقرارٍ بالنِّعمة، وافتقارٍ إلى اللّه لدفع النِّقمة، وتذكيرِ المخاطَبين بعظيم نعمةِ اللّه تعالى عليهم؛ فالمعنى: اعتصمتُ وامتنعتُ ﴿بِرَبِّي﴾ الذي ربّاني على ما اقتضاهُ لطفُهُ وإحسانُهُ إليَّ ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ الذي أعاذني مِن تكبُّركم وقوَّةِ مُكنتِكُم[1]؛ فإنَّه "اللّه سبحانه هو الذي ربّاني، وإلى درجات الخير رقّاني، ومِن الآفات وقاني، وأعطاني نِعَمًا لا حَدَّ لها ولا حَصر، فلمّا كان المولى ليس إلّا اللّهُ وجَبَ أن لا يَرجع العاقلُ في دفعِ كلِّ الآفات إلّا إلى حفظِ اللّه تعالى"[2]، فجاء في كلِّ مقامٍ بما يُناسبُه؛ في بلاغةٍ وبراعةٍ وجمال.

نكتةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن تَرۡجُمُونِ﴾:

رعايةُ اللّه لا تنقطعُ عن عباده، وحفظُه محيطٌ بأوليائه

عُبِّر بالمصدر المؤوَّل دون الصَّريح في قوله: ﴿أَن تَرۡجُمُونِ﴾ للإيماء إلى ما يقتضيهِ ذِكرُ الفعل المضارع مِنَ الدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، والإشارةِ إلى الحال والاستقبال، فكأنَّه ﷺ لمّا توقَّع أن يُقابلَ القومُ دعوتَهُ المبارَكَةَ بالرَّجم؛ أعلنَ أنَّه قد تعوَّذ باللّه تعالى، فجاء التَّعبيرُ بالمضارع مناسبًا لِما توقَّعهُ موسى عليه السلام مِن بطشِهم به في الحال أوِ الاستقبال، وكأنَّه قال: إنَّ حِفْظَ ربِّي تعالى لي يتجدَّدُ كلَّما حاولتُم في أيِّ وقت مِنَ الأوقات إلحاقَ أيِّ أذًى بي باليد أو باللِّسان أو بأيِّ شيءٍ آخرَ ممّا تؤذونَ به عِبادَ اللّه، وهذا ما لا يُؤدِّيه التَّعبيرُ بالمصدر الصَّريح.

سرُّ ذكرِ الرَّجم في قوله: ﴿تَرۡجُمُونِ﴾:

ذُكرَ الرَّجمُ؛ لأنَّه كان عادتَهُم، ونوعَ عقوبتِهِم

أصلُ الرَّجم: الرَّميُ بالحجارة، يُقال رُجِمَ فلانٌ، إذا ضُرِبَ بالحجارة، ثمَّ يُستعار ذلك لمعانٍ كالرَّمي بالظَّنِّ، والتَّوهُّم، وللشَّتم والطَّرد.

---

(1) الخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 3/ 584.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 508.

وقيل للقتل: رَجْمٌ؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا رَمَوْه بالحجارة حتَّى يقتلوه[1].

والمقصود بالرَّجم هنا: الرَّميُ بالحجارة تِباعًا حتى يموتَ المرميُّ أو تُثخنَهُ الجراح، والقصد منه تحقيرُ المقتول؛ لأنَّهم كانوا يرمون بالحجارةِ مَن يطردونه، وإنَّما استعاذ موسى منه؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ عادتَهُم عقابُ مَن يخالفُ دينَهم بالقتل رميًا بالحجارة[2].

علَّةُ وصلِ قوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ بسابقه:

أوثِرَ الوصلُ لاتِّصال الكلام، واستدعاءِ ما يتطلَّبه المقام

وُصِل قولُه: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ بسابقه لاتِّصالِه به، وترتُّبِه عليه؛ فكأنَّه عليه السلام لمّا دعاهم إلى التَّسليم للّه تعالى، وتركِ الاستعلاء عليه سبحانه؛ ذكرَ الحالَين اللَّذين يمكن أن يقعا بعد هذه الدَّعوة.

"أي: لكم ثلاثُ مراتبَ: الإيمانُ بي وهو مقصودي منكم؛ فإنْ لم تحصل منكم هذه المرتبةُ فاعتزلوني؛ لا عليَّ ولا لي، فاكفوني شرَّكم، فلم تحصلْ منهم المرتبةُ الأولى ولا الثّانيةُ، بل لم يزالوا متمرِّدين عاتينَ على اللّه، محاربينَ لنبيِّه موسى عليه السلام، غيرَ ممكِّنين له مِن قومه بني إسرائيل؛ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾؛ أي: قد أجرموا جُرمًا يوجبُ تعجيلَ العقوبة"[3].

فالحاصلُ أنَّ قوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ "هو أيضًا مِن مَقول القول مِن موسى عليه السلام إلى فرعونَ وملئِه"[4]، وليس ثَمَّ ما يدعو إلى الفصل؛ فلذا أوثِرَ الوصلُ.

نكتةُ بناءِ الآية على أسلوب الشَّرط:

الاعتزالُ نتيجةُ الإصرار على الكفر والانحلال

التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّة يفيد بناءَ الجواب على الشَّرط بناءَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 297.
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 773.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 196.

المسبَّب على السَّبب والنَّتيجةِ على المقدِّمة، فقال: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾، فكأنَّه ألزمَهُم باعتزاله وعدمِ التَّعرُّض له بالإيذاء إن هم أصرّوا على الكفر وعدمِ الإيمان، فجعل الاعتزالَ مشروطًا بعدم الإيمان به؛ أي أنَّه ﷺ أعلمَهُم أنَّ إيمانهُم هو مقصودُه الأوَّل، أمّا الاعتزالُ فهو أمرٌ يُلجأ إليه عند الاضطرار.

دلالةُ التَّعبير بحرف الشَّكِّ في ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾:

حرفُ الشَّكِّ؛ للتَّعبيرِ عن المحال؛ وتماديهِم في الضَّلال

عُبِّر بأداة الشَّكِّ في ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ التي شأنُها أن تُستعمَل في الشَّرط غيرِ المتيقَّن، وهو المناسبُ هنا؛ "لأنَّ عدم الإيمان به بعد دلالة المعجزةِ على صدقهِ مِن شأنهِ أن يكون أمرًا مستبعَدًا، فيُفرَض عدمُه كما يُفرَض المحالُ"[1].

معنى اللّام ونكتةُ تعديةِ فعل الإيمان بها في ﴿تُؤۡمِنُواْ لِي﴾:

عُدِّي فعلُ الإيمانِ باللّام على تضمينهِ معنى الانقيادِ والاستسلام

الأصلُ في معنى (اللّام) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاختصاص، إمّا بالملكيَّة وإمّا بغيرها[2]، وقد عُدِّي الفعلُ ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ باللّام في قوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُواْ لِي﴾ - وحقُّه أن يتعدَّى بالباء - للإشارة إلى تضمين فعلِ الإيمان معنى الرُّكون والتَّسليم والانقياد[3]؛ أي: انقادوا لي واستسلموا لِما آمركم به مِنَ الإيمان باللّه تعالى.

ومع ما تقدَّم مِن إفادة اللّام معنى الاختصاص يكون المرادُ: أنَّ موسى ﷺ أراد أن يكون استسلامُهم وانقيادُهم له على نحوٍ خاصٍّ، وهو اتِّباعُ النُّبوَّة، والانقيادُ لأحكام الشَّريعة التي أمر بها اللّه ربُّ العالمين، فأراد نبيُّ اللّه موسى ﷺ أن يختصَّه قومُه بهذا اللَّون مِنَ الانقياد، فلا ينقادوا لغيره ولو كان طاغيةً كفرعون!

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 298.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 298.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾:

الفاءُ للرَّبط بين جملتَي الشَّرط، ودلَّت على إرادة السُّرعة وانعدامِ المهلة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ رابطةٌ؛ حيث إنَّ جملة (اعتزلون) في محلِّ جزم جوابُ الشَّرط، واقترنت الجملةُ بالفاء وجوبًا لأنَّها طلبيَّةٌ[1]، وفي التَّعبير بالفاء معنى السُّرعة، وانعدامِ المهلة.

الغرضُ منَ الأمر ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾:

الأمـرُ للحثِّ والتَّنبيه

الغرضُ منَ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾ الحثُّ والتَّنبيهُ لهم على فعلِ ذلك؛ فإنَّه لم يأمرهُم بالاعتزال ابتداءً بل خيَّرهم، وجعلَ الاعتزالَ نتيجةَ الإصرارِ على الكفر، وعدمِ التَّسليم بما جاءهم به، والمعنى: إن لم تؤمنوا بالمعجزة التي آتيكُم بها فلا ترجموني فإنِّي أعوذ باللّه مِن أن ترجموني، ولكن اعتزلوني فكونوا غيرَ موالين لي، وأكونُ مع قومي بني إسرائيل، فالتَّقدير: فاعتزلوني وأعتزلُكم؛ لأنَّ الاعتزال لا يتحقَّق إلّا مِن جانبَين[2].

نكتةُ حذفِ ياء المتكلِّم من ﴿تَرۡجُمُونِ﴾، و﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾:

حُذفتِ الياء مِن لفظتَيْ: ﴿تَرۡجُمُونِ﴾، و﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾؛ لأنَّها مِن ياءات الزَّوائد التي يجوز إثباتُها وحذفُها، ويتعيَّن حذفُها في الوقف عند جمهور القُرّاء، وحُذفت هنا مراعاةً لفاصلة الآيات.

بلاغةُ ترتيبِ الفواصل على ما جاءت عليه في الآيات:

قصُّ القرآن مِن بديع الإيجاز، ونهايةِ الإعجاز

جاء ترتيبُ فواصل هذا الخطابِ على مراعاةِ ما يبدو مِن فرعونَ وقومه عند إلقاء موسى ﷺ دعوتَه عليهم، فابتدأ بإبلاغ ما أُرسِل به إليهم، فآنسَ منهم التَّعجُّبَ والتَّردُّد فقال: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨﴾ [الدخان: 18]، فرأى منهم الصَّلَفَ والأنفة، فقال: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ فلم يرعَووا، فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، فلاحَت عليهم علاماتُ إضمار السّوء له، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 298.

﴿أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾، فكان هذا التَّرتيبُ بين الجمل مُغنيًا عن ذِكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز[1].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

العُلوُّ والاستكبار:

جذرُ الاستكبار أصلٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغر، وجذرُ العُلوِّ أصلٌ يدلُّ على الارتفاع

جذرُ الاستكبار أصلٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَر[2]، والكِبْرُ والتَّكبُّرُ والاستكبارُ كلماتٌ تتقاربُ، فالكِبْر الحالةُ التي يتخصَّصُ بها الإنسانُ من إعجابِهِ بنفسِه، وذلك أن يرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيره، وأعظَمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على اللّهِ بالامتناعِ من قَبول الحقِّ والإذعانِ له بالعبادة، والاستكبارُ المذمومُ هو أن يتشبَّع الإنسانُ فيُظهِرَ من نفسه ما ليس له[3].

أمّا جذرُ العُلوِّ فأصلٌ يدلُّ على الارتفاع[4]، وهذا ما يدور حولَهُ معناه المحوريُّ[5]؛ فلمّا ارتفعوا عن طاعة اللّه ﷻ، وأرادوا بذلك ترفيعًا لأنفسهم، أوثِر في هذه الآية لفظُ العُلوِّ دون التَّكبُّر[6].

ولمّا كان استعبادُ عبادِ اللّه في صورة العلوِّ على مالك العباد، قال: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ﴾ أي: لا تفعلوا باستعبادكم لبَني إسرائيل نبيِّ اللّه، ابنِ خليلِ اللّه فِعْلَ مَن يُريد العُلوَّ ﴿عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ الذي لهُ مَجامعُ العظمةِ ومَعاقدُ العِزَّة بنفوذِ الكلمةِ وجميعِ أوصافِ الكمال، فإنَّكم إنْ فعلتُم ذلك أخذَكُم بعزَّتهِ ودمَّركم بعظمَتِه[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 298.
(2) ابن فارس، المقاييس: (كبر).
(3) الراغب، المفردات: (كبر).
(4) ابن فارس، المقاييس: (علو).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علو).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 296.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 21، و22.

التَّعوُّذُ والالتجاء والاستجارة:

التّعوُّذ جامعٌ لمعاني الاستجارة والالتجاء، ويزيدُ عليهما بمعنى التَّعلُّق

الاستجارة: هي طلبُ الحماية، واستُعمِلتِ الإجارة في معنى الحماية؛ للتَّلازم والتَّداخل بين الجارَين، ولِما كان عند العرب من حقوق الجيرَة؛ فكأنَّ "أجارَه" أصلُها قبِلَ جوارَه أو عدَّه جارًا له[1].

ويدور معنى الالتجاء في اللُّغة حول التّحصُّن بحِصنٍ قويٍّ شديد؛ ويقال: لجأتُ إلى فلانٍ والتجأتُ إليه، إذا استندتُ إليه واعتضدتُ به[2].

والتَّعوُّذ: هو الالتجاءُ إلى الغير والتَّعلُّقُ به[3]؛ فيفترق التَّعوُّذُ عنِ الالتجاء والاستجارة بما فيه من معنى التّعلُّق.

والمعنى المحوريُّ لجذر التَّعوُّذ: هو التصاقُ الشَّيءِ الغَضِّ بصُلبٍ يمنعُ أو يعوقُ تناولَه[4]؛ كالعوَّذ من اللَّحم: ما عاذ منَ اللَّحم بالعَظم ولزِمه[5]؛ فأُخِذ من هذا معنى احتماءِ الضَّعيف بالقويِّ والتَّعلُّق به[6].

ولّما كان قلبُ موسى عليه السلام متعلِّقًا باللّه وحدَه، كان احتماؤه واعتصامُه به وحدَه، وكان التجاؤه إليه وحدَه، ولّما كان العِياذُ باللّه جامعًا لذلك كلِّه، أوثِر في هذه الآية لفظُ العِياذ دون غيره.

الرَّجمُ والرَّمي:

الرَّجمُ أخصُّ منَ الرَّمي

الفرق بينهما أنَّ أصلَ الرَّجم هو الرَّميُ بالحِجارة، وهي الرِّجام[7]، ثُمَّ يُستعار للرَّمي بالظَّنِّ والتَّوهُّمِ وللشَّتم والطَّردِ والقتلِ أقبحَ قِتلة[8].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جور).
(2) ابن منظور، اللسان، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لجأ).
(3) الراغب، المفردات: (عوذ).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عوذ).
(5) الجوهري، الصحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عوذ).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عوذ).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجم).
(8) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رجم).

وإنَّما قيل للقتلِ: رَجمٌ؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا رَمَوه بالحِجارة حتى يقتلوه[1].

أمّا الرَّمي فجذرهُ أصلٌ واحدٌ وهو نَبذُ الشَّيء[2]، والرَّميُ يقال في الأعيان كالسَّهم والحجر، ويُقال في المقال كنايةً عنِ الشَّتمِ كالقذف[3].

وقد أوثِر في هذه الآية لفظُ الرَّجم دون الرَّمي؛ لأنَّ الرَّجمَ هو الرَّميُ بالحجارة تباعًا حتى يموت المرميُّ أو يُثخِنه الجراح، والقصدُ منه تحقيرُ المقتول لأنَّهم كانوا يَرمون بالحجارة مَن يطردونه[4]؛ فكان الرَّجمُ أخَصَّ منَ الرَّمي من هذا الوجه.

الاعتزالُ والتَّرك:

يدور معنى الاعتزال في اللُّغة حول تنحِّي الشَّيء عن موضعه إلى موضعٍ آخر[5].

أمّا التَّركُ فيدور معناهُ حول مفارقةِ الشَّيء ما كان يعلقُ به[6]؛ ولذلك يقال: للبيضة بعدَما يخرج منها الفَرْخ: التَّريكة[7].

ومِمّا سبق يتبيَّن فرقٌ دقيقٌ بين الاعتزال والتَّرك؛ وهو أنَّ التَّركَ يدلُّ على المفارقة بعد دخولٍ في الشَّيء، أمّا الاعتزال فقد يحدثُ من دون دخولٍ في الشَّيء؛ فإذا قيل: "تركَ المكان"، دلَّ ذلك على أنَّه دخلَ هذا المكانَ ثمَّ خرج منه، وإذا قيل: "اعتزلَ المكان"، احتُمِل أن يكون المعنى أنَّه تنحَّى عنِ المكان قبلَ أن يدخُله، ولا يُحتَمَل ذلك إذا

مَن تركَ مكانًا فقد دخلَه قَبْل تَركِه، ومَن اعتزلَه فرُبَّما دخلَه ورُبَّما لم يَدْخُلْه قبل اعتزالِه

(1) ابن منظور، اللسان: (رجم).
(2) ابن فارس، المقاييس: (رمي).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رمي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 297.
(5) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عزل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).
(7) ابن فارس، المقاييس، وابن منظور، اللسان: (ترك).

قيل: "ترك المكان"؛ ولذلك أوثِر في هذه الآية لفظُ التَّرك دون الاعتزال؛ لأنَّ موسى عليه السلام دخلَ جوفَ البحر بأمرِ الله جل جلاله، ثُمَّ أمرَه اللهُ عز وجل أن يُفارقَ البحرَ وهو على حالهِ التي صار عليها بعد ضربهِ بالعصا[1].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾

[الدُّخان: 22 - 24]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

هلاكُ الظّالمين عبرةٌ وآيةٌ، وتسليةٌ لكلِّ مَن رفع إلى الله الشِّكاية

لمّا أصرّوا على كُفرهم، وزادوا في استعلائِهم، ولم يعتزلوه، بل ناصَبوه العِداءَ، وأبدَوا له البغضاءَ، وزادَ البغيُ منهم والاجتراءُ، وآذَوا قومَه وطالَ البلاءُ؛ رفعَ الكليمُ ﷺ أكُفَّ الضَّراعةِ إلى مَن أحسَنَ إليه وضمِنَ له سياستَه وسياسةَ قومه، يشكو قومًا غريقينَ في الضَّلال، عريقينَ في هدم طُرقِ الاتِّصال؛ ولمّا كان الشّاكي ممَّن يستجيبُ اللّهُ دعاءَه، ويُكرِمُ نداءَهُ؛ دلَّه سبحانه إلى طريق النَّجاة والخلاص، ولمّا كان دَحرُ الظّالم ممّا يشفي صدرَ المظلوم؛ كتبَ اللّه غرَقَ وهلاكَ المجرم الذي ظنَّ أنْ لن يقدرَ عليه أحدٌ أمامَ أعيُنِ مَن ذاقوا الوَيلاتِ على يدَيه؛ ليكون عبرةً لمن خلْفَهُ وآيةً، وتسليةً لكلِّ من رفع إلى اللّه الشِّكايةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾: أصلُ (جرم) يدلُّ على معنى القطع[2]، الجَرْم: القَطْع، وجَرَم النَّخلَ يجرِمهُ جَرْمًا، واجترَمَهُ يَجترِمُهُ اجترامًا: قطعَهُ، والجريمة والجُرم: الذَّنب، يقال: جرَمَ وأجرمَ جُرمًا وإجرامًا: إذا أذنبَ، وصار ذا جُرم، والجارم: الجاني، والمُجْتَرِم: المُذنبُ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 22/ 18، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 121، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 298.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ [المائدة: 2] أي: لا يحملِنَّكم بُغضُ قوم[1]، ومعنى: ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾؛ أي: مشركون[2].

2) ﴿فَأَسۡرِ﴾: أصلُ (سري) يدلُّ على نفاذ الشَّيء الدَّقيق الممتدِّ في أثناء محوطةٍ بقوَّة، ومن ذلك السُّرى[3]، السُّرَى: سيرُ اللَّيل عامَّتَه، ومنه قولُ اللّٰه تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، وقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: 1]، يقال: سَرَيْتُ سُرًى ومَسْرًى وأسريت، بمعنًى واحد إذا سِرْت ليلًا[4]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

3) ﴿رَهۡوًاۖ﴾: أصلُ (رهو) يدلُّ على دَعَةٍ وخفضٍ وسكونٍ، والرَّهو: مشيٌ في سكون، وهو السَّيرُ السَّهل[5]، يقال: جاءتِ الخيلُ رَهوًا، ورَها يَرهو في السَّير رَهْوًا؛ أي: رَفَق، ورها بَيْنَ رِجلَيه يَرْهو رَهْوًا: فَتَح[6]، ورَها البحرُ والشَّيء يَرْهو رَهْوًا: سكن، يقال افعل كذا رَهْوًا؛ أي: ساكنًا على هينَتِك، وعيشٌ راهٍ: خصيبٌ ساكنٌ رافِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾؛ أي: ساكنًا[7].

4) ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾: أصلُ (غرق) يدلُّ على انتهاءٍ في شيءٍ يبلغُ أقصاه[8]، والغرقُ: الرُّسوب في الماء وفي البلاء، وغرِقَ فلانٌ يغرَق غرَقًا، فهو غَرِقٌ وغارِقٌ، وأغرَقهُ غيرُه وغرَّقهُ أيضًا، فهو مغرَّقٌ وغريق، قال اللّٰه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: 90]، وفلانٌ غرِق في نعمة فلان تشبيهًا بذلك[9].

والتَّغريقُ: القتل؛ لأنَّ القابلةَ كانت تغرِّق المولودَ في الماء عامَ القحط، ذكَرًا كان أو أنثى حتى يموت، ثم جُعِل كلُّ قتلٍ تغريقًا[10].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جرم).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 136، والخازن، لباب التأويل: 4/ 118.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سري).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (رهو).
(6) الجوهري، الصحاح: (رهو).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رهو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(9) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (غرق).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غرق).

المَعنى الإجْماليُّ:

الإجرامُ هو سببُ الهلاكِ والدَّمارِ والبطشِ بالفُجّارِ مِنَ المنتقمِ الجبّارِ

لمّا أصرَّ فرعونُ وقومُه على تكذيب نبيِّ اللّه موسى عليه السلام، والإعراضِ عن دعوته، وإيذائِه بشتَّى أنواع وألوانِ الإيذاء بعد أن دعاهُم إلى عبادة اللّه سبحانه وتركِ عبادة ما سواه؛ دعا ربَّه قائلًا: يا ربِّ إنَّ هؤلاء قومٌ راسخون في الكفر والإجرام، فأنزِلْ بهم عقابَك الذي يستحقّونه، فاستجابَ اللّه دعاءَ نبيِّه موسى عليه السلام فأمرَهُ أن يخرج بعباده المؤمنين من بين أظهُرهم في خفيةٍ ليلًا؛ لأنَّ فرعون وجنودَه سيتَّبعونهم فوْرَ عِلمِهم بخروجهم للإيقاع بهم، كما أمرَهُ سبحانه أن يترك البحرَ على حاله ساكنًا، وبشَّره بأنَّ هؤلاء اللّاحقين به من فرعونَ وجندِه مُغرَقون في البحر لا محالةَ؛ جزاءً لهم على كفرهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾:

الفاءُ للتَّعقيب؛ لبيان سبب التَّوجُّه إلى الرَّبِّ العليِّ المجيب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ للتَّعقيب، وهذا التَّعقيبُ المُفادُ بالفاء هو تعقيبٌ على محذوفٍ يقتضي هذا الدُّعاء؛ إذ ليس في المذكور قبل الفاء ما يناسبُه التَّعقيبُ بهذا الدُّعاء؛ فالمذكورُ قبله كلامٌ مِن نبيِّ اللّه موسى عليه السلام إليهم، فالتَّقدير: فلم يستجيبوا له فيما أمَرَهم، أو: فأصرّوا على أذاهُ وعدمِ متاركته، فدعا ربَّه، وهذا التَّقريرُ الثّاني أليَقُ بقوله: ﴿أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾، وهذا كالتَّعقيب الذي في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشُّعراء: 63][2].

فالحاصلُ أنَّ "الآية الكريمة معطوفةٌ على كلامٍ محذوفٍ يُفهَم مِنَ السِّياق، والتَّقدير: وبعد أن أمرَ موسى فرعونَ وقومَه بإخلاص العبادة للّه تعالى، ونهاهُم عنِ الإشراك به، بعد كلِّ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 231 - 232، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 125 - 126.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 299.

ذلك أصرّوا على تكذيبه، وأعرَضوا عن دعوته، وآذَوْهُ بشتَّى ألوانِ الأذى، فدعا ربَّه دعاءً حارًّا قال فيه: يا ربِّ إنَّ هؤلاء القوم – وهم فرعونُ وشيعتُه – قومٌ راسخون في الكفر والإجرام، فأنزِلْ بهم عقابَك الذي يستحقّونه"[1].

دلالةُ التَّعبير بالماضي ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾:

عُبِّر بالماضي لإفادة التَّحقيق، فهو بتأكيد المعنى حقيق

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ ماضيًا؛ لإفادة التَّحقُّق، وأنَّه شيءٌ قد وقعَ وانقضى، وجريًا على الظّاهر في حكاية خبرٍ مَضَى، مع عدمِ وجودِ داعٍ للعُدول عن هذا الظّاهر.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿رَبَّهُۥٓ﴾:

كيف بمَن التجأ إلى مولاهُ وكافيهِ ألّا يُجابَ إلى ما فزِعَ إليه فيه؟

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ محضةٌ معنويَّةٌ، أفادت تعرُّفَ المضافِ والمضافِ إليه، والغرضُ منها التَّعظيمُ، تعظيمُ المضافِ والمضافِ إليه كلَيهما، فاللّٰه سبحانه هو الكافي والحافظُ مِن كلِّ سوءٍ وشرٍّ، ولإحضار معنى الرُّبوبيَّة الشَّريف وما يحملُه مِن دلالاتٍ ولوازمَ في ذهنِ السّامع، فكيف بمَن التجأ إلى مولاهُ في الشَّدائد ألّا يُجاب؟!

نكتةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة في ﴿رَبَّهُۥٓ﴾:

عُبِّر بالرُّبوبيَّة لبيان المنن الجليلة الخفيَّة؛ وإظهار الافتقار إلى ربِّ البريَّة

أوثِرَ التَّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيَّة في ﴿رَبَّهُۥٓ﴾ لِما تقتضيه الرُّبوبيَّةُ مِن معاني الخَلْقِ، والملك، والتَّدبير، والعناية، والرِّعاية، والتَّربية، والإحسان[2]، وهذا ما يناسبُ المقامَ؛ فقد توجَّه موسى عليه السلام للَّذي أحسن إليه وربّاه، وهداهُ إلى عبادتهِ وكفاهُ، وضَمِنَ له سياستَهُ وسياسةَ قومه[3].

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

جاء اسمُ الإشارة للقريب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 125.

(2) أحمد الزاملي، الآيات القرآنية الواردة في الرد على البدع المتقابلة - دراسة عقدية: 1/ 194.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 24/ 18.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾؛ تحقيرًا لهم، وتقليلًا مِن شأنهم[1]؛ أي: هؤلاء "الحقيرون الأراذلُ الذَّليلون"[2].

الإشارةُ إلى التَّحقير مِن شأن المُشار إليهم، مع بيانِ قُربِ الدّاعية منهم

كما أنَّ فيه إشارةً إلى قُرب نبيِّ اللّه موسى ﵇ منهم ساعةَ دعائِه عليهم، وأنَّه لم يقصِّر في دعوته إيّاهم إلى الحقِّ، بل كان قريبًا منهم بحيث يرونَه ويسمعون كلامه، ولمّا دعا عليهم كان كذلك قريبًا منهم بحيث قد يصلُ إليه بطشُهم، وهذا ممّا يزيدُ مِن هول المشهد، غيرَ أنَّ موسى ﵇ ما شكَّ قطُّ في قدرةِ اللّه تعالى على أن يُنجيَه مِن بين أظهُرهِم دون أن يمَسَّه أيُّ أذًى، فاللّه سبحانه يُنجي المؤمنين، لا سيَّما المرسَلين.

سرُّ التَّعبير بقوله ﴿قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ دون (هؤلاء مجرمون):

عُبِّر بالقوم إشارةً إلى دور العُصبةِ في التَّمادي والعناد، وما وقعَ مِن ظلمٍ وفساد

أوثِر التَّعبيرُ بقوله: ﴿قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ دون (هؤلاء مجرمون)؛ للإشارة إلى أنَّهم عُصبةٌ، وجماعة؛ "أي لهم قوَّةٌ على القيام بما يُحاولونه"[3]، وأنَّ فرعون لم يكن وحدَه المفسدَ؛ بل كان حوله جماعةٌ مِنَ المفسدين يعتضدُ بهم، ويَصدرون عن رأيه، ويقومون بما يُمليه عليهم، حتَّى سمّاهم اللّه تعالى ركنًا في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ [الذّاريات: 39]، وهذا ما جرَّأه، ودفعَهُ إلى التَّمادي والعناد، والبغي والفساد، والاستعلاء على الخلق بالاستعباد!

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عُبِّر بالإجرام مبالغةً في وصفِ ما كانوا عليه مِنَ التَّصدية والإحجام

أصل الجَرْم: قطعُ الثَّمر عنِ الشجر، واستُعير لكلِّ اكتسابٍ، ومنه: جَرَمَ؛ أي: كسب؛ لأنَّ الذي يَحوزه فكأنَّه اقتطعه، وغلبَ ذلك في المكروه، فالجُرم والجريمة: الذَّنب؛ لأنَّه كَسْبٌ، والكسبُ اقتطاعٌ، وأجرمَ: جنَى جنايةً[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 401.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 24/ 18.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 24/ 18.
(4) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، اللِّسان: (جرم).

ونبيُّ اللّه موسى عليه السلام قد "حكمَ عليهم بالإجرام المضمَّن للكفر حين يئس منهم"[1]، ولأنَّ الكافر قد يكون عدلًا في دينه، وقد يكون مجرمًا في دينه، وقد يكون فاسقًا في دينه فيكون أخسَّ النّاس[2].

والتَّعبير باسم الفاعل ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾ للإشارة إلى الحال والاستقبال؛ فهُم في الحال ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾، وقد أصرّوا على الكُفر والعِناد، وهم في الاستقبال كذلك ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾، ثابتون على هذا، "راسخون في الكُفر والإجرام"[3]، "مصِرّون على كُفرِهم ومتابعةِ هَواهُم"[4]، "عريقون في قَطۡعِ ما أمرتَ به أن يوصَل، وذلك متضمِّنٌ وصۡلَ ما أمرتَ به أن يُقطَع"[5]، والجمعُ فيه دليلٌ على الكثرة والاتِّفاق.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المدعوِّ به:

عَـرّض بالدُّعاء لـيَـصـحـب أسبابَه، ويُدعَمَ بـمـا يـعـجِّـل الإجابة

ظاهرُ قولِ اللّه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ أنَّ دعاء موسى عليه السلام كان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾. "وهو - بحسب الظّاهر - لا يصلحُ لأنۡ يكون مدعوًّا به"[6]، ولكنَّه تعريضٌ بالدُّعاء عليهم بذِكر ما استوجبوه به؛ ولذلك سمّاه دعاءً مع أنَّه لم يَذكر إلّا مجرَّدَ كونهم مجرمين؛ لأنَّهم قدِ استحقّوا بذلك الدُّعاءَ عليهم[7]، و"أجرموا جُرمًا يوجِب تعجيلَ العقوبة، فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاءٌ بالحال التي هي أبلغُ منَ المقال"[8].

فالحاصل أنَّ قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ هو تعريضٌ عنِ المدعوِّ به دون التَّصريح به؛ لأنَّه لمّا ذكر موجبَه، ورفعَهُ إلى اللّه

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 72.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 125.
(4) البروسوي، روح البيان: 8/ 411.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 24.
(6) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 7.
(7) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 101، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 62، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 657.
(8) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 773.

العالِم بأحوالهم؛ دلَّ ذلك على أنَّ المراد: أن يُنزِل اللّه تعالى بهم ما يستحقّونه مِنَ العقاب بسبب إجرامهم(1).

الفاءُ للتَّفريع؛ لبيان عنايةِ القريب السَّميع

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ "تفريعٌ على جملة: ﴿أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ والمفرَّع قولٌ محذوفٌ دلَّت عليه صيغةُ الكلام"(2)، "والتَّقدير: فأجاب اللّه دعاءَه، فقال له: أسرِ وامْشِ يا موسى ببني إسرائيل ومَن آمن معك مِنَ القِبط، مِن مصر ليلًا، على غفلة مِنَ العدوِّ"(3).

الأمـرُ للتَّوجيه والإرشاد؛ وبيانِ رعـايـة المـولى بصالحي العباد

الغرضُ مِنَ الأمر ﴿فَأَسۡرِ﴾:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ أمرٌ وجوبيٌّ لصدوره مِنَ الأعلى سبحانه، والغرضُ منه النُّصحُ والإرشاد، لحثِّ نبيِّ اللّه موسى عليه السلام على الإسراع بقومه.

مَـن أحسَـن العبوديَّةَ لله؛ قرَّبه سبحانه منه وأدناه

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِعِبَادِي﴾:

الأصلُ في (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على معنى الإلصاق؛ حقيقيًّا كان أم مجازيًّا(4)، وهي في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِي﴾ تفيدُ الإلصاقَ المجازيَّ الذي يُفيد معنى المصاحبة؛ أي: اجعل إسراءَكَ ملاصقًا لهم فتكونَ مصاحبًا لهم ولا تتركْهم؛ حتى تنجوَ بهم مِن عدوِّهم.

فهذا "يُفيد سيرَه عليه السلام وسيرَ قومِه معه؛ إذِ الامتثال مقطوعٌ به"(5).

الإضـافـةُ للـتَّـشـريـف؛ إظـهـارًا لمـدى تعلُّقهم بالمولى اللَّطيف

نوعُ الإضافة ودلالتُها في (عِبادِي):

الإضافةُ في قوله تعالى: (عِبادِي) "إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ، وتبجيلٍ وتعظيم، وذِكرُ

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 299، ومحمد ثناء الله المظهري، التَّفسير المظهري: 8/ 372.
(3) الهرري، الحدائق: 26/ 358.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 386.

العبوديَّة مقامٌ عظيمٌ، وكثيرًا ما ذكَر اللّٰه سبحانه حبيبَه محمَّدًا ﷺ بلفظ (عَبۡدِهِۦ)"[1].

فالمعنى: اخرُجْ يا موسى مع قومكَ المؤمنين الذين هم أهلٌ لإضافتهِم إلى جَنابي، وأرسلناك لإسعادِهم باستنقاذِهم ممَّن يظلمُهم، ولتفريغِهم لعبادتي[2].

ذكر اللَّيلُ تأكيدًا لمعنى الإسراء، واستعجالًا بالرَّحيل مِن أرض الأعداء

دلالةُ التَّقييد بـ﴿لَيۡلًا﴾ والإسراءُ لا يكون إلّا فيه:

المقصودُ مِنَ التَّقييد بزمان اللَّيل في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ هو "تأكيدُ معنى الإسراء بأنَّه حقيقة، وليس مستعمَلًا مجازًا في التَّبكير بناءً على أنَّ المتعارَف في الرَّحيل أن يكون فجرًا، وفائدةُ التَّأكيد أن يكون له مِن سَعة الوقت ما يَبلغون به إلى شاطئ البحر الأحمر قبل أن يدركَهم فرعونُ بجنوده"[3].

وعليه فذِكرُ اللَّيل في قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا﴾ مع كون الإسراءِ لا يكون إلّا فيه هو مِن باب التَّأكيد بغير اللَّفظ[4].

كما أنَّ "فيه ما يشيرُ إلى ما ينبغي أن يكون عليه موسى وقومُه مِنَ الحَذَر، وهُم يأخذون طريقهم ليلًا، فارِّين هربًا مِن وجهِ فرعونَ"[5].

التَّنكيرُ لإفادة أنَّ الإسراء في بعض اللَّيل لا جميعِه

نكتةُ تنكير ﴿لَيۡلًا﴾:

أوثِرَ تنكيرُ ﴿لَيۡلًا﴾ لإفادةِ البَعضيَّةِ؛ "فإنَّه كما يجيء لبعض الأفرادِ يجيءُ لبعض الأجزاء أيضًا"[6]، ولو عُبِّر بالتَّعريف (اللَّيلَ) لربَّما تُوُهِّمَ أنَّ المرادَ أن يكون السَّيرُ في كلِّ اللَّيل[7]، فيشملَ الزَّمنَ مِن غروب الشَّمس إلى طلوع الفجر، وهذا يُعرِّضهم لأنْ يدركَهم فرعونُ

(1) الدرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 671.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 24/ 18.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 299.
(4) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 63.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 197.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 386.
(7) الهلال، الثريّ الجامع: 10/ 429.

وجنودُه فيَفتكوا بهم، فأراد اللّه تعالى أن يكون السَّيرُ في جزءٍ مِنَ اللَّيل يحصُلُ في غفلةٍ مِن فرعونَ وجندِه حتى ينجوَ المؤمنون مِن بطشتِهم، وهذا مِن باب الأخذ بالأسباب التي هي سنَّةُ اللّه تعالى في عباده، ولو شاء اللّه تعالى أن يحملَهم، أو يُعمِّيَ عنهم أبصارَ الأعداء، أو يُهلكَ الأعداءَ في مضاجعهم لفعلَ، ولكن ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۚ﴾ [الأنفال: 44]، وهو سبحانه على كلِّ شيء قدير.

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾:

الفصل للتَّعليل؛ تبيينًا للغرض مِنَ الأمر بالرَّحيل

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ بينهما شبْهَ كمالِ اتِّصالٍ، فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّر، وهو: ما علَّةُ الأمر بالإسراء بالمؤمنين ليلًا؟ فالجواب: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، وعليه فـ"(إنَّ) هنا بمعنى التَّعليل"[(1)]، "والجملة تعليلٌ للأمر بالإسراء، وبيانُ حكمته المترتِّبةِ عليه"[(2)]؛ "لأنَّه ممّا يُستَغرَب، أي إنَّكم متَّبعون فأردنا أن تقطعوا مسافةً يتعذَّر على فرعونَ لحاقُكم"[(3)].

نكتةُ توكيد فاصلة الآية بـ(إنَّ):

أوثر تأكيدُ الخبر بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾؛، "لتنزيل غيرِ السّائل منزلةَ السّائل إذا قُدِّمَ إليه ما يُلَوِّحُ له بالخبر فيَستشرف له استشرافَ المتردِّد السّائل، على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]"[(4)].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مُّتَّبَعُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّعبيرُ بالمشتقِّ؛ لسرعة الاقتفاء، والإصرارِ على العداء

أصلُ الاتِّباع: التُّلوُّ والقُفوُّ، يقال: تَبِعتُ فلانًا واتَّبَعتُه إذا تلوتُه، وأتْبَعتُه إذا لَحِقتُه، والأصل واحد، غير أنَّهم فرَّقوا بين القُفوِّ واللُّحوق فغيَّروا البناءَ أدنى تغيير[(5)].

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 10/ 502.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 386.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 299.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 299 - 300.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 1/ 362.

فالاتِّباع: اقتفاءُ الأثر، ويكون تارةً بالجسم؛ نحو تبعتُه في الطَّريق واتَّبعتُه فيها، وتارةً بالامتثال، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ [طه: 123]، وفي موضع آخرَ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: 38]، ويقال: تَبِعَهُ وأَتْبَعَهُ بمعنى: لَحِقه وأَلْحَقَه، وعليه قولُه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠﴾ [الصّافّات: 10]، وقولُه سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: 175]، وقولُه ﷻ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: 78] وكلُّه بمعنى الإلحاق(1).

وإيثارُ التَّعبير بصيغة اسم المفعول للدَّلالة على الحدوث؛ لقُربِها مِنَ الفعل؛ ويُستفادُ مِن اسميَّتها معنى الثُّبوت، وأنَّ هذا الاتِّباع كائنٌ لا محالةَ، بل كأنَّه حاصلٌ الآن!

وأُسند الاتِّباعُ إلى غير مذكورٍ هنا في هذه الآية؛ لأنَّه مِنَ المعلوم أنَّ الذي سيتَّبعهم هو فرعونُ وجنودُه(2).

علَّةُ وصل قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ﴾:

الوصلُ لبيان الاتِّصال، والتَّبصرةِ بالمآل

قولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾؛ فيجوزُ أن تكون الجملتان صَدرَتا متَّصلتَين بأن أعلمَ اللهُ موسى حين أمره بالإسراء بأنَّه يَضربُ البحر بعصاه فينفلقُ عن قعرِه اليابسِ حتَّى يمرَّ منه بنو إسرائيلَ كما ورد في آياتٍ أخرى مثل آيةِ سورة الشُّعراء، ولمّا أمرَه بذلك طمَّنهُ بأن لا يخشى بقاءَه منفلقًا فيتوقَّعَ أن يلحق به فرعونُ، بل يجتاز البحر ويتركُه فإنَّه سيطغى على فرعونَ وجنده فيغرقون، ففي الكلام إيجازٌ تقديره: فإذا سرَيتَ بعبادي فسنفتحُ لكم البحر فتسلكونه، فإذا سلكتَه فلا تخشَ أن يلحقَكم فرعونُ وجندُهُ، واترُكْهم فإنَّهم مُغرَقون فيه، ويجوز أن تكون الجملة الثّانية صدَرت وقتَ دخولِ موسى ومَن معه في طرائق البحر فيُقَدَّرُ قولٌ محذوف، أي وقلنا له: اترك البحرَ

---

(1) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/ 255.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.

رهوًا، أي سيدخلُه فرعونُ وجندهُ ولا يخرجون منه؛ لأنَّ في بقائه مفروقًا حكمةً أخرى وهي دخولُ فرعون وجندِهِ في طرائقه طمعًا منهم أن يلحقوا موسى وقومَه، حتى إذا توسَّطوه انضمَّ عليهم، فتحصل فائدةُ إنجاء بني إسرائيل وفائدةُ إهلاكِ عدوِّهم، فتكونُ الواو عاطفةً قولًا محذوفًا على القول المحذوف قبْله[1].

الغرضُ منَ الأمر في قوله ﴿وَٱتۡرُكِ﴾:

مَن أحسن على الله الاعتمادَ؛ كفاه الهمَّ في الأمور الشِّداد

الغرضُ منَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ﴾ التَّعليمُ والنُّصحُ والإرشاد[2]؛ وذلك لحثِّ نبيِّ الله موسى ﷺ على عدم الانشغال بأمر البحر بعد عبوره؛ فإنَّ مَن شقَّه له هو الذي سيتكفَّلُ بأمرِهِ بعد إتمام العُبور؛ فالمعنى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ﴾ بعد عبوركم ﴿رَهۡوًاۖ﴾ ذا فجوةٍ وانفلاق، ولا تضربْهُ بالعصا ليجتمعَ كما ضربتَهُ بها لانفلاقه، فلا تخَفْ مِن عبورهم، ولا مِن إدراكهم إيّاك، ولا تحزن مِنِ اقتحامهم فـ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾[3].

بلاغةُ المجاز في استعمال التَّرك للدَّلالة على عدم المبالاة:

التَّركُ مجازٌ عن عدم الانشغال؛ فالأمرُ كلُّه بيد مقلِّب الأحوال

في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ إشارةٌ لموسى ﷺ بألّا يرجعَ إلى البحر، بل "يتركُه على حالته حتَّى يدخله فرعونُ وقومُه"[4]، فالتَّركُ مستعمَلٌ مجازًا في عدم المبالاة بالشَّيء كما يُقال: دَعْه يفعلْ كذا، وذَرْهُ؛ كقوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91][5]، وإنَّما أخبرَهُ الله تعالى بذلك حتَّى يبقى فارغَ القلب عن شرِّهم وإيذائهم[6].

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

التَّعريفُ للعهد تحقيقًا للمعجزة الباهرة، وإظهارًا لقدرة الله القاهرة

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ للعهد، فالبحرُ الذي أمر الله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 126.
(3) النخجواني، الفتوحات الإلهيَّة: 2/ 309.
(4) الخازن، لباب التأويل: 4/ 118.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659.

تعالى كليمَه موسى عليه السلام بأن يضربَه هو بحر القَلزم المسمَّى اليوم بالبحر الأحمر؛ وهو الذي وقف أمامَه موسى عليه السلام مع قومِه بعد أن أمره الله تعالى بأن يخرج مِن مصر(1).

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿رَهۡوًاۖ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مَن عادى أولياءَ الله؛ كفى الله الخلقَ أذاه

تدور معاني الرَّهو حول السُّكون والخفض والسَّعة(2)، فيُطلقُ على الفراغ بين أثناء الشَّيء، والفجوةِ في الأرض ونحو ذلك(3)، يقال: رها الشَّيءُ يرهو رهوًا: سكن، ورَها بين رجليه يرهو رهوًا: فتح، وكلُّ ساكنٍ لا يتحرَّك هو راهٍ ورَهوٌ(4).

فالحاصلُ أنَّ الرَّهو يطلقُ على السّاكن، وعلى الواسع، وبهذين المعنيَيْن فُسِّر الرَّهو في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾، فقيل: ﴿رَهۡوًاۖ﴾؛ أي ساكنًا، وعليه يكون المعنى أنَّ الله تعالى أمر موسى عليه السلام بأن يترك البحر ساكنًا على هيئته، قارًّا على حاله في انفلاق الماء وبقاءِ الطريق يبسًا حتَّى يدخلَه فرعونُ ومن معه؛ فإذا كانوا فيه أطبَقَهُ الله عليهم.

وقيل: ﴿رَهۡوًاۖ﴾؛ أي: واسعًا، والمعنى: ذا رهوٍ؛ أي: ذا فُرجةٍ؛ وهي الطَّريق الذي شقَّه الله تعالى فيما بين البحر، والمقصود: اتركِ الطَّريقَ كما كان منفرجًا لا تنشغل بسدِّه ولا بإطباقه كما كان(5)، وانتصبَ ﴿رَهۡوًاۖ﴾ على الحال مِنَ البحر على التَّشبيه البليغ؛ أي: مثل رهوٍ(6).

ويجوز أن تكون ﴿رَهۡوًاۖ﴾ "مِن قبيل: رجلٌ عدلٌ، أي: راهٍ ساكنٌ، أو وصفُ البحر بالمصدر للمبالغة، أو بتقدير: ذي رهوٍ"(7).

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رهو).
(3) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رهو).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رهو).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 659.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.
(7) محيي الدين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 506.

وعُبِّر بصيغة الاسم ﴿رَهْوًاۖ﴾ للدَّلالة على الثُّبوت، وهو المناسبُ لحال البحر الذي صار بعد ضربه بالعصا قارًّا ساكنًا ذا فجوةٍ واسعة! وهذا خلافُ ما عُهِد عنِ البحر مِن تلاطُم اللُّجج، واضطراب الأمواج.

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾:

مِن شأن الاستئنافِ البيانيِّ أن يُفصَل عن سابقه، وأن يمهِّد للاحقه

فُصل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾؛ لأنَّه "استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ ناشئ عنِ الأمر بتركِ البحر مفتوحًا"[1]، فكأنَّه قيل: لماذا أتركُه رهوًا؟ فقيل: لأنَّهم مغرَقون.

نكتةُ توكيد فاصلة الآية بـ(إنَّ):

التّأكيد؛ لتسليتِهم بأنَّ هلاكَ المجرمين أكيدٌ

تأكيدُ الخبر بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾؛ لأنَّه مسوقٌ لِمَن نُزِّل منزلةَ المتردِّد في ذلك الحكم؛ أي: هل هم جندٌ مغرَقون؟ فأجيبَ بذلك[2] جوابًا مؤكَّدًا ليطمئنَّ قلبه ﷺ بغرَقِهم، فيتركَ البحرَ على حاله[3].

دلالةُ ذكر كلمة ﴿جُندٞ﴾ وتنكيرِها:

أوثِرَ التَّنكيرُ تحقيرًا، فلا وزنَ للكفر ولو كان كثيرًا

ذُكِرَ لفظ ﴿جُندٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ دون الاقتصار على ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾ "لإفادة أنَّ إغراقهم قد لزمهم حتَّى صار كأنَّه مِن مقوِّمات جِنديَّتِهم"[4]، وورد مُنَكَّرًا للدَّلالة على تحقيرهم.

نكتةُ التَّعبير بالمشتقِّ ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالمشتقِّ؛ لبيان أنَّ الإغراق واقعٌ متحقِّق

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة اسم المفعول للدَّلالة على الحدوث؛ لقُربها مِنَ الفعل؛ ويُستفاد مِن اسميَّتِها معنى الثُّبوت، ولبيان أنَّهم متمكِّنون في هذا الوصف - وصفِ الغرق - وإن كان لهم وصفُ القوَّة والتَّجمُّع ﴿جُندٞ﴾ الذي محطُّه النَّجدةُ الموجبةُ للعلوِّ في الأمور[5].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 387، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 387.

(3) محيي الدين شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 506.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 300.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 27/ 18.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الاتِّباعُ والاقتفاء:

اتِّباعُ الشَّيء أشدُّ وأقوى مِن اقتفائه

المعنى المحوريُّ لجذر الاقتفاء: اللَّحاقُ بخلف الشَّيء من أعلاه؛ فالاقتفاءُ اتِّباعٌ مِنَ الخلف[1]، وأصلُهُ مِنَ القفا لأنَّ المتَّبِعَ للشَّخص غالبًا يصير خلفَهُ وتابعًا لقفاه[2].

وأمّا المعنى المحوريُّ لجذر الاتِّباع فهو: لحوق الشَّيء بمتقدِّم أو سابقٍ بلا فصل، ومن ذلك التَّبيعُ: وهوولد البقرة في أوَّل سنة، وذلك لأنَّه يتَّبع أمَّه بعدوٍ ولا يفارقُها[3]، ويقال: تابَعَ فلانٌ بين الصَّلاة وبين القراءة إذا والى بينهما، ففعل هذا على أثر هذا بلا مُهلةٍ بينهما[4].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الاتِّباعَ أعمُّ مِنَ الاقتفاء، وأنَّ اتِّباعَ الشَّيء أشدُّ وأقوى مِن اقتفائه لِما في الاتِّباعِ من الالتصاقِ وعدمِ الانفصالِ والمفارقة، ولأنَّه أدلُّ على شدَّةِ تعلُّقِ المتَّبِع بالمتَّبَع.

الرَّهوُ والفلَق:

الفَلَق شَقٌّ، والرَّهْو انفراجٌ بفجوةٍ واسعة وسُكونٌ

الفَلَق: شَقُّ الشَّيء وإبانةُ بعضِه عن بعض[5]، والمعنى المحوريُّ لجِذره: شَقُّ شيءٍ شديدِ الكثافة شقًّا نافذًا إلى عُمقه[6].

أمّا الرَّهْو فيحتملُ أن يكون بمعنى الفجوةِ الواسعة[7]، وهذا مأخوذٌ مِن رها بين رجلَيه، أي: فتحَ بينهما[8]، فسُمِّيَت الفَجوة رَهْوًا تسميةً بالمصدر[9]، أو يكون بمعنى: السّاكِن، وهذا مأخوذٌ مِن: رها الشَّيءُ رَهْوًا، أي: سكنَ، ويقال لكلِّ ساكنٍ لا يتحرَّك: راهٍ ورَهْوٌ[10].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قفو).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قفو).
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (تبع).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فلق).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلق).
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 276، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 301.
(8) الجوهري، الصحاح: (رهو).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 301.
(10) الواحدي، البسيط: 20/ 106، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، وابن منظور، اللسان: (رهو).

قال الله ﷻ: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾؛ أي: مُنفرِجًا واسعًا ساكنًا، وأوثِرَ في هذه الآية لفظُ الرَّهْو دون الفَلْق؛ لأنَّ الرَّهْوَ جامعٌ للانفراج بفجوةٍ واسعةٍ والسُّكون؛ وذلك أشدُّ وأقوَى في إطماعِ فرعونَ وجنوده، وأدعَى لدخولهم البحرَ على تلك الحال[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 26.

﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ [الدُّخان: 25 - 29]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مَن ركب موجَ الطُّغيان، وعلا على الملِك الدَّيّان؛ فعاقبتُه خزيٌ وجزاؤه خُسران

لمّا أسرى موسى بالمؤمنين؛ طاعةً لربِّ العالمين؛ وفتحَ المولى لهم البحرَ بباهر قدرته، وأمسكَ ماءه كالجدران بقاهرِ عظمتِه، فعبَروه تاركين إيّاه بعد طلوعهم منه على حالته؛ تَبِعهم عُبّاد الشَّيطان بما فاض عليهم مِن شقاوته؛ فأغرقَهم سبحانه جميعًا بعزَّته؛ وأخبر سبحانه أنَّه قد أورث بساتينَهم الباهرة، وقصورَهم الفاخرة، وجميعَ أرضهم العامرةِ الزّاخرةِ لأقوام آخرين بما له مِن تمام السَّطوة والمقدرة، ولمّا كان الإهلاك يوجِب أسفًا وحسرةً على المهلَكين؛ أخبر سبحانه أنَّهم غيرُ متحسَّرٍ عليهم لا في الأوَّلين ولا في الآخرين، وما كانوا عنِ العقوبة مِنَ المؤخَّرين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٖ﴾: أصلُ (عين) يدلُّ على عُضوٍ به يُبصَر ويُنظَر[2]، العين: الجارحةُ التي هي حاسَّة البصر والرُّؤية، وهي مؤنَّثة، والجمع: أعْيُن وعيون، ويقال لذي العين، وللمُراعي للشَّيء: عين؛ لأنَّه يَنظر إليه ويرعاه بعينه، وفلان بعيني؛ أي: أحفظُه وأُراعيه[3]، والعين: أن تصيب الإنسانَ بعين، وعانَ الرَّجُل فلانًا يَعينُه عينًا إذا أصابه بالعين، فهو عائن، والمصابُ بالعين مَعِين[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 27/ 18 - 29، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 128.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(3) الراغب، المفردات: (عين).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عين).

ويقال لمَنْبع الماء الذي يخرج منه الماء، وينبع مِنَ الأرض: عَيْنٌ تشبيهًا بالعين لما فيها مِنَ الماء، وجمعه: عُيون وأعْيُن، ومن عين الماء اشْتُقَّ: ماءٌ مَعِين؛ أي: ظاهر للعيون[1]، ومن ذلك قولُ الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ أي: الخلجانُ الخارجةُ مِنَ النِّيل، فشبَّهها بالعيون[2]، وغلبَ الأعينُ في الجارحة، والعيون في النَّبع.

2) ﴿وَزُرُوعٍ﴾: أصلُ (زرع) يدلُّ على تنمية الشَّيء[3]، يقال: زَرَعَ الحَبَّ يزرَعُه زَرْعًا وزِراعَة: بَذَرَه، والزَّرع: طرحُ البَذْر في الأرض، والزَّرعُ أيضًا: الإنباتُ، وحقيقةُ هذا تكون بالأمور الإلهيَّة دون البشريَّة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63 - 64]، فنسبَ الحرثَ إليهم، ونفَى الزَّرعَ عنهم، ونسبَه إلى نفسه ﷻ، والزَّرعُ في الأصل مصدرٌ، وأُطلِق أيضًا على المزروع، وهو واحد الزُّروع، وقد غلب على البُرِّ والشَّعير، وموضِعُه مَزْرَعَة ومُزْدَرَع، ويقال: زرع الله ولدَك، تشبيهًا بذلك؛ أي: أنبته الله وجَبَرَه[4].

3) ﴿وَمَقَامٍ﴾: أصلُ (قَوَم) يدور حول معنى الانتصابِ أوِ العزم على الشَّيء[5]، فالقيامُ: نقيضُ الجلوس، قام يقوم قيامًا، فهو قائمٌ، وجمعُه قِيام، وأقام بالمكان إقامةً ومُقامًا: لَبِث، وأقام الشَّيءَ: أدامه، منه قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][6]، وكلُّ مَن ثبت على شيءٍ وتمسَّكَ به فهو قائمٌ عليه، ويُقال لمَن لم يُطِق فعلَ شيء، ولم يقدر عليه: لم يَقُم به، وقِوامُ الأمر: نِظامُه وعِمادُه، وقِوامُ كلِّ شيء ما يقوم به الشَّيء، أي: يَثْبُت، كالعِماد والسِّناد: لِما يُعْمَد ويُسْنَد به[7]، ومنه قِوام الحقِّ، وقِوام الدِّين.

وقام فلانٌ مقامَ فلان: إذا نابَ عنه، والمقامُ يكون مصدرًا، واسمَ مكانِ القِيام، وزَمانِه[8]، وقوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: مجلسٌ شريف، ومنازلُ حسنة[9].

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عين).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 72.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زرع).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (زرع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (قوم).
(8) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 660، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 101، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 62.

4) ﴿وَنَعۡمَةٖ﴾: أصلُ (نعم) يدلُّ على ترفُّهٍ وطِيب عَيشٍ وصلاح[1]، نَعِم يَنعَم نَعمةً، فهو نعيمٌ بيِّنُ المَنْعَم[2]، والنِّعمة: الحالة الحسنة، مِن أنعمَ اللّه عليه يُنعِمُ إنعامًا ونِعمة، والنَّعمة: التَّنعُّمُ، وحُسنُ العيش وغضارتُه، والنِّعمةُ للجنس، تقال للقليل والكثير، وجمع النِّعمة: النِّعَم والأَنْعُم، والإنعام: إيصالُ الإحسان إلى الغير، ولا يقال إلّا إذا كان الموصَل إليه مِن جنس النّاطقين، والنَّعماء بإزاء الضَّراء، والنَّعيم: النِّعمة الكثيرة، والتَّنعُّم: التَّرفُّه، وتنعَّم: تناولَ ما فيه النِّعمةُ وطيبُ العيش، يقال: نعَّمهُ تنعيمًا، فتنعَّم: جعلهُ في نعمةٍ؛ أي: لين عيشٍ وخِصب[3].

وقوله تعالى: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: متعة الحياة ولذاذتُها، ولين العيش وغضارتُه[4].

5) ﴿فَٰكِهِينَ﴾: أصلُ (فكه) يدلُّ على طِيبٍ واستطابة[5]، والفاكهة: هي الثِّمار كلُّها، وأجناسها: الفواكه، والفُكاهَة: حديث ذوي الأُنس، وهو المزاح، يقال: فكَّهتُ القومَ تفكيهًا بالفاكهة، وفاكَهتُهم مُفاكَهةً بمُلَح الكلام والمزاح[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾ [الواقعة: 65]؛ أي: تتعاطَون الفُكاهة، وقيل: تتناولون الفاكهة، وقيل: تتعجَّبون وتندمون، وتفكَّه من كذا: تعجَّب وتندَّم، والفَكِه: الأشِر البَطِر، وقوله تعالى: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾، قُرئت: (فَكِهين)، بمعنى: أشِرين بَطِرين، وعلى قراءة: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ فهي بمعنى: ناعمين معجَبين بما آتاهم اللّه، وتفكَّهتُ بالشَّيء: تمتَّعتُ به[7].

6) ﴿بَكَتۡ﴾: أصلُ (بكى) يدلُّ على خروج المائع مِن جوف الشَّيء قليلًا قليلًا بنحوٍ مِنَ الاعتصار[8]، بكى يبكي بُكًى وبكاءً وهو باكٍ، فالبكاءُ: سَيلانُ الدَّمع والصُّراخُ عن حزنٍ لمُصابه[9]، فالبكاء بالمدِّ: إذا أردتَ الصَّوتَ الذي يكون مع البكاء، والبُكى بالقصر

(1) ابن فارس، المقاييس: (نعم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نعم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نعم).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231، وابن عطية، المحرر الوجيز: 73/ 5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فكه).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فكه).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فكه).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بكى).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بكى).

يقال إذا أردتَ الدُّموعَ وخروجَها، وكان الحزن أغلبَ، وجمع الباكي: باكون وبُكِيّ، وبكيتُه وبكيتُ عليه بمعنًى واحد: إذا بكيت عليه، وأبكيتُه إذا صنعت ما يحملُه على البكاء[1].

7) ﴿مُنظَرِينَ﴾: أصلُ (نظر) يدلُّ على تأمُّل الشَّيء ومعاينتِه، نظَرَ ينظُرُ نَظَرًا، والنَّظر: حسُّ العين[2]، وهو تقليبُ البصر أو تأمُّلُ العين والبصيرة لإدراك الشَّيء ورؤيتِه، وقد يراد به التَّأمُّل والفحص، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلة بعد الفحص، وهو الرَّويَّة، يقال: نَظَرْتَ فلم تَنْظُر؛ أي: لم تتأمَّلْ ولم تتروَّ[3]، واستعمالُ النَّظر في البصر أكثرُ عند العامَّة، وفي البصيرة أكثرُ عند الخاصَّة، ونظرتَ إلى كذا: مددتَ طَرْفَك إليه، رأيتَه أو لم تَرَه، ونظرتُ في كذا: إذا رأيتُه وتدبَّرته، والنَّظرُ: الانتظار، يقال: نظرتُه وانتظرته وأنظرته؛ أي: أخَّرتُه[4]، ومعنى: ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ أي: مؤخَّرين وممهَلين[5].

المَعنى الإجْمالِيُّ:

سلبُ النِّعم وإنزالُ النِّقم من سنن الله لمن لم يستقِم

يُبيِّنُ المولى ﷻ في هذه الآيات سوءَ مآل فرعونَ وقومِه بعد إهلاكه إيّاهم بالغَرَقِ والتَّدمير مستعمِلًا ﴿كَمْ﴾ الخبريَّةَ لإفادة التَّكثير والتَّهويل لِما ترك هؤلاء المشركون بعد الغَرَقِ مِن بساتينَ كثيرةِ الأشجار ناضرةٍ، وأنهارٍ مِنَ الماء جاريةٍ، وزروعٍ نَضِرةٍ متنوِّعةٍ، ومجالسَ حسنَةٍ مزخرفةٍ، وعيشةٍ مُترَفَةٍ كانوا فيها متنعِّمين.

كذلك يفعل اللّهُ بِمَنْ كذَّب رُسُلَه وخالف أمره واتَّبع هواه، وكذلك يحوِّل سبحانه النِّعمةَ لقومٍ آخرين مِن بني إسرائيل بعد هلاكِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(3) الراغب، المفردات: (نظر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 139، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 101.

فرعونَ وقومه هلاكًا مُدَمِّرًا، فلم تحزن عليهم السَّماءُ ولا الأرضُ لحلول هذا الهلاكِ بهم، ولم يكونوا مؤخَّرين لتوبةٍ أو تدارُكِ تقصيرٍ احتقارًا لهُم لهَوانِ شأنهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

الفصلُ للاستئناف؛ لبيان عاقبةِ المعاندين الأجلاف

فُصِل قولُه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه "استئنافٌ ابتدائيٌّ مسوقٌ للعِبرة بعواقب الظَّالمين المغرورين بما هُم فيه مِنَ النِّعمة والقوَّة، غرورًا أنساهُم مراقبةَ اللّه فيما يُرضيه، فموقعُ هذا الاستئنافِ موقعُ النَّتيجة مِنَ الدَّليل أوِ البيان مِنَ الإجمال؛ لِما في قوله: ﴿۞وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: 17] مِنَ التَّنظير الإجماليِّ"[2].

نكتةُ التَّعبير بـ﴿كَمْ﴾ الخبريَّة:

رغمَ كثرةِ ما تركوا؛ لم ينفعهُم حين هلكوا

﴿كَمْ﴾ اسمٌ لعددٍ كثيرٍ مبهَم[3]، وهي هنا خبريَّةٌ للتَّكثير والتَّهويل؛ أي: ما أكثرَ ما ترك هؤلاء المغرَقون خلفهم مِن بساتينَ ناضرةٍ، وعيونٍ يخرج منها الماء النَّمير، وزُروعٍ كثيرة متنوِّعة، ومحافلَ ومنازلَ كانت مُزيَّنةً بألوانٍ مِنَ الزِّينة والزَّخرفة، وتنعُّمٍ وترفُّهٍ كانوا فيه يتلذَّذون[4].

فهذا بيانٌ لما خلَّف هؤلاء الهالكون غرَقًا، وهو شيءٌ كثيرٌ أفاضَهُ اللّه عليهم مِن فضله، فما زادهم ذلك إلّا طغيانًا وكفرًا، وها هُم أولاء قد خلَّفوه وراءهم، يعيش فيه غيرُهم، ويَنعَم به سواهم، فما أغنى عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِنَ اللّه مِن شيءٍ[5]!

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 231 - 232، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المنتخب، ص: 735.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 301.
(3) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 109، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 138.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 126.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 198.

بلاغةُ المجاز في استعمال التَّرك للدَّلالة على المفارَقة:

التَّعبيرُ بتَرك الأملاك مؤذنٌ بالفناء والإهلاك

أصلُ التَّركِ: التَّخليةُ عنِ الشَّيءِ[1]، وتَرَكَ الشَّيءَ: رفضَه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا[2]، وحقيقتُه: "إلقاءُ شيءٍ في مكان منتَقَل عنه إبقاءً اختياريًّا، ويُطلَق مجازًا على مفارقةِ المكان والشَّيءِ الذي في مكانٍ غلبةٍ دون اختيارٍ، وهو مجازٌ مشهورٌ؛ يقال: ترك الميِّتُ مالًا، ومنه سمِّي مخلَّف الميِّت: تَرِكَةً وهو هنا مِن هذا القبيل"[3].

بلاغةُ الإيجاز بين ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾، و﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾:

الإيجازُ لبيانِ الحال، والتَّحذيرِ مِن مغبَّة المآل

بين قوله تعالى: ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾ إيجازٌ بحذف جملٍ كثيرةٍ دلَّ عليها قوله: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾، فالفعل ﴿تَرَكُواْ﴾ مؤذِنٌ بأنَّهم أُغرِقوا وأُعدِموا، وذلك مقتضٍ أنَّ ما أمرَ اللّه تعالى به موسى ﷺ مِنَ الإسراء ببني إسرائيل وما معه مِن اتِّباع فرعونَ إيّاهم، وانفلاقِ البحر، وإزلافِ بني إسرائيل، واقتحام فرعون بجنوده البحرَ، وانضمام البحر عليهم قد تمَّ، ففي الكلام إيجازٌ بحذف جُملٍ كثيرة يدلُّ عليها ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾[4].

والغرضُ مِن هذا الإيجازِ هو الاختصارُ مع بيان حالِ الفعلِ؛ وهو إجبارُهم على ترك ما كانوا أُعطوا مِن أموالٍ وخيراتٍ متعدِّدة الأصناف والأنواع[5].

نكتةُ عطف الزُّروع والمقام الكريم كلٍّ على سابقه:

غضبَ عليهم العظيم؛ فحرمَهم كلَّ أشكال النَّعيم

عطفُ الزُّروعِ والمقامِ الكريم كلٍّ على سابقه؛ للإشعار بأنَّه يوجد تغايرٌ بين الجملتين مع اتِّحادهما في مسألة الحرمان؛ فالجنّاتُ ليست هي التي يقوم أودُ الحياة بما فيها مِنَ الأشجار والثِّمار

(1) ابن فارس، المقاييس: (ترك).
(2) الرّاغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ترك).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 301.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 301.
(5) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 9/ 856.

والفاكهة، وإنَّما الزُّروعُ التي هي حَبُّ الحصيد، والتي منها الخبزُ والطَّعام والغذاء، وعليها وبها تقوم حياةُ النّاس؛ فالآيةُ هنا تُحَدِّث عن سواد الشَّعب، وأفناءِ النّاس، وتنزلُ من طبقةٍ تمتلكُ الجنّاتِ والعيونَ إلى طبقةٍ تمتلكُ الزُّروعَ والمقام الكريم[1].

نكتةُ تنكير (زُروعٍ)، ودلالةِ مجيئها جمعًا:

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ﴾ لإفادة معنى التَّكثير، وجُمِعت لتأكيد ذلك، وهذا التَّكثيرُ مناسبٌ لمعنى الزُّروع؛ إذ إنَّ "الزَّرع قد غلبَ على البُرِّ والشَّعير، وجمعُه زُروع، وقيل: الزَّرع: نباتُ كلِّ شيء يُحرَث"[2].

التَّنكيرُ مع الجمع للتَّكثير؛ إشارةً إلى ما كانوا فيه مِن خيرٍ وفِير

فهذه الكثرة دليلٌ على ما كان فيه القومُ مِنَ النِّعمة والخصب والعيش الرَّغيد، فلمّا كفروا أُهلِكوا، وورثَ غيرُهم ما كانوا فيه، وتلك سُنَّة اللّه التي قد خلت في عباده!

نكتةُ تنكير (مَقامٍ)، ومعنى المجاز فيه، ودلالةِ وصفه بـ﴿كَرِيمٍ﴾:

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَقَامٍ﴾ لإفادة معنى التَّعظيم؛ لأنَّه مذكورٌ في سياق مدحِ ما كان القوم فيه مِنَ النِّعمة، وهو ممّا يُلمَحُ فيه علوُّ الشَّأن، لا كثرةُ الكَمِّ والمقدار، فهو بمعنى التَّعظيم أليَقُ، والتَّعظيمُ به ألصَقُ.

التَّنكيرُ للتَّعظيم؛ زيادةٌ في بيان ما حلَّ بهم مِنَ الحسرة والعذاب الأليم

والمَقام - بفتح الميم -: مكانُ القيام، والقيامُ هنا مجازٌ في معنى التَّمكُّن مِنَ المكان، والمراد به: المساكنُ والدِّيار والأسواق ونحوها ممّا كان للهالكين في مدينتهم العامرة[3]، وليس بلازم أن يكون قصورًا كقصور الخاصَّة، وإنَّما هو مسكنُ آدميٍّ، فحتَّى عامَّةُ النّاس منهم كانوا يعيشون حياةً آمنةً مطمئنةً إلّا أنَّهم كانوا أشِرينَ بَطِرينَ فحُرِموا ذلك كلَّه[4]!

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زرع).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 302.
(4) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.

ووُصِفَ المقامُ بـ﴿كَرِيمٍ﴾ للدَّلالة على حسنِه وشرفِه في بابه[1]، "والكريمُ مِن كلِّ نوعٍ: ما يَجمع فضائلَه، وهو صفةٌ لكلِّ ما يُرضي في بابه، يقال: وجهٌ كريمٌ؛ أي: مَرضيٌّ بحُسنِه وجماله، وكتابٌ كريمٌ: مَرضيٌّ في معانيه وفوائده، ونباتٌ كريمٌ: مرضيٌّ فيما يتعلَّق به مِنَ المنافع، قال تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشُّعراء: 7]، وقِس على ذلك الإنسانَ، والحيوانَ، والمكانَ"[2].

دلالةُ عطف قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ على سابقه:

رفضوا الانقيادَ لأوامـــر الـلـه؛ فحُرموا كلَّ مُتع الحياة

العطف في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ هو من عطف العامِّ على الخاصِّ[3]، "لأنَّ هذه الآية الثّالثة لم تتكلَّم عن شيء يُطعَم كما تكلَّمتِ الأولى والثّانية، وإنَّما هي وصفٌ عامٌّ لكلِّ الذين يعيشون على أرض مصرَ في ذلك الوقت، يستوي في ذلك أصحابُ القصور والجنّات التي فيها العيون، وأصحابُ الزُّروع الذين يُقيمون في مزارعهم المبسوطة الشّاسعة؛ الكلُّ متنعِّم وإن تفاوتت درجات التَّنعُّم، المهمُّ أنَّه ليس هناك على أرض الكنانة مَن يعيش في ذلك الزَّمن تحت خطِّ الفقر"[4]! فكفَروا بأنعُم الله، فحُرِموا الحياةَ ومُتَعَها!

نكتةُ تنكير (نَعْمَةٍ) ودلالةُ إفرادها:

التَّنكيرُ للتَّعظيم أو للتَّكثير، لبيان ما كانوا فيه مِنَ النَّعيم الكثير

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ للتَّعظيم؛ لأنَّها مَسوقةٌ في معرض المدح مرادًا بها علوُّ الشَّأن؛ أي: ونعمةٌ عظيمةٌ جسيمة، ويصحُّ أن يكون المراد بالتَّنكير: التَّكثيرَ؛ أي: وتنعُّمًا كثيرةً صورُه وأشكالُه، ويؤيِّده ﴿كَمْ تَرَكُواْ﴾.

"والنَّعمة - بفتح النّون -: اسم للتَّنعُّم مصوغٌ على زِنَةِ المرَّة،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 122.
(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 674.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 126، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 674.
(4) محمد أبو موسى، حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.

وليس المراد به المرَّةَ، بل مطلقُ المصدر باعتبارِ أنَّ مجموع أحوالِ النَّعيم صار كالشَّيء الواحد، وهو أبلغُ وأجمَعُ في تصوير معنى المصدر، وهذا هو المناسبُ لفعل ﴿تَرَكُواْ﴾؛ لأنَّ المتروكَ هو أشخاصُ الأمور التي يُنعَّمُ بها وليس المتروكَ، وهو المعنى المصدريُّ"[1].

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي في قوله: ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾:

يفيد التَّعبيرُ بالماضي الدَّلالةَ على التَّحقُّق والتَّوكيد، وإذا كان هذا الفعلُ هو فعلَ الكون فإنَّ دلالته على التَّحقُّق تكون آكدَ من غيره؛ ذلك أنَّه مختصٌّ بالجملة الاسميَّة فهو مِن نواسخها، والجملةُ الاسميَّة تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام.

عاشوا حياتَهم في اغترارٍ حتى جاءهم الهلاكُ بغتةً منَ المنتقِم الجبّار

فقوله تعالى: "﴿كَانُواْ فِيهَا﴾؛ أي: دائمًا ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ أي: فِعلُهم في عَيْشهم فعلُ المترفِّه لا فعلُ مَن يُضطرُّ إلى إقامة نفسه"[2].

معنى الظَّرفيَّة في ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾:

الأصلُ في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً أو زمانيَّةً، حقيقيَّةً أو مجازيَّةً[3].

كانوا في النَّعيم مغمورين، فأصبحوا بكفرهم مِنَ المُهلَكين

وهو في هذا الموضع للظَّرفيَّة المجازيَّة، كأنَّه جعل (النِّعمة) مكانًا أو ظرفًا يحوي ما فيه؛ "أي: كانوا مَغمورين في النِّعمة لاعبينَ في تلك النِّعمة"[4]، وكانت النِّعم محيطةً بهم إحاطةَ الحصن؛ ممّا يدلُّ على أنَّهم كانوا يعيشون في خيراتٍ كثيرةٍ، ونعمةٍ عظيمةٍ وفيرة.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾ على الخبر:

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على خبر النّاسخ ﴿فَٰكِهِينَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويق للمؤخَّر، ولبيان عِظَم قدرِ هذه النِّعمة التي كانوا

التَّقديمُ للتَّشويق والاهتمام؛ للتَّدليل على استحقاق الهلاكِ والانتقام

---
(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 302.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 28.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 302.

مغمورين فيها، وعِظَم قدْر الحسرة عليها بعد أن سُلِبوها، وقد أفاد هذا التَّقديمُ - إضافةً إلى ذلك - محسِّنَ رِعاية الفاصلة.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مادَّةً وصيغة:

كانوا في النَّعمة قارِّين مترَفين، لا مضطرِّين ولا مقهورين

أصلُ الفكه يدلُّ على طِيبٍ واستطابة، فمِن ذلك يُقال: الرَّجُل الفَكِه؛ أي: الطَّيِّب النَّفْس، ومِنَ الباب: الفاكهةُ؛ لأنَّها تُستَطاب وتُستَطرف، ومِنه أيضًا: المُفاكَهَة، وهي المازَحَة وما يُستَحلَى مِن كلامٍ[1].

"وجملة ﴿كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ فاصلةٌ جامعةٌ للآيات التي هي جملةٌ واحدةٌ مِن أوَّل ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾، ومعنى ﴿فَٰكِهِينَ﴾: فَرِحين مغتَبِطينَ متفكِّهين؛ لأنَّها تصف أحوالًا نفسيَّةً كثيرةً كلُّها مِن باب المسرَّة والغبطة وافتقادِ الأحزان وما يجلبُ الأحزانَ، والذي دمَّر كلَّ ذلك غرورٌ وصَلَفٌ وأطماعُ فرعونَ ونفاقُ مَن حولَه"[2]!

والتَّعبيرُ باسم الفاعل يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام دلالةً على ما كانوا فيه مِنَ الاستقرار.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله: ﴿فَٰكِهِينَ﴾:

ثراءُ الدَّلالات بتعدُّد القراءات والتَّأويلات

قرأ أبو جعفر: ﴿فَكِهِينَ﴾ بالقصر[3]، وقرأ الجمهور: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ - بالألف - ومعناها:

ناعمين، والفاكِهُ: الطَّيِّب النَّفْس، أو يكون بمعنى: أصحاب فاكهة؛ كلابِنٍ وتامِرٍ (مِن اللَّبَن والتَّمر)، والمعنى على قراءة أبي جعفر قريبٌ مِن هذا؛ لأنَّ الفكهَ يُستَعمَل كثيرًا في المستخِفِّ المستهزِئ، فكأنَّه هنا يقول: كانوا في هذه النِّعمة مستخِفِّين بشُكرها والمعرفةِ بقدرها[4].

وعليه، فالقراءتان تؤدِّيان معنيَين متآزرَين، هُما معًا كالمعنى الواحد،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فكه).
(2) محمد أبو موسى، حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 619.
(3) البنا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 499.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 73.

فهؤلاء القومُ كانوا متنعِّمين مترفِّهين خائضين في أسباب نعمةٍ عظيمةٍ لم يؤدّوا شُكرَها، ولم يقوموا بحقّها، بلِ استخفّوا بها، فاستحقّوا الهلاك!

معنى التَّشبيه ودلالتُه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تشبيهٌ للخروج بالخروج؛ تحذيرًا لِمَن كان في لجَجِ العصيان يموج

يجوز أن تكون الكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في حيِّز النَّصب، على أنَّ (ذلكَ): إشارةٌ إلى مصدرٍ يدلُّ عليه الفعل ﴿تَرَكُواْ﴾؛ وعلى هذا فالمعنى: مِثلَ ذلك السَّلْبِ سلبناهُم إيّاها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، أو: مِثلَ ذلكَ الإخراجِ أخرجناهُم منها، أو: انتقمنا انتقامًا كذلك، ويجوز أن معطوفًا على ﴿تَرَكُواْ﴾، ويكون الوقف على: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ والجملة معترضةٌ بين الجملة اللّاحقة والسّابقة المتعاطفتَيْن[1].

وكأنَّ الأمر يؤولُ إلى تشبيه الإخراج بالإخراج، ولا يكونُ هذا إلا لقصد اللَّفت إلى العبرة في هذا الإخراج وأنَّ اللّه تعالى أخرج الظّالم المتغطرسَ فرعونَ، وأهلكه وأهلكَ معه حُرّاسَهُ وجنودَه وأذنابَه مِنَ المنافقين والموالين الذين كانوا يُزيِّنون له ويُزيِّن لهم، وهذا إخراجٌ لو أردت تشبيهَه بشيءٍ تُلحِقُه به وتزيدُه به إيضاحًا وبيانًا فلن تجد أتمَّ في معناه منه؛ فلذلك تشبِّهه بنفسه تعظيمًا وتفخيمًا[2].

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

عُبِّر بالبعد لإفادة التَّعظيم، وأنَّ إهلاك القوم أمرٌ في الموعظة عظيمٌ

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لإفادة التَّعظيم، فقد كان إهلاك فرعونَ وجندِه بالطَّريقة التي ذكرَها اللّه تعالى في القرآن أمرًا عظيمًا، وكان تركُهم للجنّات والعيون والزُّروع والمقام الكريم مِن ورائهم أمرًا عظيمًا، وإيراثُ غيرهم إيّاها أمرًا عظيمًا كذلك، وليس بعظيمٍ على اللّه تعالى، حاشاه، بل هو عظيمٌ في باب العبرة والعِظة!

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 276، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 660، وابن عادل، اللباب: 17/ 322، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 62 - 63، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 8/ 675.

(2) محمد أبو موسى، حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 621.

مَن عادى أولياءَ ذي الملكوت والسُّلطان؛ عوقب بالنَّكال والخسران

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾:

الواو عاطفةٌ لفعل (أَوْرَثْناها) على سابقه، ويتحدَّد المعطوفُ عليه بناءً على توجيه معنى الكاف في ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ كما تقدَّم بيانه، فلو جرينا على توجيه النَّصب في الكاف فإنَّ (أَوْرَثْناها) معطوفٌ على الفعل المقدَّر النّاصب للكاف، والمعنى: مِثلَ ذلك الإخراج أخرجناهم، أو: مِثلَ ذلك الإهلاكِ أهلكناهم، أو: انتقمنا انتقامًا كذلك، ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾.تكون الكاف في حيِّز الرَّفعِ على الخبريَّة؛ أي: الأمرُ كذلك، فحينئذٍ يكونُ (أَوْرَثْناها)

ولو جرينا على توجيه الرَّفع في الكاف فإنَّ (أَوْرَثْناها) معطوفٌ على ﴿تَرَكُواْ﴾، وجملةُ ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ معترضةٌ بينهما، والمعنى: ﴿تَرَكُواْ﴾ الجنّاتِ والعيونَ والزُّروعَ - الأمرُ ﴿كَذَٰلِكَۖ﴾ - ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾[1].

وعلى الوجه الأوَّل يكون الإيراثُ مترتِّبًا على الإخراج والإهلاك، وكلاهُما مسندٌ إلى اللّه تعالى: (أخرجناهم منها وأهلكناهم وأورثناها قومًا آخرين)، وعلى الوجه الثّاني يكون الإيراثُ معطوفًا على تركهِم للجنّات والعيون ... إلخ: (﴿تَرَكُواْ﴾... ، ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾).

عَودُ الضَّمير إلى ما كانوا فيه مترَفين؛ إظهارًا للغلبة والتَّمكين

توجيهُ عوْد الضَّمير في (أَوْرَثْناها):

بحسب قواعدِ اللُّغة فإنَّ ضمير الغائب في قوله تعالى: (أَوْرَثْناها) يعودُ على أقربِ مذكورٍ، وهو: الجنّاتُ والعيون، والزُّروعُ والمقامُ الكريم، والنَّعمةُ التي كان قوم فرعونَ فيها فاكهين.

وقد سمَّى اللّه تعالى انتقالَها مِن تصرُّف قومٍ إلى قومٍ آخرين: وراثةً؛ مِن حيث كانت أشياءَ أُناسٍ وصلت إلى قومٍ آخرينَ مِن بعد موت الأوَّلين، وهذه حقيقةُ الميراث في اللُّغة[2].

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 9/ 623 - 624، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 172.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 73.

ثمَّ اختُلِف في هؤلاء الآخرين، فذهبت طائفةٌ إلى أنَّهم مَن مَلَك مصرَ بعد القِبط، وذهبت طائفة إلى أنَّهم هم بنو إسرائيل، ودليلُهم أنَّ هذا هو ظاهرُ القرآن كما ورد في نظيرَةِ هذه الآية في سورة الشُّعراء: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشُّعراء: 59]، فهذه الآيةُ صريحةٌ في توريث بنى إسرائيلَ للجنّات والعيون التي خلَّفها فرعونُ وقومُه بعد غرقِهم، بمعنى أنَّهم عادوا إلى مصرَ بعد غرقِ فرعونَ ومَن معه كما ذكره بعض المفسِّرين، ولكنَّ عودتهم كانت لفترةٍ معيَّنة، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدَّسة التي دعاهم نبيُّ اللّه موسى عليه السلام لدخولها(1).

وقد أُشكِل على هذا القول أنَّه لم يُروَ في التّاريخ أنَّ بني إسرائيل رجعوا إلى مصرَ في شيء مِن ذلك الزَّمان ولا مَلَكوها قطُّ، بل ورد في القرآن أنَّهم كُتِب عليهم التِّيه أربعين سنة في أرض سيناء عقوبةً لهم لمّا أُمِروا بدخول الأرض المقدَّسة بيتِ المقدس فجَبُنوا، وخافوا العماليق(2).

فبَقِيَ سؤالٌ، وهو: كيف ورِث بنو إسرائيل هذه الأشياءَ كما نصَّت عليه آية سورة الشُّعراء إن لم يكونوا عادوا إلى مصر؟

والجواب: أنَّهم لم يرثوا شخوصَها وذواتَها، بل ورِثوا أشباهَها وأجناسَها وأنواعَها في بلاد الشّام، وهذا مِن باب: (عندي درهمٌ ونصفُه)؛ أي: ونصفُ درهم مِن جنس هذا الدِّرهم، فليس المرادُ خصوصَ ما تركوه، بل نوعَه وما يُشبِهه(3).

وعليه فالضَّمير في (أَوْرَثْناها) عائدٌ إلى أجناس الأشياءِ المعدودة؛ أي: أعطيناهم مِن جنس الجَنّات والعيون والكنوز مثلَ ما كان لفرعونَ وقومِه مِن جنّاتٍ وعيون وكنوز الكنعانيِّين حتَّى سلَّط اللّٰه عليهم بني إسرائيل، فغلبوهم على أرض فلسطين والشّام(4).

نكتةُ إسناد الفعل إلى نون العَظَمَة:

أُسنِد الفعل ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ إلى نون العظمة تنبيهًا على أنَّ تحويل حالِ بني إسرائيل مِنَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن: 7/ 253، والآلوسي، روح المعاني 13/ 122، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 127.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 73، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 13/ 199.
(3) الآلوسي، روح المعاني 13/ 122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 303.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.

الله العظيمُ لا يُخلفُ الميعاد، ويورِث الأرضَ لِمَن شاء مِنَ العباد

التَّعبيرُ بالإيراث؛ لسرعة التَّملُّك والانبعاث

الاستعباد إلى وراثة هذا النَّعيم وتملُّكه إنَّما هو مِن آثار عظمة هذا الرَّبِّ الجليل القادر القهّار، قاصم الجبّارين، ونصيرِ المستضعَفين، الذي لا يُخلف الميعاد، وبيده أقدارُ العباد.

دلالةُ التَّعبير بالإيراث مادَّةً وصيغةً:

أصلُ الإرث: صيرورةُ شيءٍ ما كان لقومٍ إلى آخرين[1]، أو هو: حَوزُ الإنسانِ ما كان يملِكُه آخرُ بعد موتِ هذا الآخر[2]، فالوراثةُ والإرثُ: انتقالُ قُنيةٍ إليك عن غيركَ مِن غير عَقدٍ، ولا ما يجري مجرى العقد[3].

وقد أوثِر التَّعبيرُ بالإيراث للدَّلالة على التَّملُّك في قوله تعالى: ﴿أَوۡرَثۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ الوارثين لم يتملَّكوا تلك الجَنّاتِ والعيونَ والكنوزَ بالفعل بمجرَّد خروجِ فرعونَ وجنودِه منها، بل مُكِّنت لهم، فالمعنى: مكَّنّا تلك الجَنّاتِ والعيونَ والكنوزَ والمقامَ الكريمَ إيّاهم على طريقة مال المورِّث للوارث؛ لأنَّ الوارث ينتقِل المالُ لملكه بمجرَّد موتِ مورِّثه، لا بقبضِه للمال بالفعل، فشابهَت صورةَ التَّمكُّن للجَنّات والعيون والكنوز بمجرَّد إخراج فرعونَ وجنودِه منها، دون تملُّكٍ لها بالفعل، بصورة تمكُّنِ الوارثَ مِن مال مورِّثه بمُجَرَّد موته، وإن لم تكن يدُه على ذلك المال بالفعل؛ كأنَّهم ملكوها مِن حين خروجِ أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسَلَّموها[4].

وقيل: المراد مِن إيراثها إيّاهم: تمكينُهم مِنَ التَّصرُّف فيها، ولا يتوقَّف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أوَّلًا[5].

وقد عُبِّر فيها بالماضي مسندًا إلى نون العظمة؛ لإفادة معنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ورث).

(2) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورث).

(3) الراغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ورث).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 133.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 122.

التَّحقُّق مع بيان عظمة الفعل، وأنَّه لا يَقدِر عليه إلّا عظيم، وهو اللّه ﷻ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿قَوۡمًا﴾ ودلالةُ وصفهِ بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

أصرّوا أن يكونوا متكبِّرين؛ فانتزع سبحانه ملكَهُم، وأورثهُ قومًا آخرين

جاء التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿قَوۡمًا﴾ للتَّعظيم؛ لأنَّهم كانوا ذوي قوَّةٍ في القِيام على ما يحاولونه[1].

وقد يكون التَّنكيرُ لعدم إرادة التَّعيين، بدلالة وصفِه بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾، فليس المراد تعيينَ الورثة، بل المراد بيانُ انتقال الملك مِن أيدي المهلَكين إلى غيرهم بغضِّ النَّظر عن تحديد هؤلاءِ الورثةِ المنقولِ إليهم؛ فمجرَّدُ انتقال الملك يوحي بالحسرة على المنقول منهم، والاعتبارِ بحالهم.

ووصفَ الذين ورثوهُم بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾؛ لأنَّهم ليسوا منهم في شيءٍ مِن قرابةٍ ولا دينٍ ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل - على أحد الأقوال -: كانوا متسخِّرين مستَعْبَدين في أيديهم، فأهلكهم اللّه على أيديهم، وأورثهم مُلْكَهم وديارَهم[2].

وقد يكون الوارثون هم أبناءَ أولئك المغرَقين، وسُمّوا ﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾؛ لأنَّ آباءَهم كانوا على حالٍ مِنَ الضَّلال، بحيثُ لا يكادُ يجمعُهم بأبنائهم أيُّ وجهٍ مِن وجوه الشَّبه، فمهما ورثَ أبناؤهم مِن بعدهم مِنَ الكفر والضَّلال، فإنَّ المسافة بينهم وبين أبنائهم ستظلُّ دائمًا بعيدةً؛ لأنَّ آباءَهم قد بلغوا في هذا الضَّلال غايةً لا يبلغها أحد[3].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾:

الفاء للتَّفريع؛ للزِّيادة مِنَ التَّوبيخ والتَّقريع

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ للتَّفريع على قوله سبحانه: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ﴾ إلى قوله ﷻ:

(1) الخطيب الشربيني، السِّراج المنير: 3/ 585.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 122.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 199.

﴿قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾، فإنَّ ذلك كلَّه يتضمَّن أنَّهم هلكوا وانقرضوا؛ أي: فما كان مَهْلِكُهُم إلّا كَمَهْلِكِ غيرِهم، ولم يكن حدَثًا عظيمًا كما كانوا يحسبون ويحسبُ قومُهم، وهذا الكلامُ مَسوقٌ مساقَ التَّحقيرِ لهم[1].

سرُّ إيثارِ النَّفي بـ﴿فَمَا بَكَتۡ﴾:

هـــلاكُ أهــلِ الإجـرامِ لا يؤثِّر في شيءٍ مِـنَ الأجرامِ

أوثِرَ النَّفيُ بـ﴿فَمَا بَكَتۡ﴾ دون (لم تبكِ) مِن حيث إنَّ الماضي المنفيَّ بـ(ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريبِ مِنَ الحال، وأمّا (لم) فليست مقيَّدةً بزمنٍ مِن أزمنة المضيِّ، وهذا هو المناسبُ لسياق الآيات هنا.

كما أنَّ (ما) آكدُ في النَّفي مِن (لم)؛ وذلك أنَّها تقعُ جوابًا للقَسَم بخلاف (لم).

فكأنَّ سائلًا سأل: أما بَكاهُم أحدٌ؟! ألم تَبكِهِم منازلُهم التي فارقوها؟ فيأتيهِ الجواب: بـ(لا)، فيحصلُ منه نوعُ تردُّدٍ أو شكٍّ لدى السّائل، فيؤكَّدُ له الكلامُ بالقَسَم: (واللّهِ ما بكت عليهم السَّماء ولا الأرض!)، فكثيرًا ما تكون (ما) ردًّا على كلامٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلةَ.

هذا ... وثَمَّ فرقٌ بين دخول (ما) على الماضي، ودخول (لم) على المضارع مِن ناحيةٍ أخرى، وهي أنَّ الماضيَ يدلُّ على أنَّ الأمر قدِ انقضى، وأمّا المضارعَ فإنَّه قد يدلُّ على التَّكرار والتَّجدُّد والتَّطاول، فقولُنا: (كتب) يدلُّ على انتهاء الحدثِ وانقضائِه، وقولُنا (يكتب) يدلُّ على تجدُّد الحدثِ واستمرارِه، فإذا دَخَلَت (ما) على الماضي دلَّ على انتفاء الحدثِ بصيغةِ المُضيِّ، وإذا دخلت (لم) على المضارع دلَّ على انتفاءِ الحدثِ في المُضيِّ، لكن بصيغةِ التَّجدُّد والاستمرار؛ فدخولُ (لم) يدلُّ على أنَّ الحدثَ لم يحصل في الماضي على تطاول المدَّة واستمرارها[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 303.
(2) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 193 - 195.

وهذا الوجه الأخير أنسبُ في باب التَّعجُّب ممَّن لم تبكِه السَّماءُ ولا الأرضُ على طول المدَّة واستمرارها إذا كان ممَّن يستحقُّ أن يُرثَى، أمّا مع قوم فرعونَ فلا عجَبَ في أنَّ السَّماء والأرضَ لم تبكياهُم، فاكتُفِي فيه بنفي الفعل في زمن المُضيِّ فقط.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾:

الأصلُ في معنى (على) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلُّ على ذلك، فهي منَ العُلوِّ[1].

وفي البكاء على الميّت يقال: بكيتُه وبكيتُ عليه بمعنًى واحد: إذا بكيت عليه[2].

وهنا يُتصوَّر الميِّتُ صريعًا ممدَّدًا على فراشه أو دفينًا في قبره، والحيُّ جالسًا في مستوًى أعلى منه يبكي عليه، فكأنَّه يجلِّله بدموعه ويصبُّها فوقه، ويغمرُه بها، فمعنى الاستعلاء ملحوظٌ فيه.

وهو أيضًا ملحوظٌ في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فالسَّماءُ هي كلُّ ما علا، وأمّا الأرض فإنَّهم ماتوا غرقًا في البحر، فكانت اليابسةُ كذلك فوقهم.

مِـن طـاعـة السَّماء والأرض لـربِّ العالمين؛ أن لا تبكيا على القوم الكافرين

بلاغةُ الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ؛ حيث شبَّه السَّماء والأرض بمَن يصحُّ منه الاكتراث، ثمَّ حذفَ المشبَّه به، وهو مَن يصحُّ منه الاكتراثُ، واستعار له شيئًا مِن لوازمه، وهو البُكاء، وجعله بعضُهم مجازًا مرسلًا عنِ الاكتراث بهلاك الهالك، والعلاقةُ السَّببيَّةُ، حيث ذكرَ المسبَّب، وأراد السَّبب، فإنَّ الاكتراثَ المذكورَ سببٌ يؤدِّي إلى البقاء عادةً[3].

هانت مصيبتُهم عـلى جـميـع الأشـياء؛ فما بكتهُم أرضٌ ولا سماء

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 47.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 122، والدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 676.

ويصحُّ أن تكون مكنيَّةً بلا تخييل، وإجراؤها يكون بتشبيه السَّماء والأرض بالإنسان الذي يبكي، ثمَّ حُذِف المشبَّهُ به، وأُتِي بشيءٍ مِن لوازمه، وهو البكاءُ على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

وقد كثُر في التَّعظيم لمهلكِ الشَّخص أن يُقال: بكت عليه السَّماءُ والأرض، وبكَتهُ الرِّيحُ ونحوُ ذلك، وقد كانت العرب تقول عند موت السَّيِّد منهم: بكت له السَّماء والأرض؛ أي: عمَّت مصيبتُه الأشياءَ حتَّى بكته الأرضُ والسَّماء، والرِّيحُ والبرق(1)؛ فأخبر سبحانه محذِّرًا قريشًا مِن هذه العاقبة الوخيمة أنَّ هؤلاء لم يتأثَّر بموتهم أحدٌ، ولم يحزن على فقدهم أحدٌ؛ فهم أهوَن مِن أن تبكيَهم أرضٌ أو أن تحزنَ لهلاكهم سماء!

معنى التَّعريفِ في ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾، ونكتةُ إفرادِهما:

لم تبكِ الهالكين أرضٌ ولا سماء، فقد كانوا لهما بمنزلة الدّاء

يصحُّ أن يكون التَّعريفُ في ﴿ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ للعهد؛ حيثُ المقصودُ بالسَّماء السَّقفُ الذي يظلِّل الأرض، والمقصودُ بالأرض المهادُ الذي يعيش فوقه الخلقُ، فتلك السَّماءُ التي أظلَّتهم، والأرضُ التي أقلَّتهم لم تبكِ واحدةٌ منهما عليهم حزنًا على فراقهم، فلم يُرفَع إلى السَّماء عملٌ لهم صالح، ولم تشهد بقعةٌ مِنَ الأرض على خير منهم.

ويصحُّ أن يكون التَّعريفُ فيهما للجنس، فكأنَّ كلَّ السَّماوات وكلَّ الأرضين لم تبكِ على هؤلاء الهالكين واحدةٌ منها! فما كان أهونَهم!

نكتةُ عطف الأرض على السَّماء بالواو مع إسقاط حرف النَّفي:

ذهبوا كما يذهبُ الوباء، يتنفَّس النّاس بعده أنفاسَ العافية والرَّجاء

في عطف الأرض على السَّماء بيانٌ لشمول السَّخطِ على هؤلاء المهلَكين فيما أحاط بهم مِنَ الكون، مِن فوقهم ومِن تحت أرجلهم!

وعدمُ تكرارِ حرف النَّفي أفاد اتِّحادَ سخط السَّماء والأرض

(1) القرطبي: 16/ 139، والآلوسي، روح المعاني 13/ 122.

وعدمِ اكتراثهما بهؤلاء المبعَدين، لأنَّه لو أُعيدَ حرفُ النَّفي فقيل: (ولا الأرض) لربَّما تُوُهِّم أنَّ للسَّماء سخطًا مختلفًا عن سخط الأرض، وأنَّ كلًّا منهما استقلَّت بسخطها، لكن لمّا عُطِفت الأرضُ على السَّماء مع عدم تَكرار حرف النَّفي أفاد ذلك اتِّحادَ السَّخَطَين وكأنَّهما شيءٌ واحدٌ لا يتبعَّض.

وفي هذا دلالةٌ على أنَّ المخلوقاتِ العظيمةَ تسبِّح اللّٰه تعالى وتعظِّمُه بقدر ما هي عليه مِنَ العظمة، ومِن تعظيمها لربِّها وخالقِها أنَّها تلينُ للطّائعين، وتمورُ بالعاصين؛ غضبًا لانتهاك حرُمات ربِّ العالمين!

نكتةُ عطف قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ على سابقه:

وإذا لم يبكِ السَّكنُ فما ظنُّك بالسّاكن؟!

عُطف قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ على سابقه؛ لأنَّه كالتَّتميم لعدم الاكتراث بالمذكورين؛ ذلك أنَّ العادة جرت بأنَّ مَن قُضِي عليه بالموت قد يُستَمهَلُ في بعض الأوقات لمثل وصيَّةٍ وقضاءِ حاجةٍ قبل أن يُقتَل، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ مخبِرًا أنَّ قوم فرعونَ كانوا دون ذلك، والمقصودُ مِن هذا تحذيرُ مَن بَعدَهم مِنَ القرشيِّين الذين كفروا بالنَّبيِّ ﷺ وآذَوه[1].

وحاصلُ المعنى: "أنَّ هؤلاء المغرَقين الذين كانوا ملءَ السَّمع والبصر، وكانوا يُذِلّونَ غيرَهم، وكانوا يملكون الجنّاتِ والعيونَ، هؤلاء الطُّغاةُ لم يحزن لهلاكهم أحدٌ مِن أهل السَّماوات أو أهل الأرض، ولم يؤخَّر عذابُهم لوقتٍ آخرَ في الدُّنيا أو في الآخرة، بل نزل بهم الغرقُ والدَّمارُ بدون تأخيرٍ أو تسويف.

فالمقصودُ مِنَ الآية الكريمة بيانُ هَوانِ منزلة هؤلاء المغرَقين، وتفاهةِ شأنهم، وعدمِ أسفِ أحدٍ على غرقهم؛ لأنَّهم كانوا ممقوتين مِن كلِّ عاقل"[2]!

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 30.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 128.

دلالةُ التَّعبير بالكون الماضي ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ دون (وما أُنظِروا):

التَّعبيرُ بالكون الماضي لإفادة الاستحقاق، وبيانِ ما تلبَّسوا به مِنَ الشِّقاق

التَّعبيرُ بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ يفيد المبالغةَ في تأكيد نفي الإنظارِ عنهم.

وقد زاد هذا التَّأكيدَ رسوخًا التَّعبيرُ باسم المفعول ﴿مُنظَرِينَ﴾؛ فقد كانوا عريقين في فعلِ ما اسْتَحقّوا به المعاجلةَ بالعقوبة، وفيه كذلك دلالةٌ على أنَّ تلك العقوبةَ قد كُتِبت لهم في اللَّوح المحفوظ، وأنَّهم - في مدَّة تنعُّمهم وإن طالت - لم يكونوا مُعامَلين معامَلةَ المُنظَر المُمهَل حتَّى يظنَّ ظانٌّ أنَّ عقوبتهم قد تأخَّرت! فبقاءٌ في نعيمٍ يعقبُه خلود في جحيمٍ لا يعدُّ بقاءً وإن طال!

وليس في التَّعبير بـ(ما أُنظِروا) مِنَ التَّأكيد وبيانِ الاستحقاقِ للعقاب ما في ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

نكتةُ حذف معمول الإنظار:

حسَنٌ حذفُ ما يُعلَم مِنَ المقام، وما دلَّ عليه سياقُ الكلام

حُذف معمولُ الإنظار في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ لأنَّه مفهومٌ مِن سياق الكلام، إذِ المعنى: وما كان فرعونُ وقومُه لمّا جاء وقتُ هلاكهم مُمْهَلين ولا مؤَجَّلين إلى وقتٍ آخر أو إلى يوم القيامة، بل عُجِّل لهم عذابُ الاستئصال في الدُّنيا لشدَّة جُرمهم[1].

وقد أفاد هذا الحذفُ أيضًا محسِّنَ الرِّعاية على الفاصلة، فكان حُسنًا على حُسن!

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّركُ والتَّخليفُ:

التَّركُ أعَمُّ من التَّخليف

الفرقُ بينهما أنَّ التَّخليفَ هو تركُ الشَّيء في الخَلَف[2]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ التَّركَ أعَمُّ منه، ولمّا كان ما تركه فرعونُ وجنودُه مِنَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 123، ومجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 9/ 857.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خلف).

النَّعيم ليس خلفَهم فقط بل محيطًا بهم من كلِّ جانب، أوثِرَ في هذه الآية لفظُ التَّرك دون التَّخليف.

ويُضاف إلى ما سبقَ أنَّ تخليفَ الشَّيء يوحي بأنَّ الشَّخصَ تركَهُ خَلْفَه ليرثَه مَن يُريدهم أن يَرثوه؛ فأوثِرَ في هذه الآية لفظُ التَّرك الذي يكون بالقَهْر والاضطرار[1]، وأَوْرَثَ اللّهُ تلك النِّعمَ بني إسرائيل؛ قال اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾، وهم ليسوا من فرعونَ وجنودِه في شيءٍ مِن قرابةٍ ولا دينٍ ولا ولاء، وكانوا مستعبَدين في أيديهم، فأهلكَ اللّهُ فرعونَ وجنودَه، وأورثَهم مُلكَهم وديارَهم[2].

الجنّاتُ والحدائقُ والبساتين والحوائط:

في الجَنّات سَترٌ بكثافة أشجارها، وللحديقة حائطٌ، وفي البُستان أخذُ رائحة

الفرق بين الثَّلاثة أنَّ الجَنّاتِ هي الحدائقُ ذاتُ الشَّجر والنَّخيل والعِنَب، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تستر بأشجارها وورقها ما تحتها مِنَ الأرض لكثافتهما؛ فهي مأخوذةٌ مِنَ الجَنِّ: وهو السَّتر[3].

أمّا الحديقة فهي قطعةُ الأرض المستديرةُ ذاتُ النَّخل والماء والحائط، وسُمِّيَت بذلك تشبيهًا بحدَقة العَين في الهيئةِ وجَمعِها الماءَ[4]، وكلُّ بُستانٍ كان عليه حائطٌ فهو حديقة، وما لَم يكن عليه حائط لَم يُقَلْ له حديقة[5]؛ فإنَّ جَذرَ الكلمة أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّيء يحيط بشيء، يقال: حدق القومُ بالرَّجلِ وأحدَقوا به[6].

وأمّا البستان فهو لفظٌ فارسيٌّ معرَّبٌ[7]، ولَم يَرِد لفظُ البُستان في القرآن الكريم[8]، وهو معَرَّب (بوسِتان)؛ فـ (بو) بمعنى:

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ترك).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 276.
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، التاج: (جنن)، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 281، و282.
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حدق).
(5) ابن منظور، اللسان: (حدق).
(6) ابن فارس، المقاييس: (حدق).
(7) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 501، والزبيدي، التاج: (بستن).
(8) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 281، و282.

الرائحة، و(سِتان) بالكسر: الجاذبُ[1]، ومعناه بحسب الأصل: آخِذُ الرّائحة[2]؛ فيتبيَّن من ذلك أنَّ الحديقةَ سُمِّيَت بالبستان لأنَّها أرضٌ جاذِبةٌ رائحةَ الأشجار أو آخِذتُها.

المقامُ والمنزِل والمستقرّ:

فـــي المــقــام انــتـصـابٌ، وفي المَـنـزِل هُـبـوطٌ، وفي المستَقَرِّ ثَبات

الفرقُ بين الثَّلاثة أنَّ المقامَ مأخوذٌ مِن: قام يقوم؛ أي: انتصَبَ[3]، والمعنى المحوريُّ لجذر المقام: انتصابُ الشَّيء إلى أعلى ثابتًا؛ كقامةِ الإنسان[4].

أمّا المَنزِل فجذرُهُ أصلٌ يدلُّ على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه[5]، والنُّزولُ في الأصل: انحطاطٌ من علوٍّ[6]؛ يقال: نزلَ عن دابَّته، ونزل في مكان كذا: حطَّ رَحْلَه فيه[7]، وأمّا المستقَرُّ ففيه معنى الثَّبات[8]؛ يقال: قرَّ في مكانه يَقَرُّ قَرارًا، إذا ثبتَ ثُبوتًا جامدًا[9].

---

(1) الزبيدي، التاج: (بستن).
(2) الزبيدي، التاج: (بست).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (قوم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قوم).
(5) ابن فارس، المقاييس: (نزل).
(6) الراغب، المفردات: (نزل).
(7) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (نزل).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرر).
(9) الراغب، المفردات: (قرر).

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ٣٣﴾ [الدُّخان: 30 - 33]

۞ مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا ذكر تعالى إهلاكَ فرعونَ وقومِه؛ ذكر إحسانَه لبني إسرائيل، حيث إنَّ رفع الضَّرر مقدَّمٌ على إيصال النَّفع، ولمّا كان يَبلو بالمِحنة؛ أخبر أنَّه يبتلي بالنِّعمة؛ ليمتازَ الصِّدّيق مِن الزِّنديق[1].

لمّا ابتلاهُم سبحانه بالمحنة ابتلاهُم بالنِّعمة؛ ليَمتازَ الصِّدِّيق مِنَ الزِّنديق

۞ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿عَالِيٗا﴾: أصلُ (علو) يدلُّ على ارتفاعِ الشَّيءِ فوق شيءٍ تحتَه، وسُموِّه عليه[2]، فالعلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع، وقد علا يعلو عُلوًّا، فهو عالٍ، وعَلِيَ يَعلَى علاءً، فهو عَلِيٌّ، فـ(عَلا) بالفتح في الأمكنة والأجسام أكثرُ، و(عَلِيَ) بالكسر في الشَّرف[3].

و"العُلوُّ للّه ﷻ عن كلِّ شيء، فهو أعلى وأعظَمُ ممّا يُثنَى عليه"، و"العُلوُّ: العظمةُ والتَّجبُّر"[4]، والعَلِيُّ: هو الرَّفيعُ القَدر، والشَّريف مِن (عَلِيَ)، وإذا وُصِف اللّه تعالى به في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحجُّ: 62]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النِّساء: 34]؛ فمعناه: يعلو أن يحيطَ به وصفُ الواصفين، بل عِلمُ العارفين، فهو العالي الذي ليسَ فوقَه شيءٌ، وعلى ذلك يقال: تَعالَى[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 661، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 404، وابن عادل، اللباب: 17/ 324 - 325، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 129.

(2) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علو).

(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).

(4) الخليل، العين: (علو).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (علو).

ومنه العُلوُّ بمعنى التَّكبُّر في الأرض، يقال: علا في الأرض علوًّا: تكبَّرَ وطَغَى، وعلوتُ الرَّجُل: غلبتُه، وعلوتُه بالسَّيف: ضربتُه، وعلا بالأمر: اضطلعَ به واستقلَّ[1]، وقولُه تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ أي: جبّارًا مِنَ المشركين[2].

المَعنى الإجماليُّ:

النَّجاةُ مِنَ العذاب نعمة، والاصطفاءُ مِنَ اللهِ منحة، والإعطاءُ منه رحمة

يمتنُّ الحقُّ سبحانه وتعالى في هذه الآيات على بني إسرائيل؛ إذ أنقذَهم مِنَ العذاب المذلِّ لهم بقتل أبنائِهم واستخدام نسائِهم وبناتهم في الأعمال الشّاقَّة بأمرٍ مِنَ الطّاغية فرعونَ؛ لأنَّه كان جبّارًا مستعلِيًا مستكبِرًا على ربِّه، كما كان مِنَ المتجاوزين حدَّهم في العلوِّ والإسراف، ويبيِّنُ سبحانه أيضًا جانبًا مِن جوانب إكرامِه لبني إسرائيل؛ وذلك باصطفائِه لهُم، لعلمِه سبحانه بهِم وباستحقاقِهم لذلك الفضلِ على عالَمِي زمانهم آنذاك، ثمَّ إعطائِهم مِنَ المعجزات الدّالَّةِ على صِدق نبيِّه موسى عليه السلام وغيره مِنَ الأنبياء ما فيه اختبارٌ ظاهرٌ وامتحانٌ واضحٌ لَمن تأمَّلَهُ واهتدى إليه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

دورانُ الواو بين العطف والاستئناف؛ تبيانًا لسنَّة الله تعالى في الاستخلاف

يصحُّ أن تكون الواو عاطفةً، حيث عطفتْ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على الكلام المحذوفِ الذي دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ﴾ الذي تقديرُه: فأغرقناهم، ونجَّينا بني إسرائيل، والمقصودُ مِن ذِكر هذا: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى ينجِّي الذين آمنوا بمحمَّد صلى الله عليه وسلم مِن عذابِ أهلِ الشِّرك بمكَّة، كما نجَّى الذين اتَّبعوا موسى عليه السلام مِن عذابِ فرعون[4].

(1) الجوهري، الصحاح: (علو).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 142.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 45 - 47، ومجمع الملك فهد، التفسير الميسر، ص: 497.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 304.

ويصحُّ أن تكون (الواو) استئنافيَّةً[1]، وعليه يكون قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ كلامًا مستأنَفًا مَسوقًا لتسلية النَّبيِّ ﷺ عمّا كان يُكابدُه مِن قريش، وإثلاج صدره ﷺ بأنَّ اللّه تعالى قادرٌ على إنقاذِه وإنقاذِ أتباعه مِن أذاهُم كما نجَّى بني إسرائيل مِنَ القِبط، وهو أمرٌ كان بحسب الظّاهر أمرًا بعيدَ الوقوع[2].

نكتةُ تصدير الآية بالقسَم:

تـأكـيـدُ تـمـامِ الإهـــــلاك؛ إظـهـارًا لنعمته عـلـى المؤمـنـين، وتهديدًا ووعيدًا للكافرين

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جوابٌ للقَسَم المحذوفِ و(قَدْ) حرفُ تحقيق[3]؛ أي: واللّهِ لقد نجَّيْنا - بفضلنا ورحمتنا - بني إسرائيلَ مِنَ العذاب المهين، الذي كان يُنزله بهم أعداؤهم؛ مِنَ الإذلال والإهانة؛ كقتلِهم للذُّكور، واستبقائِهم للإناث، وإرهاقِهم في الأعمال الشّاقَّة[4].

وقد صُدِّرت الآية بالقسَم وحرفِ التَّحقيق؛ لتأكيدِ تمامِ الإهلاكِ للظّالمين الذي يحمل معه تمامَ الإنجاءِ للمظلومين[5].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ﴿نَجَّيۡنَا﴾، ودلالة مجيئه ماضيًا مسندًا لنون العظَمة:

في التَّفعيل إلماحٌ إلى الزَّمن، وفي التَّعبير بالمضيِّ إفادةٌ للتَّحقيق، وفــي الـنّـون تعظيم

تتَّفقُ صيغةُ (فَعَّل)، و(أفعَلَ) في أنَّ كلتيهما تأتي بمعانٍ، منها: التَّعديةُ، غير أنَّه يُلمَحُ أنَّ التَّعدية في (فَعَّل) تتطلَّبُ زمنًا غالبًا، بخلاف التَّعدية في (أفْعَلَ)، ومثالُ ذلك: الفرقُ بين (علَّمتُه)، و(أعلمتُه)، فالأولى تتطلَّب زمنًا حتى يحصلَ التَّعليمُ، أمّا الثّانية فلا تكاد تستغرقُ إلّا زمنَ النُّطقِ بالمعلومة.

ومِن هنا أوثر التَّعبيرُ بـ﴿نَجَّيۡنَا﴾ دون (أنجَيْنا) في قول اللّه تعالى:

---

(1) محمود صافي، الجدول: 13/ 128.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 130.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 130.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 129.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 304.

﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾؛ حيث إنَّ الفعل (نجَّى) يدلُّ على أنَّ النَّجاة مِن عذاب فرعونَ وقومِه استغرقت زمنًا[1].

وهذا هو الموافقُ لسياق الآيات، حيث بدأت رحلةُ النَّجاة بدايةً مِن دعوة موسى عليه السلام إذ دعا ربَّه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾، فجاءت إجابةُ اللّه تعالى بالإنجاء، وتقديرُه ﷻ برفع البلاء، حيث أمرَ نبيَّه موسى عليه السلام بالإسراء بالمؤمنين ليلًا جهةَ الشَّرق، وأن يشُقَّ البحرَ لمّا اتَّبعه فرعونُ بجنوده، وأن يعبُرَه ببني إسرائيل؛ وكلُّ هذا يتطلَّب زمنًا.

ثمَّ إنَّ الآياتِ ذكرت ما ترَكَهُ فرعونُ وقومُه: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

فكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ النَّجاة استغرقت وقتًا، فقد كانت رحلةً مخوفةً، رحلةً خرجَ فيها بنو إسرائيل مِن مصر؛ فلذلك أوثِرَت صيغةُ (فعَّل)، فعُبِّر بـ﴿نَجَّيۡنَا﴾ دون (أنجينا) للدَّلالة على ذلك.

ثمَّ إنَّ استعمالَ هذه الصِّيغة يبيِّن مدى تحمُّلِ مؤمني بني إسرائيلَ وصبرِهم على بلائهم، ممّا جعلهم أهلًا للجزاء الذي جاء بيانُه في الآيات.

دلالةُ مجيء الفعل ﴿نَجَّيۡنَا﴾ ماضيًا مسندًا إلى نون العظَمة:

وعدُ الله تعالى متحقِّقٌ لعباده المؤمنين

جاء الفعلُ ﴿نَجَّيۡنَا﴾ ماضيًا لإفادة التَّحقُّق والوقوع، وأُسند إلى نون العظَمة مِن حيث إنَّ حدَث التَّنجيةِ كان عظيمًا، وقد تمَّ بآيةٍ عظيمةٍ هي شقُّ البحر، وإنجاءُ قوم وإغراقُ آخرين، وإظهارُ الحقِّ وإزهاقُ الباطل، فكلُّ هذا مِنَ العظَمة بحيث لا يقدرُ عليه إلّا إلهٌ عظيمٌ، وهو اللّه ربُّ العالمين.

---

(1) الهلال، الثري الجامع: 10/ 432.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الظّاهر ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

عُبِّر بالاسم الظّاهر دفعًا للالتباس، وإلماحًا لامتداح المؤمنين مِنَ النّاس

جيء بالاسمِ الظّاهر دون الضَّمير في قوله تعالى: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ لئلّا يلتبسَ بالضَّمير الذي قبله، وهو ضميرُ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾، فلو جاء بعدها: (ولقد نجَّيناهم) لربَّما تُوُهِّم أنَّ هؤلاء عينُ أولئك، فعُبِّر بالظّاهر لدرء اللَّبس.

وفي ذِكر الاسم الظّاهر في سياق التَّنجيةِ إلماحٌ إلى الامتداح، وإشارةٌ إلى سنَّةِ ربِّ العالمين في إنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في الموضعين: ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾:

هلاكُ الطّاغية هو بدايةُ التَّنجية، والتَّرقِّي إلى الرُّتب العالية

الأصلُ في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية(1)، وقد أدَّت هذا المعنى هنا؛ فالمعنى: أنَّ بداية إنجاءِ بني إسرائيل كانت بهلاك الطّاغية؛ ثُمَّ بتخليصِهم مِن استعبادِه وقتلِه أبناءَهم، واستحيائه نساءَهم.

فقولُه تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ جعل فرعونَ وكأنَّه مبتَدَأ التَّنجية، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ فرعونَ وعذابَه كان محيطًا بالقوم إحاطةَ السّور، وأنَّ بداية خروجِهم مِن هذا العذاب كان مِن بوّابة فرعونَ التي كُسِرت بهلاكه وهلاكِ مَنِ استخفَّهم فأطاعوه!

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ ووصفه بـ﴿ٱلۡمُهِينِ﴾:

التَّعريفُ للتَّذكير بجزيل الإنعام، والتَّحذير مِن مغبَّة الانتقام

التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ للعهد؛ حيث ذكرَ سبحانه في الآيات التي سبقت هذه الآيةَ الكريمة أنَّ فرعونَ يستعبدُ بني إسرائيل، فالعذابُ المُهين هو: ذبحُ الأبناء، واستخدامُ النِّساء، والتَّعبُ في العمل، والتَّسخيرُ في المِهَن؛ كالبنيان والحَفْر وغيره(2)؛ فلذلك وُصِف العذابُ بأنَّه مُهينٌ؛ لأنَّه عذابٌ فيه إذلالٌ شديدٌ لهم(3).

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 112، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 74، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 404.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 142، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 124، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 304.

علَّةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ عن سابقه:

الفصلُ لبيانِ بشاعةِ الإجرامِ، واستحقاقِ ما وقع مِنَ الانتقام

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ عن سابقه لِما بينهما مِن كمال الاتِّصال؛ حيث إنَّ الأظهَر أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ بدلًا مطابقًا لقوله: ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾[1]؛ فكأنَّ فرعونَ في نفسِه كان عذابًا مُهينًا لإفراطِه في تعذيبِهم وإهانتِهم[2].

نكتةُ تَكرار ﴿مِن﴾ في ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾:

كُرِّرت (مِن) لإفادةِ التَّأكيد، بيانًا لِما كانوا يُسامون مِنَ العذابِ الشَّديد

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن فِرۡعَوۡنَۚ﴾ هنا مُعدِّية لـ﴿نَجَّيۡنَا﴾؛ لأنَّ الحرفَ الدّاخل على المبدَل منه يجوز أن يدخل على البَدَل للتَّأكيد، ويَحسُن ذلك في نُكتٍ يقتضيها المقامُ ومنه ما ورد في هذا السِّياق، فأُظْهِرت ﴿مِن﴾ لخفاء كونِ اسم فرعونَ بدلًا مِنَ العذاب؛ تنبيهًا على قصد التَّهويل لأمر فرعونَ في جعلِ اسمِه نفسَ العذابِ المُهين؛ أي: في حالِ كونه صادرًا مِن فرعونَ[3].

نكتةُ التَّعبير بالاسم العلَم: ﴿فِرۡعَوۡنَۚ﴾:

التَّعبيرُ بالعَلَميَّة للتَّقبيح، وجعلِه مثلًا لفرعون الأُمَّة المحمَّديَّة

عُبِّر بالاسم العلَم ﴿فِرۡعَوۡنَۚ﴾ استحضارًا له في الذِّهن، ولِجعْلِ اسمِ فرعونَ نفسِه هو العذابَ المهينَ مبالغةً، وتهويلًا لأمره، وبيانًا لعُتوِّه وشَيطنتِه[4]، وأيضًا لجعلِ طغيانِ فرعونَ وإسرافِه في الشَّرِّ مثلًا لطُغيان أبي جهل - فرعونَ أمَّةِ الإسلام - وملئِه.

علَّةُ فصلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

الفصلُ للاستئناف، بيانًا لِما للخبيث مِن قبيحِ الأوصاف

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّر، وهو: لماذا كان فرعونُ عذابًا مهينًا؟ وهذا الاستئنافُ لبيان التَّهويل الذي أفادَهُ جَعْلُ اسمِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 304.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 278، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 661.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 305.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 404، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 305.

فرعونَ بدلًا مِنَ العذاب المهين، والعالي: المتكبِّر العظيم في النّاس، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4][1].

نكتةُ توكيدِ جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا﴾ بـ(إنَّ):

جاء التَّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا﴾ بـ(إنَّ)؛ حيث إنَّه لمّا قيل إنَّ فرعونَ نفسَه عذابٌ مُهينٌ، وكأنَّه خرجَ مِن جنس النّاس إلى جنسٍ آخر - وهذا غريبٌ -؛ احتاجَ السّامعُ إلى ما يؤكِّد له غرابةَ أن يكون إنسانٌ ما عذابًا مهينًا، وليس لحمًا ولا دمًا فجاءت هذه الجملة تبيِّنُ كيف يتحوَّلُ الإنسانُ ويصيرُ عذابًا مُهينًا[2]!

تأكيدُ أنَّه مِن شدَّة الاستعلاء صار هو في نفسِه الجحيمَ والعَناء

نكتةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي ﴿كَانَ عَالِيٗا﴾:

جاء التَّعبيرُ بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿كَانَ عَالِيٗا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ خبرَها صار جزءًا مِن ماهيَّتها، وأنَّ هذا الخبر ليس كالأخبار التي يُخبَرُ بها عنِ النّاس[3]، ممّا يفيدُ أنَّ الاستعلاء قد تمكَّن مِن هذا الطّاغية العاتي المتجبِّر منذ زمانٍ مضَى، فخالَطَ قلبَه ومازَجَ روحَه ونفسَه، فصار عريقًا في جِبِلَّته[4].

عُبِّرَ بالكون الماضي لإفادة الرُّسوخِ في الطُّغيان، والعراقةِ في الكفران

دلالةُ تنكير ﴿عَالِيٗا﴾:

قولُه تعالى: ﴿عَالِيٗا﴾ ليس المرادُ به علوَّ المدحِ بل هو علوٌّ في الإسراف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4]، ومن هذا العلوِّ: التَّرفُّعُ عن عبادة اللّه سبحانه[5]؛ فلذلك جاء التَّنكيرُ في كلمة ﴿عَالِيٗا﴾ للدَّلالة على شدَّة طغيانه واستكباره، حيث إنَّ فرعونَ كان كبيرًا في قومه، رفيعَ الطَّبقة، بليغًا في إسرافه[6]؛ ومِن إسرافهِ أنَّه - على حقارتهِ وخِسَّته - ادَّعَى الإلهيَّة[7]! فما أحقَرَهُ وما أذلَّهُ!

التَّنكيرُ للتَّحقير لبيان مَنِ ارتكبَ الوِزرَ والجُرمَ الكبير

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 305.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 629 - 630.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 629 - 630.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 32.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 142.
(6) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 278.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 661.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها في ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

لم يكنِ الهالكَ وحدَهُ في الإسراف، لكنَّه كان عاليًا في هذا الاتِّصاف

الأصلُ في معنى ﴿مِّنَ﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]، وقد أفادت هاهنا معنى التَّبعيض، وهو راجعٌ إلى الابتداء أيضًا؛ و﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أشدُّ مبالغةً في اتِّصافه بالإسراف من أن يقال: مسرفًا[2]، فهو قدِ اشتهر بشدَّةِ علوِّهِ وتكبُّرِه حتى أصبحَ معدودًا في تلكم الزُّمرةِ المذمومةِ منَ المسرفين المتكبِّرين[3]، وفي هذا بيانٌ لشدَّة بطشِهِ وطُغيانِه لعَنَهُ اللّه، فإذا لم يكُن وحدَه المسرِفَ، فإنَّه كان عاليَ الدَّرجةِ في طبقةِ المسرفين، بل إنَّه مِن شدَّة إسرافِه ادَّعَى الإلهيَّةَ على حقارَتِه وخِسَّته!

معنى التَّعريفِ في ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

التَّعريفُ للجنس بيانًا لِما كان عليه الهالِكُ مِنَ العتوِّ والعناد، والغلبةِ على العباد

جاء التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ للجِنس؛ أي أنَّ فرعونَ كان واحدًا ممَّن عُرِفوا بالإسراف وشُهِروا به، لكنَّه زادَ عليهم أنَّه كان عاليًا، وكان التَّعالي جزءًا من ذات نفسه، وقد جاء التَّعبيرُ بالجنس لبيان أنَّه كان مبالغًا في العتوِّ والعناد، والغلبةِ على العباد أقصى الغاية[4].

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾:

الواو عاطفةٌ للتَّشريك بين الجملتين، إظهارًا لإفاضة النِّعم والتَّكريم

الواو عاطفةٌ حيث عطفت جملةَ: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ على ما قبْلها؛ للتَّشريك بين الجملتَين؛ فبناءُ الجملتين بناءٌ واحدٌ[5].

ويُلاحَظ أنَّ الجملة الثّانية مِن تمام معنى الجملةِ الأولى؛ فالأولى نجاةٌ مِن عذاب، والثّانية مَنٌّ وعطاءٌ؛ وكأنَّه عِوضٌ عنِ الذي كان؛

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 305.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/ 263.
(4) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 630.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 130، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 129.

ففي الأولى إزاحةٌ للعذاب والهمِّ والغمِّ، وفي الثّانية إفاضةٌ للنِّعم والتَّكريم والتَّقدير، وأنَّ اللّه سبحانه قابَلَ علوَّ فرعونَ عليهم بأنَّه سبحانه اختارَهُم على العالمين[1].

نكتةُ تَكرار القسَم الذي أنبأتْ عنه لام في ﴿وَلَقَدِ﴾:

التَّكرارُ لتأكيد الاعتدادِ بالمِنَن الجليلة، والإيماءِ إلى الأُمَّة الفضيلة

جاء تَكرارُ القسَم في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾؛ للاعتداد بهذه المنن الجليلةِ التي منَّ بها سبحانه على بني إسرائيل[2].

وفي هذا التَّأكيد "إشارةٌ إلى أنَّ اللّه تعالى قدِ اختار الذين آمنوا بمحمَّد ﷺ على أُمَم عصرِهم كما اختارَ الذين آمنوا بموسى عليه السلام على أُمَم عصرِهم، وأنَّه عالمٌ بأنَّ أمثالهم أهلٌ لأَنْ يختارَهم اللّه، والمقصود: التَّنويهُ بالمؤمنين بالرُّسل وأنَّ ذلك يقتضي أن ينصرَهُم اللّه تعالى على أعدائهم"[3].

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾، ومجيئِه ماضيًا مسندًا إلى نون العظَمة:

اختارهم سبحانه ولم يكن لهم نظراءُ؛ فكانوا الأحقَّ بالرِّفعة والثَّناء

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ دون (اصطفيناهُم) لأنَّ مادَّة الاختيار تدورُ حولَ معاني المَيل إلى ما فيه خير، سواء كان خيرًا في نفسه، أو خيرًا عند مَن اختاره[4]، أمّا الاصطفاءُ فتدورُ مادَّتهُ حولَ معاني الخُلوصِ مِنَ الشَّوب والكدَر[5].

والاختيارُ هو أن تختارَ من غيرِ متشابهاتٍ؛ كأنْ أختارَ قلَمًا من بين ورقةٍ وكتابٍ وقلَم، أمّا الاصطفاءُ فهو أن أختارَ من بين أشياءَ متناظِرَةٍ متشابِهَةٍ، اصطفاءً من متناظرين[6]؛ ولذا جاء التَّعبيرُ بالاختيار هنا؛ فالمعنى أنَّه سبحانه اختارَ بني إسرائيل على عالَمي

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 631.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 631.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 305.
(4) ابن فارس، المقاييس، والراغب المفردات: (خير)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.
(5) ابن فارس، المقاييس، والراغب المفردات: (صفو).
(6) الهلال، الثريّ الجامع: 57/ 9.

زمانِهم بأنْ جعلَ فيهم الكتابَ والحِكْمةَ والنُّبوَّةَ والمُلْكَ؛ اختارَهُم سبحانه لِعلمِه بصُلوحِهم لذلك، وقيامِهم بشُكرِه[1].

وجيء بالفعل في صورةِ الماضي مسندًا إلى نون العظَمة؛ لإفادة تحقُّق الوقوع، مع بيانِ أنَّ هذا الاختيارَ كان بعِلمِ الله تعالى الواسعِ؛ ففيه الحكمةُ البالغة، والمنَّةُ العظيمة.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في الموضعين ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

تعالت حكمة الله؛ فما في اختياره من محاباة

الأصلُ في معنى ﴿عَلَىٰ﴾ أنَّه موضوع للدَّلالة على الاستعلاءِ حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظُها يدلُّ على ذلك، فهي من العُلوِّ[2].

وهي في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بهذا المعنى، ففي الموضع الأوَّل ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ تفيد تمام التَّمكُّن من هذا العِلم[3]؛ لتقطعَ السَّبيلَ على مَن يظنُّ أنَّه اختيارُ محاباةٍ أو مجاملةٍ، فاللهُ تعالى هو العليمُ الحكيم، يقضي بالحقِّ، ويحكمُ بالعدل؛ فاختيارُهُ سبحانه كان "اختيارًا مُستعليًا ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾"[4].

ومعنى الاستعلاء أيضًا بارزٌ في الموضع الثّاني ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[5]؛ ففيه بيانُ أثرِ هذا الاختيار الإلهيِّ الحكيم، الذي رفع القومَ المختارينَ فوقَ بقيَّة العالمين في زمانِهم، وفيه كذلك رفعةٌ لقيمةِ التَّوحيد؛ التي رفعَتْ أقوامًا لمّا التزَموا بها، ووضعَتْ آخرينَ أعرَضوا عنها!

دلالةُ تنكير ﴿عِلۡمٍ﴾:

التَّنكيرُ للتَّعظيم، بيانًا لعلم الله العظيم، وفضلِه الجسيم

الأظهرُ أنَّ التَّنكير في قوله: ﴿عِلۡمٍ﴾ يفيدُ معنى التَّعظيم؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ فيه معنًى متَّسِعٌ وجليل: لأنَّه صالحٌ لأنْ

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 13/ 329.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 384، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 497، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 47.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 390.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 33.
(5) الصاوي، حاشية على الجلالين: 4/ 64.

يُفيد: على علمٍ منّا بما كان منهم مِن تجلّيّاتِ توَهُّجِ الإيمان، وبما سيكونُ منهم مِن فظائعِ الكفر والفسوقِ والعصيان[1]، فالمعنى: لقدِ اخترناهُم عالِمِين بمكانِ الخِيرة، وبأنَّهم أحِقّاءُ بأن يُختاروا، مع عِلمٍ منّا بأنَّهم سوف يَزيغونَ ويفرطُ منهم الفُرُطات في بعض الأحوال[2]، فهذا العِلمُ المُحيطُ بما قد كان وبما هو كائنٌ لا جَرَمَ أنَّه عِلمٌ عظيم، بل هو الغايةُ في العظمة!

ويجوزُ أن يكون المعنى: اخترناهُم لأجل علمٍ فيهم أُعطَوْه ففُضِّلوا به على غيرهم، والتَّنكيرُ فيه أيضًا للتَّعظيم، ويَحسُن اعتبارُه علَّةً للاختيار على العالَمِين[3].

دلالةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾:

قُيِّدُ الاختيارُ بالعِلم دفعًا لِـوَهْـمِ مرضى القلوب

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ على قوله ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ للاهتمام بالمقدَّم؛ إذ هو حَريٌّ في هذا السِّياق بالتَّقديم؛ "ففي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ ردٌّ على مَن لا يعرفُ قدْرَ اللّه ﷻ، ولا يعنو لجلاله وعظمتِه، فيسوء ظنُّه باللّه، حين يرى آثامَ بني إسرائيل، وشناعاتِهم، ومفاسدَهم في الأرض، ثمَّ يرى كثرةَ الرُّسل الذين بعثَهُم اللّه فيهم، وكثرةَ الآيات التي جاؤوهم بها، ممّا لم يكن لأُمَّةٍ مِنَ الأمم، أو شَعبٍ مِنَ الشُّعوب، فكان قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ ردًّا على مَن يظنُّ هذا الظَّنَّ في اللّه تعالى، ويرى - عن جهلٍ - أنَّ اختيارَ اللّه سبحانه لهؤلاء القوم، واختصاصَهُم بالرُّسل والشَّرائع والمعجزات، لم يكن واقعًا موقعَه الصَّحيح، إذ لم يُثمر إلّا هذا الثَّمَرَ النَّكِدَ الخبيثَ!! وكلّا، ثمَّ كلّا، تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا"[4].

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان: 631 - 632.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 278.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 124.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 203.

نكتةُ عطفِ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

أوثِرَ العطفُ لبيان أنَّ الإيتاء أثرٌ مِن آثار الاجتباء

"الواو تعطفُ (آتَيْناهُمْ) على ﴿ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ وتُدخِلُ ما بعدَها في حيِّز التَّوكيد باللّام و(قد)، ووراء هذا التَّوكيدِ ما وراءه"[1]، وممّا حسَّن عطفَ هذه الجملةِ الكريمة على سابقتها ارتباطُها بها؛ حيثُ إنَّ إيتاء الآيات أثرٌ مِن آثار الاختيار[2]؛ لأنَّه مِن عناية اللّه تعالى بأُمَّة بني إسرائيل؛ فهو يزيدهم يقينًا بإيمانهم، والمرادُ بالآيات: المعجزاتُ التي ظَهرت على يد موسى ﷺ، أيَّد اللّه بها بني إسرائيل في مواقعِ حروبِهم؛ بنصرِ الفئةِ القليلةِ منهم على الجيوشِ الكثيرة مِن عدوِّهم[3].

والملاحَظ أنَّ ترتيبَ المِنَن جاء تصاعُديًّا؛ ففي إنجائهم مِن عدوِّهم فضلٌ، وفي اختيارهم على العالمين فضلٌ آخر، وفي إيتائهم الآياتِ التي فيها بلاءٌ مبين فضلٌ أعلى لِمَن صدق[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي مسندًا إلى نون العظَمة في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم﴾:

الفعلُ المنسوبُ إلى العظيم لا جَرَمَ أنَّه جليلٌ وعظيم

أوثِرَ التَّعبيرُ بالماضي مسندًا إلى نون العظَمة في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم﴾؛ لإفادة تحقُّق الوقوعِ، وأُسنِد إلى نون العظمة؛ لبيانِ أنَّ إيتاء الآياتِ التي فيها البلاءُ المبين هو - بحقٍّ - أمرٌ جليلٌ وجسيمٌ وعظيمٌ، فالمعنى: لقد آتينا بني إسرائيلَ على ما لنا مِنَ العَظَمَة مِنَ العلاماتِ الدّالَّة على عَظَمَتنا واختيارِنا لهم ما فيه اختبارٌ مبينٌ[5].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها في ﴿مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

(مِن) تبعيضيَّة لبيان مزيدٍ مِنَ المِنَن العليَّة

﴿مِّنَ﴾ حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى: ابتداء الغاية[6]، ودلالتُها على التَّبعيض في بعض السِّياقات - كما هي هاهنا

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 633.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 33.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 305.

(4) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 633.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 33.

(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

- راجعةٌ أيضًا إلى معنى الابتداء؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يُفيد أنَّ الله ﷻ أيَّدهُم ببعض المعجزات؛ كفَلَقِ البحر، وتظليلِ الغمام، وإنزالِ المنِّ والسلوى، وغيرها مِن عظائم الآيات التي لم يُعهَد مثلُها في غيرهم - ما فيه اختبارٌ وامتحانٌ ظاهرٌ؛ ليتميَّز الخبيثُ مِن الطَّيِّب، والكافرُ مِن المؤمن(1).

معنى التَّعريفِ في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ودلالةُ مجيئها جمعًا:

التَّعريفُ للعهد؛ لبيان مزيد الإنعام والعطايا العِظام

جاء التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للعهد؛ حيث إنَّ ما أيَّدهم به ﷻ مِنَ الآيات والمعجزات قد ذُكِر في غيرِ ما آيةٍ مِن كتاب الله تعالى؛ كالذي ذُكِر في سورة البقرة من أوَّل قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: 49 - 53].

وأدخَلُها في الإكرام قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: 57]، وهو يُقابل الطّوفانَ والجرادَ والقمَّلَ والضَّفادع والدَّم لفرعون وقومه، ثمَّ إنَّه سبحانه قد جعل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكًا(2).

وعليه فإنَّ التَّعريف في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ هو للعهد ذهنيًّا كان أم ذِكريًّا، وقد وردت بصيغة الجمع لبيان كثرتها وعظمتِها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 63، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 130.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: الشورى، الزخرف، الدخان، ص: 633.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾:

دوران (ما) بين الموصوليَّة والنَّكرة الموصوفة؛ لإفادة التَّعظيم

﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ تحتملُ وجهين: فإمّا أن تكون موصولةً بمعنى (الذي)، وإمّا أن تكون نكرةً موصوفةً بمعنى (شيء)، وفي الحالتين هي مفعولٌ به، والجملة بعدها صلةُ الموصول في الحالة الأولى، وصِفةٌ في الحالة الثّانية[1].

وعلى كلا التَّوجيهين فالتَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ قد أفاد التَّعظيم؛ لأنَّها - على القول بالموصوليَّة - جاءت صِلتُها مُشعرةً بهذا المعنى مِن حيث تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾، وتنكيرُ ﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾، ووصفُه بـ﴿مُّبِينٌ﴾، وعلى القول بأنَّها نكرةٌ موصوفةٌ جاء وصفُها دالًّا على أنَّه شيءٌ عظيمٌ.

معنى (في) ودلالتُها في قوله: ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾:

كانتِ البراهينُ والآياتُ كالوعاء يحوي النِّعمَ والاختبارات

الأصلُ في معنى (في) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانت أو زمانيَّةً، حقيقيَّةً أو مجازيَّةً[2]، والظَّرفيَّةُ في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ أفادت أنَّ الآياتِ صارت كالوعاءِ تحوي في داخلها النِّعَمُ والاختباراتُ التي بها يتبيَّن إخلاصُهم ورسوخُهم على الإيمان ويتميَّز بها الخبيثُ مِنَ الطَّيِّب.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾ على المسند إليه ﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾:

التَّقديمُ للاهتمام؛ لصرف الأذهان إلى تدبُّر مواطن الإنعام في النِّعَم العِظام

قُدِّمت شبهُ الجملة ﴿فِيهِ﴾ على المسندِ إليه ﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾ للاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويقِ للمؤخَّر؛ لتنصرف الأذهانُ والأبصار إلى تتبُّع مواطنِ البلاء - اختبارًا ونعمةً - في هذه الآيات.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾ ودلالةُ وصفِه بـ﴿مُّبِينٌ﴾:

جاء التَّنكيرُ في قوله: ﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾ لإفادة معنى التَّعظيم، فالمعنى:

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 129.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

التَّنكيرُ للتَّعظيم

"وأعطيناهم منَ العبر والعظاتِ ما فيه اختبارٌ يبيِّنُ لمَن تأمَّله أنَّه اختبارٌ اختبرَهم اللّه ﷻ به"[1].

وقد وُصِف البلاءُ بـ﴿مُّبِينٌ﴾ للدَّلالة على أنَّه كان جليًّا ظاهرًا لكلِّ متأمِّل، وما كان هذا وصفَهُ فحريٌّ أن يكون عبرةً وعظة؛ فمَنِ اعتبر فقد نجا، ومَن أعرض فهو الهالك!

و"على قدر الإحسان يكون الحسابُ، وقد خرج بنو إسرائيل مِن هذا الامتحان بأخسرِ صفقةٍ، إذ كشف ذلك منهم عن نفوسٍ خبيثة، وقلوبٍ مريضة، وطبائعَ شَرِسةٍ، فكان أنْ أخَذَهم اللّهُ بالبأساء والضَّرّاء، وأنزلَ بهم الضَّرباتِ القاصمةَ، فكانوا عبرةً وعظةً لمَن يكفرُ بنعَم اللّه، ويَستَنبِتُ مِن إحسانه وفضلِه أنيابًا ومخالبَ ينهَشُ بها عبادَ اللّه! فلقد لعنَهم اللّه وجعلَ منهم القرَدةَ والخنازيرَ وعَبَدَ الطّاغوت"[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّة:

الإهانةُ والإذلال:

نقيضُ الإهانةِ الإكرامُ، ونقيضُ الإذلالِ الإعزازُ

الفرقُ بينهما أنَّ إذلالَ الرَّجُل للرَّجُل أنْ يجعلَه مُنقادًا على الكُرْه أو في حُكم المُنقاد، والإهانةُ أنْ يجعله صغيرَ الأمر لا يُبالي به؛ يقال: استهانَ به؛ أي: لم يُبالِ به ولم يلتفت إليه.

والإذلالُ لا يكون إلّا مِنَ الأعلى للأدنى، والاستهانةُ تكون مِنَ النَّظير للنَّظير، ونقيضُ الإذلال: الإعزازُ، ونقيضُ الإهانة: الإكرامُ[3].

والمعنى المحوريُّ لجذر الإهانة: لِينُ الشَّيء أو نعومتُه ورخاوتُه وضعفُه؛ أي: عدمُ صلابته؛ ومِن ذلك: هانَ هوانًا: لم يُحفَل به، وهو كونُ الإنسانِ لا يُؤبَهُ به ولا يُلتفَتُ إليه، ومِن ذلك: الإهانةُ بالقول والمعاملة[4].

(1) مكيُّ بن أبي طالب، الهداية الى بلوغ النهاية: 10/ 6742.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 202.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 251.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هون).

والمعنى المحوريُّ لجذر الإذلال: نقصُ ارتفاعِ الشَّيءِ، والتَّماسُكُ يتأتَّى منه الارتفاعُ، والرَّخاوةُ والتَّسيُّبُ يلزمُهما الانخفاضُ[1]؛ فدلَّ ما سبقَ على أنَّ الذُّلَّ يتبعُ الهوانَ، والإذلالَ يتبع الإهانةَ[2].

الاختيارُ والاجتباء:

الاختيارُ تناوُلُ خيرِ الشَّيء، والاجتباءُ تناولُ جبايته

الخاء والياء والرّاء أصلُه العطفُ والميل ثمَّ يُحمَل عليه؛ فالخير: خلافُ الشَّرِّ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يميلُ إليه ويعطِفُ على صاحبه[3]، والمختار (بمعنى اسم الفاعل) في اختياره بين شيئين يميلُ إلى أحدهما[4]، وهذا الميلُ يرجعُ إلى أنَّه رأى هذا الشَّيء خيرًا مِنَ الآخَر؛ فإذا رأى في الشَّيئين خيرًا، مالَ إلى الأكثر خيرًا فيهما.

والجيم والباء والياء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على جمع الشَّيء والتَّجمُّع؛ يقال: جبيتُ المالَ أجبيه جِبايةً؛ أي: جمعتُه[5]، وجِباية الخَراج: جمعُه وتحصيلُه[6]، والاجتباءُ: الجمعُ على طريق الاصطفاء؛ فهو مِن: جَبَيْتُ الماءَ في الحوض؛ أي: جمعتُه مختارًا له، واجتباءُ اللّه عبدَه هو تخصيصُه إيّاه بفيضٍ إلهيٍّ تتجمَّع له منه أنواعٌ مِنَ النِّعم بلا سعيٍ مِنَ العبد، وذلك للأنبياء وبعضِ مَن يقاربهُم مِنَ الصِّدِّيقين والشُّهداء[7].

فيُفَرَّقُ بين الاختيار والاجتباء بأنَّ اختيارك الشَّيءَ أخذُكَ خيرَ ما فيه في الحقيقة أو خيرَه عندك، والاختيار: طلبُ ما هو خيرٌ وفعلُه، وقد يُقال لِما يراهُ الإنسان خيرًا وإن لم يكن خيرًا[8]، وأمّا اجتباءُ الشَّيء فهو تناولُ جبايتِه، أي: جملتِه، أو تناولُ ما جمعتَه مختارًا له[9].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذلل).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 251.
(3) ابن فارس، المقاييس: (خير).
(4) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 62.
(5) ابن فارس، المقاييس: (جبي).
(6) الأزهري، التهذيب: (جبي).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (جبي).
(8) الراغب، المفردات: (خير).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (صفو).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٣٧﴾ [الدُّخان: 34 - 37]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

عَظُم صدُّهم، واستفرغوا فيه وُسعَهم؛ فَذُكِّروا بمصرعِ مَن يعرفون خبرهم

لمّا كان الحديثُ في أوَّل السّورة عن كفّار مكَّة، وجاءت قصَّة فرعونَ وقومِه مَسوقةً للدِّلالة على أنَّهم مثلُهم في الإصرار على الضَّلالة والكفر، رجعَ إلى الحديث عن كفّار قريش، والغرضُ من قولهم ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ إنكارُ البعث كأنَّهم قالوا: إذا مُتنا فلا بعثَ ولا حياة ولا نشور، ثم صرَّحوا بذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾[1]، ثمَّ ردَّ عليهم بأنَّ اللّه خالقَ السَّموات والأرض وما بينهما قادرٌ على بعثِهم، ثم توعَّدَهُم بالهلاك، كما أهلكَ قومَ تُبَّعٍ من قحطانَ ملوك اليمن، الذين هم أقوى منهم، وبه تبيَّن أنَّ اللّه هدَّد كفّار مكَّة بمصيرٍ مشؤومٍ، مثل مصيرِ قومِ فرعونَ وقومِ تبَّع[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُنشَرِينَ﴾: أصلُ (نشر) يدلُّ على فتح شيء وتشعُّبِه[3]، ونشَر الثَّوبَ، والصَّحيفة، والسَّحاب، والنِّعمة، والحديثَ، والمتاعَ وغيرَ ذلك؛ يَنْشُرُه نَشْرًا: بسطها، والنَّشر: الرّائحةُ الطَّيبة، وقد نَشَرت الأرضُ فهي ناشرة: أنبتت الكلأَ اليابسَ، ونشَرتُ الخبرَ أنشُرُه: أذعتُه، وانتشرَ الخبرُ: ذاع[4].

وانتشارُ البشر: تصرُّفُهم في الحاجات، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 380.

(2) الزحيلي، التَّفسير المنير: 25/ 228، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 380.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).

(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).

﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20] ، ونَشَر الميِّتُ ينْشُرُ نُشورًا؛ أي: عاش بعد الموت، ومن ذلك يومُ النُّشور، وأنشرَهُم اللّه: أحياهُم، ونُشر الميتُ نشورًا؛ أي: بعثَهُ اللّه، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]؛ أي: إليه المبعثُ والمرجع[1]، وأنشرَ اللّهُ المَيِّتَ فنَشَر، وقيل: نشرَ اللّهُ المَيِّتَ، وأنشرَهُ بمعنًى واحد، والحقيقةُ أنَّ نشَر اللّه الميت مستعارٌ من نشر الثوب[2]، ومعنى: ﴿بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين بعد موتنا[3].

2) ﴿تُبَّعٍ﴾: أصل (تبع) يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[4]، تبعتُ القومَ أتبعُهم تَبَعًا وتَباعَة: قفوتُ أثرَهُم، ومشيتُ خلفهم، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالائتمار، وكذا إذا مرّوا بك فمضيت معهم، ومثله: اتَّبَعْتُهم، على وزن افتعلت، ويقال: أتبعتُ القومَ إذا كانوا قد سبقوكَ، فلحقتَهُم، منه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ٦٠﴾ [الشعراء: 60]، وتتبَّعت الشَّيء تتبُّعًا؛ أي: تطلَّبته مُتتبِّعًا له.

و(تُبَّعٌ) كانوا رؤساءَ وملوكَ اليمن، سمّوا بذلك لاتِّباعِ بعضِهم بعضًا في الرِّياسة والسِّياسة، فقد كان كلَّما هلكَ واحدٌ خلَفَهُ واحدٌ، وتبعَهُ فيما كان على مثلِ سيرتِه، وقيل: تُبَّع مَلِكٌ يتبعُه قومُه، والجمعُ التّبابعةُ، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[5].

❁ المَعْنى الإجْماليِّ:

يعرضُ السِّياقُ القرآنيُّ في هذه الآيات لموقف المشركين في مكَّةَ من قضية البعث والنُّشور؛ حيث يُخبر أنَّ هؤلاء المشركين من قوم النَّبيِّ ﷺ يقولون على سبيل الجزم والتَّكذيب للبعث: ما الموتةُ التي نموتُها في نهاية حياتنا الدُّنيوية إلّا الموتةُ النَّهائيةُ، وما نحن بمبعوثين بعدَها، وإذا كان من بعثٍ آخرَ فأتوا بآبائنا الأوَّلين لنراهُم إنْ كنتم صادقين في ذلك، ثم يبيِّنُ السِّياقُ القرآنيُّ بعد ذلك على سبيل التَّهديد لهؤلاء المكذِّبين للبعثِ من

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(2) الراغب، المفردات: (نشر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 233، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (تبع)، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 233، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.

مُشرِكي مكَّةَ بأنَّهم ليسوا بخيرٍ ولا بأقوى من قوم تُبَّعٍ الحِمْيَريِّ، والَّذين من قبلهم منَ الأمم الكافرة، فقد كانوا أشدَّ منهم قوَّةً وأكثرَ جمعًا، ومع ذلك فقد أهلكَهُم اللّٰه تعالى بسبب كفرِهم وطغيانِهم؛ لأنَّهم كانوا مجرمين[1].

الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ، وهلاكُ الظّالمين مِن المكذِّبين في الدُّنيا والآخرة حقٌّ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ عن سابقه:

الفصلُ لبيان العلَّة الجالبة للدّاء، وأنَّها المؤدِّيةُ إلى سوءِ الجزاء

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ "جملةٌ مستأنَفَةٌ مَسوقةٌ للحديث عن قريش بعد استطرادِ حديثِ بني إسرائيل"[2]، فقد رجعَ السِّياق "إلى ذِكر كُفّار مكَّة؛ وذلك لأنَّ الكلامَ فيهم حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: 9]؛ أي: بل هم في شكٍّ مِنَ البَعث والقيامة، ثمَّ بيَّنَ كيفيَّةَ إصرارِهم على كُفرِهم، ثمَّ بيَّن أنَّ قومَ فِرعونَ كانوا في الإصرار على الكُفر على هذه القِصَّة، ثمَّ بيَّن أنَّه كيفَ أهلكهُم وكيف أنعَمَ على بني إسرائيل، ثمَّ رجع إلى الحديثِ الأوَّل، وهو كونُ كُفّار مكَّة مُنكِرينَ للبَعث، فقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾"[3].

أو يكون الفصلُ؛ لأنَّه اعتراضٌ بين جملة: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾ [الدخان: 16]، وجملةِ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾؛ فإنَّه لمّا هدَّدهم بعذابِ الدُّخان ثمَّ بالبطشة الكبرى، وضربَ لهم المَثَلَ بقوم فرعونَ أعقبَ ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ إنكارَ البعثِ هو الذي صرَفَهُم عن توقُّع جزاء السّوءِ على إعراضهم[4].

نكتةُ توكيد الآية بـ﴿إِنَّ﴾ واللّام:

جاء التَّوكيدُ لمواجهة ما كانوا عليه مِن صلَفٍ شديد

أوثر تأكيدُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ لأجل

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 102، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 130 - 132.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 661 - 662.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 306.

الاهتمام بالخبر؛ فإنَّ هذا القولَ إلى المشركين لا تردُّدَ فيه حتى يحتاج إلى التَّأكيد، وهو إذا وقع مثلُ هذا الموقع أفاد التَّسبُّبَ وأغنى عنِ الفاء، فالمعنى: إنّا منتقمون منهم بالبطشة الكُبرى لأنَّهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياةَ الآخرة؛ فلم يُنظَروا إلّا لِما هم عليه في الحياة الدُّنيا مِنَ النِّعمة والقوَّة؛ فلذلك قدَّر اللّه لهم الجزاءَ على سوء كفرهم جزاءً في الحياة الدُّنيا(1).

ثمَّ إنَّ في هذا التَّوكيد شوبًا مِنَ الغضب وكأنَّ الخبرَ لغرابَتِه يؤكَّد كما يؤكَّد الخبرُ الذي يُنكِرُه النّاس(2).

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

الإشارةُ للتَّحقير لبيان ما اقترفوا من إثمٍ وجرمٍ كبير

أوثِرَ التَّعبيرُ باسم الإشارةِ للقريب ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذِكرُ قصَّة فرعونَ وقومِه استطراديٌّ للدَّلالة على أنَّهم مثلُهم في الإصرار على الضَّلالة والإنذارِ عن مثل ما حلَّ بهم(3)، وفي هذه الإشارة تحقيرٌ لشأنهم وازدراءٌ بهم، فقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: الأدنياء الأقلّاء الأذلّاء؛ ولهذا قال سبحانه بعدَها: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾(4).

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع (يَقولونَ):

جاء التَّعبيرُ بالمضارع (يَقولونَ) إشارةً إلى حالٍ استمرَّت لا إلى واقعةٍ وقَعَتْ، وهذا لاستحضار الصّورة والحالة، حيث تكرَّر منهم هذا القولُ، وتعدَّدَت صوَرُه.

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ عن سابقه:

فُصل قولُه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ عن سابقه لأنَّه مَقولُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 307.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 635.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 63، والخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 3/ 587، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 124.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 216، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 34.

القول المشارِ إليه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾، فالفصلُ بين الجملتين لكمال الاتِّصال بينهما، والوصلُ هنا يوهم خلافَ المراد.

سرُّ إيثارِ النَّفي بـ﴿إِنْ﴾:

اشـــتـــدَّ عـلـى الحقِّ نكيرُهم؛ فحُقِّروا وازدُرِيَ شأنُهم

أوثِرَ النَّفيُ بـ﴿إِنْ﴾ النّافيةِ بمعنى (ما)؛ لأنَّ النَّفي بـ(إنْ) أقوى وأشدُّ مِنَ النَّفي بـ(ما)(1)، وقد جيء بها هنا للتَّعبير عن شدَّة إنكارِهم وتكذيبِهم؛ حيث إنَّهم استعلَوْا على الله تعالى باستِبعاد خلْقِه، وكذَّبوا الرَّسولَ الذي أرسلَهُ الله إليهم، وكادوا يقتلونه، وسخِروا مِنَ الآيات التي جاءتهم مِن عند الله تعالى، وأنكروا البعثَ والحسابَ والجزاء.

سرُّ إيثارِ القصر بالنَّفي والاستثناء في ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾:

التَّعبيرُ بالقصر لبيان وفـرةِ ما كـانوا يحملونه مِنَ الخُبث والمكر

أوثِرَ القصرُ بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، وهو من أعمِّ أنواعِ القصر وأشملِها، ويكون عادةً فيما يُنكره المخاطَبُ(2)؛ لبيان وفرةِ ثقتِهم بها، ففي التَّعبير بهذه الجملة المؤكَّدةِ بيانٌ لمدى عِنادِهم وإصرارِهم، وفيها معنى أنَّهم يؤكِّدونه في وجه كلِّ مَن يُنكِرُه(3)، ومِن ذلك أنَّ أبا جهلٍ قال: يا محمَّد إنْ كنتَ صادقًا في قولِك فابعثْ لنا رجلين مِن آبائنا أحدُهما قصيُّ بنُ كلابٍ، فإنَّه كان رجلًا صادقًا لنسألَه عمّا يكونُ بعد الموت!! وهذا القولُ مِن أبي جهلٍ مِن أضعَفِ الشُّبهات؛ لأنَّ الإعادة إنَّما هي للجزاء لا للتَّكليف، فكأنَّه قال: إنْ كنتَ صادقًا في إعادتهم للجزاء فأعِدْهُم للتَّكليف، وهو كقولِ قائلٍ لو قال: إنْ كان ينشأ بعدَنا قومٌ مِنَ الأبناء، فلِمَ لا يرجعُ مَن مَضَى مِنَ الآباء(4)؟

(1) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 202.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 635.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 255، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.

سعي المشركون لتأكيد زعمِهم بنفي النُّشور، وأنَّه لا بعثَ لمَن في القبور

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾:

الضَّمير ﴿هِيَ﴾ ضميرُ الشَّأن، ويقال له: ضميرُ القِصَّة؛ لأنَّه يُستَعمل بصيغة المؤنَّث بتأويل القِصَّة؛ أي: لا قصَّة في هذا الغرض إلّا الموتةُ المعروفة، فهي موتةٌ دائمةٌ لا نشورَ لنا بعدها[1].

استهانوا بالبعث والجزاء، فاشتدَّ المرض وعظُم الدّاء

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿مَوۡتَتُنَا﴾:

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿مَوۡتَتُنَا﴾ إضافةٌ معنويَّةٌ محضةٌ، تفوح منها إرادتُهم نسبةَ الموتِ لأنفسهم وذواتِهم، دون أن يكون بتقدير اللّه تعالى؛ وذلك ليَبنوا عليه بعد ذلك إنكارَهم للبعث! وكأنَّهم قالوا: ليس الموتُ بتقدير اللّه ليكون البعثُ كذلك، بلِ الموتُ أمرٌ طبَعيٌّ لا تقديريٌّ، فلا تزعموا أنَّ بعثًا يعقبُه! وفي هذا استهانةٌ منهم بما دُعوا إليه ووُعِظوا به، فما أقبحَ قِيلَهم! وما أفدحَ فعلَهم!

نكتةُ وصفِ الموتة بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾:

وصَفوها بالأولى إذ ظنّوا أنّه لا شيءَ آتٍ، فهي عندهم منتهى الأمل وغايةُ الملذّات

الأوَّل في اللُّغة: ابتداءُ الشَّيء، ثمَّ قد يكون له ثانٍ وقد لا يكون، كما تقول: هذا أوَّلُ ما اكتسبتُه، فقد تكتسبُ بعده شيئًا، وقد لا تكتسب[2].

ولمّا أُخبِر الكافرون بأنَّ عاقبة حياتِهم ونهايتها أمران: الموتُ، ثمَّ البعثُ؛ أنكروا ذلك بحصر نهايةِ الأمر في المَوتة الأولَى، ونَفَوْا ما بعدها، فكأنَّهم قالوا: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلّا المَوتةُ الأولى المُزيلةُ للحياة الدُّنيويَّة، ولا بعثَ بعدها، ووصفُها بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ هنا لا يستدعي أنْ يُثبِتَ الخَصمُ موتةً ثانيةً، فيقصدوا بذلك إنكارَها؛ لأنَّ كونَ الشَّيء أوَّلًا لا يستلزمُ وجودَ ما كان آخِرًا بالنِّسبة إليه، كما لو قال: أوَّلُ عبدٍ أملكُه حُرٌّ، فمتى مَلَكَ عبدًا عَتَقَ عليه، سواءً كان مَلَكَ بعدَه عبدًا آخَرَ أم لا[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 307.

(2) الإسنوي، الكوكب الدُّرِّيُّ، ص: 249.

(3) البروسوي، روح البيان: 8/ 416، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 382.

فمرادُهم مِنَ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ - بناءً على ما تقدَّم - المَوتةُ السّابقةُ المتقدِّمة على الموعد الذي يوعَدونهُ للبعث والنُّشور، وسمَّوْها أولَى مع أنَّهم اعتقدوا أنَّه لا شيءَ بعدَها؛ لأنَّهم نزَّلوا جَحدَهم على الإثبات، فجعلوها أولَى على ما ذُكِرت لهم(1).

ولا يَبعُد أن يُحمَل على حذف المضاف، على أن يكون التَّقدير: إنِ الحياةُ إلّا حياةُ موتَتِنا الأولى، فـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ على هذا التَّقدير صفةٌ للمُضاف، والقرينةُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾، فالآية مِثلُ قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام: 29](2).

وبيانُ ذلك أنَّه لمّا قيل لهم: إنَّكم تموتون موتةً تتعقَّبها حياةٌ، كما تقدَّمتكم موتةٌ قد تعقَّبتها حياةٌ - وذلك قولُه ﷻ: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: 28] - لمّا قيل لهم ذلك قالوا منكِرين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ يريدون: ما الموتةُ التي مِن شأنها أن يتعقَّبها حياةٌ إلّا الموتةُ الأولى دون المَوتة الثّانية، وما هذه الصِّفةُ التي تصفون بها الموتةَ مِن تعقُّب الحياة لها إلّا للمَوتةِ الأولى خاصَّةً، فلا فرقَ في المعنى إذًا بين هذا وبين قولِه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: 29](3).

نكتةُ عطفِ (ما نَحنُ بِمُنۡشَرِينَ) على سابقه:

حشدوا المؤكِّداتِ لتوطيد زعمِهم، فاستحقّوا بطشةَ ربِّهم

عُطفَ قولُه تعالى: (ما نَحنُ بِمُنۡشَرِينَ) على سابقه؛ للاهتمام به مِن حيث كونُه غرضًا مقصودًا، مع تصريحه بمفهوم القَصر وإفادتِه تأكيدَه(4)، فقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هو "تأكيدٌ لما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 131.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 35، والبروسوي، روح البيان: 8/ 416، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 382.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 279.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

سبقه؛ أي: قالوا: ليس هنا مِن موتٍ سوى الموت المُزيلِ لحياتنا، ثمَّ لا بعثَ ولا حسابَ ولا نشور بعد ذلك"[1].

ولمّا كانت هذه الجملةُ توكيدًا للازم دلالةِ الجملة قبْلَها مِن حيث إنَّ قصرَ الموت الذي تعقبه حياةٌ على المَوتة الأولى قبلَ النَّفخ يفيدُ نفيَ الحياة الثّانية، وهذا هو معنى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ لمّا كان ذلك كذلك كان الأصلُ ألّا تأتيَ هذه الواو لأنَّ الذي بين الجملتين هو كمالُ الاتّصال؛ فالجملةُ الثّانية موصولةٌ بالتي قبْلَها مِن ذات نفسِها، وتستغني بهذا الوصل الذي في ذات نفسِها عن واصلٍ يصِلُها، وإنَّما جيءَ بهذه الواو لتفيد أنَّ هذا كلامٌ آخرُ في نفي البعث، وأنَّ البعثَ نُفِيَ بكلامَيْن وليس بكلام واحد؛ إذ إنَّه لو أُسقِطَتِ الواو لصار الكلامان كلامًا واحدًا يؤكِّدُ ثانيهِ أوَّلَه، أمّا مع الواو فثمَّ كلامان؛ لأنَّ الواو تقتضي المغايرةَ[2].

معنى (ما) ودلالاتُها في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هي النّافيةُ الحجازيَّةُ العاملةُ عملَ (ليس)[3].

بالغَ مُنكِرو البعثِ في نفيِهِ وتكذيبِه، فاستأهَلوا عقابَ الله وتعذيبَه

غير أنَّها آكدُ في النَّفي مِن (ليس)؛ ذلك أنَّها تقع جوابًا للقَسَم، فيقال: (واللّهِ ما هو بمُنطلق) بخلاف (ليس)، وهي كذلك آكدُ في النَّفي مِن (لم)؛ فإنَّ نفيَ الفعلِ يكون على درجات، فإذا قيل: (فَعَلَ) فإنَّ نفيَه: (لم يَفعلْ)، وإذا قيل: (قد فَعَلَ) فإنَّ نفيَه: (لمّا يَفعلْ)، وإذا قيل: (لقد فَعَلَ) فإنَّ نفيَه: (ما فَعَلَ)؛ لأنَّه كأنَّه قال: (واللّه لقد فَعَلَ) فقيل له: (واللّه ما فعل).

فـ(ما) آكدُ في النَّفي مِن أُختَيْها، وهي أوسَعُ استعمالًا منهما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 131.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 638.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 130.

أيضًا، فإنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجُمل الاسميَّة، و(لم) مختصَّةٌ بنفي الجُمَل الفعليَّة، وأمّا (ما) فتنفي الجملَ الفعليَّةَ والاسميَّةَ، كما أنَّها قد تأتي ردًّا على قولٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلةَ[1].

وممّا سبقَ تتبيَّنُ بلاغةُ النَّفي - في هذا السِّياق - بـ(ما) دون غيرها؛ لأنَّها آكدُ في النَّفي مِن جهة أنَّها تنفي القَسَمَ، فكأنَّه قيل لهم: واللّهِ لَتموتُنَّ ثمَّ لَتُبعثُنَّ ثمَّ لَتُحاسَبُنَّ، فواجهوا هذا القسَم الحقَّ بالمبالغة في نفيِه باطلًا، ظُلمًا وعُلوًّا!

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِمُنشَرِينَ﴾:

نفى منكرو البعث أن يتعلّق بهم أيُّ نشور، فكانوا عبرةً على مرِّ الدُّهور

الأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، وهو تعليقُ الشَّيء بالشَّيء على وجه الاختصاصِ، أوِ العملِ، أوِ الاتِّصال[2]، والباء في قوله تعالى: ﴿بِمُنشَرِينَ﴾؛ لنفي تعلُّقِ الإنشارِ بهم أو لنفي اتِّصالِهم به؛ أي: وما نحن بمبعوثين بعد الموت، وقد زيدت على الخبر لأجل المبالغةِ في تأكيد النَّفي[3].

نكتةُ التَّعبير بالمشتقِّ (مُنْشَرِينَ):

عُبِّر بالمشتقِّ للدَّلالة على ثبوت حالة الإنكار مع التَّجدُّد والتَّكرار

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة اسم المفعول للدَّلالة على الحدوث؛ لقربِها مِنَ الفعل، ويُستفاد مِن اسميَّتِها معنى الثُّبوت؛ حيث إنَّ حالة تكذيبِ المشركين بالبعث والنُّشور ثابتةٌ، غيرَ أنَّه تكرَّر وقوعُ هذا التَّكذيب منهم لكن بصورٍ متعدِّدةٍ. "وغرضُهم مِن هذا القول المبالغةُ في إنكار حشر الموتى"[4].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها أفصَحت

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 191 - 193.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 36/ 18، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 638.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 382.

أفصَحتِ الفاءُ عن مقدَّرٍ دلَّ عليه المقامُ، لبيانِ ما كان عليه الكفّار مِن أوهام

عن شرطٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه المقامُ[1]؛ لأنَّ الذي قبْلَها هو حكايةُ قولِهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، وإنَّما يترتَّب ما بعدَ الفاء على مِثْل قولِهم الآتي بعدُ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]. فالتَّقدير إذًا: إنْ كنتم صادقين فيما تزعمون أنَّنا نُبعثُ بعد الموت فعجِّلوا لنا إحياءَ مَن مات مِن آبائنا لينهض دليلًا على ما تَعُدّونه مِن قيام السّاعة وبَعثِ الموتَى[3].

الغرضُ من الأمر ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ وتعيينُ المخاطَبين به:

جادلَ الكافرونَ في البعثِ معاجِزين، فكانوا في الآخرة مِنَ المعذَّبين

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ للتَّعجيز[4]، والخطابُ لرسولِ اللَّه ﷺ، وللمؤمنينَ الذين كانوا يَعِدون الكافرين بالبَعث، فالمعنى: إنْ صدَقتم فيما تقولون، فأحيوا لنا مَن مات مِن أبنائنا بسؤالكم ربَّكم؛ حتَّى يكونَ ذلك دليلًا على البَعث في الآخرة[5].

وهذا أحدُ "تحدِّيات المشركين المُنكِرين للبَعث، لِمَن يحدِّثونهم عنِ البَعث، ويَدعونَهم إلى الإيمان"[6].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾:

أفادتِ الباء تعلُّقَ الإحياء بالآباء

(الباء) حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، وهو تعليقُ الشَّيء بالشَّيء على وجه الاختصاص، أوِ العمل، أوِ الاتِّصال[7]، وهي في قوله تعالى: ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ تفيدُ معنى الإلصاقِ المجازيِّ، فكأنَّهم أرادوا إلصاقَ الإتيان بالآباء، فيُفيدُ هذا معنى المصاحبة بحيث يُعادون من قبورهم أحياءً.

(1) الدُّرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 679، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 638 - 639.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 279، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131.
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 268، والدُّرة، تفسير القرآن وإعرابه: 8/ 679، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 639.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 405.
(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 206.
(7) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

فالمعنى: إنْ كان البعثُ حقًّا كما تقولون فعجِّلوا لنا بإحياء آبائنا الماضين، وأرجِعوهُم بعد موتهم إلى الدُّنيا(1).

سرُّ إيثارِ الاقتصار على ذِكر الآباء دون غيرهم:

طلبوا إحياء الآباء لوفور ثقتهم في الهالكين، ولكونهم على آثارهم مقتدين

التَّعبيرُ بالآباء يشملُ الوالِدين، والأجدادَ، وربَّما الأعمام، وبكلٍّ ذلك جاء القرآن الكريم؛ ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]، فإبراهيم جدُّ يعقوب، وإسماعيل عمُّه، وإسحاق والدُه، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جميعًا.

وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بالآباء دون غيرهم؛ لكون القائلين: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ يعرفونهم ويعرفون وُفورَ عقولهم؛ كي يسألوهم عمّا رأوْا في آخرتِهم(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط:

عُبِّر بالشَّرط تحدِّيًا وتعجيزًا، واستهانةً بأمر البعث واستبعادًا

التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّة يفيدُ بناءَ الجواب على الشَّرط بناءَ المسبَّبِ على السَّبب، والنَّتيجةِ على المقدِّمة؛ فمتى تحقَّقَ فعلُ الشَّرط تحقَّقَ جوابُه، فهو ممّا يُفيدُ التَّوكيدَ مِن هذه الجهة.

كما أنَّ هذا مِن صور التَّحدِّي التي واجَه بها المشركونَ دعوةَ المسلمين لهم، وكأنَّهم أرادوا تعجيزَهم أو تحفيزَهم؛ أي: إن أردتم أن نُصدِّقكم في هذه الدَّعوى فأتوا بآبائنا الذين قدِ انقرضوا وأسلافِنا الذين مضَوا أحياءً.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الشَّكِّ ﴿إِن﴾:

تُستَعمَلُ (إنْ) في المعاني المحتمَلة الوقوعِ، والمشكوكِ في كونها

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 404، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 131، والهرري، الحدائق: 26/ 382.

(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 200، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 36، والشربيني، السراج المنير: 3/ 587.

امتلأت نفوسُهم شكًّا وريبةً؛ فجاءَت أقوالهم عجيبةً مَعيبة

وحُصولها، والموهومةِ والنّادرة، والمستحيلةِ وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا، أمّا (إذا) فالأصلُ فيها أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوعِ أيضًا[1].

وقد آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ حرفِ الشَّكِّ ﴿إِن﴾ في حكاية قولِ مُنكري البعثِ في محاورتِهم للمؤمنين: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للإشارة إلى شكِّهم في صِدق المؤمنين، وكأنَّ البعثَ أمرٌ نادرُ الوقوع، أو هو مقطوعٌ بعدمه، وإنَّما يفترضُه المؤمنون كما يُفتَرَضُ المُحالُ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ على ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

التَّقديمُ للاهتمام؛ لبيان تعظيمِهم الآباءَ مع جحودِهم لأمرِ السَّماء

قُدِّم قولُه تعالى ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ على قولِه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ للاهتمام به، فهو المقصودُ لهم، حيث إنَّهم أرادوا التَّعجيز مِن حيث إنَّهم طلبوا مُحالًا في اعتقادهم، ثمَّ ثنَّوْا بما يُنبئ عن شكِّهم في صِدق المؤمنين.

وقد "جعلوا قولَهم: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُجَّةً على نفي البعث بأنَّ الأمواتَ السّابقين لم يرجع أحدٌ مِنهم إلى الحياة! وهو سفسطةٌ؛ لأنَّ البعثَ الموعودَ به لا يحصلُ في الحياة الدُّنيا، وهذا مِن تورُّكهم واستهزائهم[3].

فالحاصلُ أنَّ تلك الشُّبهةَ "شبهةٌ واهيةٌ لم يُعنَ القرآنُ بِردِّها، وإنَّما أشار إشارةً خفيَّةً إلى أنَّ هؤلاء النّاس قومٌ مغرورون بدُنياهم وما هم فيه؛ فضَرَبَ لهم الأمثالَ بقوم تُبَّع ومَن هُم أشدُّ منهم قوَّةً وأكثرُ جمعًا، ومَن هُم أشدُّ في إثارة الأرض وعمارتها؛ لأنَّ هذا الغرور يمنعُهم مِنَ التَّفكير السَّليم فيما وراءَ الحياةِ الدُّنيا"[4].

(1) الزمخشري، المفصَّل، ص: 440، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 113، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 69 - 71.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 639.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

(4) محمود حجازي، التفسير الواضح: 3/ 418.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالكون الماضي ﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دون (إن صدقتم):

شكَّك المنكِرون في كلِّ ما أخبر به المؤمنون

أوثرَ التَّعبيرُ بالكون الماضي في حكاية محاورةِ الكافرين: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنَّهم أرادوا: "إن كان طبْعُكم الصِّدقَ في كلِّ ما تحدَّثتم به عنِ الدِّين الذي تزعمون، وهذا يعني أنَّ كلمة ﴿كُنتُمۡ﴾ تجاوزتِ المعنى الذي فيه الكلامُ وهو البعثُ إلى كلِّ ما يتَّصل بالدِّين الذي يدعونهم إليه؛ لأنَّها تفيدُ أنَّ خبرَها قد دُمِج في اسمها وصار جزءًا من ماهيَّته"[(1)]؛ فمرادُ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: "ثابتًا صِدقُكم"[(2)].

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ عن سابقه:

استئنافٌ لضرب مثَلٍ بقومٍ مُهلَكين، لقربِهم حالًا بالمذكورين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه "استئنافٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الدخان: 17]؛ فضميرُ (هُمۡ) راجعٌ إلى اسم الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾، فبَعدَ أن ضَرَبَ لهم المَثَل بمَهْلِك قوم فرعونَ زادهم مَثَلًا آخرَ هو أقربُ إلى اعتبارهم به، وهو مَهْلِكُ قومٍ أقربَ إلى بلادهم مِن قوم فرعونَ، وأولئك ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ فإنَّ العربَ يتسامَعون بعَظَمة ملكِ تُبَّعٍ وقومِه أهل اليمن، وكثيرٌ مِنَ العرب شاهَدوا آثار قوَّتِهم وعظمتِهم في مراحلِ أسفارِهم وتحادثوا بما أصابَهم مِنَ الهُلْك بسيل العَرِم"[(3)].

نوعُ الاستفهام، والغرضُ منه في ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾:

استفهامُ إنكارٍ للتَّصغير والتَّحقير، أو تقريرٍ للتَّهديد والتَّحذير

يصحُّ أن يكون الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ إنكاريًّا توبيخيًّا[(4)]؛ أي: ليس هؤلاء بأقوى ولا أكثرَ عُدَّةً مِن قوم تُبَّعٍ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 639.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 36.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 601.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 131، والهلال، الثري الجامع: 10/ 435، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 640.

والمُتقدِّمين مِنَ الأُمَم المُهلَكَة، وقد أُهلِكَ أولئك بجُرْمِهم، وهؤلاء الكافرون مُجرمونَ أيضًا؛ فحريٌّ أن يُفعل بهم كما فُعِلَ بأشياعهم مِن قبل(1).

ويصحُّ أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا متضمِّنًا للوعيد(2)؛ إذ لا يسَعُهم إلّا أن يعترفوا بأنَّ قومَ تُبَّع والذين مِن قبْلِهم كانوا أشدَّ منهم قوَّةً وأكثرَ جمعًا؛ لأنَّهم كانوا يَضربونَ بهم الأمثالَ في القوَّة والمَنَعة، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: 43]، وقدِ افتُتِح الكلامُ بالاستفهام التَّقريريِّ لاسترعاءِ الأسماع لمضمونِه؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّ تُبَّعًا ومَن قبلَه مِنَ المُلوك خيرٌ من هؤلاء المُشركين(3).

نكتةُ تقديمِ المسند إليه ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾:

التَّقديمُ للاهتمام، وليتوجَّه إلى المتقدِّم التَّوبيخُ والملام

قُدِّم المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ للاهتمام، وليتوجَّه إليه الإنكارُ والتَّوبيخ؛ فهو الأصلُ المتحدَّثُ عنه، وليتمكَّن الخبرُ في ذهنِ السّامع؛ لأنَّ في المبتدأ تشويقًا إليه.

دلالةُ استخدام ﴿أَمْ﴾:

لم يكنِ المذكورون أفضلَ مِن قوم تُبَّع حالًا، ولا خيرًا منهم مآلًا

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ عاطفةٌ متَّصلةٌ، عطفت جملة: ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ على ما قبْلَها(4).

و﴿أَمْ﴾ المتَّصلةُ هذه إنَّما يُطلب بها التَّعيينُ؛ أي: تعيينُ أحد المذكورين، فمَعناها هنا: أيُّهما أشدُّ قوَّةً وأكثرُ جمعًا: هؤلاء أم قومُ تُبَّع(5)؟ والمرادُ بهذا السُّؤال - كما تقدَّم - إمّا التَّوبيخُ والإنكارُ، والغرضُ: نفيُ كونِ المذكورين أقوى أو أحسنَ حالًا من قوم تُبَّع، وإمّا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 114، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 13/ 331، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 75، والبروسوي، روح البيان: 8/ 418، والهرري، الحدائق: 26/ 383.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 508.

(5) الزمخشري، المفصَّل، ص: 404، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 17، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 246.

يُراد بالسُّؤال التَّقريرُ، والغرضُ: أن يُقِرَّ المخاطَبون بهذا فيكون إقرارُهم - الذي لا يسَعُهم أن يَنفوهُ - حُجَّةً عليهم.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾:

تعريفُ المضاف، وردعُ مَن كان يعقلُ أو يخافُ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ إضافةٌ معنويَّةٌ محضةٌ، وقد أفادت المضافَ التَّعريفَ، والغرضُ منها تهديدُ الكافرين مِن أهل مكَّة ومَن حولها بالمصير نفسِه إذ ذكَّرتهم الآية مصارعَ قومٍ ليسوا منهم ببعيد.

نكتةُ تعليقِ الإهلاك بقوم تُبَّع دونه:

يُثني الله خيرًا على المؤمنين، ولا يأخذ قومًا بذنب آخرين

تُبَّعٌ لقبُ مَن يملِكُ اليَمَنَ: حِمْيَرَ، وسبَأ، وحضرَموتَ، ولا يُقال له تُبَّعٌ إلّا إذا مَلَكَ هذه الثّلاثة، وهذه الثَّلاثةُ مِنَ الأُمَم القديمة القويَّة[1].

وتُبَّعٌ المذكورُ في القرآن كان مؤمنًا، وكان له بمكَّة المشرَّفة ما ليس لغيره مِنَ الآثار[2]، ودليلُ إسلامه ما رويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تَسُبّوا تُبَّعًا فإنَّه كانَ قدْ أسلَمَ»[3].

وتعليقُ الإهلاكِ بقوم تبَّعٍ دونَه هو يقتضي أنَّ تُبَّعًا نجا مِن هذا الإهلاك، وأنَّ الإهلاكَ سُلِّط على قومه دونَه[4]؛ ذلك أنَّ قومَه كانوا كافرين؛ فلذلك ذمَّهم اللّه تعالى في القرآن دونَه[5]، وقد قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنَّ اللّهَ ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّه»[6].

سرُّ إيثارِ ذِكْر قوم تُبَّع دون غيرهم:

قنطرةُ الإيمان تُنجِّي صاحبَها مِنَ الرَّدى، والمتَّقون هم السُّعداء غدا

قومُ تُبَّعٍ هم حِمْيَر وأهلُ سبأ، وقد أهلكهم اللّه ﷻ وفرَّقهم في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 309، وأبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 641.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 37.
(3) أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: (23346).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 309.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 64.
(6) الحاكم، المستدرك، حديث رقم: (3702).

البلاد شَذَرَ مَذَرَ، كما ذُكِر مفصَّلًا في سورة (سبأ)[1]، وهم أقربُ المُهلَكين إلى قريشٍ زمانًا ومكانًا[2]، ولذلك أوثِرَ ذِكرُهم هنا في مقام التَّهديد والوعيد.

والأقوامُ والأممُ الذين ذُكِروا في القرآن في مقام التَّهديد بالأخذ والاستئصالِ ليس لهم ملوكٌ إلّا قومُ فرعون وقومُ تُبَّع، وبينهما فارقٌ كبير؛ فقومُ تُبَّعٍ كفروا برغم إيمان سيِّدهم وكبيرِهم، فأنجاهُ اللّه تعالى وأهلكَهم، وبالعكس كان قومُ فرعونَ الذين كفروا بما جاءهم به موسى عليه السلام، واتَّبعوا سيِّدَهم وكبيرَهم، فأوردَهم سيِّدُهم الموارِدَ في الدُّنيا والآخرة!

وسورةُ الدُّخان هي السّورةُ الوحيدةُ التي جمعت في خطاب قريشٍ بين هذين الضَّربين مِنَ الملوك: ملِكٍ أضلَّ قومَه وما هدَى، وملِكٍ اهتدى وضلَّ قومُه فلم يهتدوا[3]!

وفي هذا خيرُ دليلٍ على ما يفعله الإيمانُ بصاحبه، وما يجرُّه الكفرُ على مَن تضمَّخ به مِنَ الويلات والحسرات! فلا ينتفع كافرٌ بقرابته لمؤمن، ولا تضرُّ المؤمنَ قرابتُه للكافر، فلا أنسابَ بينهم يوم القيامة، ولا يسألُ حميمٌ حميمًا!

دلالةُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

أفادَ العطفُ الجمعَ والتَّشريك في علَّة الإهلاك

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يحتملُ أن تكون عاطفةً لِما بعدها على قوله ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ لقصد التَّشريك في الحكم وهو الإهلاكُ، فالجميع قد أُهلِكوا بسبب كفرِهم وعنادِهم وتكبُّرِهم على رُسلهم، والغرضُ من هذا التَّشريك الإبلاغُ في التَّهديد، والمعنى: أنَّهم ليسوا خيرًا من قوم تُبَّعٍ ومَن قبْلَهم مِنَ الأمم الذين

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 420.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 37.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 643 - 644.

استأصَلَهُم اللّه لأجل إجرامهم، فلمّا ماثلوهم في الإجرام فلا مزيَّةَ لهم تدفعُ عنهم استئصالَ الذي أهلكَ اللّه به أممًا قبْلهم[1].

ويحتملُ أن تكون استئنافيَّةً والموصولُ بعدها مبتدأ وخبرُه جملةُ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه في ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾:

جمعَ السّابقين مصيرٌ واحد، فالإهلاكُ عقوبةُ كلِّ كافرٍ وجاحد

جاء التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾؛ لإرادة الوصفِ بما تضمَّنتْه جملةُ الصِّلة، فهؤلاء جميعًا الذين جمَعهُم قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ قد جمَعهُم مصيرٌ واحد، وهو الإهلاكُ عقوبةً مِنَ اللّه تعالى بسبب عظيمِ جُرمهِم في الكفر.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

لم تنجُ مِن عذاب الله أُمَّةٌ كفرت

الأصلُ في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[3]، وقد جيء بها هنا لإفادة امتدادِ الحدَث؛ فالحديثُ عن مَن كانوا قبلَ قوم تُبَّع؛ كقوم هودٍ، وصالح، ونوحٍ، وغيرِهم مِنَ الأمم الكافرة الذين جمَعهُم بإيجازٍ وإبداعٍ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

فكأنَّه قد جُعِلتِ القبْليَّةُ هي المكانَ الذي ابتُدِئَ منه إهلاكُ الكافرين المكذِّبين، فيشمَلُ ذلك كلَّ مَن سبقَ المخاطَبين ممَّن هذه صِفتُه؛ ليَعلموا أنَّهم ليسوا بدعًا منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقبْليَّة في ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

سُنَّة الله في خلقِه ماضية، وآياتُه للعالمين هادية

عُبِّر بالقبْليَّةِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ليشمَلَ كلَّ مَن صحَّ أن ينطبقَ عليه مفهومُ الآية، "فمن قبْلِ قوم تُبَّعٍ أهلكَ اللّه تعالى قومَ نوح، وأهلك عادًا، وثمودَ، وأصحابَ مدين، وقومَ لوطٍ، وهؤلاء ممَّن ذَكَر القرآنُ أخبارَهم، وهناك كثيرون مِنَ الأفراد والجماعات

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 626.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

لم يُذكَروا؛ إذ ليس المقصودُ مِنَ الذِّكر إلّا العبرةَ والعِظَة، وفي هذا القليل الذي ذُكِر عبرةٌ وعِظَةٌ لأولي الألباب"[1].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾:

ثـراءُ الـدَّلالات بـتـعـدُّد الـتَّـوجـيـهـاتِ والتَّأويلات

يجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ خبرًا لقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فيكون الوقفُ حينئذٍ على ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾، والابتداء بـ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾.

ويجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ استئنافًا، أو حالًا مِنَ الضَّمير المسْتَكنِّ في الصِّلة، بحيث يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ معطوفًا على قوله سبحانه: ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾، فيكون الوقفُ على ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والابتداء بـ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾[2].

وبحسب الوجه الأوَّل فإنَّ المقارنة معقودةٌ بين منكِري البعثِ وقوم تُبَّعٍ فقط، وبحسب الوجه الثّاني فإنَّ المقارنة معقودةٌ بين منكِري البعثِ وقوم تُبَّعٍ والذين مِن قبلِهم جميعًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي مسندًا إلى نون العظَمة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾:

ما يُـنـسَبُ إلى العظيم جليلٌ وعظيم

عُبِّر بالماضي مُسندًا إلى نون العظَمة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾؛ لبيان عظمتِه، وشدَّةِ بطشه، وطلاقةِ قدرته ﷻ؛ فالمعنى: لقد أهلكناهم بعظمتِنا وإن كانوا عظماءَ أشدّاء لا يرون أحدًا أشدَّ منهم قوَّةً، ولا يُدانيهم هؤلاءِ فيما كانوا عليه[3].

ثمَّ إنَّ إهلاكهم كان عظيمًا، فهُم كما قال اللّه تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 40].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 208.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1147، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 577، والسَّمين الحلبي، الدرُّ المصون: 9/ 262.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 38.

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه تعليلٌ لمضمون جملة ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْۖ﴾، فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّر، وهو: لماذا أُهلِكوا؟ فالجواب: بسبب إجرامهم؛ أي: شِركِهم مع ما كانوا عليه مِن غاية القوَّة والشِّدَّة، فمِن بابٍ أولى أن يهلك هؤلاء المُنكِرون للبعث وهم شركاءُ لإخوانِهم السّابقين في الإجرام، وأضعَفُ منهم في الشدَّة والقوَّة[1].

المـعـاصي بـريـدُ النِّقم، وحالقة النِّعم

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة المؤكَّدة بـ(إنَّ):

أوثِرَ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة التي تفيد الثُّبوتَ لإفادة ثباتِهم على الإجرام ورسوخِ قدمِهم فيه، وجاءت (إنَّ) لإفادة التَّأكيد مِن حيث إنَّها تقوم مقامَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّها أوْجَزُ وأخصَرُ مع حصول الغرض مِنَ التَّأكيد[2].

أنـــزل الـلـه بالمجرمين شديدَ عقابه، ولم ينجُ أحدٌ مِن عذابه

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالإجرام دون الظُّلم أو الكفر أوِ الإفساد ونحوِ ذلك:

تدور معاني الإجرام حول القطع، وأصلُه: قطعُ الثَّمر عنِ الشَّجر، واستُعِير لكلِّ اكتسابٍ، ومنه: جَرَمَ؛ أي: كسب؛ لأنَّ الذي يحوزه فكأنَّه اقتطعه، وغلبَ ذلك في المكروه، فالجُرمُ والجريمة: الذَّنبُ؛ لأنَّه كسْبٌ، والكسبُ اقتطاعٌ، وأجرمَ: جنى جنايةً[3].

وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بالإجرام هنا لإفادةِ معنى قصدِ المعصية وتعمُّدِ الكفر والإصرار عليه، ثمَّ إنَّ هناك تشابُهًا بين قوم فرعونَ وقوم تُبَّع، فكِلاهُما وُصِفَ بالإجرام، أمّا قومُ فرعونَ فقد جاء فيهم قولُه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾، وأمّا قومُ تُبَّعٍ والذين مِن

في الإجرام تعمُّدٌ لـلـعـصـيـان، وإصـــرارٌ على الكفران

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 64/ 8.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.

(3) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، اللِّسان: (جرم).

قبلهم فقد جاء فيهم قولُه سبحانه ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النُّشورُ والبعث والإحياء:

الباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[1]؛ فأصلُ البعث إثارةُ الشَّيء وتوجيهُه، قال اللّه ﷻ: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يُخرِجهُم ويُسيِّرهم إلى القيامة، ويقال: بعثتُ البعيرَ، أي: أثرتُهُ وسيَّرتُهُ، وبعَثَ اللّهُ الموتى، أي: أقامَهُم للحشر[2].

والنّونُ والشِّينُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه، ومنه: نشرتُ الكتاب: خلاف طوَيتُه[3]، والنَّشْر في الأصل: بسطُ الشَّيء ومدُّه، ونقيضه: الطَّيُّ[4]، والمعنى المحوريُّ لجَذرِه: تَفريقٌ ببَسطٍ ومدٍّ[5].

الإحياءُ جَعْلُ الحياة تدبُّ في الخَلْق، والبعثُ إخراجُهم من قبورهم إلى الموقف، والنُّشورُ ظهورُ المبعوثين وظهورُ أعمالِهم للخلائق

ويتبيَّن ممّا سبق أنَّ الإحياء: أن يجعلَ اللّهُ الحياةَ تدبُّ في الخَلْق، وبعثُ الخَلْق: اسمٌ لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]، والنُّشور: اسمٌ لظهور المبعوثين، وإنشارُهم يعني: جعْلَهم ينتشرون في الأرض بعد بعثِهم، ويتفرَّقون فيها حتى يجمعَهم موقفُ الحشر؛ لتُنْشرَ فيه صحائفُ أعمالهم، ومنه قيل: نشرتُ اسمك، ونشرتُ فضيلة فلان، إلّا أنَّه قيل: أنشرَ اللّهُ الموتى (بالهمزة)، ونشرتُ الفضيلةَ والثَّوب للفرق بين المعنيَين[6].

(1) ابن فارس، المقاييس: (بعث).
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).
(3) ابن فارس، المقاييس: (نشر).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 583.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 288.

الإهلاكُ والتَّدمير والإفناء:

في الإهلاك كَسرٌ وإسقاط، والتَّدميرُ إدخالُ الهلاك على الشَّيء، وفي الإفناء قَطع

الفرقُ بين الثَّلاثة أنَّ أصل التَّدمير: إدخالُ الهلاك على الشَّيء[1]، يقال: دَمَر القومُ دمارًا، أي: هلكوا بدخول الهلاك عليهم[2]؛ وهذا يرجع إلى ما يدلُّ عليه جذرُ الكلمة: وهو الدُّخول في البيت وغيره؛ يقال: دَمَرَ الرَّجلُ بيتَه، إذا دخلَه[3]، أمّا الإهلاك فجذرُه يدلُّ على كسرٍ وسقوط[4]؛ ولذلك يقال للميِّت: هلَك، ومَن أُهلِكَ فقد كُسِر فسَقط، وأمّا الإفناء: فهو القَطع؛ يقال: أفناه اللّهُ، أي: قَطعه وذهبَ به، ومَن فَنيَ، فقد قُطِع عنِ الحياة فانقطعَ عنها[5]، والفاني: الشَّيخ الكبير الهَرِم، ويقال: فَنِيَ فلانٌ: هَرِم وأشرفَ على الموت هَرَمًا؛ أي: قُطِعَت عنه قوَّةُ الشَّباب[6]، ويقال: هو مِن أفْناءِ العرب، إذا لم يُدْرَ مِمَّن هو[7]؛ فكأنَّه مقطوع النَّسب.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دمر).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دمر).

(3) ابن فارس، المقاييس: (دمر).

(4) ابن فارس، المقاييس: (هلك).

(5) ابن فارس، المقاييس: (فني).

(6) ابن منظور، اللسان، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فني).

(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (فني).

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ [الدُّخان: 38 - 39]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

عَظُم منهم الإنكارُ؛ فأجابهم بما هو محلُّ افتكارٍ ومحطُّ استدلالٍ ونظرٍ واعتبار

لمّا ذكرتِ الآياتُ إنكارَ المشركين للبعث - وهو أشنعُ ما في الكفر - وما جاؤوا به مِن حُجَجٍ باطلةٍ واهيةٍ، وقد تهدَّدهم الله ﷻ وتوعَّدهم بالهلاك في الدُّنيا، كما أهلك الظّالمين المكذِّبين قبْلَهم؛ اقتضَت حكمتُه ﷻ أن يجعل سلطانَ الحقِّ قائمًا على هذا الوجود، وأن يقطعَ دابرَ الباطل إذا هو طافَ بِحِمى الحقِّ، واعترضَ سبيله[1]؛ فأخبر أنَّ هذا السَّقفَ المرفوعَ وهذا المهادَ الموضوعَ وما بينهما مِن أصنافِ الخلائق مشحونةٌ بضروب البدائع والعجائب؛ لتكون مطارحَ نظرٍ وافتكارٍ، واستدلالٍ للعباد واعتبارٍ، ومانعًا من خوض لُجَجِ العصيان والإنكار[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٰعِبِينَ﴾: أصلُ (لعب) يدلُّ على اضطرابٍ في ما يصدر عنِ الشَّيء بسبب تجمُّع حيويتِه أو نشاطِه[3]، لَعَب يلعَب لَعْبًا: سال لُعابُه، واللَّعِب واللَّعْب ضدُّ الجِدِّ، لَعِب فلان، يلعَب لَعِبًا ولَعْبًا: إذا كان فِعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصِدًا صحيحًا، واللَّعِب: فِعلُ ما لا فائدةَ فيه، وهو بمعنى الهزْل، ورجلٌ تلعابة: كثيرُ اللَّعب[4]، وتلعَّب: لَعِب مرَّةً بعد أخرى، واللَّعْبة للمرَّة الواحدة، واللِّعْبة: الحالةُ التي عليها اللّاعب، تقول: رجلٌ حسن اللِّعبة، كما تقول: هو حسنُ الجِلسة، وهو

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 124، والبقاعي، نظم الدُّرر: 38/ 18، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 209.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 106، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 180.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لعب).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لعب).

نوعٌ مِنَ اللَّعِب، واللُّعبة: كلُّ ما يُلعَب به[1]، ومعنى: ﴿لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: غافلين ولاهين[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

خَلْقُ اللهِ الخلقَ بقدرتِهِ ولحكمتِهِ سبحانه من إقامةِ الحقِّ والتزامِ طاعته

يُخبر المولى ﷻ عن كمال قدرته وتمامِ حكمتِه، وأنَّه سبحانه ما خلقَ السَّماواتِ والأرَضِينَ السَّبعَ وما بينهما مِنَ المخلوقات المنظورةِ وغيرِ المنظورة عبثًا، وإنَّما خلقَهُما سبحانه بالحقِّ الذي يقتضي الإيمانَ بوجود اللّه وقدرتِه سبحانه على البعث والنُّشور، والذي يعني الثَّوابَ على الطّاعةِ والعقابَ على المعصية، ولكنَّ أكثرَ هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك؛ لأنَّهم في غفلةٍ عمياء[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتُها:

السَّقفُ المرفوع، والمهادُ الموضوع آياتٌ تبعث على الذُّلِّ والخضوع

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ يصحُّ أن تكون استئنافيَّةً[4]، ويكونَ ما بعدها كلامًا مستأنَفًا مَسوقًا للتَّدليل على صحَّة الحشر ووقوعِه[5].

ويصحُّ أن تكون الواو عاطفةً ما بعدها على ما قبْلها مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ليتناسقَ الكلام ويلتئمَ طرَفاه[6]؛ ذلك أنَّه لمّا أنكرَ على كفّار مكَّة قولَهم ووبَّخهم بأنَّهم أضعفُ ممَّن كان قبْلَهم - ذَكَر الدَّليلَ القاطعَ على صِحَّة القول بالبعث والقيامة، فعَطَفَ على توبيخهم وتهديدهم

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 147.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 51/ 21، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 774.
(4) محمود صافي، الجدول: 13/ 131، والدُّرة، تفسير القرآن وإعرابه: 8/ 682.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 133.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 25/ 310، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 133، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 647.

وتحذيرهم مصارعَ السّابقين ما هو أكبرُ في الظّاهر منه فقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾؛ أي: على عِظَمِهما واتّساعهما واحتوائهما لِما فيهما مِن عظيم الخَلْق وبديع الصُّنع؛ لأنَّ العمل كلَّما زادَ كان أبعدَ مِنَ العَبَث، ولو لم يحصلِ البعْثُ لكان هذا الخلقُ لعبًا وعَبَثًا[1]، بل لقد خلقَ الله تعالى ذلك كلَّه بالحقِّ؛ أي: بالحكمة، كما دلَّ عليه إتقانُ نظام الموجودات، فلا جرمَ اقتضى خلقُ ذلك أن يُجازَى كلُّ فاعلٍ على فعله، وأن لا يُضاع ذلك، ولمّا كان المُشاهَد أنَّ كثيرًا مِنَ النّاس يقضي حياته ولا يرى لنفسه جزاءً على أعماله تعيَّن أنَّ الله أخَّر جزاءَهم إلى حياةٍ أُخرى، وإلّا لكانَ خلْقُهم في بعض أحواله مِن قبيل اللَّعِب[2].

معنى (ما) ودلالتُها في الآية:

في خلق الله تعالى عبرةٌ للمتدبِّرين، وعظةٌ للعاقلين

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ هي النّافية، وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بها هنا في معرضِ نفي العبث واللَّعب في خلق السَّماوات والأرض وما بينهما؛ مِن حيث إنَّها آكدُ في النَّفي مِن أخواتها كـ(لم، وليس)؛ ذلك أنَّها تقع جوابًا للقَسَم، وهي أوسعُ استعمالًا منهما أيضًا، فتدخلُ على الجُمل الفعليَّة والاسميَّة، وتأتي كثيرًا ردًّا على قولٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلةَ[3].

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعد إفرادها في ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ﴾:

جُمِعتِ السَّماوات؛ تدليلًا على عِظَم الآيات

أوثِرَ الإفرادُ في سياق الحديث عن هوانِ الهالكين مِن قوم فرعونَ، وأنَّهم لم يعبأ بهم مخلوقٌ، فهذه السَّماءُ التي فوق رأسهم لم تبكِ عليهم؛ إذ لم يُفتح فيها بابٌ لتلقِّي عملٍ صالحٍ واحدٍ عَمِلوه لله! وهذه الأرضُ تجوى مِن نتن ذنوبهم وعصيانِهم، فكيف لها أن تأسى عليهم؟!

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 662، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 328، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 38.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 25/ 310.

(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 191 - 193.

فلمّا كان الغرضُ إظهارَ هَوانِ المُهلَكين، وبيانَ حقارةِ شأنِهم وعِظَم جُرمِهم وسوء صنيعهم؛ عُبِّر بالسَّماء مفردةً لأنَّ المرادَ بها السَّماءُ الدُّنيا.

لكنْ لمّا كان السِّياقُ في بيان عظيم خلْقِ اللّه تعالى، وإظهارِ طلاقةِ قدرتهِ ﷻ تدليلًا على بليغ الحكمةِ في الخلق، وإمكانِ البعث؛ عُبِّر بالجمع تكثيرًا وتعظيمًا.

ثمَّ إنَّ العمل "كلَّما زادَ كان أبعدَ مِنَ العَبَث، مع أنَّ إدراكَ تعدُّدِها ممّا يقتضي المشاهدةَ بما فيها مِنَ الكواكب"[1]، وهذا يحسنُ فيه الجمعُ لا الإفراد.

بلاغةُ الإيجازِ بالقِصَر في ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾:

التَّعبيرُ بالإيجاز للاختصار؛ بيانًا لكثرة ما ينافي الجحودَ والإنكار

قوله تعالى ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيه إيجازٌ بالقِصَر؛ حيث إنَّ المقصود ما بين هذين الجنسَين مِن مخلوقاتٍ لا يعلمها إلّا اللّه تعالى[2]، فيشمل هذا كلَّ مخلوقٍ مِن مَلَكٍ، وإنسٍ، وجنٍّ، وطيرٍ، وحوتٍ، وهامَّةٍ، ودابَّةٍ، ويشمَلُ كذلك ما كان مِن سحابٍ، وجبالٍ، وبحارٍ، وأنهارٍ، وأشجارٍ أو نحوه.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ﴿لَعِبِينَ﴾:

لم يكن خلقُ السَّماواتِ والأرض عبثًا، وما ادَّعَوهُ كان حِقدًا مِن عندهم وخبثًا

اللَّعب: العملُ أوِ القول الذي لا يُقصَد به تحصيلُ فائدةٍ مِن مصلحةٍ أو دفعُ مَفسدة، ولا تحصيلُ نفعٍ أو دفعُ ضُرٍّ، وإنَّما يُقصَدُ به إرضاءُ النَّفسِ حين تميلُ إلى العَبَث، كما قيل: لا بدَّ للعاقل مِن حَمْقَةٍ يعيشُ بها، ويُرادفه: العَبَث واللَّهو، وضدُّه: الجِدُّ، واللَّعبُ مِنَ الباطل؛ إذ ليس في عملِه حكمةٌ، فضدُّه الحقُّ أيضًا[3].

وأوثِرَ ذكرُ ﴿لَعِبِينَ﴾ هنا لتشير إشارةً ظاهرةً إلى الجملة الأُمِّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 38/ 18.
(2) الزحيلي، التَّفسير المنير: 25/ 230، وطنطاوي، الوسيط: 13/ 132.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 32/ 17.

التي بُنيت عليها السّورة، وهي قولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان: 9]، وتعود بشيءٍ مِنَ المعنى لكلمة ﴿يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان: 9]، وأنّه ليس اللَّعِبَ الذي يقابلُ الجِدَّ، وإنّما هو الباطلُ الذي يقابلُ الحقَّ[1]، وفيها توبيخٌ للَّذين أحالوا البعثَ والجزاءَ بأنَّهم اعتقدوا ما يُفضي بهم إلى جَعلِ أفعالِ الحكيم لعبًا[2].

علّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ عن سابقه:

الفصلُ للبداليَّة؛ إمعانًا في نفي الهزليَّة، وإظهارًا للغاية العليَّة

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ عن سابقه لِما بينهما مِن كمال الاتِّصال؛ لأنَّ جملة ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[3]، وهي مفسِّرةٌ لها[4]، ومؤسِّسةٌ عليها، ومبنيَّةٌ على حَذوِها، وإعادةٌ لها، وهي متضمِّنة إثباتَ الحقيقة التي أصرّوا على إنكارها: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، وقد فُصِلت عنها؛ لأنَّها موصولةٌ بها مِن ذاتِ نفسِها، وقد بُنِيت على القصر المؤكِّد للنَّفي في الجملة قبلَها[5].

بلاغةُ القَصرِ بالنَّفي والاستثناء في ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾:

الاستثناءُ المفرَّغُ لتأكيد الغاية العُظمَى مِنَ الخَلْق، وجعْلِه دائمًا ملابسًا للحقّ

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوال؛ أي: ما خلقناهُما ملتبِسينَ بشيءٍ مِنَ الأشياء إلّا بالحقِّ، أو الاستثناءُ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأسباب؛ أي: ما خلقناهُما بسببٍ مِنَ الأسباب إلّا بسبب الحقِّ الذي هو الإيمانُ والطّاعة والبعث والجزاء، والأوَّلُ أظهرُ[6]، وهو في الوجهين يفيد التَّأكيدَ عن طريق القَصر[7].

وقد أوثِرَ القَصرُ بالنَّفي والاستثناء لأنَّه يُؤتَى به - غالبًا - فيما

---

(1) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 646.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 25/ 310.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 25/ 310.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 133.
(5) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 646.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 661، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 129.
(7) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 647.

يُنكرهُ المخاطَب[1]، وقد حسَّن مجيئَه هنا كونُ المخاطَبين منكرينَ للبعث، وقد حكى عنهم القرآن مقالتَهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ وقولُهم هذا يستلزم كونَ السَّماوات والأرض قد خُلِقت عبثًا لا لشيء، وهذا محالٌ في حقِّ الإله الحكيم الخبير، وفي الدِّقَّة التي تنضحُ مِن كلِّ ذرَّة فيهما؛ فلذلك جاء الرَّدُّ عليهم مؤكَّدًا بأسلوب القَصر نفيًا واستثناءً.

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

خُلِقتِ السَّماواتُ والأرضُ خلقًا ملابسًا للحقِّ ملازِمًا له ومقارِنًا

الأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[2]، وهو في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بمعنى الإلصاق المجازيِّ الذي يُفيدُ الملابَسَة؛ أي: ما خَلَقْنا السَّماواتِ والأرضَ وما بينهما إلّا خَلْقًا ملابسًا للحَقِّ، ومُلازِمًا للحقِّ ومقارِنًا له، ولإظهار الحقِّ، وهو الاستدلالُ على وجود الخالق ووحدانيَّتِه[3]، وهذا "إخبارٌ فيه تنبيهٌ وتحذير"[4].

معنى التَّعريفِ في (الحَقِّ):

التَّعريفُ بالجنس تبيانًا لمعنى الكمال، وتدليلًا على مظاهر العظمةِ والجلال

التَّعريفُ في (الحَقِّ) للجنس، والحقُّ: ما يحقُّ وقوعُه مِن عَمَلٍ أو قولٍ؛ أي: يجبُ ويتعيَّنُ[5]؛ فقد أقام اللّٰه سبحانه "هذا الوجودَ على الحقِّ، كما خلقهُ بالحقِّ الذي ينتظم كلَّ ذرَّةٍ في هذا الوجود"[6]؛ أي أنَّ نَفْسَ خَلْقِهما بالحقِّ، وكذا خَلْقُهما مشتمِلٌ على الحقِّ، وأنَّ اللّٰه سبحانه قد أوجدَهُما ليعبدوهُ وحدَه لا شريكَ له، وليأمرَ العبادَ وينهاهُم ويُثيبَهم

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 129، والزحيلي، التفسير المنير: 25/ 230، وابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 25/ 310.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 75.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 310.

(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 209.

ويُعاقبهم[1]، فمِنَ الحقِّ الذي خُلِقَت السَّماواتُ والأرضُ وما بينهُما لأجلِه: مكافأةُ كلِّ عاملٍ بما يناسبُ عمَلَه ويُجازيه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الاستدراك ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الاستدراكُ لتقريعهم، وبيانِ قُبحِ زَعمِهم

الاستدراكُ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ "ناشئ عمّا أفادَهُ نفيُ أن يكون خلْقُ المخلوقات لَعِبًا، وإثباتُ أنَّه للحقِّ لا غيرَ؛ مِن كونِ شأنِ ذلك أن لا يخفى، ولكنَّ جهلَ المشركين هو الذي سوَّل لهم أن يقولوا: (ما نَحْنُ بِمُنشَرِينَ)"[3].

وجملةُ الاستدراك "تَذييلٌ، وتَجهيلٌ فَخيمٌ لمُنكري الحشر، وتوكيدٌ؛ لأنَّ إنكارَهم يؤدِّي إلى إبطال الكائنات بأسْرِها، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [النور: 15]"[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّة، وتوجيهُ عَوْدِ الهاء في ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾:

لا تستوحِشْ مِن قلَّة السّالكين، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين

جاء التَّعبير بالأكثريَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ للتَّنبيه إلى أنَّ عادة النّاس الانحيازُ التّامُّ إلى ما عليه الأكثريَّة، والاغترارُ بها، واستيحاشُ ما عليه القلَّة، والحقيقةُ مغايرةٌ لهذه العادات والمألوفات، ولبيان أنَّ مَن هُم على الباطل لم يكونوا قلَّةً، بل هم غالبيَّةُ مَن كان يعيش بينهم ﷺ.

"وفيه دلالةٌ جليلةٌ جدًّا وهي أنَّ أمْرَ النّاس إذا أُسنِد الرَّأيُ فيه إلى هذه الكثرةِ فقد ضاعَت المنفعةُ وضاعَ طريقُ الهُدَى؛ لأنَّ عيونَ الأكثر لا تُبصِر الهُدَى، وخصوصًا إذا التبسَتِ المسالكُ، ودقَّت وتشابهَت، وأنَّ التَّعقُّلَ والتَّفكُّرَ والبصيرةَ والرَّأيَ مع القِلَّة الواعيةِ العاقلةِ مِن أهل العِلم وأهلِ الصِّدق، وهذا لا يُنازِعُ فيه منازِعٌ"[5].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 774.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 310.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 25/ 311.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 129.
(5) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 649.

وعَوْدُ الهاء في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾؛ للتَّنبيه إلى أنَّهم أربابُ مقولة: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾، والمعنى: أنَّه سبحانه خلقَ هذه الآياتِ العظيمةَ بسبب إقامته الحقَّ عليهم؛ ولمّا عَميَت أبصارُهم فهُم لأجل ذلك يجترئون على المعاصي ويُفسدون في الأرض لا يَرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، ولو تذكَّروا ما ذكرناهُ في جبلّاتهم لَعَلموا عِلمًا ظاهرًا أنَّه الحقُّ الذي لا مَعدلَ عنه، كما يتولَّى حُكّامُهم المناصبَ لأجل إظهار الحكم بين رعاياهُم، ويشترطون الحكمَ بالحقِّ ويؤكِّدون على أنفسهم أنَّهم لا يتجاوزونه[1].

نكتةُ حذفِ معمول الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

حـذفُ معمولِ العـلـمِ لنفيهِ عنهم بالكلّية، وكشفِ ضحالةِ عقلهم وقُبحِ الطَّويَّة

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ تنزيلًا له منزلةَ اللّازم، مبالغةً في نفي العِلم عنهم، وإشارةً إلى أنَّهم غيرُ مؤهَّلين، وأنَّه لا يكونُ منهم العِلْمُ مع صَرف النَّظر عنِ المعلوم ما هو[2]، فهُم لا يخافون على ما يأتون مِن سخطِ اللّه عقوبةً، ولا يرجونَ على خيرٍ - إن فعلوه - ثوابًا؛ لتكذيبهم.

(1) الخطيب الشِّربيني، السراج المنير: 3/ 588.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 650.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدُّخان: 40 - 42]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ عاقبةِ الكُفّارِ يومَ القِيامَةِ

لمّا ثبت البعث بالحجج الواضحة السّاطعة؛ أعقبه سبحانه بذكر ما يتعرَّض له الكافر يوم القيامة مِن أهوالٍ بفقد الأعوان والنُّصراء[1]، ثمَّ إنَّ الآيةَ ورادةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر، فكأنَّه قيل: إنّا نرى أكثر المظلومين يموتون بمرير غُصَصِهم مقهورين، وأكثر الظّالمين يذهبون ظافرين بمطالبهم مسرورين، فمتى يكون هذا الحقُّ؟ قال جوابًا عن ذلك: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَصْلِ﴾: (فصل) أصل يدلُّ على تمييز شيءٍ من شيء وإبانتِه عنه[3]، فالفصلُ: إبانة أحد الشَّيئين مِن الآخر، حتَّى يكون بينَهما فُرجة، ويُقال: فَصَلْتُ الشَّيء عن الشَّيء، فانفصل؛ إذا قطعتَهُ فانْقَطَع، والفَصل: واحد الفصول، والفصل مِن الجسد: موضع المِفصَل، والمِفْصَلُ: واحد مفاصل الأعضاء، وفَصَلَ القومُ عن المكان وانفصلوا؛ أي: فارقوه وخرجوا مِنْهُ، وفَصْلُ الخطاب: ما فيه قطع الحُكم، يُقال: حُكمٌ فَيْصَلٌ، والفيصلُ: الحاكِمُ، ولسانٌ مِفصَل[4]، والفَصْلُ: القضاء بين الحقِّ والباطل[5]، ومعنى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والزحيلي، التفسير المنير: 25/ 235.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 41.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فصل).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فصل).

﴿ٱلْفَصْلِ﴾؛ أي: اليوم الذي يُبيَّن فيه الحقُّ والباطلُ، ويُفصَل فيه بين النّاس بالحُكم، ويومُ الفصلِ هو يومُ القيامة[1].

2) ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾: (وقت) تدور تصريفاتُه على حدِّ الشَّيء وكُنْهِه في زمانٍ وغيره[2]، ومِنْهُ: الوقتُ؛ وهو مقدارٌ مِن الزَّمان، ونهاية الزَّمان المفروض للعمل؛ ولهذا لا يكاد يقال إلّا مقيَّدًا، نحو قولهم: وقَّتُّ كذا؛ أي: جعلتُ له وقتًا، وكلُّ شيء قدَّرتَ له حينًا؛ فهو مؤقَّت، وكذلك ما قدَّرتَ غايتَه، فهو مؤقَّت، والميقاتُ: الوقت المضروب للشَّيء، والوعدُ الذي جُعِلَ له وقت.

ومعنى: ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ أي: وقتُ موعدهم[3]، وقد يُقال الميقات للمكانِ الذي يُجعل وقتًا للشَّيء، كميقات الحجِّ، تقول: وقَتَه فهو موقوت؛ إذا بيَّن للفعل وقتًا يُفعل فيه، والتَّوقيت: تحديد الأوقات، تقول: وقَّتُّه ليوم كذا، مثل: أجَّلتُه[4].

3) ﴿مَوْلًى﴾: (ولي) أصلٌ يدلُّ على معنى القُرْب، ومِنْهُ: الوَلْيُ؛ وهو القُرب والدُّنوُّ، يقال: تباعَدَ بعد ولْي، ويقال: ولِيَه يَلِيه[5]، والوَلِيُّ: النَّصير؛ وهو ضِدُّ العَدوِّ، والولاية: النُّصرة، وكذلك الوَلِيُّ: الصَّديق والمحبُّ التّابع، وهو ضِدُّ العَدوِّ أيضًا[6]، والوَلِيُّ والمَوْلى يستعملان بمعنًى واحدٍ عند العرب، والمَوْلى: المُعتِق، والمُعتَق، والنّاصر، والجارُ، والحليف، والوِلاية والوَلاية: النُّصرة[7]، ومعنى: ﴿مَوْلًى﴾؛ أي: قريبٌ أو صديقٌ[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرنا اللّه ﷻ في هذه الآيات عن يوم القيامة مبيِّنًا أنَّه اليوم المحدَّدُ والمؤقَّت للقضاء بين جميع الخلائق بما قدَّموا في دنياهم من خير أو شرٍّ، وهو اليوم الَّذي لا ينفع فيه قَريبٌ

(1) البغوي، معالم التنزيل: 16/ 147، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 293، والراغب، المفردات: (فصل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (وقت)، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 293.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وقت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ولي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 235، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 147.

قَريبَهُ بأن يدفع عنه شيئًا من العذاب وغيره مِمّا نزل به، ولا هم كذلك يُمنعون من عذاب الله إذا نزل بهم في ذلك اليوم إلّا مَنْ رحمه الله تعالى بالعفو عنه، وقبل الشَّفاعة في حقِّه من عباده المؤمنين؛ لأنَّه سبحانه العزيز في انتقامه من الأعداء، الرَّحيم بعباده الأولياء[1].

في يوم القيامة يُقضَى بين النّاس، ويُفقد النُّصراء والأعوان، ويُكرم عبادُ الرَّحمن

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ عمّا قبلَهُ:

تقريرُ ما يكون مِن بيانِ الحقِّ يوم القيامَةِ

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ عن سابقه؛ لأنَّ هذه الجملة تتنزَّل مِن التي قبلها منزلة النَّتيجة من الاستدلال[2]؛ فإنَّ المقصود مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾ [الدخان: 38] إثباتُ القول بالبَعث والقيامة؛ لأنَّ نفي اللَّعب والعبَث عن خلق السَّماوات والأرض يقتضي وجودَ حكمة لخلقِها على هذا النَّحو؛ فلا جَرَم ذَكَر عَقِيْبه قولَه تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[3].

فالمعنى: فيوم الفصلِ ميقاتُهم إعلامًا لهم بأنَّ يوم القضاء هو أجَلُ الجزاء، فهذا وعيدٌ شديدٌ لهم.

ويجوزُ أن تكون الآية قَدْ فُصلَت عمّا قبلَها؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ قوله سُبحانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩﴾ [الدخان: 38 - 39] يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، حاصلُهُ: إنّا نرى أكثر المظلومين يموتون بمرير غُصَصِهم مقهورين، وأكثرَ الظّالمين يذهبون ظافرين بمطالبهم مَسْرورين، فمتى يكون هذا الحقُّ؟ فجاء الجواب في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فكان بينَ الجملتينِ شبهُ كمال الاتِّصالِ.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 235، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 387 - 389.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663.

نكتة توكيد جملة ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ إثباتِ البعثِ للكفّار، ودحض ما لديهم مِن إنكار

جاءت جملة ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّ المخاطَب بها منكِرٌ للبَعث والنُّشور والحساب والجزاء[1]، فجاء تأكيدُ الخبرِ لردِّ إنكارهم، وإثبات أنَّ يوم القيامة هو ميعادهم، ووقتُ حسابهم وجزائهم جميعًا، كما أنَّه اليوم الذي يفصِل اللّه تعالى فيه بين الخلائق؛ ليميز سبحانه الخبيثَ مِن الطَّيِّب، والمحسنَ مِن المسيء، والمُحِقَّ مِن المُبطِل[2].

سرُّ التَّعبير عن يوم القيامة بيوم الفصل:

الفصلُ والتَّمييزُ أنسبُ لمضمون السّورة ومطلَعِها

أوثِرَ التَّعبير عن يوم القيامَةِ بيوم الفصل؛ لأنَّه المعنى الأبرَز في السّورة؛ فالآيات التي سبقت هذه الآيةَ ذكرَتْ إنكارَ المُشْرِكين للبَعْثِ والحِسابِ والجَزاء، ومواجهة دعوة الرَّسول ﷺ لهم بالكِبر والاستعلاءِ، واشتملَت كذلك على ذكرٍ لفرعون ومَلَئه، وما وقع بينه وبين الكليم موسى عليه السلام، واشتملت أيضًا على ذكرٍ لقوم تبَّع، فجيء به للإشارة إلى ما في هذا اليوم مِن حساب وعقابٍ، وفصلٍ وحكم، كما أنَّ كلمة الفصل أشبه بطالعةِ السّورة؛ لأنَّ الفصلَ هو معنًى قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدخان: 4][3]، وكذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان: 9]، فلا جَرَم أن يكون يومٌ يُفصَل فيه باليقين الذي يمحَق الشَّكَّ، وبالجِدِّ الذي يقطع الهزل، وبالحقِّ الذي يُزهِقُ الباطل.

فالحاصل أنَّه عُبِّر بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾؛ لأنَّه يقع فيه "فصلُ الحقِّ عن الباطل، أو المُحِقِّ عن المُبطِل بالجزاء، أو فصل الرَّجُل عن أقاربه وأحبّائه"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 25/ 133.
(3) محمد أبو موسى، آل حم (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 651.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.

والسّورة مِن أوَّلها إلى آخرها فيها فريقان: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، وفي يوم القيامة يَفْصِل اللهُ سُبْحانه بينَهما؛ فـ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشّورى: 7].

دلالة التَّعبير بالميقات مادَّةً وصيغةً:

الميقاتُ موعدٌ مؤجَّل لوقتٍ معلومٍ

مادَّةُ (وقت) تدلُّ على حدِّ شيءٍ وكُنْهِهِ في زمانٍ وغيره، منه الوقت؛ وهو الزَّمان المعلوم، والموقوت: الشَّيء المحدود، والميقات: المصير للوقت، يقال: وقَّت له كذا ووقَّته؛ أي: حدَّده[1]، والمعنى المحوريُّ للجذر هو: تحديد زمنٍ معيَّن دقيقٍ لإيقاع الشَّيء[2].

و(الميقات) على وزن اسم الآلة مِن (وَقَّتَ)، وسمَّى العربُ به الوقت، وكذلك سُمِّي الشَّهر شهرًا مشتقًّا من الشُّهرة؛ لأنَّ الذي يرى هلال الشَّهر يُشَهِّره لدى النّاس، وسمَّى العربُ الوقتَ المعيَّن ميقاتًا على وجهِ المبالغةِ، وإلّا فهو الوقتُ عينُه.

وذهب بعضُ أهل العربيَّةِ إلى أنَّ الميقاتَ أخصُّ مِن الوقت؛ لأنَّه وقتٌ قدِّر فيه عملٌ مِن الأعمال، فعليه يكون صوغُه بصيغةِ اسم الآلة اعتبارًا بأنَّ ذلكَ العملَ المعيَّن يكون وسيلةً لتحديد الوقت، فكأنَّه آلةٌ للضَّبط[3]، وهو مِن دقائق العربيَّة[4].

والحاصل أنَّ المقصود بالميقات في الآيةِ: هو وقتُ موعدِهم الذي ضُرِب لهم في الأزَل للفصلِ بينَ الخلائقِ[5]، وفيه ردٌّ على إنكارهم، ووعيد أكيد لهم.

نوع الإضافة ودلالتها في ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾:

تخصيص الكفّار أدخَلُ في الوعيدِ والتَّهديدِ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾ إضافةٌ يُرادُ بها التَّخصيصُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 6/ 132.
(2) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقت).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 196.
(4) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 10/ 8.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 588.

والمقصود أنَّه موعد الخلق أجمعين؛ المؤمنِ والكافرِ، والبَرِّ والفاجرِ، ليواجه كلٌّ جزاءَ ما قدَّم؛ فإمّا نارًا وزقّومًا وإمّا جنّاتٍ ونعيمًا[1]، فأضيفَ الميقاتُ إلى الضَّمير العائد على المُنكرين للبعث؛ لأنَّ الخطاب خطاب وعيد، وهم المقصودون مِن هذا الوعيد[2]؛ فلذلك خصَّهم بإضافةِ الضَّمير إليهم دونَ المؤمنين، كأنَّه قال: إنَّ يومَ فصلِ المرءِ عَن أحبابه وذَويه ميقاتُ الكافرين المعاندينَ أجمعين، فهم - وإن أنكروه - فإنَّه مِن الأزَل مضروبٌ لهم، وإنَّهم ملاقوه لا محالةَ.

دلالة توكيد الضَّمير في ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾ بـ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

لا يُستثنى مِنَ الحَشْر الأُخرويِّ أحدٌ

جاء التَّأكيد بـ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ للتَّنصيص على الإحاطة والشُّمول؛ أي: أنَّه ميقاتٌ لجزائهم كلِّهم لا يُفلت منه أحدٌ منهم؛ تقويةً في الوعيد، وتأييسًا مِن الاستثناء[3]، كما أنَّه لا يتخلَّف عنه أحد ممَّن مات مِن الجنِّ والإنس والملائكة وجميع الحيوانات[4].

نكتة حذف متعلّق الميقات:

حُـذِف متعلّق الميـقاتِ مُـؤذنٌ بالعمومِ

حُذِفَ متعَلَّقُ الميقاتِ لظهورِه مِن المقامِ، ولدلالة السِّياق عليه، والتَّقدير: إنَّ يوم الفصل ميقاتُ جزائهم أجمعينَ[5]، ولإفادة التَّعميم أيضًا؛ فيوم القيامة ميقاتُ الخلائق جميعًا دون استثناء، للبعثِ والحساب والجزاء، وقد جيء بعد ذلك بِمؤكِّداتٍ عدَّةٍ تقويةً لِهذا العموم.

علَّة فصل قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ عن سابقه:

زيـادَةُ البَيانِ بذِكْرِ ما يَحْمِلُ علـى الخوفِ والرَّجاء

فُصل قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾ عن سابقه؛

---

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 9/ 863.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والبقاعي، نظم الدّرر: 41/ 18، والخطيب الشربيني، السِّراج المنير: 3/ 588، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 387، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 134.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 311.

لكمالِ الاتِّصال بين الجملتين؛ فقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ بدلٌ مِن قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أو عطفُ بيانٍ[1] أو هو منتصبٌ بفعلٍ يدلُّ عليه الفصل؛ أي: يفصل بينهم يومَ لا يغني أحدٌ عن أحد[2]؛ فإنَّه سبحانه لمّا ذكر هذا اليوم الذي دلَّ على عظمته؛ ذَكَر مِن وصفهِ ما يحمِل على الخوف والرَّجاء[3]، والمعنى: أنَّه لا ينفع قريبٌ قريبًا، ولا يدفع عنه شيئًا.

نكتة التَّعبير بالمضارع المنفيِّ ﴿لَا يُغۡنِي﴾:

نفي الإغناء يوم القيامَةِ بإطلاق

جاء التَّعبير بالفعل المضارع الذي يفيد التَّجدُّد منفيًّا بـ﴿لَا﴾ التي هي آكدُ وأعمُّ في النَّفي في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلَى شَيۡـٔٗا﴾؛ لنفي وقوع الإغناء بأيِّ وجهٍ من الوجوه في ذلك اليوم الرَّهيب[4]؛ فلا يدفع قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه، ولا ينفع أحدٌ أحدًا مطلقًا، فالمضارِعُ المَنْفِيُّ دالٌّ على استمرارِ النَّفي لا على نفيِ الاستمرارِ.

ونفيُ الإغناء عنهم من ناحيةِ أوليائهم فيهِ نفيٌ لحُدوثه مع محاولتهم واعتقادهم القدرةَ عليه، ففيه إضافةٌ لمَعْنى الحسْرَة والخيبة يوم القيامة بعد عَجْزِهم عن نَفْعِهِم والإغناءِ عَنْهُم شيئًا.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ﴿مَوۡلًى﴾ ودلالة تنكيره في الموضعين:

المبالغة في نفي الإغناء، وقطعُ الطَّمع في شفاعةِ الشُّفعاء

تدور معاني الولاية حول الدَّلالة على القُربِ، فيُقال: تباعدَ بَعدَ وليٍ؛ أي: بعد قُرْب، وجَلَسَ ممّا يليني؛ أي: ممّا يقاربُني، ويُسْتَعار ذلك للقرب مِن حيث المكان، ومِن حيث النِّسبة، ومِن حيث الدِّين،

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 148، والبقاعي، نظم الدرر: 41/ 18، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312، والهرري، الحدائق الروح والريحان: 26/ 388.

(2) القنَّوجي، فتح البيان: 12/ 407، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 388.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.

ومِن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد، والولاية: النُّصرة، والوليُّ والمَولَى: القريب والنَّصير، ويُستعملان في معنى الفاعل؛ أي: الموالِي، وفي معنى المفعول؛ أي: الموالَى[1].

والمولى في قوله تعالى: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ يعمُّ جميع الموالي مِن العَصَبات، والقرابات، وموالي العتق، وموالي الصَّداقة، وموالي الجِيرة، وموالي الدِّين[2]، "وكلُّ مَن ولِيَ أمرَ واحدٍ؛ فهو وليُّه ومولاه"[3].

فالمعنى: أنَّ الذي يُتَوقَّع منه النُّصرة هو القريبُ في الدِّينِ أو في النَّسب، أو المعتقُ، أو الصَّديقُ، أو المحبُّ، أو الجارُ، أو النَّصير ... إلخ، وكلُّ واحد مِن هؤلاء يُسمَّى (مَوْلًى)، فواحدٌ مِن هؤلاء - أيُّ واحدٍ كان - لا يُغني عن مولاهُ أيَّ مولًى كان شيئًا - ولو قليلًا - مِن الإغناء؛ فإذا لم ينفع بعضُ الموالي بعضًا ولم يُغنِ بعضُهم عن بعضٍ شيئًا مِن العذاب بشفاعتهم، ولم تحصل النُّصرة منهم - وهم الأقرباء الأحبّاء - كان عدمُ حصول ذلك ممَّن سواهم مِن البُعَداء أَوْلى وأحرَى، وهذا في حقِّ الكُفّار، وهذه الآية شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48]، وبقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: 33][4].

فالحاصل أنَّ التَّعبير بالمولى أفادَ المبالغة في نفي الإغناء، وقطع الطَّمع في شفاعةِ الشُّفعاء.

وقد جاءت ﴿مَوْلًى﴾ نكرةً في سياق النَّفي لإفادة العموم[5]؛ "أي: لا يُغني أحدٌ مِن الموالي كائنًا مَن كان عَن أحدٍ مِن مواليه كائنًا مَن كان"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولي).
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 75/ 5.
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص: 344.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 588، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 129، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 133.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 280، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.

معنى ﴿عَن﴾ ودلالتها في ﴿عَن مَّوْلَى﴾:

الأصلُ في معنى (عن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على البُعد والمجاوَزَة[1]، فالمعنى: أنَّه لا يقع مِن مولًى إبعادُ العذاب والكربِ يوم القيامة عن مولًى آخرَ، ولا يمكن جَعلُه يتجاوزُ العذابَ أو ما قدَّر اللّه له يوم الحساب.

إبعادُ العذابِ محالٌ؛ إذْ لا يُغني مولًى عن مولًى بحالٍ

نكتة تنكير ﴿شَيْـًٔا﴾:

أوثِرَ تنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلَى شَيْـًٔا﴾ لإفادة التَّقليل؛ أي: لا يُغني مولًى عن مولًى ولو شيئًا قليلًا مِن الإغناء[2]، وهذا التَّقليلُ هوَ الغالبُ في تنكير لفظ (شيء)، كما قال تعالى: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦﴾ [سبأ: 16]، ووقوعُه في سياق النَّفي مفيدٌ العمومَ أيضًا؛ يعني: أيَّ إغناءٍ كان في القِلَّة بَلْهَ الإغناءَ الكثير، فعُدِلَ عن ذلك إلى التَّعميم لأنَّه أوسعُ فائدةً؛ إذ هو بمنزلة التَّذييل[3].

يوم القيامة لا يُغني الأولياءُ أيَّ شيءٍ مِن الإغناء

نكتةُ عطفِ قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلَى شَيْـًٔا﴾ لما بينَهُما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتانِ متَّفقتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى؛ فأمّا المناسبةُ اللَّفظيَّةُ؛ فاتِّحادهُما في التَّعبير بالفعل المضارِعِ المسبوقِ بنفيٍ، وأمّا المناسبةُ المعنويَّةُ؛ فالجملةُ الثّانيةُ واردةٌ للزِّيادة في نفي عدم الإغناء؛ فلا هُم يُغني عنهم أولياؤُهم المظنونُ بهم ذلك، ولا ينصرُهم مقيَّضون آخَرون ليسوا مِن مواليهم تأخذُهم الحميَّة أو الغيرةُ أو الشَّفقة عليهم فينصرونهم، فمُحصّلُ المعنى:

المبالغةُ في نفيِ الإغناء، وتأكيدُ عدمِ نفع الأولياءِ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 385، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 500، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 54.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 588، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 129.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.

أنَّه لا يُغني موالٍ عن مَواليه بشيءٍ مِن الإغناء حسب مُستَطاعه، ولا ينصرُهم ناصِرٌ شديدُ الاستطاعة هو أقوى منهم يدفعُ عنهم غَلَبَ القوي عليهم، فاللّهُ هو الغالبُ لا يدفعهُ غالب[1].

وقد ذُكِر نفيُ النَّصر بعد نفي إغناء الموالي؛ لأنَّ الإغناء تارةً يكون بالرِّفق وأخرى بالعنف، فجاء التَّصريح بالثّاني لأنَّه أعظمُهما، والسِّياقُ للإهلاك والقهر[2].

وثمَّ ملمَحٌ آخر؛ وهو أنَّ نفيَ إغناء الموالي بَعْضِهم عن بعضٍ قد يُتَوَهَّم منه أنَّ الوليَّ يستطيع أن ينصُرَ نفسَه دون أن ينصُرَ غيره، فجاء العطفُ قطعًا لهذا الطَّمع، ودرءًا لهذا الوهم، فلا هُم يَنصرون أنفسهم، ولا هُم يَنصرون غيرَهم، ولا هُم يَتناصرون فيما بينهم.

نكتة تقديم المسند إليه، ودلالة كونهِ ضميرَ جمعٍ في ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

الكافرون بنفي النُّصرة والشَّفاعة مخصوصون، فلا جرَمَ أنَّهم هُم الأخسَرون

أوثرَ تقديمُ المسند إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يُنصَرُونَ﴾ لإفادة التَّخصيص، فإنَّ المقصودين هم الكافرون، وهؤلاء لا شفاعة بينهم يوم القيامة، ولا منجَى لهم مِن العذاب أبدًا، أمّا المؤمنون فيَشْفَعُ فيهم - بعد إذن اللّه سبحانه ورضاهُ - النَّبيّون والشُّهداء والصّالحون والملائكة، أمّا الكافرون فهم كما قال اللّه تعالى عنهم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدَّثِّر: 48] وقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ۝١٠١ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٢﴾ [الشعراء: 100 - 102].

وعُبِّر بالجمع ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ بعد المفرد ﴿مَّوۡلًى﴾ ليتناولَ القليلَ والكثيرَ منه؛ لأنَّ النَّفيَ عنه نفيٌ عن الأفراد مِن باب أَوْلى[3].

فالضَّميرُ للمَوالي؛ لأنَّهم في المعنى كثيرٌ؛ لتناوُلِ اللَّفظ على الإبهام والشُّيوع[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 41/ 18.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 280، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8.

مَـن خـــرجَ عن حبـل مـودَّتـه، وحُـرِمَ مِـن لـذَّة طاعته، حـرَمَـهُ مــن تـأيـيـدهِ ونصرته

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليِّ ﴿يُنصَرُونَ﴾ ودلالة مجيئه مضارعًا:

أوثِرَ التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ ليُفيدَ الحدوث، وجيء به مضارعًا لإفادة التَّجدُّد؛ أي: ولا يتجدَّد لهم نصرٌ ظاهرًا ولا باطنًا بأنفسهم ولا بغيرهم[1]، فلا يمنعون ممّا نزل بهم مِن العذاب، ولا يملكون أن يشفع لهم غيرُهم[2].

وفي التَّعبير بالمسند الفعليِّ لإفادة تقوية الحكم وتوكيده عن طريق تكرار الإسناد، فإنَّ قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾ يعود على المسند إليه: ﴿هُمۡ﴾، ثمَّ إنَّ الفعل ﴿يُنصَرُونَ﴾ مسند إلى واو الجماعة العائدة بدَورها إلى المسند إليه ﴿هُمۡ﴾، فكأنَّ الإسناد قد تكرَّر مرَّتين، "مرَّةً عند إسناد الفعل إلى ذات المسند إليه، ومرَّةً عند إسناده إلى ضميره"[3]، وقد أفاد تكرارُ الإسنادِ هذا تقويةَ الحُكم وتوكيدَه؛ مبالغةً في نفي النُّصرة يوم القيامة عنهم بحالٍ مِن الأحوال.

والجملة توكيدٌ لِما قبلها، فالمعنى لا يَنصر المؤمنُ الكافرَ، ولو كان بينهما في الدُّنيا عُلقةٌ مِن قرابةٍ أو صداقةٍ أو غيرهما[4]، فهم محرومون مِن التَّأييد والنُّصرة مِن كلِّ وجه؛ وفي هذا تجدُّدٌ للحسرة والخذلان، وفيه تنبيهٌ كذلك إلى أنَّ النَّصر والتَّوفيق لا يكونان إلّا مِن الملك الحقِّ ﷻ.

البناء للمفعول للإيجاز وإفـادة العموم؛ تحذيرًا مِن مغبَّة الجزاء المشؤوم

دلالةُ بناءِ ﴿يُنصَرُونَ﴾ للمفعول:

جاء قوله سبحانه: ﴿يُنصَرُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول لإفادة التَّعميم؛ ليعمَّ نفي كلِّ ناصرٍ مع إيجاز العبارة[5]، فالاعتناءُ هنا بِنَفْي الفِعْلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 422.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 389.
(3) حسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغيّ، ص: 125.
(4) صديق خان، فتح البيان: 12/ 407، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 133، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 389.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 312.

نفسِه دونَ النَّظر إلى فاعله، فلو قيل مثلًا: (زيدٌ لا ينصرُه أخوه)، فقد نُفِي أن يكون أخوهُ ناصرًا له، لكنْ لم يُنفَ حصولُ النُّصرة مِن غيره، بخلافِ ما لو قيل: (زيدٌ لا يُنصَر)؛ فقد نُفِيَ عنه النُّصرةُ بحال، والآية مِن هذا القبيل.

فبناءُ الفعل للمفعول أولى مِن بنائه للفاعل؛ لأنَّه أعمُّ، إلّا إنْ جُعِلَ الفاعل عامًّا، فيكون ولا هُم ينصرُهُم أحدٌ، فكان يفوتُ بذلك اختتامُ الفواصلِ بما اختُتِمَت به قبلُ وبعد، ويفوت الإيجازُ[1].

نكتة حذف متعلَّق ﴿يُنصَرُونَ﴾:

نفيُ كلِّ نصرٍ إطلاقًا وتأبيدًا

حذف متعلَّق فعل النَّصرِ في قوله تعالى: ﴿يُنصَرُونَ﴾؛ لإرادة العموم، والتَّقدير: ولا هم يُنصرون مِن هول الموقف العظيم، ولا مِن الحساب، ولا مِن العذاب، ولا مِن أيِّ موقفٍ يَحْتاجون فيه إلى النَّصر.

ثمَّ إنَّ في هذا الحذفِ مراعاةً للفواصل، فتآزَرَ حُسنُ المبنى مع حُسنِ المعنى في نسجٍ بديعٍ، وقولٍ بليغ.

معنى الاستثناءِ ودلالتُه في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾:

الاستثناء لإفادة تحقُّق الشَّفاعة لأهل الإيمانِ، والفوزِ برحمةِ الرَّحمن

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ وقع عَقِبَ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، ولمّا كانت هذه الآيةُ منتظِمَةً جملتَين كريمَتَيْن، فحقٌّ بأن يرجِعَ الاستثناءُ إلى ما يَصْلُح للاستثناء منه في تَيْنِك الجملتين، ولن يَخْرُجَ الاستثناء عن كونه متَّصِلًا أو منقطِعًا[2]، وعلى كلٍّ ففي الجملتين ثلاثةُ ألفاظٍ تصلُح لأنْ يُستثنى منها، وهي: **أوَّلًا**: ﴿مَوۡلًى﴾ الأوَّل المرفوعُ بفعل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 223.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 42/ 3، والواحدي، البسيط: 20/ 117، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 75/ 5، والزمخشري، الكشّاف: 4/ 280، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 148، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 12، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 313.

﴿يُغۡنِي﴾، **وثانيًا**: ﴿مَّوۡلًى﴾ الثّاني المجرورُ بحرف ﴿عَن﴾، **وثالثًا**: ضمير ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

فالاستثناءُ بالنِّسبة إلى هذه الثَّلاثة استثناءٌ متَّصل؛ أي: إلّا مَن رَحِمَهُ اللّه تعالى مِن الموالي؛ أي: فإنَّه يأذَنُ أن يشفع فيه، ويأذن للشّافع بأن يشفع، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: 23] وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28].

ويصحُّ أن يكون الاستثناءُ منقطعًا؛ لأنَّ مَن رَحِمَهُ اللّه تَعالى ليس داخلًا في شيء قبلَه ممّا يدلُّ على أهل المحشر، والمعنى: لكنْ مَن رحمَهُ اللّه سُبحانَهُ لا يحتاج إلى مَن يُغْني عنه أو يَنْصُره.

ومؤدَّى المسلكَيْن واحدٌ؛ لأنَّ مَن رحمَهُ اللّه تعالى مِن الموالي لا بدَّ أن يكون مؤمنًا، وأن يَشْفَع في مؤمن، وذلك بحسب ما تقرَّر في نصوص الوحي فيما يخصُّ الشَّفاعة.

ودلالته أنَّه لمّا نفى الإغناءَ؛ استثنى منه فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ أي: أراد المَلِكُ الأعظَمُ إكرامَه، وهم المؤمنون يشفعُ بعضُهم لبعضٍ بإذن اللّه تعالى في الشَّفاعة لأحدِهم، فيُكرِمُ الشّافعَ فيه بقبولِ شفاعته، ويُكرمهُ بقَبولِه الشَّفاعة فيه(1)، وهذا تعظيمٌ لقيمة الإيمان، وأنَّه سببٌ جالبٌ لرحمة اللّه العظيم، فلا ينفعُ سلطانٌ يومئذٍ ولا مالٌ ولا بنون.

نكتة التَّعبير بالموصولِ وصلته في ﴿مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾:

الفائز مَن شَمِلَهُ الرَّحمنُ برعايته، وأحاطهُ برحمته وعِنايته

عُبِّر بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لبيان أنَّ الوصفَ الذي تضمَّنتهُ جملة الصِّلة هو العلَّة في الحكم، فإنَّ سببَ استثنائهم مِن عدم قبول الشَّفاعة منهم أو فيهم هو كونُهم قد شَمِلَتْهُم رحمةُ اللّه تعالى في الدُّنيا بالهداية للإيمان، وفي الآخرة بالفوز بالجنان.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 42/ 18.

أهلُ الإيمان أهلٌ لأنْ تَسَعَهُم رحمةُ الرَّحمن

نكتة حذف عائد الصِّلة من ﴿رَّحِمَ﴾:

حُذِف عائدُ الصِّلة؛ وهو ضميرُ النَّصب مفعولُ ﴿رَّحِمَ﴾، والتَّقدير: إلّا مَن رحمه الله تعالى؛ اختصارًا وإيجازًا، إذْ ذلك أخصَرُ مِن أن يقول (رحمه) أو (رحمهم)، وفيه تعميمٌ لكلِّ مرحوم.

وثمَّ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ حذفَ العائدِ جَعَلَ فعل الرَّحمة مباشرًا للاسم الأحسَنِ دونَ أن يفصِلَ بينَهُما فاصل، وهذا دليلٌ على كمال هذه الرَّحمة وسَعَتِها، وأنَّها قريبةٌ وشاملة، فلا يَخْسَرُ ظلَّ دوحَتِها ويخرجُ مِن ساحتها إلّا المحرومُ المشؤوم المذموم، الكفور الملومُ.

سرُّ إيثار التَّعبير بعنوان الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في ﴿رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾:

الرَّحمة لِمَن خضعَ لله وخشعَ لعظمته، والسُّخط لِمَن خرجَ عن طاعته

أوثِرَ التَّعبير بعنوان الألوهيَّة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ في هذا السِّياق دون الرُّبوبيَّة - الذي قد يُتَوهَّم أنَّ التَّعبير به أقرب؛ لِما في الرُّبوبيَّة مِن معاني الخَلْق والرَّزق والتَّدبير والعناية والرِّعاية واللُّطف أو نحوه - ؛ لأجل إعلام مَن يبلغهُم القرآنُ أنَّ رحمة الله تعالى لا تُنال إلّا بتوحيده وعدمِ الإشراك به، لا في ألوهيَّته، ولا في ربوبيَّته، ولا في أسمائه وصفاته، وللرَّدِّ على المشركين الذين أقرّوا بتوحيد الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة، فهذا المسلكُ في العبادة لا ينفعهم ولا يُغني عنهم مِن الله شيئًا، فلا يُنصَرون ولا يُرحَمون.

كما أنَّ في التَّعبير بالألوهيَّة حثًّا على العبوديَّة دلَّ عليه السِّياق؛ فلا يُرْحَمُ في ذلك اليوم إلّا مَن ارتقى إلى هذا المقام المعظَّم والمنزل المكرَّم مقام العبوديَّة؛ فخضعَ لسلطان الحقِّ سبحانه، وذلَّ لعظمته، أمّا مَن عَلا وتجبَّر، وعَتا وتكبَّر؛ فله السُّخطُ يومَ لا يُغْني أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، ولا يَمْلِك أحدٌ لأحدٍ شفاعة.

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن سابقه:

فُصِل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ فلمّا كان ما تقدَّم دالًّا على تمام القدرة في الإكرام والانتقام،

تقريرُ كمالِ القُدرةِ الإلهيَّةِ وسعَةِ الحكمةِ الرَّبّانيَّةِ

وكان الإكرام قد يكون عن ضعف، قال نافيًا لذلك ومقرِّرًا لتمام القدرة اللّازم منه الاختصاص بذلك: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فيكون بين الجملتينِ شبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ ما تقدَّم يبعثُ في نفس المُتلقِّي سؤالًا عن تعيينِ مَن رحمَهُ اللّه تعالى؛ فبيَّنَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ أنَّهُ عزيزٌ لا يُكرِهُهُ أحدٌ على العُدولِ عن مُرادِه؛ فهو يَرۡحَمُ مَن يَرۡحَمُه بما تقتضيهِ حِكۡمَتُهُ سُبحانَهُ[2].

دلالة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآيَة:

توكيدُ الأخبارِ في سياقِ مُجابهةِ الإنكارِ

جاء قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مؤكَّدًا بجملةِ مؤكِّداتٍ؛ وهي: التَّعبيرُ بـ (إنَّ) التي تقوم مقام تَكرار الجملة مرَّتين مع الاختصار والإيجاز، والتَّعبير بضمير الفصل المُفيد للتَّوكيد لا القصر؛ لكون القصرِ مستفادًا مِن سبيلٍ آخر، وأسلوبُ القصر بتعريف الجزأين؛ وهو من طُرُق التَّوكيد، واسميَّةُ الجملة المفيدة الثُّبوتَ؛ وهو من مسالك التَّوكيد كذلك.

وكثرةُ هذهِ المؤكِّدات جاءَتۡ في معرض توجيه الخطاب للمشركين المنكرين للبعث القائلين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾ [الدخان: 35 - 36]، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وأكَّد أنَّهم لا يتناصرون ولا يُرحمون ما داموا مُصرِّين على الكفر حتى ماتوا مشركين! بخلاف المؤمنين الذين تشملُهُم رحمةُ اللّه تعالى بفضله ومشيئته.

فلمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى مخاطَبينَ منكِرين؛ ناسبَ توكيدهُ بأكثرَ مِن مؤكِّد.

بلاغة القصر بتعريف الجزأين في ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تقريرُ دعوةِ المؤمنينَ وتكذيبُ دَعۡوى المشركينَ

جاء القصر بتعريفِ الجزأين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، والبقاعي، نظم الدُّرر: 42/ 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 313، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لإفادة التَّقرير والتَّوكيد أنَّه سبحانه وحده مَن يملك العزَّة؛ فيُعِزُّ مَن يشاء مِن عباده ويَقهرُ مَن يشاء، وهو كذلك مَن يملكُ الرَّحمة لا يملكها مِن أحدٍ سواه؛ فيرحمُ مَن يشاء مِن عباده، ويعذِّبُ مَن يشاء.

ففيه تأكيدٌ لِما كان يدعو إليه المؤمنون، وفيه تكذيبٌ لما ادَّعاه المشركون، فقد ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، وبطلَ ما كانوا يعبدون، ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ [هود: 101].

معنى التَّعريفِ والمبالغة في ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

عزيزٌ في نقمتهِ مِن أعدائه، رحيمٌ بأحبّائهِ وأوليائه

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للاستغراق؛ أي: استغراق صفة العزَّة والرَّحمة، فلله سبحانه الكمالُ المطلقُ في الاتِّصاف بهاتين الصِّفتين، ويؤيِّدُ ذلك ورودُهما على صيغة المبالغة تأكيدًا للكمال.

سرُّ إيثار التَّعبير بالعزَّة دون المغفرة:

بيانُ عظيم الرَّحمةِ المصحوبةِ بتمام المَقْدِرَة

أوثِرَ التَّعبيرُ بالعزَّة دون المغفرة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ حيث إنَّه لمّا كان ما تقدَّم دالًّا على تمام القدرة في الإكرام والانتقام، وكان الإكرامُ قد يكون عن ضعفٍ؛ قال ﷻ - نافيًا ذلك ومقرِّرًا تمامَ القُدرة -: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾؛ أي: وحدَه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: المنيع الذي لا يَقدح في عزَّته عفوٌ ولا عقاب، بل ذلك دليلٌ على عزَّته، فإنَّه يفعلُ ما يشاء فيمَن يشاءُ مِن غير مبالاةٍ بأحَد[1].

دلالة إتْباع صفة العزَّة بصفة الرَّحمة:

الجمعُ بينَ التَّرهيب والتَّرغيب

لمّا قُدِّم الحديثُ عن عدم إغناء مولًى عن مولًى إذا أراد الله سبحانه عذابَهم ولا هُم يُنصرون؛ قُدِّمت صفة العِزَّة - المستفادَةِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 42/ 18.

من اسمِهِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ - التي تدلُّ على ذلك المعنى، ولمّا كان العزيزُ قد لا يرحَمُ حيث تمنَعُه عزَّتُه مِن ذلك؛ قال تباركت أسماؤه: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ أي: الذي لا تمنَعُ عزَّتُه أن يُكْرِم[1]، فجمعَ في الآية بين ذِكْرِ قُدْرَتِه سبحانه وبحمده على تعذيب مَن عصاه، وبين رحمةِ مَن أطاعه.

بلاغة المناسبة في ختمِ الآيةِ بهاتين الصِّفتينِ الجليلتين:

اللهُ سبحانه مَلَكَ بالعزَّة، ومَنَّ بالرَّحمة

خُتِمَت الآية الكريمة بإثبات صفتي العزَّة والرَّحمة للّٰه العليِّ العظيم، فقال اللّٰه سبحانه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. "وهاتان الصِّفتان من صفاتِ اللّٰه، التي يتجلَّى بها اللّٰه ﷻ على أهل المحشر يوم القيامة، فبعزَّتِه سبحانه يملكُ أمرَ هذا اليوم، ويقضي فيه بما شاءَ في الظّالمين، وأهلِ البغي والعدوان، فلا يكون لهم مع سلطانِ اللّٰه سبحانه سلطان، ولا مع عزَّتِه عزَّة، وبرحمتِه سبحانه يُدخلُ مَن يشاءُ مِن عباده الجنَّة، ويُضفي عليهم ما يشاءُ مِن فضله وإحسانه، كما يقول سبحانه: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ٣١﴾ [الإنسان: 31]"[2].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الميقات والميعاد:

الميقاتُ أخصُّ مِنَ الميعادِ

المعنى المحوريُّ لجذر الميعاد يدلُّ على الاحتواءِ على ما يوجدُ مستقبلًا زائدًا عن الحال[3]، والميعاد: وقتُ الوعدِ وموضِعُه[4].

والمعنى المحوريُّ لجذر الميقات يدلُّ على تحديدِ زمنٍ معيَّنٍ دقيقٍ لإيقاع الشَّيء[5]، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيء، والوعدُ الذي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 42/ 18، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 65/ 8، والآلوسيّ، وروح المعاني: 13/ 12.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 210.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، اللسان: (وعد).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقت).

جُعِلَ له وقت[1]؛ لذا أوثِرَ لفظُ (الميقات) دون (الميعاد) في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: وقتُ جَمْعِ الخلائق للحُكم بينهم الذي ضُرِبَ لهم في الأزَلِ وأُنزِلَت به الكتبُ على ألسنةِ الرُّسُل[2]؛ فهو وقتُ ما وعدَهُمُ اللّهُ به[3]، وهو وقتٌ محدَّدٌ لا يَعلمُهُ إلّا اللّه ﷻ، وأوثِرَ أيضًا في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧﴾ [النبأ: 17].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الميعادَ والميقات يكونان بمعنى وقتِ الوعد، ولكنَّ الميقات خُصَّ بالتَّحديد الدَّقيق للزَّمن الذي لا يُتخَلَّف عنه؛ وكونُ يومِ الفصلِ ميقاتًا يدلُّ على تحقيق وقوعهِ ووقوعِ ما فيه؛ إذ التَّوقيتُ لا يكونُ بزمَنٍ محقَّقِ الوقوع؛ وفي هذا ردٌّ على تكذيبهم، أي: ليس تكذيبُكم به ممّا يحملُنا على تغيير إبّانِه المحدَّدِ له، ولكنَّ اللّهَ مستدرجُكم مدَّةً، وفي هذا إنذارٌ لهُم بأنَّه لا يُدرَى لعلَّه يحصلُ قريبًا؛ قال اللّه تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187]، وقال تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: 51][4].

(1) الراغب، المفردات: (وقت).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 41.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 129.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 30.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدُّخان: 43 - 46]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

عِظَمُ الإجرام يُقابله شدَّةُ العذاب وعظيمُ الانتقام

لمّا أقام الله تعالى الدَّلالةَ على أنَّ أمرَ القيامةِ حقٌّ، ثُمَّ أردَفهُ بوصف ذلك اليوم؛ ذكرَ عقيبَهُ وعيدَ الكفّار[1]، وما سَيُقاسونَه من أهوالٍ في النّار، حتّى الطَّعام الذي يأكلونه يكونُ فيهِ شدَّةُ إيلام؛ ليعلموا أنَّ عِظَمَ الإجرامِ، والإسرافَ في عمل الآثام يُقابِلُه عظيمُ الانتقامُ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شَجَرَتَ﴾: (شجر) تدلُّ اشتقاقاتها على تداخُل شيءٍ في شيء، وعلوٍّ في الشَّيء وارتفاع[2]، والشَّجَر والشَّجرة: ما كان على ساقٍ من نبات الأرض، وكان له أغصانٌ وظِلّ، يُقال: شَجَرَة وشَجَر، كثمَرةٍ وثَمَر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾، وجمعُ الشَّجرة: شجَرٌ وشجرات وأشجارٌ[3].

2) ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾: (زقم) تدلُّ اشتقاقاتُها على جنسٍ مِنَ الأكل[4]، ومِنْهُ الزَّقوم؛ وهو اسمٌ لطَعامٍ فيه تمرٌ وزبد، وهو أيضًا: عبارة عن أطعِمَةٍ كريهَةٍ أعدَّها اللّهُ في النّار لأهل النّار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾، وهو كلُّ طعامٍ ثقيل[5]، ومنه قيل: زَقَم فلان وتزقَّم؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زقم).
(5) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 293.

إذا ابْتَلَع شيئًا كريهًا[1]، والزَّقْم: أكلُ الزَّقوم وشرب اللَّبن والإفراط فيه، وأَزْقَمْتُه الشَّيءَ؛ أي: أبْلَعْتُه إيّاه، فازْدَقَمه؛ أي: ابتلعَهُ، وزقَمَ يزقُم زَقْمًا مثله أيضًا[2].

3) ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾: (أثم) تدور اشتقاقاتُها على البُطْء والتَّأخُّر[3]، والإثم والأثامُ: الذَّنب، وهو اسمٌ للأفعال المُبْطِئَة عن الثَّواب، وجمعُه: آثام، وقد أثِم الرَّجل إثمًا ومأثمًا وأثامًا، فهو آثِمٌ وأثِمٌ وأثيم؛ إذا وقَعَ في الإثم، وتأثَّم: خرجَ من إثمِه وتحرَّج منه وكفَّ عنه، كقولهم: تحوَّب وتحرَّج؛ أي: خرج من حَوْبِه وحَرَجه؛ أي: ضيّقِه، والآثِمُ: المُتَحمِّل الإثم، وقوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ [القلم: 12]؛ أي: آثم[4]، وأثَمَهُ اللّه في كذا يأثِمُه إثمًا وأثامًا؛ أي: عدَّهُ عليه إثمًا، وجزاه عليه جزاء الإثم، فهو مأثوم؛ أي: مَجْزِيٌّ جَزاءَ إثمه[5].

ومعنى قوله تعالى: ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾؛ الأثيم: الآثم والفاجر كثير الآثام[6].

4) ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾: (مهل) تدلُّ تصريفاتُها على جنسٍ من الذّائبات[7]، والمُهل: ضربٌ مِنَ القطران ماهِيٌّ رقيقٌ يُشبه الزَّيت، وهو دَسِمٌ تُدهَن به الإبل في الشِّتاء، ومَهَلْتُ البعيرَ؛ أي: طلَيْتُه بالخَضْخاض، فهو مَمْهول[8]، والمُهْل: ما أُذيبَ من جواهر الأرض من الذَّهَب والفضَّة والنُّحاس، وهو كذلك: القيحُ والصَّديد أيضًا، قال اللّه تعالى: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾؛ أي: النُّحاس الذي يُمهَلُ في النّار حتى يذوب[9].

5) ﴿يَغۡلِي﴾: (غلي) تدلُّ اشتقاقاتُها على الغلَيان؛ وهو بلوغُ حرارة الشَّيء أعلاها، وتقلُّبهُ وارتفاعهُ في وعائه[10]، وغَلَتِ القدرُ تَغْلي غَلْيًا وغَلَيانًا؛ إذا فارت وطفحَت بما فيها، وأغلاها وغلّاها[11]، ومنه استُعير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾؛ أي: يفور ويطفح من شِدَّة الإيقاد؛ فاستُعير ذلك لِما يجدونهُ من العذابِ

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زقم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (زقم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).
(4) الراغب، المفردات: (أثم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (أثم).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 149، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 294.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهل).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مهل).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 149، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.
(10) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلى).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غلو).

الحميمِ الذي في أجوافهِم، ومنه استُعير غليانُ الغضَب؛ نحو تحرَّق وتميَّز مِن الغيظ[1].

6) ﴿ٱلْبُطُونِ﴾: (بطن) تدور تصريفاتُها على إنسيِّ الشَّيء والمُقبِل منه[2]، والبطن: خلافُ الظَّهر في كلِّ شيء، ويُعَبَّر به عن داخل الشَّيء كما يُعَبَّر بالظّاهر عن خارجه، وجمعه: أبطُن وبُطون وبُطنان، ويُقال للجهة السُّفلَى: بطن، وللجهةِ العليا: ظهر، والبَطنُ من كلِّ شيء: جَوفُه، ويُقال لكلِّ غامض: بطن، وبطَنَ الشَّيءُ: خَفيَ، كأنَّه في بَطن.

ويقال: بَطِن يَبطَنُ بَطَنًا وبِطْنَةً، وبَطُنَ وهو بَطِينٌ، وذلك إذا عظُم بطنُه، والبَطِن: كثيرُ الأكل، والمِبطان: الذي يُكثر الأكلَ حتَّى يعظم بطنُه، ويُقال: ثَقُلَت عليه البِطنة، وهي أن يمتلئَ البطنُ من الطَّعام امتلاءً شديدًا[3].

وقوله تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾؛ أي: بطون الكفّار[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

شجرة الزَّقّوم مِن الغذاء المطعوم للآثم المذموم

في هذا البيان القرآنيِّ وعيدٌ شديدٌ بما أعدَّه اللّٰه تعالى للكافرين في جهنَّم يوم القيامة؛ من الطَّعام الَّذي سيكون من شجرة الزَّقّوم المخلوقة في أصل الجحيم الَّتي جعلها اللّٰه تعالى غذاءً للكافر الفاجر كثير الآثام، وهذا الغذاء سيكون كالنُّحاس المُذاب الَّذي سيغلي في بطون هؤلاء الكفّار كغلي الماء البالِغ نهايةَ الحرارة؛ جزاءً لهم على كفرهم وكثرة آثامهم[5].

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطن).
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بطن).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والخازن، لباب التأويل: 4/ 120.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 239، والزحيلي، التفسير المنير: 25/ 236.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ عن سابقه:

زيادةُ بيانِ ما يُصيب الكافرين مِن العذاب المُهين

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه جملةٌ استئنافيَّة[1] فيها تفصيلُ بيانِ حال الكافرين يوم القيامة؛ حيث إنَّه لمّا ذكرَ اللّه سبحانه فريقًا مرحومين على وجه الإجمال؛ قابَلَهُ هنا بفريقٍ معذَّبين وهم المشركون، ووصف بعض أصناف عذابهم وهو مأكلهم وإهانتهم وتحريقهم، فكان مقتضى الظّاهر أن يُبدَأَ الكلام بالإخبار عنهم بأنَّهم يأكلون شجرة الزَّقّوم، وعُدِل عن ذلك إلى الإخبار عن شجرة الزَّقّوم بأنَّها طعامُ الأثيم اهتمامًا بالإعلام بحال هذه الشَّجرة[2].

نكتة توكيد جملة ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾:

عذابُ الكافرين حقٌّ بلا مرية، فقد أعظموا على الله الفِرية

جاءت جملة ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ مؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ لكون المخاطَب مكذِّبًا منكِرًا معتقدًا خلافَ الخبر؛ فاقتضى توكيدَ الخبر؛ للمبالَغة في التَّرهيب والتَّخويف مِن العذاب الذي ينتظرهم يوم الحساب إنْ هُم أصرّوا على كفرهم وعنادهم.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾:

الإضافة لإفادة التَّحقير، وترهيبِ المكذِّبين مِن سوء المصير

الإضافة في قوله تعالى: ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ معنويَّة، وقد أفادت مع التَّعريفِ تحقيرَ المضاف - وهو الشَّجرة - بإضافتها إلى ما يُستشنَع ويَقبُح؛ وهو الزَّقّوم.

وشجرة الزَّقّوم هي الشَّجرة التي خلقها اللّه تعالى في جهنَّم، وسمّاها الشَّجرةَ الملعونة، فإذا جاع أهلُ النّار التَجؤوا إليها فأكلوا منها، فغَلَيَت في بطونِهم كما يغلي الماءُ الحارُّ[3]، نسأل اللّه السَّلامة!

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 314.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 149.

وقد جُعِلت شجرة الزَّقّوم شيئًا معلومًا للسّامعين، فأخبر عنها بطريق تعريف الإضافة؛ لأنَّه قد سبق ذِكْرُها في سورة الواقعة التي نزلت قبل سورة الدُّخان، فإنَّ الواقعة عُدَّت السّادسةَ والأربعين في عِداد نزول السّوَر، وسورةُ الدُّخان عُدَّت الثّالثة والسِّتِّين(1).

معنى التَّعريف في ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾:

ذكَّر الله الكافرين بما خوَّفهم به سلَفًا، فما زادَهُم إلّا استكبارًا وأنَفًا

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّقُّومِ﴾ للعهد، والتَّقدير: الزَّقّوم الذي حدَّثكم القرآن عنه مِن قبل في وصف الشَّجرة الملعونة، وذلك في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا﴾ [الصافات: 65]؛ أي: الزَّقّوم في شناعته وبشاعته ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ٦٦﴾ [الصّافّات: 65 - 66].

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾:

طعامُ الآثمين عذاب، ولونٌ مِن ألوان العقاب

إضافةُ الطَّعام إلى الأثيم في قوله: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ إضافةٌ معنويَّةٌ، وغرضُها تحقيرُ المضاف وتبشيعُه في ذهن السّامع، والإشارةُ إلى أنَّ هذا الطَّعام ليس ممّا يُكرَمُ به، بل هو لونُ عذاب، ونوعُ عقاب.

معنى كون الشَّجرة طعامًا:

سمِّيت الشَّجرة طعامًا؛ لأنَّها مصدر الطَّعام، وهي عذابٌ لأصحاب الآثام

معنى كون الشَّجرة طعامًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أنَّ ثَمَرَها طعامٌ، كما قال تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ٦٦﴾ [الصّافّات: 65 - 66](2)، والطَّعام ما يُتَناول منه مِن الغذاء، وأصلُه مصدرٌ؛ فَلِذا وقع خبرًا عن المؤنَّث ولم يطابق، فكأنَّه قيل: إنَّ الزَّقّوم طعامُ الأثيم(3).

معنى التَّعريف والمبالغة في ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾:

التَّعريفُ للعهد، والمبالغةُ للتَّكثير

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ للعهد؛ حيث إنَّ المقصود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 314.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 314.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 131.

بهذا اللَّفظ أبو جهل، فقد رُوِيَ أنَّ هذه الآية نزلت فيه، ولمّا نزلت وأشار النّاسُ بها إليه، جَمَعَ عجوةً بزُبْدٍ ودعا إليها ناسًا، وقال لهم: "تَزَقَّموا، فإنَّ الزَّقّوم هو عجوةُ يثربَ بالزُّبد، وهو طعامي الذي حدَّث به محمَّد"، وإنَّما قصدَ بذلك ضربًا مِن المغالطة والتَّلبيس على الجهَلة[1].

وذهبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّها نزلت في الوليد بن المغيرة المخزوميِّ[2].

ويصحُّ حملُ التَّعريف على الجنس، ويكونُ المرادُ به جنسُ الكافر لا واحدٌ بعينه[3]، وإن كان اللَّفظُ المفرَد الذي دخلَ عليه حرفُ التَّعريف الأصلُ فيه أن ينصرِف إلى المذكور السّابق، ولا يفيد العموم، وهاهنا المذكور السّابق هُم المشركون المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥﴾ [الدخان: 34 - 35]، فينصرف إليه[4].

وقد جاءت ﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ على وزن (فَعِيل) وهو مِن صيغ المبالَغة، ومعناه: الكثيرُ الآثام؛ للدَّلالة على المبالغة في اكتساب الآثام حتَّى مرَنَ عليها فصارت به إلى الكفر[5]؛ وذلك لدلالة ما قبلَهُ وما بعدَه عليه[6].

نكتة الإظهار في مقام الإضمار في قوله تعالى: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾:

كان مقتضى الظّاهر بعد قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أن يقال: إنَّ شجرة الزَّقّوم طعامهُم، لكنَّه عُدِل عنه إلى الإظهار في مقام الإضمار، فقال تعالى: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾.

وقد أفاد هذا الإظهارُ نِكاتٍ بلاغيَّةً، منها: التَّسجيل عليهم؛ أي: تحقيق اتِّصاف محلِّ المضمَر بهذا الوصف، وأنَّه أهلٌ له؛ معنى ذلك: الحكمُ عليه به، فقوله: ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ بدل (طعامهم) أفاد بأنَّهم أثيمون.

ومِنْها: عدمُ تخصيصِ الحكم بمرجع الضَّمير، فيؤخَذُ منه تعميمُ الحكم بعُموم علَّة الوصف وهو الإثم، فيكون معيارًا للمذكور وغيره ممَّن شاركهُ في وصفِ الإثم.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 281، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 76/ 5، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150.
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 117، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 130.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 664، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 314.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 42/ 18.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 134، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/ 422، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 390.

التَّعريضُ بعتوِّ الفجّار

ومِنْها: التَّعليل، وذلك لأنَّ الحُكم إذا علِّق بوصفٍ دلَّ على علِّيَّةِ ذلك الوصف فيه؛ فسببُ استحقاقهم للزَّقّوم هو كونهُم متَّصفين بالمبالغة والإكثار في الإثم.

ومنها: تنبيهُ المخاطَب؛ لأنَّه إذا جاء الكلام على خلافِ السِّياق انتبَهَ المخاطَب له(1).

نكتة إفراد ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾ بعد التَّعبير بالجمع في ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

لكلِّ أثيمٍ عذابُه المستقلُّ

عُبِّر بالإفراد في ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾ بعد التَّعبير بالجمع في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ٣٤ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥﴾ [الدخان: 34 - 35]، وفي قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ لتُصَوَّر صورةٌ مِن العذابِ مفردةٌ، "حيث تحصُرُ في إطارِها إنسانًا ظالمًا باغيًا مِن هؤلاء الظَّلَمة الباغين، فيبدو في هذه الصّورة وكأنَّ العذابَ الجَهنَّميَّ قد احتواهُ وحدَه، وفي شخصهِ هذا يُرى كلُّ ظالمٍ أثيم أنَّه هذا الإنسانُ الشَّقيُّ المنكود، يتقلَّبُ وحدَه في هذا العذاب الذي تقشعرُّ مِن هولِه الجبال"(2)!

بلاغة التَّشبيه في قوله: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي﴾:

تخويفُ كلِّ مَن ورَّط نفسَه بحمقٍ وجهل

في قول الله ﷻ: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي﴾ تشبيهٌ مرسَلٌ مجمَل(3)؛ حيث شُبِّه ما يصير مِن شجرة الزَّقوم إلى بطونهم بالمُهل؛ وهو دُرديُّ الزَّيت، وعكرُ القطِران، ومذابُ النُّحاس، وسائر الفِلِزّات(4)، والتَّشبيه به في سواد لونه، أو في ذوَبانه(5)، وسُمِّي ذلك مُهلًا؛ لأنَّه في

(1) العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/ 201 - 202، وتفسير آل عمران: 2/ 312.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 211.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 233، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 411.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، والقرطبي الجامع لأحكام القرآن: 16/ 149 - 150.
(5) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 118، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

النّار حتَّى يذوب، فهو مِن المُهل بمعنى السُّكون[1]، والجملة استئنافٌ لبيان حال هذا الطَّعام؛ أي: هو كالمُهل، أو مثل المُهل[2].

معنى التَّعريف في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾:

شرابُ الكافرين مُهْلٌ وطعامُهم زقّوم، جزاءً بما كفروا بالحيِّ القيّوم

جاء التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ للجنس؛ فالمُهل هو ما ذابَ مِن ذهب، أو فضَّة، أو حديد، أو رصاص، ونحوه، ويجوز أن يكون للعهد الذِّهنيِّ؛ أي: المُهلُ المعهود، وهو مذابُ المعادن، وكان ابن مسعود رضي الله عنه بالكوفة على بيت المال لعُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه، فأذابَ يومًا فضَّةً مكسَّرةً، فلمّا سالت، قال: "يَدخُلُ مَن بالباب"، فدخلوا، فقال لهم: هذا أشبَهُ ما رأينا في الدُّنيا بالمُهل، والمعنى: أنَّ هذه الشَّجرة إذا طَعِمها الكافرُ في جهنَّم صارت في جوفه تفعَلُ كما يفعل المُهل الحارُّ مِن الإحراق والإفساد[3].

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَغۡلِي﴾:

استحضارُ صورة الانتقام جزاءَ ما اقْترفوا مِنَ الآثام

جاء التَّعبير بالفعل المُضارع في قوله تعالى: ﴿يَغۡلِي﴾ لإفادة التَّجدُّد، مع استحضار مشهَد الغليان؛ فالعذاب متجدِّد ومستمرٌّ أبدًا لا ينقطع، يُهان به كلُّ مسرفٍ كذّاب، والحالُ أنَّه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النِّساء: 56].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها في قوله: ﴿فِي ٱلۡبُطُونِ﴾:

تبشيعُ العذاب، وتشنيعُ صوَرِ العقاب

الأصلُ في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء؛ مكانيَّةً أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[4]، وهي هنا ظرفيَّةٌ مكانيَّةٌ حقيقيَّة، ومعنى ذلك أنَّ البطنَ هو المحلُّ، وأنَّ الغليان حالٌّ فيه، والغرضُ مِن هذا هو تبشيعُ العذاب، وتشنيعُ صور العقاب.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 663، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 131.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 131.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 55/ 21، والزمخشري، الكشّاف: 4/ 281، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 76/ 5، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 131.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

امتلأت بطونُ الكفّار في الدُّنيا تكذيبًا وتأثيما، وستمتلئ يوم القيامة نارًا وزقّوما

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡبُطُونِ﴾ ودلالة مجيئها جمعًا:

التَّعريف في كلمة ﴿ٱلۡبُطُونِ﴾ للعَهْدِ، أي: في بطون الكفّار الآثمين الذين تكلَّمت عنهم الآيات، فهم آكلو الزَّقّوم المعذَّبون به.

وقد جاءت جمعًا لإفادة التَّكثير، وبناؤها على (فُعول) يدلُّ على ذلك، فالذين أنكروا البعثَ والحسابَ والجزاءَ كثيرون، لكلٍّ منهم عذابُه، فيغلي الزَّقّوم في بطونهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦﴾ [الصافات: 66]، وكما قال سبحانه أيضًا: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ٥١ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٥٣﴾ [الواقعة: 51 - 53].

بيانُ عظمةِ ما سَيُقاسونَه مِنَ الألم والجحيم

بلاغة التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

الحميم: هو الماء الشَّديد الحرارة، ومنه الحَمَّة - بفتح الحاء - وهي العين الجارية بالماء الحارِّ الذي يُستَشفَى به مِن أوجاعِ الأعضاء والدُّمَّل[1]، وقوله تعالى: ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ تشبيهٌ مرسَلٌ مجمَل[2]، فهو مرسَلٌ لذكر الأداة، ومجمَلٌ لعدم ذِكر وجهِ الشَّبه، ووجهُ الشَّبه هو هيئةُ غليانه[3]؛ أي: يغلي "غليانًا كغليان الماءِ الحارِّ الذي انتهى حرُّه وغليانُه لشدَّة حرارته وكراهية المَعِدة إيّاه"[4].

تبشيعُ الصّورة وتقبيحُها

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ معنويَّة؛ أفادت مع التَّعريف تهويلَ المضاف - وهو الغليان - وتبشيعَهُ في ذهن القارئ؛ أي: يغلي الزَّقّوم في بطن الكافر غليانًا عظيمًا كغليان الماء الذي انتهى حرُّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 299.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 233.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 281، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 407، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(4) البروسوي، روح البيان: 8/ 427.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡحَمِيمِ﴾ للعهد العِلْمِيِّ؛ فالمقصودُ أنَّه كالماء الحارِّ إذا اشتدَّ غليانه، وهو شيء قد ترسَّخت صورته في الذِّهن، ويسهُل استحضاره عند تشبيهِ شيءٍ ما به، وهو الغرض مِن التَّشبيه عمومًا: تقريبُ صورةِ البعيدِ غيرِ المعروفِ بتشبيههِ بالشَّيء القريب المعروف.

تقريبُ الصّورة وإقامةُ الحُجَّة

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الطَّعام والأُكُل:

الفرق بينهما أنَّ جذرَ الطَّعامِ أصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ في تذوُّقِ الشَّيء[1]، أمّا جذر الأُكُل فليس على ذلك؛ إذِ الهمزة والكاف واللّام بابٌ تكثر فروعُه، والأصلُ كلمةٌ واحدةٌ، ومعناها التَّنَقُّص[2].

لفظُ الطَّعامُ أنسبُ لِلَفْظِ الذَّوْقِ

فأوثِرَ - لأجل ما سبق - في هذه الآية (الطَّعام) دون (الأُكُل)؛ لِما جاء بعدها في وصف ثمارِ شجرةِ الزَّقوم، ولِقولِ اللّه ﷻ: ﴿ذُقۡ﴾؛ أي: ذُقْ هذا العذاب[3]؛ فهذا الطَّعام منه.

الغَلَيان والفَوَران:

الفرق بينهما: أنَّ المعنى المحوريَّ لجذر الغَلَيان: هو بلوغُ حرارة الشَّيء أعلاها وتقلُّبُه وارتفاعهُ في وعائه[4]، أمّا المعنى المحوريُّ لجذر الفَوَران: فهو جَيَشانُ الماءِ ونحوه نافذًا ممّا يضمُّه إلى أعلى بقوَّةٍ واندفاع[5]؛ وقد أوثِرَ لفظُ (الفوران) دون (الغليان) في قول اللّه ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]؛ لأنَّه يدلُّ على خروجِ الماء من التَّنّور[6]، وأوثِر لفظُ (الغليان) دون (الفوَران) في

في الغَلَيان بلوغُ الشَّيء أعلى حرارته وتقلُّبُه في وعائه دون خروجٍ منه، وفي الفَوَران جيَشانُ الماء وخروجُه من وعائه

---

(1) ابن فارس، المقاييس: (طعم).

(2) ابن فارس، المقاييس: (أكل).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236.

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلي).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فور).

(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 70.

قول الله ﷻ: ﴿كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على بقاء هذا الطَّعام في البطون يتقلَّبُ فيها ويرتفعُ بأعلى حرارةٍ دون خروج منها، كغَلْيِ الحميم، وذلك أشدُّ من خروجهِ بالفوَران في التَّعبير عن هذا العذاب؛ لأنَّ في الخروجِ تخلُّصًا، فدلَّ ذِكرُ لفظ (الغليان) دون (الفوَران) على أنَّ الأثيمَ لا يستطيع التَّخلُّصَ من هذا الطَّعام الذي يَغْلي في بطنِه، ويدلُّ على ما سبقَ أنَّ الحميمَ: الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ الذي انتهى غليانُه[1] وتناهَى حرُّه بما يوقَد تحتَه، فهو يَثبُت كأنَّه يريد أن يتخلَّصَ ممّا هو فيه من الحَرِّ[2]؛ فوجهُ الشَّبه بين غليانِ هذا الطَّعام في البطون وغليانِ الحميم هو هيئةُ الغليان[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 44.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ٥٠﴾ [الدُّخان: 47 - 50]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

يُحمَلُ الآثمون على الحميم، ويُساقون سَوقًا إلى مهاوي الجحيم

لمّا أخبر سبحانه ما يُقاسيه المُعاندون المكذِّبون من العذاب؛ حيث الزَّقّوم والحميمُ والجحيم؛ كأنَّه قيل: ما لِلأثيم يأكلُ هذا الطَّعامَ؟ وما الحامِلُ له عليه وعلى مقاربة مكانِه؟ أُجيبَ بأنَّه مقهورٌ عليه، ومحمولٌ على فِعْلِ ذلك حملًا؛ زيادةً في الهوان، ولمّا أفهَمَ هذا أنَّهُ صار في موضعٍ يُحيط به العذابُ فيه مِن جميع الجوانب؛ بيَّن أنَّ له نوعًا آخرَ من النَّكد رتبتُه في العظمَةِ ممّا يستحقُّ العطفَ بأداة التَّراخي؛ وهو العذاب الذي يَغْلي به الحميمُ أو الذي هو الحميمُ نفسُه، والتَّعبيرُ عنه بالعذاب أهوَل، وهذا في مقابلةِ ما كانَ لَهُم مِنَ البركة بِما ينزل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾: (عتل) تدلُّ تصريفاتُها على شِدَّةٍ وقوَّة في الشَّيء[2]، والعَتْل: الأخذُ بمَجامع الشَّيء وتلابيب الرَّجل، فتعتِلُهُ وتجرُّهُ إليك وتذهب به بقهْر، كعَتْلِ البعير، عَتَلْتُ الرَّجلَ أعتِلُه وأعتُلُه؛ إذا جذبتَهُ جذبًا عنيفًا، والعُتُلُّ: الغليظُ الجافي[3]. ومعنى: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾؛ أي: خذوه فادْفَعوه واقْصِفوه كما يُقصَف الحَطَب، واحمِلوهُ بعنفٍ، وسوقوهُ سَوْقًا شديدًا[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 45/ 18، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 211.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عتل).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عتل).

(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150.

2) ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾: (سوي) تدور اشتقاقاتُها على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين[1]، ومِنْهُ السَّواء؛ وهو العَدْلُ، وسواء وسِوى وسوى؛ أي: يستوي طرفاه، ومكان سوى وسواء: وسط، وسواء الشَّيء: وسطه؛ لاستواء المسافة إليه من الأطراف[2]، ومعنى: ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: وسط الجحيم[3].

3) ﴿صُبُّواْ﴾: (صبّ) تدلُّ تصريفاتُها على إراقةِ الشَّيء[4]، يُقال: صببْتُ الماءَ صَبًّا فانصَبَّ؛ أي: سكبتُه بسرعةٍ وكثرةٍ، فانْسَكَب، فصَبُّ الماء: إراقَتُه مِن أعلى، يقال: صبَّه فانصبَّ، وصببتُه فتصبَّب، والماءُ يتصبَّب من الجبل؛ أي: يتحدَّر[5]، والصَّبَب: تصوُّب نهرٍ أو طريقٍ يكون في حُدور، ويقال: ماءٌ صَبٌّ؛ وهو كقولك ماءٌ سَكْبٌ، وماءٌ غَوْرٌ[6]، والصَّبُّ: إفراغُ الشَّيء المظروف من الظَّرف، والصَّبُّ هنا مُستعارٌ للتَّقوية والإسراع؛ لأنَّ العذابَ أمرٌ معنويٌّ، فلا يتعدَّى الصَّبُّ إليه[7].

4) ﴿ذُقۡ﴾: (ذوق) تدورُ اشتقاقاتُها على اختبارِ الشَّيء من جهةِ تَطَعُّم[8]، والذَّوق: وجود الطَّعم بالفَم، وأصلهُ فيما يَقِلُّ تَناوله دون ما يكثُر؛ فإنَّ ما يكثر منهُ يُقال له: أكل، ويُقال: ذُقْتُ الشَّيءَ أذوقُه ذَوقًا وذَواقًا ومذاقًا ومذاقَةً، وتَذَوَّقتُ الشَّيء؛ أي: ذُقْتُه شيئًا بعدَ شيء، وأمرٌ مُسْتَذاق؛ أي: مجرَّب معلوم، وما نَزَلَ بإنسانٍ من مكروهٍ فَقَدْ ذاقَهُ، واختير لفظُ الذَّوق في القرآن لمعنى العذاب؛ لأنَّ ذلك - وإنْ كان في التَّعارف للقليل - فهو مستصلَح للكثير، فخصَّهُ بالذِّكر ليعمَّ الأمرَين، وكثُرَ استعمالُه في العذاب والمكروه ونحو ذلك[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، ويُعَبَّر به عنِ الاختبار، فيُقال: أذقتُه كذا فَذاقَ، ويُقال: فلانٌ ذاقَ كذا، وذاقَ فلانًا؛ أي: خبَرَهُ، واسْتَذَقْتُ فلانًا؛ إذا خبرْتَه فلم تَحْمَد مَخْبَرَته[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 103.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبب).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صبب).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صبب).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(9) الراغب، المفردات: (ذوق).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).

5) ﴿تَمْتَرُونَ﴾: (مري) تدلُّ تصريفاتُها على مسحِ شيءٍ واستدرار[1]، ويتفرَّع عنه معنى الجدال؛ لأنَّ الجدال يستخرج الرَّجلُ فيه مِن مُناظِره كلامًا ومعانيَ الخصومة وغيرَها، مِن قولكَ: مَرَيْتُ النّاقة؛ إذا مَسَحْتَ ضرعَها للحَلب لِيَدرَّ، واستخرجتَ لبنَها، ومنه أمْرَتِ النّاقَةُ؛ أي: درَّ لبنُها، والمِرْية: الشَّكُّ؛ وهو التَّردُّد في الأمر، ومنه: الامتراءُ والتَّماري في القرآن، يُقال: تمارَى يتمارَى تماريًا، ومارَى مماراةً ومِراءً وامترى امتراءً؛ إذا شكَّ، والامتراءُ والمُماراة: المُحاجَّة فيما فيه مِرية، ومارَيْتُ الرَّجل أُماريه مراءً؛ إذا جادلته وخالفته، ومَراه حقَّه؛ أي: جحدَه[2].

ومعنى: ﴿تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تشكّون فيه ولا تؤمنون[3].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ جزاء الكافر الأثيم

في هذا السِّياق القرآنيِّ بيانٌ لحال الكافر بربِّه، وما سيلقاهُ يومَ القيامة من العذاب الأليم؛ حيث يُقال للملائكة الَّذين هم خزَنةُ النّار: خُذوا هذا الكافر الأثيم بربِّه فادفعوهُ إلى وسط النّار بعنفٍ وغِلظة، ثمَّ صُبّوا على رأسه من الماء الشَّديد الحرارةِ - زيادةً في تعذيبه وإيلامه - قائلينَ له على سبيلِ التَّهكُّم والسُّخرية: ذُقْ هذا العذابَ الَّذي تُعذَّبُ به اليوم، فقد كنتَ عزيزًا في قومك، كريمًا في حسَبكَ؛ إنَّ هذا هو العذابُ الَّذي كنتم تشكّون فيه ولا توقِنونَ بوقوعه، وقد لقيتُموه فذوقوه[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مري).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مرى).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 295.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 59/ 21 - 63، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تفسير المنتخب، ص: 737.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ عن سابقه:

زيادةُ بيانٍ لِما يلقاهُ الأثيم مِن ذِلَّةٍ وهوانٍ

فُصِل قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾؛ لأنَّه مقولٌ لقولٍ محذوفٍ دلَّ عليه السِّياق؛ أي: يُقالُ لملائكةِ العذاب: خُذوه، والضَّمير المفرد عائدٌ إلى الأثيم باعتبار آحادِ جنسِه[1].

الغرض مِن الأمر ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾، وتعيينُ المأمور:

تحقيرُ المخالفينَ للشَّرع المنزَّل؛ كفّارًا وفُسّاقًا وعُصاةً

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ﴾ على حقيقته؛ فهو صادرٌ مِن اللّه ﷻ، والغرضُ مِن الأمر هنا التَّحقيرُ مِن شأنِ أهلِ الكفر والفسوق والعصيان، والمعنى: أنَّه يُقال لزبانية جهنَّم - وهم المأمورون -: جُرّوا هذا الأثيمَ وسوقوه، والعَتْلُ: أن يُؤْخَذ بتلابيب الرَّجُل فيُعْتَل؛ أي: يُجَرُّ ليُذهَبَ به إلى حبسٍ أو بَلِيَّة[2]، فهذا "تنكيلٌ بهذا الأثيم، ومضاعفةٌ لما يلقى مِن ذِلَّةٍ وهَوانٍ في هذا اليوم؛ حيث يُساق إلى جهنَّم بين زبانيتها سَوقًا عنيفًا، ثمَّ يُعتلُ عَتلًا، ثمَّ لا يُلقى به حيث يقع، بل يُدفع به دفعًا حتى يبلغ سواء الجحيم؛ أي: وسطَها، ومركزَ دائِرَتِها؛ وبهذا يتلقَّى مِن العذاب أقساه وأشدَّه"[3].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾:

بيانُ أصنافِ الهوانِ وطُرُقِ التَّعذيب

الفاء في ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ عاطفة[4]؛ حيث عطفت فعلَ الأمر (اعْتِلوهُ) على الذي قبله، وهو قوله سبحانه: ﴿خُذُوهُ﴾، ودلالة الفاء: التَّرتيب والتَّعقيب، والمعنى: أنَّه بعد أنْ يُؤْمرَ الزَّبانيةُ بأخذِ الأثيم يُؤْمَرون بجرِّه بقهرٍ وغِلظةٍ وعُنفٍ وسُرعةٍ إلى العذاب والإهانة[5]، فيُساق سوقًا ويُدَعُّ دعًّا؛ لأنَّه يُزَجُّ به إلى ما يُكره، فقد ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 315.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 211.

(4) أحمد عبيد الدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 212.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 45/ 18، والخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 3/ 589.

لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ [النّازعات: 36] وعُرِضت جهنَّمُ ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الكهف: 100].

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

العَـتـلُ هو الجذبُ الشَّديدُ المصحوبُ بالقهر للمُتكبِّر العنيد

العين والتّاء واللّام تدلُّ اشتقاقاتُها على شدَّةٍ وقوَّة في الشَّيء، ومِن ذلك الرَّجُل العُتُلُّ؛ وهو الشَّديد القويُّ المصَحَّحُ الجسم، واشتقاقُه مِن العَتَلَة التي يُحفَر بها، والعَتَلَة أيضًا: الهِراوَة الغليظة مِن الخشب، والجمعُ: عَتَلٌ، ومِن الباب: العَتَلُ؛ وهو أنْ تأخذ بتَلْبيب الرَّجُل فتَعْتِلُه؛ أي: تجرَّه إليك، بقوَّة وشدَّة، ولا يكون عتلًا إلّا بجفاءٍ وشدَّةٍ[1].

والمعنى المحوريُّ لِلعَتْل: قَلْعُ الغليظ الثَّقيل أو نقلُه؛ وهو الأخذُ بمَجامع الشَّيء وجرُّه بقهر[2]، والمعنى المراد في الآية الكريمة: قَوْدُ الأثيم بالعُنف، وجرُّهُ بقهرٍ، والذَّهابُ به إلى المكروه[3].

وهذه الكلمة تشير إلى أنَّ الكافر يحاولُ الفِكاكَ مِن القيد وهو يُساق إلى النّار، ولكنْ أنَّى الفِكاكُ مِن قبضةِ الزَّبانيةِ الغِلاظِ الشِّداد؟!

وصيغةُ الأمر فيها تدلُّ على التَّحقير مِن شأن المعتول، وعلى أنَّ المُلْكَ والأمرَ كلَّه للهِ تعالى يومَ القيامة، فلا آمِرَ إلّا هو، ولا قضاءَ إلّا قضاؤه سبحانه وبحمده.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُها في ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

الحميم وعِظَمُ الجحيمِ نهايةُ كلِّ أفّاكٍ أثيم

الأصل في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على انتهاء الغاية، زمانيَّةً كانت أو مكانيَّةً[4].

وهي هنا دالَّةٌ على أنَّه بَعْدَ الأخذ وما يلحق به مِن قهر ومذلَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عتل).
(2) الراغب، المفردات، ومحمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عتل).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزمخشري، المفصل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 463، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 16.

ينتهي الأمرُ بالأثيم إلى أعظمِ ما يَلْقى الكافرُ مِن عذابٍ في نار جهنَّم.

وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ العذابَ في الآخرة مراحلُ يمرُّ بها الكافر مرحلةً تلو أخرى، كلَّما انتهى مِن مرحلة؛ انتقل إلى التي بعدَها حتَّى ينتهيَ به الأمرُ في عذاب الجحيم، نسألُ اللّهَ السَّلامة.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تصوير شدَّة عذابِ مَن كفرَ بالله تعالى

الإضافة في قوله تعالى: ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ معنويَّة، والغرضُ مِن هذه الإضافة - مع تعريف المضاف - تهويلُه؛ حيث إنَّ المقصود بـ﴿سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ "وسطُها ومعظمُها الذي تستوي المسافة إليه مِن جميع جوانبه"[1]، فهو الموضعُ الذي تكون فيه النّار في غاية الاضطرام والتَّوقُّد، وهي موضعُ خروج الشَّجرة التي هي طعامُ الأثيم الكَفور، وقد أفْهَمَ هذا أنَّه صار في موضع يُحيطُ به العذابُ مِن جميع الجوانب[2]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: 17].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾:

بيانُ عظمَةِ النّارِ؛ إنذارًا وتحذيرًا

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ للعهد؛ أي: الجحيم الموصوف المذكور في القرآن، والمذكورُ كذلك في آخر السّورة الكريمة، والجحيم: اسمٌ عَلَمٌ مِن أسماء النّار، وكلُّ نار عظيمة في مهواةٍ تسمَّى جحيمًا[3].

دلالة التَّعبير بحرف المُهلَة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ﴾:

إفادةُ التَّدرُّج في العذاب

جاء التَّعبير بحرف المُهلة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ﴾ للدَّلالة على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ صَبَّ الحميمِ على رأسه

(1) البروسوي، روح البيان: 8/ 427.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 45.
(3) عبد الرّحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر: 56/ 13.

أشدُّ على الكافرِ الأثيم مِن أخذِه وعَتله[1]؛ حيث يَضْرِبُ مالكٌ خازنُ النّارِ ضربةً على رأسِ أبي جهل وإخوانِه مِن الفجّار بمَقامعَ مِن حديد، فتَتَفتَّتُ رؤوسُهُم عن أدمِغَتِهم، فتَجْري أدمغَتُهُم على أجسادهم[2].

الغرض من الأمر ﴿صُبُّواْ﴾:

الأمْرُ في قولِه تعالى: ﴿صُبُّواْ﴾ على حقيقَتِه في الوجوب، فهو صادرٌ مِن اللّه ﷻ، والغرضُ مِن الأمر هنا الحثُّ على إذاقة هؤلاء المكذِّبين المعاندين أهلِ الكفر والفسوق والعصيان ألوانًا مِن العذاب جزاءَ استخفافهم بأوامر اللّه سبحانه، والاستهانةِ بشرعه، والتَّجاوزِ في حقِّ رسولِه ﷺ، وفي الأمر - كذلك - إهانةٌ بالغةٌ لهذا الكافر الذي كان مُستعليًا في الدُّنيا بكُفره.

الحثُّ على التَّعذيب؛ مبالغةً في الزَّجر والتَّرهيب

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ تخييليَّة؛ حيث شُبِّه العذابُ أوّلًا بالمائع، ثمَّ خيِّلَ له بالصَّبِّ[3]؛ ذلك أنَّ حقيقة الصَّبِّ هي إفراغُ الشَّيءِ المظروفِ مِن الظَّرف، وفِعلُ الصَّبِّ لا يتعدَّى إلى العذاب؛ لأنَّ العذابَ أمرٌ معنويٌّ لا يُصَبُّ، فمِن هنا كانت استعارةً[4].

المبالغةُ في ترويع المعذَّبين وإخافتِهم

وهذه الاستعارةُ أكمَلُ في المبالغة كأنَّه يقول: صُبّوا عليه عذابَ ذلك الحميم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: 250][5].

نكتة التَّعبير بالفوقيَّة وإضافتِها إلى رأس المعذَّب في ﴿فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ﴾:

التَّعبير بالفوقيَّة يدلُّ على العلوِّ والبُعد والإحاطة، ولمّا كان الصَّبُّ

الفوقيَّة دالَّةٌ على إحاطةِ العذاب والتَّنكيل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 281 - 282، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 135.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 281، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 664، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 408.

في الآية متعلّقًا بالعذاب لا بالحميم نفسه كان البُعد والعُلوُّ المفهوم مِن الفوقيَّة فيه زيادةُ عذابٍ وتهويل، والمراد: جعلُ المصبوب محيطًا بجميع جسده[1].

وفي التَّعبير بالفوقيَّة زيادةٌ في الإهانة للكَفور الأثيم الذي كان مُستعليًا على الإيمان بكُفره، ومُستعليًا على اتِّباع النَّبيِّ ﷺ بتكبُّره، فعوقِبَ عقابًا مِن جنس عمله، فكان في دركٍ مِن النّار بحيث يكون سافلًا يعلوهُ العذابُ والمعذِّبون!

أمّا دلالة التَّعبير بالرَّأس فهي تأكيدُ الإهانة؛ ذلك أنَّ الرَّأسَ موضعُ العزَّة والأَنَفَة والتَّعالي والتَّكريم، حتَّى إنَّه ليقال لسيِّد القوم: رأسُهم، ويُقال في موضع الفخر والعزَّة: هو مرفوعُ الرَّأس، كما يُقال في ضدِّه: ناكِسو رؤوسِهم، ويقال: هُمُ الهاماتُ والذُّرَى، ويُقال: إنَّه لَيُطاول برأسه السَّماءَ، إلى آخر ذلك، ممّا يدلُّ على مكانةِ الرَّأسِ لدى القوم، فلمّا يؤمَر الزَّبانية بصَبِّ العذاب فوق رأس الذي ادَّعى الكرمَ والعزَّة؛ فهذا هو الهَوان[2].

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها في ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾:

بيـانُ شـدَّة العذاب ابتداءً وانتهاءً

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية؛ زمانيَّةً كانت أو مكانيَّةً[3]، و﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ تبعيضيَّة؛ والمعنى: صُبّوا فوق رأسِه بعضَ هذا النَّوع[4]، ومآلهُ إلى الابتداء، فكأنَّ ابتداءَ الصَّبِّ هو عذابُ الحميم، فكيف بأوسَطِه ونهايته؟!

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589، وعبد الرحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التدبُّر: 57/ 13.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 669.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(4) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 563، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 409.

نوعُ الإضافةِ ودلالتُها في ﴿عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾:

بيانُ نوعِ العذابِ لِمَن كان منه في ارتيابٍ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ معنويَّة، والغرض منها البيان؛ أي: عذابٍ هو الحميم[1].

وكان الأصل: يصبُّ من فوق رؤوسهِم الحميم، فقيل: يُصَبُّ مِن فوق رؤوسهِم عذابٌ هو الحميم؛ للمبالغة، ثمَّ أُضِيفَ العذابُ إلى الحميم للتَّخفيف[2]، أو على تقدير حرف (مِن)، ويكون المعنى: مِن عذابٍ مِن الحميم[3].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾:

اجتماعُ حَرِّ الظّاهر والباطنِ في تعذيبِ أهلِ الكُفْرِ

التَّعريف في ﴿ٱلْحَمِيمِ﴾ للعهد؛ أي: العذاب الذي يغلي به الحميمُ أو الذي هو الحميمُ نفسُه، والتَّعبيرُ عنه بالعذاب أشدُّ في التَّهويلِ، وهذا في مقابلةِ ما كانَ لهم مِن البركة بما ينزل مِن السَّماء مِن المطر؛ ليجتمعَ لهُم حرُّ الظّاهر بالحميم، والباطن بالزَّقوم[4].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿ذُقۡ﴾ عن سابقه:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها مقولُ قولٍ آخَرَ محذوفٍ، تقديره: قولوا له، أو: يُقال له[5]. وفيه تضمين زيادةٍ في البيان بحالِ مَن حقَّ عليه الهوان.

الغرض من الأمر ﴿ذُقۡ﴾، وتعيين الآمِر:

التَّحقيرُ والاستخفاف بِمَن تناولَ الآياتِ بالاستهزاءِ والإجحاف

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ﴾ جاء لغرض التَّحقير مِن شأنِ أهلِ الكفر والفسوق والعصيان، والمعنى: أنَّه يقال يوم القيامة للمجرم العنيد: ذُق لأنَّك وبأنَّك أنتَ العزيز الكريم! فهو على معنى الاستخفاف والتَّوبيخ

---

(1) القنَّوجي، فتح البيان: 12/ 409.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 5/ 103، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 65، ومحمد ثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 8/ 376.

(3) عبد الرحمن الميداني، معارج التفكّر ودقائق التدبُّر: 13/ 57.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 45، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 589.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 135، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 134.

والاستهزاء والإهانة والتَّنقيص؛ فكأنَّه قيل له: إنَّك أنتَ الذَّليل المُهان؛ ولذا قيل بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾؛ أي: تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكّون فيه في الدُّنيا[1].

والآمِر بالذَّواق هم زبانية النّار، فإنَّهم يقولون للكَفور الأثيم: ﴿ذُقْ﴾؛ أي: العذابَ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ هذا توبيخٌ له بذلك[2].

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ذُقْ﴾:

اجتماعُ العذابِ الحِسِّيِّ والمعنويِّ للأثيم

الذَّوقُ مستعارٌ للإحساس[3]؛ إذ إنَّ أصلَه: إدراكُ الطُّعوم، فاستُعِير هاهنا لإدراك العذاب، وذلك قصدًا إلى التَّهكُّم؛ حيث نُزِّل التَّضادُّ منزلة التَّناسبِ بواسطة التَّهكُّم[4].

علَّة فَصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾ عن سابقه:

بيانُ عاقبةِ مَن تجرَّأ على الله تعالى وشرعِهِ

فُصِل قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ عن سابقه لأنَّه جاء تعليلًا له؛ فالمعنى: ذُقْ لأنَّك كنت - في زعمك وبين قومك - العزيزَ الكريم[5]؛ فإنَّ أبا جهلٍ كان يزعم أنَّه أعزُّ أهل الوادي وأكرمُهم، فيقولون له: ذُقِ العذابَ أيُّها المتعزِّزُ المتكرِّمُ على زعمك، وفيما كنتَ تقوله في الدُّنيا[6].

بلاغة الاستعارة في وصفِ المعذَّب بالعزَّة والكرَم:

الـبِـشــارةُ في موضعِ النِّذارة، والوعدُ في مكان الوعيد استهانةً وتهكُّمٌ بالكافر العنيد

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خبرٌ مستعمَلٌ في التَّهكُّم بعلاقة الضِّدِّيَّة، والمقصودُ عكسُ مدلولِه؛ أي: أنتَ الذَّليل المُهان،

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 120، والماوردي، النكت والعيون: 5/ 256، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 94.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 402.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 151، والقشيري، لطائف الإشارات: 3/ 386.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 77/ 5، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 408، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 410.

والتَّأكيدُ للمعنى التَّهكُّميِّ[1]، وهذا الأسلوبُ أغيَظ للمستهزَأ به وأشدُّ إيلامًا له[2]؛ حيث يحصلُ له مع العذاب الحسِّيِّ العذابُ العقليُّ[3]، والمعنى: ذُقْ إنَّكَ أنتَ العزيزُ في قومكَ الكريمُ عليهم، فما أغنى ذلك عنكَ، ولم يُفدْكَ شيئًا[4]!

فالحاصلُ أنَّ في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ استعارةً تهكُّميَّة؛ حيث نُزِّلت حقارتُهم منزلةَ العِزِّ بواسطة التَّهكُّم، والدّاعي إليه زعمُه كذلك؛ لأنَّه في وقت القول - أي: ساعةَ يُقال له ذلك - يكونُ في غايةِ الذُّلِّ والمَهانة، وفي اعتبار ما كان في الدُّنيا أيضًا؛ لأنَّ عزَّهُ ليس بعزٍّ حقيقةً[5].

دلالة توالي المؤكِّدات في: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾:

ردُّ الإنكار، وزيادةُ التَّهكُّم مِن ذوي الاستكبارِ

توالت المؤكِّداتُ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ وهي: النّاسخ (إنَّ)، وهذا توكيدُ إسنادٍ، ثمَّ ضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾، ثمَّ تعريف المسند إليه بالألف واللّام.

وهذه المؤكِّداتُ جاءت لغرَضِ توكيد التَّهكُّم؛ ذلك أنَّ تأكيدَ كونِه العزيزَ الكريمَ وهو في مَعْمَعان الإهانة والذُّلِّ؛ ليس فيه إهانة فحسب، وإنَّما فيه لفتٌ إلى الوَهْم الخادعِ الذي كان يعيشهُ في النّاس حين توهَّم أنَّه فيهم عزيزٌ كريم[6]!

بلاغة القصر بتعريف الجزأين في: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾:

مَن زادَ استعلاؤه، وعَظُم داؤه؛ زادَ يومَ القيامة عذابُه، واشتدَّ في النّار بلاؤه

جاء القصر بتعريف طرفَي الإسناد في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ لإفادةِ التَّوكيد والحصر؛ فكأنَّها تخصُّ المخاطَب بهذا اللَّون من العذاب.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 135.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 423.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 402.
(6) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 670 - 671.

وعلى ما ذُكِرَ في أسباب النُّزول مِن أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي جهل؛ فإنَّ الحصرَ فيها ظاهر؛ لكونهِ رأسَ الكفر والضَّلال، بل هو فرعونُ هذه الأمَّة! فناسبَ أن يقال له ولأمثالهِ وهو يُعذَّبُ بالحميم في الجحيم: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[1].

معنى التَّعريف والمبالغةِ في ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾:

ادَّعى الأثيمُ العزَّةَ والكرمَ، فعوقبَ بجحيمٍ يتلظَّى ويضطرم

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ للعهدِ؛ حيث إنَّ المراد الإشارة إلى ما قاله أبو جهل لرسول اللّٰه ﷺ بحسب ما وردَ في أسباب النُّزول: "أيتهدَّدُني محمَّد وما بين جبليها أعزُّ مني ولا أكرَم"[2]، فكأنَّه قيل له: هذهِ عزَّتكُ التي زعمتَ، وكرمكَ الذي ادَّعَيتَ، ولا عزَّةَ فيهما ولا كرَم!.

وأمّا المبالغة فيهما فليست على بابها في إفادةِ معنى التَّعظيم ونحوه، بل هي مبالغةٌ في السُّخرية والإهانة والتَّحقير؛ بقرينة وُرودِها في سياق التَّهكُّم[3].

نكتة تقديم صفةِ العزَّة على صفةِ الكرم:

قُدِّمت العزَّة لكسرِ أنفِ صاحبها وإرغامه، بعدما لقيَ مغبَّة آثامِهِ

قُدِّمت صفةُ العزَّة على صفة الكرم في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾؛ لوجوه، منها: أنَّهُ مشاكلةٌ لِقول الكافر اللَّئيم أبي جهل؛ فقد وردَ في أسباب النُّزول أنَّه قال لرسول اللّٰه ﷺ: "لقد علمتَ أنِّي أمنعُ أهلِ بطحاء، وأنا العزيز الكريم"[4]، ولأنَّ سياقَ الإهانة بإيصالِ العذاب وصَبِّه فوقَ الرَّأس، والأمرَ بذوقه وتجرُّعهِ؛ يَحسُنُ معه الابتداءُ بذِكْرِ صفةِ العزَّة التي هي المَنَعَة، فكأنَّه قيل له: أينَ عزَّتك التي زعمتَ أنَّها تمنعُ وصولَ العذاب إليك؟

ومن نُكَتِ تقديم صفةِ العزَّةِ: أنَّ ذلكَ مناسبٌ لِما قبلها مِن الآيات

(1) حسن، تفسير القرآن: 58/ 13.
(2) الواحدي، أسباب النُّزول، ص: 377.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 408.
(4) الواحدي، أسباب النُّزول، ص: 377.

التي بدأتْ بِنَفْيِ نفع الوليِّ لوليِّه وعدمِ نصرِه، ثمَّ ثنَّت بذِكر العذاب المهين مِن صَبِّ الحميم وأكلِ الزَّقّوم، فجاء التَّوبيخ مشاكلًا له، فبُدِئ بالتَّذكير بالعزَّة المفقودة والنَّاصرين العاجِزين المتبرِّئين، ثمَّ بالتَّذكير بنفي الكرامة، ولأنَّ تأخير صفةِ الكرم - مع ما فيه مِن بليغ السُّخرية والتَّهكُّم - يُحقِّق محسِّنًا بديعيًّا لفظيًّا يتمثَّل في مُراعاة الفواصل.

علَّة فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ عن سابقه:

الفَصْلُ لِبَيان ما يترتَّب على الامتراءِ مِن الكرب والشَّقاء

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ لأنَّها بقيَّةُ القول المحذوف؛ أي: ويُقال للآثمينَ جميعًا[1]: هذه الآخرةُ وهذه جهنَّمُ التي كنتم تشكّون فيها[2]؛ والمرادُ منه ما ذكرَهُ سبحانه في أوَّلِ السّورةِ حيث قال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾ [الدخان: 9][3].

نكتة توكيد جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾:

التَّوكيد لردِّ الإنكار، والتَّذكير بعلَّة دخولهم النّار

جاء التَّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ - التي تقوم مقامَ تَكرار الجملة مرَّتين مع الاختصارِ والإيجاز - ردًّا لتَكْذيبهِم؛ ليَسوقَ لهُم على وجهٍ مُفْهِم أنَّه علَّةُ ما ذُكِر مِن عذابهم[4].

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾ وتعيين المُشار إليه:

الإشارة للتَّنبيه إلى الحالِ الحاضرة لديهم

اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ من قولِ اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ مشارٌ به إلى الحالِ الحاضرة لديهم[5]، وفائدتُه تمييزُ المُشار إليه أكمَلَ تمييزٍ مُجابَهةً لإنكارِهم الذي أصرّوا عليه في الدُّنيا؛ أي: هذا العذاب والجزاء الذي تذوقونه الآن في الجحيم هو ما كنتُم به في رحلةِ امتحانكم في الحياة الدُّنيا تُجادلون مكذِّبين به، متوهِّمين أنَّكم بجدالكم تغيِّرون من الواقع الحقِّ شيئًا[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 77/ 5.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 664.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 47/ 18.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(6) عبد الرحمن الميداني، معارج التفكُّر ودقائق التَّدبر: 58/ 13.

شكُّ الكافرون في الحقِّ رغم جلائه، ولم يقدِّسوا الله في عليائه

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها في ﴿هَٰذَا مَا كُنتُم﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ موصولة[1]، والمعنى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾؛ أي: العذابَ هو ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي: الذي كنتم تشُكّون في وقوعه، يومَ كنتُم في الدُّنيا، فذوقوه اليوم، والجمعُ في الآية باعتبار المعنى؛ لأنَّ المراد جنسُ الأثيم[2].

بيانُ أنَّ الامتراء كان لهم جِبلَّةً وطبعًا

دلالة التَّعبير بالكون الماضي في ﴿كُنتُم بِهِۦ﴾:

جيءَ بفعل الكَوْنِ ماضيًا في ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى الاستمرار على الامتراء في زمن المُضِيِّ، وللإخبار بأنَّ الامتراءَ كان جِبلَّةً وطبعًا لهم[3]، فلا جرم استحقّوا أشدَّ العذاب بما كانوا يمترون، وما ظلمَهُم الله تعالى ولكن كانوا أنفسَهُم يظلمون!

ألصقَ الكافرون بالوحي امْتِراءَهم، وأكثروا على الله تعالى اجتراءَهم

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق[4]، وهي في هذا السِّياق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ تفيدُ الإلصاقَ المجازيَّ، فكأنَّهم جعلوا امتراءَهم ملتصقًا بالحقائق التي يُخبِرهم عنها القرآنُ والنَّبيُّ العدنان ﷺ، فكلَّما جاءَهم بالحقِّ من ربِّهم رمَوْهُ بفريةٍ وكذبة، وأعرَضوا عنه مبالغةً منهُم في إنكاره، فكان عاقبةُ الذين أساؤوا السّوأى.

يومَ القيامة يوافَى الكافرون بما كانوا فيه يمترون

نكتة تقديم شبهِ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على خبر النّاسخ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾:

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على خبر النّاسخ ﴿تَمۡتَرُونَ﴾ لإفادة الاختصاص، فقد تقدَّم في السّورة الكريمة ما يؤكِّد تكذيبَهم بالبعث والجزاء، وذلك في قول الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 135، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 135.
(2) الدرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 688.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 47/ 18، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

﴿٩﴾ [الدُّخان: 9]، وقوله سبحانه: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ [الدُّخان: 13 - 14]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الدُّخان: 34 - 36]، فقد كان امتراءُ القوم وشكُّهم في البعث والجزاء؛ فلذلك قُدِّم ما يعودُ عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تَمْتَرُونَ﴾، ودلالة مجيئهِ مضارعًا:

أصـرَّ الـكـافـرون عـلـى الـتَّـكـذيـب بـلـقـاءِ ربِّـهـم، واستمرّوا عليه مدَّةَ بقائهم

جاء التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ لتقويةِ الحكم وتقريره وتوكيده.

والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعلَ فيه قد أُسنِد مرَّتين: مرَّةً إلى ما أصلُهُ مبتدأ - وهو هنا اسمُ النّاسخ ﴿كُنتُم﴾ - ومرَّةً إلى ضميره - وهو واو الجماعة في ﴿تَمْتَرُونَ﴾ - ؛ فهو بمثابة التَّعبير بجملةٍ فعليَّةٍ مكرَّرةٍ، فيَقْوى الحكمُ ويَثْبُتَ في الذِّهن(1).

وتجري هذه الصِّياغة في المقامات التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير، مثل مواجهة الشَّكِّ في نفس المخاطَب، وردِّ الدَّعوى التي يدَّعيها، وغير ذلك من مقامات التَّقوية والتَّقرير، وهي كثيرةٌ لا تُحْصى(2)، ومنها ما ورد في هذه الآية.

أمّا المضارع؛ فلإفادة الاستمرار في زمن الماضي بقرينةِ ﴿كُنتُم﴾، وتكرُّر وقوعِ الشَّكِّ والتَّكذيب، وصدوره منهم مرَّةً بعد مرَّة؛ ففيه معالجةُ هذا الأمر، وإصرارٌ عليه(3).

(1) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني في الموروث البلاغي، ص: 125.

(2) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 45/ 18، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، والواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 122.

بلاغة الالتفات من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع:

الالتفاتُ لإرادة جنس الأثيم، والتَّحذيرُ من شدَّة العذاب الأليم

التُفِتَ مِن خطاب المفرد في قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ إلى خطاب الجمع في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ لاعتبار المعنى؛ لأنَّ المراد جنس الأثيم[1].

ثمَّ إنَّ فيه - مع تنبيه القارئ - تحذيرًا للجمع المكذِّب بآيات اللّه تعالى، فإذا سبقَ الكلام عن المفرد ﴿ٱلۡأَثِيمِ﴾ وتفرُّدِه بعذابٍ شديدٍ هو لَهُ أهلٌ؛ فإنَّ الجميعَ سيواجهونَ المصيرَ نفسَه إن لم يؤمنوا، وكأنَّ كلَّ واحدٍ مِنهم قد أُعِدَّت له صورةٌ مِن العذاب مفردة كالتي سبقت[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الأخذ والتَّناول:

الأخذُ أعمُّ من التَّناول

الفرقُ بينهما أنَّ الأخذَ يتضمَّن معنى الغِلظةِ والقبضِ بقوَّة[3]؛ فأوثِر في هذه الآية لأنَّه والعَتلَ يتضمَّنان معنى القوَّة والغلظة والعنف والشِّدَّة، فناسبَ ذِكرُ (الأخذ) سياقَ العذاب، ولفظَ (العَتل)؛ فالعَتلُ: هو الجَرُّ والسَّوقُ والقَوْدُ بعنف[4]؛ وهو أن تأخذَ بتلابيب الرَّجل فتعَتِلَه؛ أي: تجرَّهُ إليك لتذهبَ به إلى حَبْسٍ أو عذاب[5]، فقال اللّه ﷻ: ﴿خُذُوهُ﴾؛ أي: أَخْذَ قهرٍ، ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾؛ أي: جُرّوه بقَهرٍ وغلظَةٍ وعُنفٍ وسرعةٍ إلى العذاب والإهانة[6].

أمّا التَّناوُل؛ فإنَّه يكون لِما تحبُّه النَّفْس؛ فيكونُ تناوله بغير غِلظةٍ ولا عنف، يقال: ناولتُه الشَّيءَ فتناولَه، ونالَني بالخير نَوالًا،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 65/ 8، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 132، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 410.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 674.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 59، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

(5) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 150، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 315.

(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 45.

وأنالَني بخيرٍ إنالةً، والتَّنوُّل لا يكون إلّا في الخير، ويُقال: إنَّه ليَتَنوَّل بالخير، وأنالَه معروفَه ونوَّله، أي: أعطاه معروفَه[1]، فالمُعطَى في هذه الاستعمالات تُحبُّه النَّفْس؛ لهذا تتناولهُ بغير غِلظةٍ ولا عُنف.

والتَّناول: أخْذُ الشَّيء للنَّفس خاصَّةً؛ فلا يُقال تناولتُ الشَّيءَ لِزَيدٍ كما يُقال: أخذته لِزَيد؛ فالأخذُ أعمُّ من التَّناول[2]، والملائكةُ يأخذون هذا الأثيمَ لأمر الله ﷻ؛ فلهذا أيضًا أوثرَ لفظُ (الأخذ) دون (التَّناول) في هذه الآية.

الصَّبُّ والسَّكْب:

الفرقُ بينهما أنَّ المعنى المحوريَّ لجذر السَّكْب: جريانُ المائع أو الرِّخو بيُسرٍ وانضباطٍ إلى مقرِّه[3]، والماء المسكوب: هو الذي يجري على وجهِ الأرض من غير حفر[4].

في الصَّبِّ حَدْرُ المائعِ من أعلى إلى أسفل بقوَّةٍ أو دَفعٍ، وبعد السَّكبِ انسكابٌ فيه جريانُ المائعِ بيُسرٍ وانضباطٍ إلى مَقرِّه

وأمّا المعنى المحوريُّ لجذر الصَّبِّ؛ فهو حَدرُ المائع من أعلى إلى أسفل بقوَّةٍ أو دَفع[5]؛ ولذا أوثِرَ في هذه الآية لفظُ الصَّبِّ دون السَّكبِ لِما في الصَّبِّ مِن قوَّةٍ ودَفعٍ يُناسبان هذا العذاب، ولأنَّ الصَّبَّ هو إراقةُ الماءِ من أعلى إلى أسفل[6]؛ فذِكرُ لفظِه مناسبٌ لقوله ﷻ: ﴿فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ﴾، ولذا أوثِر لفظُه أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾ [الحج: 19].

وبعد السَّكْب انسكابٌ فيه جريانُ الماء بيُسرٍ؛ لذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١﴾ [الواقعة: 31]؛ أي: جارٍ غيرُ منقطِع[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نول).
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 145.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكب).
(4) الجوهري، الصحاح: (سكب).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صبب).
(6) الراغب، المفردات: (صبب).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 209، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 223.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ
مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ
۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ
إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧﴾ [الدُّخان: 51 - 57]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرَ مستقرَّ الكافرين وعذابَهُم ذكرَ نُزُلَ المؤمنين ونعيمَهُم

لمّا ذكر سبحانه الوعيد، وبيَّن ما للكافرين مِن العذاب الشَّديد، وحذَّرهم بأبلغ صور التَّخويف والتَّهديد؛ ذكرَ سبحانه الوعد[1]، وما ينتظر المؤمنين مِن النَّعيم، والخير العميم، والسَّلامة مِن شتَّى صوَر الجحيم؛ ليبيِّن سبحانه الفَرْقَ[2] بين المآلَيْن، ولتتَّضح الصّورة في الحالَيْن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡبَسُونَ﴾: (لبس) تدلُّ تصريفاتُها على مُخالطَةٍ ومُداخلة[3]، اللُّبس: مصدر قولك: لبِستُ الثَّوبَ ألبَس، ولَبِسَ الثَّوبَ ولبَسهُ لُبسًا: اسْتترَ به، وألبسَهُ غيرَه، واللِّباس واللَّبوس واللِّبس والملبس ما يُلبس، وجُعِل اللِّباس لكلِّ ما يغطِّي الإنسانَ عن قبيح[4]، وتلبَّس بالأمر وبالثَّوب، ولابستُ الأمر: خالطْتُه، ولابستُ فلانًا: عرفتُ باطنه، واللَّبسُ مصدرُ قولك: لبَستُ عليه الأمرَ ألبِسُ؛ إذا خلطتُهُ عليه حتَّى لا يعرف جهته، واللَّبسُ أيضًا: اختلاطُ الظَّلام،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 152، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، والدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 689.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 47، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 152.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).

(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبس).

وأصل اللَّبس: سترُ الشَّيء، ويقال ذلك في المعاني، يقال: لبَستُ عليه أمرَه ألبِسهُ لبسًا: إذا شبَّهتَه عليهم وجعلته مشكِلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: 42]؛ أي: لا تخلطوهُ به، ويقال: في الأمر لُبسَة؛ أي: التباسٌ وشُبهةٌ، فيكون ليس واضحًا، ولابستُ الأمرَ: إذا زاولته، ولابستُ فلانًا: خالطته[1].

2) ﴿سُندُسٍ﴾: أصل (سندس) سندي، وهوَ منسوب إلى السِّند على غير قياس، والسُّندس: رقيقُ الدِّيباج ورفيعُه[2]، ومعنى: ﴿سُندُسٍ﴾؛ أي: الدِّيباج الرَّقيق النَّفيس، والسُّندس يُلبَس مِمّا يلي الجسد[3].

3) ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أصل (الإستبرق) استَبرَه؛ وهو معرَّب مِن الفارسيَّة[4]، والإستبرق: غليظ الدِّيباج[5]، وقوله تعالى: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾؛ أي: ما غلُظَ وقَوِيَ مِن الدِّيباج، ويُلبَس فوق الثِّياب[6].

4) ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: (قبل) تدور اشتقاقاتُها على مواجهة الشَّيء للشَّيء[7]، وقَبْلَ: ظرفُ زمان يقتضي التَّقدُّم، ونقيضه: بَعْدَ، والقُبْل والقُبُل: نقيضُ الدُّبْر والدُّبُر؛ وهو الفرْجُ من الذَّكَر والأنثى، والقِبلة: التي يُصلَّى نحوها، وأصلها: الجهة، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ المصلِّي يُقابلها، ويقال: ما له قِبلةٌ ولا دِبرة؛ إذا لم يهتدِ لجهةِ أمرِه، وتقبَّلتُ الشَّيء وقبِلتُه قَبولًا: رضيته، والتَّقبُّل: قبولُ الشَّيء على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهديَّة ونحوها، ويقال: قبِلتُ الهديَّة أقبلها قَبولًا وقُبولًا[8].

وأقبل: نقيض أدْبَر[9]، وإذا ضممتَ شيئًا إلى شيء؛ قلتَ: قابلتُه به، والقابلة: اللَّيلة المقبلة، وكذلك العام القابل، وقَبَلْتُ الشَّيء ودبَرتهُ؛ إذا استقبلتهُ أو استدبرته، والمقابلة والتَّقابل: المواجهةُ والمُعارَضة؛ وهي أن يُقبِلَ بعضُهم على بعض، وإذا ضممتَ شيئًا إلى

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبس).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سندس)، والراغب، المفردات: (سدس).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سندس).
(6) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 295، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(9) الجوهري، الصحاح: (قبل).

شيء، فقد قابلتَه، وتقابَل القومُ: استقبَل بعضُهم بعضًا[1]، ومعنى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: لا يرى بعضُهم قفا بعضٍ، فيكونونَ متواجهين يدورُ بهِم مجلِسُهم حيثُ داروا[2].

5) ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾: (وقي) تدلُّ تصريفاتُها على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره[3]، ومِنْهُ الوِقاية والوَقاية؛ وهي حفظُ الشَّيء ممّا يُؤذيه ويَضُرُّه، يقال: وقَيتُ الشَّيء أقِيه وِقاية ووَقاية ووَقاء؛ أي: صُنتُه وسَتَرْتُه عن الأذى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾، والوِقاية: فرط الصِّيانة، والوِقاء والوَقاء والوِقاية والوَقاية: كلُّ ما وقَيت به الشَّيء[4]، والتَّقوى والتَّوَقِّي: جعلُ النَّفس في وقايةٍ ممّا يُخاف منه[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أكـرمَ الله تعالى المتَّقين بألوان النَّعيم، وحفِظَهُم من عذاب الجحيم

بعد أن بيَّن اللَّهُ سبحانه في الآيات السّابقة عاقبةَ أهل الكفر والعصيان؛ بيَّن في هذه الآيات عاقبة أهل التَّقوى والإيمان؛ حيث أخبرَ أنَّهم في مَكانٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه من كُلِّ مَكروهٍ وسوءٍ؛ فهم في بساتينَ غنّاء وينابيع متدفِّقة بالماء، يلبسون من حريرٍ رقيقٍ ناعمٍ وآخرَ غليظٍ، متواجهين في الجنَّة، يُقابل بعضُهم بعضًا بالوجوه، كذلك وزوَّجهم من نساء الجنَّة الموصوفات بشدَّة بياضِ العينِ مع قوَّة سوادها، وباتِّساعها مع حُسنِ جمالها، ويطلبون في الجنَّة كلَّ ما يشتهون من الفواكه آمنينَ من نفادِها ومضرَّتها، كما أنَّهم لا يذوقون في هذه الجنَّة الموتَ بعد الموتة الأولى الَّتي قد ذاقوها من قبل في الدُّنيا عند انقضاءِ آجالهم، وحَفِظَهم ربُّهم من عذاب النّار؛ تفضُّلًا وتكرُّمًا منه سبحانه عليهم، وذلك هو الفوز العظيم[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقى).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وقى).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقى).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236 - 237، والقسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، التفسير المحرر: 32/ 429.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾:

بيانُ جزاء أهل التَّقوى

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ، فقد انتقلَ الكلامُ مِن وصفِ عذاب الأثيم إلى وصفِ نعيم المتَّقين؛ لمناسبة التَّضادِّ، على عادة القرآن في تعقيب الوعيدِ بالوعدِ والعكس[1].

نكتة توكيد جملة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾:

إثباتُ حصول المتَّقين على أعالي الجنان، وردُّ نكرانِ أهل العصيانِ

جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ لتقوية المؤكَّد، وتمكينه في ذهن السّامع وفي قلبِه اهتمامًا بالخبر؛ حيث إنَّ هذه الآيات والتي بعدَها تعرِضُ الصّورة المقابِلَة لأهل الضَّلال والمنكر، وما يَلْقَون في جهنَّم مِن عذابٍ وهوانٍ، وفي المقابلة بين الصّورتين تتَّضحُ المعالمُ في كلٍّ منهما، ويرى كلٌّ في الصّورة المقابلةِ ما يضاعِف ما هو فيه مِن بلاءٍ أو نعيم؛ فأهلُ النّار إذ يرون أصحابَ الجنَّة، وما هم فيه مِن نعيمٍ ورضوان؛ يزدادُ بلاؤهم وتتضاعفُ محنتُهم، ويشتدُّ عذابُهم وحسرتهم، وأصحابُ الجنَّة إذ يَرَوْن أهلَ النّار، وما هُم فيه مِن محنٍ وشدائد، يعظُم نعيمُهم، ويتضاعفُ رضاؤهم، فلا يجدونَ غيرَ أنْ يُسبِّحوا بحمد ربِّهم أنْ عافاهُم مِن هذا البلاء، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: 34 - 35][2].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وسرُّ إيثار التَّعبير بهذا الوصف دون غيره:

التَّعريف في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للجنس؛ لصحَّة وضع (كلّ) مكانها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 213.

أثرُ التَّقوى في حصولِ الجزاءِ الحسَنِ في الآخرة

فالمتَّقون هُم كلُّ مَن اتَّقى الشِّرك[1] والمعاصي[2]، وهم الذين يؤدّون كلَّ الواجبات، ويبتعدون عن كلِّ المحرَّمات، وقد يكونُ لهم ذنوبٌ صغائرُ تكفِّرها الصَّلوات وغيرُها، فهم يتَّقون ما يجبُ اتِّقاؤه ممّا نُهِي عنه في الشَّرع.

معنى الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾:

بيان مكانة المتَّقين العليَّة

الأصلُ في معنى (في) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَت أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[3]، وقد عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بالحرف ﴿فِي﴾ الذي هو للظَّرفيَّة المكانيَّة؛ فكأنَّ هذا المقام الأمين قد أحاطَ بهم إحاطة الظَّرف بالمظروف، وفي هذا مبالغةٌ في التَّكريم، وعظيمُ منَّةٍ مِن المولى الكريم سبحانه وبحمده، فلا يأتيهم الخوفُ مِن أيِّ مكان، بخلافِ الكافر الأثيم الذي ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: 17].

نكتة تنكير ﴿مَقَامٍ﴾ ودلالةُ وصفِهِ بـ﴿أَمِينٍ﴾:

بيانُ عَظَمَةِ ما ينالونَهُ مِن الخيرِ العَميم

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿مَقَامٍ﴾ للتَّعظيم؛ حيث إنَّ الجنَّة دارُ إقامةٍ فيها نعيمٌ شامل؛ فلا خوف فيها مِن شيء، ولا خوف فيها على شيء، ولا يُتحوَّل عنها إلى غيرها، ولا يُشغل مَن فيها بما سواها.

ووَصْفُه بـ﴿أَمِينٍ﴾ مجازٌ عقليٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: 3]، وهو (فَعِيل) بمعنى (مفعول)؛ أي: مأمون فيه[4]، ويأمنُ صاحبُه الآفاتِ والانتقالَ عنهُ، وهو منَ الأمنِ الذي هو ضدُّ الخيانة، وقد وُصِفَ به المكانُ بطريقِ الاستعارةِ، كأنَّ المكانَ المخيفَ يخونُ صاحبَهُ لما يَلْقى فيهِ من المكارِه[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(2) القنَّوجي، فتح البيان: 7/ 173.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 48، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

والأمنُ أكبرُ شروط حُسْن المكان؛ لأنَّ السّاكن أوَّل ما يتطلَّب الأمن؛ وهو السَّلامة مِن المكاره والمخاوف، فإذا كان آمنًا في منزلِه كان مطمئِنَّ البال شاعرًا بالنَّعيم الذي يناله[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله تعالى: ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾:

المُـقـام مـكـانُ الإقامة، والمَقَامُ مكان القيام

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بضمِّ الميم: ﴿مُقَامٍ﴾، وقرأ الباقون بفتحها ﴿مَقَامٍ﴾[2].

والمُقامُ بضمِّ الميم: مكان الإقامة، والمَقامُ بفتح الميم: مكانُ القيام، ويتناول المسكَنَ وما يتبعه؛ لأنَّه إذا جُعِل مِن (قامَ يقومُ) فمفتوحٌ، وإن جُعِل مِن (أقامَ يُقِيم) فمضمومٌ؛ لأنَّ الفعلَ إذا جاوزَ الثَّلاثة فالموضعُ مضمومُ الميم، وجوِّز أنْ يكون المَقامُ بالفتح بمعنى: المشهَد والمجلس، وأنْ يُراد بالمُقام - مضموم الميم - المكانُ، أو يكون مصدرًا ويُقَدَّر فيه المضاف؛ أي: في موضع إقامة، وهو مِن الخاصِّ الذي وقعَ مستعمَلًا في معنى العموم[3]، والمعنيان متآزران، فالمتَّقون في الجنَّة مكانُ قيامِهم أمينٌ، ومكانُ إقامتهم أمينٌ كذلك، فهم يَقومون في أمنٍ، ويُقِيمون في أمن، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: 82]

علَّة فصلِ قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ عن سابقِه:

تفصيلُ نعيمِ أهل التَّقوى

فُصِل قولهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ عن سابقِه؛ لِما بينَهما مِن كمال الاتِّصال؛ لأنَّه بدلٌ مِن ﴿مَقَامٍ﴾؛ وقد جيء به دلالةً على نزاهتِه واشتمالِه على طيِّبات المآكل والمشارب[4]؛ ذلك أنَّ الوصفَ بعد الوصفِ شديدُ التَّرغيب في الشَّيء[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 371، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.

(3) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 409، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 48.

المــتَّــقــون في نعيم الجنّات يــتــقــلّــبــون، وكأنَّهم بأمنها محضونون

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

الأصلُ في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَت أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ للظَّرفيَّة المكانيَّة.

فالجنّات: ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ، وزروعٍ وقصورٍ وأنهارٍ، وكلِّ ما يُمتِّع النَّفس والحواسَّ، وجنّاتُ يوم الدِّين فيها النَّعيمُ الأبديُّ الخالد، وفيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشرٍ.

وقد دلَّ الحرفُ ﴿فِي﴾ على أنَّ هذه الجنّاتِ العظيمةَ كأنَّها تحيطُ بـ(المتَّقين) إحاطة الظَّرف بالمظروف، وأنَّهم يتنعَّمون داخلها، ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]، ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: 48].

بيانُ سعةِ نعيم أهل الجنَّةِ ورغدِ عَيْشِهم

نكتة تكرار حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

تكرَّر حرفُ الظَّرفيَّة مع البدَل في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بعد تقدُّم ذِكره

مع المبدل منه في قوله سبحانه: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ للتَّأكيد على أنَّ دخولَهم الجنّاتِ الآمنةَ الرَّغيدة، وتقلُّبَهُم في الحياة السَّعيدة: كائنٌ لا محالة، وواقعٌ دون ريب[2].

وُعِــد المــتَّـقـون بــالــجــنّــات الــكــثــيرات؛ لتتحقَّق لهُم كلُّ أنواعِ السَّعادات

نكتةُ تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ودلالةُ مَجيئِها جمعًا:

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ للتَّكثير، وجاء بلفظ الجمع لتأكيدِ هذا المعنى؛ فإنَّ الجنَّة يوم الدِّين ذات أقسام كثيرة جدًّا؛ كلُّ قسمٍ منها جنَّةٌ تشتملُ على الصِّفات المطلوبة في جنّاتِ النَّعيمِ؛

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

على الرَّغم مِن التَّفاضُل فيما بينها بحسب استحقاقِ نُزَلائها الذين تفضَّلَ اللّه عليهم بأن يكونوا مِن أهلها بالإيمانِ والعملِ الصّالح[1].

نكتةُ عطفِ (عُيونٍ) على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ودلالةُ مجيئِها جمعًا:

جمَعَ اللهُ للمتَّقين أنواعَ الملذّات، وصنوفَ المشتهيات

عُطِفَ قوله تعالى: (عُيونٍ) على قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ لإفادة المُغايَرة؛ فلكلِّ واحدٍ مِن المتَّقين جنَّةٌ وعينٌ، أو لكلٍّ جنّاتٌ وعيون[2].

وذِكرُ العيون بعد الجنّات فيه دلالةٌ على اكتمال أسباب النَّعيم؛ ففي الجنّات مآكل، وفي العيونِ مشاربُ، وفي وجود الماء المَعين بقاءٌ لثِمار الجنّات.

علَّة فصلِ قوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ عن سابقه:

زيادةُ بيانٍ لعيشتهم الهنيَّة، ومنازلِهم البهيَّة

فُصِل قوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ عن سابقه لِما بينهما مِن كمال الاتِّصال؛ ذلك أنَّه خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مِن الضَّمير في الجارِّ والمجرور[3]، أو هو استئنافٌ بيانيٌّ[4]؛ لورودِه جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر؛ وهو: ماذا يلبسون؟ فجاء الجوابُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ الآيَة.

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾:

بيانُ نعيمِ أجسادِ المتَّقين في الجِنان

في قوله سبحانه: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾ وصفُ نعيم أجسادِهم بذِكر لباسهم وهو لباس التَّرف والنَّعيم: السُّندس والاستبرق، وفيه كنايةٌ عن توفُّر أسباب نعيم الأجساد؛ لأنَّه لا يلبسُ هذا اللِّباسَ إلّا مَن استكمَل ما قبله مِن ملائمات الجسَد باطنِه وظاهرِه[5].

---

(1) عبد الرحمن، تفسير القرآن للميداني: 13/ 60.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 79.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 133، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 136، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 136.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 136، والدرَّة، تفسير القرآن، وإعرابه وبيانه: 8/ 690، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَلۡبَسُونَ﴾:

يتجدَّد النَّعيم لـلـمـتَّـقـين، ولـيـسـوا منه بمخرَجين

عُبِّر بالفعل المُضارع في قوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ﴾ للدَّلالة على الحُدوث والتَّجدُّد والاستمرار، ممّا يتجدَّد معه استمتاعُهم بهذا اللَّون مِن ألوان النَّعيم، ووقوعُه لهم مرَّةً بعد مرَّة، وفي هذا تنبيهٌ إلى عظيم إكرام الله سبحانه لعباده المتَّقين.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾:

بـيـانُ لِـبـاس المتَّقين بعد بيانِ مقامِهم

الأصلُ في معنى ﴿مِن﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ لبيان الجنس، والمبيَّنُ محذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ﴾، والتَّقدير: ثيابًا ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾[2].

ومعنى ابتداء الغاية فيه بارزٌ غيرُ خافٍ؛ لأنَّه مفيدٌ أنَّ ابتداء لُبسِهم هو الثِّياب المنسوجة مِن السُّندُس والإستبرق، وابتداءُ لبسٍ هذه صفتُه لهوَ غايةٌ في الإكرام، وآية في النَّعيم!

نكتة تنكير ﴿سُندُسٍ﴾:

ألبسة المكرَمين كثيرةٌ منوَّعَة

التَّنكير في قوله تعالى: ﴿سُندُسٍ﴾ للتَّكثير والتَّنوُّع، ذلك أنَّه لمّا وصفَ سبحانه ما أعدَّ لعباده المتَّقين مِن اللِّبس في الجنَّة؛ دلَّ على الكثرة جدًّا بقوله: ﴿مِن سُندُسٍ﴾[3]، والسُّندس: ما رقَّ مِن الدِّيباج[4].

دلالة عطف (إِسۡتَبۡرَقٍ) على ﴿سُندُسٍ﴾:

تعديدُ صنوفِ ألـبسة المتَّـقيَن الفاخرةِ

عُطِفَ قوله تعالى: (إِسۡتَبۡرَقٍ) على قوله: ﴿سُندُسٍ﴾ لإفادة المغايرة؛ فإنَّ الإستبرق: ما غلُظَ مِن الدِّيباج[5]، والسُّندسُ: الحرير

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 47.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

الرَّقيق، أو السُّندسُ ما يلبسونه، والإستبرقُ ما يفترشونه[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى تنوُّع ألوان النَّعيم في الثِّياب وغيره، فلا يلبسون ثوبًا واحدًا، بل هو سندسٌ وإستبرقٌ وأسورةٌ وحرير، ولا يأكلون طعامًا واحدًا، بل هو لحمُ طيرٍ وفاكهةٌ كثيرةٌ وما يشتهون، ولا يشربون شرابًا واحدًا، بل هي أنهارٌ مِن ماءٍ ولبنٍ وعسل، وإنَّما هو نعيمٌ مقيمٌ، ولذَّةٌ لا نهاية لها.

دلالة التَّعبير بالحال ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

بيانُ حصول الاستئناس، بعد التَّنعُّم بصنوف الطَّعام والشَّراب واللِّباس

جاء التَّعبير بالحال في قوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ وهو جلوسهم على صفة التَّقابل، والغرضُ منه: استئناسُ بعضِهم ببَعضٍ؛ فإنَّ النَّعيم يوحِشُ إذا كان المرء فيه وحيدًا منفردًا، فإن قيل: الجلوسُ على هذا الوجه موحشٌ؛ لأنَّه يكون كلُّ واحدٍ منهم مطَّلعًا على ما يفعلهُ الآخر، وأيضًا فالذي يقلُّ ثوابُه إذا اطَّلعَ على حالِ مَن يَكثُر ثوابُه يتنغَّصُ عيشُه؛ فالجوابُ: إنَّ أحوالَ الآخرة بخلافِ أحوال الدُّنيا[2]، فهُم متقابلون بالمحبَّة لا متدابرون بالبغضة[3].

وفيه أيضًا إيجازٌ بليغٌ بديع؛ لأنَّ وصْفَ نعيمِ نفوسِهم بعضِهم مع بعضٍ في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله سبحانه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أفادَ اجتماعَهُم وتحابَّهُم ومحاورتَهُم، وأنَّ ذلك شأنهم أجمعين، فالحديثُ مع الأصحاب والأحبَّة نعيمٌ للنَّفس عظيم، فأغنى قولُه تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ عن ذِكْرِ ذلك كلِّه بذِكر ما يستلزمه، وهو صيغة ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومادَّته على وجه الإيجاز البديع[4].

وفيه كذلك بلاغة التَّرقِّي في وصف نعيم الجنَّة؛ بدءًا بذِكْرِ نعيم

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 258.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 78، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 256، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 48.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 318.

المكان، ثمَّ اللِّباس، ثمَّ النُّفوس؛ بدأ بذكر نعيم الجنَّة؛ لأنَّه نعيمٌ متعلِّق بالمكان، ثمَّ ترقَّى مِن عموم المكان إلى خصوص الحالِّ فيه، فوصفَ نعيمَ أجسادهم بذِكْرِ لباسِهم وهو لباسُ التَّرف والنَّعيم، ثمَّ ترقَّى إلى ما هو أخصُّ مِن الأجساد فوصفَ نعيمَ نفوسِهم التي هي مِن الأجساد بمنزلة الأجساد مِن الجنَّة.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ عن سابقه:

زيادةُ التَّقرير، تعظيمًا لحُسن المصير

فُصِل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه جملةٌ اسميَّةٌ واقعةٌ على جِهَة الاعتراضِ بين الجملتين المتعاطفتين، والمقصودُ بجملةِ الاعتراض: التَّقرير[1].

معنى التَّشبيه ودلالته في ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾:

التَّشبيه للتَّقريب، وإزالة التَّعجيب

في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وجهان جائزان[2]:

أحدُهما: النَّصبُ نعتًا لمصدرٍ؛ أي: نفعلُ بالمتَّقين فعلًا كذلك؛ أي: مِثْلَ ذلك الفعلِ مِن الإكرام والإنعام، أو التَّقدير: كما أدخلناهم الجنَّة، وفعلنا بهم ما تقدَّم ذكرُه؛ كذلك أكرمناهُم بأنْ زوَّجناهُم حورًا عِينًا.

والوجه الآخَر: الرَّفعُ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ؛ أي: الأمرُ كذلك، وتمَّ الكلام، ثمَّ يُستأنف: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾.

فالحاصلُ أنَّ هذه الكافَ للتَّشبيه، والمشبَّه به شيء تضمَّنه الكلام السّابق بلفظه أو معناه[3]، فلمّا كان ما ذُكِر يُبهِر العقل، فلا يكاد يتصوَّره؛ قال مؤكِّدًا له: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر كما ذكرنا سواءٌ لا مرية فيه[4].

---

(1) الدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 691، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 136، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 136.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 630، والدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 691.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 29.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 49.

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد في ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾، وتعيين المشار إليه:

الإشارة للإعظامِ والإجـلال، وتقريبِ المثال، وتوضيحِ المقال

التَّعبير باسم الإشارة للبعيد يُفيد التَّعظيمَ وعلوَّ المكانة، فقد بلغَ المشارُ إليه في رفعة القدر شأوًا بعيدًا لا يُطاوَل.

وهو يُشير إلى المشار إليه المحذوفِ - بحسب ما تقدَّم - لأنَّه كالمذكور؛ لتقرُّرِ العِلم به، والمعنى: مَن أراد تشبيهَهُ لم يشبِّهْه بأكثر مِن أنْ يُشَبِّهَه بذاته؛ لعظيم مكانته ورفيع منزلته[1]؛ أي: كذلك شأنُهم الذي هم فيه، وأكثر مِن هذا، فقد زوَّجهم اللّٰه ﷻ بحورٍ عِينٍ مِن حورِ الجنَّة وعرائسها[2].

نكتة عطف ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ على سابقه:

لـلـمـتَّـقـين عـنـد ربِّـهـم في الـجـنّـات شتَّـى ألـوان النَّـعيـم والكرامات

قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ معطوفٌ على ما قبل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وهو الفعل ﴿يَلۡبَسُونَ﴾[3]، أو معطوفٌ على فعلٍ مقدَّر، والتَّقدير: أثْبَنْاهُم وزَوَّجناهُم[4]، ونكتةُ هذا العطف بيانُ ما للمتَّقين عند ربِّهم مِن الكرامة، وما لهُم في الجنَّة مِن صنوف النِّعمة، فيتمتَّعون تارةً بأكل ما يُشتَهى، وشُرب ما يُلتَذُّ، ولبسِ ما يزيِّن، ويَنْعَمون تارةً بمؤانسةِ الإخوان، وتارةً بملاعبة النِّسوان مِن الحور العين الحِسان[5].

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾:

كـمـالُ أُنْـس المتَّقين في الجنَّة بصُحبةِ الحورِ العين

قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ هوَ كنايةٌ عن القرين؛ أي: قَرَنّا بكلِّ واحدٍ من المتَّقينَ نساءً حورًا عينًا، وفعل التَّزويج (زَوَّجْناهُمْ) هنا ليس مشتقًّا مِن الزَّوج الذي غلبَ إطلاقه على امرأة الرَّجُل، وعلى رَجُل المرأة؛ وذلك لأنَّ ذلك الفعلَ يتعدَّى بنفسه، يقال: زوَّجَهُ ابنته،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 29.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 204.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 139، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 136.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 133.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 395.

وتزوَّج بنتَ فلان، كما قال اللّه تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، وليس ذلك بمُرادٍ هنا؛ "إذ ليس في الجنَّة عقودُ نكاح، وإنَّما المرادُ أنَّهم مأنوسون بصُحبة حبائبَ مِن النِّساء، كما أنِسوا بصُحبة الأصحاب والأحبَّة مِن الرِّجال؛ استكمالًا لمُتعارَفِ الأُنس بين النّاس، وفي كلا الأُنسَيْن نعيمٌ نفسانيٌّ منجرٌّ للنَّفس مِن النَّعيم الجثمانيِّ، وهذا معنًى سامٍ مِن معاني الانبساط الرّوحيِّ"(1).

دلالة إسناد فعل اللِّبس للمنعَّمين ﴿يَلْبَسُونَ﴾ وفعل ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ لنون العظَمة:

بالحور الحِسان اكتمالُ سعادة الإنسان

أُسنِد فعلُ اللِّبس إلى المتَّقين فقال اللّه تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ﴾، بينما أُسنِد فعل التَّزويج إلى اللّه العليِّ العظيم، فقال تباركت أسماؤه: (زَوَّجْناهُم)، وفي هذه اللَّفتة دقيقةٌ مِن دقائق بلاغة هذا النَّظم البليغ المُعجِز؛ ذلك أنَّ اللِّبس عادةً ما يكونُ مِن فعل اللّابس نفسه، خصوصًا إذا كان لغرضِ السَّتر مع الزِّينة، فلا يحسُن - والحالُ هذه - أن يتولَّى غيرُ اللّابس إلباسَهُ؛ لما في ذلك مِن الاطِّلاع على عورته.

أمّا في التَّزويج فإنَّه عادةً لا يكونُ إلّا بوليٍّ وشاهدَيْ عدلٍ وصيغة، وبدون هذا يكون سِفاحًا - عياذًا باللّه - ومخادَنة، فلا بدَّ مِن توفُّر شروط النِّكاح حتَّى يحِلَّ.

غير أنَّ التَّزويجَ في الجنَّة هو بمنزلةٍ أعلى وأشرف مِن هذا، فالذي تولَّى تزويج المتَّقين بالحور العين هو اللّه ربُّ العالمين، فما أقدسَهُ مِن رباط! وما أشرفَهُ مِن وثاق!

فالحاصل أنَّ إسناد الفعل في قوله تعالى: (زَوَّجْناهُمْ) لنون

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

العظَمة هو تنبيهٌ على كمال الشَّرف[1]، ففيه مرتبةٌ أعلى مِن الفضل والعطاء، ومرتبةٌ أعلى في المَحَبَّة والمسَرَّة والغِبطة[2].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾:

زواجُ المتَّقين بالحور العين اقترانُ أُنسٍ

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3].

وله في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ﴾ دلالةٌ معنويَّةٌ بليغة؛ ذلك أنَّ العَرَب لا تقول: تزوَّج بها، وإنَّما يقولون: تزَوَّجها، وعليه فإنَّ معنى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: قَرَنّاهم بهِنَّ[4].

ثمَّ إنَّ ما تدلُّ عليه الباء مِن معاني الإلصاق؛ أفاد معنى القُرب الشَّديد والصِّلة الوثيقة بين كلِّ زوجٍ وزوجه؛ حيث لا شيءَ يفصِل بينهُما.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ ودلالةُ مجيئها جمعًا:

الحـورُ العين عَظُم جمالُهنَّ، وكثُرت أعدادُهنَّ

التَّنكير في قوله تعالى: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ يصحُّ أن يكون للتَّعظيم، فالحورُ العينُ قد بلغْنَ الغايةَ في الحُسن، والنِّهايةَ في النَّقاء والبياض.

ويقوِّي معنى التَّعظيم وصفُ (حورٍ) بـ﴿عِينٍ﴾، فإنَّ لفظَ (حورٍ) جمعٌ لـ: حوراءَ، والحَوَرُ هو: شدَّةُ بياض العَيْن في شدَّةِ سوادها، و﴿عِينٍ﴾: جمع عَيْناء؛ وهي الواسعةُ العَيْنَين عظيمَتُهُما[5].

ويصحُّ أن يكونَ التَّنكيرُ للتَّكثير؛ فهنَّ كثيراتٌ معجِبات، لكلِّ رجلٍ من أهل الجنَّة حوراءُ عَيناء، وربَّما كان للواحد منهم أكثرُ مِن واحدة، ومجيءُ الكلمة جمعًا تقويةٌ لهذا المعنى، والنِّكاتُ البلاغيَّة تتآزرُ ولا تتنافَر.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 49.

(2) محمد أبو موسى، آل حم (الشورى، الزخرف، الدُّخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 682.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 237، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 94.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 153.

بلاغة الوصف في قوله تعالى: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾:

عِـظَـمُ جـمـالِ نِساء الجنَّة

قوله تعالى: (حورٍ) جمع حَوْراء؛ وهي: شديدةُ بياض العين في شدَّة سوادها، والبيضاء التي يُرَى ساقُها مِن وراء ثيابها، ويَرى النّاظرُ وجهَهُ في كعبها، كالمِرآةِ مِن دقَّة الجلد، وبضاضة البشرة، وصفاء اللَّون، فيَحارُ الطَّرْفُ في حُسنِها وبياضِها وصفاءِ لونها، وأمّا العِينُ فجمعُ عَيْناء، وهي الواسعةُ العَيْنَين عظيمَتُهما[1].

ووصفُ الحورِ بأنَّهنَّ عِينٌ يُقرِّب إلى الخَلَد عَظَمَة الخلود في التَّنعُّم بهنَّ؛ فإنَّ هذا الوصفَ هو وصفٌ للعَيْن، وللعَين النَّصيبُ الأوفَرُ والحظُّ الأكبَرُ في الجَمال، فإذا كان نساء الجَنَّة بهذا القدْرِ مِن جمال العَين، فكيف بغيرها؟!

بلاغةُ الإيجاز بحَذْفِ الموصوفِ في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾:

مِـــن فــنــون البلاغةِ الإيجاز، وهو مِن ضروب الإعجاز

قوله سبحانه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف؛ حيث حُذف الموصوف، واكتُفي بالوصف، فالتَّقدير: وزوَّجناهم بنساءٍ حورٍ عينٍ، أو بأزواجٍ حورٍ عينٍ؛ إذ هي صفةٌ خاصَّةٌ بالموصوف، وأيضًا لدلالة السِّياق وجملةِ ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ عليه.

علَّةُ فَصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ عن سابقه:

المتَّقون في الجنَّة خـالـدون، ومِن الحرير يلبسون، وبـالــحــور يُـزَوَّجـون، ومِن كـــلِّ فـاكـهـةٍ يأكلون

فُصِل قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها حالٌ مِن الهاء في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾؛ أي: يطلبون إحضارَها لديهم وهم آمنون لا يخافون مِن مغبَّة أكلها[2].

وعليه يكونُ الفصل لشبهِ كمالِ الاتِّصال، فكأنَّ جملة الحال وقعت إجابةً عن سؤالٍ مقدَّرٍ بعد ذكرِ اللِّباس مِن الحرير، والزَّواجِ بالحور العين، وهو: فَماذا يأكلون؟ فأُجيبَ: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 154 - 155.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 630، ودرويش، إعراب القرآن: 9/ 137، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾، وتوجيه المراد بالدُّعاء:

أُكُلُ الجنَّة دائمٌ وظلُّها، وفيها صُنوفُ النَّعيم كلُّها

التَّعبيرُ بالفعل المُضارع في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ﴾ لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، وهذا مناسبٌ غايةَ المُناسبَةِ لمَدْلولهِ مِن وصف أكل أهل الجنَّة؛ إذ المعنى: أنَّهم يأمرون أن تُحْضَر لهم الفاكهة، فيُجابون، وذلك متجدِّد لهم، لا ينقَطِع عنهم، فهم أبدًا طاعمون، وأبدًا آمنون.

والدُّعاءُ في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ﴾ هو ضربٌ مِن الأمر أو الرَّغبة، ودليلهُ قوله: ﴿بِكُلِّ﴾ أي: يرغبون فيطلُبون إحضارَ كلِّ أنواع الفاكهة[1]، ومفعولُ ﴿يَدۡعُونَ﴾ محذوفٌ للعِلم به؛ أي: يَدعون الخَدَم بكلِّ فاكهة[2].

معنى الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾:

بيانُ إحاطةِ النَّعيم بهم إحاطةً كليَّة

(في) حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَتْ أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[3]، وهي هنا للظَّرفية المكانيَّة الحقيقيَّة؛ حيث إنَّ الجنّات هي محلُّ دعواتِهم، وغاية أمنيّاتهم، فهم يطلبون الفاكهة وهم يتقلَّبون في نعيمِها آمنين.

نكتة تقديم شبهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على متعلَّق الفعل ﴿يَدۡعُونَ﴾:

التَّقديمُ للاهتمام، تشريفًا لذلك المقام

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على متعلَّق الفعل ﴿يَدۡعُونَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم؛ فإنَّ النَّعيمَ الأعظمَ مِن دعائهم بكلِّ فاكهةٍ هو كونُ ذلك في أعظم موعودٍ؛ وهي جنّاتُ الخلودِ.

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾:

مهما رغِب المتَّقون وجَدوا، ومهما طَلبوا أُجيبوا

(الباء) حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى الإلصاق، حقيقيًّا كان هذا الإلصاقُ أم مجازيًّا[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 17/ 335.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

ودخولُ الباء على ﴿يَدۡعُونَ﴾ دلَّ على تضمينِ الفعل معنى (يطلبون)، أو (يرغبون)، فكأنَّ هذا الطَّلَب قد التَصَق بالرَّغبة في إحضار الفاكهة، ممّا يدلُّ على قُربِ أنواعِ الفاكهة الكثيرة مِن المتَّقين في الجنّات، كما يشهدُ لهُ قولُه تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾ [الإنسان: 14]، فهم يطلبون ما لذَّ وطابَ ممّا شاؤوا مِن أنواع الفاكهة الكثيرة المتنوِّعة، وأنواع الشَّراب الكثير العذب الطَّيب، وغيرهما، فمَهْما طلبوا وجَدوا، وأُحضِر كما أرادوا.

نكتة التَّعبير بالاسم الدّالِّ على التَّعميم (كُلِّ):

التَّـعـبـيرُ بالتَّعميم لإفادة عدمِ امتناعِ أيِّ نوعٍ مِن النَّعيم

الاسم الدّالِ على التَّعميم في قوله تعالى: (كُلِّ) مستعملٌ في الكثرة الشَّديدة لكلِّ واحدٍ منهم، ويجوز أن تكون بمعنى الإحاطة؛ أي: بكلِّ صِنفٍ مِن أصناف الفاكهة[1]، والمعنى: لا يمتنع عليهم صِنفٌ مِن الأصناف لبُعدِ مكانٍ ولا فقدانٍ ولا غير ذلك مِن الشَّأن، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّه مع سَعَته ليس فيه شيءٌ لإقامة البِنْية، وإنَّما هو للتَّفكُّه والتَّلذُّذ[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿فَٰكِهَةٍ﴾ ودلالةُ إفرادِها:

فاكهة الجنَّة لا تنفد أبـدا، وأنواعُها كثيرةٌ جدّا

أُفردَت الفاكهة في قول اللّه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ للدَّلالة على معنى الجنس، فهي تشمل كلَّ أنواعها ممّا يشمَله معنى التَّفكُّه، ونُكِّرت لإفادة التَّكثير، فهي عظيمةٌ في كثرتها وتوفُّرها، فلا تنفد أبدًا.

دلالة التَّعبير بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾:

جاء التَّعبير بالحال في قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ لإفادة أنَّ هنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 104، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 134، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 397.

أهـــلُ الـجـنَّـة يأمَنون مِن كلِّ مـخـــوف؛ فلا تعبأ نفوسُهم بحَذَرٍ، ولا يعكِّرُ صَفوَهم كَدَر

أمنًا خاصًّا غير الذي في قوله: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وهو الأمنُ مِن الغوائل والآلام مِن تلك الفواكه، على خلافِ حالِ الإكثار مِن الطَّعام في الدُّنيا، وهذا كقوله تعالى في وصف خمر الجنَّة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصّافّات: 47]، ويصحُّ أن يكون المعنى: أنَّهم آمنون مِن نفادِ الفاكهة وانقطاعها[1]، فهُم بذلك في غاية الأمنِ مِن كلِّ مخوفٍ أو محذور[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ عن سابقه:

تعديدُ صُنوفِ الـنَّـعـيـم والأوصاف

فُصِل قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها حالٌ أخرى مِن الضَّمير في ﴿يَدْعُونَ﴾، أو مِن الضَّمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾، أو مِن مفعول (زَوَّجْناهُمْ)، أو حالٌ أخرى بعدَ ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: غير ذائقين، أو صفةٌ لـ﴿ءَامِنِينَ﴾[3]، ويجوز أن يكون مستأنفًا[4] جوابًا عن سؤال مقدَّر؛ وهو: هل بعد هذا النَّعيم العظيم سيموتون؟ فأُجيبَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾.

سرُّ العدول عن (خالدين) إلى ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

نفيُ حـدوثِ أيِّ نوعٍ مِن الآلام، وذلك مِن تمام النِّعمة وعظيمِ الإكرام

عُدِلَ عن (خالدين) إلى ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ لنفي ذوق الموت؛ إشارةً إلى نفي الألم والكدر عنهم، لا مجرَّد إثبات الحياة لهم والخلود؛ حيثُ جُعِلَ الموتُ في مُقاساة الآلام والأسباب التي يحدُث عندها الموت، كالطَّعام الذي يُكرَه ذَوقُه فضلًا عن تناوُلِه وأكله، فهم لا يموتون أبدًا، ولا يحصلُ لهم أيُّ شيءٍ ممّا يتعلَّق بالموت؛ كخوفه ومرضه ... إلخ.

وثمَّ ملمحٌ آخرُ؛ وهو مقابلةُ عذابِ الكفور الأثيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 67، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 49، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1149، والسَّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 630 - 631.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 580.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، فهذا ذَوقٌ مثبَت، وذلك ذوقٌ منفِيٌّ، وفي المقابلة بينَهما يَظْهَر قدرُ الإنعام وحُسنُ الإكرام.

والمعنى: أنَّ المتَّقين في أمانٍ مِن أن يُزعجهم عن هذا النَّعيم الذي هم فيه أيُّ خاطرٍ يخطُر لهم؛ مِن انقطاع هذا النَّعيم بالموت، أو بالتَّحوُّل عنه إلى غيره، فهم في أمانٍ من الموت، فإنَّها حياة خالدة، ونعيمٌ خالد؛ لا يتحوَّلون أبدًا عن هذا النَّعيم إلى ما يُقابلُه مِن عذاب الجحيم الذي يَصْلاه أهلُ النّار، فقد وقاهم اللّهُ هذا العذاب وأنقذهم منه، فلا يتعرَّضون له أبدًا[1]، وقد ثبت في الصَّحيحين أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ في صورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ والنّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُقالُ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلودٌ فَلا مَوْت، ويا أَهْلَ النّارِ خُلودٌ فَلا مَوْت»[2].

مناسبة ذِكر الخلود في الجنّات والعيون بعد ذِكر الأمن:

تقوية معنى الأمن في جنّات النَّعيم

ذِكرُ الخلود في الجنّات والعيون بعد ذِكر الأمن بشارةٌ عظيمة بدوام النِّعمة وبقائها؛ لأنَّ الموت يقطع ما كان في الحياة مِن النَّعيم لأصحاب النَّعيم، كما كان الإعلام بأنَّ أهل الشِّرك لا يموتون نذارةً بدوام العذاب[3]، فذِكْرُ الخُلود ونفيُ ذوقِ الموت بعد ذِكرِ الأمن فيه تقويةٌ لمعنى الأمن؛ إذ هو أمنٌ دائمٌ لا ينقطع؛ فلا يزول عنهم ولا يزولون عنه، بخلاف أمن الدُّنيا ومتاعها الزّائل.

وقد يُحمَل على ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، فإنَّ الأمن يشمل الأمن مِن ترك النَّعيم بالموت أو بالإخراج منه، فذِكرُ الخلود بعده يدلُّ على أهمِّيته وعظيم منزلته؛ فلذا خُصَّ بالذِّكر.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 215، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 138.
(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (4730)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2849).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولهِ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

تمامُ النِّعمة بِبقائها ودوامِها

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ استعارة؛ حيث جُعل الموت في مقاساة الآلام والأسباب التي يحدث عندها الموت كالطَّعام الذي يُكره ذَوقُه؛ فلذلك استُعِير له الذَّوْق، وهو في الحقيقة عَرَض لا يُذاق[1].

فهي استعارةٌ مكنيَّة؛ حيث شُبِّه الموتُ بالطَّعام الذي يُذاق، ثمَّ حُذِف المشبَّه به (الطَّعام)، وجيء بإحدى صفاته - وهو (الذَّوق) - على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وهذا مناسب أيضًا لتذييل الآية بنفي العذاب عنهم بقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارِع المنفيِّ ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾:

نفيُ حصولِ الاستطعام؛ فلا يحصل لهم شيء مِن الكدَرِ والآلام

جاء التَّعبير بالمضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ لنفي الحصول في الزَّمن الحاضر والآتي؛ أي: لا يحصل لهم أوائِل استِطعامِه أبدًا، فكيف بما وراء ذلك[2]؟! ففي الفعل المضارعِ دلالةٌ على الاستمرارِ، وهو استمرارُ النَّفْي لا نفيُ الاستِمرارِ.

لطيفةُ التَّعبير بالذَّوق منفيًّا بعد ذِكر الفاكهة:

إثباتُ الذَّوقِ المحمودِ ونفيُ الذَّوقِ المكروهِ

جاء التَّعبير بالذَّوق منفيًّا بعد أن أثبت لهم سبحانه ذَوْقَ ما يتفكَّهون به في الجنّات مِن أصناف المأكول والمشروب؛ حيث نفى عنهم ذَوْقَ ما يكدِّر صفوَ هذا النَّعيم مِن موْتٍ وزوال، فكان بين إثبات ذَوْقِ الفاكهة وأكلها ونفي ذَوْقِ الموتِ تناسبٌ بَدِيع[3].

معنى الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

ليس في الجنَّة ذَوقُ موت، ولا خوفُ فَوْت

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَت أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[4]، وهو هنا للظَّرفيَّة

---

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 126.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 50.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 50، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 215، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 397.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

المكانيَّة الحقيقيَّة؛ أي: لا يكون في هذا المكان موتٌ ولا هلاكٌ ولا ينبغي أن يكون. "وقد أفهم التَّقييد بالظَّرف أنَّ النّار يُذاق فيها الموت"(1)، غير أنَّه لا يُنال أبدًا!

خُصَّت الجنَّة بأنواعٍ مِن الملذّات، وبالسَّلامة مِن المكدِّرات

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول به في ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ للاختصاص، فليس ثمَّ مكانٌ لا يُذاق فيه الموت إلّا الجنَّة، أمّا النّار - عياذًا باللّه منها - فحالُ الكافر فيها كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾ [إبراهيم: 17] فيذوقُه ويقاسي سكراتِه ولا يناله أبدًا، فيدعو به، ولا يُجاب إليه أبدًا.

المتَّقون في الجنّات خالدون، فلا موتَ يذوقون، ولا إخراجَ يخافون

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾:

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ للجنس؛ حيث إنَّهم لا يذوقون أيَّ نوعٍ مِن أنواع الموت، فيكون بعضًا مِن جنس الموت، وهو فردٌ واحد، وذلك أقوى في نفي الموت عن أنفسهم، كأنَّه قال: لا يذوقون فيها شيئًا مِن الموت يعني: أقلَّ ما يُطلَق عليه اسم الموت(2).

ثراء المعاني والدَّلالات بتعدُّد التَّوجيهات والتَّأويلات

معنى الاستثناء ودلالتُه في ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰٓ﴾:

للاسْتثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أوجهٌ يُتَأوَّل بها معناه(3):

أحدها: أن يكون منقطعًا، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: (لكنْ)؛ أي: لكنِ الموتةُ الأولى قد ذاقوها في الدُّنيا؛ إذ كانت مكتوبةً عليهم فيها.

ثانيها: أنْ يكون متَّصلًا، وتأويله أنَّ السُّعداء عند موتهم يَصيرون بلُطفِ اللّه تعالى إلى أسبابٍ مِن الجنَّة، فيرَوْن منازلهم منها، وتُفتَح

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 50.
(2) البروسوي، روح البيان: 8431، والهرري، حدائق الروح والرَّيحان: 26/ 397.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 44، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 428، ومكّي ابن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 2/ 658، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 580 - 581، والسَّمين الحلبي، الدرُّ المصون: 9/ 631، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 134.

لهم أبوابُها، فيَلْقَوْن الرَّوْح والرَّيحان، فإذا ماتوا في الدُّنيا فكأنَّهم ماتوا في الجنَّة؛ لمشاهدتهم إيّاها، واتِّصالهم بأسبابها.

ثالثُها: أن تكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (سوى)، وهذا التَّأويل صحيح مستقيم؛ ذلك أنَّ (سوى) بمعنى: مكان؛ ولهذا جعله النُّحاة ظرفَ مكان، فإذا قلت: جاءني القومُ سوى زيد، فكأنَّك قلت: جاءني القومُ مكانَ زيدٍ، ولم يجئ هو، وهذا معناه في الآية، فالمعنى: لا يذوقون في الجنَّة الموتَ مكانَ ما ذاقوه في الدُّنيا مِن الموت بعد الحياة؛ أي: لا يكون في الجنَّة موتٌ بعد الحياة مكانَ الموتِ الذي يكون في الدُّنيا بعد الحياة.

رابِعُها: أنَّ إلّا بمعنى (بَعْدَ) واختارَهُ الطَّبريُّ[1]، وأباهُ الجمهور؛ لأنَّ مجيء (إلّا) بمعنى (بعد) لم يثبت.

وهذه الأوجه السّابقة صحيحة، ومؤدّاها أنَّه لا موتَ في الجنَّة ولا شيء ألبتَّة مِن مقدِّماته وسكراته، فلم يكتب اللّٰه تعالى على عباده إلّا موتةً واحدةً هي التي ذاقوها في الدُّنيا[2]، وهذا الاستثناء مِن تأكيد الشَّيء بما يُشبه ضدَّه لزيادة تحقيق انتفاء ذَوْق الموت عن أجل الجنَّة، فكأنَّه قيل: لا يذوقون الموتَ ألبتَّة، وقرينة ذلك وصفها بالأولَى[3].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ ودلالةُ وصفِها بـ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾:

لا يذوق المتَّقون موتًا غير الذي في الدُّنيا ذاقوه

التَّعريفُ في قوله تعالى ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ للعهد؛ فالمقصود: الموتة التي تذوَّقوها عند رحيلهم عن الدُّنيا وانتقالهم إلى الدّار الآخرة[4].

والموتُ والموتَة: مصدران مِن فعلٍ واحد، كالنَّفخ والنَّفخة، إلّا أنَّ الموتة أخصُّ مِن الموت؛ لأنَّ الموتة للوَحدة، والموتَ للجِنس[5].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 68.
(2) إلّا ما ورد مِن الاستثناءات في قصص الذين أماتهم الله ثمَّ أحياهم، كبعض قوم موسى ﷺ، والذين (قالَ لَهُمُ اللَّهُ موتوا ثُمَّ أحْياهُمْ)، والذي (أماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ)، وغيرها.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.
(4) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 126، والنَّسفي، مدارك التنزيل: 3/ 296، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 283، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 413.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 397.

والمقصود بالموتة الأولى: السّالفة أو السّابقة، بلا قصدٍ لتعيين ثانية أو ثالثة[1]، أو قد يدلُّ الوصف بالأولى على أنَّ المَذوقَ موتةٌ ثانيةٌ، فكان كأنَّه قيل: أمّا غير المتَّقين ممَّن كان عاصيًا فيدخل النّار، فيذوق فيها موتة أُخرَى؛ أي: يقاسيها دون أن ينالها[2].

مناسبة ذِكر ﴿ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ في سياق وصف نعيم الجنَّة بعد تقدُّم ذِكرِ قِيلِ الكافرين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾:

المقارنةُ بين الحالَيْن، وبيانُ جزاء الفريقَيْن

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ "إشارةٌ إلى قول المكذِّبين باليوم الآخر: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥﴾ [الدخان: 35]؛ أي أنَّ أهل الجنَّة قد ذاقوا هذه الموتة الأولى، التي كانوا على إيمانٍ بالحياة والبعث بعدها، فكان هذا الإيمان سببًا في خلاصهم من عذاب النّار، كما كان سببًا في هذا النَّعيم الذي هُم فيه، ومذاقُ هذه الموتة عندهم، غيرُ مذاقِها عند مَن يكذِّبون بالبعث؛ حيثُ يجدُ المؤمنون بالبعث أنَّ هذا الموتَ سبيلٌ إلى الحياة الآخرة، وإلى لقاء اللّه، وإلى ما أعدَّ اللّه للمؤمنين المحسنين مِن جزاءٍ كريم، على حين يجدُ المكذِّبون باليوم الآخِر أنَّ الموت هو حُكمٌ عليهم بالفناء الأبديِّ، الذي يتحوَّلون بعده إلى ترابٍ في هذا التُّراب، وإنَّه الضَّياعُ الأبديُّ لهم، والفراقُ الذي لا لقاءَ بعده للأهل والولد؛ فهم يُعذَّبون بالموت في الدُّنيا، كما يقول اللّه ﷻ: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التَّوبة: 55]، وهُم كذلك يعذَّبون بهذا الموت في الآخرة، إذ كان هو الذي انتقل بهم إلى هذا العذاب الجهنَّميِّ الذي يتجرَّعون كؤوسه ألوانًا؛ فهذا الموتُ الذي ذاقه المؤمنون في الدُّنيا، هو سببُ مَسَرّاتهم التي يُسَرّون بها في الجنَّة؛ إذ يذكرونه فيذكرون أنَّه هو الذي أوصلهم إلى هذا النَّعيم، فلولا الموت لَما كان البعث"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 50.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 216.

سرُّ تخصيص أهل الجنَّة دون أهل النّار بعدم الموت رغم مشاركتهم فيه:

خُصَّ المتَّقون بعدم الموت؛ لثبوت الحياة الحقيقيَّة لهم

خُصَّ أهل الجنَّة بهذه البشارة رغم أنَّ أهل النّار أيضًا لا يموتون؛ لأنَّ البشارة لم تقع بدوام الحياة فقط، بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات، فظهَر الفرق[1].

ولأنَّ النَّفيَ ليس للموتِ بل لذَوقه؛ وأهلُ النّار يذوقونَ الموت لكن لا يموتون، فكأنَّهم - عياذًا بك اللَّهمَّ - أخذوا مِن الموت سكرتَه وعذابَه فذاقوا، ويشهدُ لهذا المعنى قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [إبراهيم: 17] وإنَّ نفيَ ذوقِ الموت معناهُ الحياة، وأهلُ النّار لا تثبتُ لهم الحياة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ [طه: 74]، فلا يوصَفُ أهلُ النّار بعدَم الموت إلّا مقرونًا بنفي الحياة كذلك.

نكتة العطف في: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تذكيرٌ بنعمة السَّلامة ممّا ارتبكَ فيه غيرُهم مِن أهل الملَامة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عاطفة[2] الجملةَ بعدَها على قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ لِما بينَهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَين؛ إذ الجملتانِ اتَّحدَتا في الخبريَّة، وبينَهُما مناسبةٌ في اللَّفظِ والمعْنى؛ فأمّا التَّناسُبُ في اللَّفْظِ؛ فإنَّ الجملتينِ اشْتركتا في الفعليَّةِ الماضويَّة، مع اتِّحادٍ في المسنَدِ إليه وهو الضَّمير الرّاجعُ إلى اللّه تعالى، وأمّا التَّناسبُ المعنويُّ؛ فتضمُّنُهما لنِعَم اللّه تعالى على أهل التَّقوى في الجنَّةِ، وفي هذا تذكيرٌ بنِعْمَةِ السَّلامة ممّا ارتبكَ فيه غيرُهم، وذلك ممّا يُحمَدُ اللّه تعالى عليه، كما وردَ أنَّ مِن آداب مَن يرى غيرَه في شدَّةٍ أو بأسٍ أن يقول: الحمدُ للّه الذي عافاني ممّا هو فيه[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 666.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 137.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطّور: 26 - 27].

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ من حيث مادَّته وصيغته:

من اتَّقى فأطاع وتجنَّب ما حرَّم؛ وقاهُ الله سبحانه نارَ جهنَّم

الأصل في معنى الوقاية أنَّها تدلُّ على دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيره[1]، ومعناه المحوريُّ: حفظٌ مِن الأذى أو الضَّرر باتِّخاذ حاجزٍ دونه[2].

ولمّا كان السِّياق في الحديث عن نعيم المتَّقين؛ ناسبَهُ أن يُعبَّر في ذِكر ثوابهم بالوقاية، فقال سبحانه: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فكان هذا جزاءَ ما اتَّقَوْه[3].

فالتَّعبير بقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ - الذي يشترك مع ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الجذر المعجميِّ نفسه - فيه إشارةٌ إلى أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ ذلك أنَّهم لمّا حققَّوا التَّقوى فاتَّقَوا التعرُّض لعقاب اللّه تعالى، وجعلوا بينَهم وبين عذابِه وقاية؛ لمّا فعلوا ذلك كافأهُم ربُّهم فوَقاهُم عقابَه[4].

ومجيءُ فعلِه ماضيًا فيه دلالةٌ على تحقُّقِ الوقوع، مبالغةً في إكرامِهم وشمولِ المنَّة العظيمةِ إيّاهم.

بلاغةُ الالتفات مِن التَّكلُّم في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ إلى الغيبة في ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾:

التَّنبيهُ والإيقاظ؛ عسى أنْ يحصل للمُعرِضين اتِّعاظ

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ضمير المتكلِّم في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ على طريقة الالتفات[5]؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وقيناهم)، لكنَّه التُفِتَ عنه تجديدًا لنشاط السّامع، وإيقاظًا له وتنبيهًا؛ للدَّفعِ إلى الإصغاء إلى ما يحصلُ عليه المتَّقون في مقابل ما ينالهُ العاصون من الإهانة والشَّقاء والعذاب الشَّديد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وقى).
(2) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 51.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 51.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

نوع الإضافة ودلالتُها في ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

إنَّ عذابًا أُضِيف إلى الجحيم؛ لهو - بحقٍّ - عذابٌ عظيمٌ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ معنويَّة؛ والقصد مِن هذه الإضافة - بعد تعريف المضاف - المبالغةُ في وصف العذاب؛ فإنَّ عذابًا أُضِيفَ إلى الجحيم لهو عذابٌ شديدٌ أليم!

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ دون غيره من أسماء النّار:

بيانُ عظيم المِنَّة على أهل الجنَّة

تدورُ معانيَ الجَذْر (جحم) حول شدَّة الحرارة وعِظَمها، مع غِلَظِها في نفسِها، فالجُحْمَة: شدَّةُ تأجُّج النّار، والجاحِم: المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ، وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جَحيمٌ، وبه سُمِّيت الجحيم جحيمًا[1].

فممّا سَبَقَ يتبيَّنُ أنَّ الجحيمَ تَجْمَعُ أمورًا؛ وهي: شدَّةُ تأجُّج النّار، مع عِظَم الحرارة، وبُعد القعر، وهذا هو الذي وقى اللّهُ تعالى منه عبادَه المتَّقين أهلَ الجنَّة، فما أعظمَها من منَّة! وهذا الجحيمُ هو مصير كلِّ كافر أثيمٍ استكبرَ على ربِّه سبحانه، وكذَّبَ رسله عليهم السلام، فكان جزاؤُهُ من جنس عمله.

نكتة تنكير ﴿فَضۡلٗا﴾ وتوجيه نصبها:

بيانُ عِظَمِ الظَّفَر بجنّات النَّعيم، والنَّجاةِ مِن عذاب الجحيم

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَضۡلٗا﴾ للتَّعظيم؛ فكلُّ ما وصل إليه المتَّقون من النَّجاة من العذاب، والوقاية من الجحيم، والفوز بجنَّة النَّعيم إنَّما حصلَ بتفضُّلٍ من اللّه تعالى عظيم، فلم يدخلوا الجنَّة بعَمَلِهِم، بل بمحض فضل اللّه تعالى عليهم.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف: 43]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جحم).

﴿ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ٣٥﴾

[فاطر: 34 - 35].

وأمّا النَّصب في ﴿فَضْلًا﴾ فيحتمل أن يكون مفعولًا لأجله؛ أي: فَعَل ذلك جلَّ ذكرُه بهم تفضُّلًا منه سبحانه عليهم.

ويحتمل أن يكون مصدرًا مؤكِّدًا لفعله، وما قبله يدلُّ عليه، فكأنَّه قيل: تفضَّلَ اللّٰه عليهم بذلك تفضُّلًا، ويحتمل أن يكون منصوبًا بإضمار فعلٍ؛ أي: وأعطاهم فضلًا[1]، وكونه مفعولًا مطلقًا أقرَبُ؛ لأنَّه مصدرٌ مُلاقٍ لعامله في المعنى؛ أي تفضَّلنا بذلك فضلًا[2].

وفيه إشارة إلى أنَّ الثَّواب إنَّما يحصل تفضُّلًا مِن اللّٰه تعالى لا بطريق الاستحقاق؛ لأنَّه تعالى لمّا عدَّد أقسامَ ثواب المتَّقين بيَّن أنَّها بأسرِها إنَّما حصلت على سبيل الفضل والإحسان مِن اللّٰه تعالى[3]، ولو أنَّه سبحانه آخَذَهم ولم يُعاملهم بفضله وعفوِه لهلكوا؛ فلذلك بيَّن ﷻ أنَّه فعلَ بهم ذلك لأجل الفضل[4].

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾:

أصلُ كلِّ تفضُّل ومُبتداهُ هو الله جلَّ في عُلاه

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[5]، وهو بهذه الدَّلالة في هذه الآية يشير إلى أنَّ الفضلَ وأصلَهُ ومصدرَهُ الرَّئيس هو اللّٰه ﷻ.

ويجوز أن تكون ﴿مِّن﴾ تبعيضيَّة، ويكون المعنى: أنَّ ما قضى اللّٰه ﷻ به في أهل الجنَّة؛ مِن أنَّهم لا يذوقون الموت، ولا يتحوَّلون عن هذا النَّعيم الذي هم فيه، إنَّما كان ذلك بعضًا مِن فضل اللّٰه

(1) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 581، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 517.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 137.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 591.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 54.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

تعالى، وطرَفًا مِن إحسانه سبحانه، وجزءًا مِن رحمته ﷻ إلى عباده المؤمنين، وحسبُهم بهذا فوزًا[1]، وفي التَّبعيض معنى ابتداء الغاية أيضًا كما هو معلوم؛ إذ إنَّ في قولنا: (أخذتُ مِن الدَّراهم درهمًا) - وهو للتَّبعيض - معنى الابتداء؛ فقد جعلنا هذا الدِّرهم - الذي هو بعضٌ مِن الدَّراهم - هو ابتداء أَخْذِنا.

بلاغة الالتفات إلى خطاب المفرد في ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾:

التَّنبيه والإشارة إلى قيمة الاستجابة للبشارة والنِّذارة

الالتفاتُ إلى خطاب المفرد في قوله تعالى: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ لإيقاظ السّامع وتنبيهه إلى عظيم فضلِ اللّه تعالى على عباده بإرسال النَّبيِّ ﷺ، فما وصل إليه المتَّقون مِن فضل اللّه تعالى كان بإيمانهم باللّه تعالى، واتِّباعهم للنَّبيِّ ﷺ، وفي هذا مواساةٌ عظيمةٌ للنَّبيِّ ﷺ بعد أن كفرَ به أشرافُ قومه واتَّهموه بالكذب والسِّحر والكهانة، وأنكروا البعث والقيامة، فكأنَّه قيل: إنَّ أتباعكَ سينالهُم الفضلُ من ربِّك الذي تفضَّل بإرسالك رحمةً للعالمين، وإنَّ أعداءك سيُنبَذون في الجحيم، وما لهم مِن ناصرين!

نكتة الإظهار في مقام الإضمار في ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾:

تشريف مقام النَّبيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَۚ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ إذ مقتضى الظّاهرِ أنْ يَردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (فضلًا مِنْه)؛ لأنَّه تقدَّم قبلَ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾، وفي الإظهارِ تشريفُ لمقام النبيِّ ﷺ، وإيماءٌ إلى أنَّ ذلك إكرامٌ لهم؛ لإيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ[2].

والمعنى: فضلًا مِن ربِّك المحسنِ إليك بكمال إحسانه إلى أتباعكَ إحسانًا يليق بك[3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 217.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 591.

علّة الفصل في: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

لا فوز بعد الفوز بالنَّعيم، والوقاية من عذاب الجحيم

فُصِل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه مؤكِّد له ومقرِّرٌ لمضمونه، فإنَّ الوقايةَ مِن عذاب الجحيم، والفوزَ بالجنّات والعيون؛ حيث لبس الفاخر مِن السُّندس والإستبرق، والزَّواجُ بالحور العين، وأكْلُ صنوفِ الفاكهة المستلذَّة؛ كلُّ هذا فوزٌ عظيم، بل لا فوزَ أعظمُ منه، "فهو الفوز الذي لا فوزَ بعده، المتناهي في العِظَم"(1).

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

بيانُ بُعْدِ المَنْزِلَةِ ورفعة المكانة

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لتمييز المُشار إليه أكملَ تمييز، فكأنَّه حاضرٌ مشاهَدٌ ملموسٌ، وفيه أيضًا تعظيمُ الفَضْلِ ببيان بُعدِ المرتبة(2).

بلاغة القصر بتعريف الجزأين وتوسُّط ضميرِ الفَصْلِ في ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

إفـادةُ معنى الكمالِ في الفوزِ

جاء القصر بتعريف جُزأي الجملةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ حتَّى كأنَّ الفوز بالجنَّة والنَّعيمَ الموصوفَ هو الفوزُ وحدَهُ، وقد أُتِي بضمير الفصل لتأكيدِ تخصيص الفوز بالفضل المشار إليه؛ وهو قصرٌ لإفادة معنى الكمال، كأنَّه لا فوزَ غيره(3).

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾، ودلالةُ وصفِه بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

لا فوزَ كالفوز بفضل الله والجنَّة، فهي أعظمُ منحةٍ وأجَلُّ مِنَّة

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ للعهد؛ حيثُ إنَّ المقصود هو الظَّفرُ بتلك المكانة العليَّة، والمنازل البهيَّة التي أخبر عنها ربُّ البريَّة سبحانه، والنَّجاةُ من الجحيم والعذاب الأليم؛ واللَّذان ورَدَ ذِكرُهما في الآيات.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 664.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

ويصحُّ أن يكون لاستغراق الصِّفات على وجهِ المُبالغَةِ؛ أي: أنَّ هذا الفوزَ هو الفوزُ الكاملُ الذي لا ترومُ النَّفسُ ما بعده.

والفوزُ هو الظَّفر مع حصول السَّلامة، وقد وُصِف بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ لأنَّه لا فوز وراءَه؛ إذْ هو خالصٌ مِن جميع المكاره، وهو نيلٌ لكلِّ المطالب[1]، ولم يَدَع جهةً مِن الشَّرف إلّا مَلَأها.

وهذا يدلُّ على أنَّ الفضلَ أعلى مِن درجات الثَّواب المستَحَقِّ؛ لأنَّه تعالى وصَفَهُ بكونِه فوزًا عظيمًا، وأيضًا فإنَّ الملِك العظيم إذا أعطى الأجيرَ أُجْرَته ثمَّ خلع على إنسانٍ آخرَ؛ فإنَّ تلك الخلعة أعلى مِن إعطاء تلك الأُجرة[2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

اللِّباس والكساء والحُلَّة:

الحُلَّةُ أخَصُّ من اللِّباس والكساءِ

الفرق بين الثَّلاثةِ أنَّ اللِّباسَ جُعِل لِما يستُر ما يسوءُ الإنسانَ انكشافُه؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26][3]، وجذر اللِّباس يدلُّ على مخالطةٍ ومُداخلةٍ[4].

والمعنى المحوريُّ: تغطيةٌ بمُداخلةٍ وملازمةٍ[5]؛ فأوثِر لفظُ (اللُّبس) في قول الله ﷻ: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: 31]؛ لأنَّ ثيابَ أهلِ الجَنَّة منسوجةٌ من رقيقِ الحرير وغليظِه[6]، فالسُّندسُ: هو ما رقَّ من الحرير يُعمَل وجوهًا، والإستبرقُ: هو ما غلُظَ منه يُعمَل بطائنَ[7]، وفي هذا مُداخلةٌ ومخالطةٌ، ولأنَّ ثيابَهم ساترةٌ لسوآتهم.

(1) البروسوي، روح البيان: 8/ 432، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 135.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 591 - 592، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/ 312، والراغب، المفردات: (لبس).
(4) ابن فارس، المقاييس: (لبس).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبس).
(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 297.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 48.

أمّا الكِساءُ؛ فالمعنى المحوريُّ لجذرِه هوَ سَتر الشَّيء وتغطيته[1]؛ فيُستعمَلُ ما هو من الجَذر في تغطية الجسم بثوب، واستُعمِلَ في سَترِ العظام باللَّحم؛ قال اللّه ﷻ: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: 14][2]؛ فجُعِلَ اللَّحمُ كالكِسوةِ لها[3].

ويُقال عندما تُغَطَّى الأرضُ بالنَّبات: اكتسَت الأرضُ بالنَّبات[4]، وقد يكونُ الكِساءُ غيرَ ساترٍ لبعض ما يسوءُ المرأةَ انكشافُه، فممّا قيل في شرح قول رسول اللّه ﷺ: «ونساءٌ كاسياتٌ عاريات»[5]؛ أي: يسترنَ بعضَ جسَدِهن ويكشفنَ بعضَه إظهارًا لجمالِهنَّ ونحوه[6]؛ فدلَّ هذا على أنَّ ما اكتسَينَ به ساترٌ لبعض البدن وكاشفٌ لِبعض ما لا يَحلُّ لهنَّ أن يكشِفْنَهُ أمامَ مَن لا يَحلُّ لهُ أن يراه.

وأمّا الحُلَّة؛ فجذرُها يدلُّ على فَتح الشَّيء، وهي لا تكون إلّا ثَوبين؛ فلمّا كانا اثنين كانت فيهما فُرجَةٌ[7]، ويتبيَّن ممّا سبق أنَّ الحُلَّةَ أخَصُّ من اللِّباس والكِساء.

الوقاية والحفظ:

الوِقـايـة تـدلُّ عـلى دفـع شيءٍ عن آخرَ بِغَيْرِه، والـحـفـظُ دالٌّ عــلى مـراعـاة الشَّيء

الفرقُ بينهما أنَّ جذر الحِفظ يدلُّ على مراعاةِ الشَّيء[8]، ومعناهُ المحوريُّ هوَ حياطةٌ قويَّةٌ ضابطةٌ للشَّيء فلا يَضيعُ ولا يتفلَّت[9].

وأمّا جذر الوقاية؛ فيَدلُّ على دَفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغَيرِه[10]، ومعناه المحوريُّ: حفظٌ من الأذى أو الضَّرر باتِّخاذ حاجزٍ دونَه[11].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كسو).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كسو).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 265.
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كسو).
(5) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2128).
(6) النووي، شرح صحيح مسلم: 14/ 110.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقي).

ولمّا كان السِّياق للمتَّقين، وكانوا قد جعلوا بينهم وبين المعاصي وقايةً وهي الخوفُ من اللّٰه ﷻ، فدفعوا أنفسَهم عن المعاصي بالخوف منه ﷻ، وأقبلوا على طاعته والتزموا أوامرَه ﷻ؛ فكانت الطّاعةُ تنهاهُم عن المعاصي كما تَنهَى الصَّلاةُ عن الفحشاء والمنكَر، لمّا كان ذلك؛ قال اللّٰه ﷻ: ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾؛ أي: جملة المتَّقين في جزاء ما اتَّقَوْه، ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: التي تقدَّم إصلاءُ الأثيم لها[1]، ولمّا كان السِّياقُ للمتَّقين، وكان ربَّما ظُنَّ أنَّ هذا الذي فُعِل بهم حقٌّ لهم لا بدَّ ولا محيد عنه؛ قال اللّٰه ﷻ: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فبيَّن اللّٰهُ أنَّ الأمرَ على غير ذلك، وأنَّه سبحانه لو آخذَهُم ولم يُعاملهُم بفضلِه وعفوِه لهلكوا[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 51.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 54.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الدُّخان: 58 - 59]

أُنْزِلَ القرآن الكريمُ ليُتفقَّهَ ويُتَذَكَّر به ويُعتَبَر

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لمّا قدَّم سبحانه في هذه السّورة ما للقرآن مِن البركة بما اشتملَ عليه مِن البشارة والنِّذارة والجمعِ والفرقِ، وذكَّرهُم بما يُقِرّون به مِن أنَّه سبحانه خالقُ هذا الكون ممّا يستلزم إقرارَهُم بتوحيده؛ لأنَّه يفعلُ ما يشاء؛ مِن إرسالٍ وإنزالٍ وتنبيهٍ وبعثٍ وغير ذلك، وهدَّدهُم بما لا يقدر عليه غيرُه مِن الدُّخان والبطشة، وفعَلَ بَعْضَ ذلك، وذكَّرهُم بما يَعْرِفون مِن أخبارِ مَن مضى مِن قروم القرون، وأنَّهم مع ذلك كلِّه أنكروا البعْثَ، ثمَّ ذكر ما يقتضي التَّحذيرَ والتَّبشيرَ، كلُّ ذلك في أساليبَ فَأَتَتْ كلَّ المدى، فأعجَزَت جميع القوَى، مع ما لها مِن المعاني الباهرة، والبدائع الزّاهرة القاهرة[1]؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ وصلَ سبحانه ذلك ببيانِ أنَّه إنَّما أَنْزَلَ القرآنَ بلغة العرب؛ كَيْ يفهموا فيتذكَّروا ويَعْتَبِروا ويعمَلوا بما فيه[2].

وعلى الرَّغم مِن هذا الوضوح والبيان؛ كَفَر بعضُهم وعانَدَ وخالفَ، فسلَّى اللَّه رسوله ﷺ، ووعدَهُ بالنَّصر، وتوعَّدَ مَن كذَّبه بالهلاك[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: (يسر) تدلُّ تصريفاتُها على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّته[4]، ومِنْهُ: اليُسْر واليُسُر؛ وهوَ السُّهولة، نقيض العُسْرِ والمَشَقَّة،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 55/ 8.
(2) القنَّوجي، فتح البيان: 12/ 414.
(3) الزحيلي، التَّفسير المنير: 25/ 243، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 607، والدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 693.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).

واليُسر: يوصف به الإنسان والفَرَس؛ إذا كان ليِّن الانقياد[1]، واليُسرَى: السَّهل، وقد يسَّره اللّه لليُسرى؛ أي: وفَّقه لها، وتيسَّر كذا واستيسر؛ أي: تسهَّل وتهيَّأ، وكذلك يسَّر الشَّيء: سهَّله وهيَّأه، وهو ضدُّ تعسَّر والتوى، واليَسير والميسور: الشَّيء السَّهل، وهو ضدُّ العسير والمعسور، واليسير: الشَّيء القليل، وشيءٌ يسير: هيِّن[2]، والتَّيسير: التَّسهيل، يقال: يَسَّر الأمرَ: إذا سهَّله ولم يُعَسِّرْه، سواء على نفسِه أم على غيره، وهو مأخوذٌ مِن اليُسْرِ، أي: السَّهل، ومعناه: اللِّينُ والانْقِيادُ[3]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: سهَّلنا القرآن[4].

2) ﴿بِلِسَانِكَ﴾: (لسن) تدلُّ اشتقاقاتُها على طولٍ لطيفٍ غيرِ بائنٍ في عضوٍ أو غيره[5]، ومِنْهُ: اللِّسان؛ وهوَ جارحةُ الكلام وقوَّتها، واللِّسانُ يُذكَّر ويُؤنَّث، فإن ذُكِّر جُمِع على ألسِنة، وإن أُنِّث جُمِعَ على ألسُن، واللِّسن واللِّسان: اللُّغة، يقال: لكلِّ قوم لِسان ولِسْن؛ أي: لغة، واللَّسَن: الفصاحة، وقد لَسِنَ، فهو لَسِنٌ وألسَنُ، وقومٌ لُسْنٌ، يقال: رجل لَسِنٌ بيِّنُ اللَّسَنِ، إذا كان ذا بيانٍ وفصاحة[6]، وقوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: 22]؛ "فاختلافُ الألسنة إشارةٌ إلى اختلاف اللُّغات، وإلى اختلاف النَّغمات، فإنَّ لكلِّ إنسانٍ نغمةً مخصوصةً يُميِّزها السَّمع"[7]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: بِلُغَتِك[8].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُبيِّن المولى ﷻ في ختام هذه السّورة الكريمة أنَّه قد يسَّرَ وسهَّل تلاوةَ القرآن الكريم وفهمَهُ بلُغة نبيِّه ﷺ؛ الَّتي هي أعلى وأفصحُ اللُّغات على الإطلاق؛ وذلك ليتَّعظ هؤلاء المشركون بما في القرآن مِن عِبَرٍ وهدايات، ثمَّ يسلِّي اللّه تعالى نبيَّه ﷺ بعد ذلك فيأمره

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (يسر).
(2) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (يسر).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (يسر).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 237، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 155.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لسن).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (لسن).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لسن).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 155.

بيانُ الحكمةِ مِن تسهيلِ فَهْمِ القرآنِ الكريمِ

سبحانه بأن ينتظرَ ما وعدَهُ به مِن الخيرِ والنَّصرِ، وما سيحلُّ بهؤلاءِ المشركين مِن العذابِ إن لَم يُؤْمِنوا؛ لأنَّهم مُنْتَظِرون ما يحلُّ بالنَّبيِّ ﷺ وبدَعْوَتِه وبالمؤمنين مِن الدَّوائرِ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ﴾:

إجمالُ ما تقدَّم من مقاصدِ السّورة وأغراضِها

الفاء في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ﴾ دالَّةٌ على التَّفريعِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ ما بعدها متفرِّعٌ عمّا قبلها؛ إذِ المذكورُ بعد الفاءِ وردَ إجمالًا لِما تقدَّم مِن أغراض السّورة ومقاصدِها بعد تفصيلها فيما تقدَّمَ "إحضارًا لتلك الأغراض وضبطًا لترتُّب علّتها"(2)؛ إذ كان "تذكيرًا لما سلفَ مشروحًا فيها"(3).

"والمعنى: أنَّه تعالى وصفَ القرآن في أوَّل هذه السّورة بكونه كتابًا مبينًا؛ أي: كثيرَ البيان والفائدة، وذكر في خاتمتها ما يؤكِّد ذلك، فقال: إنَّ ذلك الكتابَ المبينَ الكثيرَ الفائدة إنَّما يسَّرناه بلسانك؛ أي: إنَّما أنزلناه عربيًّا بلُغتك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾"(4)؛ أي: "كي يفهمَه قومُك ويتذكَّروا ويعمَلوا بموجبه، وإذا لم يفعلوا ذلك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾"(5).

سرُّ إيثار القصر بـ(إنَّما) دون غيره:

الـرَّدُّ على الكافرين في زعمِهم، وبيانُ قُبحِ صَنيعِهم

القصرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَهُ بِلِسَانِكَ﴾ قصرُ قلبٍ، وهو ردٌّ على المشركين؛ إذ

قد سهَّل اللّه سبحانه لهم طريقَ فهمَ القرآن بفصاحتِه وبلاغته؛ فقابلوهُ بالشَّكِّ والهُزْءِ كما قصَّهُ اللّه في أوَّل السّورة بقوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: 9].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 242، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 774.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 135.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 667.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 66/ 8.

وقد أوثِرَ القصر بـ(إنَّما)؛ لأنَّ القصر بها يكونُ فيما لا يُنْكِرُه المخاطَب، ويحسُنُ المجيءُ به في التَّعريض[1]، وهو مناسبٌ لهذا المَوْضِع، والمعنى: ما يسَّرناهُ إلّا بلسانك[2].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾:

التَّأكيدُ على عربيَّةِ القرآنِ الكريمِ

جاء التَّعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ لإفادة التَّحقُّق، وفيه نوعُ توكيدٍ مِن حيث الإخبارُ بفعلٍ مضى عن أمرٍ قد وقعَ وانقضَى، وهذا يُشير إلى أنَّ هذا القرآن قد قدَّرَهُ اللّٰه تعالى عربيًّا في اللَّوح المحفوظ قبل نُزولِه؛ ففيه ردٌّ على المشركين الذين اقترحوا أن يكون القرآن أعجميًّا أو بعضُهُ بلُغة العرب وبعضُهُ بلُغة العجم.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾:

الضَّميرُ عائدٌ على القرآنِ؛ لبيان فضلِ الكريم المنّان

الهاء في ﴿يَسَّرۡنَٰهُ﴾ عائدةٌ إلى الكتاب المبين؛ وهو القرآن الكريم، وهو مفهومٌ مِن المقام، ومذكورٌ في أوَّل السّورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: 2 - 3]، وقد كان جُلُّ غرض السّورة في إثبات إنزاله مِن اللّٰه سبحانه كما أشار إليه افتتاحُها بالحروف المقطَّعة[3].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِلِسَانِكَ﴾:

لا يفارق لغةَ القرآنِ اليُسرُ

الأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[4]، وهو في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ للإلصاق المجازيِّ، فكأنَّ التَّيسير قد التصقَ بالعربيَّة التي نزلَ بها القرآنُ الكريمُ، فلا يكادُ يُفارِقُها، ويَشْهَدُ لهُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: 17]، أو لتضمين (يَسَّرْنا)

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.

(2) محمد أبو موسى، آل حم (الشورى، الزخرف، الدخان)، ص: 699.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

معنى: أنزلنا؛ أي: يسَّرناه مُنزِلين له بلُغتك(1)، وهذا مِن عظيم رحمة الله تعالى بعباده.

ويحتَمِلُ أن تكونَ الباءُ للمصاحبة(2)، أو للسَّببية؛ أي: بسبب لُغَتِكَ وهي العربيَّة(3)، ودلالتُها على الإلصاقِ أقرَبُ.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿بِلِسَانِكَ﴾:

زيـادةُ تشريفِ المكانةِ النَّبويَّة

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ معنويَّة، وفي إضافة اللِّسان إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ عنايةٌ بجنابِهِ وتعظيمٌ له ﷺ، وإلّا فاللِّسان لسانُ العرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4](4).

وفي هذه الإضافة أيضًا دليلٌ على أنَّ النَّبيِّ ﷺ هو أفصحُ قومه، وقومُه هم أفصحُ العرب لغةً، وأعلاهُم بيانًا، وفيه أيضًا تشريفٌ لهذا الرَّسول المكرَّم ﷺ حيث لم يُرْسِلْه الله تعالى إلى قومه فحسب، بل إلى النّاس جميعًا، ومع ذلك جعلَ القرآن - وهو الرِّسالة الخاتمة - بلُغتِه هو ﷺ، وهذه ذروةٌ في التَّشريف والتَّكريم(5).

بلاغة المجاز المرسَل في التَّعبير عن اللُّغة باللِّسان في ﴿يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾:

المـجـازُ لإرادة الـقـول البليغ، والإشـــارةُ لوسيلة التَّبليغ

في قوله تعالى: ﴿يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه الآليَّة؛ حيث أُطلِق اللِّسان وهو اسمُ الجارحة المعروفة في الفم، وآلةُ النُّطق والبيان، وأُرِيدَ به أهمُّ ما يُستَعمَل فيه اللِّسان؛ وهو الكلام، كما قال الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [الشُّعراء: 195](6).

وفي هذا المجاز إشارةٌ إلى وسيلةٍ مِن أهمِّ وسائل الدَّعوة إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 459.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 137.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320، والدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 693.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.
(5) محمد أبو موسى، آل حم (الشورى، الزخرف، الدخان)، ص: 697.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 400.

اللّه تعالى؛ وهو اللِّسانُ الفصيحُ المُبين؛ فبِه يبلِّغ الدّاعية دعوتَه إلى الآخرين، وبه يُجادلهم ويُحاورهم، ويشهد له قولُ موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤﴾ [القصص: 34]، وفيه كذلك أمرٌ من طرْفٍ خفيٍّ إلى كلِّ داعية أن يتعهَّدَ منطقَه وبيانَه؛ ليقومَ بالدَّعوة على خيرِ وجهٍ وأكْمَلِه.

كما أنَّ في هذا المجازِ إشارةً إلى أثر البيان، وتلك البلاغةِ في الدَّعوة إلى اللّه سبحانه، فهذا البيانُ ركيزةٌ رئيسةٌ في الدّاعية، ومِن أهمِّ الصِّفات التي ينبغي أن يكون عليها، ويتحتَّم هذا الأمرُ إذا كان الدّاعية في قوم يفخرون بالبيان ويشتهرون به، كما هو حالُ كُفّار قريش الذين نزلَ عليهم القرآن بهذا اللِّسان العربيِّ المبين(1).

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّه لو أسمَعَهُم اللّه جل جلاله وتقدَّسَ وتعالى كلامَهُ بغير واسطةٍ لماتوا جميعًا؛ لعَدَمِ قدرتهم على التَّحمُّل، كما قال جعفر الصّادق رحمه اللّه: لولا تيسير القرآن؛ لما قَدِر أحدٌ مِن خلق اللّه أن يتلفَّظ بحرفٍ مِنه(2).

معنى (لعلَّ) ودلالتُها في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

لعلَّ للإيجاب أو للتَّعليل؛ تنبيهًا إلى أنَّ التَّذكرة دواءُ كلِّ عليل

أصل معنى (لعلَّ) هو دلالتُها على التَّرجِّي والرَّجاء، لكنَّ هذا الحرف يُستعمَل مرَّةً على الإيجاب والإلزام، ومرَّةً على النَّهي؛ كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشُّعراء: 3]، أي: لا تبخع نفسك، وقوله سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [هود: 12]؛ أي: لا تترك بعضَ ما يوحى إليك، وذلك جارٍ في اللُّغة؛ يقول الرَّجُل لآخر: لعلَّك فاعلٌ كذا؛ أي: لا تفعل، ونحوه، و(لعلَّ) مِن اللّه يحتمل الإيجاب والإلزام والنَّهي، ومِن الخلْق: يُحمَل على النَّهي والتَّرجِّي(3).

(1) عبد العزيز العمّار، التَّصوير البياني في حديث القرآن عن القرآن، ص: 54.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 401.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 7/ 471.

و(لعلَّ) في قوله تعالى: في ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مستعمَلةٌ في التَّعليل؛ أي: لأجل أن يتذكَّروا به، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12][(1)].

وعلى القول بأنَّ كلَّ (لعلَّ) مِن اللّه واجبة[(2)]، فإنَّ معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّه قد حصل لهم التَّذكُّر والاعتبار، فمنهُم مَن نفعتهُ الذِّكرى فآمنَ واهتدى، ومنهم مَن مشى مُكِبًّا على وجهه، واستحبَّ العمَى على الهُدى!

بيانُ عَوِ الضَّمير في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾:

يـجـوزُ عَـوْدُ الـضَّـمـير إلى معيَّنين أو عُموم المخاطَبين

يصحُّ عَودُ الهاء مِن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إلى معيَّنين؛ وهم المشركون، والمعنى: "ليتذكَّر هؤلاء المشركون الذين أرسلناك إليهم بعِبَرِه وحُجَجه، ويتَّعظوا بعِظاته، ويتفكَّروا في آياته إذا أنتَ تتلوهُ عليهم، فيُنيبوا إلى طاعة ربِّهم، ويُذعِنوا للحقِّ عند تبَيُّنِهم إيّاه"[(3)].

ويصحُّ أن يعود الضَّمير على عموم المخاطَبين بالدَّعوة، والمعنى: ليَفهَمهُ قومُك فيتذكَّروا[(4)].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليِّ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، ودلالةُ مجيئهِ مضارعًا:

أُنـزلَ الـقـرآنُ لـيـتَّـعـظَ بـهِ الـكـافـرون، ويزدادَ إيمانًا بِهِ المؤمنون

جاء التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ لتقوية الحُكم، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليِّ تقويةَ الحُكم هو: تكرُّرُ الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ قد أُسنِد مرَّتين: مرَّةً إلى ما حلَّ محلَّ المبتدأ وهو الضَّمير في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾، ومرَّةً إلى ضميره، وهو واو الجماعة في ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، فهو بمثابة التَّعبير بجملةٍ فعليَّةٍ مكرَّرة، فيقوَى الحكمُ ويثبُتُ في الذِّهن[(5)].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 321.
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 1/ 108.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 56.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 283.
(5) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

وتجري هذه الصِّياغةُ في المقامات التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير مثل مواجهة الشَّكِّ في نفس المخاطَب، وردِّ الدَّعوى التي يدَّعيها، وغير ذلك مِن مقامات التَّقرير[1].

وجيء به مضارعًا؛ ليدلَّ على تجدُّد هذا التَّذكُّر؛ ليكونَ مواكبًا مسيرةَ الإنسان في هذه الدُّنيا، فيبقى على صلةٍ دائمةٍ بربِّه، وليُشيرَ إلى أنَّ حصولَ التَّذكُّر أمرٌ متجدِّدٌ ومتكرِّرٌ بتكرُّرِ نزولِ القرآن - مدَّةَ الوحي - وبتكرُّر تلاوته استهداءً به إلى يوم القيامة.

سرُّ إيثار التَّعبير بالتَّذكُّر دون غيره:

القرآنُ يذكِّر الإنسانَ بما نَسِيَهُ بسبب إغواءِ الشَّيطان

أصلُ الذُّكر: خلافُ النِّسيان[2]، وتدلُّ مادَّته على قوَّةٍ وصلابة[3]، والذِّكرُ تارةً يُقالُ باعتبار هيئةٍ للنَّفس بها يتمكَّنُ الإنسانُ مِن حفظ ما يقتنيه مِن المعارف، فهو كالحفظ، إلّا أنَّ الفرقَ بينهُما أنَّ الذِّكرَ يُقالُ باعتبار حُضوره بالقلب وباللِّسان، ومنه قيل: الذِّكرُ ذِكران؛ ذِكرٌ بالقلب وذِكرٌ باللِّسان، وكلٌّ منهما على نوعَيْن: ذِكرٍ عن نسيان، وذكرٍ لا عن نسيان، بل يقال باعتبار إدامةِ الحفظ[4].

وصيغُ (التَّذكير) و(التَّذكُّر) تصلح لما هو ضدُّ النِّسيان، وتصلحُ أيضًا لمعنى الوعظ وهو منه؛ لأنَّه إذا تذكَّر فحريٌّ أن يزدَجر، كقوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201][5].

وقد أوثِرَ التَّعبير بالتَّذكُّر دون غيره في تعليلِ تيسير القرآن بلغة العدنان ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لما في الذِّكر مِن مخالفة النِّسيان، وهذا النِّسيانُ قد جُبِلَ عليه الإنسان، حتَّى قيل:

---

(1) محمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ذكر).
(5) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).

"إنَّما سُمِّيَ الإنسان؛ لأنَّه عُهِدَ إليه فنسي"[1]، فكان هذا القرآنُ تذكيرًا لهم بما نسوه مِن الفطرة التي فطرَهُم اللّٰه تعالى عليها مِن التَّوحيد بسبب إغواء الشَّيطان لهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: 19]، فإذا ما تذكَّروا؛ حصلَ لهم الاتِّعاظُ والاعتبار.

والمعنى: أن يتذكَّروا أنَّ هذا القرآن شاهدٌ بإعجازه بصحَّة ما فيه مِن التَّوحيد والرِّسالة وغيرهما ممّا سبق إليك وتُلِيَ عليك، وإلّا لَقَدروا هُم - وهُم أفصحُ النّاس - على معارضة شيءٍ منه؛ فيتذكَّروا ما غفلوا عنه[2].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾:

نصرةُ النَّبيِّ ﷺ على أهلِ الكُفْرِ قريبٌ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ هي الفصيحة؛ لأنَّها تُفصح عن شرطٍ مقدَّر، والتَّقدير: وإذا بَقوْا مُصرِّين على كُفرِهم وعِنادهم، ولم يتَّعظوا ولم يؤمنوا؛ فارتَقِب[3].

وقد أفادت هذه الفاءُ التَّفريعَ عمّا سبق؛ حيث إنَّه بَعْدَ تقدُّمِ بيان عقوبةِ الكافرين ومثوبة المتَّقين، وبيان أنَّ المنَّة حصلت بنزول القرآنِ عربيًّا ليسهُل فهمُه وإدراكُ معانيه، وأنَّه إنَّما كان ميسَّرًا لكونه بأفصح اللُّغات ولكونه على لسانِ أفضلِ الرُّسل ﷺ؛ فباعتبار كلِّ هذه المعاني المتوافرةِ حسُنَ أن يُفرَّعَ على هذه الجملة تأييدُ النَّبيِّ ﷺ وتهديدُ مُعانديه بقوله سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾؛ أي: فارتقب النَّصر الذي سألته بأنْ تُعانَ عليهم بسِنين شدادٍ كسِنِيِّ يوسف عليه السلام؛ فإنَّهم مرتقبون ذلك وأشدَّ منه، وهو البَطْشَةُ الكُبْرى[4].

---

(1) عبد الرزاق الصنعاني، تفسير القرآن: 2/ 378.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 55/ 18.
(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه: 8/ 694، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 137، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 138.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 322.

والعطفُ بها هنا "يشير إلى أنَّ الأمر بين النَّبيِّ ﷺ وقومه لم ينته إلى نهايته بعدُ، وأنَّهم مازالوا في هذا الامتحان مع القرآن الكريم، فلينتظر النَّبيُّ ﷺ ما يكون منهم، وليصبرْ على أذاهم، ولا ييأسْ مِن استجابتهم له، وذلك لأنَّهم ﴿مُّرْتَقِبُونَ﴾ لم يقطعوا برأيٍ بعدُ فيما يدعوهم إليه، وإنْ كانوا مقيمين على كِبْرٍ وعِناد"(1).

الغرضُ من الأمر ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾:

الأمــرُ لـلـحـثِّ والإرشاد لانتظارِ الـفـرَجِ مِـن ربِّ العباد

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ للحثِّ والإرشاد بالصَّبر على تكذيب المشركين وعلى أذاهُم حتَّى يأتيَ الخَلاصُ مِن عند الله سبحانه وبحمده، فالمعنى: فانتظر أنتَ يا أكمَلَ الرُّسل ما وعدكَ به ربُّك ﷻ مِن النَّصر على هؤلاء المشركين، وارتقِبْ نزولَ العذاب بهم؛ فإنَّهم منتظرون قهرَكَ وغَلَبَتك بزعمِهم(2)، وسوف "يعلمونَ لمَن يكونُ النَّصرُ والظَّفَرُ وعُلوُّ الكلمة في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّها لك يا مُحمَّد ولإخوانك مِن النَّبيِّينَ والمرسَلين ومَن اتَّبعكُم مِن المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: 21]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: 51 - 52]"(3).

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾:

في رؤية المقادير عِبرةٌ للعارفين، وموعظةٌ للمتَّقين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ عن سابقه لِما بينهما مِن شِبهِ كمالِ الاتِّصال؛ إذ هو استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤالٍ مقدَّر، وهو: لماذا يُؤمَرُ النَّبيُّ ﷺ بالارتقاب؟ فالجواب: ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾، فهذه الجملة الكريمةُ تعليلٌ لسابقتها(4).

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 218.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 70/ 21، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 95، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 155 - 156.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 263.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 137، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 138.

نكتةُ التَّوكيد بـ(إنَّ):

التَّوكيدُ لردِّ إنكار الكُفّار، ودفع تكذيب المجرمين الفُجّار

جاء قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ مؤكَّدًا بـ(إنَّ)؛ لأنَّ هذه الآية موصولةٌ بما جاء في أوَّل السّورة عن القرآن، وموصولةٌ بالحديث عن المعالَجين في السّورة وهُم أئمَّة الكفر والشِّرك إبّان التَّنزيل، باعتبارِ أنَّهُم كذَّبوا بالقرآن كتابًا مِن عند اللّه؛ فجاء التَّوكيد لردِّ التَّكذيب، ودفعِ الإنكار[1].

دلالة التَّعبير بالمشتقِّ ﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾:

شُغِلوا بما لا يستطيعون؛ فظلّوا في غيِّهم يعمَهون

قولُه تعالى: ﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾ جمعُ مرتقِب، وهو اسمُ فاعلٍ مِن الفعل (يرتَقِب)[2]، وقد جيء به للدَّلالة على الثَّبات والدَّوام؛ أي أنَّ تكليفَهُم أنفسَهم المراقبةَ، وإجهادَهُم أفكارَهُم في ذلك أمرٌ دائمٌ لا يُزايِلُهم، بل قد قطعَ قلوبَهم وملأ صدورهم[3]!

نكتة حذفِ معمول الفعل ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، ومتعلَّق المشتقِّ ﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾:

يظلُّ الكافرون يرتقبون، ولكن لا يـرونَ إلّا ما يكرهون

حُذِف معمول الفعل ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، ومتعلَّق المشتقِّ ﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾ للعلم بهما مِن السِّياق، أو للتَّوسُّع، فقد ذُكِر فيهما أقوالٌ كثيرةٌ محتمَلة[4]، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ بليغ، واختصار بديع، مع ما أدَّى إليه مِن رعاية الفاصلةِ.

بلاغة جناس الاشتقاق بين ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ و﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾:

تَناسُبُ الألفاظِ لهُ أثَرٌ في إصغاءِ النُّفوس إليها

جاء جناسُ الاشتقاق بين ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾ و﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾ لحمل النَّفس على الإصغاء؛ فمناسبةُ الألفاظ تُحدِث مَيلًا وإصغاء إليها، ولأنَّ اللَّفظ المشترك إذا حُمل على معنًى، ثمَّ جاء والمرادُ به معنًى آخر؛ كان للنَّفس تشوُّقٌ إليه.

---

(1) عبد الرحمن، تفسير القرآن للميداني، ص: 65.
(2) محمود صافي، الجدول: 13/ 138.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 55/ 18.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 155 - 156.

بلاغة الاستعارة في إطلاق الارتقابِ على حال المعاندين في ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾:

الاستعارةُ التَّهكُّميَّة: للتِّشنيع على أفعالهم المُخزية

إطلاقُ الارتقاب على حال المعاندين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾ هو استعارةٌ تهكُّميَّة؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم ملاقون ما يوعدون لا محالة، وقد حسَّنها اعتبارُ التَّناسُبِ بين ﴿فَٱرۡتَقِبۡ﴾، و﴿مُّرۡتَقِبُونَ﴾[1].

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التَّيسير والتَّسهيل:

في التَّيسير فَتحٌ وجريان وتخفيف، وفي التَّسهيل تَليين

جذر التَّسهيل يدلُّ على لينٍ وخِلاف خشونةٍ وغلظة؛ فالسَّهل من الأرض: خلافُ ما غَلُظ منها[2]، وسهلُ الخدَّين، أي: سائلُ الخدَّين غير مرتفع الوجنتين[3]، فمِن هذا الأصل أُخِذ معنى السُّهولة والتَّسهيل؛ فإنَّ مَن سُهِّل له، لا يجد غِلظةً ولا خشونةً ولا صعوبة.

وممّا يدلُّ عليه جذر التَّيسير: انفتاحُ شيءٍ وخِفَّتُه[4]، ومعناهُ المحوريُّ يدورُ حول سريان الشَّيء مستطابًا بلُطفٍ واتِّصال، ومِن ذلك اليُسْر بمعنى: ضدّ العسر؛ ففيه جريان الأمورِ بلا عوائِقَ[5].

وقد أنزلَ اللّهُ القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين؛ ليسمَعوا كلامَ اللّه ﷻ ويحفظوه بلا عائق، وليفهموا معانيَه دون كُلْفَةٍ عليهم ولا إغلاق[6]؛ فأوثِر لفظُ (التَّيسير) دون (السُّهولة)؛ لأنَّ التَّيسيرَ متضمِّنٌ هذا كلَّه.

وهذا اليُسرُ يحصل من جانب الألفاظ وجانب المعاني؛ فأمّا من جانبُ الألفاظ؛ فذلك بكونها في أعلى درجاتِ فصاحةِ الكلمات وفصاحةِ التَّراكيب، أي: فصاحة الكلام، وانتظام مجموعها، بحيث يخفُّ حفظُها على الألسنة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 322.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سهل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يسر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 188.

وأمّا من جانب المعاني؛ فَبِوُضوحِ انتزاعِها من التَّراكيب ووَفرةِ ما تحتوي عليه التَّراكيبُ منها من مغازي الغرَضِ المَسوقةِ هي له، وبتولُّد معانٍ من معانٍ أُخَرَ كلَّما كرَّرَ المتدبِّرُ تدبُّرَه في فَهْمِها.

ووسائلُ ذلك لا يُحيطُ بها الوصف؛ ومن أهمِّها: إيجازُ اللَّفظ ليُسرع تعلُّقه بالحفظ، وإجمالُ المدلولات لتَذهبَ نفوسُ السّامعين في انتزاعِ المعاني منها كلَّ مذهبٍ يسمَحُ به اللَّفظُ والغرضُ والمَقام، ومنها: الإطنابُ بالبيان إذا كان في المعاني بعضُ الدِّقَّة والخَفاء.

ويتأتَّى ذلك بتأليف نظم القرآن بلُغةٍ هي أفصَحُ لغاتِ البشَر وأسمَحُ ألفاظًا وتراكيبَ بوَفرة المعاني، وبكَون تراكيبِه أقصى ما تسمَحُ به تلك اللُّغة، فهو خِيارٌ من خِيارٍ من خِيار[1].

اللِّسانُ واللُّغة:

عُـبِّر عـن اللُّغة بـالـلِّـسـان في القرآن الكريم؛ ولـم يُـعـبَّر بها لأنَّها مشتقَّةٌ من اللَّغو

اللِّسانُ: ما يُنطَقُ به[2]، وهو جارحةُ الكلام، والمِقول، أي: آلة القول[3]، وإطلاقُ اللِّسان على اللُّغة مجازٌ شائع؛ لأنَّ أهمَّ ما يُستَعمَل فيه اللِّسانُ الكلامُ[4]، ولأنَّه أبرزُ آلاتها[5].

واللِّسانُ: الثَّناء[6]؛ ففي سورة الشعراء: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: 84]؛ أي: ثناءً حسنًا، وذكرًا جميلًا وقبولًا عامًّا في الأمم التي تجيء بعدي؛ فأعطاه اللّهُ ذلك[7].

واللِّسانُ: الرِّسالة، والإلسانُ: إبلاغُ الرِّسالة، ويُقال: رجلٌ لَسِنٌ بيِّنُ اللَّسَن؛ إذا كان ذا بيانٍ وفصاحةٍ[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 188، و189.
(2) الخليل، العين: (لسن).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لسن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 321.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لسن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (لسن).
(7) البغوي، معالم التنزيل: 6/ 118.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (لسن).

أمّا اللُّغة فقد اختُلِفَ في اشتقاقها، فذهبَ جماعةٌ من أهل العربيَّةِ إلى أنَّها مشتقَّةٌ من اللَّغو، وهو الذي لا يُعتَدُّ به لقلَّته، ولا يُحتَسَب لدِقَّته، أو لخروجهِ على غير جهةِ الاعتماد من فاعله، كما في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: 225]؛ أي: ما لم تَقْصِدوه وتَعْتَمِدوه.

ومن هذا قولكَ: ألغيتُ البابَ من الحساب؛ إذا تركتَه ولم تَعُدَّه[1]، وألغاهُ من العدد؛ أي: ألقاهُ منه[2]، وكلُّ ما أُسقِط فلَم يُعتَدَّ به فهو مُلْغًى[3]، فلمّا طُرِح باللُّغة ما سواها وعطّلت ما كان من اللُّغات قبلها، سُمِّيَت بذلك[4].

وقولٌ آخرُ يقول: إنَّها مشتقَّة من اللَّغو؛ وهو الباطل[5]، ويُقال: ألغيتُ الشيءَ: أبطلتُه[6]، ووجهُ الاشتقاق أنَّ هذه اللُّغة أبطلَت ما قبلَها، وجعلته كالمحالِ الذي لا يقال، والباطلِ الذي لا يُسمَع، ومعناهُ قريبٌ من وجه الاشتقاق المذكور في القول السابق[7]، ويقال: ألغيتُ هذه الكلمة، أي: رأيتُها باطلًا، وفضلًا في الكلام وحَشْوًا، وكذلك ما يُلْغَى من الحساب[8].

وقولٌ يقول: إنَّها مأخوذةٌ من: لَغا فلانٌ عن الصَّواب وعن الطَّريق، أي: مالَ عنه؛ فأُخِذت من هذا؛ لأنَّ هؤلاء تكلَّموا بكلام مالوا فيه عن لُغَةِ هؤلاء الآخرين[9].

وقولٌ يقول: إنَّها مشتقَّةٌ من: لَغِيَ بالأمر؛ أي: لَهِج به[10]، وأصلُ ذلك من: لَغا العصفور؛ إذا صاحَ وصوَّت، ولهجَ العصفورُ بلغَاه؛ أي: بصوته، ومنه قيلَ للكلام الذي يُلْهَج به: لُغة[11].

ويتبيَّنُ ممّا سبقَ سرُّ إيثارِ (اللِّسان) دون (اللُّغة) في هذه الآية؛ وذلك لأنَّ اشتقاقَ اللُّغَة من شيءٍ ممّا ذُكِر، لم يُستعَمَل في القرآن الكريم، بل استُعمِل (اللَّغو) الذي اشتُقَّت منه اللُّغة[12]، ولم يُستعمَل إلّا في مواطنَ تتكلَّمُ عن الباطل من الكلام والفُحشِ منه، وفضول

(1) الوزير المغربي، أدب الخواص، ص: 121، و122.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لغو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لغو).
(4) الوزير المغربي، أدب الخواص، ص: 122.
(5) الوزير المغربي، أدب الخواص، ص: 123.
(6) الجوهري، الصحاح: (لغو).
(7) الوزير المغربي، أدب الخواص، ص: 123.
(8) الخليل، العين: (لغو).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (لغو).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لغو).
(11) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لغو).
(12) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 744.

الكلام[1]، وما لا يُنْتَفَعُ به[2]، أو كلِّ سقطٍ من قولٍ أو فعل[3]، أو المُطرَحِ من الكلام الذي لا يُعتَدُّ به، ويكونُ من غيرِ عقدٍ وقَصد[4].

فعُبِّر عن اللُّغة باللِّسان في قول اللّه ﷻ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ [الشعراء: 195]؛ لأنَّ القرآنَ منزَّهٌ عن معاني اللَّغو كلِّها؛ فليس فيه باطلٌ ولا فُحشٌ ولا فُضولٌ ولا حشوٌ، ولا ما لا يُنْتَفع به، ولا كلمةٌ لا يُعتدُّ بها، ولا لفظٌ غيرُ مقصود.

وعُبِّر عن اللُّغة باللِّسان في قول اللّه ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾؛ لأنَّ القرآنَ منزَّهٌ عن معاني اللَّغو كلِّها كما تقدَّم، ولسانَ النَّبيِّ ﷺ منزَّهٌ عن معاني اللَّغو كلِّها أيضًا؛ فلم يَنطِق بباطلٍ ولا فُحشٍ ولا فضولٍ، ﷺ.

التَّذكُّر والتَّفكُّر:

جذرُ التَّفكُّر يدلُّ على تردُّد القلب في الشَّيء؛ فيُقال: تفكَّر، إذا ردَّدَ قلبَهُ معتبِرًا[5]، والفِكْر: قوَّةٌ نظريةٌ مطرِّقةٌ للعلم إلى المعلوم، والتَّفكُّر: جَوَلانُ تلك القوَّة بحسب نظر العقل[6]، والمعنى المحوريُّ لجَذرِه: ترتيبُ المعاني الجزئيَّة وتقليبُها للوصول إلى ما تؤدِّي إليه[7].

والذِّكْرُ: الحِفظُ للشَّيء تذكُرُه[8]، وهو خِلافُ النِّسيان[9]، والذِّكْرُ أيضًا: الشَّيءُ يجري على اللِّسان، والذِّكْرُ: جَرْيُ الشَّيءِ على لسانك[10].

والتَّذكُّر يصلحُ لِما هو ضدُّ النِّسيانِ ولمعنى الاتِّعاظ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تذكَّر فقد يزدجرُ ويُؤمن[11].

وقال اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 17]؛ أي: للحفظ والقراءة، والاتِّعاظ والاعتبار[12]، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر: 17]؛ أي: متَّعِظٍ معتبِرٍ خائف[13].

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 8/ 316، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 126، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 744.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 126.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 80.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/ 263، وابن الجوزي، زاد المسير: 1/ 194.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فكر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (فكر).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فكر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(12) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 429، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 166.
(13) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 103.

مَـــن يــتــذكَّــر ويعتبر قد تفكَّر، ومَن يتفكَّر قد لا يتذكَّر ولا يعتبر

وقال ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: سهَّلناه حيث أنزلناهُ بلُغَتِك؛ كي يفهَمَهُ قومُكَ ويتَّعظوا به[1].

فكَوْنُ القرآن عربيًّا تسهيلٌ على النَّبيِّ ﷺ في تبليغ الرِّسالة والتَّذكير، وتسهيلٌ على قومِه بفهمِه عند سماعِه، فكان ذلك أدَعى للتَّذكُّر والاعتبار، وكونُ القرآن عربيًّا يجعَلُ حِفظَه وقراءتَه أيسَرَ عليهم؛ فيجعل التَّذكُّرَ والاتِّعاظَ أيسرَ عليهم؛ فإذا حَفِظوا أو قرؤوا آيةً منه، رُجيَ أن يتذكَّروها فيتَّعظوا بها.

والتَّذكُّر فوقَ التَّفكُّر؛ لأنَّ التَّفكُّرَ طلبٌ، فهو التماسُ الغاياتِ من مَباديها، وتلمُّس البصيرة لاستدراك البُغية، أمّا التَّذكُّر فهو وجودٌ؛ لأنَّه يكون فيما قَد حصل بالتَّفكُّر، ثمَّ غابَ عنه بالنِّسيان، فإذا تذكَّره وجدَهُ فظَفِرَ به[2]، فمنزلةُ التَّذكُّر من التَّفكُّر منزلةُ حصول الشَّيء المطلوب بعد التَّفتيش عليه.

وتبيَّنَ ممّا سبقَ أنَّ الذي يتذكَّر ويعتبرُ قد تفكَّر، وأنَّ الذي يتفكَّرُ قد لا يتذكَّر ولا يعتبر، أي: قد لا يصلُ إلى مرحلة الاتِّعاظ.

ودلَّ ما سبقَ على سرِّ إيثار لفظ (التَّذكُّر) دون (التَّفكُّر) في آيةِ سورة الدُّخان؛ فإنَّ تفكُّرَهُم حاصلٌ بكونِ القرآن عربيًّا؛ فقد كانوا قومًا أولي فصاحةٍ وبلاغة، فإذا سمعوا كلامَ اللّٰه الذي أعجَزَهم؛ تفكَّروا فيه وإن لم يُريدوا ذلك، وكيف لا يتفكَّرون فيه وقد جاءَهُم على أبيَنِ بيانٍ وأبلغِ بلاغ؟! فلمّا كان تفكُّرُهم متحقِّقًا؛ أوثِر لفظُ (التَّذكُّر)؛ لأنَّه يُرجَى الوصولُ إليه بعد هذا التَّفكُّر.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 283، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 104، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

(2) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 440.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

التّعريف العامّ بالسّورة.

سورة الجاثية كلّها مكّيّة بالاتّفاق[1].

ترتيب النزول وترتيب المصحف وعدُّ الآي:

هي السّورة الخامسة والأربعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، جاءت بين سورتيّ الدّخان والأحقاف، وهي الرّابعة والسّتّون في ترتيبها النّزوليّ، وقال بعضهم: بل هي الخامسة والسّتّون[2].

نَزَلَتْ بين السّورتيْن السّابقتيْن، وفصول السورة مترابطة وآياتها متوازنة مما يسوّغ القول إنّها نزلت دفعةً واحدةً أو متتابعة[3].

وَهِي ثَلاثونَ وسبع آيات فِي الكوفِيّ، وستٌّ وثلاثون فِي عدد الباقِينَ[4].

اسم السورة ومناسبة تسميتها:

كبرياء الله تعالى الغالب تجثو له الأُمَم

وردت تسميتها بسورة (الجاثية) و(حم الجاثية) في كتبِ السّنّة والتّفسير، فقد ذكر البخاريّ تسميتها بـ(حم الجاثية)[5]، وقد ذكر الكثيرون أنّ تسميتها بالجاثية إنّما كان لورود هذه اللّفظة فيها في قوله تعالى ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: 28]، يقول ابن عاشور: "وتُسَمَّى حم الجاثِيَةِ لِوُقوعِ لَفْظِ ﴿جَاثِيَةً ۚ﴾ [الجاثية: 28] فِيها ولَم يَقَعْ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 323.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 323.
(3) دروزة، التفسير الحديث: 4/ 557.
(4) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 226.
(5) البخاري، صحيح البخاري: باب: تفسير سورة حم الجاثية: 4/ 1825.

مِنَ القُرْآنِ، واقْترانُ لَفظِ الجاثِيَةِ بِلامِ التَّعْرِيفِ في اسْمِ السّورَةِ مَعَ أنَّ اللَّفْظَ المَذْكورَ فِيها خَلِيٌّ عَنْ لامِ التَّعْرِيفِ لِقَصْدِ تَحْسِينِ الإضافَةِ، والتَّقْدِيرُ: سورَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ، أي السّورَةُ الَّتِي تُذْكَرُ فِيها هَذِهِ الكَلِمَةُ، ولَيْسَ لِهَذا التَّعْرِيفِ فائِدَةٌ غَيْرُ هَذِه، وتُسَمَّى سورَةَ شَرِيعَةٍ لِوُقوعِ لفظ ﴿شَرِيعَةٍ﴾ [الجاثية: 18] فِيها ولَم يَقَعْ في مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ القُرْآنِ، وتُسَمَّى سورَةَ (الدَّهْرِ) لِوُقوعِ ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24] فِيها، ولَم يَقَعْ لَفْظُ الدَّهْرِ في ذَواتِ حم الأُخَرِ"[1].

وقد حاول البقاعيّ الرّبط بين أسمائها ومقصودها فقال: "ومقصودها: الدّلالة على أنّ منزّل هذا الكتاب لا يغلبه شيء، وهو يغلب كلّ شيء، وصفته الحكمة؛ لأنّه لم يصنع شيئاً إلّا في أحكم مواضعه، فعلم أنّه المختصّ بالكبرياء، فَوَضَعَ شرعًا هو في غاية الاستقامة، لا تستقلّ العقول بإدراكه، فمن المكلّفين من حكّم عقله وجانَبَ هواه، فشهد جلاله، فسمع وأطاع، ومنهم من اتّبع هواة فضلّ عن نور العقل فراغ، فاقتضت الحكمة أن يجمع سبحانه الخلق، ويظهر كلّ الظّهور ليشهد رحمَته المطيعُ، وكبرياءَه العاصي المضيّعُ، وينشر العدل، ويظهر الفضل ويتجلّى في جميع صفاته لجميع خلقه يوم الفصل، واسمها "الجاثية" واضح الدّلالة فيه، إذا تؤمّل كلّ من آيتيهما وعلى ذلك دلّ اسمها "الشريعة""[2].

ولا شكّ أنّ كلام البقاعيّ في محلّه فمعظم مقصود السّورة عند الفيروزابادي يقوم على بيان حُجّة التّوحيد، والشّكاية من الكفّار والمتكبّرين، وبيان النّفع والضرّ، والإساءَة والإحسان، وبيان شريعة الإسلام والإيمان، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان، وذَمّ متابعى الهوى، وذلّ الناس فى المحشر، ونَسْخ كُتُب الأعمال من اللَّوح المحفوظ، وتأبيد الكفّار فى النّار، وتحميد الرّب المتعالِ بأوجز لفظ، وأفصح مقال، فى قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 36] إلى آخر السورة[3].

فكانت تسميتها بالجاثية إشارةٌ إلى حالة الأمم يوم القيامة عندما يقفون أمام اللّه ﷻ وقفة الذّلّ والتّسليم، حيث تُدعى كلّ أمّة إلى كتابها لتُجزى كلّ أمّة بحسب ما ينطق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 325.
(2) البقاعي، مصاعد النّظر: 2/ 471.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 426.

كتابهم عليهم، وفي ذلك إشارة إلى ضرورة الامتثال والتّسليم لآيات اللّه الكونيّة والتّشريعيّة.

المحور العام للسورة:

محور السّورة يقوم على بيان تضافر الآيات المسطورة مع الآيات المنظورة في تحقيق الإيمان

إذا كان محور سورة الدّخان التي سبقت هذه السّورة يقوم على بيان منهج القرآن الكريم في تحقيق المفاصلة بين الحقّ والباطل، وأثر هذه المفاصلة في تحقيق الوعد والوعيد للمؤمنين وللكافرين به، فإنّ محور هذه السّورة إنّما جاء مرتبطًا به ومكمّلًا له؛ إذ يمكن أن نوجز محورها بأنّها قامت على بيان تضافر الآيات التّنزيليّة والآيات الكونيّة في كتابيّ اللّه المسطور والمنظور في دعوة النّاس للإيمان باللّه وبكتبه ورسالاته.

لذا اقتضى هذا المحور تبيين عاقبة المكذّبين بهذه الآيات ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

وتبيين بعض المعوّقات التي تحول دون تحقيق هذا الإيمان وعلى رأسها: هوى النّفس ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: 18]، ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٢٣﴾ [الجاثية: 23]، والاستكبار ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وإيثار الدّنيا على الآخرة ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٣٥﴾ [الجاثية: 35].

واقتضى عرض آيات اللّه الكونيّة في خلق السّماوات والأرض، وخلق النّاس، وكذلك في البرّ والبحر، وكان التّعليل في كلّ ذلك:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

واقتضى عرض أنموذجٍ بشريٍّ من قصّة بني إسرائيل بوصفهم لم ينتفعوا بالعلم الذي كان من شأنه أن يوصلهم إلى الإيمان الحقّ، ولكنّهم اختلفوا فيما بينهم ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾ [الجاثية: 16 - 17].

واقتضى ذلك المحور أن يبيّن لهم عاقبة كلّ فريقٍ من النّاس: المؤمنين والكافرين ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١﴾ [الجاثية: 28 - 31].

موضوعات السورة وخصائصها:

مَـدارُ السّـورةِ يـدور حـولَ الـرّبـط بين الآيات التّنزيليّة والآيات الكونيّة

يقول الزّحيليّ: موضوع هذه السّورة كسائر موضوعات السّور المكّيّة، وبخاصّة آل حم السّور السّبعة، وهو تأصيل عقيدة الإسلام الأساسيّة وإثبات عناصرها وأركانها الثّلاثة:

وهي الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله، وبنبوّة محمّد ﷺ ورسالته، والتّصديق باليوم الآخر والحساب والبعث والجزاء.

ابتدأت السّورة ببيان مصدر القرآن الكريم وهو الله تعالى،

وإثبات وجود الخالق ووحدانيّته بخلق السّماوات والأرض، وخلق البشر والدوابّ، وتعاقب اللّيل والنّهار، وإنزال المطر سبب الحياة، وتسخير الرّياح.

ثمّ هدّدت وأوعدت كلّ من كذّب بآيات الله، واسْتكبر عنها، واتّخذها هزوًا بعذاب جهنّم.

وأخبرت عن نعم الله العظمى وأوّلها كون القرآن هدًى للنّاس، ثمّ تسخير البحر لجريان السّفن فيه والاتّجار بين الأقطار، وتسخير جميع ما في الكون لعباد الله تعالى.

وأردفت ذلك بمبادئ خلقيّة واجتماعيّة إنسانيّة سلميّة هي عفو المؤمنين وترفّعهم عن زلّات الكافرين، فالعمل الصالح أو الفاسد يعود أثره على صاحبه، وتذكير بني إسرائيل بما امتنّ الله عليهم من نعمٍ روحيّة وماديّة؛ هي التّوراة، والحكمة، والفقه، وفصل الخصومات بين الناس، والنّبوّة، ورزق الطّيبات، والتّفضيل على العالمين في عصرهم، والإتيان بالبيّنات وهي الآيات والمعجزات، وأمر الرّسول بعدم طاعة المشركين واتّباع أهوائهم، والتّعجب من حالهم، وتجرّئهم على إنكار البعث، واتّخاذهم الهوى إلهًا ومعبودًا.

وفي مقابل ذلك بيان استقلال الشّريعة الإسلاميّة وإثبات ذاتيّتها، وأمر الرّسول والمؤمنين باتّباعها وحدها دون ما عداها، والاعتزاز والثّقة بالله الذي يمدّ نبيّه بالعون وأنّه وليّ المتّقين، والتزام منهج الله وهدايته ورحمته وهو القرآن العظيم، ومعرفة قانون الله وعدله وحكمته في التّفرقة بين المؤمنين الأبرار والمجرمين الأشرار، وبين المتبصّرين بآيات الله، ومن أغلق على نفسه منافذ الهداية، فحجب السّمع والبصر والقلب عن نور الله.

ثمّ ردّ الله تعالى على المشركين منكري البعث بأنّ الله هو المحيي والمميت وجامع النّاس ليوم القيامة، فهو صاحب القدرة العجيبة ومالك السّماوات والأرض، والمتفرّد بالسّلطان الأعظم في الآخرة ذات الأهوال الرّهيبة في العرض والحساب وشهادة صحف الأعمال على أصحابها.

وختمت السّورة ببيان الجزاء الحقّ العادل، وقسمة النّاس فريقين: فريق الجنّة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وفريق النّار الّذين كفروا بالله ورسوله، واقترفوا السيّئات والمعاصي، وهزئوا بآيات الله، واغترّوا بالحياة الدنيا.

وذلك كلّه يستوجب الحمد لله ربّ السّماوات وربّ الأرض ربّ العالمين، وله وحده الكبرياء في السّماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم[1].

الخصائص الموضوعيّة لسورة الجاثية:

تميّزت سورة الجاثية بخصائص أفردتها عن غيرها من السّور

أوّلاً: تميّزت السّورة الكريمة بتعانق مطلعها مع خاتمتها تعانقًا عجيبًا، بحيث لو أنّه دُمج المطلع والخاتمة مع بعضهما دون بقيّة الآيات أوجزت محور السّورة ومقاصدها ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ... ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٧﴾ [الجاثية: 36 - 37].

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بموضوعاتٍ وتفصيلاتٍ لم ترد في غيرها من السّور، مثل حديثها عن جعل النّبيّ ﷺ على شريعة من الأمر، وعن حسبان الذين اجترحوا السّيئات أن يجعلهم الله تعالى كالذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وعن قول الدّهريّين أنّ ما يهلكهم هو الدّهر، وعن أنّ الله تعالى يستنسخ ما كانوا يعملونه، وعن أنّ الله ﷻ له الكبرياء في السّماوات والأرض، وغير ذلك.

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 25/ 247 - 248.

الخصائص الأسلوبيّة لسورة الجاثية:

أولاً: تميّزت السّورة الكريمة بجرسها الموسيقيّ الخاصّ، فمعظم فواصلها تنتهي بحرف النّون المسبوق بحرف العلّة بنسبة ثمانية أعشارها، وبقيّة آياتها تنتهي بحرف الميم المسبوقة بحرف العلّة كذلك، ممّا أعطاها هذا الإيقاع العجيب المنسجم مع محورها العامّ.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنساق وأنماط تعبيريّة فريدة منها قوله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 23]، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، ﴿هَٰذَا هُدًى﴾، ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 18]، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: 21]، ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: 21]، ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: 28]، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]، ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية: 32]، ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 37]، وغيرها.

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بكثرة تكرار لفظ الآيات بالجمع، حيث وردت نحو (12) مرّة: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ [الجاثية: 25]، ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الجاثية: 31]، ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: 35]، وهذا الاعتناء بهذه المفردة مرتبطٌ بمحورها العامّ القائم على تضافر الآيات التّنزيليّة والكونيّة في تحقيق الإيمان بالله ﷻ.

رابعًا: تفرّدت السّورة الكريمة بصيَغ واشتقاقات لم ترد في غيرها من السّور، مثل: ﴿يَبُثُّ﴾ [الجاثية: 4]، ﴿يَغْفِرُواْ﴾ [الجاثية: 14]، ﴿شَرِيعَةٍ﴾ [الجاثية: 18]، ﴿ٱجْتَرَحُواْ﴾ [الجاثية: 21]، ﴿جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: 28]، ﴿نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية: 29]، ﴿بِمُسْتَيْقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية: 32]، ﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ [الجاثية: 21]، ﴿وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: 21]، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الجاثية متّصلة تمامًا بسورة الدّخان مضمونًا وأسلوبًا

تتشابَهُ السّورتان في الغايات الكبرى التي يستهدفها القرآن: وهي إثبات وحدانيّة اللّه من خلال بيان أدلّة القدرة الإلهيّة في خلق السّماوات والأرض، ومناقشة المشركين في عقائدهم الفاسدة، وضرب الأمثال من مصائر الأمم الغابرة التي أهلكها اللّه لتكذيبهم الرّسل[1].

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 246.

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [الجاثية: 1 - 2]

❁ مناسبة مطلع السورة لخاتمة سابقتها:

ابتدأت سورة الجاثية بالكلام عن تنزيل القرآن من اللّه تعالى، وهو ما يُكَمِّل ما اختتمت به سورة الدّخان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ٥٩﴾ [الدُّخان: 58 - 59]، من جعل القرآن بلغة النّبيّ ﷺ ولغة قومه العرب، فهو عربيٌّ اللّسان نصًّا وفحوى، ومعنًى وأسلوبًا، وفي ذلك حثٌّ على اتّباعه والإيمان به(1).

❁ المعنى الإجمالي:

مصدر القرآن هو الله ﷻ، وليس له مصدر آخر سواه

ابتدأ اللّهُ تعالى هذه السّورةَ الكريمةَ بقَولِه: (حم)، وهما مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه تَنزيلٌ مِن عندِ اللهِ المتَّصِفِ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ، العَظيمُ القَدْرِ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ نَقصٍ وعَيبٍ؛ والمتَّصِفُ أيضًا بالحِكمةِ التّامَّةِ في شَرْعِه وخَلْقِه وقَدَرِه؛ فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللّائِقِ به(2).

❁ الإيضاح اللّغويّ والبلاغي:

التّوجيه النّحوي لقولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

سورة من القرآن مثل كلِّ القرآن في حصول التّحدّي والهداية

يحتمل أن يكون ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خبرًا لـ: ﴿حمٓ﴾، والتّقدير: (تنزيل حم تَنزِيلُ الكِتَبِ)، والمعنى: تنزيل هذه السورة تنزيل سائر القرآن، فيكون ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ دلالةً على **وجه**

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 246.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 72، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 156، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 775.

التَّشبيه، أي هذه السّورة تنزيل من اللّه العزيز الحكيم كما أنَّ الكتابَ كلَّه تنزيل العزيز الحكيم، فجُزْء القرآن مثل سائر القرآن في الوصف، وفيه إشعارٌ بأنّ تنزيل سورة من القرآن كإنزال الكلِّ في حصول الغرض من التّحدّي والهداية[1]، وإن كان ﴿حمٓ﴾ تعديدًا للحروف فيحتمل أن يكون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ **خبرًا لمبتدأ** محذوف تقديره: (هذا تنزيل الكتاب)، وحُذِفَ المبتدأُ بما أشير إليه في قوله: ﴿حمٓ﴾، أي هذا المؤلَّفُ من جنس هذه الحروف تنزيل الكتاب، ففي حذف المبتدأ مدحٌ وتعظيم للتّنزيل وللمنزّل، وعلى هذا الوجه يكون المصدر ﴿تَنزِيلُ﴾ على معنى اسم المفعول، أي هذا منزّل اللّه العزيز الحكيم؛ لأنَّ الإشارة تكون للحاصلِ من المصدر وهو القرآن المقروء، وسبب التّعبير بالمصدر دون اسم المفعول هو المبالغة في كونِه منزّلًا من عند اللّه تعالى[2]، كما أنَّ فيه تعظيمًا لشأنِ تنزيلِه والمنزّل عليه.

وعلى هذين الوجهين يكون المراد الإخبار عن أنَّ هذه السّورةَ هي تنزيلُ الكتاب من اللّه، أو هذا القرآن هو تنزيل الكتاب من اللّه، وهذا هو الأوفى بالمقام، كما يحتمل أن يكون ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأً وخبره ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ليكون المراد الإخبار عن أنَّ تنزيل الكتاب هو من اللّه وليس من غيرِه، وأجاز بعضُ المفسّرين أن يكون أن ﴿حمٓ﴾ قَسَمًا، و﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نعتًا له، والمقسم به ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمعنى: (أقسم بحم الذي هو تنزيل اللّه العزيز الحكيم إنَّ في السّماواتِ والأرضِ لآيات)[3]، وأقسمَ على السماوات والأرض إظهارًا لفضلِهما لكونِهما مشحونتين بأصناف البدائِع وأنواع العجائب الدالّة على ألوهيَّتِه وعزّته وحكمتِه، وتقتضي الإيمان باللّه وبكتابِه.

دلالة التّعبير بالجملة الاسمية:

سواء أكان قوله ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ خبرًا لمبتدإ محذوف أم مبتدأً وخبره الجار والمجرور؛ فإنَّ إيرادَ التّعبير بصيغة الجملة الاسميَّة يفيد ثبوت كون هذا الّذي يتلى عليكم هو تنزيل الكتاب من اللّه، وثبوت كونِه من اللّه العزيز الحكيم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 137.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 67.
(3) النّحاس، إعراب القرآن: 4/ 92، والواحدي، التفسير البسيط: 20/ 131، والزمخشري، الكشاف: 4/ 284، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 105.

رفعة القرآن تقتضي تعظيمه وتشريفه والاعتناء به والقيام بحقِّه

نكتة التّعبير بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾:

أفاد التّعبير بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾ رفعة المنزّل وعلوّه لتنزيله من اللّه العزيز الحكيم، ففيه تعظيم للقرآن وتشريف له، كما أنَّ فيه تنبيهًا إلى الاعتناء به لرفعتِه وعلوِّ شأنِه.

تفريق تنزيل القرآن هو من مقتضى عزّة الله وحكمتِه وحسن تدبيره

دلالة التعبير بالمصدر ﴿تَنزِيلُ﴾:

لمّا كان فعل المصدر ﴿تَنزِيلُ﴾ هو (نزّل) بتضعيف فاء الفعل الدّالِّ على تفريق المنزّل ونزوله على دفعات أفاد التّعبير بالمصدر ﴿تَنزِيلُ﴾ أنَّ تنزيل القرآن على سيّدنا محمَّد ﷺ مفرّق، ولم ينزل عليه دفعةً واحدةً، ليسهل فهمه وإبلاغه والعمل به، وأشعر قوله ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أنَّ تفريق تنزيله هو من مقتضى عزّة اللّه وحكمتِه وحسن تدبيره.

القرآن كلام خُصَّ بالتّعظيم

فائدة الإضافة في قولِه ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تحتمل الإضافة أن تكون على معنى اللّام، فتفيد الاختصاص، بمعنى هذا التّنزيل للكتاب، وفائدة الاختصاص تعظيم هذا الكتاب، ويحتمل أن تكون الإضافة من إضافة الصّفة إلى الموصوف على اعتبار أنَّ المصدر بمعنى اسم المفعول كما تقدَّم، والمعنى هذا الكتابُ المنزّل من اللّه العزيز الحكيم، أو الكتاب المنزّل هو من اللّه العزيز الحكيم.

فائدة ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة، بمعنى أنَّ ابتداء نزول الكتاب هو من اللّه تعالى، ففيه إثبات جهة صدور القرآن الكريم ومبدأ نزولِه.

بلاغة اقتران الأسماء الثلاثة ﴿ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

وردت الأسماء الثلاثة الجليلة بيانًا لمصدرِ التّنزيل، والسّبب في مجيئِها في هذا السّياق هو أنّهُ لمّا كان الكلام في بيان أنَّ القرآن حقٌّ

التّعرّض لوصفي العزيز الحكيم إيذانٌ بظهور أثرهما في الكتاب

وصدقٌ وبيانِ كونِه معجزًا، لمجيئِه عقب ذكر الحروف المقطَّعة كان ذكرُ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ يدلُّ على أنَّ الكتابَ المنزّل حقٌّ وصدقٌ ويقتضي الإذعان له لما يفيدُه لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ من الدّلالة على وصف الألوهيَّة، وذكرُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يدلُّ على كمالِ القدرةِ وأنَّه لإعجازِه يغلب ولا يُغلَب، وذكرُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ يدلُّ على أنَّ تنزيلَه بحكمةٍ بالغة وتدبير متقَن وأنَّه محكَم في نفسِه، فالحكيم هو الحكيم في قولِه وفعلِه فلا يلحقه خطأٌ في تدبيره[1]، فالتّعرّض لوصفي العزيز الحكيم إيذانٌ بظهور أثريهما في الكتاب، فالغلبة للكتاب الذي نزّله اللّه تعالى والّذي حفظه، كما أنَّه بُنِيَ على أساس من الحكم الباهرة الظّاهرة.

---

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 231، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 408.

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الجاثية: 3]

مناسبة الآية لما قبلها:

تنوّع آيات الله فمنها المقروءة ومنها التّكوينية

لمّا ذكر اللّه تعالى كتابه العزيز المشتمل على بالغ الحكمة نبَّه إلى ما قد نصبه من الدلائل سوى القرآن مما صدَّ المعرض عن الاعتبار بها أو ببعضها مجرد هواه، فقال تعالى ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لو لم تجئ لهم يا محمّد بعظيم آية الكتاب فقد كان لهم فيما نصبنا من الأدلّة أعظم برهان وأعظم تبيان[1]، وأيضًا لمّا ذكر القرآن في قولِه ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وكان فيه تذكير للمؤمنين الموقنين الذين يعقلون فصّل هذا الإجمال في هذه الآية والتي بعدها فقال ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ باعتبار أنَّ آيات السماوات والأرض وما عطف عليها إنّما كانت آياتٍ للمؤمنين الموقنين، وللّذين حصل لهم العلمُ بسببِ ما ذكّرهم به القرآن، وممّا يؤيّد ذلك قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾[2]، وأيضًا لمّا ذكر آياتِه المقروءة المعجزة أعقبه بذكر آياتِه التّكوينيَّة، فكلاهما دالّان على توحيد اللّه وكمال صفاتِه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

المعنى الإجمالي:

في خلق السّماوات والأرض علامات باهِرة على الحقِّ للمؤمنينَ دون غَيرِهم

ثمّ أخبر الحقُّ تعالى بكلام مستأنف مسوق للتّنبيه على الآيات التّكوينيّة، الآفاقيّة والنّفسيّة، أي: إنَّ في خَلْقِ السّماوات وما حوت من كواكب وأفلاك، وما يجري في جوِّها من طيور وسُحُب، وما يختلف عليها من صحوٍ وغَيْم وما يسمع فيها من رعد، ويُرى من

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 304، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 62.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 326.

برق، وفي خلق الأرض وبسطها وما بثَّ فيها من خلائق وأجرى فيها من أنهار، وأنبت من زروع، وأرسى من جبال، وأبدع من عجائب - إنَّ في هذا كلِّه - لآياتٍ وحُججًا تدلُّ على كَمالِ قُدرتِه تعالى، وبَديعِ صُنعِه، ينتفع بها الَّذين يطلبون الإيمان، وينشدون الهداية، ويحسنون التَّدبُّر في الآيات، والإذعان للمُعجزات[1].

الإيضاح اللغوي والبلاغي:

فائدة تتابع التَّأكيد:

من لم ينتفع بآيات الله كان كالمنكر لها

لمّا جاءت الجملة الاسميَّة مؤكَّدةً بـ: ﴿إِنَّ﴾ واللّام في ﴿لَأٓيَـٰتٍ﴾ أفادت تحقيقَ أنَّ هذه الآيات للمؤمنين اهتمامًا بمن ينتفع بها واعتناءً بهم، ولمّا كان الخطاب للمشركين كان في تتابع التّأكيد إتيانٌ للكلام على خلاف مقتضى الظّاهر بتنزيل المخاطبين من المشركين منزلة المنكر لهذه الآيات الظّاهرة الدّالَّة على وحدانيَّة اللّٰه تعالى وعظيم قدرتِه بسبب عدم انتفاعِهم من هذه الآيات، وإنّما قلنا: أنزل المخاطبين منزلة المنكرين؛ لأنَّهم كانوا يعترفون بأنّها من خلق اللّه، فقد قالَ تَعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٩﴾ في سورةِ [الزخرف: 9][2].

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

تنبيه المخاطبين إلى الاهتمام بالآيات الظّاهرة في السماوات والأرض

قُدِّمَ المسندُ وهو خبرُ ﴿إِنَّ﴾ على المسند إليه وهو اسمُها في قوله ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَـٰتٍ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ تنبيهًا للمخاطَبين إلى العناية والاهتمام بما في السَّماوات والأرض من الآيات العظيمة الظّاهرة التي تكون طريقًا للإيمان، وذهب بعض المفسّرين وعلماء معاني القرآن إلى تقدير محذوف مضاف إلى السماوات، والتّقدير:

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 72، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 264، ومجمع البحوث، التفسير البسيط: 9/ 874.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 326.

(إنَّ في خلقِ السماواتِ والأرض) ليكون على نظير قولِه ﴿وَفِى خَلۡقِكُمۡ﴾[1]، والظّاهر أن لا حذفَ؛ لأنَّ المرادَ الإطلاقُ والعمومُ فيجري المعنى على ظاهرِه، بمعنى أنَّ في عينِ السماوات والأرض آياتٍ، ليشمل ما فيهما من عجائبَ وبدائعَ، في مقدراِهما وكيفيّتهما وحركتهما، وما في السّماوات من النّجوم والكواكب وغيرهما وما في الأرض من الشّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والجبالِ والبحارِ وغيرها، ففي أيِّ شيءٍ نظرتَ فيهما من خلقٍ وغيرِه من تسخير وتنوير وإنباتٍ وغيرها آياتٌ[2].

بلاغة طيّ ذكر الخلق:

براعة القرآن في اختيار اللّفظة المناسبة للمعنى المقصود

سبب عدم ذكر الخلق في قولِه ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وإثباته في الآية الآتية في قولِه ﴿وَفِى خَلۡقِكُمۡ﴾ أنَّ الكلام في معرض ذكر ظاهر الخلقِ لوضوحِه وبيانِه لكلِّ ناظرٍ، ولهذا لم يقل (إنَّ خلقَ السّماوات والأرض)؛ لأنَّ خلقهما ليس بمشهود للخلق وإن كانتا مخلوقتين كما قال تعالى ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 51] بخلاف خلق أطوار الإنسان، فكما أنه يستدلُّ بخلقِه على خالقه فكذلك يشاهدُ خلقَه وتوالدُه فتكون المخلوقيَّة فيه أظهر من الاول الأوّل[3].

فائدة ﴿فِى﴾:

السّماوات والأرض بمنزلة الظّرف الّذي يحوي الآيات الباهرة

يفيد حرف الجرّ ﴿فِى﴾ معنى الظّرفيَّة، لتشمل معنى نفس الشّيء وما يحتويه، أي: (إنَّ في أنفُس السّماوات والأرض) لما فيهما من فنون الدّلالة على القادر الحكيم جلَّ شأنه، والتّعبير بـ: ﴿فِى﴾ يجعل السّماوات والأرض بمنزلة الظّرف الذي يحوي الآيات؛ لأنَّ

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 431، والزمخشري، الكشاف: 4/ 284، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 669.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 413.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 453.

الآيات ملازمةٌ لها بأدنى نظر[1]، كما تشمل الظّرفيَّة ما فيهما من المخلوقات كالنّجوم والكواكب والجبال والسّهول والبحار والأنهار وما في الأرض من معادنَ وغيرها، فكلُّ ما ذكر آياتٌ للمؤمنين.

بديع الطِّباق:

الحثُّ على النّظر في السّماوات والأرض لتنوّع الآيات الباهرة فيهما

في قولِه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ طباق، وذكرت السّماوات والأرض على طريق المقابلة بينهما إشعارًا بسهولة النّظر فيهما وتنوّع الآيات الظاهرة الباهرة فيهما، كما أنَّ في الطّباق تنبيهًا إلى أنَّ المقارنة بينهما فيما اشتملا عليه من الآيات ينتفع منها المؤمنون وتزيد في إيمانِهم.

فائدة تنكير لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

تعظيم آيات السّماوات والأرض

جاء لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ نكرة لتعظيم آيات السّماوات والأرض وتفخيمهما، فهي آيات ظاهرة باهرةٌ دالّةٌ على وحدانيَّة اللّه وكمال صفاتِه ولاسيَّما عزّته وحكمتِه.

دلالة التّعبير بالخبر جمعًا:

الإيحاء بكثرة الآيات وكفايتها للمؤمنين

جاء خبر ﴿إِنَّ﴾ في قولِه ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بصيغة الجمع؛ للإشارة إلى تعدّد الآيات وكثرتِها وتنوّعها، وذكر الآيات مجملةً غيرَ مفصّلة للإشعار بأنَّ مجرَّدَ النّظر في مجملِها كافٍ للمؤمنين.

فائدة اللّام في قولِه ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

اللّام في قولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للاختصاص، بمعنى اختصاص الآيات التي في السّماوات والأرض بالمؤمنين؛ لأنَّهم هم الذين ينتفعون منها، ففي الاختصاص معنى المدح والثّناء للمؤمنين.

فائدة العدول عن الخطاب إلى الاسم الظّاهر:

لمّا قال تعالى ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ومثله في الآية التّالية ﴿ءَايَٰتٞ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 327.

دعوةُ الكافرين إلى النّظر في آيات الله المتنوّعة المفصّلة القريبة منهم

﴿لِّقَوۡمٍ يُوقِنُونَ﴾ وفي الّتي بعدها ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ ولم يقل فيها (لآيات لكم) على طريق الخطاب آذنَ بأنَّ الخطاب موجَّه لعموم العباد ويدخل فيهم الكافرون؛ وفيه دعوةٌ لهم إلى النّظر في آيات اللّه المتنوّعة المفصّلة القريبة منهم.

نكتة تخصيص الآيات بالمؤمنين:

في التّخصيص مدح للمؤمنين

خَصَّ المؤمنين بالانتفاعِ من هذه الآيات في قوله ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، مع أنَّ الآيات منصوبةٌ لهم ولغيرِهم؛ لأنَّ غير المؤمنين لمّا لم ينتفعوا بها صارت كأنَّها لم تكن لهم آيات[1]، وفي التّخصيص مدح للمؤمنين، كما أنَّها آيات لمن اعتقد اتّباع الآيات والإيقان بها، وهم المؤمنون، فأمّا من اعتقد ردَّها وترك الاتِّباع لها فليست هي آيات لهم[2].

سبب إيثار حذف متعلّق اسم الفاعل:

حذف متعلَّق اسم الفاعل في قولِه ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلم يقل لآياتٍ للمؤمنين باللّه أو بالبعث، ليفيد الحذف العموم، بمعنى أنَّ في السّماوات والأرض لآياتٍ للمؤمنين باللّه وبرسلِه وباليوم الآخر، كما أنَّ فيهما آياتٍ لكلِّ أصولِ الإيمان ومقتضياته، ففيه إشعارٌ بأنَّ أصول الإيمان واحدةٌ وإن تنوّعت، فمن يؤمن باللّه يؤمن برسلِه وبالملائكة وبالكتب المنزّلة وباليوم الآخر.

بلاغة التّعريض:

مَن لم ينتفع بالآيات إنّما الخلل فيه وليس في ما هو ظاهر في العيان

أفاد تخصيص الآيات بالمؤمنين التّعريض بمن لم يؤمن بها بأنَّ سبب عدم إيمانِه عدم انتفاعِه من النّظر ممّا هو ظاهر في السّماوات والأرض، أو يكون مكابرة منه، فالخلل فيه وليس في ما هو ظاهر للعيان ممّا لا يستطيع أيُّ إنسان أن ينكره.

---

(1) الإسكافي، درَّة التنزيل: 1/ 1180.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 217.

﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

[الجاثية: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تنوّع آيات الله تعالى الباهرة في الآفاق وفي الأنفس

لمّا نبه بما في السّماوات والأرض أتبع بذكر ما بثَّ في الأرض فقال تعالى: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾[1].

وأيضًا: لمّا ذكر ﷻ الآيات الكونيَّة التي في الآفاق أتبعها بذكر الآيات التي في الأنفس وما بثّه اللّه تعالى من دابَّة ممّا يكون في الأرض، فقال تعالى: (وَفي خَلقِكُم وما يَبُثُّ مِن دابَّةٍ) الآيةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبُثُّ﴾: أصلُ (بثث) يدُلّ على تفريقِ الشَّيءِ[3]، بَثُّ الشيءِ: تفريقُه، وبَثَثْتُ الشّيء والخبر: نشرته، وأبَثّته أيضاً، وكلُّ شَيْء فرّقته فقد بثثته، وانبثّ الجَراد في الأرْض أي: تفرّق[4]، والبَثُّ: الحالُ والحُزْنُ، يقال: أبْثَثْتُكَ، أي أظهرتُ لك بثّي[5]، والمُرادُ بالبَثِّ في الآية: التَّوزيعُ والإكثارُ، وهو يقتضي الخَلْقَ والإيجادَ، فكأنَّه قِيلَ: وفي خَلْقِ اللّه ما يَبُثُّ من دابَّةٍ[6].

2) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أصلُ (دبّ): حرَكَةٌ على الأرضِ أخفُّ من المشي، يُقالُ: ناقةٌ دَبوبٌ، إذا كانت لا تمشِي من كَثْرَةِ اللَّحْم إلّا دبيبًا[7]، ودَبَّ النَّمْل يَدبُّ دَبيبًا، أي: مشى على هِينتيه، ودبَّ القَوْمُ إلى العدوِّ

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 304.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 64، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 592.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بث).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بث).
(5) الجوهري، الصحاح: (بث).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 327.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبَّ).

دبيبًا، أي مَشَوْا على هِينتهم لم يسرعوا[1]، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّهُ يُسَمَّى دابَّة، والاسمُ العامُّ الدّابَّةُ لِما يُرْكَبُ، وتصغيرها دويِّبة[2]، والدَّبيبُ: الزَّحف على الوَجْه[3]، والمُرادُ بالدّابة في الآية: كُلُّ ما يَدِبُّ على الأرضِ غيرَ الإنسان[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكر اللّه تعالى في الآية دليلًا من الأنفس فيقول: وفي خَلقِ اللّهِ إيّاكم - أيُّها النّاسُ -، وخَلْقِه ما يَنشُرُه ويُفَرِّقُه من الدَّوابِّ بأنواعِها آيات بيِّنات، ودَلالات واضِحة، وعلامات باهِرة على كمال قدرته، لقوم يوقنون بأنَّ القادر على هذا الخلق، إنَّما هو اللّه تعالى وحده[5].

خَلْقُ النّاسِ والدَّوابِّ آيةٌ للموصوفينَ بالإيقانِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل:

جاءت جملة ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ على طريق الوصل بالواو عطفًا على الّتي قبلها لاجتماعهما في كونهما جملتين اسميَّتين وفي الجهة الجامعة، وهي كون الجملتين في بيان آيات اللّه تعالى الدّالّة على قدرته وعزّته وحكمته، كما أنَّه لمّا عطف (في خَلقِكُم وما يَبُثُّ مِن دابَّةٍ) الّذي يكون في الأرض على ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كان العطف من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ، لِما في هَذا الخاصِّ مِنَ التَّذْكِيرِ بِنِعْمَةِ إيجادِ النَّوْعِ اسْتِدْعاءً لِلشُّكْرِ عَلَيْهِ[6].

استدعاء الشّكر بالتّذكير بنعمة خلق الإنسان

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

قدّم المسند (في خَلقِكُم) وما عطف عليه على المسند إليه

الحثُّ على النَّظر في الآيات

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دب).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبَّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (دب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 327.
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 72، والقشيري، تفسير القرآن: 3/ 388، و389، والسعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 775.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 137، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 327.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ للاهتمام والعناية بالمسند، بمعنى تقرير أنَّ ما في خلقِ الإنسان وما يبثّه تعالى من دابَّة في الأرض هو آياتٌ عظيمةٌ باهرةٌ، أي فيما يتعلَّق بأقرب الآيات إليهم ممّا هو في خلقِهم وما يَرَوْنَه في حياتِهم ويتصرّفون به في معاشِهم من الدّوابِّ، ففي التّقديم إشعار بالحثِّ على النّظر في هذه الآيات وعدم الغفلة عنها، وليس في التّقديم تخصيص للمعنى، ولكنَّه تنبيه إلى كونها من أعظم الآيات وأظهرِها لقومٍ يوقنون.

فائدة (فِي):

ظهورُ الآيات وقوّةُ دلالتها

تفيد (فِي) الظّرفيَّة، ليكون كلُّ واحدٍ من الخلقِ والمبثوث من الدّوابِّ مظروفًا للآيات متمكّنًا منها؛ إشعارًا بظهورِها ووضوحِها وقوّة دلالتِها، ففيه تقريرٌ لتحقّق الآيات فيهما.

الغرض من الإضافة في ﴿خَلۡقِكُمۡ﴾:

خلق الإنسان يشمل ما نشأ منه وأطوار خلقه وجميع أجهزته

الإضافة على معنى عموم خلقِكم، فيشمل خلقكم الذي نشأتم منه، أي خلق كلٍّ منكم من نطفة ثمَّ من علقة ثمَّ من مضغة إلى أن صار إنساناً، ويشمل ما ظهر من خلقِكم من خلق أجهزة الإنسان التي يعيش بها وما يتمتّع به من الاختيار والعقل والقدرة والحركة.

مناسبة العطف في قوله ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾:

المقصود النّظر إلى آية بثّ الدّوابّ في الأرض

في قوله ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ عطف الاسم الموصول (ما) على (خَلقِ) والتّقدير: وفي ما يبثُّ من دابَّة آيات؛ لأنَّ العطف على المضاف أحسن من العطف على المضاف إليه من غير إعادة العاطف؛ ليفيد الكلامُ أنَّ في بثّ الدّوابِّ وتنوّعها آياتٍ دالّةً على وجود الصانع المختار ووحدته وكمالاته، فالنّظر في المعطوف عليه ﴿خَلۡقِكُمۡ﴾ إلى خلقِ النّاس وفي المعطوف (ما يَبُثُّ) إلى بثِّ الدّاوبِّ وليس إلى خلقِها وإن كان النّظر إلى خلقِها يستتبع النّظر إلى بثِّها، وأجاز بعض المفسّرين عطف (ما) على المضاف إليه في ﴿خَلۡقِكُمۡ﴾، والتّقدير: (وفي خلقِكم

وخلقِ ما يبثُّ من دابَّةٍ)، فالنّظر إلى خلقِ النّاس وخلقِ الدّوابِّ ويستتبعه النّظر إلى بثِّها وانتشارِها.

دلالة التّعبير بـ: (ما):

بثّ الدّوابّ يدلّ على كثرتها في الأفراد والأنواع

الظّاهر أنَّ (ما) في قولِه ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾ اسم موصول، ليكون الاسم معطوفًا على (خَلقِ)، والتّقدير: (في خلقِكم وفي ما يبثُّ من دابَّة)، وعبّر بالاسم الموصول لإفادة التّكثير في الأفراد والأنواع، وأجاز بعض المفسّرين أن تكون (ما) مصدريَّة، والمعنى: (وفي بثّها)، فالنّظر إلى الفعل ويستتبعه النّظر إلى أفراد الدّوابِّ وأنواعِها، والتّوجيه الأوّل أولى وأظهر؛ لأنَّ المقصود أنَّ انتشار الدّوابِّ وتنوّعها آيات لقوم يوقنون.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَبُثُّ﴾:

بثُّ الدّوابِّ واستجماعها لما به يتمُّ معاشها دلائل على وجود الخالق

لمّا كان البثُّ بمعنى انتشار الشّيء وظهورِه بعد أن كان كامنًا عبّر بقوله ﴿يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ لما يفيده لفظ البثِّ من معنى إيجاد اللّه تعالى الدّوابِّ من عدمٍ وظهور انتشارِها وتفرّقها وتنويعها وكثرتِها، فإنَّ بثَّها وتنوّعها واستجماعها لما به يتمُّ معاشها إلى غير ذلك دلائل على وجود الصّانع المختار[1]، ولمّا كان البثُّ يفيد معنى البسط أفاد أنَّ انتشارَ الدّوابِّ وتفرّقها على معنى بسطها في الأرض، وهو المناسب لكون البثِّ في الأرضِ المبسوطة[2].

دلالة التَّعبير بصيغة المضارع:

بثُّ الدّوابِّ لا ينقطع باعتبار اختلاف أجناسها وأصنافِها وأفرادِها

عبّر بصيغة المضارع في قولِه ﴿يَبُثُّ﴾ للإشعار بتجدّد بثِّ اللّه تعالى الدّوابَّ وتكرّره واستمراره، فهو لا ينقطع باعتبار اختلاف أجناس الدّوابِّ وأنواعِها وأصنافِها وأفرادِها[3]، كما أنَّ في التّعبير

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 105.

(2) الزّمخشري، أساس البلاغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بثث).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 327.

بصيغة المضارع تصويرًا لذلك الخلق العجيب المتكاثر وانتشارِه في الأرض وفيه كذلك تعظيم لفعل اللّه تعالى في بثّها.

دلالة الضّمير في ﴿يَبُثُّ﴾:

الأرض لا تفسد ببثّ الدّوابّ لأنَّه صادر عن عزّة اللّه وحكمتِه وحسن تدبيره

يعود الضّمير في الفعل ﴿يَبُثُّ﴾ إلى الاسم الجليل بما اتّصف به من الوصفين الكريمين في قولِه ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وتقدير الكلام: (وما يبثُّ اللّه العزيز الحكيم من دابَّة)، ففيه تنبيه إلى أنَّ بثَّ الدّواب هو من فعل اللّه المتّصف بالعزّة والحكمة وحسن التّدبير، فلا تفسد الأرض بهذا البثّ؛ لأنَّه بحكمة اللّه تعالى، كما أنَّ الدّوابَّ تخضع لأمر العزيز الغالب.

فائدة ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ بيانيَّة، فهي بيان للإبهام الذي تضمنّه الاسم الموصول (ما)، لتفيد بيان الذي يبثّه اللّه تعالى.

الغرض من التّنكير في ﴿دَآبَّةٍ﴾:

لكلِّ كلمة في القرآن مع صاحبتِها مقامٌ

تنكير لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ يفيد عموم الدّوابِّ وكثرتِها في أفرادِها وأنواعِها؛ لأنَّ لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ جاءَ بيانًا للاسم الموصول المفيد معنى العموم كما تقدَّم، وإنّما جاء بأسلوب الإبهام ثمَّ البيان ولم يقل (والدّوابِّ الّتي يبثّها) ليتوصّل إلى تنكير لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾ المناسب للبثِّ المفيد معنى انتشار الأفراد والأنواع وكثرتِهما، فلكلِّ كلمة في القرآن مع صاحبتِها مقامٌ.

دلالة التّعبير بالمسند إليه جمعًا:

جاء المسند إليه في قولِه ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بصيغة الجمع؛ للإشارة إلى تعدّد آيات خلق النّاس وما يبثّه اللّه تعالى من دابَّة، بمعنى أنّها كثيرة متنوّعة، وذكر الآيات مجملةً غيرَ مفصّلة للإشارة إلى ظهورِها ووضوحِها.

بديع الإدماج:

آيات الله يجتمع فيها دلائلُ وحدانيَّته وامتنانُه على الخلقِ

في الآية إدماج لطيف، فقد أُدمِجَ في أثناء دلائل الآيات وحكمة الخلقِ الامتنانُ بذكر تمام خلقِ الإنسان وجمال صورتِه ونعمة حواسّه وغيرها كما أُدمِجَ الامتنانُ بالدوابِّ المبثوثةِ التي ينتفع منها النّاس من أكل لحوم أوانسِها والانتفاع بألبانِها وأصوافها وجلودِها، وركوب ما يُركب منها، وغير ذلك من سائر أنواع الانتفاع.

فائدة تنكير ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

العجب ممّن لا ينتفع من آيات الله مع فخامتِها وكثرتِها وتنوّعها وظهورِها

جاء لفظ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ نكرةً لتعظيم الآيات وتفخيمِها وكثرتِها وتنوّعها، ففي خلق النّاس وما يبثّه تعالى من الدّوابِّ في الأرضِ آياتٌ باهرة ظاهرةٌ عظيمةٌ، فالعجب ممّن لا ينتفع منها مع فخامتِها وكثرتِها وتنوّعها وظهورِها.

توجيه القراءات القرآنيّة:

في خلقِ الإنسان وبثِّ الدّوابِّ من عجيب الصّنع بحيث لا يمكن إنكاره

قرأ الجمهور ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ برفع ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب الحضرميّ ﴿ءَايَٰتٍ﴾ بالنّصبِ[1]، وتوجيه القراءاتين أنّه على قراءة الجمهور يكون الرّفع في لفظ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ حملًا على أنَّه مبتدأ مؤخَّر والخبر ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾، فيكون من عطف الجملة على الجملة، أو يكون معطوفًا على محلِّ ﴿إِنَّ﴾ واسمها في قولِه ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تبعًا لقول سيبويه في أنَّ (إنَّ واسمها) في محلِّ رفع مبتدأ، ويكون قوله ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾ معطوفًا على ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيكون الكلام من عطف المفرد على المفرد، ولا تأكيد في الجملة إشعارًا بأنَّ في خلقِ الإنسان وبثِّ الدّوابِّ في الأرضِ من عجيب الصّنع ما هو ظاهر الدّلالة على وجود الله ووحدانيَّته وعظيم قدرتِه، فالأمرُ بحيث لا

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 375، وابن الجزري، النشر: 2/ 371.

ينكره أحد ولا يحتاج إلى تقريرٍ وتأكيد[1]، ففيه ردٌّ على الكافرين وتوبيخٌ لهم على عدم حصول اليقين باللّه تعالى وبرسوله ﷺ وبالبعث مع ظهور الآيات الدّالّة ووضوحِها.

وعلى قراءة حمزة ومن وافقه يكون النّصب في ﴿ءَايَٰتٞ﴾ عطفًا على لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ لأنّه اسم ﴿إِنَّ﴾، والتّقدير: (وإنَّ في خلقِكم وما يبثُّ من دابَّة لآياتٍ لقوم يوقنون)، لتكون جملة (وَفِي خَلقِكُم وما يَبُثُّ مِن دابَّةٍ آياتٍ) داخلةً في حيّز التّأكيد، وسبب تأكيدِها إقامتُهم مقام المنكِر لها لعدم انتفاعِهم منها، فقراءة الجمهور فيها بلاغة التّقديم والتّأخير، وتقدير الكلام: (آياتٌ لقوم يوقنون في خلقكم وما يبثُّ من دابّة)، وإنّما قدّم الحقُّ ﷻ الخلق؛ لأنّ أوّل منازل التّفكُّر أن يتفكّر العبد في خلقه، وأمّا قراءة حمزة ومن وافقه ففيها بلاغة التّأكيد بالتّكرار؛ لأنّه لمّا طال الكلام كرِّرت (آياتٍ) بتمام إعرابها الأوّل للتّأكيد.

فائدة اللّام في ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

اللّام في قولِه ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ للاختصاص، بمعنى أنَّ مثل هذه الآيات يختصُّ بمعرفتِها القوم الذين يكون من شأنِهم اليقين أو الّذين يطلبون اليقين.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

تـجـدّد بـثّ الـدّوابّ في الأرض يفيد تـجـدّد اليقين بالله وزيادته

عبّر بصيغة المضارع في قولِه ﴿يُوقِنُونَ﴾ للإشعار بالحثِّ على استمرارِ النّظر في خلقِ الإنسان وما يبثّه اللّه تعالى من دابَّةٍ لينتج منه تجدّد اليقين واستمراره، كما أنَّه لمّا جاء بصيغة المضارع في قولِه ﴿يَبُثُّ﴾ الدّالِّ على تجدّد البثِّ واستمرارِه ناسب أن يقترن به لفظ مناسب له في الصّيغة فجاء الفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾ بصيغة المضارع، بمعنى أنَّ تجدّد بثِّ الدوابِّ في الأرض يفيد تجدّد اليقين وزيادته.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 65.

سبب إيثار حذف متعلَّق الفعل:

حذف متعلَّق الفعل ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ لإفادة العموم، بمعنى يوقنون بحقائق الأشياء، فيقرّون بها، ويعلمون صحّتها، ويدخل في هذه الحقائق دخولًا أوّليًّا إيقانُهم بوحدانيَّة اللّه تعالى وبإرسالِه الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام وبالبعث يوم القيامة.

بلاغة التّعريض:

أفاد تخصيص هذه الآيات بأنَّها ﴿لِّقَوۡمِ يُوقِنُونَ﴾ التّعريضَ بالقوم الذين لا ينتفعون بهذه الآيات، فمن لا ينتفع بهذه الآيات هم قوم لا يتّصفون بصفة اليقين فهم متردّدون شاكّون، فكأنَّه قال من نظر في هذه الآيات ولم يتّصف بصفة اليقين فلا يأتي منه إلّا الشّكّ والتّردُّد، لظهور هذه الآيات الدّالّة على وحدانيَّة اللّه تعالى وعلى البعثِ يوم القيامة.

من نظر في آيات اللّه ولم يتّصف باليقين فلا يأتي منه إلّا الشّكُّ والتّردُّدُ في حياتِه

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(يبثُّ) و(ينشر):

الفرق بينهما هو أنَّ البثَّ إظهار الشّيء ونشره وتفريقه بعد أن كان كامنًا وخفيًّا، والتّنويع والتّفريق والتّكثير من لوازم البثِّ، ويكون البثُّ في الأفراد حقيقةً كما في بثِّ اللّه تعالى الخلقَ أي أوجدَهم - أظهرهم - وفرّقهم مع تنويعهم وتكثيرِهم، ومنه كذلك بثُّ الدّوابِّ في الأرضِ وبثُّ السُّلطان جندَه، كما أنَّ البثُّ يفيد التّنويع والتّفريق والتّكثير مجازًا كما في بثِّ الشّكوى، وأمّا النّشر فهو فتح شيءٍ وتشعّبُه ويقابله الطّيُّ، ففيه معنى السّعة والتّفرق، ومنه قولهم اكتسى البازيُّ ريشا نَشْراً، أي: مُنْتَشِراً واسعاً طويلًا، وفي النّشر معنى الإثارة والامتداد، ومنه النّشر يوم القيامة، كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ

البثُّ يدلُّ على التّنويع والتّكثير بخلاف النّشر

أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ [عبس: 21 - 22]، فلا يدلُّ النّشر على التّنويع والتّكثير لزومًا[1]، كما يدلُّ عليهما البثُّ، ولهذا عبّر مع الدّوابِّ بلفظ البثِّ لتصوير ذلك الكائن العجيب المتكاثر المتنوّع المتفرّق في الأرض.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بثث، نشر).

﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾ [الجاثية: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استعطاف العباد بذكر آيات يكتنفونها ولا ينفكّون عنها

لمّا ذكر آياتِ خلقِ النّاس، وضمَّ إليهم بعض ما خلقه من الدّوابِّ أتبعه بذكر آيات تكتنف النّاس بما لا ينفكّون عنها في حياتِهم وتصريف معاشِهم فقال تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾: أصلُ (خلف) من الإخلافِ، هو: مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه[1]، والخَلَفُ: المُتأَخِّرُ، سواء كان تَأَخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[2]، والاختلافُ والمخالفة: أن يأخذ كلّ واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله[3]، واختِلافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ هو تعاقبهما، إذ جعلهما اللّه خِلْفة، ويدخل تحت لفظة الاختلاف كونهما يقصر هذا ويطول الآخر وبالعكس، ويدخل في ذلك اختلافهما بالنّور والظَّلام[4].

2) ﴿رِّزۡقٖ﴾: أصلُ (رزق) يدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عطاءُ اللّه جلَّ ثناؤُه[5]، وهو كلُّ ما يُنتَفع به من مالٍ ونحوه، والجَمْعُ: أرزاقٌ[6]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[7]، والرَّزق

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 80.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (رزق).

بِفَتْحِ الرّاء: العطاءُ الدّائم، والرّازِقُ: المُعْطِي وهو اللّهُ تعالى[1]، والرِّزق في الآية: اسمٌ لِما يُنتَفعُ به، والمراد به المطر الذي يتسبّب عنه الرِّزق.

﴿وَتَصۡرِيفِ﴾: أصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[2]، ومنه الصَّرْفُ: حَدَثانُ الدَّهْرِ، اسْمٌ له؛ لأنَّه يَصْرِفُ الأشياءَ عن وُجوهِها[3]، والتَّصريف: اشتِقاق بعضٍ من بعضٍ[4]، وتصريفُ الرِّياحِ والسُّيول والخُيول: إجراؤها من وجْهٍ إلى وجْهٍ[5]، وعلى ما سبق فالمراد من ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ في الآية: تحويلُها وتقلُيبها تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعَذابِ، وتارةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حجج الله تعالى وبراهينه دالّةٌ على وحدانيّته وقدرته

يسوق - سبحانه - أدلّةً على وحدانيّته، وكمال قدرته، وجلال عظمته، فيقول: وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ دائِبَينِ لا يَفتُرانِ، واختِلافِهما في الطّولِ والقِصَرِ، والنّورِ والظُّلْمةِ، إلى غيرِ ذلك، وفيما أنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، فأخرَجَ منها أرزاقَ العِبادِ وأقواتَهم، وفي تنويعِ الرّياح بإرسالِها مِن جهاتٍ مُختَلِفةٍ - فتارةً تَهُبُّ مِن جهةٍ، وتارَةً مِن أُخرَى - وبصِفاتٍ مُختلِفةٍ؛ فتارَةً تكونُ حارَّةً، وتارةً باردةً، وتارةً تكونُ نافعةً، وتارةً ضارَّةً، وتارةً تكونُ رحمةً، وتارةً عذابًا ... إلى غيرِ ذلك، ففي اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وإنزالِ المطرِ، وإحياءِ الأرضِ به، وتصريفِ الرِّياحِ - دَلالاتٌ واضِحاتٌ وعلاماتٌ باهِراتٌ على

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرف).
(3) ابن سيده، المحكم: (صرف).
(4) الخليل، العين: (صرف).
(5) ابن سيده، المحكم: (صرف).
(6) السمعاني، تفسير القرآن: 1/ 163.

الحَقِّ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللّهِ تعالى حُجَجَه، ويَفهَمونَ ما وعَظَهم به مِنَ الآياتِ والعِبَرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

العلوم الدِّينيَّةُ مصحّحة بالدّلائل، محقّقة بالشّواهد

جاءت الجملة ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ﴾ بالواو؛ لاشتراكهما في كونهما جملتين اسميَّتين وفي الجهة الجامعة، وهي كونهما آياتٍ كونيَّةً لها تعلّق بحياة الإنسان ومعاشه دالَّةً على وحدانيَّة اللّه تعالى وعلى البعث يوم القيامة، وهكذا فقد جعل اللّه العلوم الدّينيّة كسبيّةً مصحّحة بالدّلائل، محقّقة بالشّواهد فمن لم يستبصر بها زلّت قدمه عن الصِّراط المستقيم، ووقع في عذاب الجحيم، فاليوم في ظلمة الحيرة والتّقليد، وفي الآخرة في التَّخليد في الوعيد[2].

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

الحثُّ على الاهتمام بالآيات التي اعتاد النّاس عليها وعدم الغفلة عنها

قدِّمَ المسند في قوله ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وما عُطِفَ عليه على المسند إليه ﴿ءَايَٰتٞ﴾ للاهتمام والعناية بالمسند، بمعنى الاهتمام بتوجيه النّظر إلى هذه الآيات المتعلّقة بحياة الإنسان والحيوان من اختلاف اللّيل والنّهار عليهما وغيرها، ففي التّقديم إشعار بالحثِّ على الاهتمام بهذه الآيات التي اعتادوا عليها وعدم الغفلة عنها، فليس في تقديم المسند على المسند إليه تخصيص الآيات لقوم يعقلون باختلاف الليل والنّهار وما عطفَ عليه، ففي غيرها آياتٌ كذلك لقوم يعقلون، ولكنَّه تنبيه إلى أنَّها من أعظم الآيات وأظهرها لقومٍ يعقلون[3].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 74، والسمعاني، تفسير القرآن: 5/ 135، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 264، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 179.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 389.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 80.

سرُّ حذف حرفِ الجرِّ:

تنوع آيات الله من حيث ذواتها وآثارُها وطرائق الانتفاع منها

جاء قولِه تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ من دون إثبات حرفِ الجرِّ (في)، وكان الظّاهر أن يقال (وفي اختلاف اللّيل والنّهار) ليوافق ما قبله، إذ جاء حرف الجرّ في صدر الآية ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي صدر الآية التي بعدها في قولِه ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾، وقدَّر بعض النّحاة والمفسّرين الكلامَ على إضمار (في) ليكون التّقدير: وفي اختلاف اللّيل والنّهار، فعندهم حرف الجرِّ (في) وإن كان محذوفًا من اللّفظ لكنَّه في حكم المضمر فيه[1]، ويوافق النّسق في الآيات بابتدائِها بـ: (في)، والظّاهر أنَّ الحذف مقصود؛ لأنّه لو جاء الكلام بإثبات (في) لكانت هذه الآيات مستقلَّةً عن الآيات التي في خلقِ النّاس وفي ما يبثّه من دابَّة، وليس الأمر كذلك، لأنَّه أراد عطف (اختِلافِ) على ﴿خَلۡقِكُمۡ﴾ من حيث المعنى، لتكونَ آيةُ اختلاف اللّيل والنَّهار وما عطف عليه هي آياتٌ مبنيَّةٌ على الآيات الّتي في خلقِ النّاس وبثِّ الدّوابِّ، بمعنى أنَّ اختلاف اللّيل والنّهار وإنزال الرّزق من السّماء وتصريف الرّياح هي لأجل النّاس وحياة الحيوان، ففي الكلام إدماجٌ لتنوّع النّعم وإتمامِها على الخلقِ، ولهذا أيضًا خُصَّت الآيات بذكر القوم، أي للإشعار بما ينتفع به الأقوام وجميع النّاس.

سبب إيثار مجيء الآيتين منفصلتين دون جمعهما في آية واحدة:

التّفصيل أقرب للفهم والتّدبّر

قد يقال: هلّا دُمجَت آية ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ﴾ وآية ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في آية واحدةٍ؟ فما سبب مجيئهما في صورة آيتين؟ والجوابُ هو أنَّه إنّما جاءت على صورة الآيتين؛ لأنَّ آية ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تفصيل لما يكتنف الخلق والدّوابَّ من الآيات المتكرِّرة،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 133، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 4/ 285، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 80، واالعكبري، التبيان: 2/ 1150.

فاقتضى الأمر أن تكونا في صورة آيتين دون دمجهما في آية واحدة، ولبيان الفائدة في كلِّ نوعٍ من هذه الآيات فهي متنوّعة من حيث ذواتها وآثارُها وطرائق الانتفاع منها، فالأولى: آيات لقوم يوقنون، والثّانية آياتٌ لقوم يعقلون.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾:

في اللّيل فوائدُ تختلف عن فوائد النّهار، بحيث لو دام أحدُهما لانقلبَ النّفع ضررًا

عبّر بصيغة المصدر (اختِلافِ) في قوله: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ إيذانًا بمجموعِ معاني الاختلاف بينهما، فيدخل في لفظ الاختلاف التّعاقب الحاصل بين اللّيل والنّهار، بأن يخلف كلُّ واحدٍ منهما الآخر[1] في مكانِه مع اتّصال ظلمة اللّيل بنور النّهار كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: 62]، ومنه الاختلاف في الطّول والقصر فيهما[2]، فتحصلُ من اللّيل فوائدُ تختلف عن فوائد النّهار، بحيث لو دام أحدُهما لانقلبَ النّفع ضررًا وأذى، ومنه كذلك الاختلاف في المهامِّ التي خُصَّت لهما من السّكون في اللّيل لراحة الأبدان والحركة في النّهار لأجل المعاش، وغيرها من صور الاختلاف الدّالّة على قدرة اللّه وحكمتِه وعزّتِه والّتي جعلها لمنافع النّاس، ومن أوضح صور آية اختلاف اللّيل والنّهار انتظام هذا التّعاقب بينهما في الأرض، ولهذا جاء التّعبير بصيغة المصدر في جميع مجاري ذكر اختلاف اللّيل والنّهار في القرآن الكريم، ومن مجاري الاختلاف بينهما أنَّهما قد يستويان في بعض الأوقات وقد يأخذ اللّيل من النّهار أو بالعكس، ولأنَّ وجوه هذا الاختلاف لا تُدركُ إلّا بالعقل جعلت هذه الآية خاصَّة بالعقلاء.

بديع الإدماج:

لمّا كان قوله تعالى ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ مفيدًا التّذكير

(1) الراغب، المفردات: (خلف).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 80، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 68.

بآية هذه الاختلاف مع التّنبيه إلى ما يكتنفه من النّعم المستمّرة لاستمرار تعاقب اللّيل والنّهار كان في ذكر اختلاف اللّيل والنّهار إدماجٌ بين تذكّر هذه الآية العجيبة الدّالّة على وحدانيَّة الله تعالى وبيان ما فيها من نعمةٍ تستوجب شكر المنعِم بها.

الإدماج في آيات الله بين الدّلالة على وحدانيَّتِه والامتنان بوافر النّعم

فائدة الإضافة:

الإضافة في قولِه ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ على معنى اللّام الّتي للاختصاص، والتّقدير: واختلافٍ لِلَّيل وللنّهار؛ لتفيد الإضافة الملازمة في اختلاف اللّيل والنّهار، بمعنى تكرار هذه الحالة.

انتظام حالة اختلاف اللّيل والنّهار وتكرّرها في الأرض

بديع الطّباق:

جاء لفظا ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ على طريق الطّباق، جمعًا بين المتضادّين، والقصد من ذكرِ الطّباق بيان آية الاختلاف بينهما؛ لأنَّ الاختلاف يزداد ظهورًا وبيانًا في المتقابلين.

فائدة الواو:

في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تفيد الواو عطف الاسم الموصول (ما) على (اختِلافِ) بما أضيف إليه، أي: عطف آية إنزال الرّزق من السّماء على آية اختلاف اللّيل والنّهار، لاشتراكِهما في كونِهما من آيات الله، كما أنَّ إنزال الرّزق من السّماء لا يخلو من أن يكون في ليلٍ أو نهارٍ، ففيه إشارة إلى عطف الشّيء على ما فيه ملابسة له.

إنزال الرّزق من السّماء لا يخلو من أن يكون في ليلٍ أو نهارٍ

مناسبة التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

لمّا كانت صلة الموصول معلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه عند المخاطبين عبّر بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإحضار مضمون الصّلة في أذهان السّامعين لتقرير أنَّ هذه الآية من عند الله تعالى وحدَه، ولتعظيم إنزال الله تعالى الرّزق من السّماء، ولبيان وجه كونِها آيةً باهرةً، فلولا أنَّ الله تعالى هو الّذي أنزل الرّزق من السّماء لما نزل.

لولا أنَّ الله تعالى هو الّذي أنزل الرّزق من السّماء لما نزل

نكتة التّعبير بصيغة الماضي:

عبّر بصيغة الفعل الماضي في قولِه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وقوله ﴿فَأَحۡيَا﴾ تحقيقًا لهذه الآية وتقريرًا لها، لما يفيدُه لفظ الماضي من تحقّق الوقوع.

بلاغة العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

كما أنّ الله أنزل المطر فأحيا به الأرض فإنّه قادر على أن يحيي الموتى يوم القيامة

كان الظّاهر أن يكون الفاعلُ مضمرًا في قولِه ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لإضمارِه في الفعل الذي سبقه في قولِه: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾، وإنّما جاء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر بالعدول عن الإضمار إلى الإظهار للإيذان بتعظيم هذه النِّعمة وتفخيمِها لِما يُشعر به التّصريح بالاسم الجليل من التّعظيم، وللتّنبيه إلى أنَّ اللّه تعالى هو الذي يحيي الموتى، فكما أنَّ اللّه أنزل من السّماء المطر فأحيا به الأرض بعد موتِها فإنَّه قادر على أن يحيي الموتى يوم القيامة، كما أنَّ الشّيء كلَّما قلَّ الإلفُ له كان أمكنَ للتأمُّل فيه، فكان ذكر الاسم الجليل مع إنزال المطر من السّماء أدعى إلى تذكّر هذه الآية وتعظيمِها.

فائدة ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيَّة، لتفيد أنَّ ابتداء نزول المطر إنّما يكون من السّماء.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

التنبيهُ إلى رفعةِ المطر النّازل من السّماء وإلى أنّه نعمةٌ لطيفة

لفظ (السّماء) إذا ورد مفردًا في القرآن فيراد به الجوُّ المرتفعُ فوقَنا الذي يبدو كأنَّه قبَّة زرقاء[1]، وعبّر بلفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنَّ المطر لا يكون نازلًا إلّا منها؛ تنبيهًا إلى رفعةِ النّازل منها، وإلى أنَّه نعمةٌ قد عمّتهم جميعًا، ولمّا كانت السّماء موضعَ رحمتِه ونعمتِه غالبًا - أي في غير موضع نزول العذاب منها - أشْعَرَ التّعبير بها بيان لطفِه تعالى بالخلقِ بأن كان المطرُ غير مؤذٍ لهم مع أنَّه ينزل عليهم من فوقٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 77.

فائدة ﴿مِن﴾ في قولِه ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾:

البيان بقصد التّفخيم

﴿مِن﴾ في قولِه ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾ بيانيَّة، وفائدتها بيان الإبهام المضمّن في الاسم الموصول، ومجيء الكلام بطريق البيان بعدَ الإبهام لتفخيم الرّزق الذي أنزله اللّه من السّماء.

بلاغة المجاز المرسل:

منافع السّماء غير منحصرة في المطر

عبِّرَ عن المطر بالرّزق في قولِه ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾ على طريق المجاز المرسل بذكر المسبَّب وإرادة السّبب[1]، ومناسبة التّعبير بطريق المجاز المرسل التّنبيه على كون المطر آيةً من جهتي قدرة اللّه تعالى وكونِه رحمةً للعبادِ بهذه النّعمة الظّاهرة العجيبة[2]، كما أنَّ في التّعبير بالرّزق إشارة إلى عموم ما أنزل اللّه من السّماء من مطر وغيره من الأسباب المهيّئة لإخراج الرِّزق، ففيه تنبيه إلى أنَّ منافع السّماء غير منحصرة في المطر[3]، ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ المطر في نفسِه رزقٌ لِما ينتفع به في الشّرب وغيرِه[4]، فيكون في التّعبير بلفظ الرّزق جمعٌ بين الحقيقة والمجاز.

فائدة الفاء:

الفاء في قوله ﴿فَأَحۡيَا﴾ تفيد السّببيّة والتّعقيب[5]، بمعنى أنَّ أنزال المطر سببٌ في إحياء الأرض بعدَ موتِها، كما أفادت تعقيب الإحياء لإنزال المطر، وتعقيب كلِّ شيءٍ بما يناسبُه في الوقت.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

الّذي أحيا الأرض بعد موتِها قادرٌ على إحياء الموتى يوم القيامة

في التّعبير بلفظ ﴿فَأَحۡيَا﴾ في قوله ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، ففيه تشبيه إحداثِ إنبات زرعِ الأرض ونضارتِها

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 105.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 68.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 66، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 593.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 138.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 66.

بإحياء الموتى، ثمَّ حُذفَ المشبَّه وذكر المشبَّه به بصيغة الفعل (أحيا)، أو يقال فيه تشبيهٌ للرُّطوبة الأرضيّة بالرّوح الحيوانيِّ في كونها مبدأ التّوليد والتّنمية[1]، وسبب إيثار الاستعارة في الكلام التّنبيه إلى أنَّ الّذي أحيا الأرض بعد موتِها قادرٌ على إحياء الموتى، ففيه إشارة إلى البعث يوم القيامة.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور:

الاهتمام بالمطر وتخصيصه بالإحياء

الباء في قوله ﴿بِهِ﴾ سببيَّة، بمعنى: أحيا اللّه الأرضَ بسبب المطر الذي أنزله هو، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعول به في قوله ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾؛ للاهتمام والعناية بالمقدَّم تفخيمًا لشأنِ المطر النّازل من السّماء، كما يفيد التّقديمُ التّخصيصَ، بمعنى أنَّ الأرضَ لا تحيا بعدَ موتِها إلّا بالمطر الذي أنزله اللّه.

دلالة إسناد الإحياء إلى الله تعالى:

من رحمة الله بالعباد استعطافهم ليؤمنوا به سبحانه وبرسوله ﷺ

أُسندَ الإحياء إلى الضّمير المستتر العائد إلى اللّه تعالى في قولِه ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ بينما أُسند الموت إلى الأرض في قوله ﴿مَوۡتِهَا﴾، مع أنَّ الإحياء والإماتة كلاهما بقدرة اللّه تعالى وحدَه؛ وفائدة إسناد الإحياء إلى اللّه تعالى هي إظهارُ الدّليل على وحدانيَّة اللّه وقدرتِه على البعثِ، كما أنَّ في إسناد الإحياء إلى اللّه تعالى إشعارًا بعموم رحمته سبحانه وبأنَّ حياةَ النّاس إنّما تكون بإحيائِه الأرضِ، ففي الإسناد استعطافٌ للمخاطبين ليؤمنوا باللّه وبرسوله ﷺ.

سرُّ تقييد المسند بالظّرف:

من يحيي الأرض يحيي الخلق

قُيّد المسند وهو الفعل (أحيا) بالظّرف في قولِه ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾؛ معَ أنَّ الإحياء لا يكون إلّا بعد الموتِ، للتّنبيه إلى أنَّه تعالى كما يحيي الأرضِ بعدَ موتِها فإنَّه يحيي الخلقَ بعدَ موتِهم، كما قال تعالى ﴿وَمِنۡ

(1) اسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 436.

ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [فصّلت: 39].

نكتة حذف حرف الجرِّ قبل الظّرف:

لا يلزم من كلِّ أرضٍ ميّتة أن يحييها الله تعالى مباشرةً بعدَ موتِها

حُذِف حرف الجرِّ قبل الظّرف في قولِه ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، فلم يقل (من بعدِ موتِها) لأنَّه لو ذُكِر (مِن) لأفاد أنّ الإحياء يكون من أوّل وقتٍ بعد موت الأرض، والأمر ليس كذلك، وليس هو المقصود، لأنَّ القصدَ بيان قدرة اللّه على إحياء الأرض وليس بيان وقت الإحياء، ليفيد أنَّه لا يلزم من كلِّ أرضٍ ميّتة أن يحييها اللّه تعالى مباشرةً بعدَ موتِها، فأفاد حذف (مِنْ) أنَّ الإحياء يحتمل أن يكون قريبًا من زمن موت الأرض أو بعيدًا، بحيث تمرُّ مدَّة طويلةً على موت نبات الأرض وجدبِها من غير أن يُنزل اللّه تعالى المطرَ عليها، وأشار البقاعيُّ إلى أنَّ حذف حرف الجرّ قبل الظّرف ﴿بَعْدَ﴾ فيه إشارة إلى دوام حياة الأرض بالقوّة وإن لم يكن بالفعل؛ لأنَّه إذا نزل عليها الماء جمعه منها فأخرجه على ما كان عليه كلَّما تجدد نزوله(1).

سبب التّعبير بالمصدر في قوله ﴿مَوْتِهَا﴾:

الأرضُ قد تموت ويطول الزّمن عليها، لكنَّ الله تعالى يحييها بإنزال المطر عليها

عبّر بصيغة المصدر في قوله: ﴿مَوْتِهَا﴾ أي موت الأرض، ولم يقل (من بعدِ أن تموت)؛ لِما يفيده المصدر من معنى الثّبات، أي: بعد أيِّ موتٍ يثبت للأرض سواء أكان طويلًا أو قصيرًا، ففيه إشارة إلى أنَّ الأرضَ قد تيبس وتموت ويطول الزّمن عليها، لكنَّ اللّه تعالى يحييها بإنزال المطر من السّماء عليها.

دلالة الضّمير في قوله﴿مَوْتِهَا﴾:

موت الأرض موت لها ولنباتِها

الضّمير في قولِه ﴿مَوْتِهَا﴾ يعود إلى لفظِ (الأرضَ)، والمراد بعدَ موت نباتِها، وسبب نسبة الموت إلى الأرض دون نباتِها هو أنَّه لَمّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 66.

كان موت نبات الأرض يلزم منه جدبها ويبسها نسب الموت إليها بما لحقها من الآثار التي تسبّبت عن موت النّبات فيها، ولمّا جعل اللّه تعالى إحياء الأرض بإنزال المطر عليها أفادَ أنَّ موتَها بإمساك المطر عنها في فصولِ الجفاف أو سنين الجدبِ[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿مَوۡتِهَا﴾:

في لفظ ﴿مَوۡتِهَا﴾ استعارة تصريحيَّة، فشبّه جدب الأرض ويبسها وفقد القوّة النّامية للنّبات فيها بموت الحيوان بجامع فقد القوّة النّامية وانتفاء الانتفاع، ومن مناسبات الاستعارة في الآية الاستدلال بالشّاهد على الغائب، فكما يحيي اللّه تعالى الأرض بعد موتها فإنَّه يحيي النّاس بعد موتِهم، كما تقدَّم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿وَتَصۡرِيفِ﴾:

من آيات الله تعالى تنوّعُ تصريف الرّياح من حالٍ إلى حالٍ ومن وضعٍ إلى آخر

لمّا كان التّصريف هو ردَّ الشّيء من حالةٍ إلى أخرى وتقليبه من وضعٍ إلى آخر[2] أفاد التّعبير بقوله: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ أنَّ المرادَ جميع ما يدلُّ عليه اللفظ، فيشمل تحوّلها من جهةٍ إلى جهةٍ أخرى، ويشمل تقلّبها من حالٍ إلى حالٍ، فتكون تارةً حارَّةً وتارةً باردةً وتارةً شديدةً وتارةً ليّنة وقد تكون نافعةً أو ضارَّةً.

دلالة التّعبير بالمصدر في قولِه ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾:

لو اجتمع العالم على تصريف الرّياح بتغييرها لعجزوا

عبّر بصيغة المصدر في قولِه ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ للإشارة إلى ثبات هذا التّصريف في الأرض للدّلالة على استمرار هذه الآية، فالرّياح لا تزال تتحوّل من جهةٍ إلى أخرى مع تغيّر حالِها في الحرارة والبرودة والشّدة واللّيونة كما تقدَّم، ودَلالَةُ تَصۡرِيفِ الرِّياحِ على كونِها من آياتِ اللّه تعالى على توحيدِه هي أنَّ العالمَ لو اجتمعوا على تصريفِها بقلب الرّيح من الشّمال إلى الجنوب، أو إذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 29.
(2) الراغب، المفردات: (صرف).

كان الهواء ساكنًا أن يحرّكه، أو تحويل أيِّ حالٍ من أحوالِها على غير ما هي عليه لَما قدروا ولتعذّر عليهم ذلك[1].

فائدة الإضافة:

اختـصـاص التّـصـريـف بالرّياح

الإضافة في قولِه ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ على معنى اللّام التي تفيد الاختصاص، بمعنى التّصريف الّذي يكون للرّياح، وإضافة المصدر هنا من قبيل إضافتِه إلى المفعول، وتقدير الكلام: (وتصريفِه الرّياحَ).

توجيه القراءات القرآنيّة:

تنويع القراءات تنويع للمعنى وتكثير له

قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ﴿ٱلرِّيحِ﴾ بالإفراد، وقرأ الباقون ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ بالجمع[2]، قراءة الإفراد تحمل على أنَّ المراد من ﴿ٱلرِّيحِ﴾ الجنس، وإذا كان المراد من الإفراد الجنس كانت قراءة من وحّد كقراءة من جمعَ من حيث المعنى[3]، أو يقال قراءة الجمع تفيد تنوّع كلِّ فردٍ من أفراد الرّيح في التّصريف والتّقلّب، وهو المناسب لمقام الجمع الدّالّ على كثرة التّصريف، وأمّا قراءة الإفراد فهي أبلغ في المعنى؛ لأنَّ تصريفَ الشَّيء الواحد في الوجوه الكثيرة أعجبُ، وهو المناسب لمقام التّعجيب من آيات اللّه تعالى[4].

فائدة تنكير ﴿ءَايَٰتٌ﴾:

أفاد تنكير لفظ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ تفخيمها نوعًا وكمًّا، بمعنى هي آياتٌ كثيرةٌ، وهي باهرة عظيمةٌ في كلِّ فردٍ منها، وأكّد هذا التّفخيم مجيء اللّفظ بصيغة الجمع في معرض الاستدلال والامتنان.

فائدة اللّام في﴿لِّقَوۡمِ﴾:

اللّام في قولِه ﴿لِّقَوۡمِ﴾ للاختصاص، بمعنى أنَّ مثل هذه الآيات

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 1/ 127.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/ 186، وابن الجزري، النشر: 2/ 223.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/ 173.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 67.

يختصُّ بمعرفتِها القوم الّذين يستحكم فيهم العقل، ومن شأنِهم أن يعقلوا إذا رأوا مثل هذه الآيات.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

الحثّ على تجدّد النّظر واستمراره في الآيـات ينتج منه استحكام العقل

عبّر بصيغة المضارع في قولِه ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ للإشعار بالحثّ على تجدّد النّظر واستمرارِه في الآيات التي تجدّد كلَّ وقتٍ، وهي آيات اختلاف اللّيل والنّهار ونزول الأمطار وحياة الأرض وتصريف الرّياح لينتج منه استحكام العقل، الّذي يستطيع من خلاله إقامة الدّليل لغيرِه، فيكون مؤمنًا موقنًا قد عقل هذه الأدلَّة مع قدرتِه على إيراد الدّليل على أنَّ هذه الآيات دليل على وحدانيَّة اللّٰه تعالى وعلى البعثِ فيعقل الآخرون هذا الأمر فيؤمنون.

بلاغة التّعريض:

من لم ينتفع بالآيات ليس عاقلًا

أفاد تخصيص الآيات بأنَّها ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ التّعريضَ بمَن لم ينتفع بهذه الآياتِ بأنَّهم لا يتّصفون بالعقل ولا يعملونه في حياتِهم.

سبب إيثار حذف متعلَّق الفعل:

عقلُ عموم الأدلّة

حذف متعلَّق الفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ لإفادة العموم، بمعنى: (يعقلون الأدلَّة والحجج).

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الجاثية: 6]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

آيـــات الـلـه عظيمة شريفة وهي حقٌّ وصدقٌ

لمّا ذكر هذه الآيات الباهرات، وكانت كلُّها مشتركة في العِظَم وظهور الدّلالة بعد ما أشار بفواصلِها إلى تباين رتبها في فهمِها والانتفاع منها أشار إلى علوّ مرتبتِها وكمالِها وحقّيّتها فقال: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾: أصلُ (حقّ) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّته[2]، يُقال: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ، وضِدُّه: الباطِلُ، ويأتي الحَقُّ بِمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ، ويُطلَق على الواجِبِ واللّازِم، فيُقال: يَحِقُّ عليك أن تَفْعَلَ كذا، أيْ: يَجِبُ، ويُستعملُ بمعنى المُؤَكَّدِ المُتيقَّنِ[3]، ومِن مَعانيه أيضًا: الصَّوابُ، والصَّحِيحُ، والعَدْلُ، والصِّدْقُ[4]، والحَقُّ في الآيةِ معناه: الثّابتُ الَّذي لا رَيْبَ فيه ولا كذب.

2) ﴿حَدِيثِۭ﴾: أصلُ (حدث) يدُلُّ على كَونِ الشَّيءِ بعدَ أنْ لم يكُنْ، عَرَضًا كان ذلك أو جوهرًا، وإحداثه: إيجاده[5]، والحديثُ من هذا؛ لأنَّهُ كلامٌ يَحدُثُ منه الشَّيءُ بعد الشَّيءِ[6]، والحديث: الجديد من الأشياء[7] الَّذي لم يكن فحدَث، وما يُخبر اللّٰه تعالى به يجوز أن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 68.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية: (حق)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 143.

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حق).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حدث).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (حدث).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حدث).

يُسمَّى حديثًا على معنى حدوثه بالإخبار عنه، ومن هذا المعنى سُمِّي القرآن حديثًا في الآية؛ لحدوث تلاوته فيما بيننا، أو بمعنى الخَبَر؛ لأنَّ شأن الإخبار أن يكون عن أمرٍ حَدَث وجَدَّ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

مَن لم يَهتَدِ بما جاءت به الأنبياءُ فهو أبعدُ النّاسِ عن الهُدى

خاطب اللّهُ تعالى نَبيَّه ﷺ قائلًا له: تلك آياتُ اللّهِ نَقرَؤُها عليك - يا محمَّدُ - بواسِطةِ جبريلَ، وهي مُشتَمِلةٌ على الحَقِّ والصِّدقِ الخالِصِ الَّذي لا باطِلَ معه ولا كَذِبَ، فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعدَ كِتابِ اللّهِ وبعدَ حُجَجِهِ وآياته يُؤمِنونَ؟![2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

آيــات الـلـه عـظـيـمـة وحـقٌّ جديرة بأن يؤمِن بها العباد

جاءت جملة: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها في مقام الفذلكة والمقصودِ والثّمرة والنّتيجةِ لِتفاصيل الآيات العظيمة المذكورة من قبل[3]، فجاءت الجملة على طريق الإجمالِ بعد التّفصيل، لتفيد التئامَها بما قبلَها، فكأنَّه قال: محصَّل الأمرِ ونتيجتُه أنَّ هذه الآيات هي آيات اللّه، فهي جديرة بأن يؤمن بها، فالجملة بدلٌ من مجموع تلك الآيات، وفائدتها أن يتقرَّر العلمُ بأنَّ هذه الآيات هي آيات اللّه يتلوها عليهم بالحقِّ كما عُلِمَ تفصيلُها، ففي جملة ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ تقريرٌ لما تقدَّمها وإيضاحٌ لموردِ كونِها آياتٍ دالَّة على وحدانيَّة اللّه وعظيم قدرته؛ لأنَّ المقصود من الفذلكةِ البيان الجليُّ في وجه كونِها آياتٍ دالَّةً على المقصود.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/ 26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 384.
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 5/ 135، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 671، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 415.

سبب إيثار التّعبير باسم الإشارة الذي للبعيد:

إيذانُ العبادِ بعلوِّ شأنِ آياتِ الله وعظمتِها وفخامتها

في قولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جاء المسند إليه بصيغة اسم الإشارة للبعيد ﴿تِلۡكَ﴾ وأشير به إلى الآيات التي تقدَّم ذكرُها في قوله ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقوله ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، وقوله ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ ليفيد التّعبير باسم الإشارة تمييز المشار إليه أكمل تمييز لظهورِ تلك الآيات ووضوحِها بحيث يراها أيُّ راءٍ، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى آيات القرآن المنزّلة ممّا هو حاضرٌ في الذّهن بما دلَّ عليه السّياق وبدلالة قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1]، وعبّر بصيغة الإشارة للبعيد ﴿تِلۡكَ﴾؛ للإيذانِ بعلوِّ شأنِ هذه الآيات وعظمتِها وفخامتها، كما أنَّ في التّعبير باسم الإشارة إشعارًا بالتّنبّه إلى أنَّها آيات اللّه؛ فلا يغفلوا عنها، أي فيجب الإيمان باللّه وحده وبالقرآن.

فائدة الإضافة:

آيات الله الكونيَّة والمتلوّة في القرآن عظيمة باهرة مختصَّة به تعالى

في قولِه: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جاء المسند مضافًا إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، لتكونَ الإضافة على معنى اللّام بمعنى أنَّها آيات مختصَّة باللّه تعالى؛ فلا أحدَّ يقدر على مثلِها، ويُحتمل أن تكون الإضافة على معنى (مِنْ)، والمعنى: (تلك آيات من اللّه نتلوها عليك)؛ ليفيد حقّيّتها وتشريفَها، وعلى الوجهين في معنى الإضافة فإنَّها تفيد تعظيم الآيات وتفخيمَها، فعلى القول بأنَّ المراد من الآيات الآيات الكونيَّة والآفاقيَّة كان سبب مجيء اللّفظ مضافًا إلى الاسم الجليل هو أنَّه تعالى هو الّذي خلقَها على تلك الصّفات التي كانت لها آياتٌ للمستبصرين[2]، وعلى القول بأنَّ المراد من الآيات آيات القرآن جاء اللّفظ مضافًا لأنَّ الآيات صدرت من اللّه تعالى، فهي مختصَّة به سبحانه.

---

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 80، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 329.

الإخبار عن الشّيء بلفظِه يدلُّ على المبالغة في الوصف بالكمال

فائدة الإخبار عن الآيات بأنّها آيات الله:

لمّا كان اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ يعود إلى آيات اللّه المذكورة أو إلى الآيات المنزّلة كان الإخبار عنها بأنّها ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ فيه تفخيم للإسناد، فإنّ الإخبار عن الشّيء بلفظِه بما يدلُّ على اتّحاد طرفي الإسناد يفيد أنَّ الخبر على معنى المبالغة في الوصف بالكمال كما في قول الشّاعر: أنا أبو النَّجم وشِعرِي شِعرِي[1]، بمعنى تلك الآيات هي آيات اللّه، بمعنى قد عرفتَ وصفَها وبلغك حالُها في الكمال والرّفعة والحقّيَّة، وذهب بعض المفسّرين إلى توجيه الخبر على حذف مضاف، لدفع توهّم اتّحاد المسند والمسند إليه، والتَّقدير: تلك دلائل آيات اللّه[2].

الغرض من إضافة الآيات إلى الاسم الجليل:

لمّا كان اسم الإشارة من المبهمات، وكان بصيغة اسم الإشارة للبعيد وجاء الخبر تفسيرًا لهذا الإبهام بصيغة الإضافة إلى اسم اللّه الجليل المتّصف بصفات الجلال والكمال أفادَ أنَّ الإخبار عن الآيات بأنَّها ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ فيه خطبٌ خطيرٌ وشأنٌ جليل[3].

سرُّ القصرِ في الإسناد:

كلُّ آية من كتاب اللّه، تمثِّلُ آياتِ الله كلَّها في إحكامها وإعجازها

لمّا كانت الآيات هي تلك الآيات التي ذكرت من أول السورة، وآيات اللّه ليست محصورة في هذه الآيات المتقدِّمة، كان مجيء المسند والمسند إليه معرفتين بطريق القصر في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ آياتِ اللّه تعالى كلَّها على هذا النَّمط العالي من الكمال والجلال والإعجاز، فكلُّ آية من كتاب اللّه، تمثِّلُ آياتِ اللّه كلَّها في إحكامها وإعجازها[4].

---

(1) أبو فتح العبّاسي، معاهد التّنصيص: 1/ 26، والبغدادي، خزانة الأدب: 1/ 439.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 105، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 414 - 415.

(3) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 238.

(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 223.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿نَتۡلُوهَا﴾:

تلاوة القرآن تزيد في بيان معناه

لمّا كانت التّلاوة بمعنى القراءة كان معنى الآيات متلوّةً في قولِه: ﴿نَتۡلُوهَا﴾ أنَّ في ألفاظ القرآن المتلوَّةِ دلالةً على تلك الآيات، فيكون الفعل (نَتلو) مستعملًا في المجاز العقليّ؛لأنَّ المتلوَّ ما يدلُّ على الآيات، والمعنى تلك آيات اللّه نبيّنها ونوضّحها؛ لأنّ الكلام يتبيّن معناه عند تلاوتِه، وإن كان المراد من الإشارة في ﴿تِلۡكَ﴾ مع بيانِها الألفاظ الحاضرة في الذّهن أي: آيات اللّه المنزّلة في القرآن يكون الفعل (نتلو) مستعملًا في معناه الحقيقيّ، وهو التّلاوة بمعنى القراءة، ويكون إسناد الفعل إلى اللّه تعالى في قولِه ﴿نَتۡلُوهَا﴾ على طريق المجاز العقليّ؛ لأنَّ الذي يتلو القرآن على رسول اللّه ﷺ في الحقيقة هو جبريل، وسبب العدول إلى المجاز العقليّ هو بيان أنَّ هذه الآيات من عند اللّه تعالى، وأنّه تعالى هو الّذي أنزل القرآنَ المتلوَّ الدّالّ على تلك الآيات[1].

سرُّ تقييد الآيات بالجملة الحالية:

الدّليل على صدقِ آيات القرآن أنَّه تعالى هو الذي يتلوها على رسولِه ﷺ بوساطة جبريل عليه السلام

جاء جملة ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ حالًا من ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والعامل فيها ما في لفظ ﴿تِلۡكَ﴾ من معنى الإشارة، وسرُّ مجيء جملة الحال من الخبر هو تعظيمُ هذه الآيات، والإيذانُ بأنّها حقٌّ لا لبسَ فيه؛ فإنّ الذّي يتلوها هو اللّه تعالى، وتلاوتُها بالحقِّ، كما أنَّ جملة الحالِ تضمّنت الدّليلَ على أنّها آيات اللّه وعلى صدقِها، ففيها تمهيدٌ لِما يأتي بعدَها، بمعنى أنّه لمّا أراد أن ينفي أن يكون أيُّ كتاب يصحُّ الإيمان به غير القرآن قدَّم الدّليل عليه، فذكر أنَّ الدّليل على صدقِ هذه الآيات هو أنَّه تعالى هو الذّي يتلوها على رسولِه ﷺ وأنَّ تلاوتَها بالحقِّ كما أنَّها نزلت بالحقِّ، فإذا ثبت هذا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؟

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 330.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

عبّر في قولِه ﴿نَتۡلُوهَا﴾ بصيغة المضارع للإشعار بتجدّد هذه التّلاوة واستمرارِها، وأسند الفعل إلى نون العظمة تنبيهًا إلى عظمةِ المتلوِّ وتشريفِ المتلوّ عليه هذه الآيات.

سبب إيثار التّعبير بـ: ﴿عَلَيۡكَ﴾:

عبّر بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ في قولِه: ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ دون أن يقال (نتلوها لك) للإشعارِ بتضمين الفعل (نَتْلو) معنى (نُنزّل)، ليفيد أنّ المتلوَّ منزّل عليك من عند اللّه تعالى، ففيه إثبات للوحي ورفعةٌ للآياتِ وتعظيم لشأنِها، كما أنَّ في التّعبير بحرف الجرّ (عَلى) إشعارًا بتمكّن هذه الآيات المتلوّة من رسول اللّه ﷺ وثباتِها عنده ﷺ.

دلالة التّعبير بكاف الخطاب:

الـذّي يتلوه الوحـي من القـرآن على رسولِ الله ﷺ هو عين ما يتلوه الله تعالى على جبريل عليه السلام

عبّر بكاف الخطاب في قولِه ﴿عَلَيۡكَ﴾ والمقصود هو رسول اللّه محمَّدٌ ﷺ، مع أنَّ الذي يتلوها عليه ﷺ هو جبريل عليه السلام؛ تشريفًا للنّبيِّ ﷺ واحتفاءً به وتكريمًا له[1]، وللإيذانِ بأنَّ ما يتلوه الوحي على رسولِ اللّه ﷺ هو عين ما يتلوه اللّه تعالى على جبريل، فلا يُتلى على رسول اللّه ﷺ إلّا الحقّ.

فائدة تقديم ﴿عَلَيۡكَ﴾:

لمّا كان الأصل هو تقديمَ الحالِ على الجارِّ والمجرور المتعلّق بالفعل كان في قولِه ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ من باب تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ المتعلّق بالفعل على الحال ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾، وأصل الكلام: نتلوها بالحقِّ عليك، وفائدة التّقديم هي العناية والاهتمام بالمقدَّم مع التّخصيص، أي تخصيص رسول اللّه ﷺ بتلاوة الآيات عليه بالحقِّ، بمعنى أنَّ آيات اللّه لا نتلوها إلّا عليك بالحقِّ، فتلاوة القرآن

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 224.

وتنزيله لا يكون إلّا على رسول اللّه ﷺ، والحقُّ لا يكون إلّا معه، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؟

سرُّ التّقييد بالحال في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

حقيَّة القرآن لا يستطيع أحدٌ تغييرها

الجارُّ والمجرور في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ حالٌ، وهو إمّا حالٌ من فاعل ﴿نَتۡلُوهَا﴾، أي: نتلو الآيات محقّين في تلاوتِها، وإمّا حالٌ من مفعول ﴿نَتۡلُوهَا﴾: أي نتلو الآياتِ حالَ كونِها ملتبسة بالحقّ، فالباء للملابسة، ويجوز أن تكون للسببيّة الغائيّة[1]، بمعنى: (نتلو الآيات عليك بسبب كونِنا محقّين أو بسبب كونها حقًّا)، ممّا يقتضي أن يؤمن النّاس بها، ومعنى كونِ الآيات ملتبسة بالحقِّ أنَّها ليست بكذبٍ وأنَّها ملتبسة بالأمر الثّابت الذي لا يُستطاع تحويله ولا تغييره.

فائدة الفاء في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

الفاء في قوله ﴿فَبِأَيِّ﴾ للسّببيَّة والتّفريع على ما قبلها[2]، بمعنى أنَّ ما قبلها سببٌ لما بعدَها وما بعدَها مفرّع على ما قبلها، أي تفرَّع عن كون تلك الآيات التي هي آيات اللّه وعن كونِها متلوَّةً بالحقِّ الذي لا لبسَ فيه، وتسبَّبَ عن ذلك الإنكارُ على المنكرين وتوبيخهم وتبكيتهم، فإن لم يؤمنوا بهذا القرآن وبهذه الآيات ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾؟

بلاغة الاستفهام المجازيّ:

لا حديث أظهر صدقا من حديث اللـه تعـالى ولا أبين حقًّا فيه من كلامه

الاستفهام في قولِه ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ من أبدع أنواع الاستفهام المجازيّ لاشتمالِه على معانٍ مجازيَّة متعدّدة اقتضاها السّياق، فهو استفهام إنكاريٌّ[3]، ليفيد الإنكار عليهم في عدم الانتفاع بتلك الآيات الباهرة وعدم الإيمان بكونِها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 140.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 68.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 68.

من عند الإله الواحد الأحد، فإن كانوا من الّذين لا يقبلون حديثًا فلا يُرتجى منهم إيمانٌ، وتُكفى مؤونتهم، واللّه الهادي(1)، كما أنَّ هذا الاستفهام يشتمل على التّيئيس من الكفّار والتّعجيب من حالِهم بعد ظهور الآيات الباهرة ووضوحِها(2)، وفيه توبيخٌ لهم وتقريعٌ، وفيه قوّة التّهديد كذلك لمن لم يؤمن بالقرآن(3)، بمعنى: دعهم يارسول اللّه فلا فائدة منهم ولا يُرتجى إيمانُهم، كما أنَّ فيه تقريرًا لحقّيَّة القرآن وصدقِه، فلا حديث أظهر صدقا من حديث اللّه تعالى ولا أبين حقًّا فيه من كلامه؛ لأنَّ كلامَه آياتٌ معجزات، عجزوا عن الإتيان بمثلها.

الغرض من الإضافة في ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾:

آيات القرآن أحسن حديث وأبهره وأعظمه وأكمله وأحسنه

أضيف لفظ (أيِّ) إلى ﴿حَدِيثٍ﴾ ليفيد معنى العموم؛ ليكون الاستفهام عن أيِّ حديثٍ غير القرآن يؤمنون، وإنّما ذكر لفظ ﴿حَدِيثٍ﴾ للإشارة إلى أنَّ آيات القرآن أحسن حديث وأبهره وأعظمه، بحيث أيُّ حديث دونَه لا يصل إلى أن يكون على معنى كمال الحديث وأحسنه، وأنَّه به يُهتدى كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23].

دلالة الظّرف في قولِه ﴿بَعۡدَ ٱللَّهِ﴾:

رسولُ الله محمَّدٌ ﷺ هو خاتمُ الأنبياء فلا وحيَ بعد نزول القرآن

ظرف الزّمان في قولِه ﴿بَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى (دون)(4) أي فبأيِّ حديث دونَ اللّه وآياتِه تؤمنون، ليفيد أنَّ أيَّ حديث غير حديث اللّه وآياتِه لا ينبغي الإيمان به، ونكتة التّعبير بلفظ ﴿بَعۡدَ﴾ دون لفظ

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة 9/ 217.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 330.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 80.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 330.

(دون) أو (غير) هي الإشعار بتوبيخ من يتجاوزه ويتعدّاه كما أنَّ في اللّفظ إشارةً إلى أنَّه لا كتابَ يؤمِنُ به النّاسُ بعد القرآن، وإشارةً أخرى إلى أنَّ رسول اللّه محمَّدًا ﷺ هو خاتمُ الأنبياء وأنَّ الوحيَ ينقطع بعد نزول القرآن[1].

نكتة التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

أفاد التّعبير بصيغة المضارع أنّ من يسمع آيات اللّه ويراها يقتضي منه أن يتجدّد له الإيمان باللّه وبوحدانيَّتِه، ومن لم ينتفع بالقرآن وبآياتِ اللّه تعالى يتجدّد له عدم الإيمان.

من دلالات الآية:

من لم يؤمن بالقرآن فهو على الباطل

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ أفاد بطريق لازِمه أنَّه لَيْسَ بعد آياتِ اللّه إلّا الباطِل[2]، أي من لم يؤمن بها فإنّما هو على الباطل، كما أفادَ أنْ لا إيمانَ إلّا بآيات اللّه تعالى والمقصود هو القرآن، فلا كتابَ بعدَ القرآن، كما تقدَّم.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

تنوّع القراءات فيه تنويع للمعنى وتوسيع له

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرٍو وعاصم في رواية حفصٍ وأبو جعفر ويعقوب ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياءِ، وقَرَأ ابْن عامر وحَمْزَة والكسائيّ وعاصِم في رِوايَة شعبة ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ بِالتّاءِ، وتوجيه قراءة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالياء أنَّ الخطاب للمشركين، وشاهدها قَوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المرسلات: 50]، وأمّا توجيه قراءة ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ بِالتّاءِ، فهي أنَّ الكلامَ جرى عقيب الخطاب في قَوله ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾، فالمَعنى: فَبِأي حَدِيث بعد كتاب اللّه تؤمنون أيها المُشْركونَ، ويجوز أن يكون تَمام الخطاب عِند قَوله ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ثمَّ اسْتَأنف على إضمارِ: (قل)، وإضمارُ لفظ القول في الكلام كثير

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/ 492.
(2) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 210.

كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: 23 - 24]، والمعنى في الآية: فقل لَهُم يارسول الله ﷺ: بِأيِّ حَدِيث بعد ذلك تؤمنون[1]، كما يُحتمَلُ أن يكون الاستئناف بالفاء على طريق الالتفات وتلوين الخطاب[2] ليكون الخطاب موجَّهًا إلى المشركين، ليفيد مع الإنكار شدّة التّوبيخ على كفرِهم واستمرارِهم عليه بعد ظهور الآيات ووضوحِها.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التلاوة والقراءة:

التّلاوة المطلوبة هي التي يُفهَم بـهـا مـعـنـى القرآن

التِّلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعدًا؛ لأنَّ اللفظ مشتقٌّ من: (تَلا) إذا تَبِع، فَهوَ تالٍ أي: تابعٌ، والقراءةُ تكون للكلمة الواحدة ولمجموع الكلمات، فاللّفظ مشتقٌّ من (قرأ) بمعنى جمع الحروف عند القراءة، يقال قرأ فلان اسمه، ولا يقال تلا اسمه، وذلك أنَّ أصل التّلاوة إتباع الشَّيء الشَّيءَ؛ يقال: تلاه إذا تبعه، فتكون التّلاوة في الكلمات يتبع بعضها بعضًا، ولا تكون في الكلمة الواحدة؛ إذ لا يصحّ فيه التُّلوُّ كما أنَّ التّلاوة تختصُّ بكتب الله تعالى المنزّلة، واللّفظ مشعرٌ بأنَّ المتلوَّ متّبَعٌ، ويلزم منه فهمه، فالتّلاوة أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً[3]، وممّا تقدَّم يتبيَّن أنَّه عبَّر بـ: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ دون (نقرؤها عليك) للإيذانِ بأنَّ المرادَ تلاوة القرآن الّذي يُفْهَمُ معناه، وأنَّ هذه الآيات تقتضي اتّباعَها والعمل بها.

---

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 660، والواحدي، التفسير البسيط: 20/ 135، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 184.

(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 331.

(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27، والراغب، المفردات: (تلو).

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧﴾ [الجاثية: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الوعيد الشّديد والعقاب الأكيد لمن لم يؤمن بالقرآن

لمّا بيَّن اللّه تعالى الآياتِ للكفّار وأنكر عليهم أن يؤمنوا بأيِّ حديثٍ بعد القرآن أتبعَه بوعيدٍ عظيمٍ فقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾(1).

وأيضًا لمّا كان لا يبقى على الكفر نوعَ بقاءٍ فضلاً عن الإصرارِ عليه بعد بيان الآياتِ وظهورِها إلا مَنْ يستحقُّ النَّكالَ لمجاهرته بالعناد، قال على وجه الاستنتاج لِما سبقَ مهدداً ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾(2).

وأيضًا لمّا ذكرَ المؤمنين الموقنين العاقلين المنتفعين بالآيات ودلالاتِها وأفهم ذكر هذه الصّفات التّعريض بمن لم ينتفعوا بتلك الآياتِ صرّح في هذه الآية بذكر الّذين لم يؤمنوا بها ولم يعقلوها فقال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾(3).

وأيضًا لمّا ذكر الآيات الدالَّة على وحدانيَّة اللّه تعالى وعلى البعثِ وكانت هذه الآيات تبصرةً للمؤمنين ونافعةً للموقنين ومثبّتةً للعاقلين المؤمنين الموقنين، وكانت من الوضوح بحيث إنَّ من لم يؤمن بها لا يوصَف إلّا أنَّه أفّاك أثيم، بمعنى أنَّ عدم إيمانِه ليس لخلل في الآيات التي هي حقٌّ ونزلت بالحقِّ؛ بل لِما يتّصف به من كونِه كثير الكذب مبالغًا في الإثم قال تعالى موعدًا كلَّ من لم يؤمن بآياته ومبيّنا سبب عدم إيمانِه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيۡلٞ﴾: أصلُ (ويل) يدلُّ على إعلانٍ باصطلاءِ عاقبة مهلكة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 69.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 331.

لعمل أو تصرُّف[1]، فالوَيْلُ: الحُزْن والهَلاك والمشقَّة مِنَ العَذاب[2]، ولم يُسمَعْ له فِعْلٌ من لفظه؛ فلذلك قيل هو اسمُ مصدرٍ[3]، والوَيْلَةُ: الفَضِيْحَةُ والبَلِيَّةُ، والجَمِيْعُ الوَيْلاتُ[4]، ومن قال: ويْلٌ وادٍ في جهنَّم، فإنَّه لم يرد أنَّ ويْلًا في اللُّغة هو موضوع لهذا، وإنَّما أراد من قال اللّه تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا من النّار، وثبت ذلك له[5]، والوَيْلِ في الآيةِ مراد به: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ.

2) ﴿أَفَّاكٍ﴾: أصلُ (أفك) مِن الأفْكِ: وهو القَلْبُ والصَّرْفُ؛ لأنَّ الكذِبَ مَصْروفٌ عن الوَجْهِ الحَقِّ، وكُلُّ قَوْلٍ مَصْروفٍ عن الحَقِّ فهو إفْكٌ[6]، والأفّاكُ: الَّذي يَأفِكُ النّاسَ، أي: يصرفُهم عن الحَقِّ بباطِلِه[7]، الإفْكُ: الكَذِبُ، ورَجُلٌ أفّاكٌ، أي: كَذّابٌ، والمقصود بالأفّاك في الآية: القويُّ الإفْكِ، أي الكذب، وهو أشنعه وأقبحه[8].

3) ﴿أَثِيمٍ﴾: أصلُ (أثم) يدُلُّ على البُطْءِ والتَّأخُّرِ، يُقالُ: ناقةٌ آثمةٌ، أي: مُتأخِّرةٌ، والإثمُ مُشتقٌّ من ذلك، لأنَّ ذا الإثم بطيءٌ عن الخير مُتأخِّرٌ عنه[9]، والإثم: الذَّنب الَّذي يستحقُّ صاحبه العقاب[10]، والأثِيمُ: الكَذّابُ، كالأثوم، وتسميةُ الكَذِبِ إثْمًا كتسمية الإنسان حيوانًا؛ لأنَّه من جُمْلَته، والأثيمُ أيضًا: كثرةُ رُكوبِ الإثْمِ، كالأثيمةِ بالهاءِ[11]، والأثيم في الآية بمعنى كثيرِ الإثمِ، مُتجاوزٍ في الظُّلمِ، وقيل: هو مرتكبُ الإثمِ بقلبِه وجوارحِه[12].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يذكرُ الحقُّ تعالى أحوالَ المشركينَ معَ القرآنِ، ويُبيِّنُ مصيرَهم في الآخرةِ ويَتوعَّدُهم،

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ويل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 576.
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(5) الراغب، المفردات: (ويل).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(7) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(8) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (أفك).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أثم).
(10) الجوهري، الصحاح: (أثم).
(11) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (أثم).
(12) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 147.

فيقولُ: عَذابٌ وهَلاكٌ لكُلِّ كافرٍ كذّابٍ مُفترٍ، مُبالِغ في اقترافِ الآثام، وعُلِمَ بهذا الوَصفِ أنَّ كُلَّ مَن لم تَرُدَّه آياتُ اللّهِ تعالى كان مُبالِغًا في الإثم والإفك؛ فكان له الوَيلُ![1].

هلاكٌ وعذابٌ لكلِّ مُبالغ للكذب دائم عليه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

جاءت جملة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ على طريق الفصل مستأنفةً استئنافًا بيّانيًّا، لتكون جوابَ سؤال اقتضاه الكلام الذي سبقه، فكأنَّه قيل: فما حالُ من لم يؤمن بهذه الآيات مع أنَّها واضحة بيّنة ظاهرة؟ وما سبب عدم إيمانِه؟ فقال تعالى ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

دلالة لفظ ﴿وَيْلٌ﴾:

الويلُ في كلام العرب كلمة تقال للمصائبِ والحزن والشِّدَّةِ ويجمعه معنى الشّر، وهي تستعمل في الدُّعاء على الإنسان بوقوع الشّر عليه، ففيه وعيد بشدّة العذاب[2]، وذهب الطّبري إلى أنَّه اسم وادٍ في جهنَّم بمعنى أنَّه مقرٌّ فيها[3]، ويفيد اللفظ بمقتضى اللغة أنَّه دعاء على كلِّ أفّاكٍ أثيم بالبلاء والشّدَّة.

الدعاء على كلِّ أفّاكٍ أثيم بالبلاء والشّدَّة في النّار

سبب تقديم الويل على بيان الوصف:

في قولِه ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ افتتحت الآية بالدّعاء بالويل قبل بيان وصف من يستحقّونه تعجيلًا لإنذارِ كلِّ أفّاك أثيم وتهديدِه قبل ذكر حالِه[4]، ففيه إنذار عظيم وتهديد بليغ.

بديع الإدماج:

أدمج في الدعاء بالويل في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ بيان

سبب عدم إيمان الكافر هو كونه أفّاكًا أثيمًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 81، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 775.
(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 349، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 81.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 63، والراغب، المفردات: (ويل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 25/ 331.

سبب عدم إيمانِه بتلك الآيات الباهرة الدالَّة على وحدانيَّة اللّه تعالى وعلى أنَّ القرآن منزّل من عنده سبحانه، ليفد أنَّ سبب استحقاقِه الويل هو عدم إيمانِه وأنَّ عدم إيمانِه هو بسبب اتّصافِه بكثرة الكذب والمبالغة في الإثم، فليس السبب في عدم إيمانِه راجعًا إلى حقيقة الآيات ولا إلى قصور فيها بل السّبب هو كونه أفّاكًا أثيمًا.

الغرض من تنكير المسند إليه ﴿وَيۡلٞ﴾:

أفاد تنكير المسند إليه ﴿وَيۡلٞ﴾ التّهويل، بمعنى تهويل الشّر الذي يكون فيه، بحيث كأنَّه يجمع كلَّ أنواع الشّرِّ وأصنافِه، ففيه من معنى الذّم ما فيه، ولمّا دلَّ اللفظ على عموم الذّم صحَّ الابتداء به.

فائدة اللّام في ﴿لِّكُلِّ﴾:

اللام في قوله ﴿لِّكُلِّ﴾ للاختصاص، بمعنى أنَّ الويل مختصٌّ بكلِّ أفّاك أثيم، ففيه ترهيب وترويع لمن يتّصف بذين الوصفين.

الغرض من إضافة لفظ العموم (كُلِّ):

الويل يشمل جميع الأفّاكين

أفاد لفظ العموم (كُلِّ) المضاف إلى ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ شمول كلّ فردٍ متّصفٍ بهذين الوصفين بالدعاء عليه بالويل، ليفيد أنَّ الدّعاء بالويل يشمل جميع الأفّاكين الذين يسمعون آيات اللّه ودعوة الرّسول ﷺ ثمَّ يصرّون على كفرِهم واستكبارِهم، فأفاد لفظ (كُلِّ) أنَّ الدّعاء بالويل يشمل الأفراد والمجموع.

الأثيم أكثر في ممارسة الإثم وارتكابِه من الآثم

دلالة صيغة المبالغة في ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾:

أفادت صيغة المبالغة ﴿أَفَّاكٍ﴾ أنّه كذّابٌ يقع منه الإفك مرارا وأفادت صيغة المبالغة ﴿أَثِيمٖ﴾ أنَّه اعتاد اقتراف الإثم وتمرَّست

نفسه به، حتَّى صار الإثم سجيَّة له، والأثيم أكثر في ممارسة الإثم وارتكابِه من الآثم[1].

مناسبة وصف الأفّاك بالأثيم:

الكذّاب الذي يبالغ بالإثم يصرُّ على التّكذيب ولا يأبه به

جاء لفظ ﴿أَثِيمٍ﴾ صفةً لـ: ﴿أَفَّاكٍ﴾، وسبب مجيء الصّفة هو أنَّه لمّا كان الأفّاك هو الذي يأتي منه الكذب مرارًا بحيث اعتاد عليه وصفه بأنَّه ﴿أَثِيمٍ﴾ للإشعار بأنَّه قد بلغ الغاية في الذّم، فإنَّ الأفّاك إذا كان متّصفًا بالمبالغة في اقتراف الآثام لا يأبه بالتكذيب، وتراه يصرُّ على كذبه وإن ذُكِّرَ ونبِّه، ليفيد أنَّه لا يكذّب بتلك الآيات وبالقرآن إلّا من كان في غاية الذّم في كثرة كذبِه وكثرة اقترافِه للآثام، ويلزم منه أنَّ أعظم الآثام وأقبحها التّكذيب بآيات اللّه تعالى.

مناسبة تعليق الويل بمن يتّصف بالوصفين ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾:

مَنْ كذّب بالقرآن فإنّما كذّب به لأنَّه قد اعتاد الكذب وصار الإثم سجيَّة له

مناسبة مجيء هذين الوصفين الدّلالة على أنَّه لا يكذِّب بهذه الآيات الباهرة الواضحة إلّا من كان كثير الكذب قاصدًا على وجه المبالغة صرف الحقِّ عن وجهه لاعتياده الإثم وتمرّسه فيه وفعله له غاية جهدِه، ليدلَّ على أنَّه لا يأبه لتكذيبِه مع علمِه به[2]، ليفيد الكلامُ أنَّ من كذّب بالقرآن فإنّما كذّب به؛ لأنَّه قد اعتاد الكذب وصار الإثم سجيَّة له.

بلاغة التّذييل في الآية:

الدّعاء بالويل لكلِّ من يجحد آيات القرآن وينكر دعوة الرّسول ﷺ

لمّا جاء الدّعاء بالويل مستغرقًا كلَّ أفّاكٍ أثيم، وأفاد عموم المعنى وكلّيَّتَه كانت الجملة تذييليَّةً لتكون كالمثل في جريانها في الكلام، وفي شمول المعنى بالدّعاء بالويل لكلِّ من يجحد آيات القرآن وينكر دعوة الرّسول ﷺ ويصرُّ على استكبارِه عن الإيمان باللّه وبرسولِه وبالقرآن،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 81.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 69، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 594.

وذكر المفسّرون أنَّ الآية وما بعدها نزلت في النَّضِر بنِ الحارث، وكان يشتري حديث الأعاجم ويُشغلُ به النّاسَ عن استماعِ القرآنِ، وكان إذا سمع آيات القرآن استهزأ بها، لكنّ الآية عامة كما هو مقتضى التّعبير بلفظ العموم (كُلِّ)، فتعمُّ كلَّ مَنْ يدخلُ تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة، ويدخل من نزلت فيه الآيةُ دخولًا أوَّليًّا[1].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 135، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 81، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 141.

﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨﴾ [الجاثية: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لشدّة قبح الأفّاك بيَّن الله صفته

لمّا ذكر الأفّاك الأثيم بيَّن صفتَه وفسّره بقولِه ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ الآيةَ(1).

وأيضًا لمّا قال اللّه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا﴾ وكانت التّلاوة متعلِّقةً بالسّماع، ولما ذكر اللّه تعالى الأفّاك في قوله: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ وكان الأصل في الإفك هو صرفَ الكلام المسموع عن الحقِّ إلى الباطل ناسب أن يذكر من أوصافِه الّتي استحقَّ بها أن يسمَّى أفّاكًا أثيمًا، فقال تعالى ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصِرُّ﴾: أصلُ (صرّ) من الصَّرِّ، وهو: الجَمْعُ والشَّدُّ، فيُقالُ: أصرَّ الحِمارُ أُذُنَيْه، أيْ: نصبهما وعزَمَ على الشَّدِّ، وصَرَرْتُ الصُّرَّةَ: شَدَدْتُها(2)، والإصرار: الإقامةُ على الشَّيءِ ومُلازمتُه والدَّوامُ عليه، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ في الشَّرِّ والذُّنوبِ والآثامِ، يُقالُ: أصَرَّ على الذَّنبِ، يُصِرُّ، إصرارًا، فهو مُصِرٌّ: إذا لم يُقلِعْ عنه(3)، ويُطلَقُ على العَزْمِ والتَّصميم، من قَوْلِهم: أصرَّ على فِعلِه إصرارًا: إذا عَزَم على أن يَمضيَ فيه ولا يَرْجِعَ عنه(4)، والمراد بالإصرارِ في الآية: المقامُ في الذَّنب وعدمُ الانفكاكِ عنه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 69.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النهاية: (صرر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صرر).

2) ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾: أصْلُ (كبر) يدلُّ على الامْتِناعِ وعَدَمِ الانقيادِ، يُقال: تَكَبَّرَ البَعِيرُ: إذا امْتَنَعَ ولم يَنْقَدْ[1]، والكِبْر: التَّعاظُمُ والاتِّصافُ بِالعَظَمَةِ، ويُقال له أيضًا: التَّكَبُّرُ والاستكبارُ، وضِدُّهُ: التَّواضُعُ والتَّصاغُرُ، والمُتَكَبِّرُ: المُتعالي والمُتعاظِمُ[2]، والمراد بالمستكبر في الآية: المُبالغُ في عَدَمِ قَبولِ الحَقِّ؛ تَرَفُّعًا وتَجَبُّرًا، واحتِقار النّاسِ والتَّعاظُم عليهم.

3) ﴿فَبَشِّرْهُ﴾: أصلُ (بشر) يدلُّ على ظُهورِ الشَّيء مع حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهرُ جِلْدِ الإنسانِ؛ وسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لظُهورهم، والبشيرُ: الحَسَنُ الوَجْه، والبَشارَةُ: الجَمالُ[3]، والمُبشِّرُ: المُخبرُ بالبُشرى، والبِشارَةُ: الحادِثُ المُسِرُّ لِمَنْ يُخْبَرُ بِهِ والوعد بالعَطِيَّة[4]، والبُشرى: الخبر الَّذي يُغيِّر البَشَرة من حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكون إلّا بالخبر الأوَّل[5]، والمقصود بالبشارة في الآية: الإخبار بما يسرّ على طريقةِ التَّهكُّم[6].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

إنــــذار شـديد التَّأثير لكلِّ من اسـتـكـبر عـن الحقِّ عند سماع آيات الله

بُيِّن الله سبحانه حال هذا الأفّاك المستحق للويل، فيقول: يسمع هذا الأفّاك الأثيم آيات الله من القرآن الكريم تتلى عليه وتقرأ، ثم لا يلبث بعد سماعها أن يغلبه جهله ويشدّه عناده وكفره، فيعرض عنها ويصرُّ على إنكارها، ويقيم على هذا الكفر ويلازمه مستكبرا عن الإيمان بما سمعه متعظِّمًا في نفسه عن الانقياد للحقّ مثل غير السّامع أصلًا، فبَشِّرْ - يا محمَّدُ - هذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 53.
(5) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 267، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 184.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 332.

الأفّاكَ الأثيمَ المُعرِضَ عن آياتِ اللّه، المُصِرَّ على كُفرِه وباطِلِه: بعَذابٍ موجِعٍ شَديدِ الإيلامِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

تعدُّدُ أوصافِ الأفّاك التي يستحقُّ بها العذاب الأليم

الظّاهر أنَّ جملة ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ نعتٌ آخر للفظ ﴿أَفَّاكٍ﴾[2]، لزيادة الإيضاح والبيان في وصف الأفّاك الأثيم، بمعنى أنَّ هذا الأفّاك متّصف بأنَّه مبالغٌ في ارتكاب الإثم وبأنَّه يسمع آيات اللّه تتلى عليه ثمَّ يصرّ مستكبرًا معاندًا لآيات اللّه، ليفيد الكلامُ تعدّدَ أوصافِه التي يستحقُّ بها العذاب الأليم، وتحتمل أن تكون حالًا من الضّمير المستتر في ﴿أَثِيمٍ﴾، ليفيدَ أنَّ اتّصافَه بكثرة ارتكابه للإثم في حالِ إصرارِه على الاستكبار عن آيات اللّه، فيفيد الحال بيان سبب كونِه أثيمًا، ويحتمل أن تكون الجملة استئنافًا بيانيًّا، لتكون جوابًا عن سؤال تقديره: ما هو وصفُ الأفّاك الأثيم؟ فقيل: ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾، وقد ذكر هذه الأوجهَ الإعرابيّةَ علماءُ إعراب القرآن والمفسّرون[3].

فائدة تعلّق الفعل ﴿يَسۡمَعُ﴾ بالمفعول:

إقامةُ الحجّة على السّامع

تعلّق الفعل ﴿يَسۡمَعُ﴾ بالمفعول ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛للإيذانِ بأنَّه يسمع آيات اللّه حقيقةً لا بالإخبار عنها بالغيب، فالحجّة قائمة عليه.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع في الأفعال (﴿يَسۡمَعُ﴾، ﴿تُتۡلَىٰ﴾، ﴿يُصِرُّ﴾):

عبّر بصيغة المضارع في الأفعال (﴿يَسۡمَعُ﴾، ﴿تُتۡلَىٰ﴾، ﴿يُصِرُّ﴾) للإيذان بتجدّد سماعِه وتلاوةِ آيات اللّه عليه وإصرارِه مستكبرًا

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 76، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 6، ومجمع البحوث، التفسير البسيط: 9/ 876.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 218.

(3) العكبري، التبيان: 2/ 1151، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 350، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 68.

تـجـدّد سـماع الأفّــاك لآيـات الـلـه وتـلاوتـهـا عـلـيـه لايـزيـده إلّا إصـــرارًا على التّكذيب

وتكرار هذه الحالةِ عليه مرَّةً فمرَّة حتَّى صارت وصفًا له، بمعنى أنَّ تجدّد سماعه لآيات اللّه وتجدّد تلاوة آياته عليه لايزيده إلّا استمرارًا على الإصرارِ على التّكذيب والكفر؛ أي إنَّ حالة تجدّد السّماع تحملُه على استمرارِ تكذيب آيات اللّه بتكذيب رسولِ اللّه ﷺ فيما جاء به من القرآن وتكرير اقتراف الإثم، فلا جرمَ أن يكون أفّاكًا أثيمًا، فضلًا عن أنَّ شركَه باللّه تعالى كلَّه إفكٌ فوق إفكٍ وإثمٌ فوقَ إثم، ففيه تقبيح لحالِه وتعجيب منه[1].

فائدة إعادة تركيب ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تقرير قبح حالِ الأفّاك في إصرارِه على الاستكبار عن آيات الله

أعاد ذكر المركّب الإضافي ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل مثلا (يسمع تلك الآيات) أو يسمع (آيات القرآن)؛ لتقرير قبح حالِه في إصرارِه على الاستكبار وعدم الانتفاع منها مع أنَّها آيات اللّه، فالإضافة أفادت أنّها آيات منسوبة إلى اللّه تعالى مختصّة به، وهي آيات صادرةٌ منه تعالى وليس من غيرِه، فهي آياتٌ عظيمة باهرةٌ واضحةٌ دالَّة على ألوهيَّة اللّه ووحدانيَّتِه وصدق رسولِه ﷺ، كما أنَّ في ذكر ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تمهيدًا لتقييدها بجملة الحال.

سرُّ تقييد الفعل بالجملة الحاليّة ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾:

التّعـجـيـب من أمـرِ من يسمع آيــات الـلـه ثم يـصـرّ مستكبرا عنها

قيِّدَ الفعل ﴿يَسۡمَعُ﴾ بالجملة الفعليّة ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ التي هي حال من المفعول به ﴿ءَايَٰتِ﴾[2]، فالحال مقترنة بسماعِه لآيات اللّه، وسرّ تقييد الفعل بالجملة الحاليَّة بيان أنَّه ليس من الصّنف الّذين لا يسمعون آيات اللّه مطلقًا استغناءً بضلالِهم عن هدايته كما قال تعالى﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26]؛ بل هو من الصّنف الّذي يسمع آيات اللّه في حالِ تلاوتِها عليه ولا يؤمن بها استكبارًا عن الإيمان، بمعنى أنَّه عَرَفَ أنَّها آياتُ اللّه واستيقن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 332.

(2) العكبري، التبيان: 2/ 1151، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 68.

صدقَها، فهذه الآيات التي تتلى عليه هي نفسُها التي يتلوها على رسولِه ﷺ بالحقِّ؛ لتفيد الجملة الحاليَّة التّعجيب من أمرِه وتهويل خطرِ فعلِه كما تفيد التّمهيد لتبشيرِه بالعذاب الأليم، وفي التّعبير بلفظ ﴿تُتۡلَىٰ﴾ إشارة إلى أنَّ قراءة الآيات عليه بوصف التّلاوة تستوجب اتّباعها والعمل بها والإقلاع عن الكفرِ والإفكِ والإثم، وليس الإصرار على الاستكبار عن الإيمان بها، كما أنَّ في التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ تنبيهًا إلى أنَّه فهم معناها ومقاصدها.

دلالة التّعبير بالفعل المبنيِّ للمفعول:

الاستكبار على آيات الله لأنها آيات الله

عبّر في الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول للإشارة إلى أنَّه يصرّ على استكباره على الآيات من أيِّ تالٍ كان، فاستكباره من أجلِ أنَّها آيات اللّه وليس من أجل تالٍ معيّن يتلو هذه الآيات.

سرُّ العطف بـ: ﴿ثُمَّ﴾:

من يسمعُ آياتِ الله المتلوّة عليه من المستبعد إصراره على الاستكبار عن الحقِّ

عبّر بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ليفيد الاستبعاد الممزوج بالتّعجيب، ومعنى الاستبعاد الإيذان بأنَّ الفعل الذي يأتي بعدها ممّا يستبعد في العقول والطّباع أن يُقدَم عليه وممّا يُتعجَّب منه بعدَ ثبوت ما قبل (ثمَّ) وحصولِه، بمعنى أنَّ من يسمعُ آياتِ اللّه المتلوَّة عليه عَلَى قوّتها وظهورِها وكونِها حقًّا من المستبعد في العقول السّليمة، وممّا يتعجَّبُ منه إصرارُه على الضّلالة والإعراض واستكبارُه عن الإيمان بها، لتفيد ﴿ثُمَّ﴾ الاستبعادَ والتّعجيبَ من الإصرارِ والاستكبارِ عندَ سماعِ الآياتِ التي حقُّها أنْ تُذعِنَ لها القلوبُ وتخضعَ لها الرِّقابُ، وعلى هذا التّوجيه تكون ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي الرّتبي، بمعنى أنَّه يصرُّ عندَ سماعِ آيات اللّه وليس إصرارُه متأخِّرًا عن سماعِ الآياتِ، وفيها استعارة تبعيَّة[1].

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 417، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 141، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 25/ 332.

ونظير (ثُمَّ) في المعنى المذكور قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①﴾ [الأنعام: 1]، أي إنَّه تعالى لمّا كان خالقا للسّماوات والأرض وجاعل الظّلمات والنّور كان من المستبعد جعل هذه الأصنام مساويةً له في المعبوديَّة(1)، ويلمح من التّعجيب معنى التّوبيخ والتّقبيح لمن يصدر منه الإصرارُ على الإنكار والاستكبار، ليكون تمهيدا مقرَّرًا لتبشيرِه بالعذاب الأليم واستحقاقِه له.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يُصِرُّ﴾:

أكثر ما يستعمل الإصـرارُ في الإقـامـة على الذَّنْب

عبّرَ بلفظ﴿يُصِرُّ﴾ للإشعار بأنَّه يقيم على كفرِه ويلازمُه بشدّة عازما عليه عاقدا بحيث يمتنع عن الإقلاع عنه أو الانفكاك منه(2)، وأكثر ما يستعمل الإصرارُ في الإقامة على الذَّنْب(3).

سرُّ تقييد الفعل ﴿يُصِرُّ﴾ بالحالِ ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾:

اقتران الاستكبار عـن الإيـمـان بـالإصـرار على الكفر يومئ إلى شدّة تلازمهما

لمّا كان الحال قيدًا لعاملِه وكان على معنى اقترانه بصاحبِه أفاد تقييد الفعل ﴿يُصِرُّ﴾ بالحالِ ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ أنَّ استكبارَه مقترن بإصرارِه على الكفر وعدم الانتفاع من آيات اللّه، وأنَّه مستكبر عند إصرارِه، ليفيد اقتران الاستكبار عن الإيمان بالإصرار على الكفر، ليومئَ إلى شدّة تلازمهما، وقد دلَّ الحال وسياق الكلام على متعلَّق الإصرار المحذوف، والمعنى يصرُّ على كفرِه بآياتِ اللّه مستكبرًا عنها(4).

نكتة التّعبير بصيغة ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾:

المـبـالـغـة في التّشنيع على المستكبر

عبّر في الآية بصيغة مستفعل في قولِه ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾؛ لأنَّه أبلغ في الذّمِّ من (متكبِّر)(5)، ففيه تشنيع بليغ على من هذا حالُه، كما أنّ في

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 286، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672، وأنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صرر).

(3) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 2805.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 332.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 417.

مجيء المشتقّ بصيغة استفعل إشارةً إلى أنَّه يجتهد في طلب الكبر وإيجادِه، وأنَّه معجب باستكبارِه

دلالة حذف متعلَّق ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾:

عموم المستكبر في استكباره

حذف متعلَّق الحال المشتقّ ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ليفيد عمومَ استكبارِه، بمعنى أنَّه مستكبر عن الإيمان بآيات اللّه وعن الإيمانِ بالرّسول ﷺ الذي يتلو آيات اللّه ومستكبر على المؤمنين.

التّوجيه النّحوي لجملة ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾:

إصرارُ الأفّاك على الكفر واستكبارُه عن جهلٍ لا عن علمٍ

جاءت جملة ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾ حالًا أخرى من فاعل ﴿يُصِرُّ﴾، بيانًا للحالة التي يكون عليها حين إصرارِه مستكبرًا عن الإيمان، والتّقدير: ثم يصرُّ مستكبرًا مشابِهًا حاله حال من لم يسمعها، وإنّما جاء بالحال الثّانية لتنبيه المخاطبين أنَّ حالَه في وقت إصرارِه مستكبرًا حال من لم ينتفع بتلك الآيات، فإصرارُه واستكباره عن جهلٍ لا عن علم، ليفيد أنَّه لجهلِه وإصرارِه على الكفر مستكبرًا عن الإيمان يستحقُّ التّهكّم عليه والاستهزاء به وإيعاده العذاب الأليم، ويحتمل أن تكون جملة ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾ حالًا من الضمير المستكنِّ في ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾، فتكون الحالُ من الحال المتداخلة؛ لتصوير حالتِه في وقت استكبارِه، بمعنى أنَّه في وقت استكباره مشابه حالَ من لم يسمع آيات اللّه، وهو جاهل بها، كما يجوز أن تكون مستأنفة[1]، لبيان جملة الأمر من سماعه آيات اللّه ثمَّ إصرارِه على الكفر واستكباره عن الإيمان، أي وجملة الأمر أنَّه يصير مشابهًا لغير السّامع لها.

بلاغة التّشبيه:

جاءت الجملة الحاليَّة ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾على طريق التّشبيه، والمشبَّه هو ضمير الشّأن المحذوف والمشبَّه به هو جملة ﴿لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾،

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 239، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 141.

ولمّا كان ضمير الشّأن يشير إلى حالةٍ أو أمرٍ بمثابة الحديث المهول، وكان القصد منه تفخيم هذه الحالة وتهويلها سواء كانت على طريق المدح أو الذمّ أفاد مجيئه أنَّ القصد تشبيه حالٍ عظيمة الخطر شديدة في الذّم وهي حالُ الذي يسمع آيات اللّه تتلى عليه ثمَّ يصرّ على كفرِه مستكبرًا عن الإيمان بحالِ من لم يسمع هذه الآياتِ أصلًا، ووجه الشّبه هو عدم الانتفاع من آيات اللّه التي تتلى عليه، وفائدة التّشبيه الإيذان بأنَّ سمعَه كلا سمعَ، ولهذا نفى السّمع عنه أصلًا، وفي هذا التّشبيه كنايةٌ عن وضوح معاني آيات القرآن وسهولة فهمِها والانتفاع منها بحيث إنَّ من يسمعها يصدِّقُ بما دلَّت عليه، فلولا إصرار الكافرين على كفرِهم واستكبارهم لانتفعوا منها حين سماعِها[1].

لولا إصرارُ الكافرين على كفرِهم واستكبارُهم لانتفعوا منها حين سماعِها

فائدة الفاء في ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

الفاء في قولِه ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ للتّرتّب والسببيَّة، أي إنَّه لمّا أصرّ على كفرِه مستكبرًا كأنَّه لم يسمع آيات اللّه تتلى عليه ترتّب عليه الأمرُ بتبشيرِه بالعذاب الأليم، والمعنى فبشّره على إصرارِه على الكفر بعذابٍ أليم.

ترتيب العذاب الأليم على الإصرار على الكفر

دلالة فعل الأمر في قوله﴿فَبَشِّرۡهُ﴾:

لمّا أمر اللّه تعالى رسوله ﷺ بأن يبشّر الأفّاك الأثيم المصرَّ على الكفر بالعذاب الأليم أفاد بلازمِه الإعلانَ بالوعيد الذي سيصيبه.

إعلام المستكبر بالوعيد

الغرض من الأمر بالتّبشير بالعذاب الأليم:

لمّا كان الأفّاك الأثيم يصرُّ على كفرِه مستكبرًا، وهو مقيم على هذه الحالِ في الدّنيا ناسب أن يكون له جزاءان: أحدهما في الدّنيا وهو تبشيره بما يكون عليه حالُه يوم القيامة من العذاب الأليم والثاني حصول العذاب الأليم له في الآخرة.

تحقّق العذاب للمستكبر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 332.

بلاغة الاستعارة التّهكّميةّ:

الاستهزاء بمن يصرّ على الكفر مستكبرًا عن الإيمان والسّخريَّة منه واحتقاره

في قوله تعالى ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استعير اسم البشارة - التي هي إخبار بما يظهر سرورا وفرحًا في المخبر به - للإنذار الّذي هو ضدُّه بإدخال الإنذار في جنس البشارة، واشتقّ من البشارة فعل الأمر (بَشِّرْ) بمعنى (أنذِرْ) على طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة التّهكّميّة، وهي عناديّة؛ لأنَّ البشارة والإنذار لا يجتمعان[1]، والقرينةُ على إرادة الإنذار الإفصاحُ بلفظ العذاب، والغرض من هذه الاستعارة الاستهزاء بمن يصرّ على الكفر مستكبرًا عن الإيمان والسّخريَّة منه واحتقاره، فإنَّه لمّا كان يسمع آيات الله تتلى وكان مشابهًا في حالِه حال من لم يسمع لإصرارِه على الكفر واستكبارِه دلَّ ذلك على جهلِه، فناسب التّهكّم عليه والسّخريَّة منه، كما أنّ في الاستعارة التّهكّميَّة زيادة في العذاب؛ لأنَّ الكافر حين يسمع كلمة﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ يعتقد أنَّه سيسمع خبراً ساراً، فيأتي ذكر العذاب الأليم ليزيده غمًّا على غمٍّ[2]، والاستعارة التّهكّميَّة أسلوب من أساليب البلاغة يؤتى بها لبيان جهلِ المتهكَّم به واستحقاقِه لهذا التّهكّم بما يفعلُه من القبائح العظيمة الجسيمة.

نكتة وصف العذاب بـ ﴿أَلِيمٍ﴾:

المبالغة في تصوير شدّة الألم

لّما كان مفهوم العذاب يدلُّ على الوجع والألم، وكان الأليم بمعنى الموجع الشّديد الوجع[3] أفاد وصف العذاب بـ: الأليم في قوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ المبالغة في المعنى، أي بعذاب موجعٍ بشدَّة، و﴿أَلِيمٍ﴾ إمّا بمعنى مؤلم فيكون مجازًا عقليًّا؛ لأنَّ المؤلِم هو الذي يعذِّب، وإمّا بمعنى صار ذا ألمٍ.

(1) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 3/ 341.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/ 205.
(3) الراغب، المفردات: (ألم).

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٩﴾ [الجاثية: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

من قبح الأفّاك أن ينتقل من مقام التّكذيب بآيات الله إلى مقام الاستهزاء بها

لمّا بيَّن الله تعالى كفرَ الأفّاك بما يسمعُ من الآياتِ، أتبعه ما هو أعمُّ وأقبحُ منه فقال: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ الآيةَ(1).

وأيضًا لمّا ذكر الله تعالى المقام الأوّل للأفّاك الأثيم وهو أن يبقى مصرًّا على الإنكار والاستكبار أتبعه بذكر المقام الثّاني وهو أن ينتقل من مقام الإصرار والاستكبار إلى مقام أشدّ وهو مقام الاستهزاء بآيات الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ الآيةَ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هُزُوًاۚ﴾: أصلُ (هزأ) يدلُّ على السُّخرية(3)، الهُزْءُ والهُزُؤُ: السُّخْرِيةُ، هُزِئَ بِهِ ومِنْهُ(4)، والاسْتِهْزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ وإن كان قد يُعبَّر به عن تعاطي الهزؤ، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، وإن كان قد يجري مجرى الإجابة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥﴾ [التّوبة: 65](5)، والمرادُ بالهُزْءِ في الآية: السُّخرية والاستهزاء، ومعنى اتِّخاذهمُ الآياتِ هُزُؤًا: أنَّهم يلوكونها بأفواههم لَوْكَ المُستهزئ بالكلامِ(6).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 71.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672.
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (هزأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (هزأ).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هزأ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 332.

2) ﴿مُّهِينٌ﴾: أصلُ (هون) يدلُّ على سُكونٍ أوْ سَكِينَةٍ أوْ ذُلٍّ[1]، الإهانة: الاستخفافُ بالشَّيء واستحقاره، يُقالُ: أهانَهُ واسْتَهانَ بِهِ: إذا اسْتَحْقَرَهُ[2]، والهَوْنُ: الحَقيرُ مِن كلِّ شيءٍ، والهُونُ: الخِزْيُ، ونقيضه: العِزُّ، ويُقال: رَجُلٌ فيه مَهانَةٌ، أيْ: ذُلٌّ وضَعْفٌ[3]، والمراد بالمُهِينِ في الآية: المُذِلُّ، أي: لهم عذابٌ مُشتمِلٌ على ما فيه مذلَّتُهُم.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

العـذاب المهين جـزاء المستهزئ بآيات الله تعالى

يُبيِّن - سبحانه - صفة أخرى من صفات هذا الأفّاك الأثيم فيقول: وإذا عَرَف هذا الكذّابُ الأثيمُ شَيئًا مِن آياتِ القُرآنِ - ولو قليلًا - استَهزأ بها، وسَخِرَ منها، أولئك لهم عَذابٌ يُخزيهم ويُذِلُّهم ويُهينُهم، فعذاب هؤلاء الكُفّار الَّذين كانوا يَستَهزِئونَ بآياتِ اللّهِ لا يُرادُ به إلّا إهانتُهم وخِزيُهم وشِدَّةُ إيلامِهم بأنواعِ العَذاب، وليس فيه تَطهيرٌ ولا تمحيصٌ لهم، بخِلافِ عُصاةِ المُسلمينَ؛ فإنَّهم وإن عُذِّبوا فسيَصيرون إلى الجنَّةِ بَعدَ ذلك العَذابِ؛ فليس المقصودُ بعَذابِهم مُجرَّدَ الإهانةِ؛ بل لِيَؤولوا بَعدَه إلى الرَّحمةِ ودارِ الكرامةِ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

من أقبح أفعال الأفّـاك الأثيـم الاستهزاء بآيات الله

جاءت جملة ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ بطريق الوصل عطفًا على قوله ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ لاشتراكِهما في كونهما فعليّتَيْن، فإنَّ الشّرطية الشّطريّة بمثابة الجملة الفعلية الفعليّة، ولاشتراكِهما كذلك في الجهة الجامعة، وهي اتّحادّهما في ذكر الأوصاف التي وصف بها المخبر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هون).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 76، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 159، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265، والشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 191.

عنه، وهو الأفّاك الأثيم، ففيهما اتّحادٌ في المخبَر عنه كما أنَّ فيهما اتّحادًا في دلالة الإخبار، وهي أنَّه لمّا ذكر مقامَ إصرارِ الأفّاك الأثيم واستكبارِه عن آيات اللّٰه بعدَ سماعِه لها انتقل إلى ذكرِ مقامٍ آخر له أقبح منه وهو مقام الاستهزاء بها[1]، ففيه إخبار عن إفراطِه في التّكذيب ودعوتِه إليه.

دلالة التّعبير بأداة الشّرط (إذا):

العلم ببلوغ آيات الله بريدٌ للعلم بمعانيها

لمّا كانت أداة الشّرط تأتي للإيذان بالجزم بوقوع الشّرط في المستقبل دلَّ على أنَّ الشّرط على معنى القطع بوقوعه، بمعنى تحقيق بلوغ شيءٍ من آيات اللّٰه بحيث يحصل له العلم بأنَّها من آياتِه سبحانه ويحصل له العلم بمعانيها.

دلالة الجملة الشّرطيّة وجوابها:

الأفّاك الأثيم لا يقصد من سماع آيات الله سوى العلم بشيءٍ منها لأجل الاستهزاء بها

لمّا كان التّعبير بأسلوب الشّرط على معنى اقتران الجزاء بالشّرط بمعنى أنَّ حصول الجزاء عند حصول الشّرط، أفاد أنَّ هذا الأفّاك الأثيم يبادر إلى اتّخاذ آيات اللّٰه هزوا بمجرَّد علمِه شيئًا من آيات اللّٰه، ليفيد أنَّه لم يقصد من سماع آيات اللّٰه سوى العلم بشيءٍ منها لأجل الاستهزاء بها.

مناسبة التّعبير بصيغة الفعل الماضي ﴿عَلِمَ﴾:

تقرير علم الأفّاك شيئًا من آيات الله

لمّا كانت أداة الشّرط تفيد الجزم بوقوع الشّرط ناسب مجيء الفعل بصيغة الماضي لكون الماضي أقرب إلى القطع من الفعل الذي يدلُّ على المستقبل، لتقرير أنَّه قد علم من آياتِ اللّٰه شيئًا.

فائدة حرف الجرّ ﴿مِنْ﴾:

﴿مِنْ﴾ في قولِه ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ للتّبعيض، بمعنى وإذا علم من بعض آياتنا شيئًا اتّخذها هزوا، ومن لطائف التّعبير القرآنيّ أنَّه

---
(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672.

الأفّاك وإن سمع آيات الله لكنَّه إنّما علم شيئًا منها لأنَّه يقصد الاستهزاء

عند ذكر السّماع لم يأتِ بالتّبعيض، وعند ذكر العلم بشيءٍ من الآيات عبّر ب﴿مِنۡ﴾ التّبعيضيّة للإشارة إلى أنَّه وإن سمع آيات اللّه لكنَّه إنّما علم شيئًا منها؛ لأنَّه حين كان يسمع آيات اللّه كان سماعه بقصد الاستهزاء بها، وليس من أجلِ قبولها والعمل بها، فيقتصر على العلم ببعضها لتحقيق غرضِه القبيح.

الغرض من إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

مقتضى العلم بشيءٍ من آيات الله أن تكون موضعًا للقبول والعمل بها

أضيف لفظ (آياتِ) إلى نون العظمة في قولِه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ للإيذان بعظمة هذه الآيات وللتّنبيه إلى أنَّها ينبغي أن تعظّم بمقتضى كونها آيات اللّه الذي له مطلق العظمة، فكان مقتضى العلم بشيءٍ من هذه الآيات أن تكون موضعًا للقبول والعمل بها.

الغرض من تنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾:

الأفّاك لَو علم المعاني التي تضمّنتها آيات الله وعرف حقائقها لكان مؤمنا

جاء لفظ ﴿شَيۡـًٔا﴾ نكرةً لإفادة العموم، فإنَّ النَّكرة في سياق الشّرط تفيد العموم، كما أنَّ مدلول اللّفظ يشمل كلَّ شيءٍ متعلّق بآيات اللّه، ليفيد الكلامُ أنَّه إذا علم أيَّ شيءٍ ممّا هو متعلّق بآيات اللّه التي سمعها يتّخذها هزوًا، كما أنَّ التّعبير بلفظ ﴿شَيۡـًٔا﴾ يفيد أنَّ علمَه بنفس الخبر لا المعنى الّذي تضمّنه ذا الخبر، ومعنى الكلام: إذا بلغه من آياتِنا شيئًا وعلم أنَّه من آياتِنا اتّخذها هزوا، فليس المراد عَلِمَ آياتِنا أو عَلِمَ بها، فإنَّه بمعزلٍ عن العلم بآيات اللّه تعالى، ولو علم المعاني التي تضمّنتها آيات اللّه وعرف حقائقها لكان مؤمنا[1].

نكتة التّعبير بلفظ (اتَّخَذَ):

الأفّاك يسعى إلى الاستهزاء بآيات الله من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزو

لمّا كان الاتّخاذ بمعنى أخذ الشّيء وتحصيله بقوّة وكان على معنى تصيير شيءٍ شيئًا بعدَ أن لم يكن فيه[2] عبّر بلفظ (اتَّخَذَ) في قولِه ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ للإشعار بقوّة استهزائِه بآيات اللّه وشدّة

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 81، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).

تمسّكه بهذا الاتّخاذ، كما أفاد اللّفظ أنَّه صيّر آيات اللّه هزوا من غير أن يرى فيها ما يناسب الهزوَ؛ بل مع ما يرى فيها ما ينافي الهزوَ ويوجب القبول بها والاعتقاد بموجبها[1]، ومَعْنَى اتِّخاذِهِمُ الآياتِ هُزُؤًا أنَّهُم يَلوكونَها بِأفْواهِهِم لَوْكَ المُسْتَهْزِئِ بِالكَلام، وإلّا فَإنَّ مُطْلَقَ الِاسْتِهْزاءِ بِالآياتِ لا يَتَوَقَّفُ عَلَى العِلْمِ بِشَيْءٍ مِنْها، ومِنَ الِاسْتِهْزاءِ بِبَعْضِ الآياتِ تَحْرِيفُها عن مَواضِعِها وتَحْمِيلُها غَيْرَ المُرادِ مِنْها عَمْدًا لِلِاسْتِهْزاءِ، كَقَوْلِ أبي جَهلٍ لَمّا سَمِعَ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدُّخان: 43 - 44] تَجاهَلَ بِإظْهارِ أنَّ الزَّقّومَ اسْمٌ لِمَجْموعِ الزُّبْدِ والتَّمْرِ فَقالَ: (زَقّمونا)، وقَوْلُهُ: لَمّا سَمِعَ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدثر: 30]: أنا ألْقاهُم وحْدِي[2].

قصد الأفّاك من سماع الآيات الهزء لا الإنتفاع

دلالة التّعبير في الماضي ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾:

عبّر في جواب الشّرط بصيغة الماضي الدّالّ على تحقّق الوقوع؛ للإشعار بأنّه قصد من سماع الآيات اتّخاذها هزوًا، وأنَّه كان يبيّت النّيّة على هذا، ولم يكن يقصد الانتفاع منها.

الأفّاك الأثيم يتّخذُ الهزءَ بآيةٍ ليكونَ وسيلةً إلى الهُزْء بكلِّ الآيات

دلالة عود الضّمير في ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾:

الظّاهر أنَّ الضّمير في ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾ عائد إلى ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أي الآيات مطلقًا وليس إلى الآيات الّتي علمَها فقط، فيكون التّقدير: اتّخذ آياتِنا - أي القرآن - هزوًا، وسبب عود الضّمير إلى جميع الآيات دون التي علمَها فقط الإشعار بأنَّ هذا الرّجل إذا أحسَّ بشيء من الكلام أنّه من جملة الآيات المنزَّلة على سيّدنا محمَّدٍ ﷺ خاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد، كما أفاد أنَّ الهُزْءَ بشيء من آيات اللّه هُزْءٌ بالجميع، و أفادَ كذلك أنَّ الأفّاك الأثيم يتّخذُ الهزءَ بآيةٍ ليكونَ وسيلةً إلى الهُزْء بكلِّ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 418.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 331.

الآيات، فكأنَّه يقول إذا ثبت الهزء بآية ثبت الهزء بجميع الآيات، ليفيد بمقتضى قبحِه ووهمِه أنَّه إذا ثبَتَ لكم بُطلانُ هذا ثبَتَ بُطلانُ الكلِّ أي يجعله دستورا للباقي فيقول: الكلُّ من هذا القبيل[1]، فيكون وصفه بالأفّاك الأثيم على سبيل الاستحقاق التّامِّ، ولا بدَّ من الإشارةِ إلى أنَّ بعضَ المفسّرين ذهبَ إلى جواز أن يعود الضّمير إلى ﴿شَيْـًٔا﴾، وجاء الضّمير مؤنّثًا مع أنَّ القياسَ تذكيره حينئذٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ بمعنى الآية[2].

دلالة لفظ ﴿هُزُوًاۚ﴾:

لمّا كانت حقيقة الاستهزاء هي تحقير الشّيء والاستهانة به على وجه من شأنه أنّ مَنْ أطّلَعَ عليه غيرَه يتعجَّبُ منه ويضحكُ عبّر بقولِه: ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ إلى أنَّه قصد الاستهزاء بآيات اللّه للسّخريَّة منها لإضحاك النّاس عليها بقصد التّكذيب بها، فجرمُه أشدُّ وأقبح من جرم المكذّب بها من غير استهزاء.

جـرمُ الأفّـاك الّـذي يستهزئُ بآيات الله أشدُّ وأقبح من جرم المكذّب بها من غير استهزاء

نكتة التّعبير بالمصدر ﴿هُزُوًاۚ﴾:

عبّر بصيغة المصدر في قولِه ﴿هُزُوًاۚ﴾ وهو على معنى اسم المفعول؛ لأنَّه المفعول الثّاني للفعل ﴿ٱتَّخَذَهَا﴾، والمعنى اتّخذها مهزوًّا بها، ويحتمل أن يكون المصدر ﴿هُزُوًاۚ﴾ على معنى مكانَ الهزو، أي: اتّخذها موضعَ هزوٍ، وعلى الوجهين فإنَّ نكتة التّعبير بالمصدر هي الإشعار بأنَّه أفرطَ في الاستهزاء بها حتَّى جعلها عين الهزء، استبعادًا منه لأن تكون هذه الآياتِ كلام اللّه تعالى واستخفافًا بها.

لايـزال الأفّـاك يـزيد في إفكِه وإثـمِـه حتَّى يصل إلى الإفراط في الاستـهـزاء بآيات الله

مناسبة الفصل في قولِه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾:

جاءت جملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، فإنَّه لمّا ذكر من يستهزئ بآيات اللّه تعالى ويقصد التّكذيب بها عن

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 350، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 141.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 286، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 594.

من اتّصف بوصف الأفّاك الأثيم حريٌّ به أن يكون له عذاب مهين

طريق سخريّته منها، أثار سؤال سائل عن حالِ من هذا وصفه يوم القيامة؛ لهولِ السّخرية بآيات اللّه وعظيم خطرها، فكأنّه قيل: فما حال المستهزئين بآيات اللّه يوم القيامة؟ فأجاب ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ أيَّ عاقلٍ يسأل هذا السّؤال لتوقّعِه أن يُجازى بالعقاب، ليفيدَ أنَّ من هذا وصفُه حريٌّ به أن يكون له عذاب مهين، وتحتمل جملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أن تكون مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا، لتفيد الانتقال إلى ذكر نتيجة إصرارِهم على كفرِهم واستهزائِهم بآيات اللّه.

نكتة مجيء اسم الإشارة بصيغة الجمع:

وضوح أمرِ الأفّاكين وبيان أوصافِهم التي كانت السّبب في إيعادِهم بالعذاب المهين

عبّر بصيغة الجمع في اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ للإشارة إلى المجموع المفهوم من لفظ (كُلِّ) في قولِه ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾، أي: أولئك الأفّاكون لهم عذاب مهين، ولمّا كان اسم الإشارة يفيد تمييز المشار إليه أكمل تمييز أفاد التّعبير بـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ وضوح أمرهم وكشف أوصافِهم وبيان أنَّها هي السّبب في الجزاء، بمعنى أنَّهم أحرياء بالعذاب المهين بسببِ أوصافِ المشار إليهم، أي: أولئك استحقّوا العذاب المهين بسبب إفكِهم وإثمِهم وإصرارِهم على الكفرِ واستكبارِهم عن الإيمان واستهزائِهم بآيات اللّه تعالى.

الغرض من التّعبير باسم الإشارة بلام البعد:

عبّر بصيغة اسم الإشارة للبعيد في قولِه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ للتّنبيه إلى بعد الأفّاكين عن اللّه تعالى وعن الحقِّ.

فائدة الإخبار عن الاسم بالجملة الاسميّة:

ثبوت العذاب المهين للأفّاكين

جاءت الجملة الاسميّة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ مضمّنة خبرين، فأخبر عن ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بالجملة الاسميّة ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ وجاء الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ خبرًا مقدَّمًا للمبتدأ مع

صفتِه ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وفائدة الإخبار عن المبتدإ بالجملة الاسميَّة ثبوت مضمون جملة ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ للأفّاكين المكذّبين، فالعذاب المهين الّذي يكون لهم يوم القيامة ثابت، فليس بينهم وبينه إلّا انتهاء أجلِهم.

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

الاهتمام بالإخبار عن حصول العذاب المهين للأفّاكين

قدِّم الخبر المسند، وهو الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ المسند إليه ﴿عَذَابٌ﴾ للاهتمام بالإخبار عن حصول العذاب لهم، فكأنَّ العذاب المهين لا يكون إلّا لهم، تقبيحًا للمستهزئ بآيات اللّه ومن يكون معه وإنكارًا لهم على هذا الفعل المهول، كما انَّ في التّقديم رعاية للفاصلة ورؤوس الآي.

فائدة اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاص العذاب المهين بالمستهزئين

اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ للاختصاص، بمعنى أنَّ العذاب المهين مختصٌّ بهم، وهو اختصاص إضافيٌّ، فإنَّ العذاب المهين قد يكون لغيرِهم أيضًا، وإنّما خصّه بهم تهويلًا لأمر المستهزئين بآيات اللّه تعالى

الغرض من تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

فظاعة العذاب وهوله

أفاد التَّنكيرُ في لفظ ﴿عَذَابٌ﴾ تعظيم هذا العذاب وتفخيمَه، فهو عذاب مهين مهول.

نكتة وصف العذاب بـ ﴿مُّهِينٌ﴾:

الجزاء من جنس العمل

لَمّا كان الأفّاكون الآثمون يتّخذون آيات اللّه هزوا بقصد الإهانة والسّخريَّة منها ناسب أن يوصف العذاب بقولِه ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّ المهين فيه إذلال ومهانةٌ وفضيحة، فالجزاء من جنس العمل؛ لِيكون وصف العذاب بالإهانة توفيةً لحقّ استهزائهم بآيات اللّه ﷻ[1]، فإنَّ عذاب

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.

الكفّار الذذين يستهزئون بآيات الله يجمع عليهم إيلامهم بأشدِّ العذاب مع إهانتهم وخزيهم بهذا العذاب، وليس في العذاب الّذي يصيبهم تطهير ولا تمحيص، بخلاف عصاة المسلمين فإنَّهم وإن عذّبوا فيسصيرون إلى الجنَّة بعد ذلك العذاب، فليس المقصود بعذابِهم مجرَّد الإهانة والمهانة؛ بل ليئولوا بعده إلى الرّحمة ودار الكرامة[1].

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 191.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ [الجاثية: 10]

العذاب لاحق للأفّاك الأثيم وإن تأخّر عنه إلى يوم القيامة

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمِا قبلَها:

ثمَّ بيَّن العذاب الّذي يكون لهم يوم القيامة؛ فقال تعالى ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ الآيةَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَآئِهِمۡ﴾: الوراءَ اسم للجهة التي يواريها الشّخص من خلف أو من قدّام[2]، قالَ الزَّجّاجُ: وراءُ يكون خَلْفَ وأمامَ، ومَعْناها ما تَوارَى عَنْك أي: ما اسْتَتَر عَنْك[3]، وقالَ ثَعْلَبٌ: الوَراءُ: الخَلْفُ، ولَكِن إذا كانَ مِمّا تَمُرُّ عَلَيْهِ فَهوَ قُدّام[4]، وذهب ابن عاشور إلى أن الوَراء في قولِه تعالى﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ مُستعمَلٌ في معنى ما ينتظرُه ويَحِلُّ به من بَعْدُ، والمراد به تحقيقُ حُصول العذاب وكونه قريبًا منهم[5].

2) ﴿دُونِ﴾:أصلُ (دون) يدلُّ على كَوْن الشيء منخفضًا في أسفل شي، كما يقال للقاصر عن الشّيء: دون، وكلُّ ما لا يبلغ منزلة شيءٍ فهو دونه، أي: أقلُّ منه، ومنه ثوبٌ دونٌ: رَديء، وإنّما دلَّ (دون) على المقاربة والمداناة فيُقالُ هذا دونَ ذاكَ، أي: هو أقرَبُ منه[6] لأنَّ القرب من جهة سفلٍ، ويُقالُ: دونَك زَيدٌ في المنزلة والقُرْبِ والبُعْدِ[7]، والمقصود بـ ﴿دُونِ﴾ في الآية: كلُّ ما هو أقلُّ رتبة من اللّه العليِّ الواحد الأحد، بمعنى أنَّ كلَّ ما سوى اللّه دونه.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 71.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 287.
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ورأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ورأ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 210، و25/ 333.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دون).

3) ﴿أَوۡلِيَآءَۘ﴾: أصلُ (ولي) يدُلُّ على قُرْبٍ، من ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تباعد بعد ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، وجلسَ ممّا يليني، أي يُقاربُني، ويُقال: "كُلْ مِمّا يَليكَ"، أي ممّا يُقاربك[1]، والوَليُّ: المَطَرُ يجيءُ بعد الوَسْمِيِّ، سُمِّيَ بذلك لأنَّه يلي الوَسْمِيَّ[2]، فالوليُّ: الشَّيء القريب التّالي دون فاصل مادِّيٍّ أو زمانيٍّ، فهو ليس التصاقًا[3]، قالَ ابنُ الأثير: وكأنَّ الوِلاية تُشعر بالتَّدْبير والقُدرة والفِعل، وما لَم يجتمع ذلك فيها لم يَنطلق عليهِ اسمُ الوالِي[4]، والمراد بالوَليِّ في الآية: النّاصرُ والكافي.

المَعنى الإجْماليُّ:

فِقدانُ الفِداءِ والوليِّ يوم القيامة يَزيدُ العذابَ شِدَّةً، ويُكسِبُ المُعاقَبَ إهانةً

يُبيِّن اللّهُ تعالى مصيرَ هؤلاء الكفار في الآخرةِ ويَتوعَّدُهم، فيقول: ومن وراء ما هم فيه من التَّعزُّز بالدُّنيا والتَّكبُّر جهنَّم، والمراد أنَّها من قدامهم؛ لأنَّهم مُتوجِّهون إليها، ولا يَدفَعُ عن هؤلاء الكُفّار عذابَ جَهنَّمَ أيُّ شَيءٍ - ولو قليلًا - ممّا كَسَبوه في الدُّنيا مِن الأموالِ أو الأولادِ، ولا يَدفَعُ عنهم آلهتُهم الَّتي عَبَدوها في الدُّنيا مِن دونِ اللّه، أو رُؤساؤُهم الَّذين أطاعوهم في الكُفرِ باللّه، ولهم عَذابٌ كبيرٌ شَديدٌ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

بيان العذاب للأفّاكين المستهزئين

جاءت جملة ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّه في مقام البيان والتّفسير لقولِه: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، وفائدة البيان

(1) الجوهري، الصحاح: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(4) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 77، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 159، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 145.

هي الإخبار عن وقوع العذاب لهم يوم القيامة والإيذان بأنَّهم غافلون عنه.

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

تحقُّق معاناتهم عذاب جهنّم

قدِّمَ المسند ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ على المسند إليه ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ للاهتمام والعناية بالمقدَّم، ففيه تنبيه لهم بأنَّ جهنَّم تنتظرهم وهي قريبة منهم، وفي التّقديم كذلك تحقيق لحصول العذاب لهم.

بلاغة الاستعارة بين المكنيَّة والتّمثيليَّة:

من بلاغة القرآن توسّع المعاني وتكثيرها مع سلامة النّظم وحسن تأليفه

لمّا كان الوراء من معاني الأضداد؛ لأنَّه اسم للجهة التي يواريها الشّخص[1] كان قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى من قدّامِهم؛ لأنَّهم لمّا كانوا متوجّهين إلى جهنَّم صارت قدّامهم، فالمتوجّه إلى شيءٍ إنّما يتوجّه إلى ما هو قدّامه، فشبِّه توجّههم إلى جهنَّم بالمتوجّه إلى أمرٍ مقصودٍ قدّامه، ثمَّ حذف المشبَّه به وذكر المشبَّه وشيءٌ من لوازم المشبَّه به وهو الوراء بمعنى قدّام؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة المكنيَّة، ويحتمل أن يكون الوراء بمعنى الخلف، ويكون الكلام على الاستعارة أيضًا، والمعنى ومن خلفِهم جهنَّم، بمعنى بعدَ آجالِهم جهنَّم، فالخلف هنا بمعنى بعدَ الشّيءِ؛ لأنَّ ما بعد الشّيء في الزّمان هو وراءه وخلفه، ولمّا كان حصولهم في جهنَّم يتحقّق بعد انقضاء آجالِهم جعلت كأنَّها خلفَهم[2]، أو يكون المعنى: إنَّ جهنَّم وإحراقها لهم يأتي بعد كفرهم وأفعالهم[3]، ففيه معنى التّهديد، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ على طريق الاستعارة التّمثيليَّة لتحقيق حصول جهنَّم لهم وكونها قريبةً منهم معرضين عن الالتفات إليها والاشتغال عمّا ينجيهم

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 13/ 350، والزّمخشري، الكشاف: 4/ 287.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 418 - 419.
(3) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 81.

منها مقبلون على الدّنيا والانهماك في شهواتها[1]، فهم غافلون عن اقترابِها مثل غفلة المرء من عدوٍّ يتبعه من ورائِه ليأخذه فإذا نظر إلى أمامِه لم يجد شيئًا فحسب نفسه آمنًا، ففي الوراء استعارة تمثيليَّة لاقترابِهم من جهنَّم وغفلتِهم عنها وأنَّها ستباغتهم من حيث لا ينفع النّدم[2] معرضون عن الالتفات إليها والاشتغال عما ينجيهم منها مقبلون على الدنيا والانهماك في شهواتها، ويمكن أن يقال: إنَّ التّعبير بقولِه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ يفيد ملاحقتَها لهم ليكون كناية عن عدم فرارِهم منها وأنَّها ستأتي عليهم وإن تأخّر الوقت، ولهذا جاءت الجملة بصيغة الجملة الاسميَّة الدّالّة على الثّبوت، فلحاق النّار بهم ثابت لا مفرَّ منه، والنّار خلفهم كيفما ذهبوا وكيفما تحرّكوا، ويتبعُ الكلامَ غرضٌ آخرُ هو التّهديد والوعيد، فمن يسمع هذا الكلام يتملّكه الخوفُ الشّديدُ، عسى أن يتّعظ ويرتدع عن الكفر والضّلال.

فائدة ﴿مِّن﴾:

بداية الغفلة عن الله وآياته هي بداية السّير إلى العذاب

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾ ابتدائيَّة، تفيد أنَّ حصول عذاب جهنَّم لهم يبتدئ من وقت توجّههم إليها، أو من وقت انقضاء آجالِهم، أو يكون من وقت غفلتِهم عنها، فالمعنى على حسب احتمالات الاستعارة المتقدِّمة.

الغرض من الإضافة في ﴿وَرَآئِهِمۡ﴾:

الإضافة في قولِه: ﴿وَرَآئِهِمۡ﴾ على معنى الاختصاص، أي: اختصاص عذاب جهنّم بهم، بمعنى: (مِن وراء هؤلاء الّذين أوعدهمُ اللّه بالعذابِ المهينِ جهنَّمُ).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 333.

إيثار التّعبير بـ ﴿جَهَنَّمُۖ﴾:

الإشعار بشدّة النّار وبعد قعرها

لمّا كان لفظ ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ يدلُّ على بعدِ القعرِ أوثر التّعبير بلفظ ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ إشعارًا بعظم العذاب وشدّته ونزولِهم في قعر النّار.

مناسبة الوصل في قولِه: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم﴾:

اجتماع العذاب النّفسيّ والجسديّ على الأفّاكين

لمّا كان نفي الإغناء عنهم يوم القيامة بمعنى فَقْدِ ما كسبوا ممّا كانوا يتوهّمون غناهم به من المال والجاه والولد عن العذاب، وكان هذا نوعًا من العذاب المهين[1] لأنَّه يدلُّ على الذِّلّة والمهانة، عطف قوله: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ على ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ من باب عطف العذاب النّفسيّ على العذاب الجسديّ؛ ليفيد اجتماع صنوف العذاب على الأفّاكين المستهزئين يوم القيامة.

دلالة حرف النّفي (لا):

الأفّاكون يوم القيامة يكونون في حال الّذي سقط في يديه ندامة وحسرة

عبّر بـ(لا) الّتي تفيد نفي المستقبل بقرينة السّياق للدّلالة على نفي أن يغني عنهم يوم القيامة ما كسبوا في الدّنيا ولمّا كانت صيغة النّفي بـ(لا يفعل) تقال في نفي (ليفعلَنَّ)[2] على سبيل التّأكيد والتّحقيق، أي لنفي ما هو مؤكّد عند الآخر أفاد أنَّ التّعبير بـ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ دالٌّ على أنّهم كانوا بمثابة المتأكّدين من أنَّ ما كسبوه يغني عنهم كلَّ شيءٍ فيه ضرٌّ أو أذى، فكأنّهم في قرارةٍ أنفسِهم كانوا يقولون ليغنيَنَّ عنّا ما كسبنا، فجاء قولِه: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ في معرضِ الرّدِّ على ماتوهّموه من يقينهم في الإغناء، وللإشعار بأنَّهم سقط في أيديهم ندامةً وحسرةً على ما فاتِهم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يُغۡنِي﴾، وتعديته بـ(عن):

نفي كفاية ماتوهموا أنّه يغنيهم عن العذاب

عبّر بلفظ تغني لِما يدلُّ عليه الفعل من معنى الكفاية، ولمّا تعدّى الفعل بـــ (عن) ضمّن معنى آخر هو الدّفع، وعبّر بـــ ﴿وَلَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 333.

(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسامرائي، معاني النّحو: 4/ 215.

﴿يُغۡنِي﴾ دون لا يكفي أو لايدفع لتقرير جهلِهم في تيقّنهم أنَّ ما كسبوه سينفعهم ويدفع عنهم الضّرَّ فلمّا قال: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ أفاد الرّدّ على ما توهّموه من اليقين في الإغناء، كما أنَّ في نفي إغناء ما توهّموا أنَّه يغنيهم إيماءً إلى أنَّهم سيندمون حين لا ينفع النّدم، ففيه معنى التّنديم والتّبكيت، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ [آل عمران: 10].

دلالة ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ و﴿مَا ٱتَّخَذُواْ﴾:

لايغني أيُّ مالٍ وولد عن الكافرين يوم القيامة كما لا يغني أيُّ وليٍّ اتّخذوه في الدّنيا

(ما) في الموضعين في قولِه: ﴿مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ و﴿مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ اسم موصول بمعنى الّذي[1]، وعبّر بـ(ما) لما يفيده اللّفظ من معنى العموم، بقرينة حذف العائد في ﴿كَسَبُواْ﴾ و﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، والتّقدير: ما كسبوه وما اتّخذوه، فيشمل كلَّ شيءٍ كسبوه، فيدخل فيه الأموال والأولاد دخولًا أوّليًّا كما يشمل كلَّ شيء اتّخذوه من دون اللّه أولياء، ويحتمل أن تكون (ما) في الموضعين والتّقدير: ولا يغني عنهم كسبُهم شيئًا ولا اتّخاذهم، فيكون المقصود ذمَّ فعلِهم ونفي إغنائِه عنهم.

مناسبة التّعبير بالموصول وصلتِه في ﴿مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾:

الكسب الّذي يورث صاحبه الاستهزاء بآيات اللّه وبالٌ على صاحبه

على القول بأنَّ ﴿مَّا﴾ اسم موصول، وهو الّذي استظهره البيضاويّ وغيره، يكون التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ لغرض تحقير ما حصَّلوا من الأمور التي أفادتهم العزَّ الذي أورثهم الاستهزاء بآيات اللّه تعالى.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿كَسَبُواْ﴾:

لمّا كان الكسب يستعمل فيما يكون فيه اجتلاب نفعٍ أو تحصيل

(1) العكبري، التبيان: 2/ 1151، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 229، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 419، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.

حظٍّ[1] ناسب التّعبير بالكسب في الآية دون أن يقال: (ولا يغني عنهم ما عملوا) للإشارة إلى أنّهم كانوا بمثابة المتيقّنين أنَّ ما عندهم من المال والولد والجاه نافع لهم ويغنيهم من الضرِّ والأذى، فكان اقتران لفظ ﴿كَسَبُواْ﴾ بالإغناء هو المناسب في السّياق، فلكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقام.

لكلِّ كلمةٍ في القرآن مع صاحبتِها مقام

دلالة التّعبير بالماضي ﴿كَسَبُواْ﴾:

عبّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿كَسَبُواْ﴾ لتقرير أنّهم كانوا على يقين من أنَّ ما كسبوه يغنيهم عن اتّباع الحقّ ويدفع عنهم.

التّوجيه الإعرابيّ للفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

يحتمل أن يكون لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ مفعولًا به ثانيا لفعل ﴿يُغۡنِي﴾ ويحتمل أن يكون نائبًا عن المفعول المطلق،[2]، وتوجيه الإعراب على أنَّه مفعول به ثانٍ أن يكون المعنى على العموم، وبيانه أنّه لمّا كان لفظ (شيء) أعمَّ الموجودات، وجاء ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياق النّفي في قولِه: ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا﴾ أفادَ أنَّ المعنى ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئًا من عذاب اللّه، ليدلَّ على نفي إغناء أيِّ شيءٍ عنهم ممّا كسبوه قليلًا أو كثيرا صغيرا أو كبيرًا، وعلى وجه كون ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نائبًا عن المفعول المطلق فالتّقدير: ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئًا من الإغناء، ليكون تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾ دالًا على التّحقير والتّقليل، بمعنى لا يدفع عنهم شيئًا من الإغناء وإن كان قليلًا.

أيُّ شيءٍ كسبوه لايغني عنهم من الله شيئًا

فائدة العطف:

أفاد الواو في قولِه: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ عطف ﴿مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ على ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ ليكون المعنى: ولا يغني عنهم ما

عدم إغناء كسبهم وما اتّخذوه أولياء من دون الله

(1) الراغب، المفردات: (كسب).

(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 587، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.

اتّخذوا من دون اللّه شيئًا، ونكتة العطف بالواو اجتماع المعطوف والمعطوف عليه في نفي الإغناء.

نكتة تكرار (لا):

سواء أجتمع ما كسبه الأفّاكون ومعبوداتهم أم انفرد كلُّ واحد عـن الآخــر فلا تغني عنهم من العذاب شيئًا

كرّر حرف النّفي (لا) في قولِه ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ للإيذان بنفي إغناء كلِّ واحدٍ من المعطوف والمعطوف عليه على سبيل الجمع بينهما وعلى سبيل انفراد كلٍّ واحدٍ منهما عن الآخر، بمعنى أنَّه لو اجتمع ما كسبوا ومعبوداتهم فلا تغني عنهم من العذاب شيئًا، كما أنَّه لا يغني كلٌّ واحدٍ منهما في حالِ انفراده، ولو لم يكرّر حرف النّفي (لا) لاحتمل أن يكون نفي الإغناء على كلِّ حالٍ وأن يكون على سبيل اجتماعِهما، فلمّا تكرّر مع المعطوف أفاد نفي الإغناء على كلِّ حال[1]، أي سواء اجتمع المعطوفان أو انفردا، كما أنَّ توسيط حرف النّفي بين المعطوفين ينبئ أنَّ عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد، وهو أمر ظاهرٌ قطعاً، وإنّما جيء به على سبيل التّرقّي في النّفي بناءً على زعم الكافرين الفاسد في انتفاعِهم بمعبوداتِهم، حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم[2].

مناسبة التّعبير بالموصول وصلتِه في ﴿مَا ٱتَّخَذُواْ﴾:

مـن اتّـخـذ من دون أولياء لم يغنوا عنه من العذاب

عبّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ للإيماء إلى سبب الحكم، بمعنى أنَّ سبب عدم إغناء معبوداتِهم عنهم واستحقاقهم العذاب هو أنَّهم اتّخذوا من دون اللّه أولياء.

نكتة التّعبير بـ: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

شـدّة حرصهم على معبوداتهم الباطلة

عبّر بلفظ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ليفيد شدّة تمسّكهم بمعبوداتِهم واجتهادِهم في حوزِها وتحصيلِها لتكون أولياء لهم من دون اللّه.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 322، وابن القيم، بدائع الفوائد: 2/ 34.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 303.

الغرض من تقديم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

قدّم الجارّ والمجرور ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾ تنبيهًا إلى الاعتناء ببيانِ سبب كفرِهم باللّه، وفي التّقديم معنى التّخصيص، ليفيد بطريق مفهوم المخالفة أنَّهم لو اتّخذوا اللّه تعالى وحده وليًّا لأغناهم من العذاب يوم القيامة.

من يتّخذ الله تـعـالـى وحـده ولـيًّا سيغنيه من العذاب يوم القيامة

فائدة ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِه ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيانيَّة، بمعنى أنَّها بيان للإبهام المضمّن في الاسم الموصول ﴿مَا﴾.

بيـان المبـهـم في الاسم الموصول

نكتة التّعبير بالظّرف ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾:

عبّر بالظّرف ﴿دُونِ﴾ في قولِه ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ الّذي هو بمعنى من غير اللّه، ونكتة إيثار لفظ ﴿دُونِ﴾ الإشعار بأنَّ كلَّ ما سوى اللّه هو دونَه وأقلُّ من مرتبة الألوهيّة، ليفيد أنَّ كلَّ ما سوى اللّه هو عبد له سبحانه، وأنَّ الألوهيَّة للّه الواحد الأحد.

كلُّ ما سوى الله هـو دونَـه وهـو عبد له

الغرض من الإضافة في قولِه ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الإضافة في قولِه: ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ على معنى الاختصاص، لتفيد أنَّ كلَّ ما سوى اللّه لا يغني عنهم شيئًا ولايصلح أن يكون وليًّا يعبدُ.

ألا كـلُّ ماخلا اللهَ باطلُ

الغرض من تنكير ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾:

لَمّا كان المراد من لفظ ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾ المعبودات التي يشرك بها الكافرون في عبادتِهم وتشمل الأصنام وغيرَها كان الغرض من تنكير لفظ ﴿أَوۡلِيَآءَۖ﴾ التّحقير، بمعنى تحقير كلِّ معبود من دون اللّه تعالى.

كلُّ معبود سوى الله باطلٌ لأنَّه دون الـلـه في الألوهيّة

فائدة الواو في ﴿وَلَهُمۡ﴾:

الواو في قولِه ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حاليَّة، أي: والحال مع ما ذكر لهم عذاب عظيم، ليفيد أنَّه مع إيعادِهم بجهنَّم وعدم إغناء ما كسبوه من الأموال والأولاد ولا وماعبدوه من دون اللّه فإنَّ لهم عذابًا

اجتماع أنواع العذاب يوم القيامة على الأفّاكين المستكبرين عن الإيمان بالله ورسوله ﷺ

عظيمًا فيما وراءَهم من جهنَّم(1)، وتحتمل أن تكون الواو عاطفة، لتفيد عطف العذاب على العذاب مع الاختلاف في الوصف، بمعنى اجتماع أكثر من عذاب واحدٍ عليهم.

فائدة اللام:

اختصاص العذاب بهم لقبح فعلهم

اللّام في (لَهُم) للاختصاص، لتفيد اختصاص العذاب العظيم بهم، وهو اختصاص إضافيٌّ، فإنَّ العذاب العظيم قد يكون لغيرِهم أيضًا، وإنّما خصّه بهم لشناعة فعلِهم وقبح عملِهم.

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

الاهتمام في بيان استحقاقهم للعذاب

قدَّم المسند على المسند إليه في قوله ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ للاهتمام بالإخبار عن وقوع العذاب عليهم وحصولِه لهم بتعجيل ذكرهم، فكأنَّ العذاب العظيم لا يكون إلّا لهم وهو مختصٌّ بهم لعظيم جرمِهم، كما أنَّ في التّقديم بيانًا لاستحقاقِهم العذاب العظيم بسبب كفرِهم وشركِهم بالله تعالى، كما أنّ في تقديم المسند رعايةً للفاصلة والمناسبةَ الصّوتيَّة لرؤوس الآي.

فائدة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

تهويل العذاب لهَوْل كفرهم

تنكير المبتدأ في قوله ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ يفيد تفخيم العذاب وتعظيمه وقد اقترن به الوصف ﴿عَظِيمٌ﴾ الذي يدلُّ على هذا المعنى، فجاء تهويل العذاب لهَوْل كفرهم.

سر وصف العذاب بـ: ﴿عَظِيمٌ﴾:

العذاب العظيم هو لا يقدر قدرُه ولا يتحمّله أحدٌ

وصف العذاب بأنَّه ﴿عَظِيمٌ﴾ لإفادة أنَّ لهم عذابا غير العذاب المهين الّذي تقدَّم ذكره، أي: إنَّ لهم عذابًا آخر لايقدر قدرُه ولا يتحمّلونه، ولفظ ﴿عَظِيمٌ﴾ مستعار لعدم التّحمّل، فإنَّ العظم من خواصِّ الأجسام وفيما عدا الأجسام هو مستعار(2)، وسرُّ وصف

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 69.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 419، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 334.

العذاب بالعظيم هو أنَّهم لمّا كانوا يعظّمون ما كسبوه في الدّنيا وما كانوا يتّخذونه من الأصنام وأنواع المعبودات ناسب وصف العذاب بالعظيم ليكون توفيةً لحقِّهم، وقد يقال: أخبر في الآية السّابقة أنَّ الكافرين لهم عذاب أليم، فما فائدة قولِه بعدَه: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، والجواب هو أنَّ كون العذاب مهينًا يدلُّ على حصول الإهانة مع العذاب وأمّا كونه عظيمًا فيدلُّ على كونِه بالغًا أقصى الغيايات في كونِه مؤلمًا بحيث لا يتحمّلونه[1]، فيكون مقابل كلِّ فعلٍ كانَ منهم نوعًا من العذابِ غير النَّوعِ الآخرِ، وبصفةٍ غيرِ الصِّفةِ الأخرى[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 218.

﴿هَٰذَا هُدًىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾ [الجاثية: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـوقـايـة من الـعـذاب في أن يكون القرآن هو الهادي

لَمّا أخبر عمّن أعرضَ عن الآيات بما هو أجلُّ موعظةٍ وأردعُ زاجرٍ عن الضَّلالِ، قال مشيراً إلى ما افتتح به الكلام من المتلوِّ الّذي هذا منه ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ الآيةَ[1]، ليفيد أنَّ الهدى قريب منهم حاضر بين أيديهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِّجۡزٍ﴾: أصلُ (رجز) يدلُّ على الاضطرابِ والمَيْلِ، يُقال: تَرَجَّزَ الرَّجُلُ: إذا مالَ وتَحَرَّكَ تَحَرُّكاً بَطيئاً[2]، والرِّجْزُ - بِكَسْرِ الرّاءِ وضمِّها -: العَذابُ، وقيل: هو العَمَلُ الّذي يُؤَدّي إلى العَذابِ[3]، ورِجْزُ الشَّيْطانِ: وساوِسُهُ، ويأتي الرِّجْزُ والرُّجْزُ بمعنى الصَّنَمِ والوَثَنِ، وقيل: عِبادَةُ الأوثانِ، وقيل: هو الشِّرْكُ مُطْلَقاً[4]، ومن معانيه أيضًا: الإثْمُ، والقَذَرُ، والرِّجْسُ[5]، والمقصود بالرِّجْزِ في الآية: أشَدُّ العذابِ[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

القرآن الكريم هـدًى للبشريَّة من الضَّلالة

يختم الحقُّ تعالى آيات الوعيد مبيِّنًا سبحانه أنَّ هذا القُرآنَ يُبَيِّنُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَدُلُّ مَن اتَّبَعه إلى الصِّراطِ المُستَقيم، والَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ الدّالَّةِ على الحَقِّ، فلم يُؤمِنوا ويَعمَلوا بها: لهم عَذابٌ مِن جنسِ العذابِ الموجِعِ شَديدِ الإيلامِ[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 73.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجز).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رجز).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجز).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجز).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 335.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 78، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 159، و160، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

جاءت جملة ﴿هَٰذَا هُدًىۖ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها استئناف ابتدائيٌّ[1]، فانتقل بالكلام من وصف القرآن في ذاتِه بأنَّه منزَّل من عند اللّه وأنَّه من آيات اللّه الباهرة المعجزة إلى وصفِه بأفضل صفاتِه بأنَّه هدى[2]؛ ليومئَ إلى التّعجيب من حالِ الّذين يكفرون بآيات اللّه وهي هدًى لهم.

التّعجيب من حالِ الّذين يكفرون بآيات الله وهي هدًى لهم

دلالة اسم الإشارة هذا:

اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يشير إلى القرآن بقرينة العطف في قولِه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ فإنَّ آياتِ ربِّهم هي القرآن.

عبّر باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ لتمييز المشار إليه - وهو القرآن - أكمل تمييز، فهو كالشّيء المشاهد؛ لأنّه في حال النّزول والتّلاوة، ولِأَنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنْ أَوْصافِهِ مِنْ قَوْلِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ إلَى آخِرِهِ ما صَيَّرَهُ مُتَمَيِّزًا شَخْصًا بِحُسْنِ الإشارَةِ إلَيْهِ[3]، وجيء باسم الإشارة للقريب للإشعار بقربِه من المخاطبين؛ لأنَّه متلوٌّ عليهم، ولمّا أخبر عنه بأنّه هدى أفاد قربهم من الهدى؛ ليفيد أنَّهم بجهلِهم وعنادِهم تركوا الهدى القريب منهم إلى الكفر والضّلال.

من عجيب أمر الكافرين أن يتركوا الهدى القريب منهم إلى الضّلال البعيد

فائدة الإخبار بالمصدر ﴿هُدًىۖ﴾ دون اسم الفاعل:

أخبر عن ﴿هَٰذَا﴾ المشار به إلى القرآن بالمصدر ﴿هُدًىۖ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن يخبر باسم الفاعل بأن يقال: هذا هادٍ، ولكن عدل عنه إلى المصدر للمبالغة، فإنَّه لتضمُّنه كلَّ أسباب الهدى في

لتضمّن القرآن كلَّ أسباب الهدى في جميع جهاتِه كان الكامل في الهداية

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 7.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 334.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 334.

جميع جهاتِه كان الكامل في الهداية فكأنَّه هو الهداية نفسُها، ولمّا كان القرآن هدىً أفاد أنَّه يهدي من اتّبعه وعمل به إلى الحقِّ وإلى صراط مستقيم.

الغرض من تنكير الخبر ﴿هُدًى﴾:

كمال القرآن في هدايته

جاء الخبر نكرة ليفيد التّعظيم والكمال، والمعنى هذا القرآن كامل في الهداية، كما تقول: زيد رجل، أي: كاملٌ في الرُّجوليَّة[1].

مناسبة الوصل بالواو:

الّذين كفروا بآيات ربِّهم قد ضلّوا عن الهدى

جاء قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بطريق الوصل بالواو لاشتراك المعطوف والمعطوف عليه في كونِهما جملتين اسميّتين وفي الجهة الجامعة، وبيانها أنَّه لمّا ذكر أنَّ هذا القرآن هدى، دلَّ على أنَّه يهدي من الضّلال، ليفيد بلازمِه أنَّ الّذين كفروا بآيات ربِّهم قد ضلّوا عن الهدى، فبين المعطوف والمعطوف عليه تضادٌّ ظاهر، ليكون ما بينهما من الاشتراك من قبيل الجامع الوهميّ، ومن مناسبات الوصل كذلك أنَّ القرآن من جملة آيات اللّه وأنَّه مذكّرٌ بها، فالّذين كفروا بآيات اللّه كفروا بالقرآن الّذي هو هدى كفروا بالقرآن الّذي هو مبيّن لآيات اللّه[2].

مناسبة التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

الكفر بآياتِ ربِّ العالمين هو سبب الإيعادِ بعذاب من رجز أليم

عبّر بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ للإيذانِ بوجه بناء الخبر وسببه، بمعنى أنَّ كفرَهم بآياتِ ربِّهم هو سبب إيعادِهم بعذاب من رجز أليم، فإنَه لمّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أومأ إلى أنَّ الخبر المبنيِّ عليه فيه إيعادٌ بالعقاب، كما يقال: الّذين آمنوا لهم درجات النّعيم والّذين كفروا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 672، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 300.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 334.

لهم دركات الجحيم، كما أنَّ في ذكر الصّلة توجيهًا لذهن السّامع إلى ما سيخبر به منتظرًا وروده عليه، فيأخذ منه مكانَه إذا ورد؛ ليفيد تقريرَ المعنى وتثبيتَه في الذّهن، وفي ذكر الصّلة تمهيدٌ لتسجيل الكفر عليهم بآيات ربِّهم كما سيأتي[1].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

مقتضى كون القرآن هدى أن يقابله النّاس بالإيمان لا بالكفر

استُحضر الكفّار في هذا المقام بعنوان الكفر في قولِه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دون عنوانَي الإصرار والاستكبار اللذين استُحضِروا بهما في قولِه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ لأنَّ الغرض هنا النّعيُ عليهم لإهمالِهم الانتفاع بالقرآن الذي هو هدى، فهو النّعمة العظمى التي أنزلها اللّه عليهم وعلى جميع العباد، فكان مقتضى كونِه هدى أن يقابلوا آيات اللّه بالإيمان لا بالكفر، لكنَّهم قابلوها بالكفران عوضًا عن الشّكر[2]، ولهذه المناسبة جاء الفعل بصيغة الماضي، للإيذان بتحقّق وقوع كفرِهم.

مناسبة المقابلة بين الهدى والكفر:

من بديع المقابلة في القرآن أن يأتي الكلام بذكر الشّيء وما يكون مآلَ مقابلِه

لمّا ذكر الهدى قابله بالّذين كفروا، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ لتكون المقابلة من باب ذكر الشّيء وما يكون مآلَ مقابلِه ونتيجة له، فحذف من الأوّل ما يقابل الكفر وهو الإيمان، وحذف من الثّاني ما يقابل الهدى وهو الضّلال، فكأنَّه وصف المهتدي بالإيمان والكافر بالضّلال، وبيَّن أنَّ القرآن هدى من الضّلالة، كما أنَّه لمّا أوعد الكافرين الّذين ضلّوا عن الهدى بكفرِهم بآيات ربِّهم بعذاب من رجزٍ أليم أفادَ أنَّ من يهتدي بالقرآن له ضدُّ ذلك، وهو أن يكون له جنَّة نعيم ففي المقابلة تكثيرٌ لِلمعنى، وبيان لوجه هداية القرآن.

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 334.

سبب إيثار الإظهار على الإضمار:

إظهار كفرهم وتقبيحهم

كان الظّاهر الإضمار بأن يقال: (والّذين كفروا به) أي: بالقرآن، لقرب ذكرِه، ولكن عدل عنه إلى الإظهار فقال: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ لتسجيل كفرِهم عليهم ولزيادة التَّشنيع عليهم وتفظيع حالهم[1].

فائدة الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

أيُّ استهزاء بآيات الله سواء أكان قليلًا أو كثيرا فهو كفر

الباء في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ للملابسة، أي: لابس كفرهم آيات اللّه تعالى، ليفيد اللّفظ أنَّ أيَّ كفرٍ يلابس آيات اللّه فلصاحبِه عذاب من رجزٍ أليم، فيشمل أيَّ استهزاء بآيات اللّه قليلا أو كثيرا.

فائدة الإضافة إلى عنوان الربوبيَّة:

التّعجيبُ من حال الكافرين لمقابلتِهم إحسان ربِّهم بالكفر بآياته

الإضافة في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ على معنى الاختصاص، لتفيد الإضافة تعظيم الآيات لإضافتِها إلى عنوان الرّبوبيَّة، وأوثر إضافة الآيات إلى ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دون أن يقال: (بآيات اللّه) كما تقدَّم في الآيات السّابقة للإشعار بنعمة اللّه عليهم وإحسانِه إليهم بهذه الآيات وبغيرِها من النّعم المتوالية، ففيه توبيخ لهم على كفرِهم واستهزائِهم بآيات ربِّهم المربّي لهم المحسن إليهم، كما أنَّ فيه تعجيبًا لمقابلتِهم إحسان ربِّهم بالكفر بآياته.

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

الاهتمام ببيان مصيرهم المحتوم وتخصيص العذاب بهم

قدِّم الخبر المسند، وهو الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ المسند إليه ﴿عَذَابٌ﴾ للاهتمام بالخبر، فإنَّ العذاب الأليم موجود وحاضر ولكنَّ الذّهن متوجّه إلى من سيكون له هذا العذاب، فقدَّم المقصود لأنَّه أولى بالعناية والاهتمام، كما أنَّ في التّقديم نوعَ تخصيص، فكأنَّ العذاب الأليم لا يكون إلّا لهم لعظيم كفرِهم بآيات ربِّهم، كما أنّ في تأخير المسند إليه رعايةً لفاصلة الميم في قوله ﴿أَلِيمٌ﴾.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 419، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.

فائدة اللّام:

اخـتـصـاص العذاب بهم

اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ للاختصاص، لتفيد اختصاصهم بعذاب من رجزٍ أليم، وهو اختصاص إضافيٌّ كما سبق، فإنَّ مثل هذا العذاب قد يكون لغيرِهم أيضًا، وإنّما خصَّه بهم لقبح فعلِهم كما تقدَّم.

فائدة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

جاء لفظ ﴿عَذَابٌ﴾ نكرةً لتعظيم العذاب وتفخيمِه، بمعنى أنَّه عذاب ليس كسائر أنواع العذاب الذي يكون في الدّنيا.

فائدة ﴿مِّن﴾:

للكافرين عذابٌ دونه أيُّ عذاب

تحتمل ﴿مِّن﴾ في قولِه ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أن تكون بيانيَّة، لتفيد بيان نوع العذاب، أي: فهو من رجزٍ، والرّجز، أسوأ العذاب وأغلظه وأشدّه[1]، كما تحتمل أن تكون للتّبعيض أي عذاب ممّا يسمّى رجزًا، وعلى الوجهين فالمراد من العذاب أغلظه وأشدّه، فالّذي يكفر بآيات ربِّه له عذاب غليظٌ جدًّا مؤلِمٌ ليس كسائر العذاب.

توجيه القراءات القرآنية:

غلظُ العذاب وشدّة إيلامه

قرأ ابن كثيرٍ، وحفص عن عاصم، ويعقوب ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ برفع ﴿أَلِيمٌ﴾، وقرأ الباقون بالجرِّ (أليمٍ)[2]، وتوجيه قراءة الرّفع على أنَّ ﴿أَلِيمٌ﴾ صفة لـ: ﴿عَذَابٌ﴾ فيكون المراد وصف العذاب بوصفين أحدهما أنَّه ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ والثّاني أنَّه ﴿أَلِيمٌ﴾، ولمّا كان العطف على معنى المغايرة بين المعطوفين أفاد الرّجز غير الأليم، أي: هو عذاب موصوف بالغلظة فيه وبأنَّه موجع، وتوجيه قراءة الجرِّ على أنَّ (أليمٍ) صفةٌ لـ: ﴿رِّجْزٍ﴾، فيكون قد وصف العذاب بأنَّه من رجزٍ، ثمَّ وصفَ الصّفة أي ﴿رِّجْزٍ﴾ بأنَّه (أليمٍ)، وعلى الوجهين فالمراد شدّة العذاب في الإيجاع والإيلام.

(1) النّحاس، إعراب القرآن: 4/ 94، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 10/ 6773.
(2) الأزهري، معاني القراءات،: 2/ 288، وابن الجزري، النشر: 2/ 349.

﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢﴾ [الجاثية: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القرآن إنعام محض على العباد

لمّا ذكَرَ أنَّ القرآن هدى، فهو أعظم النّعم وأجلُّها على النّاس، ولمّا ذكر صفة الرّبوبيَّة التي تؤذن بكثرة إحسانِه ونعمِه ذكر بعضَ آثار نعمِه الأخرى التي سخّرها للنّاس وما فيها من آياته الدالَّة على وحدانيَّته فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِىَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾[1].

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ القرآن هدى، وذكر وصف الرّبوبيَّة في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾ أشعر بأنَّ تلك الآيات وذلك الهدى لم يكن إلّا لمحض الإنعام، والكافرون عكسوا القضيّة، فكفروا بدل الشُّكر ولذلك جيء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ تقريرًا لظهور إنعامِه تعالى واستحقاقِه الشّكر وتتميمًا لتقريع الكافرين على كفرانِهم نِعَمَ اللّه تعالى وعدم شكرِها[2].

شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿سَخَّرَ﴾: أصلُ (سخر) يدُلُّ على احتقارٍ واستِذلالٍ، من ذلكَ قولُنا: سَخَّرَ اللّه ﷻ الشَّيء، وذلك إذا ذَلَّلَه لأمْرِه وإرادته[3]، ويُقال: سَخَرَتِ السَّفِينَةُ إذا أطاعت وطابَ لَها السَّيْرُ، وتَسَخَّرْتُ دابَّةً لِفُلانٍ: رَكِبْتُها بغَيْرِ أجْرٍ[4]، ومن البابِ: سَخِرتُ منه، إذا هزِئت

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 75.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 244، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سخر).

به(1)، والمقصودُ بالتَّسخير في الآية: التَّذليلُ والطّاعةُ، أي: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا.

2) ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾: أصلُ (بغي) طَلَبُ الشَّيء، تقول: ابتغَيتُ الشَّيءَ، وبَغَيْتُهُ، أيْ: طلبتُه(2)، الابْتِغاءُ: الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ(3)، وهو أيضًا: الإرادَةُ والقَصْدُ، يُقالُ: ابْتَغَيتُ الأجْرَ في عَمَلِي، أي: قَصَدْتُه، ويأتي بِمعنى الاتِّخاذ، تقول: ابْتَغَيتُ البَيْتَ سَكنًا لي، أيْ: اتَّخَذْتُهُ(4)، والمقصود بالابتِغاءِ في الآيةِ: الطَّلَبُ بِجِدٍّ، أي: طلَب ما في طلَبه كلفة ومشقَّة.

3) ﴿فَضۡلِهِۦ﴾: أصلُ (فضل) يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلك الفَضْلُ: الزِّيادةُ في الشَّيءِ(5)، سواءً كان محمودًا أو مذمومًا، واستِعمالُه في المحمودِ أكثرُ، يُقالُ: فَضَلَ الشَّيءُ فَضْلًا، أي: زادَ، وضِدُّه: النَّقْصُ(6)، والفَضْلُ: الشَّرَفُ والخيرُ والرِّزْقُ، ورَجُلٌ فاضِلٌ: ذو شَرَفٍ وخيرٍ، والإفْضالُ: الإحسانُ، والفَضائِلُ: خِصالُ الخَيْرِ، ويأتي الفَضْلُ بِمعنى بَقِيَّةِ الشَّيْءِ، والجَمْعُ: أفْضالٌ(7)، والمُرادُ بالفَضلِ في الآية: الزِّيادةُ في العطاء.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يبيِّنُ اللّه سبحانه جانبًا من النِّعم الَّتي أنعَم بها على عباده، فيقول تعالى: اللّهُ هو الَّذي ذَلَّل لكم البَحرَ - أيُّها النّاسُ - ؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه وإذْنِه وتَيسيرِه؛ لِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم الَّتي هي من فَضلِ اللّه تعالى عليكم؛ كنَقلِ البَضائِعِ، وصَيدِ الأسماكِ،

البحر نعمة سخره الله لعباده بما اشتمل عليه من خيرات

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(3) الراغب، المفردات: (بغي)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 35.
(4) الخليل، العين، والفيروز آبادي، القاموس المحيط، وابن منظور، لسان العرب: (بغا - بغي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

وغيرِ ذلك، لعَلَّكم تَشكُرونَه سبحانه على نِعَمِه العَظيمةِ الَّتي تَحصُلُ بتَسخيرِه لكم البَحرَ، فتوَحِّدونَه تعالى، وتُطيعونَه فيما أمرَكَم به ونهاكم عنه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

تسخير المنافع للنّاس يقتضي أن يشكروا مسخّرها لا أن يكفروا به سبحانه

جاء قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ على طريق الاستئناف الابتدائيّ، للانتقال من التّذكير بما خلق اللّه من العوالم وتصاريف أحوالِها من حيث إنَّها آيات باهرة دالَّة على وحدانيَّة اللّه إلى التّذكير بما سخّر اللّه للنّاس من المخلوقات وتصاريفها من حيث كانت منافع النّاس تقتضي أن يشكروا خالقَها ومسخّرها لا أن يكفروا به سبحانه ويتوجّهوا إلى عبادة غيره[2].

الغرض من الابتداء بالاسم الجليل:

ابتدأت الآية بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ تربيةً للمهابةِ بذكر المنعم العظيم بعظيم آلائه، وللإيذان بعظمة ما سيخبر عنه، وأنَّ تسخير البحر إنّما كان بمقتضى ألوهيَّته وعظمته.

سبب إيثار التّعبير بأسلوب القصر ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾:

لا يسخّر البحر بجري الفلك فيه إلّا الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ أفاد مجيء المسند والمسند إليه معرفتين القصر في الكلام، ليفيد تقديم الاسم الجليل على الاسم الموصول وصلته تربية المهابة والقصر[3]، وليكون الكلام من قصر الصّفة على الموصوف، بمعنى قصر تسخير البحر بجريان الفلك فيه وابتغاء الفضل والرّزق على اللّه تعالى، والمعنى لا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 78، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 82، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 335.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 420.

يسخّر البحر بجري الفلك فيه إلّا اللّه تعالى، ففيه إثبات لوحدانيَّة اللّه وجليل إحسانِه على النّاس، وهذا القصر من قبيل قصر القلبِ بتنزيل المشركين منزلة من يظنُّ أنَّ تسخير البحرِ وتسخير ما في السّماوات والأرض إنعامٌ من شركائِهم كقولِه تعالى: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ [الرّوم: 40]، فكان هذا القصر إبطالًا لهذا الزّعم[1]، أو يكون قصر قلبٍ على وجهٍ آخر، وهو أنَّه لمّا لم يقم الكافرون بمقتضى حقِّ الاعتراف بتسخير اللّه تعالى لهم البحرَ، وهو شكرُه تعالى على هذه النّعم العظيمة، فلمّا قابلوها بالكفر أقامهم مقام المنكرين، فأفاد القصر تقريع من يكفر بنعم اللّه ولا يشكرها.

الغرض من التّعبير بالموصول وصلته:

الإيماء بعظم ماسخّره الله لعباده

عبّر بالموصول وصلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ للإشعار بعظم هذا التّسخير وتفخيمه، وهو المناسب لمجيء الكلام على طريق القصر مصدَّرًا بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿سَخَّرَ﴾:

تسخير الله تعالى البحر العظيم بجري الفلك فيه من أعجب آياتِه

لمّا كان المقام في بيان عظمةِ خلقِ اللّه تعالى مع انتفاعِ الخلقِ منه عبَّر بالتّسخير الّذي هو سَوْقُ الشّيء الفخم إلى الغرض المختصّ قهرا، فأفادَ التّعبير بقولِه: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ الإشعار بعظمة خلقِ البحر وعظمة تسخيرِه، وذلك في انقياده بسهولةٍ ويسرٍ طبعًا مع عدم مقاومةٍ منه، وتسخير اللّه تعالى البحر هو بتسهيله استعمالَه فيما يرادُ به وإجرائِه على ما يوافق العباد لتحصيل وجوه الانتفاع مذلَّلًا لهم، بأن جعله تعالى أملسَ وأجزاءَ سطحِه متساويةً ويطفو عليه ما يتخلخل كالأخشاب، ولا يمنع الغوص فيه لاستخراج ما فيه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 336.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70.

تحقُّق تسخير البحر للعباد وضرورة شكر المسخِّر

دلالة التّعبير بصيغة الماضي في قوله ﴿سَخَّرَ﴾:

لمّا كان الفعل الماضي يدلُّ على وقوع الفعل وحصولِه أفاد التّعبير بقولِه: ﴿سَخَّرَ﴾ حصول تسخير البحر للعباد، ليقتضي المبادرة إلى شكرِ المسخِّر وتوحيدِه.

سخّر الله تعالى البحرَ للنّاس فيما يحتاجونه دون ما لا حاجة لهم فيه

فائدة اللّام في ﴿لَكُمُ﴾:

اللّام في قولِه ﴿لَكُمُ﴾ للاختصاص وتفيد النّفعَ؛ لأنَّ المقامَ مقام امتنان، بمعنى أنَّه تعالى خصَّكم بتسخير البحر، فتسخيره لأجلِكم ولمنفعتكم، ولمّا كانت اللّام تفيد النّفع أشعر بأنَّه تعالى سخّر لهم ما يحتاجونه دون ما لاحاجة لهم به.

من عظيم تسخير الله للبحر أنَّ تسخيره قد بلغَ من التّيسير إلى حيث يمتنع أن يُختصَّ به ناسٌ دون آخرين

سرُّ التّعبير بضمير الخطاب ﴿لَكُمُ﴾:

يعود الضّمير في قولِه ﴿لَكُمُ﴾ على جميع المخاطبين، وحقُّ الخطاب أن يكون مع مخاطبٍ معيَّن؛ لأنَّ معنى الخطاب هو توجيه الكلام إلى حاضرٍ، وهو لا يكون إلّا شاهدًا معيَّنًا، لكنَّه ترك هنا إلى غير معيَّن ليشمل جميع المخاطبين بالقرآن، فلا يُقصدُ بالكلامِ أن يختصَّ تسخير البحر بجمعٍ دون جمعٍ، وإنّما يُقصَد إلى أنَّ تسخيره قد بلغَ من التّيسير إلى حيث يمتنع أن يختصَّ به ناسٌ دون آخرين؛ بل كلُّ من يتأتّى منه ركوب البحر أو ينتفع منه فله مدخل في هذا الخطاب، كما أنَّ ذكر الإنعام والإحسان في مقام المخاطبة أبلغَ وأكثرَ تأثيرًا.

فائدة تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾:

قدِّمَ الجارّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول به في قولِه: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ لبيان عظم هذه النّعمة على العباد، ففي التّقديم عناية بالمخاطبين.

فائدة في اللّام ﴿لِتَجۡرِيَ﴾:

اللّام في ﴿لِتَجۡرِيَ﴾ هي لام التّعليل، ودخول اللّام على الفعل

يفيد أنَّ الفلك ما كانت تجري في البحر لولا أنَّ اللّه تعالى سخّرها لتجري، ولو قيل: وسخّر لكم البحر أن تجري؛ لأفاد أنَّها كانت تجري قبل التّسخير، ولو قيل: وسخّر لكم البحر لأن تجري لاحتمل المعنيين[1]، فلمّا قال: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ﴾ صار نصًّا في أنَّ الفلك لم تكن تجري لولا تسخير اللّه البحر لهذا الأمر.

الفلك لم تكن تجري لولا تسخير الله البحر لهذا الأمر

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿لِتَجْرِىَ﴾:

عبّر بصيغة المضارع في الفعل ﴿لِتَجْرِىَ﴾؛ للإشعار باستمرار جري الفلك في البحر وتجدّده في كلِّ الأوقات.

مناسبة الفصل في قوله: ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾:

جاءت جملة: ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ بطريق الفصل لأنَّها بدل اشتمال من الإجمال في قولِه ﴿لَكُمُ﴾[2]، وبيانُه أنَّه لمّا قال: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ كان المعنى على الإجمال، ثمَّ فصّله في قولِه: ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وما عطف عليه، ومناسبة مجيء التّفصيل بعد الإجمال هو أنّه لمّا كان تسخير البحر للنّاس أمرًا عجيبا فخمًا وكان يستدعي إيضاحًا وبيانًا - لأنَّ المقام مقام امتنان - فصَّل الإجمال ببدل الاشتمال لمزيد الاعتناء بشأنِه وللتّنبيه على موضع التّسخير، كما أنّ في مجي الكلام على طريق الإجمال ثمَّ التّفصيل تاكيدًا للامتنان ومبالغة فيه.

في مجي الكلام على طريق الإجمال ثمَّ التفصيل تأكيدٌ للامتنان ومبالغة فيه

فائدة (أل) في ﴿ٱلْفُلْكُ﴾:

(أل) في قولِه ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ للجنس، بمعنى جنس الفلك ولا يُقصَد به فلكًا معيَّنًا؛ لأنَّ الامتنان على عموم العباد إلى قيام السّاعة، ولمّا كان سياق الامتنان يقتضي أن يكون المعنى لتجري الفلك فيه وأنتم راكبوها[3] فلا حاجةَ إلى القول بأنَّ (أل) عوض عن الضمير

عظيم الامتنان بعموم الفلك

(1) السامرائي، معاني النّحو: 3/ 354.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 336.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.

المحذوف، كما في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: 41]، أي: هي مأواه[1].

فائدة (فِي):

حرف الجرِّ (في) للظرفيَّة المكانيَّة، وعبّر بـ(فِي) دون أن يقولك: (لتجري الفلك عليه) للإيماء إلى تمكّن الفلك في البحر بتسخير اللّه تعالى، وفيه إشارة إلى أنَّ بعض الفلك يغوص في داخل البحر، فيكون البحر ظرفًا له.

تمكّن الفلك في البحر بتسخير الله

الغرض من تقديم ﴿فِيهِ﴾ على الحال:

قدِّمَ حرف الجرِّ ﴿فِيهِ﴾ على الجارّ والمجرور ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ الّذي هو في موضع الحالِ؛ لبيان أنَّ هذه الصّورة كاملةٌ - أيّ: جري الفلك في البحر - هي حال كونِه بأمرِه، فالحالُ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمجموع قولِه: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ كما أنّه لمّا كان قوله: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ كان التّقييد بالحال جاريًا على البدل والمبدل منه، بمعنى أنَّ تسخير البحر لكم وجري الفلك فيه كلاهما بأمرِه تعالى.

تسخير البحر للعباد وجري الفلك فيه كلاهما بأمرِ الله تعالى

فائدة الباء:

الباء في قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ للملابسة، بمعنى أنَّ جريَ الفلك في البحر ملابسٌ لأمرِه تعالى، وتحتمل أن تكون الباء للإلصاق، بمعنى لصوق أمره تعالى بجري الفلك في البحر، أي: إنَّ جري الفلك ملاصق لأمر اللّه لا ينفكُّ عنه لا يفارقه.

لولا أمر الله تعالى لَما جرى الفلك في البحر

دلالة لفظ ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾:

يحتمل لفظ الأمر في قوله: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ أن يكون بمعنى تسخيرِه وتكوينِه، ويحتمل أن يكون بمعنى بإذنه[2]، ويحتمل أن يكون جامعا

الأمر بمعنى الإذن والقدرة معًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 336.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 219، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 304، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 142، وصديق حسن خان، فتح البيان: 12/ 421.

بين القدرة والإذن[1]، أي: بقدرتِه وتسخيرِه وبإذنِه، والسّياق يدلُّ عليه، وبهذا يتبيّن سبب العدول عن أن يقال: لتجري الفلك فيه بإذنه أو بقدرتِه، فجمع في لفظ واحد معنيين مقصودين.

مناسبة العطف في قوله ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾:

كلُّ أنواع السّفر في البحر كالسّياحة والتّجارة وغيرهما هو من تسخيرِه تعالى للبحر

لمّا كان جريان الفلك في البحر يشتمل على كثير من المنافع عطف عليه قوله: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ لتفصيل النّعم، فَحَصَلَ مِنْ مَجْموعِ المعطوف والمعطوف عليه أنَّ تسخير البحر لجري الفلك فيه للسّفر لقضاء الحاجات وبلوغ الغايات حتَّى السّياحة في البحر والتّنزُّه وزيارة الأهل.

نكتة تكرار لام التّعليل في ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾:

تكثير الامتنان لمقتضى السّياق

لم يقل: (وتبتغوا من فضلِه) ليكون الفعل معطوفًا على الفعل في ﴿لِتَجۡرِيَ﴾، لكنّه أعاد ذكر لام التّعليل مع الفعل فقال: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾، والنّكتة في الأمر هي الإشعار باستقلال كلِّ نعمةٍ، فجعل نعمة ابتغاء فضل اللّه في البحر بالتّجارة والغوص والصّيد وغيرها مستقلّة عن نعمة ركوب الفلك فيه؛ لأنّ العباد يفرحون بتحصيل الأرزاق وينعمون بها، فأفاد إعادة لام التّعليل تكثير النّعم والمبالغة فيها، والسّياق يقتضيه، وعبّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ للإشعار باستمرار ابتغاء النّاس وتجدُّده وقتًا فوقتًا.

فائدة ﴿مِن﴾:

ابتغاء الفضل من الله الواسع

حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ للتّبعيض، بمعنى لتبتغوا من بعض فضلِه، إشعارًا بعموم فضلِه سبحانه، وأنَّه مهما ابتغيتم وحصّلتم من الأرزاق فما هو إلّا بعض فضلِه ورزقِه.

فائدة الإضافة:

الإضافة في قوله ﴿فَضۡلِهِۦ﴾ على معنى الاختصاص، بمعنى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 82.

لا رزقَ يُبتغى ويُتحصَّل إلّا من الله تعالى

الفضل الّذي هو مختصٌّ باللّه تعالى، ولمّا قيّد الابتغاء بكونِه من فضلِ اللّه تعالى أفاد أنّ لا رزقَ يُبتغى ويُتحصَّل إلّا من اللّه تعالى.

سرُّ العطف بالواو في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

من مقاصد تسخير الفلك قيام العباد بواجب الشّكر على هذه النّعمة العظيمة العامّة

لمّا عطف ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ على ﴿لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ﴾ أفاد أنَّ الغاية من تسخير اللّه تعالى الفلك للعباد حصول منفعة ركوبِهم وابتغاء فضل اللّه، ومن غايات تسخير الفلك ومقاصده قيام العباد بواجب الشّكر على هذه النّعمة العظيمة العامّة؛ ليفيدَ أنَّ شكر العباد للمنعِم المسخِّر مقصود من تسخير الفلك كما أنَّ جريانها في البحر وابتغاء فضله تعالى مقصودان كذلك، كما أنَّ في عطف ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ على ما فيه منافع العباد المهمّة إيماءً إلى أنَّ في شكرِه تعالى منافعَ عظيمة دنيويَّة وأخرويَّة، فإنَّ العطف يقتضي المناسبة بين المعطوفات، فالجامع هنا هو جامع خياليٌّ لِما بين هذه المعطوفات الثّلاثة من تعانق في المنافع، فإنَّ مجرى الإلف والعادة أن يكون شكرُ المنعَم عليهم للمنعِم عائدا عليهم بالنّفع والفائدة.

الغرض من التّعبير بأسلوب التّرجّي:

من تفكّر في نعمة تسخير البحر يُرجى له أن يشكر اللّهَ المنعِمَ عليه وعلى النّاس

عبّر بأسلوب التّرجي في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ للإيماء إلى أنَّ من تفكّر في هذه النّعم يُرجى له أن يشكر اللّهَ المنعِمَ عليه، ويُتوقَّعُ منه ذلك، بمعنى أنَّ العباد إن نظروا في هذه النّعم العظيمة العجيبة فهم في صورة المرجوِّ منهم أن يشكروا، فإنَّ الإنعام يوجب الشّكر، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ (لَعَلَّ) بمعنى كي، والتّقدير: ولكي تشكروا النِّعم الّتي تحصل لكم بتسخير اللّه تعالى للبحر[1]، وفي العدول عن لام التّعليل إلى حرف التّرجّي (لَعَلَّ) المنبئَ عن أنَّ احتمال حصول المرجوِّ أمرٌ لطيف، فإنَّ فيه إشعارًا بأنَّ من العباد من يشكر، وفيهم من يتمادى ويكفر، بما في (لَعَلَّ) من الإبهام

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 420، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70.

المشعر بالقسمين، والمهيئ لإمكان ظهور الفريقين[1]، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ شكرَ العباد مع ظهور النّعم وكثرتِها وعظمتِها أمرٌ يتطرّقه احتمال التّخلّف، وهذا هو السّبب في العدول عن لام التّعليل إلى كلمة التّرجّي في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ في جميع القرآن، كما أنَّ في صيغة التّرجّي حثًّا على الشّكر وإظهارًا له في صورة الأمر القريب الحصول.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

الإيماء لاستمرار شكر الله على آلائه

عبّر بصيغة المضارع في قوله: ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ للإشعار بطلب استمرار شكر اللّه على نعمه وطلب تجدّده حالًا فحالًا.

دلالة حذف مفعول الفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

الحثُّ على أن يبقى العبد في مقام الشّكر يتقلّب فيه

حذف مفعول الفعل ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ لقصد التَّعميم، بمعنى لعلَّكم تشكرون النّعم التي أنعمها اللّه عليكم، فلا يزال العبد في مقام الشّكر يتقلَّب فيه، ويحتمل أن يكون لقصد تنزيل الفعل المتعدّي﴿تَشۡكُرُونَ﴾ منزلة اللّازم؛ لأنَّ القصد تحصيل نفس الفعل، والاتّصاف بوصف الشّكر، بحيث يكون الشّكر وصفًا ملازمًا له، ولأنَّ مناط سَوْق الكلام هو للحثِّ على الشّكر وترك الكفر فكان المعنى: لعلَّكم لا يأتي منكم إلّا الشّكر، فيكون دفعًا للكفرِ، كما أنَّ في حذف المفعول رعاية للفاصلة ورؤوس الآي.

(1) الحرالي، تراث أبي الحسن الحرالي، ص: 216.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية: 13]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

ما خلق الله العوالمَ كلَّها على عِظَمِها إلّا للعباد

لَمّا ذكرَ آيةَ البحرِ لعظمتِها، عمَّ بمنافع الخافقين دلالةً على أنَّه ما خلق ذلك كلَّه على عِظَمِهِ إلّا للعباد، تنبيهًا على أنَّ الأمر عظيم فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الآيةَ.

وأيضًا في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تعميم تسخير ما في السّماوات وما في الأرض بعد تخصيص تسخير الفلك في البحر، وسبب هذا التّعميم تنبيه المخاطبين إلى عموم منّة اللّه تعالى على العباد.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تسخير ما في السّماوات وما في الأرض للعباد من دلائل قُدرة الله تعالى

يذكر اللّه سبحانه نعمه على عباده، فيقول: وذلَّل لكم ما في السّماوات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بحرارتها وضوئِها، وسخّر لكم ما في الأرض من دابّة وشجر وزرع وبحار وأنهار وغيرها من جميع ما تنتفعون به ويُسَهِّل لكم سُبُلَ الحياة، هذه الأشياء وغيرها كائنة منه، وحاصلة من عنده، فهو مُكَوِّنها وموجِدها بقدرته وحكمته ثم سخَّرها لخلقه، إنَّ في ذلك التَّسخير لدلائل واضحة على قُدرة اللّه وتوحيده، لقوم يتفكّرون فيها ويستدلّون بها على التّوحيد[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل في الآية:

جاء قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 25/ 263، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 879.

بطريق الوصل بالواو على جملة الصّلة ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ لاشتراكِهما في كونِهما فعليّتين، وفي الجهة الجامعة في كون هذه المخلوقات قد ذلّلها اللّه تعالى ويسّر الانتفاع منها للعباد.

من عظيم قدرة الله وجليل نعمه أن ذلَّلَ المخلوقات ويسّر الانتفاع منها للعباد

فائدة العطف بالواو:

لمّا جاء العطف بالواو في قوله اللّه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وكان العطف يقتضي المغايرة بين المعطوفين أفادَ أنَّ تسخير ما في السّماوات وما في الأرض غير تسخير الفلك، والقصد تنوّع مجال التّفكير في آيات اللّه ونعمِه، فالإنسان كلَّما تنوّع بساطُ تفكيرِه يزداد إيمانا بكمال تسخير اللّه هذه المخلوقات العظيمة له، فيشهد منّته سبحانه عليه.

الإنسان كلَّما تنوّع بساطُ تفكيرِه يزداد إيمانا بالله وقدرته، ويشهد منّته عليه

دلالة القصر في الآية:

لمّا كانت الجملة الفعليَّة ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفةً على جملة الصّلة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ كان تقدير الكلام: واللّه الّذي سخّر لكم ما في السّماوات وما في الأرض؛ ليكون الكلام مضمَّنًا القصر بمجيء المسند والمسند إليه معرفتين، وهو من قصر الصّفَةِ على الموصوف، ومن قبيل قصر القلبِ كسابقِه، وذلك بتنزيل المشركين منزلةَ من يظنُّ أنَّ لشركائِهم تأثيرًا على ما في السّماوات وما في الأرض؛ أو أن يقال في توجيه قصر القلب: لمّا لم يقم المشركون بمقتضى حقِّ الاعتراف بتسخير اللّه لما في السّماوات وما في الأرض للعباد، وهو شكر هذه النّعم بتوحيدِه والقيام بحقوقِه سبحانه، فلمّا قابلوا هذه النّعم بالكفر أقامَهم مقام المنكرين لتسخير اللّه لهذه العوالم، فجاء القصر بطريق قصر القلب.

الاعتراف بتسخير الله تعالى العوالمَ للعباد يقتضي شكره وتوحيده

دلالة التعبير بصيغة الماضي في قوله ﴿وَسَخَّرَ﴾:

أفاد التّعبير بصيغة الماضي في قولِه ﴿وَسَخَّرَ﴾ حصول

تحقّقُ التّسخير سببٌ لتحقُّق الشُّكر

تسخير ما في السّماوات وما في الأرض للعباد، ليفيد حثَّ العباد على شكرِ المنعِم.

فائدة اللّام في ﴿لَكُم﴾:

اللّام في قولِه: ﴿لَكُم﴾ للاختصاص وتفيد النّفعَ؛ لأنَّ المقامَ مقام امتنان كما تقدَّم، وأعاد الجارّ والمجرور لتقرير الاهتمام بالعباد والعناية بهم في الإفادة ممّا سخّره اللّه لهم، ليدلَّ على أنَّ تسخير مافي السّماوات وما في الأرض جميعًا هو لأجلِكم ولمنفعتِكم ولحاجتِكم له.

سرُّ التّعبير بضمير الخطاب ﴿لَكُم﴾:

الامتنان بطريق الخطاب أبلغ في التّأثير والإقناع

عبّر بضمير الخطاب الّذي يكون لمعيَّن حاضرٍ في أصل الكلام، والقصد منه عموم المخاطبين كما تقدَّم، والفائدة من التّعبير بما هو للمعيّن لِما يكون لغير المعيّن الإيماء إلى أنَّ تسخيره تعالى لما في السّماوات وما في الأرض قد بلغ من الوضوح والتّيسير إلى حيث يمتنع أن يختصَّ به ناسٌ دون آخرين؛ بل كلُّ من يتأتّى منه الانتفاع منها فله مدخل في الخطاب، كما أنَّ الامتنان بطريق الخطاب أبلغ في التّأثير والإقناع.

دلالة الاسم الموصول ﴿مَّا﴾:

تسخير العوالم للعباد إنّما هو بتسخير ما يحتاجونه دون ما لانفعَ لهم فيه

(ما) في الموضعين في قولِه: ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من العامِّ المخصوص بما تحصل به فائدة النّاس في وجودِه؛ لأنَّ المقامَ مقام ذكر ما ينتفع به النّاس وليس في مقام ذكر آيات خلقِ اللّه تعالى، فيدخل في لفظ العموم ما سخّره اللّه ممّا ينتفع منه النّاس كالشّمس للضّياء والمطر للشّراب وغيرِه، وكالكواكب للاهتداء بها في ظلمات البرّ، والبحر والشّجر للاستظلال، والأنعام للرّكوب، وما في باطن الأرض كالحديد والنّفط ومصادر الطّاقة وغيرها، وأمّا ما في السّماوات ممّا لا يفيد النّاس ولا

يحتاجونه فغير مراد مثل الملائكة في السّماء والأهوية المنحبسة في الأرض الّتي يأتي منها الزلازل[1].

نكتة إعادة الاسم الموصول:

الإيماء بعموم الآيات ومنّة الله بها على عباده

أعيد الاسم الموصول في قولِه: ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يقل: (سخّر لكم ما في السّماوات والأرض) للإشعار بعموم آيات الأرض وكثرتِها كذلك، كما أنّه لّما كان المقام مقام امتنان بذكرِ النّعم المتنوّعة العظيمة ناسب إعادة الاسم الموصول.

بديع الطّباق:

مجرَّد النّظر في السّماوات والتّفكُّر فيها يقود إلى النّظر في الأرض والتفكّر فيها

في قوله: ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباق مشهور، وفائدة هذا الطّباق التّنبيه إلى عظمة تَيْن النّعمتين المتقابلتين، كما أنّ مجرَّد النّظر في السّماوات والتفكّر فيها يقود إلى النّظر في الأرض والتّفكّر فيها

سرُّ التّقييد بـ: ﴿جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾:

الله تعالى هو الخالق والمسخّر لما في السّماوات وما في الأرض

لّما ذكر الله تعالى أنَّه هو الذي سخّر ما في السّماوات وما في الأرض كان يحتمل أن يقال: إنّه تعالى سخّرها لكنَّه ليس مالكَها ومنشئها، فجاء قوله: ﴿جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ لدفعِ هذا التّوهّم، ففيه تنبيه إلى أنَّه تعالى هو الخالق والمسخّر، كما أنّه لّما كان لفظ﴿جَمِيعٗا﴾ حالًا أفاد أنَّه تعالى سخّر هذه الأشياء بمجموعِها، فلم يعجزه تسخير شيء عن تسخير شيءٍ آخر، والمعنى أنَه تعالى سخّر هذه الأشياء جميعا كائنة منه وحاصلة من عنده، فهو سبحانه مكوّنها وموجدها بقدرته وحكمته، ثمّ سخَّرها لخلقه[2].

فائدة (مِنْ):

ابتداء خلق السّماوات والأرض منه تعالى

حرف الجرّ (مِنْ) في قوله: ﴿مِّنۡهُۚ﴾ للابتداء، بمعنى ابتدأ خلقِ ما في السّماوات وما في الأرض منه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 337.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 142.

دلالة عود الضّمير في ﴿مِّنۡهُۚ﴾:

لمّا عاد الضّمير في ﴿مِّنۡهُۚ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ بما أفاده من القصر الدّالّ على أنّه تعالى وحده هو الّذي سخّرها دون غيرِه دلَّ على أنَّه تعالى هو وحده منشئ هذه العوالم وخالقُها دون غيرِه، فاللّه تعالى هو وحده الذي سخّرها وهو وحده الّذي أنشأها، فليس لغيرِه في هذه العوالم أدنى شركة.

ليس لغيرِ الله تعالى في خلق هذه العوالم وتسخيرِها أدنى شركة

مناسبة الفصل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

جاءت جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ على طريق الفصل؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ، لتكون في جواب سؤال تقديره: من ينتفع بهذه الآيات الظّاهرة؟ فكان الجواب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، كما أنَّ الجملة بمثابة التّذييل لما قبلها؛ لتفيد معنى العموم والكلِّيَّة ولتجري مجرى المثل في حكايتِها والتّمثّل بها.

المنتفع بالآيات هو المتفكّر فيها

دلالة تتابع التأكيد:

وردت أربعةُ مؤكّدات في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، هي ﴿إِنَّ﴾ واللّام في ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ وتقديم الخبر على الاسم ومجيء الجملة اسميَّة، وسبب تتابع التّأكيد هي أنّه لمّا كان المخاطبون من المشركين لا ينتفعون بمثل هذه الآيات ولا يُعملون فيها عقولَهم وأنَّ عملَهم مخالف لِما دلَّت عليه هذه الآيات أقامَهم مقام المنكِر لها والمنكر لأن يكون لهم عقول يفكّرون بها، فجاء الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر لردِّ المشركين عن شركِهم بالتفكّر في هذه الآيات العظيمة الباهرة المتنوّعة التي هي قريبة منهم وينتفعون منها.

من طرائق ردِّ المشركين عن شركهم دعوتهم إلى التفكّر في آيات السّماوات والأرض الباهرة

الغرض من تقديم المسند على المسند إليه:

قُدِّم المسند على المسند إليه في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ لتوجيه الفكر إلى العناية بمجموع هذه الآيات والاهتمام به، فكأنَّ التّفكُّر في تسخير الفلك لتجري في البحر وتسخير ما في

الاهتمام بالآيات والتّفكُّر فيها

السّماوات وما في الأرض كافٍ في الاعتبار والاتّعاظ، فكيف إذا تنوّعت الآيات وكثرت؟!

دلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

آيات الله عظيمة باهرة فلا يؤمن بها إلّا قوم يتفكّرون

يعود اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى التّسخير المفهوم من الآية[1] أو إلى ما ذُكِرَ من الأمور العظائم ممّا سخّره الله تعالى للعباد[2]، أو إلى كليهما وهو الأنسب للمقام، وجيء باسم الإشارة للإيذان بوضوحِه وتمييزه أكمل تمييز وكونِه قريبًا من المخاطبين، وعبّر باسم الإشارة الّذي للبعيد للإشارة إلى أنَّ المذكور هو من عظائم الآيات وأبهرها، فلا يفهمها ويؤمن بخالقِها وموجدِها إلّا قوم يتفكّرون.

دلالة التّعبير بالخبر جمعا منكّرًا:

العجب ممّن يرى آيات الله العظيمة ولا يتفكّر فيها مع ظهورها وكثرتِها وتنوّعها وفخامتِها

دلَّ التّعبير بالخبر ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بصيغة الجمع المنكّر على أنَّها آيات كثيرة متنوّعة فخمةٌ عظيمةُ الشَّأنِ كثيرةُ العددِ[3]، فالعجب ممّن يراها ولا يتفكّر فيها مع ظهورِها وكثرتِها وتنوّعها وفخامتِها.

فائدة اللّام في ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

اختصاص الانتفاع بمن تفكّر

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ للاختصاص، بمعنى أنَّ الانتفاع من هذه الآيات مختصٌّ بقوم يتفكّرون.

فائدة التّنكير في (قَوم):

من تفكّر انتفع

أفاد تنكير لفظ (قَوم) أنَّ هذه الآيات لقوم موصوفين بالتفكّر، فهي ليست لأيِّ قومٍ.

سرُّ تقييد القوم بجملة النّعت ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

عبّر بقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ دون أن يقال: (للمتفكّرين) للحثِّ على الاجتماع على التّفكّر في هذه الآيات، وللإيماء إلى أنَّ هذه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 77.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70.

قوّة القوم في التّفكّر في آيات الله العظيمة واجتماعهم على هذا الأمر

الآيات هي لناس فيهم أهليّة للقيام بما يجعل إليهم[1]، وفيه تنبيه إلى أنَّ قوّة القوم في تفكّرهم في هذه الآيات، ولمّا جاءت الجملة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ نعتًا لـ(قَوم) دلَّ على أنَّ المراد أنَّ هذه الآيات هي لكلِّ النّاس وأنَّها آيات إنعام من حيث إنّها ينتفع بها الإنسان وآيات دلائل على الخالق الواحد الأحد من حيث دلالتُها على موجِدِها، لكنَّ المنتفعين منها هم القوم المتفكّرون، ولهذا قيّد به، كما أفاد مجيء الجملة الفعليَّة نعتًا الحثَّ على أن يكون التّفكير وصفًا لازمًا لمن يتفكّر.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

من ينتفع تمام الانتفاع من التّفكّر في آيات الله هو الّذي لا ينقطع عن التّفكير فيها

لمّا جاءت الجملة الفعليّةُ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ نعتًا للقوم وكان المراد أن يكونوا متّصفين بالتّفكُّر عبّر في جملة النّعت بصيغة الفعل المضارع للإيذان بأنَّ من ينتفع تمام الانتفاع هو من يكون التّفكُّر مستمرًّا عندهم ويتجدّد فيه وقتًا فوقتًا، فلا يزال متفكِّرًا في هذه الآيات العظيمة الباهرة.

سبب إيثار ذكر التّفكُّر في الآية:

أوثر التّفكُّر بالذّكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آخر صفات المستدلّين بالآيات المذكورين على وجه المدح في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ و﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ و﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ الفكرَ هو منبعُ الإيمان والإيقان والعقل[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 77.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 338.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [الجاثية: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الصَّفحُ عن أذى المشركين مِن أخلاق المؤمنين

لَمّا عَلَّمَ اللّه تعالى عبادَه دلائل التَّوحيد والقدرةِ والحكمةِ؛ أتبعَ ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ(1).

وأيضًا لَمّا قال: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ﴾ [الجاثية: 11]، وكان المشار إليه هو القرآن؛ بيَّن نوعًا لطيفًا من الهدى الَّذي يشتمل عليه القرآن، وهو العفو والمسامحة؛ لاستعطاف الكافرين وتأليف قلوبهم للإيمان، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

وأيضًا لَمّا كان قوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧﴾ [الجاثية: 7] إلى قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩﴾ [الجاثية: 9] يثير غضب المسلمين على المستهزئين بالقرآن، وقد أخذ المسلمون يغترّون بكثرتِهم، فكان ما ذُكرَ من استهزاء المشركين بالقرآن واستكبارِهم عن سماعِه يتوقَّع منه أن يبطش بعض المسلمين بالمشركين، فقال تعالى مبيِّنًا أثر المغفرة في استعطاف المشركين: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾(2).

وأيضًا لَمّا ذكر اللّه تعالى من حال المشركين أنَّهم إذا علموا من آيات اللّه شيئًا؛ اتخذوها هزوًا، وكان هذا داعيًا المؤمنين إلى أن يردّوا عليهم، فلكي يكون للمشركين إصاخة إلى أنَّ ما ساقه اللّه تعالى من دلائل قدرتِه وسوابغ نعمِه، ويكون منهم نظر إلى ما سخَّر للنّاس في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 673.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 338.

السَّماوات وفي الأرض؛ كان على المؤمنين ألّا يدخلوا معهم في مجال الخصومة الحادَّة، والجدل العنيف؛ لكي لا يشغلوا بالرَّدِّ على المؤمنين عن النَّظر في أنفسهم والإفادة من آيات اللّه الَّتي تتلى عليهم، كما أنَّ في العفو عنهم تأليفًا لقلوبهم واستعطافًا لهم وإتمامًا لإقامة الحجَّة عليهم، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرُواْ﴾: أصلُ (غفر) يدلُّ على التَّغطيةِ والسَّتْرِ، ومنه الغَفر والمَغفرة، يُقالُ: غَفَرَ اللّه ذنْبَهُ غَفْرًا ومغْفرةً وغُفرانًا، أي: سَتَرَها، وتجاوَزَ عنها[2]، والغُفرانُ والمغفرةُ مِن اللّه هو أن يصونَ العبد من أن يمسَّه العذابُ[3]، وعليه فالمُراد بها في الآية: الصَّفْحُ عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم[4].

2) ﴿يَرۡجُونَ﴾: أصلُ (رجا) يدلُّ على الأمل، يُقالُ: رَجا حُصولَ الشَّيء، يرجو رجاءً ورجاوَةً، أي: أمَّلَ وُقوعه، وضدُّه: اليأسُ والقُنوطُ[5]، ويأتي الرَّجاءُ بمعنى الطَّمع في الشَّيءِ، فيُقالُ: رجا الخيرَ، أي: طَمِعَ فيه، والتَّرجِّي، والارتجاء، والتَّرجية، كلُّ ذلك بمعنى الرَّجاء[6]، ومن معانيه أيضًا: التَّرقُّب، والظَّنُّ، والخَوفُ[7]، والمقصود بالرَّجاء في الآية: ترقُّبُ الأمْرِ وتوقُّعه وتَطَلُّبُه، فقد يُقصد به ترقُّب العذاب، فيكون على المجاز، أو تطلُّب المحبوب بمعنى: رجاء الثَّواب[8].

3) ﴿أَيَّامَ﴾: أصلُ (يوم) كلمةٌ واحدةٌ، هي اليومُ الواحد من الأيّام، واليومُ مِقدارٌ من الزَّمان، أوَّله طُلوعُ الشَّمس أو من طلوع الفجر الصّادق إلى غُروب الشَّمس[9]، ومن مَعاني اليوم: الوَقْتُ، والزَّمَنُ، تقولُ: خَبَّأتُ المالَ لِهذا اليَومِ، أي: لِهذا الوَقتِ، والجَمعُ: أيّامٌ[10]،

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) الراغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 338.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجا - رجو).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى)، والزبيدي، تاج العروس: (رجو).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (رجو)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 340.
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (يوم).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (يوم).

ثمَّ يستعيرونه في الأمْرِ العظِيم، ويقولونَ: نِعْمَ فُلانٌ في اليوم؛ إذا نزل[1]، ولفظ يوم - مفرده أو جمعه - إذا أُضِيفَ إلى اسم أحدٍ أو قوم أو قبيلةٍ كان المرادُ به اليومَ الَّذي حصلَ فيه لمن أُضِيفَ هو إليه نَصْرٌ وغلَبٌ على مُعاندٍ أو مُقاتلٍ، ومنه أُطلِقَ على أيّام القتالِ المشهورة بين قبائل العرَب: أيّامُ العرَب، فمعنى أيّام اللّه وقائعه بأعدائه أو أيّام نصر اللّه للمؤمنين وثوابهم ووعدهم بها[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّجاوز عن أذى المشركين والصَّفح عنهم لجهلِهم لوقائع اللّه وعظيم ثوابِه

يأمُرُ الحقُّ نبيَّه ﷺ أن يَحُضَّ المؤمنينَ على التَّجاوُزِ والصَّفح عن المشركينَ الَّذين يُؤذونَهم حتَّى يأتيَ اللّهُ بأمره، فيقولُ سبحانه: قل - أيُّها النَّبيُّ الكريم - للمؤمنين: اغفروا لمن أساءَ إليكم؛ فيغفروا، ويصفحوا عن الأذى الَّذي أصابهم من الَّذين لا يَرجونَ ثوابَ اللّه، ولا يَخافونَ وقائعَه، وأن يَصبِروا على أفعالهم، ولا يُعاقِبوهم، إنَّما أُمِرَ المُؤمِنونَ بالمَغفرةِ للَّذين يُؤذونَهم؛ ليجزيَ اللّهُ أعداءَهم هؤلاء بما كسبوه من آثامٍ، فيُعَذِّبَهم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الخطاب بفعل الأمر ﴿قُل﴾:

ما يأمر به رسولُ الله ﷺ هو عين ما يأمر به الله تعالى

جاء الخطاب بصيغة فعل الأمر ﴿قُل﴾ الموجَّه إلى رسول اللّه ﷺ - مع أنَّ رسول اللّه ﷺ مأمور بتبليغ جميع القرآن - للاهتمام بحصول الأمر وإيقاعِه، ولاسترعاء أسماع المخاطَبين لِما سيَرِدُ بعدَ فعلِ ﴿قُل﴾، فيكون أوثق في تحقيق الأمر؛ لأنَّه مبنيٌّ على تلقين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 139، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 185، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 80، والواحدي، الوسيط: 4/ 96 - 97، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 266، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 880، وابن عثيمين - سورة فصلت، ص: 282.

اللّه تعالى لرسوله ﷺ ما يقوله للمؤمنين، ولتنبيه المخاطَبين من المؤمنين على أهمّيَّة المقول لتترقَّبه أسماعهم بشوقٍ، ويكون فيه مزيدُ اعتناء بشأن المأمور به، وفيه إشعار بأنَّ ما يأمر به رسول اللّه ﷺ هو عين ما يأمر به اللّه تعالى، كما أنَّ في الخطاب بـ﴿قُل﴾ تشريفًا للمخاطَب، وهو رسول اللّه ﷺ، ولِمَن يبلّغون بالخطاب، وهم الذين آمنوا.

تعيين المقصود بالخطاب في ﴿قُل﴾:

الخطاب لمعيَّن والمقصود جميع المؤمنين

الخطاب بـ﴿قُل﴾، وإن كان في الأصل لمعيَّن، وقصد به هنا رسول اللّه ﷺ؛ لأنَّه الذي يوحى إليه، لكنَّه يقصد به العموم، بقرينة أنَّ الخطاب لجميع المؤمنين، وتجريدُ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ مع أنَّ الخطاب للعموم للمبالغة في ترغيب المؤمنين على امتثال الأمر، وقد جاء في الحديث: «كانَ النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ يَعفونَ عنِ المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ، كما أمرَهمُ اللّه، ويصبرونَ على الأذى»[1].

سبب توجيه الأمر إلى رسول الله ﷺ:

العفو عن الكافرين والصَّفح عنهم ممّا يصعب على النَّفس، ولا يطيقه إلّا المؤمنون

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾ وُجِّه الأمر إلى رسول اللّه ﷺ؛ ليبلِّغ المؤمنين، ويأمرهم، ولم يتوجَّه الأمر إلى المؤمنين مباشرة؛ للإشعار بأنَّ العفو عن الكافرين والصَّفح عنهم ممّا يصعب على النَّفس، ولا يطيقه إلّا المؤمنون، فإنَّ في أمر اللّه تعالى رسولَهُ الكريم ﷺ بتبليغ المؤمنين وأمرِهم اجتماعًا لأمر اللّه تعالى وأمر رسولِه ﷺ، على أن يمتثل المؤمنون، فيغفروا للَّذين لا يرجون أيّام اللّه.

غرضُ الأمرِ في قوله: ﴿قُل﴾:

جاء الأمر في قولِه: ﴿قُل﴾ للإيذان بأنَّ المأمور به متعيَّن، فهو أمرٌ بطريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ.

(1) البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث: (4290).

فائدة اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ لام التَّبليغ، وهي تفيد تقوية فعل القول عندما لا تكون هناك حاجةٌ لذكر المواجهة بالقول، ولمّا كان الأمر على سبيل الامتثال للأمر؛ أفادت اللّام كذلك معنى النَّفع، أي: إنَّ هذا القول فيه نفعٌ للَّذين آمنوا.

كلُّ ما يقوله رسول الله ﷺ فيه نفعٌ للمؤمنين

مناسبةُ التَّعبير بالموصول وصلته:

عبَّر بالموصول وصلته في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ - دون أن يأتي بالاسم الظّاهر، فيقال: (قل للمؤمنين) - لمدحهم والثَّناء عليهم، وللإيماء إلى أنَّ جملة الصِّلة معلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه حاضر في أذهان المخاطَبين، بمعنى: أنَّ الَّذين آمنوا معروفون وحاضرون، كما أفاد التَّعبير بجملة الصِّلة الإيماء إلى سبب الأمر بالمغفرة ووجه امتثالِهم له، بمعنى: أنَّه لولا إيمانُهم باللّه وبرسوله؛ لَما أمروا هذا الأمر، وأنَّ إيمانَهم سبب في مغفرتِهم للَّذين لايرجون أيّام اللّه، وفي التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه إشارةٌ، كذلك إلى تعظيم أمرِ الإيمان.

الإيمان يصنع العجائب، فبسببه يصفح المؤمنون عن أذى الكافرين

علَّةُ اختيار عنوان الإيمان:

اختيرَ عنوانُ الإيمان في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون أن يذكر عنوان التَّقوى أو الصلاح مثلًا؛ للإشعار بأنَّ الإيمان باللّه وبرسولِه يقضي على المؤمنين الامتثال لأمر رسول اللّه ﷺ، وأن يغفروا للَّذين لا يرجون أيّام اللّه، وأنَّ مغفرتَهم لهم هي بمقتضى إيمانِهم لعلمِهم بأنَّ اللّه تعالى الذي آمنوا به هو الَّذي يجازيهم على أعمالِهم يوم القيامة.

الإيمانُ بالله وبرسولِه يقضي على المؤمنين الامتثال لأمر رسول الله ﷺ

نكتة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾، وحذف متعلّق الإيمان:

عبَّرت الآية الكريمة بالفعل الماضي في لفظ الإيمان؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الإيمان قد تحقَّق فيهم بمجرَّد أن سمعوا به، وكذلك حذفت الآية متعلّق الإيمان، فلم تقل مثلًا: إنَّهم آمنوا باللّه ورسوله، أو باليوم الآخر للتَّعميم؛ وذلك حتّى يشمل كلَّ أركانه.

الثَّناء على المؤمنين بسرعة استجابتهم لنداء الإيمان

سرُّ حذف الأمر وإقامة جوابه مقامه:

المؤمنون بمجرَّد لمحِهم لأمر رسول الله ﷺ يقومون بالأمر، ويمتثلون له

في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ﴾ حُذِفَ مقولُ القول، وهو (اغفروا)، وأقيم جواب الطَّلب مقامه لدلالتِه عليه، فجرى الكلام على ظاهر اللَّفظ، كأنَّه أقام الفعل ﴿يَغۡفِرُواْ﴾ مقام جواب: ﴿قُل﴾، وتقدير الكلام: قل للَّذين آمنوا: اغفروا؛ إن قلت لهم: اغفروا، يغفروا، وسرُّ حذف مقول القول، وهو فعل الأمر (اغفروا) هو أنَّه لمّا كان لا يلزم من الأمر بالمغفرة أن يغفروا؛ لجواز تخلُّف الامتثال عن الأمر؛ آذن إقامة جواب الطَّلب المحذوف مقام الطَّلب بفرط طواعية الذين آمنوا لرسول اللّه ﷺ وسرعة مبادرتِهم إلى العمل بأمره وانقيادهم له، بحيث لا ينفكُّ فعلهم عن أمره، وآذن كذلك بأنَّ أمْرَه ﷺ كالسَّبب الموجِب لفعلِهم، فصوَّره كالأمر الواقع الحاصل قبل سماعِ الأمر، فكأنَّهم بمجرَّد لمحِهم أمْرَ رسول اللّه ﷺ يقومون بالأمر قبل سماعِهم له، ففيه مدح للمؤمنين أيَّما مدح؛ لأنَّ فيه ثقةً بالمؤمنين أنَّهم إذا قال لهم الرَّسول ﷺ: امْتَثَلوا، كما أنَّ فيه حثًّا على الإسراع إلى امتثال أمر رسولِ اللّه ﷺ في كلِّ ما يأمر به، وذهب بعض المفسِّرين إلى جواز أن يكون التَّقدير: قل للَّذين آمنوا: ليغفروا، فيكون الفعل المضارع مجزومًا بلام الأمر المحذوفة.

نكتة اختيار مفردة المغفرة دون العفو والصَّفح:

المؤمن إذا غفر لأهل الجرائم يصير متخلِّقًا بأخلاق الحقِّ

عبَّر بالمغفرة في قوله: ﴿يَغۡفِرُواْ﴾، دون أن يقال: قل للَّذين آمنوا يعفوا عن الذين لا يرجون أيّام اللّه، أو يقال: قل للذين آمنوا يصفحوا؛ لما يفيده لفظ المغفرة من معنى السَّتر المقتضي للتَّجاوز عن أقوال الذين لا يرجون أيّام اللّه، وعن أفعالِهم مع المؤمنين، ومسامحتِهم وإقالتِهم مع إثابتِهم والإحسان إليهم، فإنَّ المغفرةَ تكون بالقول وبالفعل، وأمّا العفو؛ فهو يدلُّ على محو الذَّنب وإسقاط العقاب، وأمّا الصَّفح؛ فيدلُّ على ترْكِ المؤاخذة على الذَّنب بترك

العقاب وترك اللَّوم، فكان التَّعبير بالمغفرة أوفقَ بالمقام؛ لأنَّه طلب من المؤمنين سَتْرَ ذنوب الكافرين والتَّجافي عنها في الظَّاهر دون الباطن مع الإحسان إليهم(1)، ولئلّا يعيِّروا الكافرين بذنوبِهم، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المغفرةَ أعلى مراتب مكارم الخُلق الَّتي يقتضيها الإيمان باللّه وبرسولِه ﷺ.

نوعُ اللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

اللّام في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ هي لام الاختصاص، بمعنى: أنَّ مغفرة المؤمنين هي مختصَّة بالَّذين لايرجون أيّام اللّه، ففي الاختصاص أعلى مراتب حسن الخلق للمؤمنين مع الكافرين، كما تقدَّم.

مناسبةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

الكافر المؤذي لا يستحقُّ الصَّفح عنه، وإنَّما هو فضل من المؤمنين

عبَّر بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾؛ للتَّعريض بإهانة الكفّار وقبح فعلِهم في كونِهم لا يرجون أيّام اللّه، وللإيماء إلى أنَّهم لايستحقّون المغفرة، وإنَّما هو فضل من المؤمنين، كما أنَّ في مجيءالموصول وصلتِه إشعارًا بالمقابلة بين التَّعظيم الذي أفاده ذكر الإيمان والإهانة الَّتي أفادها ذِكرُ الذين لايرجون أيّام اللّه، ولهذا لم يقل موجزًا في الكلام: (قل للمؤمنين: يغفروا للكافرين)؛ ليكونَ التَّعبير بطريق الإطناب أوفى للمعنى.

بلاغةُ التَّعبير بقولِه: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ بين المجاز والحقيقة:

الانهماك في الشَّهوات يؤدّي إلى الغفلة عن أيّام الله

يحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ على طريق الاستعارة التَّهكّميَّة، والمراد: لا يخافون أيّام اللّه، ولا يبالون نقمتَه، فشبَّه الخوف بالرَّجاء على سبيل التَّهكُّم؛ لأنَّهما متباعدان ونكتة التَّعبير بالاستعارة التَّهكّميَّة: التَّنبيه إلى فرط غفلة الكافرين عن أيّام اللّه، ويحتمل أن يكون الرَّجاء مجازًا عن التَّوقُّع، والمعنى: لا يتوقَّعون أيّام اللّه، أي: وقائعه بأعدائِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صفح، عفو، غفر).

فإنَّ الراجي شيئًا يتوقَّعه، ولا يقطع بحصولِه، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون الرَّجاء على أصل معناه، فيكون على الحقيقة، ويكون المرادُ بأيّام اللّه نِعَمَهُ وثوابَهُ، أي: لا يأملون الأوقات الَّتي وقَّتها اللّه لثواب المؤمنين، ووعدهم الفوز فيها[1].

دلالة استعمال النَّفي في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ دون الإثبات:

ليس للمؤمنين حظٌّ في أنفسهم عندَ مغفرتِهم للكافرين والصَّفح عنهم

لم يقل: قل للَّذين آمنوا يغفروا للَّذين أساؤوا إليهم، بل قال: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لحثِّهم على فعل الرَّجاء وبيان أنَّه المخلِّص لهم من الوقوع في عذابه، وللإيذان بأنَّ مغفرتَهم لهم ليس لكونهم أساؤوا لهم، بل لكونِهم لايرجون أيّام اللّه، فالأمر متعلِّق بجهل الكافرين عقاب اللّه، فليس للمؤمنين حظٌّ في أنفسهم عندَ مغفرتِهم للكافرين والصَّفح عنهم.

نكتةُ نفي الرَّجاء دون نفي الإيمان:

إن كان اللّه أمر المؤمنين أن يصفحوا عن الكافرين فالصَّفح عن الموافق في الدّين أولى وأرغب

أوثِرَ نفيُ الرَّجاء في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ دون نفي الإيمان؛ لأنَّه لمّا طلب المغفرة؛ ناسب تعليقها بمن لا يرجو أيّام اللّه، ويجهل عظم عقاب اللّه لأعدائِه، فيقع منه التَّجاوز في الكلام المؤذي والفعل الفاحش، فإنَّ من لا يرجو أيّام اللّه، ولا يخاف عقابَه؛ يتجاوز في كلامِه وفعلِه، ولا يهتمُّ بالعاقبة، فليس سبب طلب المغفرة هو كفر الكافرين بل الأمر متعلِّق بجهلِهم بأيّام اللّه، وما يصدر منهم بسببه من التَّجاوز في الأقوال والأفعال، ولمّا طلب المغفرةَ للَّذين لايرجون أيّام اللّه؛ تضمَّن الكلامُ أعظمَ ترغيبٍ في الحثِّ على الغفران للموافق في الدين[2].

وفي التَّعبير عن نفي الإيمان بنفي الرَّجاء نوعٌ من المجاز المرسل

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 13/ 353، والزمخشري، الكشاف: 4/ 288، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 79.

لعلاقة السَّببيَّة والمسبَّبيَّةِ، فإنَّ نفي الإيمان باللّه مستلزمٌ لنفي الرَّجاء بأيّامه.

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

طلبُ المغفرة من المؤمنين مستمرٌّ وإن استمرَّ كفرُ الكافرين

عبَّرَ بصيغة المضارع في قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد عدم رجاءِ الكافرين أيّام اللّه واستمرارِه، ويقتضي أنَّ طلب المغفرة من المؤمنين مستمرٌّ وإن تجدَّد عدم رجائِهم، فضلًا عن إفادة هذا الفعل استحضار هذه الصّورة البشعة لهم، وهم ينصرفون عن فعل الرَّجاء.

بلاغةُ المجاز في قوله تعالى: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾:

الكافرون لا يترقَّبون أيّام عذاب اللّه ونقمتِه لغفلتِهم عنها

التَّعبير بقولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ هو مجازٌ عن وقائع اللّه بأعدائِه، من قولهم: أيّام العرب لوقائِعهم وما يقع فيها من الأمور العِظام، فجائزٌ أن يكون هناك مجازٌ بالحذف، والتَّقدير: لا يرجون أيّام غضب اللّه، ويمكن أن يكون هناك مجازٌ عقليٌّ لعلاقة الزَّمانيَّة؛ إذ أسند عدم الرَّجاء للأيّام، وأراد ما يقع فيها من أحداثٍ جسامٍ، والمرادُ أن يغفروا للَّذين لايتوقَّعونَ أيّام نقمة اللّه وعذابِه وما فيها من الشَّدائد، ولايترقَّبونها لغفلتِهم عنها وكفرِهم بها، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون المرادُ بأيّام اللّه نِعَمَهُ وثوابه، فيدخل فيه أيّام نصرِ المؤمنين وأيّام ثوابِهم، ويكون المراد بالأيّام مطلقَ الأوقات ولا مجاز حينئذٍ[1].

نكتةُ إضافة أيام إلى اسم الجلالة:

أيّام عذاب اللّه ونزول شدائده مهولة عظيمة ليست كسائر الأيّام

أُضيفت الأيّام إلى اسم الجلالة في قولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ للتَّعظيم؛ لتفيد الإشعار بعظم النِّقمِ في هذه الأيّام وشدائِدها، وأنَّها أيّام ليست كسائر الأيّام.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 288، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 161، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70.

دلالةُ جمع أيّام دون إفرادها:

أيّـام عـذاب الله كثيرة غير منقطعةٍ، كالأعاصير والسّيول الَّتي تحيط بالكافرين

أومأ مجيءُ لفظ الأيّام جمعًا في قوله: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ إلى كثرة هذه الأيّام، ولمّا كانت هذه الأيّام عقابًا للكافرين ونصرةً للمؤمنين ورحمةً بهم؛ أفاد الكلام أنَّ أيّام اللّه كثيرةٌ متنوِّعة غير منقطعةٍ، كالأعاصير والسّيول الَّتي تحيط بالكافرين وغيرها، وفي ذلك مزيدٌ من التَّهديد والتَّخويف لهم، ولو جاء لفظ اليوم مفردًا؛ لظُنَّ أنَّ الكلام عن يومٍ بعينه.

بلاغةُ الكنايةِ عن حال المؤمنين:

أيّامُ عذاب الله هي أيّام نصرٍ للمؤمنين

لمّا كان تركيب ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ مجازًا مستعملًا في وقائع اللّه بأعدائِه - على قول أكثر المفسِّرين - أفاد بلازمِه على طريق الكناية أنَّها أيّام نصر اللّه للمؤمنين، فإنزال العذاب على الكافرين يفيد نجاةَ المؤمنين ونصرَهم، فمغفرة المؤمنين للكافرين يعقبها نصر اللّه لهم والظُّهور على أعداء اللّه.

نكتةُ حذف متعلِّق قوله: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾:

لمّا جاء التَّركيب غير مقيَّدٍ بكونِه في الدُّنيا أو في الآخرة؛ أفاد عموم الأمر، بمعنى: أنَّ أيّام اللّه تشمل عقابَه ونقمتَه لأعدائِه في الدُّنيا وفي الآخرة.

نوع اللام ودلالتها ﴿لِيَجْزِىَ﴾:

تهديدُ الجاني الَّـذي يعتدي على المؤمنين

اللّام في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ تعليل للأمر بالمغفرة، أي: إنَّما أمروا بأن يغفروا لِما أراده اللّه من توفية الَّذين آمنوا جزاء مغفرتهم يوم القيامة[1]، ويجوز أن تكونَ اللّام تعليلًا للأمر بالقول؛ لأنَّ القول سببٌ لامتثالهم المجازي عليه، وعلى الوجهين فإنَّ في التَّعليل تهديدًا للجاني الذي لا يرجو أيّام اللّه، فيعتدي

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 288.

على المؤمنين، كما أنَّ فيه تسليةً للمؤمنين المُجنى عليهم بما أعدَّ لهم من الجزاء الحسن الأوفى[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ الجزاء:

إرضاء المؤمنين ومكافأتهم على مغفرتهم للكافرين

عبَّر بلفظ الجزاء في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾؛ لما يفيده اللَّفظ من معنى المقابلة على ما قدَّمه الذين آمنوا من الصَّبر واحتمال الأذى بما يكون فيه الغناء والكفاية[2]، بمعنى: أنَّه تعالى يكافئهم على مغفرتِهم بِما يكون فيه كفايتهم، ويكون مقبولًا عندهم.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع (يَجزِيَ):

بشارةُ المؤمنين بتجدُّد الجزاء على مغفرتهم، فهو جزاء لا ينقطع ولا يمتنع

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ﴾؛ للإشعار بتجدُّد جزائِه تعالى، وأنَّه مستمرٌّ لا ينقطع، ففيه إيماء إلى أنَّ الجزاء على مغفرتِهم وعملِهم الصّالح لا يختصُّ بالدّار الآخرة، بل يشمل الدُّنيا والآخرة، وإن كان الجزاء الأوفى والأعظم هو في الآخرة، وقد يُقال: إنَّ ذِكر الفعل الماضي في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يشير إلى أنَّ الجزاء على ما قدَّموه في الدُّنيا، فيرشِّح أن يكونَ المراد الجزاء يوم القيامة، وعلى هذا الوجه يكون التَّعبير بصيغة المضارع؛ لإفادة تجدُّد الجزاء واستمرارِه يوم القيامة، فهو جزاء لا ينقطع، ولا يمتنع.

سببُ إضمار فاعل ﴿لِيَجْزِىَ﴾:

صاحبُ الوقائع الَّتي تحلُّ بالذين لا يرجون أيّام الله هو صاحب الجزاء الذي يجزي به الذين آمنوا

أضمر فاعل ﴿لِيَجْزِىَ﴾ العائد إلى الاسم الجليل في قولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ إيجازًا للعلم به، وحتّى ينشغلوا بفعل الجزاء نفسه دون الفاعل، وليفيد أنَّ صاحبَ الوقائع الَّتي تحلُّ بالَّذين لا يرجون أيّام الله هو صاحب الجزاء الَّذي يجزي به الَّذين آمنوا، وغفروا لهم، ففيه تقرير لتسلية المؤمنين.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 80.
(2) الراغب، المفردات: (جزا).

توجيه القراءات القرآنية المتواترة في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

تنوُّع القراءات تنوُّعٌ في المعنى وتوسيع له

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائيُّ وخلَف ﴿لِنَجۡزِيَ﴾ بالنّون، وقرأ الباقون: ﴿لِيَجۡزِيَ﴾، وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيُجۡزَىٰ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول[1] في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا﴾، وتوجيه هذه القراءات أنَّه على قراءة ﴿لِنَجۡزِيَ﴾ يكون الفاعل ضمير العظمة العائد إلى الله تعالى، ويكون الكلام على الالتفات من الغيبة إلى التَّكلُّم، وهو من العدول البلاغيِّ، ونكتة الالتفات: الإشعار بعظمة الجزاء وفخامتِه، وأنَّه جزاء لا يضاهيه جزاء؛ لأنَّه من عند الملك العظيم الواحد الأحد، وعلى قراءة ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ يكون الفاعل ضميرًا مستترًا عائدًا إلى اسم الجلالة، الذي هو أقرب مذكور في قولِه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾، وتقدَّم توجيهه، وعلى قراءة ﴿لِيُجۡزَىٰ﴾ بصيغة المبني للمفعول يكون النّائب عن الفاعل هو الضَّمير العائد إلى المصدر المأخوذ من الفعل، والمقصود: المعنى الحاصل من المصدر، أي: ليُجَزى الجزاءُ قومًا بما كانوا يكسبون، أو يكون الجارُّ والمجرور ﴿بِمَا﴾ هو القائم مقام الفاعل، أو يقال: النّائب عن الفاعل هو ضميرُ المفعولِ الثاني، وعادَ الضَّميرُ عليه لدلالةِ السِّياقِ، أو يقال: أُضمِر الفاعلُ بدلالة السّياق عليه، والتَّقدير: ليُجْزَى الخيرُ قومًا؛ إن كان المراد من لفظ ﴿قَوۡمَۢا﴾ المؤمنين، أو يكون التَّقدير: ليُجزى الشَّرُّ قومًا؛ إن كانَ المراد من اللَّفظ الكافرين[2].

بلاغةُ العدول من الإضمار إلى الإظهار:

الـصَّـفـح عـن الذين لا يرجون أيّام الله ليست عن ضعفٍ وذلَّة بل هي عن قوَّة وصلابة منهم

كان الظّاهر أن يقال: ليجزيَهم بما كانوا يكسبون؛ ليعود الضَّمير إلى الاسم الموصول، أي: ليجزي الذين آمنوا، لكنَّه عدل إلى الإظهار في مقام الإضمار، فقال: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا﴾؛ ليفيد المدح، فإنَّ لفظ

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 360، وابن الجزري، النشر: 2/ 372.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والعكبري، التبيان: 2/ 1152، والمنتجب الهمذاني: الكتاب الفريد: 5/ 589، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 300 - 301.

القوم في نفسه اسم مدح على ما يرشد إليه الاشتقاق والاستعمال في نحو قول العربِ: يا بنَ القوم[1]، كما أشعرَ اللَّفظُ بأنَّ الذين آمنوا لَيسوا بِمَضيَعَةٍ عِند اللّه، فإنَّ لَفظ (قَوم) مُشْعِرٌ بِفَريقٍ له قِوامُهُ وعِزَّتُهُ[2]، ومن بلاغة العدول ونكتة اختيار لفظ القوم الإيماءُ إلى أنَّ مغفرتهم للَّذين لا يرجون أيّام اللّه ليست عن ضعفٍ وذلَّة، بل هي عن قوَّة وصلابة، كما يومِئ اللَّفظ بأنَّ من فعل فعلَهم؛ كان له من الجزاء مثلهم، وكان من القوم؛ لأنَّ مَن فعلَ فِعلَ قومٍ؛ نُسِبَ إليهم.

دلالةُ تنكير ﴿قَوۡمَۢا﴾:

تـتـنـوَّع أغـراضُ التَّنكير بحسب المعاني المحتملة

تنكير لفظ ﴿قَوۡمَۢا﴾ للتَّعظيم[3]؛ لأنَّ المراد من القوم هم المؤمنون، بقرينة: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهُم معروفون بإيمانِهم، ففي هذا التَّنكير كمالُ التَّعريف والتَّنبيه على أنَّهم لا يَخْفَون، نُكِّروا، أو عُرِّفوا، مع العلم بأنَّ المجزيَّ لا يكون إلّا العاملَ، وهو الغافر هنا، أي: أمروا بذلك ليجزي اللّه تعالى يوم القيامة قومًا أيَّما قوم، وقومًا مخصوصين بما كسبوا في الدُّنيا من الأعمال الحسنة الَّتي من جملتها الصَّبر على أذيَّة الكفّار والإغضاء عنهم بكظم الغيظ واحتمال المكروه[4]، هذا وقد جوَّز بعض المفسِّرين أن يرادَ بالقوم الكفرةُ، ويكون التَّنوين للتَّحقير، أي: ليجزيَ قومًا حقيرين ذليلين، أو يكون التَّنوين التَّعظيم، بأن يكون المقصود شدَّة عتوِّهم وبغيِهم[5]، وكأنَّه قيل للمؤمنين: لا تكافئوهم أنتم حتَّى نجزيَهم نحن يوم القيامة بما كانوا يكسبون[6]، كما أجاز آخرون أن يرادَ بالقوم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 342.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 289، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 145.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 423.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.

العمومُ، ويكون التَّنوين في ﴿قَوۡمَۢا﴾ للشُّيوع والتَّنويع ليشمل المؤمنين والكافرين، والمعنى: ليجزي كلَّ قوم بما كسبوا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بِما يُناسِبُ كسْبَهُم، فَيكونُ وعيدًا لِلمُشرِكِينَ المُعتَدينَ عَلى المُؤمِنِينَ ووعدًا لِلمُؤمِنِينَ المَأمورينَ بالصَّفحِ والتَّجاوُزِ عَن أذى المُشرِكِينَ، فيكون قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ على سبيل الإجمال الَّذي يتناول أهلَ الإيمان وأهل الكفر[1].

بلاغةُ فنِّ التَّجريد في لفظ ﴿قَوۡمَۢا﴾:

العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب

لمّا كان الذين آمنوا معروفين؛ كان تنكير ﴿قَوۡمَۢا﴾على التَّجريد ليفيد المدح والثَّناء، بمعنى: ليجزي قومًا مخصوصين بما يقصُر عنه البيانُ من الثَّوابِ العظيم، ولمّا كانت هذه الآية قد نزلت في عمر بن الخطّاب رضي الله عنه؛كان التَّعبير بـ﴿قَوۡمَۢا﴾ على جهة التَّجريد، بمعنى جرَّد عمر رضي الله عنه من نفسه شخصًا اسمه عمر، كأنَّه غيره، وحكم عليه بأنَّه ليجزى ما صنع من صبره واحتماله من الرَّجل الَّذي شتمه من غفار، وهمَّ أن يبطش به، فكأنَّ عمر رضي الله عنه صار هو القوم على سبيل المدح والثَّناء ورفعة العمل، فقد جاء في سبب نزول الآية أنَّ رَجُلًا من بني غِفار شتم عُمَرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه بمكَّةَ، فهَمَّ عمر أن يَبطِشَ به، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمره بالعفو والتَّجاوز[2].

فائدةُ الباء في ﴿بِمَا﴾:

الباء في قولِه: ﴿بِمَا﴾ للمقابلة بمعنى: أنَّه تعالى يجزيهم جزاء عظيمًا في مقابل ما كانوا يكسبون، ويحتمل أن تكون الباء للسَّببيَّة، بمعنى بسبب ما كانوا يكسبون.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 106، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 70، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 423.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 17/ 354.

دلالة (ما):

(ما) في قوله: ﴿بِمَا﴾ موصولة؛ لتدلَّ على العموم، وقوّى هذا العموم، وقرَّره حذْفُ العائد في قولِه: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾، والتَّقدير: بما كانوا يكسبونه؛ ليفيد اللَّفظ بعمومِه استغراق جميع أعمالِهم، كما يفيد التَّعبير بلفظ العموم تفخيم عملِ المؤمنين وكسبِهم.

دلالة التَّعبير بتركيب ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الحثُّ على الاستمرار في العفو والصَّفح وكظم الغيظ عن أذى الكافرين

قوله تعالى: ﴿كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ جاء بصيغة (كان يفعل)، وهذه الصّيغة تدلُّ على الاستمرار التَّجدُّدي بمعنى تكرُّر الفعل منهم وكثرته، ولا سيَّما إذا استُعمل في معرض المدح أو الذَّمِّ، فإنَّه يُفهم منه التَّكرار في عرف اللُّغة[1]؛ ليفيد أنَّ المؤمنين كانوا مستمرّين على مغفرتِهم للكافرين مع تجدُّد أعمالِهم الصّالحة وكسبِهم الحسن ما داموا في الدُّنيا.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الكسب دون العمل:

براعةُ التَّعبير القرآنيِّ في اختيار المفردة الأحقِّ بالمقام

عبَّر بقوله ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ - دون أن يقال: (بما كانوا يعملون) - لأنَّه لمّا كان الكسب يُطلق على ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال - وليس كذلك لفظ العمل؛ لأنَّه يشمل عمل الخير والشَّرِّ - كان التَّعبير بلفظ الكسب مؤذنًا بأنَّ مغفرتَهم للكفرة وتحمُّلَهم الأذى منهم، فيه خيرٌ كبير للمؤمنين، ومنفعة عظمى لهم، وإن كان المراد مِن القوم ما يشمل الكافرين أيضًا؛ كان في التَّعبير بلفظ الكسب دون لفظ العمل جمْعٌ بين الحقيقة والمجاز؛ لأنَّه في حقِّ المؤمنين اجتلاب نفع وفي حقِّ الكافرين يكون الكلام على طريق الاستعارة التَّهكُّميَّة؛ لأَنَّهم كانوا يظنّون أنَّهم بكفرِهم وأعمالهم القبيحة يجلبون منفعةً لهم، لكنَّهم استجلبوا مضرَّة وأيَّ مضرَّة، فعبَّر بالكسب تهكُّمًا بهم.

---

(1) ابن التلمساني، شرح المعالم في أصول الفقه: 1/ 492، والشاطبي، الموافقات: 3/ 258.

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١٥﴾ [الجاثية: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مــن عــمــل صالحًا؛ فنفْعُ ذلـك لـه، ومن عـمـل بالـكفر والمـعـاصي؛ فضرر ذلك على نفسه

لمّا تقرَّر في الآية السّابقة أنَّ اللّه يجزي قومًا بكسبهم، وأفهم أنَّه تعالى يعاقب على ذنوبِهم واجترامهم؛ أكَّد ذلك، وصرَّح بالحكم العامِّ الَّذي يتناول الصّالحين والمسيئين، فقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾[1]، وأيضًا لمّا رغَّب ﷻ، ورهَّب، وقرَّر أنَّه لا بدَّ من الجزاء؛ زاد في التَّرغيب والتَّرهيب بأنَّ النَّفع والضُّرَّ لا يعدوهم، فقال تعالى شارحًا الجزاء: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾[2].

المَعنى الإجماليُّ:

العمَلُ الصّالح يـعـود بالنَّفع عـلى فـاعِـلـه، والـرَّديء يعود بالضَّرَر عليه

ومَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللّهِ تعالى، فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه؛ فنَفْعُ ذلك له، ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي؛ فضَرَرُ ذلك ووَبالُه على نَفْسِه، لا على غيرِه، ثمَّ إلى رَبِّكم تَصيرونَ - أيُّها النّاسُ - بعدَ مَوتِكم أحياءً يومَ القيامة، فيُجازيكم على أعمالِكم خَيرِها وشَرِّها، ففي الآية إرشاد إلى تعليم الأخلاقِ الفاضِلة، والأفعالِ الحَميدة، وأنَّ العَمَلَ الصّالحَ يَعودُ بالنَّفعِ العَظيم على فاعِله، والعَمَلَ الرَّديءَ يَعودُ بالضَّرَرِ على فاعِله، وأنَّه تعالى أمَرَ بهذا، ونهَى عن ذلك؛ لحَظِّ العَبدِ، لا لِنَفعٍ يَرجِعُ إليه سُبحانَه، وهذا تَرغيبٌ منه في العَمَلِ الصّالح، وزَجرٌ عن العَمَلِ الباطِلِ، فمتى عَلِمْتَ أنَّ عمَلَك لِنَفْسِك؛ فسوف تجتهدُ في هذا[3].

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 82.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 80، والواحدي، الوسيط: 4/ 96، و97، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 266، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 880، وابن عثيمين - سورة فصلت، ص: 282.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الفصل في الآية:

كـلُّ إنـسـانٍ متعلِّق بعملِه إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ

جاءت جملة: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ على طريق الفصل لكمال الاتِّصال؛ لأنَّها تفصيل لِما أجمل في قولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، فالجملة بدل الكلِّ من الكلِّ، وفائدة مجيء البدل بيان عظم الأمر في تعلُّق كلِّ إنسان بعملِه، وأنَّ الجزاء يوم القيامةِ يكون على جميع الأعمال، ويكون قوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾، كالمثلِ يضربُه اللّه لِلَّذِين يَغْفِرونَ، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾ مَثَلًا يضربُه لِلكُفّارِ الَّذينَ كانوا يُقْدِمونَ عَلى إيذاءِ الرَّسولِ والمُؤمِنينَ وعَلى ما لا يَحِلُّ[1]، فيظهر بمجموع البدل والمبدل منه مزيد اعتناء بمضمون الجملتين[2]، ويحتمل أن يكون الفصلُ في الجملة؛ لكونها جاءت بيانًا وإيضاحًا لما قبلها، من حيثُ إنَّه لمّا قال: ﴿لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ احتمل أن يُظنَّ أنَّ الجزاء لبعض القوم دون آخرين، أو أنَّ الجزاءَ يكون مقصورًا على من عمل صالحًا، فجاءت جملة: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾، وما عُطفَ عليها؛ بيانًا لِما قبلها وإيضاحًا للمقصود.

دلالة ﴿مَنۡ﴾:

الـجـزاء يـوم الـقـيـامة لكلِّ فـردٍ، فـكـلُّ نفسٍ تُجزَى بما كسبت

لمّا كان الكلام في بيان عموم الجزاء وكيفيَّته خيرًا كان أو شرًّا؛ عُبِّرَ باسم الشَّرط ﴿مَنۡ﴾ الدّالِّ على العموم؛ ليتناول اللَّفظ كلَّ من عملَ صالحًا، ومثله اسم الشَّرط في قوله: ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ﴾؛ فإنَّه يتناول كلَّ من أساء العملَ، ولمّا جاء فعل الشَّرط مسندًا إلى الضَّمير المفرد في قوله: ﴿عَمِلَ﴾ و﴿أَسَآءَ﴾؛ دلَّ على أنَّ العمومَ على معنى كلِّ فردٍ فردٍ؛ ليفيد معنى قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر: 17].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، تح: زرزور، ص: 253.

سرُّ العدولِ عن مفردة الكسب إلى العمل:

في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عبَّر بلفظ العمل دون الكسب؛ لأنَّ العمل يُستعمل في ما يمتدُّ زمانه، وفيما يحتاج إلى نيَّة وقصد، ولأنَّه لمّا كان الكسب يُستعمل في الأصل فيما يكون فيه خيرٌ ومنفعةٌ، وكان العمل يُستعمل في الخير والشَّرِّ، وكان الكلام في بيان الجزاء على العمل الذي يشمل المؤمن والكافر، وهو أمرٌ كلّيٌّ عامٌّ يدخل فيه الصالح والسيِّئ؛ عبَّر بالعمل دون الكسب، ولهذا قيَّد العمل بقولِه: ﴿صَٰلِحًا﴾، ولا يقيَّد الكسب بالصَّلاح، فلا يقال: (من كسب صالحًا)؛ لأنَّ الكسب في الأصلِ لا يُستعمل إلّا فيما يكون فيه خير وصلاح، أي: فيما فيه رِبحٌ ككسب المالِ[1].

كلمةُ العمل تُستعمل في مجاري الخير والشَّرِّ، والكسبُ في الأصلِ يُستعمل فيما يكون فيه خير وصلاح

نكتة التَّعبير بالماضي ﴿عَمِلَ﴾:

عبَّر النَّظم بصيغة الفعل الماضي ﴿عَمِلَ﴾؛ للإشعار بأنَّ الجزاء بالنَّفع متعلِّق بوقوع العمل الصّالح وتحقيقه.

دلالةُ اختيار مفردة ﴿صَٰلِحًا﴾:

عبَّر بلفظ ﴿صَٰلِحًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دون أن يقال: (من عمل خيرًا)؛ لاقتضاء المقام مفردة الصَّلاح دون غيرِها، وبيانه أنَّه لمّا كان قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ جاء عقب الأمر بالمغفرة؛ أفاد أنَّ المغفرة من العمل الصّالح، وأنَّ ما يفعله الذين لايرجون أيّام اللّه من أذيَّة المؤمنين هو من العمل الفاسد؛ لأنَّ الصلاحَ ضدُّ الفسادِ[2]، كما أفاد أنَّ عملَ المؤمنين بمغفرتِهم للكافرين والصَّبر على أذاهم هو من باب الإصلاح المقابل للفساد، فكأنَّ الذين آمنوا بمغفرتِهم يصلحون ما يفسده الكافرون من الأذى، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ الصَّلاح في المغفرة، ولو قيل: (من عمل

الصَّفح والعفو عن الأذى هو من باب إصلاح الفساد في المجتمع

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمل، كسب).
(2) الراغب، المفردات: (صلح).

خيرًا)؛ لَما أفاد ضرورة المغفرة، وإنَّما ستكون نوعًا من أعمالِ الخير الَّتي تخصُّ الفرد.

نكتة تنكير ﴿صَٰلِحًا﴾:

الحثُّ على العمل الصّالحِ وإن قلَّ

جاء لفظ ﴿صَٰلِحًا﴾ نكرةً؛ لإفادة تعظيم العمل الصّالح وتفخيمه، ففيه ترغيبٌ لعمله، وحثٌّ على فعلِه، كما أنَّ في التَّنكير معنى الشُّيوع؛ ليفيد أنَّ المرادَ أيُّ عملٍ قلَّ أو جلَّ، ويمكن أن يكون التَّنكير مفيدًا لمعنى التَّكثير أيضًا؛ للدَّعوة إلى تكثير الأعمال الصّالحة، لا سيَّما أنَّ ﴿صَٰلِحًا﴾ هي صفة لموصوف محذوف، تقديره: (من عمل عملًا صالحًا).

وظيفةُ الفاء الرّابطة:

نفعُ العمل الصّالح للنَّفس يكون في الدُّنيا، كما يكون في الآخرة

لّما جاءت الفاء في قولِه: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ في موقع جواب الشَّرط، وكانت الفاء للتَّعقيب والتَّرتيب؛ أفادت أنَّ ما قبلها سببٌ لِما بعدَها، بمعنى: أنَّ العمل الصالح سببٌ لنفع صاحبِه، وأنَّ النَّفع يؤول إلى صاحبِه، ويعقبه بحيث لا يتخلَّف عنه، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ نفعَ العمل الصّالح للنَّفس يكون في الدُّنيا، كما يكون في الآخرة، ومثله الفاء في قوله: ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾، فإنَّها أفادت أنَّ العمل السيِّئَ سببٌ لوقوع الضَّرر على النَّفس، وأنَّ الإساءة تؤول إلى فاعلِها بما يعقبها من المضرَّة على النَّفس، كما أفادت الفاء أنَّ المضرَّة لا تتخلَّف بعد الإساءة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ضرر الإساءة على النَّفس يكون في الدُّنيا كما يكون في الآخرة، فالفاء الرّابطة في جواب الشَّرط تدلُّ على جواب شرطٍ محذوفٍ قد سبقها، وعطفت ما بعدها عليه، والتَّقدير هنا: (فعمله لنفسه).

فائدة اللام:

الجزاءُ لِمن يعمل صالحًا يكون فيه عطاء وفائدة

اللّام في قوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ هي لام التَّخصيص أو لام النَّفع، والمعنى: فنفسه نَفَعَ[1]، فالعمل الصّالح يعود بالنَّفع العظيم على

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 203.

فاعلِه[1]، وآذن التَّعبير باللّام أنَّ الجزاء لِمن يعمل صالحًا يكون فيه عطاء وفائدة، فإنَّ اللّام تُستعمل للمحابِّ والحظوظ[2].

دلالةُ الحذف في جواب الشَّرط:

لمّا كان جواب الشَّرط يقتضي أن يكون جملةً؛ كان قوله ﴿فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ على تقدير محذوفٍ، فإمّا أن يكون بتقدير: فهو لنفسِه[3]؛ ليعود الضَّمير المقدَّر على المصدر المنفهم من الفعل ﴿عَمِلَ﴾، والمعنى: فعملُه لنفسِه، وإمّا أن يكون تقدير الكلام: فلنفسِه عملَ[4]، أو فلنفسِه عَمَلُه، فيكون الجار والمجرور خبرًا لمبتدأٍ محذوف، فهو عمدة لا فضلة؛ ليفيد تقديم الجار والمجرور على الوجهين في التَّقدير معنى التَّخصيص، أي: لنفسه عملُه لا لغيره، والمعنى: لمنفعةِ نفسِه عمِلَ ولحاجتِه لا لمنفعةٍ له سبحانه ولا لحاجةٍ له تعالى اللّٰه عن ذلك؛ ليفيد بلازمه أنَّه تعالى مستغنٍ عن الطّاعة، ولا تضرُّه المعصية، فَمَن أطاعَ؛ فالثَّوابُ لَهُ، ومَن أساءَ؛ فالعِقابُ عَليهِ.

اللّٰهُ تعالى مُستغنٍ عن الطّاعةِ، ولا تضرُّه المعصيةُ، فمَن أطاعَ؛ فالثَّوابُ لَهُ، ومَن أساءَ؛ فالعقابُ عليهِ

نكتةُ اختيار لفظ النَّفس:

عبَّر بلفظ النَّفس عند ذكر الجزاء في قوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾؛ للإشعار بأنَّ نفْعَه مخصوص بها؛ لأنَّ النَّفس أخصُّ ما يعبَّر به عن الشَّخص، كما أنَّ في التَّعبيرِ إيماءً إلى أنَّ النَّفس فقيرة إلى التَّزكية بالأعمال الصّالحة؛ لأنَّها محلُّ النَّقائص، وإذا علم أنَّ عملَه لنفسِه يُكثر منه؛ لأنَّ الإنسان يحبُّ النَّفع لنفسِه بالطَّبع.

النَّفس فقيرة إلى التَّزكية بالأعمال الصّالحة؛ لأنَّها محلُّ النَّقائصِ

دلالةُ إضافة النَّفس للضَّمير:

لمّا كان الضَّمير في قوله: ﴿فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾ يعود إلى ﴿مَنۡ﴾، بما اتَّصف به، أي: بما تعلَّق به من فعل الشَّرط؛ أفاد أنَّ المراد فلنفسِه عملَ صالحًا.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 674.
(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 418.
(3) العكبري، التبيان: 2/ 1128.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 516.

مناسبةُ العطف في قوله: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾:

ليس للإنسان إلّا أن يعمل صالحًا، أو يسيءَ في عملِه، والخيار له، والنَّتيجة يوم القيامة

لمّا قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾، وكان المقام في بيان حال المؤمنين، وحال الكافرين في الدُّنيا والآخرة؛ ناسب أن يعطف عليه قوله: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾؛ لمناسبتهما في كونِهما جملتَين شرطيَّتين وفي الجهة الجامعة، بمعنى: أنَّه لمّا ذكر من عمل صالحًا، وذكر جزاءَه؛ ناسب ذِكر ما يقابله، وهو من أساء مع ذكر جزائِه؛ ليكون الجامع بينهما من قبيل الجامع الوهميِّ؛ لأنَّهما بمنزلةِ الضِّدَّين، فكأنَّ الإنسان ليس له إلّا أن يعمل صالحًا، أو يسيء في عملِه، كما أنَّه ليس هناك إلّا جزاءان، فإمّا أن يكون له المنفعة، وإمّا أن يكون له الضُّرُّ.

براعةُ العدول عن (من عمل سوءًا) إلى ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾:

إذا كان الضَّرر على النَّفسِ يكون بمطلق الإساءة؛ فأحرى أن يكون عليها ما فوقها

عدل عن أن يقول: (ومن عمل سوءًا) - ليكون التَّقابل على وجهه المعروف بمقابلة العمل الصّالح بالعمل السيِّئ - إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾؛ للطائفَ؛ **منها**: أنَّه لمّا قال: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾؛ علَّق الضَّرر على النَّفس بمطلق الإساءة، فدخل في اللَّفظ العمل الَّذي يكون فوق الإساءة؛ لأنَّ تعيين الأعمِّ يتناول الأخصَّ من باب الأحرى، بمعنى: إذا كان الضَّرر على النَّفسِ يكون بمطلق الإساءة؛ فأحرى أن يكون عليها ما فوقها[1]، **والثّانية** هي أنَّه عبَّر بما يؤول إليه العمل، وهو الإساءة، وتقبيحُ المفعول أبلغُ من تقبيح الفعل؛ لأنَّه يستلزمه، **والثّالثة**: هي أنَّه في العدول إلى ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإساءة لا ينبغي أن تُسمّى عملًا[2]، بل ينبغي ألّا تُعمل الإساءة أصلًا، وكأنَّ العمل الَّذي ينبغي أن يكون هو العمل الصّالح فقط، فكان التَّعبير بـ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾ أبلغَ وأوفقَ بالمقام، وقال البقاعيُّ في بيان سبب العدول: "كان قياس العبارة في

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 258.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 180.

جانب الصَّلاح أن يقال: (ومن عمل سيِّئًا)، فأفاد العدول إلى ما عبَّر به مع ذكر العمل أوَّلًا الَّذي مبناه العلم أنَّ الصّالح تتوقَّف صحَّته على نيِّته، وأنَّ السَّيِّئَ يُؤاخذ به عامله في الجملة مِن الله أو النّاس، ولو وقع خطأً؛ فلذا قال: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ﴾"[1].

نكتة التَّعبير بالماضي ﴿أَسَآءَ﴾:

لمّا عبَّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿أَسَآءَ﴾؛ أفاد أنَّ الجزاء يقع عند تحقُّق وقوع الإساءة وحصولِها.

نكتةُ التَّعبير بحرف الاستعلاء:

الإساءة ثقيلةٌ على النَّفس بأذاها وتحمُّل عاقبتِها

من عادة المتقابلات في اللُّغة العربيَّة أن يُعبَّر عن النَّفع باللّام وعن ما يقابله من الضُّرِّ بـ(على)، وهو أسلوب جارٍ في القرآن، وإنَّما عبَّر في جانب الإساءة بقوله: ﴿فَعَلَيْهَاۗ﴾؛ للإشعار بثقل الإساءة وشدَّة تحمُّلها وأذاها على النَّفس، فإنَّ (على) تُستعمل للعلوِّ والقهر[2].

دلالةُ الحذف في قوله: ﴿فَعَلَيْهَاۗ﴾:

دلَّ تركيب الكلام على وقوع الحذف في جواب الشَّرط، والتَّقدير: (فإساءتُه عليها)، لمّا ذكر النَّفس في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ﴾؛ جاء الكلام على مقتضى الظّاهر في الإضمار بعد الإظهار، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾، أي: فعلى النَّفس - الَّتي أساءت - الضَّررُ.

فائدة ﴿ثُمَّ﴾:

مهما طال الأمر فإنَّكم - أيُّها النّاس - إلى ربِّكم تُرجعون فتُحاسبون

في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أفاد التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ تراخي رجوع النّاس جميعًا المؤمنين والكافرين إلى ربِّهم يوم القيامة، أي: مهما طال الأمر؛ فإنَّكم إلى ربِّكم تُرجعون، وليفيد أنَّه بالإمكان الاستزادةُ من العمل الصّالح والإنابة إلى ربِّ العالمين والتَّوبة إليه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 209.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 83، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 418.

بترك الإساءة، كما أنَّ في ﴿ثُمَّ﴾ إيماءً إلى التَّراخي الرُّتبي؛ للإشعار بأهمّيَّة ما بعدَه بمعنى: أنَّ خلاصة الأمر هي في الرُّجوع إلى ربِّكم، فيجازيكم على أعمالِكم الصّالحة والسَّيِّئة بما يناسب أعمالَكم[1].

فائدة ﴿إِلَىٰ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ أنَّ انتهاء غاية رجوع العباد هو إلى ربِّهم.

وجهُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

لما كان لمقصد السورة نظر كبير إلى الرَّحمة؛ إذ تقدَّم ذِكر إحسانِه تعالى على الخلق في تسخيرِه لهم ما في السَّماوات وما في الأرض، وكان الجزاء يوم القيامة على وفقِ إحسانِه وفضلِه؛ عُبِّرَ بوصف الرُّبوبيَّة، فقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، كما أنَّ في التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة استعطافًا للفريقين بالزِّيادة في العمل الصّالح أو بترك السَّيِّئ.

بلاغةُ الالتفات في الآية:

لا يليق لمن يرجع إلى مربّيه والمحسن إليه أن يقابله بالعمل السَّيِّئ

في الآية التفاتٌ وعدول من الغيبةِ في قولِه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ﴾ إلى الخطاب في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾، وسبب العدولِ تقريرُ الاستعطاف والتَّحبُّب إلى عمل الصّالح وترك السيِّئ، وأنَّه لا يليق لمن يرجع إلى مربّيه والمحسن إليه أن يقابله بالعمل السيِّئ، كما أنَّ في الالتفات بطريق الخطاب تسليةً للمؤمنين وترهيبًا للكافرين.

تعيينُ مرجع الضَّمير في قوله: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾:

الحشرُ لجميع العباد

يعود الضَّمير في قوله: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ إلى مجموع من عمل صالحًا ومن أساء؛ ليشمل الضَّمير جميع العباد، وإنَّما عبَّر بضمير الجمع؛ للإشعار بأنَّ الحشرَ يكون لجميع العباد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 343.

الجزاء يوم القيامةِ لا يكون إلّا من الله سبحانه

غرضُ تقديم الجار والمجرور على الفعل:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ على الفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ لغرض القصر، والتَّقدير: إلى ربِّكم وحده لا إلى غيرِه ترجعون، ولمّا أفاد القصرُ حصرَ رجوع العباد إلى ربِّهم يوم القيامة؛ أفاد أنَّ الجزاء لا يكون إلّا منه سبحانه.

رحلةُ النّاسِ في هذه الحياةِ تنتهي بالرُّجوع إلى الله يوم القيامة

بلاغةُ استعمال مفردة الرُّجوع:

لمّا كان الرُّجوع بمعنى العود إلى ما كان عليه في البدء[1]؛ عبَّر بلفظ الرُّجوع في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّكم ترجعون إلى مَن بدأ خلقَكم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الذي يجازيكم، ويحكم بينكم هو الذي بدأ خلقَكم، فأطلقَ على المصيرِ إلى حكم اللّه وقضائه أنَّه رجوع إلى اللّه على طريق التَّمثيل بحالِ من كان بعيدًا عن سيِّده بما كان يعمل في الدُّنيا، فعمل ما شاء أن يعمل، ثمَّ رجعَ إلى سيِّده ومولاه؛ ليلاقي جزاء عملِه[2]، كما أنَّ في اللَّفظ إشعارًا بأنَّ رحلةَ النّاسِ في هذه الحياةِ تنتهي بالرُّجوع إلى اللّه يوم القيامة، وأنَّ الحياة الأخرى هي المنتهى.

بلاغةُ بناء فعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للمفعول:

عبَّرَ بصيغة اسم المفعول ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ لِما يفيده حذف الفاعل من الإبهام المناسب؛ لهول موقفِ الجزاء على الأعمال وشدَّته، فحذف الفاعل هنا؛ لأنَّه معلومٌ للمخاطَب، ولدعوتهم للانشغال بفعل الرُّجوع نفسه بغضِّ النَّظر عن فاعله.

العباد منذ بدء خلقهم هم في حالة رجوع مستمرٍّ إلى ربِّهم بسبب الموت وانتهاء الحياة الدُّنيا

نكتة التَّعبير بصيغة المضارع:

عبَّر بصيغة المضارع في قولِه: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ إشعارًا بأنَّ العباد منذ بدء خلقِهم هم في حالة رجوع مستمرٍّ، كما أنَّ في التَّعبير بصيغة المضارع تصويرًا لحالة رجوعِهم وقتًا فوقتًا، وشيئًا فشيئًا.

---

(1) الراغب، المفردات: (رجع).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 343.

توجيهُ المتشابه اللّفظي:

مناسبةُ كلِّ كلِّ لفظ في القرآن موضعه بما لايناسب غيرَه

جاء في سورة فصِّلت: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت 46]، وجاء في سورة الجاثية: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾، وسبب الاختلاف في الفاصلة بين الآيتين هو أنَّ آية الجاثية جاء قبلها حديث عن منكري البعث، أي: في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، فناسب ختم الآية بالحديث عن البعث والرُّجوع بعد الموت لنيل الثَّواب أو العقاب؛ لأنَّه وصفَ الكافرين بإنكارِ البعث قبلَه، أمّا آية فصِّلت؛ فناسب ختمها بقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]؛ لأنَّه جاء قبلها الكلام عن ظلم الكافرين في إلحادِهم بآيات القرآن وظلمِهم في تكذيبِه، فجاءت الفاصلةُ لبيان جزاء كلٍّ بما يستحقُّ من غير ظلم للّه تعالى لهم، كما أنَّ الختام بنفي ظلمه تعالى هو المناسب لمعنى الآية، بمعنى: أنَّه تعالى لا يُضِيعُ عَمَلًا صالِحًا، ولا يَزِيدُ عَلى مَن عَمِلَ سَيِّئًا[1]، فناسب كلُّ لفظ موضعه بما لا يناسبُ غيرَه.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الكسب والعمل:

التَّعبير بالكسب للإشعار بأنَّ الصَّفح عن أذى الكافرين ممّا يجلب النَّفع للمؤمنين يوم القيامة

الفرق بينهما هو أنَّ الكسب هو ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال، وقد يُستعمل فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلب منفعة، ثم استجلب به مضرَّة، ويكون لنفسِه ولغيره، ويكون الكسبُ بمراسٍ وعلاجٍ مع القصد إلى الكسبِ، ويومِئ لفظُ الكسب إلى عمل الجوارح، وبه سُمّيت جوارح الإنسانِ كواسبَ، كما سُمّي ما يُصاد به من الطّيور والحيوان جوارحَ وكواسبَ[2]، وأمّا

(1) السيوطي، الإتقان: 3/ 350 - 351.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 137، والراغب، المفردات: (كسب).

العمل؛ فهو كلُّ فعلٍ يكون ممَّن عنده حياة، ويكون بقصد[1]، فقد يتحرّى العامل اجتلاب النَّفع من عملِه، وقد لا يكون كذلك، فالعمل أعمُّ من الكسب، وعبَّر بالكسب للإشعار بأنَّ الصَّفح عن أذى الكافرين ممّا يجلب النَّفع للمؤمنين يوم القيامة بإثابتِهم عليهم.

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عمل).

المحتويات

